أوراق شمعون المصري

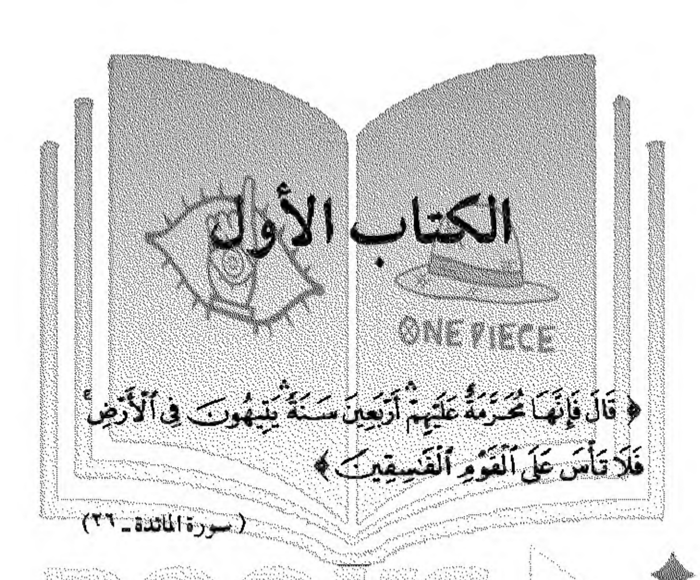
رواية

أسامة عبد الرءوف الشاذلي

الرواق للنشر والتوزيع



الرواق للنشر والتوزيع



الكتاب الأول

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

(سورة المائدة ـ ٢٦)

«أَنَا الرَّبُّ قَدْ تَكَلَّمْتُ. لأَفْعَلَنَّ هذَا بِكُلِّ هذِهِ الْجَمَاعَةِ الشِّرِّيرَةِ الْمُتَّفِقَةِ عَلَيَّ. فِي هذَا الْقَفْرِ يَفْنَوْنَ، وَفِيهِ يَمُوتُونَ».

(سفر العدد: ١٤)

الورقة الأولى

رددت جنبات الوادي أصوات الأبواق التي انطلقت من خيمة الاجتماع فوق جبل «نبو»، تدعو الناس لاستئناف الرحيل، مضت سويعات قليلة، تحركت بعدها جموع الشعب لتقطع الشوط الأخير في الرحلة إلى الأرض المقدسة، الرحلة التي استغرقت ما يقرب من خمسين عامًا، ولم يتبق منها سوى بضعة أيام يعبرون بعدها نهر الأردن إلى أرض الميعاد، حمل زعيم كل سبط من الأسباط رايته وساروا في ترتيبهم المعهود، تقدم بنو (هارون) الركب يحملون تابوت العهد على الأكتاف وينفخون الأبواق بين الفينة والفينة، وقد انسل من ورائهم مئات الألوف من شعب بني إسرائيل، يثيرون خلفهم سحابة من الرمال هي كل ما تبقى من ذكريات عاشوها فوق جبل الأحزان، اختلط حنين النوق وخوار الأبقار ببكاء الرجال والنساء، فلأول مرة يتحرك الركب دون المعلم والمخلص، فقد مات النبي (موسى)؛ مات بعد أن أراه الله الأرض المقدسة أمام عينيه من فوق الجبل الأحمر ثم قبضه إليه، تاركًا الشعب الذي أخفق كثيرًا من قبل وحده، أمام الاختبار الأعظم والامتحان الأهم، لم يدر بخلدهم قط أنه مفارق، ولشد ما جزعهم أن يغادروا منازلهم دون أن يلقوا على نبيهم النظرة الأخيرة، ودون أن يعلموا موضع دفنه، فقد أمر خليفته «يوشع بن نون» بألا يعلمَ أحدٌ موضعَ قبرِهِ، وألَّا يوضعَ على قبره شاهد.

ذابت سحابة الرمال تحت طيات الغمام المتراكبة أسفل السفح، وتبددت

أصوات الجموع أمام صفير الرياح المتسارعة فوق الجبل الموحش، ولم تمض دقائق حتى مالت الشمس إلى الغروب، توكأ على عصاه ثم قام من جلسته واتجه إلى باب الغار الذي آوى إليه طوال شهر مضى منذ وفاة النبي، سار في وهن بظهرٍ أحنته السنون إلى خارج الغار، حمل بيديه المعرقتين كومة من الحطب، أشعلها بصعوبة، ثم جلس يستضيء بنورها ويستدفئ بنارها، امتدت يده إلى صُرَّة من القماش، فتحها ليخرج منها أنيسيه في عمره الذي مضى: الدواة والقلم، تناول لفائفه المصنوعة من أوراق البردي بجهد يشي بحجمها الضخم، تحسست يداه السجل الذي أفنى عقوداً من عمره في كتابته في حنان، ثم فتحه برفق على صفحته الأخيرة، غمس قلمه في الدواة وشرع يكتب بيد أرعشتها سنوات العمر وبرودة الجو:

«وبعد، فهذا ختام ما كتبه (شمعون بن زخاري)، والملقب بشمعون المصري، عن أخبار بني إسرائيل في أرض سيناء، وما كان من أمرهم منذ عبور البحر وحتى وفاة نبي الله (موسى) بن عمران، وأعلم أني ما كتبت في هذا الرقاع إلا أَحَدَ أمرين؛ أمرًا شهدته بعيني أو أمرًا سمعته من رجل من الرجال الثقات، وأُشهد الرب (إيل) أني ما بغيت بهذا الكتاب مجدًا ولا شرفًا، وإنما إظهار شهادتي على جيل من شعب بني إسرائيل، اصطفاه الله وأنجاه بمعجزة من عدوه، ثم غضب عليه وأهلكه في تلك البرية القفراء بعد أن أذاقه شقاء الارتحال ومرارة التيه، هذا كتاب لا أدري من سيكون قارئه، فأيًا من تكن أرجو أن تتذكر كاتب هذه الأبواب بالرحمة وأن تدعو له بالغفران».

شمعون بن زخاري بن رأوبين الملقب بشمعون المصري.

تم في الليلة الأخيرة من الشهر الثامن لسنة ستين بعد الخروج

* * *

الورقة الثانية

لم أكن قد جاوزت السابعة من عمري يوم أن حدث العبور، ومع ذلك ما زلت أذكر بعض أحداث ذلك اليوم بوضوح وكأنى حديث العهد بها، ولعل كثرة الترانيم التي تغنينا بها منذ الصغر تمجيدًا للرب على النجاة من فرعون هي التي جعلت ذكريات تلك الأيام راسخة في وجداني منذ ذلك العهد البعيد، وسأقص ما التصق بذاكرتي عن هذا اليوم، بعيدًا عن ترانيم الصلاة وأناشيد بيت العبادة، فمهما قرأت أنت في صلاتك، فلن تتخيل مشاعر طفل صغير عاش معجزة لم تحدث سوى مرة واحدة على هذه الأرض، إن أول ما أتذكره عن ذلك اليوم هو ذلك الزحام الشديد من الناس الذي جاوز عشرات الآلاف من البشر، أتذكر أيضًا أبي الذي كان يتصبب عرقًا وهو يسحب الحمار الذي يحملني ويحمل أمي بإحدى يديه، وبيده الأخرى يسحب شاة نحيفة هي كل ما استطاع أن يحصل عليه من منزلنا السابق بأرض الجوشن، كان الجو حارًّا قائظًا في ذلك اليوم من أيام الصيف، ولولا غمامة من السحاب ظللت الجموع ورافقتنا طوال الرحلة هلكنا، كنت أشعر بضمة أمي إلى صدرها وكأنها تحميني من عدو تترقبه، وبين الفينة والفينة كنت أشعر بقطرات دموعها تتساقط على رأسي، فجأة اشتد الهرج بالجموع حينما علا صوت رؤساء العشائر يأمرون الناس بالإسراع نحو البحيرة التي تقع عند موضع عند البحر يقال له «فم الحيروث»، رأيت الناس يلقون بأجولة الطحين وأمتعتهم إلى الطريق،

حتى يتسنى لهم الإسراع في السير، أما أبي الذي احتاط لذلك الموقف فقد شق الصفوف بحمولته اليسيرة حتى يكون على مقربة من الصف الذي يسير فيه النبي.

سألته أمي في وجل:

ـ هل سيتبعنا فرعون؟

لم يلتفت إليها وظل مهرولًا في سيره، وقال:

ـ يقولون إنه قد خرج بمركباته من حامية (إيثام).

اشتدت ضمة أمي لي إلى صدرها، وتلاحقت أنفاسها ودموعها وهي تلهج للرب بالدعاء.

اقتربت الجموع من الموضع الذي أمر به النبي، وبدت بحيرة الماء الهادئة وسط الصحراء كمرآة من الفضة تعكس أشعة الشمس. هدأ السير، وتقاربت الصفوف مع اقتراب الجموع من مياه البحيرة، وتعالت صيحات استنكار من بعض الناس:

ـ كيف سنعبر البحيرة؟ هل ستسبح النساء والأطفال والمواشي؟

رأيت الحيرة والقلق على وجه أبي الذي لاذ بالصمت انتظارًا لما سيأمر به النبي، وفجأة علا صراخ في الصفوف الخليفة، نظر الجميع إلى الخلف فرأوا سحابة من الرمال قد غطت السماء، وبدا أن جنود فرعون قد اقتربوا بمركباتهم، علا صراخ النساء، فبكى الأطفال، واشتدت صيحات الرجال:

ـ هيا يا (موسى)! افعل شيئًا، سيدركنا جيش الفرعون!

تطور الأمر إلى لوم وتقريع، وأتت صيحات من بين الصفوف تستنكر الوضع الذي آلوا إليه:

ـ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟

ـ ألم يكن بمصر قبور حتى تدفن بها؟

ـ ألم يكن خير لنا أن نخدم المصريين بدلًا من أن نموت في البرية؟

تزايدت سحابة الرمال وحمل الهواء أصوات سنابك الخيل وصرير العجلات، امتقعت الوجوه، وماتت القلوب بين الضلوع، فجأة جاء صوت الكليم الجهوري يملأ جنبات الصحراء وهو يقول:

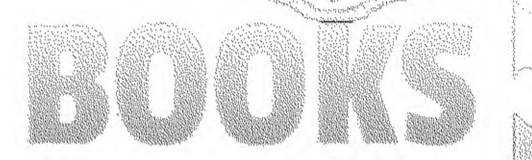
ـ كلا.

ثم لم نلبث أن رأينا العصا تشق الهواء ثم تهبط في سرعة لترتطم بسطح البحيرة، أي معجزة تلك التي لم ير البشر مثلها؟! لم تكد تمس العصا سطح البحيرة الساكن، حتى تقلب ماؤها كقدر يغلي على النار، هَبّت ريح عاتية فاشتد المد على جانبي البحيرة، ثم علا الموج وانفرق الماء إلى فِرقَين عظيمين على جانبيها، بدا الطين اللزج في قعر البحيرة أمام أعيننا كطريقٍ مُعبّد للمرور، وصرخ رؤساء العشائر في الجموع ليسرعوا بالمرور، تدافع القوم مهرولين خشية أن يرتد المد عليهم، أفلت أبي الشاة الوحيدة التي خرج بها من مصر وجذب الحمار الذي يحملنا بقوة كادت أن تُزْلِقَهُ على الطين اللازب عدة مرات، ملأ رذاذ الماء المالح وجهي وأنفي، وشعرت بقوة الريح تكاد أن تقذف بي من فوق الحمار، فتشبثت برداء أمي التي كانت تصرخ فزعًا وهلعًا وأنا أبكي لبكائها، وصل الناس تباعًا إلى الشاطئ الآخر، تساقط الشيوخ من الإجهاد والتعب، وعاون الشباب النساء والأطفال والدواب في الوصول إلى بر الأمان، اقتربت سحابة الرمال بشدة، وصارت المركبات الحربية على مرمى البصر والطريق لا يزال مفتوحًا، رأيت بعيني الجنود فوق العربات يحملون الرماح والأتراس، ويتأهبون للعبور للفتك بنا، تعالت صرخات الشعب الموشك على الهلاك يرجون من نبي الله أن يعيد البحر كما كان، أغمضت أمي عينيّ بعصابة شعرها حتى لا أرى ما سيحدث، ثم أحاطتني بذراعيها، وأدارت ظهرها للبحر وقد استسلمت للموت من قبل أن يأتينا، فجأة سمعنا صوت ارتطام الماء كرعد هزَّ جنبات الصحراء، اشتدت ضمة أمي لي حتى كادت أن تحطم ضلوعي، بكيت من خوف ورعب لما أشعر بهما من قبل، ولكني توقفت حينما سمعت

التمجيد والتهليل من شعب بني إسرائيل، استدارت أمي ورفعت العصابة عن عيني، فرأينا البحر المتلاطم الذي أطبق على جيش الفرعون، وقد طافت على سطحه عربات الجيش المحطمة، وأتراس الجند الغرقى، لم تترك الأمواج منهم أحدًا، حتى الخيل والبغال، هلكت مع الجنود والفرسان.

وبينما كان الناس يتعانقون فرحًا، ألقت الأمواج بقبعة أحد الفرسان إلى الشاطئ، فقمت من مجلسي مسرعًا، وذهبت نحو القبعة فالتقطها ثم ارتديتها، غاصت رأسي في القبعة، حتى أخفت عيني، ضحك أبي وأمي، وانتزعها أحد أقراني من فوق رأسي، فهرولت خلفه وانتزعتها منه، ولقد ظلت تلك القبعة رفيقتي لسنوات بعد ذلك، ولعلها كانت سببًا في أن يطلق عليّ أقراني في الصبا لقب «شمعون المصري» كلما رأوها معي. فضلًا عن أنني كنت الطفل الوحيد من بني إسرائيل الذي حظيَ بأم مصرية.

* * *



الورقة الثالثة

الليلة هي الليلة الثالثة بعد الخروج وهي ليلة الاحتفال والشكر، كان القمر بدرًا منيرًا، والسماء الصافية تتلألأ بالنجوم، وكأنما انقشعت غيومها، وسكنت ريحها خشوعًا لأصوات الترانيم التي شقت هدوء الليل في تلك البقعة المباركة من صحراء سيناء، أُضيئت وجوه القوم بالحبور والفرح، ولم تجد مريم أخت (هارون) حرجًا في أن تمسك الدف وتنقر عليه بيدها نقرات أيقظت الفرح في القلوب وهي تقول:

ـ انشدوا للرب، افرحوا وارقصوا، اجعلوا الوحوش في البرية تعلم أن الرب إله إسرائيل قد قضى على فرعون إله المصريين!

تبارى الغلمان والفتيان في النقر على الدف وضرب الصنوج، وأنشدت بعض الفتيات أناشيد أثارت البهجة في النفوس، ثم وزعت صحاف الطعام، وأكل الشعب من الخبز ولحوم الذبائح التي أُعدت من قرابين الاحتفال بالخروج، فقد قَدّم كلّ سبط من الأسباط في صباح ذلك اليوم قربانًا للشكر؛ كبشًا أَقْرَنَ، وصحنين كبيرين أحدهما مملوء بالدقيق، والآخر مملوء بالزيت، وعشرة أعواد من البخور، ذُبِحت الأكباش على مذبحٍ من الحجر، وصُنِع الخبز من عجين غير مُخمّر من الدقيق والزيت، ثم أقيمت المأدبة على رائحة البخور المباركة، فأكل الناس، وامتلأت البطون بعد الجوع، وسكنت النفوس بعد القلق.

أما اليومان التاليان فقد قضاهما الشعب في جهد وتعب، فقد حصرت كل

قبيلة ما لديها من أغنام وأبقار وحبوب وطحين، ثم قسم المجموع بالتساوي على القبائل الاثنتي عشرة. ثم لم يلبث الرجال أن خرجوا للبحث عن المياه، وبعد جهد مضني لم يجدوا سوى بئر ماء وحيدة كانت مصدر الحياة لآلاف الأنفس منهم الشيوخ والنساء والأطفال.

واحتمل الناس نقص الطعام ولكنهم لم يصبروا على شح الماء، تزاحموا على البئر ونشبت بينهم المشاحنات والمعارك، وأسفر الزحام عن بغضي، نال أمي نصيب منه.

استيقظت ذات صباح على صوت بكائها، ولمست من حضني على كتفيها التي اضطربت حروفها من الغضب وهي تقول لأبي:

- أجبتك زوجتك على مرافقتي وسمعت من الشقاء... زوجها، كان أكرم لي أن أظل بين أهلي في مصر.

أمسك بيديها وقال مهدئًا من روعها:

- هل أنت بين أهلك وقومك.

اشتد بكاؤها وقالت:

- غادرت جنات مصر إلى تلك الصحراء القاحلة، وكدت أموت أنا وطفلي عرقًا فداء لديني، وفي النهاية أرُدُّ عن البئر، ثم تُعيرني تلك الأفعى (تقصد عمي باتشيفا) بأنني مصرية! ما الذي يجعلها أفضل مني عند الرب؟!

ضمها أبي إليه فألقت برأسها على كتفه باكية، مسح على رأسها في رفق وقال:

- والله إنك أفضل منها عند الرب، ألم يقل نبي الله (موسى) أن كل من آمن بالرب، وجاء بقلب تقي يكن الرب حليفه؟ وهل هناك من هو أتقى منك قلبًا يا (رومانا)؟! دعي أمر (باتشيفا)، ولا تلتفتي إلى حديثها، فإن (باتشيفا) إن لم تجد من تكرهه كرهت نفسها!

والحقيقة أن حديث البئر هذا جعلني أدرك منذ الصغر أني مختلف عن الآخرين، وجعلني أدرك كذلك أن كثرة الخضوع والذلة لا يورثان قلب المرء

شفقة وعطفًا، وإنما يملأ قلبه غلظة وقسوة، واستكبارًا على من هم دونه. ومهما يكن من شيء، فإن قصة أبي وأمي كانت ترنيمة حُبٍّ تناقلها الناس لعقود حتى بعد وفاتهما، فمن ذا الذي لا يعلم بقصة الحب التي جمعت بين «زخاري» النجار والجارية المصرية «روماناه»؟

اسمها يرادف في قلبي الحب والعطاء، ويعني في لغة قومها «المرأة المُحبة»، كانت جارية في منزل السيد النبيل (بينو) في مدينة لا يفصلها عن قرية أبي سوى نهْر صغير يتفرع عن نهر أعظم يشق أرض مصر اسمه النيل، ورغم قرب المسافة بين المكانين إلا أن الفارق بينهما كان شاسعًا، فشتان ما بين الحي الفقير ذي المنازل الحقيرة الذي كان يسكنه أبي شرقي اليمّ، وبين المدينة الثرية التي تقيم بها أمي غربي اليمّ، كان أبي يعبر اليمّ يوميًا مع أقرانه من بني إسرائيل بالمراكب، فيعملون في أعمال البناء مع شروق الشمس ثم يعودون إلى مرتعهم قبيل الغروب مقابل الطعام، كان أبي آنذاك شابًا قويًا في العشرين من عمره، يتقن عمله كنجار، ويبدع فيه كفنان أخذ طلب النبلاء والأغنياء لصنع أثاث منازلهم من الأرائك وصناديق الملابس، وذات يوم أمره ملاحظ العمال بأن يصنع أثاثًا لمنزل السيد النبيل (بينو) في المدينة الجديدة، كان السيد (بينو) رجلًا طاعنًا في السن، لم يرزق بالأولاد، ويحيا مع زوجته العجوز في منزلها الفسيح، وعلى غير عادة النبلاء في ذلك الوقت كان الرجل كريمًا عطوفًا، لا يكره بني إسرائيل، ولا يقسو عليهم، فكان يجزل العطاء لأبي ويستدعيه يوميًا للعمل في المنزل، بعيدًا عن أعين ملاحظ العمال البغيض الذي يكره بني إسرائيل.

وشاء الرب أن يجمع القلبان النقيان على الحب، فأحب الشاب العبراني «زخاري» الفتاة المصرية الغيداء «روماناه»، واحتضن منزل السيد (بينو) ذلك الحب حتى نما وترعرع وصار عشقًا بين القلبين اليافعين، وشعر جدي لأمي، والذي كان يعمل كبيرًا للخدم بمنزل السيد (بينو) بما تشي به اللمحات والنظرات بين الشابين العاشقين، فخشي أن تتزوج ابنته بالشاب القادم من وراء اليمّ، وذات صباح طرق أبي الباب للدخول، فطالعه وجه جدي من خلف الباب قائلًا:

ـ قد أتانا ملاحظ العمال بنجار جديد، فخذ من حيث أتيت!

ومزّق المشرق قلب أبي، اعتكف في داره أياماً لا يريد أن يخرج، وزهد في الطعام والشراب، وتمنى لو يخرج من أرض مصر، تلك الأرض التي لم ير فيها سوى الذل والخضوع وفراق المحبوب، ولم يدم الأمر طويلاً، فقد سرت الأنباء بأن (موسى) بن عمران من سبط لاوي قد عاد إلى مصر بعد أن هرب منها لسنوات وأنه قد بُعث نبيًّا إلى بني إسرائيل، وأن الرب قد أرسله وأخاه (هارون) إلى فرعون ليرسل معهما بني إسرائيل، وتبدل الحال في بر مصر، وجرى على ألسنة الناس أن ساحرًا من العبيد أتى الذين يتحدى الفرعون، وأن يوم الاحتفال بالجلوس على العرش سيكون يومًا فارقًا في حياة هؤلاء العبيد، فإما أن يأذن لهم الفرعون بالخروج، وإما يقمعهم عن آخرهم!

وتحدثني أمي عن ذلك اليوم فتقول:

ـ خرجنا من منزل السيد (بنر) عند الصباح فشققت طريقي بين صفوف الجماهير التي احتشدت منذ الصباح الباكر لرؤية السحرة، فقد كان همهم أن يروا من سيكون الغلبة، أما أنا فقد كان همي أن أرى (زخاري) للمرة الأخيرة، فقد كنت أشعر بأني لن أراه مرة أخرى في جميع الأحوال، فلو أذن الفرعون لبني إسرائيل بالخروج فلن أراه، ولو هُزم (موسى) أمام السحرة فلن أراه، وصلت إلى مقدمة الصفوف بعد جهد مضنٍ، ورأيته يقف مع شعب بني إسرائيل على الجانب الآخر، رآه قلبي قبل أن تراه عيناي، وشعرت برهبة ذلك اليوم العظيم من نظرات عينيه الشاخصة إلى السماء، لم أفق من هيامي إلا مع صراخ الناس حينما رأوا عصي السحرة وهي تتلوى كالثعابين، وكدت أسقط فاقدة النطق، حينما رأيت عصا (موسى) وهي تلقف ما صنعوا، ساعتها أدركت أن (موسى) هو نبي الله، وساعتها دعوت رب بني إسرائيل أن يجمعني بمن أحببت.

وظل الفراق قائمًا بينهما إلى أن جاء يوم حملت فيه الرياح الغربية المحملة بالرمال أصوات النواح والبكاء إلى أرض الجوشن، فقد انتشر داء الدمامل والبثور بين الناس ولم يعرف الكهنة له دواءً، كان لا يمر اليوم حتى يعلو العويل

في بيت من البيوت، ثم تبحر المراكب إلى البر الغربي من النيل حاملة جثامين الموتى معها إلى مستقرها الأبدي. واستبد القلق بأبي، وانفطر قلبه خشية أن يكون الداء قد أصاب (رومانا)، ولم يهدأ له بال حتى عبر النهر ويمم شطر منزل السيد (بينو)، وهناك اشتم رائحة الموت حول المكان، طرق الباب بأصابع مرتجفة، ففتحت له (رومانا) وهي باكية ثم قالت:

- خطف الموت السيد (بينو)، قل لنبي الله (موسى) أن يدعو الرب أن يرفع عنا البلاء.

فاطمأن أبي وإن اشتعلت لوعة قلبه عليها حتى أن علم بإيابها، ورآه جدي فنهره عن العودة. قال له أبي صادقًا بصوت تملكه الفجيعة، وترجاه أن يزوجه من أمي. فمن أن الساحر الغاضب! لكنه لم يخف من الرجل العجوز آفاق صاعقة، وعاد أبي إلى قريته كسير النفس محطم الفؤاد، وفي مساء اليوم التالي علا الصراخ في البر الغربي وربما أن الوعيد قد تحقق، وبكى أبي بكاء مرًّا، وقد أيقن أنه قد فقد حبيبته لا محالة. أفاق من بكائه على صوت طرقات على باب داره، مسح دموعه ثم فتح الباب. فإذا بجدي واقفًا بالباب ومعه أمي تحمل صرة من قماش بها بعض الملابس. قال له جدي:

- لا أخشى وعيد الساحر، ولكني أراك صادقًا في حب ابنتي.

وهكذا تزوج (زخاري) النجار من (رومانا) المصرية في السنة الثامنة قبل الخروج.

• • •

الورقة الرابعة

استمعت اليوم إلى صوت البوق للمرة الأولى في حياتي، تردد صداه في أرجاء التلال بشدة، فهرولت إلى خارج الخيمة لأحضر أطفال العشائر وقد وقفوا ينظرون بدهشة إلى تلك الآلة العجيبة المصنوعة من قرن ثور، والتي تخرج منها الصوت مدوياً مرتجاً كأنه صرخة مارد تملأ الفضاء، تعلمت يومها أن صوت البوق يعني الاستعداد للرحيل إلى مكان آخر.

تحرك الركب من (إيليم) قبل زوال الشمس، عبرت القافلة كثبان الصحراء من جهة الجنوب، لم نسلك الطريق المعتاد للقوافل في الشمال؛ خوفاً من حاميات الفرعون القائمة هناك، فلا شك أن وعورة الطريق أهون علينا من الوقوع في أسر المصريين مرة أخرى.

آه يا «برية سين»! كم طويتِ في ثراك من ذكريات من الأمل والألم؟ سألت أمي ذات يوم لماذا يسمونها «برية سين» فأجابتني بأنها أرض الإله «سين» إله القمر. وإنما سميت بهذا الاسم تيمناً بهذا الإله الذي عبده بدو الصحراء لينير لهم الطريق في تلك الصحراء المخيفة، وليكون لهم أنيساً في لياليها المظلمة.

كانت كل أسرة تسير تحت لواء السبط الذي تنتمي إليه، كنت أنا وأبي وأمي والعمة (باتشيفا) نسير خلف راية سبط (رأوبين)، أما زوج عمتي (باتشيفا) فرغم أنه من قبيلة (شمرون) فإنه فضَّل أن يسير معنا خلف راية رأوبين، وكان الناس من عشيرتنا يمازحونه قائلين:

- ما خطبك يا (شامري)؟ زوجناك من عشيرتنا أملاً في أن ترحل عنا (بانتسفا)، فإذا بها تزرعك بيننا، وتنزعك عن (شمرون) انتزاعًا!

فكان لا يبادلهم المزاح، بل يكتفي بالرد عليهم بابتسامة هي أقرب إلى الامتعاض يعزوه صلف في طبعه، واعتداد بنفسه أمام الآخرين. وكنت لا أعرف لزوج عمتي هذا اسمًا سوى لقبه (الشامري) نسبة إلى مسقطه شمرون، ولعل بني رأوبين كان ينادونه بذلك اللقب ليذكروه دائمًا بأنه دخيل عليهم، وعلمت من أبي أنه كان أحد الكارهين للخروج من مصر، فقد كان نحاتًا ثريًا في مدينة [illegible]، ينحت من أحجارها تماثيل [illegible]، فتحملها المراكب عبر النيل إلى المعابد في طول مصر وعرضها.

أسلمتنا شمس المغيب إلى قمر البرية الفضي المكتمل [illegible] على رمال الصحراء، فبدت حبات الرمال كأحجار الفيروز المتلألئة [illegible]، ونسمات الليل الباردة تجبر الناس على إشعال النيران في الليل من أجل التدفئة، وفي تلك الليلة جلس أبي وزوج عمتي أمام خيمتنا، ومعهما بعض الرجال من بني إسرائيل، وقد التفوا حول جمرات النار المشتعلة. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها (قورح)، و(قورح) هذا هو ابن عم نبي الله (موسى)، رجل مهيب الطلعة، أنيق الثياب، وأحد الأثرياء الذين ذاقوا رغد العيش في مصر، ومثله مثل (الشامري) كان من الكارهين للخروج، رغم قرابته لنبي الله (موسى).

أثارت النسمات الهادئة وطقطقات الجمرات ذكريات ليست ببعيدة عليهم، فكم من مرة تجمعت فيها تلك الصحبة دون والدي في منزل (قورح) المقام على شاطئ النيل في مصر، لحدث رجل اسمه (داثان) فأثارت كلماته مشاعرًا كانت قد استقرت في خبيئة أنفسهم منذ أن خرجوا من أرض الجوشن، فكشفوا عنها الغطاء، ولم يجدوا غضاضة في أن يبوحوا بها أمام والدي، الذي كان حتى هذه اللحظة غريبًا عنهم، قال (داثان) وهو يحرك يديه فوق كومة الجمرات:

- أشتاق إلى منزلي في أوفاريوس. تداعب أنفي رائحة أشجار الليمون والبرتقال في ليالي تموز.

تنهد (قورح) وقال في حنين:

- ومن منّا لم يترك قطعة من قلبه في مصر.

قال رجل بدين اسمه (أبيرام):

- أما أنا فأشتاق إلى طعامها، فقد سئمت معدتي اللحم واللبن! أين رائحة الخبز؟ أين قدور العدس الساخنة مع قضمات البصل اللاذعة؟

ضحك الرجال، ونظرت إلى (السامري) وكأن قد حان دوره ليبوح بسر في لعبة الذكريات، صمت الرجل لحظات ثم قال:

- أما أنا فأشتاق إلى (آبيس)؟!

الجمت كلماته الألسنة، ورأيت الاستنكار على وجه أبي، ولكن الرجل تابع حديثه في هيام العاشق:

- كم تشتاق يداي إلى أن تصوغا من الطين تمثالًا له. أو أن تنحتا من الحجر رسمًا له، كم أشتاق إلى نظرات الإعجاب في عيون أهل مصر الذين لم يصدقوا أن رجلًا من بني إسرائيل قد فاقهم إبداعًا.

تنهد ثم قال وكأنه يحدث نفسه، ويجيب أسئلة تدور في رءوسهم:

- كنت أنتشي حين أرى الجباه تنحني أمامه، لم أكن أرى في سجودهم عبادة له، وإنما احترامًا وتبجيلًا لصنعة يدي.

لم يُعقّب أحدٌ على ما قاله في حين نظر (داثان) إلى أبي وقال له:

- وأنت أيها الشاب، ما الذي تفتقده في مصر؟

رأيت الجِدّ على وجه أبي وهو يقول:

- لم أترك فيها ما أحِنُّ إليه، فقد خرجت منها بمن أحب: (زوجتي) و(ابني). ولا أتذكر فيها إلا فقرًا عشته، أو ذلًّا عانيته.

لم ترق حماسته إلى (أبيرام) الذي فقال ساخرًا:

- ما زلت يافعًا أيها الشاب، وعذرك أنك لم تعش في مصر أيامًا كان أهل مصر يقتسمون فيها طعامهم مع جيرانهم من بني إسرائيل.

رد أبي مدافعًا:

- رأيت من عطف السيد (بتاح) ومن زوجتي المصرية (روماثا) ما يشفع لي حداثة سني، وما بكره المصريين أشكو، بل أحدث عن إذلال الفرعون لنا، فأي عار قد حل بنا وقد كنا نبني لهم المعابد ونصنع لهم تماثيل الآلهة! ونحن أحفاد (إبراهيم) و(إسحق) و(يعقوب)؟!

عبس وجه (السامري)، في حين لاذ (داثان) وأخوه بالصمت. ومضت لحظات من الصمت قطعها (قورح) بقوله:

- قل لي أيها التاجر الشاب: لأي شيء تركت صنعتك وبيتك؟

أجابه أبي:

- لأمر الرب.

قال (قورح):

- بل قل لأمر (موسى)! لقد عاش آباؤنا في تلك الأرض منذ أن هاجروا إليها مع يوسف وإخوته، ولم يأمرهم الرب بالخروج.

قال أبي:

- هكذا قال السيد الرب: ندخل الأرض المقدسة، ونرث الأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا.

ضحك (قورح) ساخرًا ثم قال:

- اللبن والعسل؟! هذا ما غرّ به (موسى) أمثالكم ليصنع لنفسه ملكًا.

ثم أردف:

- لعلك تعلم أيها التاجر بالمثل القائل «لا تعد بصنع الصندوق قبل أن

تقطع الخشب من الشجرة». وهذا ما فعله (موسى) بكم، وعدكم بالأرض المقدسة التي تفيض لبنًا وعسلًا وهو لا يعلم الطريق إليها.

ثم قام واقفًا وقال:

- لو أن هناك أرضًا تفيض لبنًا وعسلًا فهي تلك الأرض القابعة خلف ذلك البحر، وسيأتي يوم يندم فيه بنو إسرائيل أن تركوها في سبيل أمل كاذب!

رد عليه أبي وهو يقوم من مجلسه أيضًا ويستعد للانصراف:

- لو ملأ الإيمان قلوبكم لرأيتموه كما أراه، فحيث الرب إيل، إني لأرى الأرض المقدسة المثلى قبل أن أراها بعيني!

ثم انصرفوا كل من طريقه، وقد تركوا في نفسي سؤالًا ظل يحيرني بعدها لسنوات: لماذا هذا الصراع الدائم ما بين العقل والإيمان؟

* * *

قطعنا اليوم الثاني في صعوبة بالغة، فقد كانت الأرض قاحلة لا ينبت فيها إلا بعض الكلأ والعشب الذي يكفي بالكاد لإطعام الأغنام والماشية، كانت حصص الماء أن تنفد، ولم تعد ألبان الماشية التي جفت ضروعها وهزلت شحومها من قلة المرعى وشح المياه قادرة على سد الجوع وري الظمأ، توقفنا عند «دفقة» ثم «ألوش» وفي كل مرة كان بعض الرجال يتفرقون في الصحراء ينقلون أبصارهم ما بين السماء والأرض، علهم يبصرون سحابة حبلى بالغيث، أو عين ماء تروي ظمأ الشعب الجهد من الارتحال.

وفي اليوم الثالث وبينما كان العطش يبلغ ببعض الناس مبلغه لمح أحدهم صومعة فوق إحدى قمم الجبال يحيط بها بضعة منازل خشبية، ويقبع على مقربة منها بيتٌ من الحجر، توقف المسير، وصعدت مجموعة من الرجال إلى صومعة الجبل لعلهم يجدون فيها من يرشدهم إلى عين ماء قريبة، كانت الصومعة خالية من البشر، وبدا أنها مخزن لأحجار الفيروز، وأن المنازل المحيطة بها هي منازل عمال المناجم بتلك المنطقة، طرق الرجال أبواب المنازل فلم يجدوا أحدًا، يمموا

شطر البيت الحجري، وهناك وجدوا العمال في صحن البيت وقد عكفوا على صنم هائل على شكل بقرة عظيمة تحمل بين قرنيها كرة من ذهب، وعلى الجدران رُسِمَتْ صور أخرى لامرأة فاتنة لها قرنان، ويبرز من جسدها الأغصان التي تظلل على الناس وتسقي الظمآنين. علمت من أمي فيما بعد أنها كانت الإلهة (حتحور) ربة الحب والحنان، ورمز العطاء والنماء عند أهل مصر.

انتظر الرجال حتى فرغ العمال من صلاتهم، ثم سألوهم عن عين ماء قريبة، فأجابوهم بما زادهم يأسًا:

- لم نزل عاكفين على ربة الحنان منذ شهور، فلم يسقط علينا المطر.

عاد الرجال محملين باليأس والقنوط، وسرعان ما تحول ذلك اليأس إلى تذمر في نفوس الناس بعد أن شعروا بتزايد المحنة دون بارقة أمل، وتساقط البعض في براثن الريبة، قالوا: هذه أرض الإله (آمون) والإلهة (حتحور)، ولن يسقط المطر إلا برضائهم، فلماذا لا يجعل لنا (موسى) آلهة كما لهم آلهة؟ وتهكم الشامتون منهم والكارهون للخروج، قالوا: عشنا أربعين عامًا في مصر، نتقي زخات المطر بسعف النخيل، ونغترف الماء من تحت أقدامنا، وها نحن نموت عطشًا في برية سين.

ووصلت تلك الكلمات إلى أبي، فلم يزد عن قوله:

- إنهم قوم يجهلون.

وفي اليوم الرابع كنا قد اقتربنا من وادي رفيديم، كنت أمتطي ظهر الأتان وخلفي أمي تتأرجح على ظهره تكاد تسقط من الإعياء، أما أبي فكان يسير إلى جوارنا يتظاهر بالتماسك، وتفضحه خطواته الثقيلة وجفناه اللذان تهدلا من شدة التعب والإجهاد، والحق أنهما لم يتذوقا الطعام أو الماء منذ تركنا «إيليم»، فقد كانا يؤثراني بما تجود به الشاة من لبن، وكان نذرًا يسيرًا، وسقطت أمي من فوق ظهر الأتان فتلقفها أبي قبل أن ترتطم بالأرض، وأراح رأسها على الرمال، كان لونها شاحبًا وقد غارت عيناها وتشققت شفتاها، ابتسمت في إعياء وقالت:

- يبدو أنها نهاية رحلتي يا (زخاري).

دلك يدها براحتيه وقال لها:

- تماسكي يا أم (شمعون) فقد وصلنا إلى رفيديم

قالت في وهن:

- كم كنت أشتاق إلى رؤية الأرض المقدسة.

قال لها في يقين:

- ستريتها يا نعمة القلب فمن أنجانا من فرعون لن يهلكنا في البرية، ثم عصر على شفتيها بعضا من الماء المتبقي، وأسقاها رشفة من اللبن، ثم حملها مرة أخرى فوق ظهر الأتان.

وصلنا إلى "رفيديم" قبل حلول المساء، نظر الناس إلى الوادي الفسيح فلم يجدوا جدولاً ولا بئراً، بلغ بهم الغضب مبلغه، علت صرخاتهم على (موسى):

- لماذا أتيت بنا إلى ذلك الوادي؟ هل جئت بنا لتهلكنا؟

رأيت الخوف على وجه أبي وسمعته يلهج بالرجاء إلى الرب إيل، وتعلقت عيون الصالحين بالنبي الذي ترك الجمع وصعد باتجاه الجبل، خشعت الأصوات فلا صوت إلا دقات القلوب، وهمس الأنفاس، وتعلقت الأبصار بعصا المعجزات التي حملها النبي في يده عندما ارتفعت العصا في السماء، ثم هبطت في قوة فوق الصخرة الصلدة فإذا بالماء يتفجر من بين ثنايا الحجر كالبركان، تتابعت الينابيع الواحدة تلو الأخرى، اثنتا عشرة عينا تتدفق منهن المياه عذبا رقراقا وكأنما يصبه ملك من السماء، قفز الناس في المياه وسبحوا في الينابيع فرحا، شربوا وارتووا بعد المشقة والحرمان، وبينما كان أبي يصب الماء فوق رأسي فرحا تذكرت قوله «إن من أنجانا من فرعون لن يهلكنا في البرية»، وأدركت على صغري أن الإيمان والعقل قد لا يجتمعان أحيانا!

* * *

الورقة الخامسة

«روهيم» اسمٌ يعني بلغتنا «الواحة»، ولا أدري إن كان هذا الاسم قد أطلق عليها من قبل أن نطأها أم إنه اسم ابتدعه من حينها، والحق أن الأيام الأولى التي قضيناها في ذلك الوادي الفسيح من أسعد الأيام التي قضيناها في سيناء وأكثرها راحة على الإطلاق، في الحول الأول جمع الرجال الحجارة، ثم قاموا ببناء الأبنية وطلوا جدرانها بالطين والجص حتى لا يغيض الماء في الرمال، ورغم ذلك وجد بعض الماء طريقه بين الشقوق فتلقفته بذورٌ عطشى اختبأت بين طيات الثرى بمنأى عن أيدي الرياح العاتية فنبت العُشب والكلأ ونمت بضع شجيرات من الطلح والأراك ونبات العوسج، وقام بعض الزُّراع المهرة بنثر بذور العوسج في الرمال وسقوها بمياه الآبار فلم تمض أسابيع حتى نبتت تلك البذور، ثم استطالت إلى شجيرات بلغ طولها الذراعين، واكتنزت ثمارها الحمراء اليانعة بعصيرٍ حلو المذاق وكأنه العسل المصفّى.

ووجد أبي ضالته في شجر الغاب، وصارت بينه وبين أعواد الخوص ألفة، فكان يجوب الواحة في النهار يجمع أغصان الخوص الخضراء، ثم ينزع عنها لحاءها ويتركها لتجف في أشعة الشمس، ثم يأخذ العيدان الجافة فيطوّعها بيديه ويجدلها معًا ليصنع منها السلال والصناديق، وبرع أبي في تلك الصنعة وعلمها لي ولأمي، فكنا نقضي الأيام والليالي نجدل الحبال ونحيك الأغصان معًا، حتى تجمع لدينا الكثير من السلال والصناديق، حملها أبي إلى سوق النزل

وقايضها بالسمن واللبن، فامتلأت قدورنا بالطعام وتحسنت أحوالنا بعد الفاقة والجوع.

واستطاع أبي أن يصنع لنا كوخًا من أعواد البوص تميز عن باقي الخيام في النزل بالدفء والسعة، وأثثه بسرير من الغاب كنا ننام عليه معًا، وتباهت أمي مفتخرة على نساء السبط، ولم تخف فخرها به أمامهن وبالأخص أمام العمة (باتشيفا)، فالمرأة بفطرتها لا تنسى الكيد لها، حتى وإن كانت تحمل قلبًا عطوفًا مثل (رومانا)، كنت أرى الحب رفيقًا رائعًا لنا في كوخنا الجميل، فقد كان أبي يبذل ما في وسعه لإسعاد أمي، يحوطها بعطفه وحنانه، ويعوضها عن فقدان الأهل بالمودة والتدليل، أحضر ذات يوم عودًا سميكًا من البوص، ثم شذبه وثقبه، وتركه في الشمس حتى جف، سألته حين انشغل به:

- ما هذا يا أبي؟

قال مبتسمًا في حماس:

- اسمه ناي! ستسعد أمك به.

وحين قدمه إلى (رومانا) بكت من الفرحة، فقد كانت أمي تحسن العزف على الناي مثلها مثل أي جارية مصرية نشأت في منزل أحد النبلاء، أمسكت أمي بالناي وهمست في طرفه بشفتيها ثم داعبت أناملها الثقوب، فإذا بالنغمات تخرج كأنها تسابيح طير، تهب للجماد روحًا وتضفي على حياة الصحراء دفئًا وشجونًا، وحمل النسيم صوت الناي في أرجاء الحي فصارت النساء يفدن إلى منزلنا في كل ليلة، ليسمعن نغمات (رومانا) الساحرة.

وبعيدًا عن الكوخ الذي أظلته الطمأنينة والرضى، وبعيدًا عن أبي الذي كان يستقبل الحياة الجديدة بقلب عامر بالإيمان، كان هناك صنفٌ من بني إسرائيل ينظرون بأسف إلى حياة مضت، يتربصون في قلق لما ستسفر عنه أيام الارتحال ويضجرون بالشكوى عند أي حادثة، استيقظتُ ذات صباح على جلبة عالية في ساحة السوق التي تتوسط النزل، امرأة من سبط «أفرايم» كانت تقايض رجلًا

من سبط «زبولون»، صاعًا من الدقيق مقابل قدح من السمن، رأى الرجل صاع الدقيق فسال لعابه، فقد نفد الدقيق من المنزل بأكمله منذ أن غادروا «إيليم»، ومرت شهور بأكملها لم يذق فيها أحد طعم الخبز أو الفطير، تتبع الرجل المرأة إلى خيمتها وتربص بها لحظات غفلت فيها عن الخيمة، ثم دخل وسرق قدرًا مملوءة بالدقيق، كان من الممكن ألا تعلم المرأة وزوجها هوية السارق لولا أن فضحته رائحة الخبز التي تصاعدت من خيمته في كل ليلة، فجمع زوج المرأة رجالاً من عشيرته وذهب إلى الرجل في خيمته يريد أن يسترد دقيقه أو ما يقابله، وكادت معركة أن تنشب بين رجال السبطين في الساحة، واستغل المرجفون والحاقدون تلك الواقعة مشعلين نارها، ووقف (داثان بن أليآب) بينهم قائلاً:

- علام تتقاتلون؟ على صاع من دقيق! لبئس ما جنيتم من خروجكم وراء (موسى).

ثم قال شقيقه (أبيرام) [illegible]:

- ليتكم متم بيد الرب في أرض مصر! إذ كنتم تجلسون على قدور اللحم وأواني الخبز تأكلون منها حتى تشبعون.

نكس الرجال رءوسهم، ثم نفثوا متذمرين وقال أحدهم:

- صدقتما فقد أخرجنا (موسى) إلى هذا القفر كي يميتنا جوعًا!

كان (يوشع) فتى (موسى)، يقف غير بعيد يستمع إلى ذلك الحديث ويشعر مثل أبيه بأن نارًا توشك أن تشتعل وعليه أن يطفئها، لم يجادل الرجلين ولا أخاه، بل خاطب الناس بحكمة تفوق عمره، ذكرهم برحمة الرب التي أحاطت بهم وبالمعجزات التي أجراها الرب على يد نبيه من أجل شعب إسرائيل فقال لهم:

- يا قوم! لا تتعجلوا الشكوى والسخط عند أول نازلة تحل قريبًا منكم! وتذكروا أن من أخرج لكم الماء من بين ثنايا الحجر، قادرٌ على أن يطعمكم من فوقكم ومن تحت أرجلكم.

استخف الناس بكلام الفتى، وقال (داثان) في سخرية:

- ها قد أرسل لنا (موسى) غلام سبط (لاوي) كي يمن علينا بنعيم سيده الزائف.

ثم صرخ في غضب هادر:

- اذهب يا غلام إلى سيدك وقل له إن الناس قد أوشكت أن تأكل الرمال بدلًا من الطحين.

وكأنما جمعت كلماته الصارخين، وألفت بين قلوبهم، فقالوا في صوت واحد:

- بل نذهب نحن إليه!

ولم تمض لحظات حتى أحاط الثائرون بخيمة النبي، تتعالى صيحاتهم الناكرة، غير ناظرين أن تخرج إليهم المشايخ الذين اجتمعوا بموسى وهارون فيه وبعد وقت طويل، خرج المشايخ من الخيمة صامتين، انتظر الناس أن ينطق أحدهم بما قاله (موسى)، ولكنهم لزموا الصمت إلى أن خرج (يوشع) من الخيمة. وكأنما أمرهم (موسى) بألا يتكلم أحد غيره.

قال يوشع:

- يا بني إسرائيل! يقول لكم نبيكم في المساء ستأكلون لحمًا طريًا، وفي الصباح ستشبعون خبزًا حتى تعلموا أن الرب إلهكم يرعاكم.

لم يصدق الرجال ما قيل لهم، ولكنهم لم يجدوا بُدًا من أن ينتظروا حتى الغروب، فانصرفوا إلى خيامهم، على أن يجتمعوا في الساحة مرة أخرى قبل الغروب.

كانت الشمس قد غابت في الأفق ولم يتبق منها سوى شفق أحمر تسلل سناه من فوق رءوس الجبال، فألقى بظلاله على الوادي الفسيح. اكتظت الساحة عن آخرها بأبناء الشعب، ووقف أبي وبعض المؤمنين من الرجال والنساء ليشهدوا آية أخرى من آيات الرب.

كنا في أواخر الخريف ومع ذلك لم تشعرنا الريح الساكنة ببرودة الجو المعتادة

في ليالي شهر آب، ومع اختفاء آخر ضوء الشفق هبت ريحٌ من جهة الشمال، شعرنا معها بالإثارة والترقب، ومع اشتداد الريح سمعنا صخبًا يملأ الفضاء وكأنه زقزقات مئات العصافير، وفجأة هبطت على الساحة مئات الطيور! كانت طيورًا بُنيَّة اللون منقوشة الريش لم ير شعب إسرائيل مثلها من قبل، كان الطائر يحط على الأرض فلا يرتفع حتى يمسك به الرجل من بني إسرائيل، وكأنما يبذل الطائر نفسه طاعةً لأمر الرب، وهلل أبناء الشعب ويمجدوا الرب الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

وبينما كانت اللحوم تنضج في القدور، وضياء النار يتعانق ورائحة الشواء ودخان الطهي، نادى منادٍ في أرجاء النزل:

- يا بني إسرائيل إن نبي الله (موسى) يقول لكم: كلوا من سلوى الرب، ولا تدخروا منها لحمًا في بيوتكم، وليأخذ كل إنسان كفاية يومه فإنه يأتيكم في كل ليلة، إلا يوم السبت فإنه لا يأتيكم.

وقضى الناس ليلة من الدفء والشبع، نام فيها الجوعى ببطون هانئة، أثقلت رؤوسهم فلم يستيقظوا لرؤية الآية الأخرى، أما أنا وأبي وقليل من الناس فقد استيقظنا قبل شروق الشمس كي نشهد الآية التي وعدنا بها الكليم. سألت أبي:

- كيف سيهبط علينا الخبز من السماء؟

قال أبي وهو يشخص ببصره إلى السماء:

- إذا تعلق الأمر بالرب فلا تسأل «كيف».

انحسرت دجى الليل أمام أشعة الشمس المنبثقة من خلف الجبل، وتكثفت حبات الندى على أوراق الشجر وعلى الأرض الفسيحة في منتصف النزل، وارتفعت الشمس رويدًا رويدًا ومع ذلك لم تر علامات لنزول خبز الرب. طال الانتظار حتى شعر الناس بالملل وكاد بعضهم أن ينصرف، ولكن فجأة علا هتاف الأطفال وهم يشيرون إلى رقائق بيضاء غطت الأرض والأشجار بعدما تبخرت قطرات الندى، كانت الرقائق تبدو كقطع البَرَد الصغيرة، امتدت

يدي إلى إحداها وتذوقتها فوجدتها كالخبز المحلى بالعسل، فهتفت

ـ ما أحلى خبز الرب يا أبي!

وتهافت الرجال والنساء على الرقائق، حتى أيقظ ضجيجهم من في المنازل، فهرول الناس من خيامهم إلى الساحة، وتسابقوا على جمع الرقائق في القدور، فإذا بصوت (يوشع) يرتفع مرة أخرى وهو يقول:

ـ يا بني إسرائيل! يقول لكم نبيكم كلوا مما «منّ» به الرب عليكم، ولا تدخروا منه في قدوركم، فإنه يأتيكم كل صباح إلا يوم السبت فإنه لا يأتيكم.

ولم يشعر بنو إسرائيل من بعد ذلك بالجوع أو العطش فقد كان يأتيهم «المنّ» في الصباح و«السلوى» في المساء، والمياه من فوق رءوسهم ومن تحت أرجلهم كما قال لهم (يوشع بن نون) من قبل.

● ● ●

الورقة السادسة

الأيام التي لا تنسى شيئًا، والحي الطويل منها معتق في ضمير الزمن بكل تفاصيلها، وحينما نتذكرها نعيش أحداثها مرة أخرى وكأنها حاضرة أمامنا رأي العين. في ذلك الصباح خرج أبي إلى ساحة السوق ليقايض بضاعته بينما استضافت أمي صديقتها المقربة إلى قلبها (سولاف) وابنها الصغير (سيحون) في كوخنا الصغير. جلست (سولاف) على أرجوحة صنعها أبي من جذوع الأرز، وإلى جوارها جلس الطفل (سيحون) الذي يصغرني بسنوات قليلة يعبث في ثمرة عوسج كبيرة، يلطخ بعصيرها وجهه وملابسه، كان الطفل غريب الأطوار، كثير الصراخ، تتشنج أطرافه ويصرخ كلما حاولت والدته أن تأخذ منه ثمرة العوسج أو أن تساعده في أكلها، علمت فيما بعد أن (سيحون) هذا هو الطفل الوحيد الذي نجا من الموت في أحشائها، فقد كانت الأجنة تموت في رحمها قبل أن تلدهم.

رأيت في عيني والدته نظرات الاعتذار والأسى وهي تقول لأمي:

- لم يفلح معه التداوي ولا القرابين، وقد سئم أبوه الحياة معنا.

قدمت إليها أمي قدحًا من المرق المذاب في اللبن الساخن، وكانت تلك الوجبة إحدى أفكار أمي المتعددة في الطعام، ثم قالت لها:

- وما ذنبك أنت في ذلك يا (سولاف) حتى يسأم (أشكول) من الحياة معكما؟ إنه عطية الرب لكما.

قالت حزينة:

- ليتني لم أتزوج (أشكول) يا (رومانا)، أجبرتني أمي على الزواج به إرضاء لشقيقتها وهي تعلم أن أخاه كان مصابًا بذات الداء، ومات صغيرًا في مهده.

واستها أمي قائلة:

- تلك مشيئة الرب يا (سولاف)، ولا تسيئي الظن يا صديقتي، فقد كان (أشكول) متيمًا بك.

قالت متهكمة:

- صدقتِ، كان متيمًا بي! أما الآن فلم يعد كذلك.

ثم حبست دمعتها وهي تقول:

- تدفعه أمه للزواج من أخرى، وقد أخبرني خادمي أنه دائم التردد على منزل في سبط دان.

ربتت أمي على كتفها وقالت:

- لا تحزني يا (سولاف) سيجعل الرب لك فرجًا.

ثم قالت ملطفة:

- ألن تتذوقي هذا المزيج الذي صنعته، لقد كاد اللبن أن يبرد؟!

رشفت (سولاف) منه رشفات فاستطابت طعمه، ثم قالت ممتنة:

- ما أروعك يا (رومانا)! لم أجد في بنات إسرائيل من تحمل قلبًا رقيقًا مثل قلبك، وما زلتِ تبدعين في العزف والطعام حتى غارت منك نساء النزل أجمعين.

ضحكنا من القلب، واستأنفنا الحديث لبعض الوقت، ثم استأذنت (سولاف) للانصراف، فقد كانت خيمتها في طرف النزل من جهة الجبل، ولعلها اختارت ذلك المكان حتى تنأى بطفلها الدائم الصراخ عن باقي سكان النزل.

وفي المساء أيقظنا صوتٌ ينادي علينا من وراء الكوخ:

- يا أهل الدار! يا أهل بيت زخاري النجار!

استيقظ أبي من نومه، ثم استيقظتُ أنا وأمي، خرج أبي من الكوخ ليستطلع الأمر، فإذا به (أشكول) زوج (سولاف) يقف مرتعشًا من البرد ويبدو عليه القلق، دعاه أبي للدخول من البرد، ولكنه اعتذر شاكرًا وقال له:

- معذرة يا رب الدار، ولكني أتساءل: هل تبيت عندكم زوجتي (سولاف) وولدي (سيحون)؟!

انقبض قلب أمي وقالت ملتاعة:

- لقد انصرفا منذ الصباح!

بان اليأس والحزن على وجهه فقال:

- لم أجد لهما أثرًا في المنزل كله، وكنتم أمل الأمل الأخير

وفي الصباح شاع خبر الاختفاء في المنزل، وخرج بعض الرجال للبحث عن المفقودين، فسارت مجموعة منهم في اتجاه الوادي، بينما صعد أبي و(أشكول) وبعض قصاصي الأثر إلى الجبل، وقبل أن ينتصف النهار عاد الرجال من الجبل محملين نبأ عظيم أصبح مضجعنا وزلزل الحياة في «رفيديم»، فقد خطف «العماليق» (سولاف) وذبحوا ولدها (سيحون).

* * *

كان يومًا عصيبًا اختلط فيه الحزن بالألم، في الصباح شُيعت جنازة الطفل (سيحون) ثم دفن في الصحراء في حفرة في الرمال، وحسبما أذكر فإن (سيحون) كان أول قتيل لبني إسرائيل أسمع عنه، وكانت جنازته أول جنازة أراها أيضًا، فأنا لم أشهد جنازة أخرى قبل ذلك اليوم، ولم تكف أمي عن البكاء على صديقتها (سولاف) طيلة ذلك اليوم، وتمزق قلبها حزنًا على ولدها المسكين، أما أبي فقد مكث اليوم بأكمله في منزل العم (أشكول) يتلقى العزاء معه في الولد الفقيد، ويشارك باقي الرجال في أداء الصلوات والتسابيح، ورغم الحزن والبكاء والانهماك في الصلاة والدعاء، وجد الرجال متسعًا من الوقت للحديث عن ذلك الخطر القابع خلف الجبل، ودارت بينهم أحاديث ملأت القلوب هلعًا

من هؤلاء العماليق، كان العماليق شعبًا بدويًا، يتجول في الصحراء ويسكن الجبال والوديان، يمتهنون الصيد والحرب، ولا يتورعون عن قطع الطريق وسلب الغنائم والقوافل، استفاض الشيوخ في ذكر مثالبهم، ومزجوا الحقيقة بالخيال والروايات الصادقة بالأساطير. فقالوا إن الواحد منهم يناهز طوله شجرة الأرز، وإنهم يأكلون أكباد أعدائهم حتى تمكن الرعب من القلوب وشعر الناس بخطر شر يقترب، وبدا أنه لا سبيل إلى النجاة منه إلا بمعجزة يجريها الرب على يد نبيه كما أجرى الكثير من المعجزات على يديه من قبل.

وقبل المساء عاد أبي إلى الكوخ وفي صحبته العمة (باتشبا)، كانت الصرامة بادية على وجه العمة العجوز، ويبدو أنها قد بدأت حديثًا مع أبي بالخارج وأرادت أن تكمله داخل المنزل. ألقت بجسدها الثقيل فوق الأريكة الأرز التي أتت عبد الها تحت وطأة الجسد الهول، رمقت أمي الباكية بناظريها ولم تلق عليها تحية المساء، ولم تكن أمي في حالة تسمح لها بتحمل غلظة عمتي وفظاظتها، فجففت دموعها وتركت الكوخ دون استئذان أو تحية.

رمقتها عمتي بغير اكتراث ثم قالت لأبي:

- قد حل شؤمها على كل من عرفها، حتى صاحبتها المقربة لم تنج من فألها السيئ.

بدا الغضب على وجه أبي، ولكنه لم يفصح عنه، خشية لسان عمتي السليط، واكتفى بقوله متبرمًا:

- دعي عنك أمر (روما) يا (باتشبا)، فيكفيها ما في قلبها من أحزان، أنبئيني بما عزم عليه الرجال في «راوبين».

قالت:

- أما سمعت بما يدور في التل؟ قد تربص بنا الشر خلف ذلك الجبل، وقريبًا يُغير علينا شعب عماليق لا محالة.

قال أبي في غير اكتراث:

- علمت بالأمر، ونبي الله بين أظهرنا، ولن يضيعنا الرب.

قالت مقاطعة - تريد أن تفاجئه:

- لن يكون بين أظهركم، فقد عهد (موسى) لفتاه (يوشع) بجمع الرجال والخروج لحرب عماليق، وقد أخبر شيوخ الأسباط أنه لن يخرج هو وأخوه (هارون) للحرب.

فوجئ بقولها، فصمت قليلًا ثم قال:

- ما دام قد أمر الرب بهذا، فسمعًا له وطاعة.

احتدت قائلة:

- أما تدري من هم العماليق؟ لو سمعت ما قاله الرجال، لامتلأ قلبك بالرعب.

قال أبي متبرمًا:

- وماذا تريدين مني يا (ماشيفا)؟

قالت وقد أخفضت صوتها قليلًا:

- غدًا قبل شروق الشمس ستخرج عيرٌ من الخيل يركب فيها كبراء القوم من «شمعون» و«رأوبين»، وستتجه شمالًا إلى «الوغل». وسنأخذ معنا ما يكفي من الطعام والشراب فنمكث فيها عدة أيام، فإذا انتصر (يوشع) عدنا إلى التل، وإن هزمه عماليق هربنا شمالًا إلى «برية سين»، ومنها إلى «إيليم» ثم إلى مصر. ولا تقلق فمعنا دليلٌ يعلمُ الطرق في الصحراء!

فغر أبي فاه وقال مشدوهًا:

- تعودون إلى أرض مصر؟! هل اشتقتم إلى ذل الفرعون وعذابه.

قالت مدافعة:

- بل اشتقنا إلى الأمن والطمأنينة! فماذا جنينا من الخروج مع (موسى) سوى أن صرنا مطاردين، يُتخطّف الناس من بيننا، وتذبح نساؤنا وأطفالنا كالخراف، ثم يأمرنا (موسى) بعد ذلك بالقتال!

قال مستنكرًا:

- هل حسبتم إن كتب عليكم القتال يا بني «شمرون» و«رأوبين» ألا تقاتلوا؟

قالت متهكمة:

- والله لو نعلم قتالًا لاتبعناه، ولكننا قومٌ لا نعرف سوى الزراعة والتجارة ولا قِبل لنا بحرب العماليق.

تأفف من حديثها، وقال:

- بئس ما تقولين يا (باتشيبا)! رأيتم معجزات الرب بأعينكم، ثم تتولون عنها، وحق الرب إيل إنكم جاحدون!

يئست منه صفني فقامت في خفة أزاحت معها أحزانها، وقالت:

- قد أخبرتك يا بن أبي بما عزمنا عليه! فإن شئت خرجت بنا عند طرف النزل قبل الشروق، وإن شئت مكثت في حضن حظيتك المصرية. وأرجو ألا يصلني نبأ مصرعكما عما قريب!

• • •

الورقة السابعة

وفي الأيام التالية استعد الشعب لحربه الأولى، جاء كل بيت في القتال بكل ما يصلح أن يكون سلاحًا في الحرب، امتلأت ساحة القتال بالحراب والسهام والسيوف والقوس والبلطة والسكاكين، وشحذ في همة وصنع وحده عشرات الحراب والسهام والأتراس من الأغصان الخشبية، وتعاون مع الحدادين في صنع الأتراس والدروع لتقيهم ضربات العماليق، وأمر نبي الله فتاه (يوشع) بأن يصنع أبواقًا من النحاس كي ينفخ بها الجنود حين يبدأ القتال، حتى يعلم العماليق أن بني إسرائيل أكثر قد صار لهم نفير.

دقت طبول الحرب، وخرج الرجال للاصطفاف في ساحة القتال استعدادًا للمسير. ارتدى أبي سترة من جلد البقر، وتمنطق بحزام تدلت منه بلطة مشحوذة، وعلق على كتفه قوسًا وكنانة بها عشرات السهام الخشبية، احتضنته أمي طويلًا، وودت ألا تفارق حضنه لولا أن أزاحها برفق وهو يقول:

- قد حان وقت الرحيل يا (روماتا)، فإما احتفال بنصر، وإما لقاء في الجنة.

بكت كثيرًا، وبكيت أنا لبكائها، فاحتضنني أبي، وقبلني في رأسي قائلًا:

- لا تبك يا فارس «رأوبين»، فالرجال لا يبكون.

تذكرت شيئًا كنت أنوي أن أهديه له، فنزلت أسفل السرير، وأحضرت قطعة الفارس المصري التي فلقتها الأمواج عند العبور، أعطيتها له فارتداها مبتسمًا وقال:

- أعدك أن أحافظ عليها حتى أعود.

ثم قبلني وانصرف.

والحق أن ما سأذكره الآن لم أشهده بعيني، ولكنني سمعت أبي يقصُّه على مسامع أمي بكل تفاصيله فشعرت وكأني أرى ساحة الحرب أمامي رأي العين.

خرج الجيش من وادي «رفيديم» وسار الأسباط جميعًا خلف راية واحدة حملها الشاب (كالب بن يفنه) من سبط «يهوذا»، بينما سار في المقدمة قائد الجيش الشاب (يوشع بن نون) من سبط «إفرايم». جاوز الجيش جبال «رفيديم» قبل حلول المساء، ثم عسكر الجنود في أرض فسيحة لا تبعد كثيرًا عن أرض العماليق حتى انبلج الصباح.

وفي الصباح وصل نبي الله (موسى) وأخوه (هارون) وزوج أخته (حور)، فخطب في القوم، وحثهم على الصبر والجلد، ثم صعد ثلاثتهم إلى رأس التلة، ورفع (موسى) يده بالعصا إلى السماء، فهلل الناس، وصاح (يوشع) في الجنود:

- يا بني إسرائيل! هذا نبي الله ينظر إليكم، وهذي عصاه التي أنجاكم بها الرب من فرعون باسقة في السماء، حتى تعلموا أن الرب يرعاكم، والله لا تهبطن تلك العصا من يد الكليم إلا وقد هزمنا عماليق وشعبه.

وامتلأت السماء بصرخات التكبير، ودقت الطبول، وعلت صيحات الرجال، واشتعلت الصحراء بحماس لا مثيل له، ولم تمض لحظات حتى امتلأت السماء بالغبار، وسمع الرجال طرق العماليق لأتراسهم بنصال السيوف، وأصوات أقدامهم التي تزلزل أرض الصحراء، فصاح (يوشع) في جنوده:

- اثبتوا أيها الرجال، فأي ما يأتي من خلف تلك الكثبان فنحن قاتلوه بإذن الله

وانقشعت سحابة الرمال وبان جيش العماليق، وأدرك شباب بني إسرائيل أن شيوخهم قد خدعوهم أعوامًا طويلة، وأن ما رواه الشيوخ عن العماليق كان وهمًا وخيالًا! لم يجدوا مسوخًا تطاول قاماتها أشجار الأرز، ولم يجدوا وحوشًا تأكل لحوم البشر وأكبادها، وجدوا فقط فرسانًا يمتطون الخيول،

ومشاة يترجلون ويحملون السيوف والأتراس، وكان ذلك كفيلاً بأن يستنفر به الرجال من بني إسرائيل، فصرخ (يوشع):

ـ الآن يا بني إسرائيل! رجل برجل، وترس بترس، وسيف بسيف!

والتحم الجيشان كالموج المتلاطم، تكسرت النصال على النصال، واخترقت السهام القلوب والحناجر، شجت الرءوس بالفئوس، وبقرت البطون بالحراب، واختلطت صيحات القتال بصراخ القتلى وأنات المجروحين. كل هذا ورسول الله فوق التلة يشهر عصاه في السماء فيراها كل من بساحة القتال من بني إسرائيل، فتشتعل قلوبهم بالحماسة، ونفوسهم بالثقة في وعد الرب.

ومالت الشمس إلى المغيب، وأدرك شعب عماليق أنهم هالكون لا محالة، فألقوا أسلحتهم وأتراسهم، وفرت فلولهم هاربة إلى ديارهم، وتبعتهم جنود (يوشع)، ورأى أبي العم (أشكول) يقفز على ظهر فرس، ويعدو به خلف الفلول الهاربة، فامتطى أبي فرساً آخر وتبعه يبحث (أشكول) يسابق الريح بفرسه، علّه يصل إلى ديار العماليق، فيجد زوجته (سولاف) ما زالت حية.

ودخل جيش (يوشع) ديار العماليق دخول الفاتحين، تساقط أمامهم رجال العماليق كالذباب، وأشعل العماليق النيران بمنازلهم، حتى لا يسكنها بنو إسرائيل، ثم فرت نساؤهم هاربة، تاركة أموالهم وأمتعتهم غنيمة لجيش (يوشع) المنتصر، والتحم (أشكول) المنازل والدروب كالمجنون، يبحث عن زوجه المخطوفة في كل ركن ودرب، وأخيراً وجدها تختبئ في ركن آمن بعيداً عن أعين الفرسان وألسنة النيران، فما أن رآها حتى هرول نحوها، وحملها من محنتها وضمها إلى صدره في قوة، فاختلطت دموعهما ودقات قلبيهما، وقالت وهي تبكي مرتجفة:

ـ قتلوا ولدنا (سيحون)، ذبحوه أمام عيني يا (أشكول).

احتضنها أكثر وقال في صوت يلهج بالبكاء:

ـ حمداً للرب أنك ما زلت حية، حمداً للرب أنك ما زلت حية

ثم ألقى (أشكول) سيفه ورمحه، وحمل زوجته وخرج مبتهجًا وهو يقول:

- اشهدوا يا بني إسرائيل، اشهدوا يا شعب إيل، قد حارب (أشكول) العماليق وأعاد زوجته المخطوفة إلى ديارها.

وبينما كان يتخطى فرحًا، انطلقت حربة غادرة تشق طريقها في الهواء في سرعة، ثم شقت صدره، لتقضي على فرحة قلبه المكلوم، وسط صراخ زوجته، وأمام عيني والدي المذهول.

* * *

وعاد المحاربون محملين بالغنائم وفرحة النصر تغمر الناس، وتعالوا وابتهلوا، اتصلت أنفاسهم بالسماء، وملأت تسابيحهم جنبات الوادي وهم يرددون:

مجدوا الرب في السماء...

مجدوا الشعب في البرية...

هزم (يوشع) عماليق بحد السيف...

وهذا يهزمهم من دور إلى دور.

وأقام (موسى) مذبحًا للرب في وسط النزل لم نشهد مثله من قبل، وساعد أبي في صنعه من خشب السنط، كان ارتفاعه ثلاث أذرع، وعرضه خمس أذرع، وله غطاء من النحاس، توضع عليه الذبيحة، ثم توقد النار أسفلها حتى ينضج لحمها، ولم تنطفئ نار المذبح لأسابيع عديدة بعد ذلك اليوم كي نُقدِّم القرابين شكرًا للرب على ذلك النصر الكبير.

ورغم الفرحة التي كانت تعم أرجاء النزل، كان الحزن يخيم في كوخنا الصغير، فبعد أن عادت (سولاف) من أرض العماليق لم تنزل في خيمها، ولا في دار زوجها المقتول، بل طلبت أن تمكث عند صديقتها (روماللا)، فاستضافتها أمي في كوخنا، فكانت تبيت إلى جوار أمي، بينما كنت أبيت أنا وأبي في عريشة صنعها لنا وألحقها بالكوخ.

ومرت الأيام والحزن والسواد لا يفارقان (سولاف)، ذبل حسنها، وشحب

لونها، بعد أن عزفت عن الزاد، وكانت لا تخرج من الكوخ إلا لقضاء الحاجة، وتصوم عن الكلام إلا من همهمات يصدرون عنها من حين إلى آخر ثم يتبعها بكاء حار وكأنها تذكرت ولدها وزوجها القتيلين، فتضمها أمي إلى صدرها، تواسيها وتدعو لها بالصبر والسلوان.

وطال بقاء (سولاف) في بيتنا حتى جاء وقت استشعرت فيه الحرج وطلبت من أمي أن تعود إلى حيها، ولكن أمي رفضت وأصرت على أن تبقى (سولاف) إلى جوارها، ثم أوحت أمي إلى أبي بأن يقيم لـ(سولاف) كوخًا في حينا، تمكث فيه وحدها وتكون تحت رعايته فاستحسن أبي الفكرة، وشرع في بناء الكوخ وبأنيه وحاد ذات ظهيرة ليأخذ (سولاف) إلى كوخها الجديد.

واستعادت (سولاف) بعض الحياة في الكوخ الجديد رويدًا رويدًا، وشعرت بالامتنان لصديقتها الوفية، وزوجها المخلص، فما كان لا يمر اليوم دون أن تمكث أمي معها بعض الوقت، تحدثها إليها في شؤون النساء، وتهديها من ثيابها، ومن طعامها، أما أبي فقد كان يرعاها بأكثر مما كان يفعل زوجها الراحل (أشكول)، يحضر لها قدر اللبن في كل صباح، ويأتيها بنصيبها من طائر السلوى عند المساء، وقد يمر على كوخها في منتصف النهار ليملأ لها جرار الماء من البئر أو ليعطيها قدحًا من السمن أو اللبن.

ويومًا بعد يوم، تبدل الحال بالأرملة الثكلى، فخلعت السواد، وصارت أكثر إشراقًا وإقبالًا على الحياة عن ذي قبل، والحق أن العمة (سولاف) كانت امرأة جميلة، تشع بياضًا، وكأنها سقيت بشرتها بلبن، أما عيناها فكأنتا في زرقة البحر قبل الغروب، ويلمع شعرها المتموج فوق رأسها كخيوط من الذهب، تنسدل إلى كتفيها سلسة بغير جدائل ولا تصفيف، كنت أرافق أبي في عمله ذات يوم، وعند الظهيرة حمل جرتي الماء الفارغتين إلى البئر فملأهما بالماء، ثم خلع قميصه حتى لا يبتل، وحمل الجرتين الثقيلتين على طرفي عصا أسندها على كتفيه العريضين، وسار بهما إلى كوخ العمة (سولاف)، استقبلتنا العمة (سولاف) مرحبة وشاكرة، وخيل إلي أنها قد أرخت أهدابها فوق لحظيها خجلًا

حين رأت صدر أبي العاري، ولكنها اختلست النظر إلى ظهره حين مال كي يضع الجرتين على الأرض داخل الكوخ. انبعث داخل الكوخ رائحة طعام شهي، وبدا أن العمة (سولاف) كانت توقد النار على طعام تطهوه. أثارت رائحة الطعام شهيتي. فسألت العمة:

- ماذا تطهين؟

ضحكت ضحكة مشرقة أبدت جمال ثنيتيها وقالت:

- هل أنت جائع يا (شمعون)؟

قلت مسرعًا:

- نعم، إني أتصور جوعًا وأبي يريد أن نستمر في العمل دون طعام.

تحرّج أبي مما قلته فوكزني في مؤخرة رأسي بخفة وقال:

- ألم تكبر على ذلك؟ لم يبق أمامنا سوى ساعة من العمل نعود بعدها إلى الكوخ.

قلت محتجًا:

- إني جوعان، ولا أستطيع العمل دون طعام.

أشفقت عليّ العمة (سولاف) وقالت:

- قد فرغت من طهو الطعام يا (زخاري)، أمكثا برهة من الوقت لتأكلا شيئًا.

شكرها أبي ورفض متحرجًا...

ولكنها أصرت قائلة

- إن بيتي أقرب إليكم من بيت (رومانا)، وحرامٌ أن يعمل (شمعون) في الحر وهو جائع.

فلم يجد أبي بدًا من أن يرضخ لدعوتها أمام إلحاحي وإصرارها.

وكانت تلك المرة الأولى التي اجتمع فيها أنا وأبي والعمة (سولاف) على مائدة طعام وحدنا، ولكنها لم تكن الأخيرة، فقد تكرر الأمر بعد ذلك أكثر

من مرة، وفي كل مرة كانت العمة (سولاف) تتفنن في إعداد المائدة بأصناف من الطعام تفوق سابقتها، حتى صرت أترقب تلك المرات التي نأكل فيها عند العمة (سولاف)، شيء ما لم أكن أفطن إليه في تلك السن الصغيرة، وهو لماذا تتزين العمة (سولاف) وتبدو أكثر إشراقا وجمالا حينما تدعونا إلى الغداء في بيتها، ولا تبدو كذلك حينما تأتي إلى منزلنا؟

وفي ليلة قمرية من ليالي شهر أيار، استيقظت فزعا من نومي على صراخ أمي (روماتا) وهي تلطم خديها بكفيها، وتبكي بكاء أشبه بالعويل، فقد أخبرها أبي برغبته في الزواج من العمة (سولاف).

• • •

الورقة الثامنة

وفي الليلة التي بنى فيها (زخاري) بزوجته الجديدة (سولاف)، كنت أنا وأمي نبيت وحدنا في الكوخ للمرة الأولى منذ زواجه، جلست (رومانا) على أريكة الأرائك، وقد أحاطت ركبتيها بذراعيها، انكمشت على نفسها كطفل يرتعد خوفًا من الظلام، حدقت في الفراغ بعينين لا تطرفان وكأنها تصفح لوحًا سطرت عليه ذكريات سنواتها الفائتة، ومضت أشعة القمر المتسللة عبر فرجات الجدار على دمعة تحجرت على مقلتها البرعة ثم انسابت على وجنتها في هدوء يحترم صمتها الحزين. كنت أتظاهر بالنوم وأنا أتطلع إليها مفطور القلب، لم أفهم سبب جرحها، ولكني كنت أراه يدميني، تسللت من فراشي في هدوء، وجلست إلى جوارها مسست يدي بيداها، فوجدتها باردة كالثلج، قبلت يدها وقلت لها في براءة:

- لا تخافي أنا إلى جوارك.

فاحتضنتني، ثم أجهشت ببكاء محموم.

كان الوقت بين عتمة الليل والسحر حينما سمعنا طرقًا خفيفًا على باب الكوخ وجاءنا صوت أبي مناديًا في رفق:

- يا أم (شمعون)!

مسحت أمي - التي كانت لا تزال متيقظة - دموعها على عجل واعتدلت

في جلستها. أما أنا فقد انتبهت من غفوتي على حجرها وقمت مسرعًا لأفتح الباب. تلقفني أبي في حضنه. ودخل بي إلى الكوخ. أضاء شمعة أنارت الظلام. ثم نظر إلى أمي في عطف وإشفاق. أشاحت بوجهها عنه. وارتفع أنفها في شمم ليخفي انكسار عينيها اللتين تورمتا من شدة البكاء. قال أبي في صوت ما بين الخجل والاعتذار:

- كيف حالكما؟ لم أحتمل الانتظار حتى بزوغ النهار.

لم ترد عليه. فتقدم منها ثم قبل رأسها في رفق وقال معتذرًا:

- سعدت بلقائها [illegible]

انسالت دموعها غصبًا عنها وقالت:

- هل فتحت له بابًا ودعوته للدخول؟

قال في صدق:

- كنت أكرمها لأجلك.

قالت مؤنبة:

- وهل تزوجتها لأجلي؟!

همهم في حنو:

- تزوجتها على شريعة الرب.

قالت مستنكرة:

- لا يحل الرب الخيانة.

قال متعجبًا:

- الزواج خيانة؟!

قالت باكية:

- وأشد منها الغدر مع الصديقة.

قال متراجعًا أمام دموعها:

ـ أخبرتك قبل أن أتزوج بها!

قالت باكية:

ـ كمن أخبر القبيح متى يحين موعد ذبحه!

ثم أجهشت في حرقة، فاقترب منها ومسح رأسها في رفق ثم قال:

ـ هوني عليك يا أم (شمعون)، فقد تزوج أبونا (إبرام) من جارية مصرية على أمنا سارة، وتزوج (إسرائيل) من راحيل على أمنا ليا، وتزوج أبي من أمي على أم (ياتنيها)!

لم ينقطع بكاؤها فضمها إلى صدره وقال:

ـ هادني عليها إن كنت أرغمتها من قبل، أما فهي من أهلك يا أم (شمعون)، ومن يدري لعل الرب يمدك بالصديقة أحقًا، تكون لك عونًا في يوم من الأيام.

ولم يتخلف أبي عن المبيت في كوخنا منذ تلك الليلة، ومرت الأيام وتعلمت منها أن الأحزان لا تدوم، وأن الحروب مهما طالت لا بد لها من الختام، وأن الهموم التي تولد كالجبال لا تلبث أن تجرفها موجات النسيان، كصخر ينحر في شاطئ من الرمال، فلا يتبقى منه سوى ذرات تعلق في الماء!

وبعد أسابيع أتت العمة (سولاف) لزيارة والدتي فلم تقابلها، ثم عاودت الزيارة ثانية، فقابلتها ولكنها لم تحادثها، ثم كانت الثالثة في وجود أبي فتباكيا وتعاتبا واحتملت زلات أمي الغاضبة ثم افترقا، وقد تجددت بينهما شعرة من الود سرعان ما صارت حبلًا وصل ما انقطع بينهما من قبل، وأصبح مجلس العمة (سولاف) في دارنا ممتدًا طيلة النهار، تعاون أمي في أعمال البيت وتطهو معها الطعام فإذا انتصف النهار جمعتنا جميعًا مائدة واحدة نأكل عليها ونشرب، ونتبادل الحكايات والضحكات، حتى إذا مالت الشمس إلى المغيب استأذنت هي للعودة إلى كوخها فتبيت في وحدها بينما نبيت نحن في كوخنا الدافئ الجميل كما كنا نفعل في الأيام الخوالي.

والحق أن العمة (سولاف) كانت شديدة الامتنان لأمي، وشديدة الرضى

كذلك بحياتها الجديدة معنا، لم ينْؤها أن تكون حياتها فرعًا لأصل، ولم تشك يومًا وحشة المبيت في الكوخ وحدها، كان يُرضيها أن تنعم بدفء الحياة بيننا وأن تلقى الرعاية من رجل عطوف كأبي من بعد وفاة زوجها (أشكول)، وظل الأمر كذلك إلى أن جاء يوم تحركت في أحشائها علقةٌ منه، أعادت إلى أذهانها ذكريات من الحزن والألم كانت تتمنى ألا تعينها مرة أخرى، فقد تذكرت مرات حملها السابقة، وأصابها الهلع من أن يقضي رحمها يمسخ كما كان يحدث من قبل، أو أن يأتي طفلها إلى الدنيا مريضًا كما كان ولدها (سيحون)، ومرت الأيام عليها ثقيلة بطيئة، وأصابها الحمل والهم بالضعف والهزال، فظلت في كوخها منسية وحيدة تترقب الأيام كمن يترقب سيلاً للنجاة.

• • •

وعادت العمة (باتشيفا) وزوجها (الشامري) إلى النزل بعد غياب دام عدة أسابيع، كنا قد ظننا أنهما قد رحلا إلى أرض مصر لا سيما بعد أن طالت مدة غيابهما، ولكنهما رجعا مرة أخرى إلى النزل محملين بالخزي والعار وعاطين بنظرات الشماتة والاستهجان من سكان الحي خاصةً من الشباب الذين شاركوا في الحرب ضد العماليق.

واصطحبني أبي لزيارة العمة (باتشيفا) وزوجها (الشامري)، استقبلتنا العمة بوجه مرهق يعلوه الشقاء، وقد بدت أكبر عمرًا من وجهها الذي خرجت به منذ أشهر، ملأ جسدها ركن الخيمة بينما جلس زوجها في الطرف الآخر، يمسك في يديه قنينة من الزجاج الملوّن استخرج بها حفنة من الرمال بمقدار قبضة اليد يقلبها بين يديه في اهتمام ويتأملها في شرود أذهله عنا.

قال أبي بعد لحظات ليقطع الصمت الثقيل:

- حمدًا للرب على سلامتكما يا (باتشيفا).

همهمت شاكرة ثم بادرته قائلة:

- سمعنا بنبأ زواجك من أرملة (أشكول)

قال مؤكدًا:

- هو صحيح.

قالت مستهجنة وقد استدعت روحها الشريرة:

- ليس لك حظ في النساء يا (زخاري)، جارية مصرية خبيثة ثم أرملة تعيسة تلد ممسوخًا ومهابيل.

أراد أبي أن يصرفها عن شأنه فقال:

- لا تبك على حظي يا (باتشيبا) فإني سعيد به، وأخبريني، هل ضللتم الطريق إلى مصر؟

عبس وجهها فأضاف إلى عمرها أعوامًا أخرى، وقالت وهي تنظر شذرًا إلى (الشامري):

- كلا بل وصلنا إلى فم الحيروت مع القافلة، وكدنا ندور حول البحر ونصل إلى بر مصر، لولا أن تراجع هذا المخبول وأصر على أن يعود بنا إلى «رفيديم».

تطلع أبي بتعجب إلى (الشامري) الذي ظل محدقًا إلى قنينة الرمال دون أن يكترث لحديثها فتابعت العمة (باتشيبا):

- لم نكد نصل إلى فم الحيروت حتى أفلت من القافلة وعاد بعد ساعات بتلك القنينة ولا يزال يتطلع إليها كالمسحور منذ ذلك الحين.

بدا الاهتمام على وجه أبي بينما أردفت هي في غيظ:

- عبرت القافلة إلى مصر من دوننا ودفعنا أموالًا طائلة للدليل حتى يعود بنا إلى «رفيديم».

تعجب أبي من حديثها ثم قال ساخرًا وهو يتطلع إلى (الشامري):

- لعله وجد كنزًا من كنوز الفراعين؟

هنا استدار (الشامري) واعتدل في جلسته ليواجه أبي ثم قال:

- هي أكبر من ذلك يا نجار بني إسرائيل، بل هي أعظم من عصا نبيك التي تأتيه بالمعجزات.

تهكمت عمتي قائلة:

- هذا ما يردده منذ غادرنا فم الحيروث.

ثم تابعت في غضب:

- أقسم بالرب إيل إنها السحر أسود ألقى به أحدهم في الصحراء، ووقع في يد هذا المتعوس ليكدر به حياتنا!

انتابتني القشعريرة من صرخاتها، سأله أبي مستفهمًا في صدق:

- هل حقًا عدت إلى الوراء من أجل تلك الحفنة من الرمال يا السامري؟

فاجأه بقوله:

- بل خرجت يوم خرجت من أجلها!

ثم أوضح في لهجة أرهبتني:

- بصرت يوم الخروج بما لم تبصروا به، رأيت أثره على الرمال، وشعرت به وأنتم عنه غافلون.

سأله أبي مستغربًا:

- ما الذي بصرت به؟

لم يتوقف عند سؤاله بل تابع كالمفتون:

- كان بيننا لم يفارقنا لحظة، هو الذي عبر بنا وليس (موسى)، كنت أرى جنود الفرعون يتساقطون تحت أقدام فرسه المهول. كنتم تسيرون خلف (موسى)، وكنت أسير أنا وراء آثار أقدامه.

استحوذ على عقولنا فلذنا بالصمت. حتى العمة (بالتيفا) لاذت بالصمت. فتابع مشدوهًا:

- كنت أراه في أحلامي وأنتظر اليوم الذي أعود فيه إلى فم الحيروث لأحقق

مما رأيته. فلما وصلنا إلى هناك وجدت آثاره كما هي لم تمحها ريح ولم تطمسها الرمال وهذه قبضة من أثره.

نظر إليه أبي في إشفاق بينما ندت عن عمتي صرخة استنكار وقالت:

- وحق الرب إنك لمجنون أو ربما أصابتك شمس الصحراء بلوثة.

لم يبد عليه الاكتراث لإهانتها. فقال والدي أسفًا:

- توليت عن حرب العماليق وعصيت أمر الرب من أجل حفنة من الرمال لا تضر ولا تنفع!

قال (الشامري) في شرود لحظي يتوعده:

- هذا ظنك يا نجار النزل، وسيأتي يوم يعلم فيه بنو إسرائيل أنها تضر وتنفع، وستعلم حينها من أشد إعجازًا، أنا أم صاحب العصا!

• • •

وحان وقت الرحيل من «رفيديم»، جلجلت أصوات الأبواق في أرض الواحة وكأنها تنعى ذكريات سيطويها النسيان عما قريب. شعرت بالوجد حينما شرع أبي في حل أعمدة الكوخ، وطي جدرانه المصنوعة من الحصير والخوص، تنقلت ببصري في أركان النزل الذي دخلناه صحراء جرداء وتركناه واحة خضراء تتفجر منها الينابيع والجداول، فارتسمت في مخيلتي صورة أخيرة للنزل مازلت أذكرها حتى الآن، وتشكل في وجداني أول إحساس بالحنين إلى المكان. وشعرت وقتها رغم الصغر بقسوة حياة التنقل والترحال. وتشاقت نفسي إلى الاستقرار في أرض الميعاد.

والحق أن الناس من بني إسرائيل قد تثاقلوا في بادئ الأمر عندما جاءهم الأمر بالرحيل، لكنهم أسرعوا في تجهيز متاعهم حينما تردد في النزل أن منزلنا القادم سيكون عند جبل الرب بالوادي المقدس. وحين علموا بأن نبي الله (موسى) على لقاء مع ربه فوق جبل حوريب

خرجنا من وادي «رفيديم» إلى «البرية» قبل زوال الشمس. كنا هذه المرة

أفضل حالاً. فقد حمل أبي متاعنا كله فوق راحلة كراها من بعض جيران المنزل وسار بها في المقدمة، بينما امتطت أمي حمارًا وكذلك العمة (سولاف) التي انتفخت بطنها وبدا عليها أرَضُ الحمل وإرهاقه. أما أنا فقد سرت خلف قطيع من الماعز والأغنام أهش على الشاردة منهم، وأدفعهم دفعًا للسير خلف الركب، وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى أطراف الوادي المقدس، وبدا جبل حوريب أمامنا شاهقًا باسقًا، كان السكون يخيم حول الوادي المقدس، وكانت قلوبنا تزداد رهبة وسكينة كلما اقتربنا منه، حتى البهائم والنوق كفت عن الخوار والرغاء. وكأنما أرهبها الوادي المهيب، أمرنا نبي الله أن نحط الرحال على سهل ضيق على طرف الوادي يقع إلى الشمال من الجبل، وجاء التحذير جليًا واضحًا:

- كل من تخطى قدمه إلى الوادي المقدس أو تمس يده صخرة من الجبل يقتل قتلاً إنسانًا كان أم بهيمة.

وتحسبًا لذلك الأمر عكف الرجال منذ اليوم الأول على بناء سور من الحجارة حول المنزل حتى لا تشرد بهيمة إلى الوادي أو ينسى أحد من الناس تحذير الكليم. ولم يسمح ضيق المنزل الجديد برفاهية التوسع في ضرب الخيام والأكواخ، فنصب أبي كوخًا وحيدًا جمع فيه زوجته وأختي به عريشًا كنت أتبادل معه المبيت فيه إلى جوار الماعز والأغنام.

واقترب موعد الميقات، فجمع نبي الله (موسى) الناس في المنزل وخطب فيهم وأخبرهم بأن الرب قد وعده بأن يأتيه بكتاب من عنده فيه شريعة بني إسرائيل وأحكام حياتهم، وذكرهم بفضل الرب عليهم، وكيف أنجاهم من عدوهم ورزقهم بأطيب الطعام والشراب وذكرهم بوعد الرب لهم بدخول الأرض المقدسة شريطة أن يطيعوه وأن يكفوا عن الظلم والمعاصي، ثم أخبرهم بأنه سوف يصعد فوق الجبل وسيظل فوقه ثلاثين ليلة يتلقى فيهم الشريعة من الرب ثم يعود إليهم في اليوم الثلاثين، حاملاً معه ألواح الرحمة والهداية. وأوصاهم بأن يطيعوا أخاه الكاهن (هارون) وأوصى أخاه بأن يصلح بيننا وألا ينصاع للمفسدين.

وفي اليوم الموعود أقيمت صلاة جامعة، وأقيم طبيخًا للرب ثم ودعنا نبي الله (موسى) قبل أن يهبط وحده إلى الوادي المقدس ميممًا شطر الجبل العظيم.

ومرت الأيام الأولى وكأن نبي الله بين أظهرنا، نستيقظ في الصباح فنجمع رقائق المن في الأقساط، وفي المساء تأتينا السلوى في ساحة النزل، فيجمع كل فرد منا مقدار حاجته في القدور، إلى أن وقع حدث صبيحة يوم من أيام الآحاد أثارت اللغط في النزل. استيقظنا فوجدنا المن وقد أكلت معظمه الديدان، وتقلصت حوله يرقات مقززة تثير الغثيان، فعافت أنفس الناس عن جمعه ولم يأكلوا المن في ذلك الصباح، انتظروا هبوط السلوى في المساء. فأتى المساء وإذ بطيور السلوى تهبط نافقة وقد أنتنت لحومها، كأنما هلكت حدثان من السماء، وتعجب الناس مما حدث أو ذهبوا إلى الكاهن (هارون) يشكون إليه ما حدث. فجمع الكاهن شيوخ الأسباط، وأخبرهم بأن ما حدث إنما هو عقاب من الرب؛ لأن هناك من بني إسرائيل من جمع أكثر من حاجته من المن والسلوى وخزنه في بيته ليوم السبت. ثم أمر بإقامة محرقة وتقديم القرابين والصلوات حتى يُرْفَعَ العقاب ففعلوا مثل ذلك، فرفع العقاب عنا، ورجع نزول المن وطيور السلوى كما كان. وكان ثمة ما يدل على حقد بعض كبراء بني إسرائيل على الكاهن (هارون)، ولربما استضعفه بعضهم ورأى نفسه أحق بالزعامة منه على بني إسرائيل، وكان (قورح بن يصهار) يتربص بتلك اللحظة فصار يقلب الناس على (هارون)، وكلما اختلف اثنان في أمر من أمور الدنيا رفعوه إلى (هارون)، فإذا حكم لأحدهما لم يرض الآخر بحكمه، ثم يذهب المحكوم عليه إلى زعيم سبطه فيشكو إليه الحيف الذي أوقعه عليه (هارون)، وهكذا تفشت الفتنة بين الأسباط، وكادت أن تحدث فُرقة بين بني إسرائيل، واتهم بعض المغرضين الكاهن (هارون) بمحاباة أقاربه من سبط لاوي، فجمع (هارون) القوم وخطب فيهم، وأوصاهم بأن يحفظوا العهد وأن يتجنبوا الشقاق حتى يتحقق لهم وعد الله ويعود (موسى) إليهم بالألواح.

ولكن هيهات فقد شرد بنو إسرائيل كالخراف التي رفعت عنها عصا الراعي،

وتجرأ بعض البغاة منهم على يوم السبت، وامتنع الناس عن تقديم الذبائح والقرابين حتى كادت نار المحرقة أن تنطفئ، وتفشت السرقة بين الناس بحجة استرداد الحقوق، وصارت الحياة في المنزل من بعد (موسى) كحياة الغاب، فاعتزل الصالحون من بني إسرائيل الفتن، ودعوا الرب بأن يعجل لهم بعودة (موسى) حتى يعيد خراف بني إسرائيل الضالة إلى حظيرة الإيمان.

وكان أبي شديد التعاسة في تلك الأيام، أصابه الغم مما حاق ببني إسرائيل، فكان يمكث في الكوخ حزينًا ويقول لأمي وللعمة (سرلاف):

ـ بئس هؤلاء القوم، كأنما أقام لهم (موسى) مرآة من طين! ألم تشعله شرارة من نار فذرته هبة من الريح؟ كيف لم يصبروا على فراقه شهرًا واحدًا؟

وكان يبكي ويقول:

ـ يا خوفي من أن يحل علينا عقاب الله!

وعلى العكس من أبي، استعاد زوج عمتي (السامري) نشاطه ودبت فيه الحياة كنبتة عمرتها قطرات المطر بعد طول الجفاف، فصارت خيمته قبلة لكبراء بني إسرائيل ودعاتها الجدد، حتى إن العوام من الناس كانوا يحكّمونه ويصحبونه فيما شجر بينهم ويتركون خيمة الكاهن الذي استخلفه نبي الله عليهم، واتفقت تلك الجماعة على أن يراجعوا (موسى) في أمر الكهانة إذا عاد، فهارون ليس أحكمهم، وقد فرّق في حكمه بين بني إسرائيل، ولم يحكم بينهم بالعدل، كما أمره (موسى).

وجاء اليوم الثلاثون، فاستيقظ كل من في المنزل قبل شروق الشمس، وامتلأ السفح بالآلاف من بني إسرائيل يجمعهم هدف واحد وقلوب وضمائر شتى، يمموا وجوههم شطر الوادي المقدس، وتوجهت أنظارهم صوب الجبل المهيب والكل في انتظار اللحظة الحاسمة التي يهبط فيها الكليم من فوق الجبل حاملاً معه الألواح التي أنزلها الله رحمة لبني إسرائيل.

* * *

الورقة التاسعة

مرت الساعات ثقيلة بطيئة وكأنما صفدت أقدام الزمن بسلاسل من حديد، وكلما خطا النهار المكلل بالأمنيات خطوة في طريقه نحو المغيب، كلما ثار القلق في النفوس، وعبست وجوه ثم ما تلبث أن تبتسم آملة أن تلوح لهم عاقبة الرحمة والهداية بعد طول الغياب، جلسنا جميعًا فوق أرض السهل لا نحرك ساكنًا، كتماثيل نصبت على حرف الوادي تنتظر أن تأتيها نفحة الحياة من فوق الجبل المشرف على الوادي الحزين، احتجبت الشمس خلف الجبل، ولملمت ما تبقى من أشعتها في شفق أحمر باهت تآكلت أطرافه بظلمة المساء، ومع اختفاء آخر شعاع للشفق، ارتفع صراخ النسوة في الوادي وانهار ثبات الرجال، وعلا البكاء والنحيب، وثار بعض الشباب وأرادوا أن يتجاوزوا سور النزل إلى أرض الوادي المقدس ليبحثوا عن نبيهم المفقود، ولكن (يوشع) وأصحابه دفعوهم عن ذلك دفعًا وذكروهم بوصية نبيهم وهتف (يوشع) قائلًا:

- اثبتوا يا رجال وتذكروا وصية نبيكم كل من لمس قدمه أرض الوادي فإنه يقتل قتلًا!

ومع هبوط الظلام اشتدت الريح في فضاء النزل، وتكاثفت السحب في السماء، وتساقطت زخات من المطر، سرعان ما تزايدت قوتها، فاحتمى الناس بالخيام، وقد ضاعف الطقس كآبتهم، وقضوا ليلة حزينة ممطرة وكأنما يبكي عليهم السماء.

واستيقظنا في الصباح لا ندري ماذا نفعل؟! كان شعورًا لم نختبره من قبل! فقد عشنا قرونًا عبيدًا لفرعون يأمرنا فنطيع، ثم أتانا بعد ذلك نبيٌّ مؤيدٌ بالمعجزات ويتصل بالسماء، فكان أيضًا يأمرنا فنطيع ويحمل عنا مشقة التفكير وتبعة تقرير المصير، ولكن هكذا صارت الأمور وأصبح لزامًا على الشعب الذي عاش مدللًا في كنف نبيه كالرضيع أن يذوق مرارة الفطام وأن يتحمل تبعة اختياره، ويا لها من تبعة!

تجمع الناس في ساحة النزل التي ركدت فيها مستنقعات صغيرة من مياه أمطار الأمس، وتشبعت رمالها بالماء، فتعسر عليهم الجلوس، فقضوا الساعات في انتظار ما يسفر عنه اجتماع المشايخ مع الكاهن (هارون) في خيمة الاجتماع، كنا نقف أنا وأبي والعمة (أليشبع) على مقربة من الخيمة، بينما جلس (الخامري) على الأرض غير مبالٍ برطوبة الرمال، وقد أمسك في يده اليسرى بصخرة ملساء غسلتها مياه الأمطار، وأمسك في يده اليمنى بشفرة من حديد أخذ ينقش بها على الصخرة رسومًا لا أفهم لها معنى.

وبعد أن انتصف النهار خرج (هارون) ومعه المشايخ من خيمة الاجتماع، وقد بدا أن شقاقًا قد وقع بينهم، صعدوا إلى تبة عالية من الرمال، ونادى (يوشع) في القوم، فتجمع الناس ليسمعوا ما يمليه عليهم كاهنهم، قال (هارون):

- أيها الناس! قد أظلتنا أيام فتنة وبلاء، ولا نجاة منها إلا بالتوبة والاستغفار، فمن كان منكم على خطيئة فليدعها، لا يمدّن أحدكم عينيه إلى زوجة جاره، ومن اغتصب منكم مالًا فليرده، عسى الرب أن يكشف عنا ذلك البلاء.

لم يكد يكمل كلامه حتى ضج القوم احتجاجًا عليه، وعلا صوت من بين الصفوف، ميزت فيه صوت (جدعون) الحداد، فقد كان صوته أجش كناقة ترغي على وليدها وهو يقول:

- دع عنك النصح أيها الكاهن وقل لنا متى يعود (موسى)؟

استنكر (هارون) السؤال فقال:

- هل طال عليكم العهد؟!

قال (جدعون):

- كلا، ولكنا في انتظار الوعد، فاضرب لنا موعدًا يأتينا فيه بالألواح؟

قال (هارون):

- العلم عند ربي، وهل حسبتم إن هلك (موسى) في البرية أن تضلوا بعده وتعصوا أمر ربه!

ثار الناس أكثر، تحدث رجل من سبط زبولون [illegible] قائلا:

- بل خذلنا يوم [illegible] إلى تلك القمم.

وعقب عليه رجل من سبط يساكر:

- صدقت! لقد أضلنا أنا منه الآن ثم ورثه [illegible] للأحبار كما يورث الرجل بعيره.

ثم نادى الرجل في قومه:

- يا بني يساكر! لقد وعدنا (موسى) فأخلف موعده، ولا طاعة لأخيه علينا حتى يعود بالألواح.

ولاقت دعوته استحسانًا من بعض الناس، وغضبًا من آخرين، وقال (هارون) مستنكرًا:

- أتريدون أن تفرقوا بين بني إسرائيل!

قال (عزرا) من سبط جاد:

- بل فرقتم أنتم بين بني إسرائيل يوم جعلتم الكهانة في سبط لاوي.

ثم أردف في تهديد:

- لكم منا ثلاثة أيام فإن لم يعد (موسى)، أقيمت محرقة للرب وقدم كل سبط قربانه، ومن تأكل النار قربانه تكن له الكهانة على بني إسرائيل.

غضب (هارون) وقال:

- كيف تحتكمون إلى الرب وأنتم تعصون أمر نبيه؟ ألم يستخلفني (موسى) عليكم؟ قال (عزرا) في تحدٍّ:

- إن الله قد عهد إلينا ألا نؤمن لكاهن ولا رسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار.

رد عليهم:

- قد جاءكم (موسى) بأكثر مما قلتم، وها أنتم ترتدون على أعقابكم، وتكفرون بما وعدكم به.

قال الرجل:

- أطعنا (موسى) ما دام فينا، أما أنت فلا طاعة لك علينا

قال (هارون) أسفًا:

- قد ضللتم إذن، وحق عليكم البلاء من الرب!

وهنا برز (السامري) من بين الصفوف، وهرول صاعدًا إلى التلة وهو يهتف:

- يا بني إسرائيل! اسمعوا إليّ! اسمعوا إليّ!

تعجب أبي حينما رآه، وشهقت عمتي (باتشيفا) التي كانت تقف إلى جوار أبي وقالت في قلق:

- ماذا يفعل هذا البائس؟

صمت الناس استجابة لندائه، فقال:

- أتدرون لماذا نسي (موسى) ميقات ربه؟ ولماذا أخلف موعده؟ لأنكم لصوص! ولأن لعنة آلهة المصريين قد حلت عليكم

استنكر الناس قوله، وضحك بعضهم ساخرًا، وتمتمت عمتي قائلة في خفوت:

- حلت عليك اللعنة أيها التعس! فضحتنا أمام القوم!

ولكن (السامري) بدا أكثر إقناعًا وهو يقول:

- قد حملتم أوزارًا من حُليّ جيرانكم المصريين وذهبهم عند الخروج، وما من بيت من بيوت النزل إلا وفيه مالًا اغتصبه أحدكم من جاره المصري، فكيف ترجون من الرب أن يتنزل عليكم ألواحًا من السماء وقد دنستم بيوتكم بذهب مسروق!

صمت الناس ثم نكسوا رؤوسهم، فقد صدقهم الرجل القول، فتابع (الشامري) وقد فارت حماسته:

- طهروا بيوتكم من الدنس، احرقوا الذهب المسروق واجعلوه قربانًا للرب، من صرفي قرطًا أو اسورة فليلق بها في النار، ولكم مني أن أقيم محرقة لم يشهد بنو إسرائيل مثلها.

استحسن (هارون) ومشايخ الأسباط رأيه بينما نظر إليه أبي متشككًا، وقالت العمة (باتشيفا) في قلق:

- يا خوفي منك يا (الشامري)!

وعاود المطر سقوطه فعدنا إلى الكوخ قبل أن يشتد هطوله.

كانت أمي تنتظرنا في قلق، بينما كانت العمة (سولاف) تنام جالسة إلى الحائط، فقد كانت لا تقوى على النوم على ظهرها منذ أن كبرت بطنها وصارت تطبق على صدرها أثناء النوم، بادرها أبي بقوله وهو يخلع رداءه المبتل:

- شعب لا يستحق إلا قتل المصريين!

ابتسمت أمي لتخفف عنه عبوسه وقالت وهي تناوله رداءً جافًا:

- أهذا ذمٌّ في قومك أم قدحٌ في قومي؟

قال حانقًا وهو يرتدي الرداء بينما كانت أمي تبدل ثيابي المبتلة:

- يثورون على الحليم (هارون)، ويصمّون آذانهم عنه، ثم يستمعون إلى (الشامري)، فيأمرهم بأن يحرقوا ذهب المصريين حتى لا تحل اللعنة عليهم!

قالت متعجبة:

- أحقًّا قال هذا؟

قال ساخرًا:

- نعم، والأدهى أنهم أطاعوه!

رأيت في عينيها تصديقًا وخوفًا ثم قالت مترددة:

- قد يكون محقًا!

نهرها غاضبًا:

- أي لعنة؟ وأي آلهة؟ إنها أصنام لا تضر ولا تنفع.

قالت متوجسة:

- هي لا تضر، ولكن سحر الكهنة قد يضر!

قال مستخفًا:

- هراء! لقد رأيت بعينيك عجز السحرة أمام آيات الرب إيل.

ثم أردف:

- والله ما قال (السامري) تلك القولة إلا وهو يخفي من ورائها باطلًا.

قالت ملطفة:

- هون عليك يا (رحازي) فغدًا نعلم ما يبتغيه.

ثم أردفت باسمة:

- وإياك أن تمد يدك على ذهبي، وإلا حلت عليك لعنتي

جاهد نفسه ليبتسم لكنه لم يستطع، ثم سألها:

- هل تملك (سولاف) شيئًا من ذهب المصريين؟

قالت أمي:

- كلا، فقد تركته كله في دار أم (أشكول).

فقال في وجوم:

- حمدًا للرب أن جعل بيتنا محفوظًا من الوزر والخطيئة.

* * *

الورقة العاشرة

وفي الصباح خرج الناس تباعًا إلى الموضع الذي أقام فيه (الشامري) المحرقة، حاملين في أيديهم أقراطًا وأساور وسلاسل من الذهب والفضة، تعجبت كثيرًا من هذا الكم من الجواهر التي أعارها المصريون لجيرانهم من بني إسرائيل عن طيب خاطر ليتزينوا بها في عيدهم، وتردد في رأسي سؤال:

إن كان المصريون بهذا العطف، فلماذا كان يكرهنا الفرعون إلى هذا الحد؟!

صعدنا إلى هضبة فسيحة عالية خارج النزل أقام فيها (الشامري) محرقته، كانت المحرقة في فجوة بين صخرتين عاليتين فوق الهضبة، ملأ (الشامري) الفجوة بالحطب، وبنى سورًا بين الصخرتين من الحجارة، ثم صنع سلمًا يصعد به إلى الفوهة علق في نهايته حلقة تتدلى منها سلسلة إلى داخل المحرقة. فبدت المحرقة كمرجل مهول تتصاعد منه ألسنة اللهب وأعمدة النار والدخان، وقف (الشامري) إلى جوارها يغذي نارها بالزيت والحطب، وقد ثار شعره، وتعفرت لحيته، واحمرت عيناه حتى بدا كشيطان مريع.

متى وكيف أعد (الشامري) تلك المحرقة؟! كانا سؤالين يجولان بخاطر كل من في النزل، ولكن لم يكلف أحد نفسه عناء الجهر بهما، صعد الناس الواحد تلو الآخر إلى سلم المحرقة، يعطون (الشامري) الواقف أعلى المرج الحلي، فيلقي بها في أتون النار وهو يقول:

- طهروا أنفسكم من الخطيئة حتى يأتيكم الرب بوعده.

وظل الناس يتبادلون الصعود حتى كاد النهار أن يزول، وألقى آخر من في المنزل بحمله من الذهب في المحرقة فنادى (الشامري) في الناس:

- أبشروا أيها الناس غداً يأتيكم الرب بوعده.

فنادى عليه (جدعون) الحداد بصوته الأجش:

- وأنت يا (شامري) ألن تتطهر من خطيئتك؟!

قال (الشامري):

- بلى أتطهر منها!

ثم أخرج من جيبه القطعة الملونة، فظنها الناس لوناً من جواهر المصريين، فأمسك بها وقال لـ(هارون):

- يا أخا (موسى)؟ هل ألقي ما في يدي؟

تعجب الناس من سؤاله، فقال (هارون):

- نعم، ألق.

فتمتم عليها (الشامري) بكلمات لم نسمعها ثم ألقى بها في النار، فهلل الناس ومجدوا الرب، وبات الناس على أمل أن يأتيهم الرب بوعده في الصباح.

وحدها من دون الناس، كانت في حزن وكرب عظيمين، ثاء كاهلها بالسر الذي عرفته قبل تلك الأحداث بأيام، وتمنت لو تصرخ كي تعلم الناس منه، لكنها لم تستطع، كانت حزينة لما آل إليه حال زوجها منذ عادا إلى «رفيديم»، أقلقها ولعه بتلك الخبيئة المسحورة، وذهوله عن كل شيء حولها، ثم ساورها الشك حينما رأته يكثر من الخروج إلى تلك الهضبة التي أقام فيها محرقته، دفعها الفضول إلى أن تتبعه ذات يوم إلى تلك الهضبة، فوجدته يلجأ إلى غار، يمكث فيه طيلة النهار، شعرت بأن سراً ينتظرها هنالك، تركته نائماً ذات ظهيرة وذهبت إلى الغار، وحين دخلت شعرت بالعجب والغضب والشفقة في آن واحد، وجدت على الأرض أدوات النحت التي كان يعمل بها في مصر قبل الخروج، الإزميل، البراجي، المطرقة، سبائك النحاس والألوان! تعجبت كيف أخفى

عنها زوجها تلك الأدوات طيلة تلك المدة دون أن تعلم، على جدران الغار وجدت نقشًا ضخمًا للإلهة حتحور وقد طُلي بألوان بديعة خلابة، وإلى جوار الحائط وجدت عدة أنقوبات وتماثيل صغيرة للعجل أبيس منحوتة بإتقان من قطع صغيرة من الحجارة والرخام، ولا تزيد الواحدة منها عن قبضة اليد، ولكن أشد ما أثار دهشتها كان ذلك القالب الأجوف الضخم المصنوع من النحاس والذي صُنع على شكل تمثال العجل أبيس، أصابها الذهول، ودار في ذهنها سؤال متى صنع زوجها تلك الأشياء؟ والأهم لماذا صنعها؟ إنها على يقين بأن زوجها يحب الرب إيل، فلماذا يدنس قلبه بهوى ذلك العجل اللعين؟! عادت إلى المنزل كسيرة النفس حزينة، فوجدته قد استيقظ من نومه، لم تستطع أن تواري عنه ما في نفسها من ثورة فواجهته غاضبة:

- ألا يزال قلبك معلقًا بالعجل يا (السامري)؟

علم أنها فضحت أمره، فقال في حدة:

- كلا، ولكني أشتاق إلى حجر النحت.

قالت لائمة:

- ولم تجد سوى العجل لتنحته

قال في حسرة:

- لا أنحت غيره منذ كنت في العاشرة من عمري

أشفقت عليه، فقالت

- احذر يا (السامري)، فلو علم (موسى) بما تفعله لقتلك قتلًا

قال غير مبال:

- صنعت منه في مصر المئات، وكان الناس يسجدون لما أصنع على مرأى ومسمع من (موسى).

صرخت يائسة:

- ما لنا والمصريين؛ تركنا لهم ديارهم وعجولهم.

ثم قالت مستعطفة:

- دع عنك أمر الماضي يا (شامري)، انزع من عقلك تلك الأوهام، ويكفينا ما لحقنا من خزي يوم هربنا من النزل قبل حرب العماليق

رفع يديه أمام وجهه وقال صارخًا:

- انزعته من عقلي، ولكني لا أستطيع أن أنزعه من قلبي! هاتان اليدان تموتان إن لم يمسسهما حجر!

ثم انهار جالسًا وهو يقول:

- بلغت الستين من عمري، لا صاحب، ولا مال ولا زوجة، حتى قبيلتي (شمرون)، هم أضعف الأسباط وأحقرهم، ثم تطلبين مني ترك أمر الماضي وانتظار المستقبل؟!

ثم طفرت الدموع من عينيه وقال:

- مثلي لا يحيا إلا في الماضي يوم أن كانت لي في مصر مكانة صنعتها موهبتي. تلك الموهبة التي يحتقرها قومك الآن!

يئست من الكلام معه ووخزتها إشارته لعدم إنجابها، فقالت متبرمة:

- عش معزولًا عن الناس، وانتشِ بسكرة الفن، حتى يكتشف (موسى) أمرك ثم يجعلك عبرة لمن لا يعتبر.

* * *

أما أبي فقد ذكرته قنينة الرمال التي ألقى بها (الشامري) في المحرقة بحديثه الذي أفصح عنه من قبل، ترددت في ذهنه عبارة (الشامري) «سيأتي يوم يعلم فيه بنو إسرائيل أينا أشد إعجازًا وأقوى، أنا أم صاحب العصا». لم ينم أبي في تلك الليلة، ظل يتقلب في فراشه كالمحموم، ثم ترك الفراش واستلقى في العريشة المجاورة للكوخ، خرجت إليه أمي وتبعتها العمة (سولاف)، وقد أقلقهما خروجه في ذلك البرد القارس.

قالت أمي:

- ما الذي أضجع مضجعك يا (زخاري)؟

قال في اقتضاب:

- لا شيء.

جلسنا إلى جواره، وقالت العمة (سولاف):

- تبدو حزينًا قلقًا منذ عدت مع القوم عند المساء.

زفر في قوة، ينزح عن صدره همًا كالجبال، ثم قال:

- لا مقام لنا في هذا المنزل حتى تعود إلى أموسى الدار، تختفي ظلال العمة!

ندت عن أمي شهقة، وقالت العمة (سولاف):

- نترك المنزل! لماذا؟

قال أبي:

- تحوم الفتنة حول المنزل، ولا أدري ما الذي ينتظرنا عند الصباح؟

قالت أمي:

- مثلك لا يخشى الفتنة وقد عمر قلبه بالإيمان.

قال في صرامة:

- بل أفر منها، كما يفر المرء من الأسد.

قالت العمة (سولاف):

- وإلى أين نذهب؟

قال أبي:

- سمعت عن موضع يقال له «رشه» يبعد عنا مسيرة بضعة أيام إلى الشمال.

وجمت المرأتان وقد أذهلهما كلام أبي، ثم قالت أمي في شيء من الخوف:

- نعيش في الصحراء وحدنا، بلا أهل ولا كاهن يرعانا!

قال أبي:

- سنفِرُّ بديننا حتى يعود إلينا (موسى).

قالت (سولاف):

- وكيف سنعلم بعودته؟

قال:

- أسررت بأمري إلى (إيلياء) ابن عمي، وسيأتي إلينا ليخبرنا بعودة (موسى) أو انكشاف الغمة.

ساد الصمت لحظات، ثم قالت أمي:

- افعل ما يريح قلبك.

نظر أبي إلى العمة (سولاف) فقالت:

- لا يربطني بالمكان شيء سواكم، وأنا معكم أينما كنتم.

تنهد في ارتياح ثم قال:

- على بركة الله غدًا نخرج قبل الشروق.

وبينما كان قرص الشمس يتخلص صاعدًا من وراء جبل حوريب كانت الراحلة تبتعد عن الوادي المقدس إلى قلب الصحراء، استدار أبي وألقى نظرة على جبل حوريب والوادي الساكن أمامه ثم قال:

- اللهم عجل لنا بعودة (موسى)، واحفظ بني إسرائيل من فتنة يبغيها (السامري)!

• • •

الورقة الحادية عشرة

المروية

هذا ما فعله أبي في ذلك اليوم الفارق في حياة أمي إسرائيل، لم يطق الرجل البقاء في المنزل وقد أرشده الملاك على الرحيل، ولم يعصم إيمانه إلى أن يطمئن في نفسه المقدرة على التصدي للفتنة حال حدوثها، فجمع زوجته، وولده، وجنينًا في رحم أمه، ثم خرج فارًا بدينه بعيدًا عن أرض العماق، سارت بنا الراحلة بلا انقطاع بين عواصف الرمال الثائرة كسفينة تتأرجح على أمواج أثارتها لطمات الرياح، وصلنا إلى «زرشة» قبل حلول مساء اليوم التالي، وبلغنا مقرًا يقطن فيه بعض الأعراب، فاستأذنهم أبي للمكوث إلى جوارهم بضعة أيام فأذنوا له، ولعلهم أشفقوا علينا من وعثاء السفر في ذلك اليوم الزمهرير، أناخ أبي الناقة فهبطت من فوقها الرأتانة، وقفزت أنا متدثرًا بردائي، أحكمت أمي أطرافه حول رأسي، حتى يقيني لفحات الهواء الحارقة، تخير أبي مكانًا منزويًا خلف تلة بمنأى عن عاصفة الصحراء، ثم شد أطراف الخيمة على أوتاد أحاطها بقطع من الأحجار حتى لا تجرفها رياح الليل المسارعة، اصطلينا بجذوات من الحطب أشعلها أبي في قصعة وقضينا ليلتنا الأولى في «زرشة» بين صفير الريح وطقطقات الحطب ولطمات الهواء على جدران الخيمة.

وفي الصباح هدأت العاصفة قليلًا، سمعنا صوتًا ينادي خارج الخيمة، فخرج أبي ليجده ابن شيخ القبيلة، يحمل صحيفة من الطعام، تحدث إليه أبي

قليلًا ثم عاد إلينا حاملًا في يديه صحيفة الطعام، فوضعها بيننا وهو يقول:

- هلموا إلى الطعام فقد رزقنا الرب ثريدًا وجيرانًا ذوي قربى.

أقبلنا على الطعام في نهم، فقد كنا نشعر بالجوع الشديد، وسألته أمي:

- من هؤلاء الأعراب؟

قال أبي:

- هم من بني (إسماعيل).

قالت العمة [illegible]

- عجبًا [illegible]

قال أبي:

- نعم ولكن [illegible] من بني قطورة بن (إسماعيل). هم يعملون في التجارة والرعي ويقيمون حيث يكون الماء.

سألته أمي متعجبة:

- ولماذا يصحبونا؟

قال أبي:

- هم أبناء عمومة يا (روماننا)، ويعبدون الرب إيل على ملة أبينا (إبرام).

لم أفهم حينها كيف نعبد الرب إيل بدين غير دين بني إسرائيل، ولكني استمعت بشغف إلى حديث أبي عن جده (إسماعيل) و(إبرام). وشعرت بالإثارة حينما علمت أن أم (إسماعيل) كانت جارية مصرية مثل أمي (روماننا).

وقضينا يومنا الأول ضيوفًا على هؤلاء الأعراب، كانت ساحة تزخر صبيحة، يتوسطها بئر كبيرة يشرب منها الناس والدواب ويحيط بها بيوت بنيت بالحجر، والحق أننا لمسنا من هؤلاء القوم كرمًا وجودًا لم نر مثله من بني إسرائيل، دعانا شيخ القبيلة وكان رجلًا حكيمًا يدعى دعابرة إلى داره، وقص أبي عليه، ما كان من أمر (موسى) وكيف خرج بني إسرائيل من مصر حتى وصل بهم إلى

الوادي المقدس، ثم ما كان من صعوده إلى جبل حوريب واختفائه بعد ذلك.

قال الرجل في سكينة:

- لا يضل نبي وهو في حضرة الرب، سيعود إليكم نبيكم.

ثم حكى لنا الرجل أن جده يطور بن (إسماعيل)، قد ترك مكة مع أهله وأتى إلى هذا المكان، وأنه أول من رعى الإبل في ذلك الجبل، حتى إن الأعراب قد أسموه جبل «الطور» نسبة إلى جده، وأن جده هو من قام بغرس أشجار التين والزيتون فوق الجبل حتى يستظل بها الرعاة والأنعام، وحين نضب الماء فوق الجبل، هبط أجداده إلى تلك القرية حيث أقاموا بها يعملون في التجارة والرعي.

وشعرنا بالألفة مع هؤلاء القوم، وقضينا أيامًا لا ننسى في صحبتهم، وكان الشيخ «عامر» حفيدة تصغرني بشهر اسمها (أروى)، سمراء البشرة، جميلة المحيا ونحيفة القوام، سألتها عن معنى اسمها فأجابتني أنها تعني الرشيقة الحركة كأنثى الوعل! والحق أنها كانت في خفة النسيم وسرعة الريح، كنا نلهو ونتسابق إلى الجبل في كل صباح، فتنطلق قبلي إلى أعلى الصخر بينما لا أزال أنا في أسفل السفح تتعثر أقدامي في الرمال! وذات يوم كنا نلهو فوق الجبل، فإذا بالسماء وقد تلبدت بالغيوم، وتكاثفت بها السحب حتى دنت من الرءوس، وبدت بطون المزن حبلى بالمطر، وكان الأعراب يخشون المطر بتلك المنطقة، فقد كانت السيول تجرف كل شيء في طريقها، فلما رأوا المطر وقد أوشك على الهطول جمعوا الخيام المتناثرة ومن بينهم خيمتنا، وساقوا المعز والأغنام إلى ربوة قريبة بمنأى عن مجرى السيل، وظنت أمي أنني ألهو في ساحة النزل مع أبناء الحي، فلما بدأ الجمع في التحرك، فطنوا إلى غيابي وغياب (أروى)، وعلموا من أبناء الحي أننا كنا نلهو فوق الجبل، وفقدت أمي صوابها وظلت تصرخ خوفًا علي، وانطلق أبي ومعه والد (أروى) للبحث عنا، ولم تمض لحظات حتى تقاطر الماء من السماء، وغامت الشمس خلف السحب حتى كاد النهار أن يظلم،

شعرت (أروى) بالخوف وقالت:

- هيا بنا نعود يا (شمعون).

لم نكد نتحرك بضع خطوات حتى تزايدت حدة المطر، وانزلقت الأرض من تحت أقدامنا، وكدنا نتعثر عدة مرات، بكت (أروى) من الخوف وتمسكت يدي في قوة حتى لا تنحدر على الأرض الزلقة، رأيت المطر يتزايد، وشعرت أنه من المستحيل أن نصل إلى أسفل الجبل سالمين، وهداني عقلي الصغير إلى أن البقاء على قمة الجبل أكثر أمانًا من النزول إلى السفح المنحدر، أطبقت يدي على يد (أروى) في قوة ومشيت بها في حرص على الصخر اللازب حتى بلغنا فجوة بين صخرتين على قمة الجبل، مكثنا في الفجوة بعيدًا عن الأمطار الجارفة، والتصقت (أروى) بجسدي وهي تبكي من الذعر، بينما كانت أنفاسي تتلاحق من الخوف والتعب، توقف المطر بعد دقائق، ثم هدأت الرياح وانقشعت الغيوم في بطء، وعادت الشمس للظهور، ونظرت إلى السماء فوجدتها وقد تلونت بقوس قزح وكأنها لم تغضب على أهل الأرض منذ قليل.

هدأ روعنا وقمت لأرى سبيلًا للنزول من الجبل، عثرت على غصن شجرة سميك كسرته الأمطار، فوجدت فيه ضالتي، شذبت الغصن من فروعه بحجر حتى صار كالعصا، طوقت (أروى) بذراعي ثم شرعنا في الهبوط في حرص، كنت أغرس الغصن في الأرض بين الصخور وأطمئن لثباته، قبل أن أخطو خطوة جديدة على الطريق المنحدر، مضى وقت طويل حتى وصلنا إلى السفح، تلفتنا الصعداء، وأسرعنا إلى خيمتنا فلم نجدهما ولم نجد أحدًا حولها، شعرنا بالخوف وبكت (أروى) مجددًا ولكن فجأة جاءنا صوت أبي صائحًا من بعيد:

- أين أنت يا (شمعون)؟ أين أنت يا (أروى)؟

فهرولنا ناحية الصوت، لنجد أبي ووالد (أروى)، وقد ابتلت ملابسهما تمامًا، ومع ذلك ألقيا بجسدينا أنا وأروى في حضنيهما، قبل أن يعودا بنا إلى المنزل.

والحق أن تلك الحادثة ظلت عالقة في ذهني لسنوات بعدها، وكنت بين الفينة والفينة أتذكرها وابتسم وأتساءل في نفسي عما فعلته الأيام بفتاة سمراء

رشفة الحركة من نسل (إسماعيل) اسمها (أروى)، ربط القدر بين مصيرينا في يوم من الأيام ثم افترق كل منا في طريق.

* * *

ومرت الأيام تلو الأيام دون أن يأتي إلينا خبر من حوريب، كان أبي يحدوه الأمل في كل صباح في أن يرى (إيليا) ابن عمه آتيًا من جهة الصحراء بالبشرى، فيمر النهار دون أن يظهر الشيء في الأفق فيزداد أبي بؤسًا وحزنًا، وأشفقت عليه أمي مما يعانيه. قالت تطلب الشفقة ذات يوم حين رأته مهمومًا حزينًا فقالت:

ـ حدثك في «رشفة» وقلت في حوريب! إن شئت عدنا إلى حوريب لنقف على حقيقة الأمر.

قال في إصرار:

ـ لا أعود إليهم ونبي الله غائب، ولو عاد موسى لأتى إلينا (إيليا) بالخبر.

ومكثنا في «رشفة» قرابة الشهر، علمنا فيه الكثير عن حياة هؤلاء البدو من بني (إسماعيل)، وعرفنا أشياء كثيرة عن ملة (إبرام) التي يتبعونها، فقد كانوا يختتنون مثلنا، ويتجهون في صلاتهم إلى الرب إيل، ويقدمون له الذبائح والقرابين، ولكنهم لا يقدسون يوم السبت مثل بني إسرائيل، ويتحدثون دائمًا عن بيت بناه أبونا (إبرام) وجدهم (إسماعيل) في وادٍ بصحراء فاران، يقدسونه ويرحلون إليه بين آن وآخر للتبرك والتجارة، وكان أبي رغم تعظيمه لكرمهم وسماحتهم، يستاء كثيرًا من عدم تقديسهم ليوم السبت، وحين دعاه شيخ القبيلة لأن يترك خيمته، وأن يمكث في دار حجرية داخل القرية، رفض أبي كي لا تستاء عينه بانتهاكهم ليوم السبت، فكان يمكث في خيمته ويقول:

ـ ألا يخشى هؤلاء القوم أن تحل عليهم اللعنة وهم يعتدون على حرمة السبت.

أما أنا فقد كان يدور في رأسي سؤال آخر لم يجبني أبي عليه وهو:

ـ لماذا حرم الرب السبت على بني إسرائيل، ولم يحرمه على باقي بني (إبرام)؟

وفي يوم من الأيام سمعنا صوتًا ينادي على أبي من خارج الخيمة، فإذا به

(إيليا) ابن عمه قد أتى إلينا من حريبسه احتضنه أبي، وتهلل لمقدمه كثيرًا، وقبل أن يدعوه للجلوس سأله في لهفة:

- هل عاد نبي الله (موسى)؟

قال (إيليا) واجمًا:

- نعم قد عاد إلى المنزل منذ قرابة الشهر.

تعجب أبي من ذلك وتوجس شرًا من الحزن البادي على وجه (إيليا)، فقال له:

- ولماذا لم تأت إلينا مبكرًا كما وعدتنا؟

قال (إيليا) في وجوم:

- قد وقعت أحداث جسام في المنزل، والجميع مرتبك لأجلها منها.

وقع الذعر في قلب أبي فجلس على صخرة إلى جوار الخيمة وأجلس (إيليا) إلى جواره ثم قال:

- قص علي يا (إيليا) ما وقع في المنزل منذ خرجنا وحتى الآن.

تنهد (إيليا) تنهيدة طويلة كمن يلقي عن صدره حملًا ثقيلًا، ثم قال:

- وددت لو نسيت ما حدث!! ولكن ما السبيل إلى نسيانه وقد صار محفورًا في قلبي!

صمت أبي، وأنصت بكل جوارحه إليه، وقص علينا (إيليا) هذا الحديث.

• كان الوقت بين الضحى والظهيرة حينما توافد الناس على الهضبة التي أقام فيها (السامري) محرقته، كانوا على حال ما بين الشك والفضول، شك فيما وعدهم به (السامري)، وفضول لمعرفة السر الذي يخفيه، لم يبق أحد في المنزل، خرج الجميع إلى الهضبة حتى (هارون) وسبط لاوي خرجوا مع الناس، كان (السامري) يقف إلى جوار المحرقة مرتديًا حلة تشبه حلة الكهنة المصريين، وقد حلق رأسه بالموسى، وقص لحيته وشاربه حتى بدا كأنه كاهن من كهنة آمون،

تعجب الناس من هيئته، وسخر البعض منها، ولكن الرجل كان يشرف من مكانه على الناس في خيلاء، وتبرق عيناه في ثقة كمن يحمل خبيئة يعلم مقدارها جيدًا، مضى وقت طويل حتى تجمع الناس فهتف أحدهم مضطجرًا:

- فيم جمعتنا يا (شامري)؟

تحدث في صلف وغرور:

- جمعتكم حتى أهديكم سبيل الرشاد.

قال الرجل مستنكرًا:

- لا تعال علينا يابن راحيل ظننت كاهنًا ولا نبيًا.

ضحك الناس ساخرين فقال:

- اضحكوا واسخروا الآن فغدًا تبكون مما تجنيه السنة، وتدعونني فلا أستجيب لكم.

ثم ذهب إلى السلسلة التي تدلت فوق المحرقة، ثم جذبها في قوة أو حث بثقل ما يرفعه، ومع كل جذبة إلى أسفل كانت قلوب الناس ترتجع خفقًا من الإثارة، حتى ظهر لبني إسرائيل ما كان مطمورًا في جوف المحرقة، أخرج لهم (الشامري) عجلًا ذهبيًا مهولًا يتلألأ جسده الذهبي الأحمر تحت ضوء الشمس وكأنما تسري به دماء الحياة، شهق الناس شهقة عالية جمعت ما بين الذهول والرهبة فقد أذهلتهم مفاجأة (الشامري) التي لم تدر بخلدهم، وأرهبهم أن يخرج إليهم إله المصريين من بين الحلي التي افتصوها، وكأنما عاد إليهم العجل من أجل الانتقام، وأدار الهواء الجسد الذهبي المتدلي من السلاسل، وتأرجح فوق الرءوس التي انحنت من الخوف والرهبة، وواجه فمه مهب الريح فصدر منه خوار، زلزل أجساد الناس رعبًا وفرقًا فخروا له ساجدين، انتشى (الشامري) فوق الصخرة وظل يصرخ في جنون:

- اسجدوا له، ابكوا على خطاياكم، هذا إلهكم وإله (موسى)، هذا إلهكم وإله (موسى)!

اشتد الغضب بـ(هارون) وزوج أخته (حور) وصرخ (هارون) قائلًا:

- كذبت يا عدو الرب! إنه عجل جسد له خوار!

ثم التفت إلى الناس وصرخ فيهم قائلًا:

- يا قوم لا يفتنكم (السامري) عما جاءكم به (موسى).

لم يستمع إليه أحد، فقد تعلقت أبصار الناس بالإله المتأرجح، وأفسحوا له موضعًا في قلوبهم، وتحمس بعض الشباب من سبط لاوي، وأرادوا أن يصعدوا إلى الصخرة حتى يفتكوا بـ(السامري)، ولكن حال القدماء من باقي الأسباط بين الشباب وبين (السامري)، ووقعت بينهم معركة بالحجارة والعصي، حتى أوشك بعضهم على الهلاك، فصرخ (هارون) في الناس:

- يا بني إسرائيل! اتقوا الرب، ولا تتفرقوا، ولا يقتل بعضكم بعضًا.

وتدخل بعض مشايخ الأسباط، وحالوا بين المتقاتلين حتى توقف العراك، وعاد شباب لاوي إلى جوار الكاهن (هارون) وقد سالت دماؤهم، وتقطعت ثيابهم، ووقف (عزرا) من سبط جاد متحفزًا، وقال:

- إن شئتم قتالًا قاتلناكم، وأنتم من بدأ بالعداء!

قال (هارون) بائسًا يائسًا:

- نهاكم ربّنا يا بني إسرائيل، وحق الرب لقد فتنتم به، وأضلكم (السامري).

قال (السامري) مدافعًا:

- بل أضلكم (موسى) وأخلف موعده!

ثم انبرى قائلًا:

- أليس هذا الإله الذي لجأتم إلى جواره من عمركم سنين؟ أليس هذا الإله الذي كان يمد المصريين ويمدكم بالقوت والرزق في بر مصر؟ ألم تكن لكم آية أن عاد إليكم ليرعاكم في هذا القفر بعد أن خذلكم (موسى) وأضلكم في

الصحراء، استمعوا إليه بقلوبكم وهو يتحدث بخواره إليكم.

هتف (حور) زوج (مريم) غاضبًا:

ـ كذبت يا مضل!

ثم قال للناس:

ـ لا يخدعنكم الكذاب به، إنما هو صنم صنعه بيديه كما كان يصنع التماثيل في مصر، أفلا ترون أنه لا يرجع القول إليكم!

وعم الصمت على المكان إلا من خوار التمثال الذي كان يعلو كلما هبت الريح، وسكت الشيطان الذي تحدث على لسان (السامري)، وسكت الحق الذي جرى على لسان (هارون)، وكان على بني إسرائيل أن يختاروا بين حق وباطل، ومرت لحظات كالدهر جاء بعدها صوت (جندورة) الأجش من بين الناس كأنما يقرر ما يكون وهو يقول:

ـ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع (موسى)، أنظل حيارى في هذا القفر دون إله!

فهلل له الناس مؤيدين، وانفرجت أسارير (السامري)، بينما نكس (هارون) رأسه وهو يقول:

ـ أما أنا فاعتزلكم وما تعبدون من دون الله.

ثم انصرف وتبعه الكثير من سبط لاوي والقليل من باقي الأسباط.

• • •

وفي المساء أقيم قداس عظيم للإله أبيس وفق ما كان يصنعه المصريون في الرامسيوم، فقد وضع (السامري) التمثال فوق بناء من الحجر وواجه به الريح حتى يظل خواره متصلًا أمام الناس، وأتى (السامري) بجوارٍ من أقاربه كُنّ من المنشدات في معابد مصر، يُجِدن الرقص والعزف على القيثارة والطبول، ووضعت المباخر حول التمثال فتصاعدت منها رائحة الطيب المعطر، ووُزِّع شرابٌ من العوسج المخمر في كئوس دارت على كبراء القوم ومشايخهم، لامست الألحان أوتار القلوب، وانتشت العقول بالخمر والطيب، وحركت

الحرارة في الدماء في العروق، وتسللت الترانيم الحقة إلى النفوس:

شجِّع فؤادَكَ على أن ينسى أحزانَك

ولتُسَرّ باتباع رغباتِك

وأنت لا تزال على قيد الحياة

ضَعْ العطور على رأسك

وارتدِ أفضل ملابسك

وضمِّخها بالعطور الجميلة

تلك أشياء الإله الأصيلة

وزد كثيرًا في أفراحك

ولا تجعلن قلبك يضنى

اتبع ما تشتهي وما يطيب لك

حسبما يمليه عليك قلبك

قبل أن يأتي يوم حتفك

حين لا يسمع صاحب القلب الساكن نحيبهم

ولا الذي في القبر يصغي إلى عويلهم

اغتنم السعد بيومك

ولا تُجهدن نفسك فيه

فلم يأخذ إنسانٌ متاعه معه

ولم يعد أحد ممن رحلوا إلى دنيانا

ومسّت كلماتهن شغاف القلوب التي أضناها الشقاء والتعب، فهامت النفوس المشتاقة إلى الراحة في رحاب الإله الذي يدعو للسعادة والمرح، وبكى الناس بكاء الوجد إلى الرب الأبكم الأصم، الذي يعطي الويلات، ولا يكلف بالتبعات، فأهرقوا الدماء قربانًا له، وعفّروا الخدود والجباه مذلة لرضاه.

وشهدت الليلة التالية أحداثًا أكثر مجونًا مما حدث في الليلة السابقة، امتلأت ساحة النزل بألوان الخمور، من عصير التمر وعصير الشعير وشراب العوسج والسيلة، واندفع الناس في رقص محموم على إيقاع الطبول والمزامير، فتلاحمت الأجساد العارية، وتعالت الصرخات، وانتثرت الأرواح الفانية في النشوة كقطرات تسبح في الهواء، وطافت مع أريج البخور في أجواء النزل، وبينما هم كذلك، إذا بالغيوم تتكاثف وإذا بالسماء ترعد، وإذا بنبي الله (موسى) فوق رءوسهم، يقف كالجبل الشامخ، ويطل عليهم في حسرة وغضب، صرخ (موسى) صرخة، زلزلت أركان النزل، فتوقفت المعازف، وتجمد الراقصون عرايا، وطارت نشوة الخمر من أدمغتهم وانتبهوا من غفلتهم، فتواروا عن عينيه تحت جواري سوءاتهم، ألقى (موسى) لوحين من الحصى كانا بحوزته في غضب فتبددا ترابًا، ثم هبط إليهم كالسيل الهادر يشج رءوسهم بعصاه ويركل من تطوله قدماه، والناس تفر من أمامه كما تفر الخراف من راعيها، وجاء (هارون) إلى ساحة النزل أخيرًا حين علم بعودة (موسى)، حملته قدماه إلى أن يقف أمام أخيه الثائر كالبركان، فامتدت اليد القوية إلى لحيته ورأسه، تنتزعه من الأرض انتزاعًا، وتجره على أرض النزل أمام أعين الناس الذين ارتعدوا خوفًا، ثم صرخ (موسى) كليث يوشك أن يفتك بفريسته:

- تركتك خلفًا لي لتمنعهم!

جاء صوت (هارون) باكيًا متألمًا مختنقًا وهو يرفع يد أخيه عنه قائلًا:

- دع لحيتي.

وكأنما أشفق (موسى) على أخيه من الألم فسحب عنه قبضته، وتركه يدافع عن نفسه، مسح (هارون) التراب عن رأسه وقال كسير النفس حزينًا وهو يجلس على الأرض:

- لا تلومني، فلولا خشيتي منك لقاتلتهم.

ثم أشار بيده نحو (السامري) وقال:

- سل ذلك الرجل الذي أضلهم بعجله الذي صنعه بيده.

لم يلتفت (موسى) نحو (الشامري) بل التفت إلى الجموع التي وقفت متكسرة تستر أجسادها العارية بأيديها، ويختبئ السكارى منهم خلف الزحام، ثم قال مذهولًا:

ـ أهذه هي الوصية؟! أهذا هو الوعد؟!

نكسوا رءوسهم، وارتعدت فرائصهم، وتحدث (جدعون) الحداد وقد ارتعش صوته الأجش حتى صار كنباح جرو قائلًا:

ـ وما [illegible] يا (موسى)؟!

[illegible] (موسى) [illegible] لا تنالها [illegible] من اليد القرمزية، فقال [illegible]

ـ وعدتنا بالعودة بعد ثلاثين ليلة، ولم تعد [illegible]

قال (موسى) [illegible]

ـ عشر ليالٍ! لم [illegible] على وعد الرب عشر ليالٍ!

ثم قال حسيرًا كمن بنى بيانًا من القش، عصفت به الرياح:

ـ بئسما خلفتموني من بعدي!

قال (عزريا)، وكان أحد كبراء سبط رأوبين ويجيد الحديث:

ـ يا (موسى) لقد وقعنا في الخطيئة، وأضلنا ذلك (الشامري)، قال إننا قد حملنا خطيئة من ذهب المصريين وأوصانا بالتكفير عنها بحرقها! فإذا به يخرج لنا ذلك العجل من محرقة النار [illegible]، صدقني يا نبي الله لقد أضلنا هذا الرجل وسحرنا بسحر المصريين!

هتف الناس وكأنما وجدوا في إلقاء التبعة على (الشامري) سبيلًا للنجاة:

ـ نعم لقد أضلنا (الشامري)! لقد أضلنا (الشامري)!

كان (الشامري) يقف إلى جوار العجل غير عابئ بهتاف الجماهير، فقال له (موسى):

- ما خطبك أيها الرجل؟!

التفت إلى سؤال (موسى) وكأنما كان في غفلة عن الحديث، فرفع كتفيه ثم قال في اعتداد وكبر:

- خطبي أنا؟! لا أظنك تجهلني يا ربيب الفرعون! أنا (السامري)! فنان هيئوم ومبدعها! أنا من يخلق من الحجارة آيات من الجمال، وأنا من إذا مست يداه التراب صار حيًّا، أتريد أن تعرف ما خطبي؟ قد بصرت بما لم يبصروا به ومست يدي أثر الرسول.

ثم انحنى برأسه نحو (موسى) وقال:

- الرسول الذي ضربنا! وليس أنت يا ابن عمران!

ثم قبض أصابعه في قوة وهو يقول بصوت عال:

- رأيت أثره في الرمال، فقبضت منها قبضة صنعت منها ما لا يقدر بشر على صنعه، حتى أنت يا صاحب العصا.

ذهل الناس مما يقوله (السامري)، وساورهم الشكُّ في أن يكون الرجل لا يزال يحتفظ بعقله، وتأكد لديهم ذلك حينما تحسس الجسد الذهبي في عطف وحنو، وقال كالمجذوب:

- انظروا إلى صنعة يدي! أرأيتم في بر مصر تمثالا بهذا الجمال؟ ألا يستحق هذا الجمال أن يعبد، ألا يستحق أن يكون إلهك وإله بني إسرائيل.

قال (موسى):

- بل انظر أنت إلى إلهك حين نحرقه أمام عينيك!

صرخ (السامري) كالمجنون:

- لن يمسه أحد، لن يمسه أحد.

قال (موسى):

- اصرخ كما شئت

صرخ (السامري):

- قلت لك لا مساس.

قال (موسى):

- رددها حتى تسمعها الوحوش في البرية!

ثم أشار إلى (يوشع)، فانطلق (يوشع) ومعه الرجال من سبط لاوي يحطمون التمثال بالمعاول، و(السامري) يجري المجنون وهو يقول:

- لا مساس! لا مساس!

ثم حمل الرجال حطام التمثال، وأحرقوه في منتصف النهار أمام أعين بني إسرائيل

وحانت لحظة الحساب، اجتمع رؤوس الفتنة في حضرة (موسى)، نكسوا رؤوسهم وأُسقط في أيديهم، وعلموا أنهم قد ضلوا، فتقدم (عزرا) للحديث، فضلاً عن كونه معترفاً خطيئته، فكان هو من تزعم الثورة ضد (هارون) من قبل، فوقف أمام (موسى)، وقال في ذلة وانكسار:

- يا نبي الله! قد فُتنّا، وضللنا، وظلمنا أنفسنا بعبادة العجل، فادع لنا ربك يغفر لنا ذنوبنا، فقد اعترفنا بها.

قال (موسى):

- نعم قد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل.

قال (عزرا) وقد تهلل وجهه وظن أن (موسى) قد عفا عنه:

- إن شئت قدم كل واحد منا قرباناً حتى يغفر الرب لنا ويتوب علينا.

قال له (موسى):

- أتريدون أن تتوبوا إلى بارئكم؟

قال (عزرا):

- نعم.

قال (موسى):

ـ اقتلوا أنفسكم!

بهت (عزرا) وقال:

ـ ماذا؟

قال (موسى):

ـ كل من صنع العجل يقتل، لمتوب الرب عليه وعلى بني إسرائيل!

تراجع عزرا ومن معه مذعورين فوقف (موسى) على باب الخيمة ونادى في الناس:

ـ من كان خاضعا للرب فليأت إلي.

فتجمع إليه سبط اللاوي وقد تمنطق بعضهم بالسيوف والخناجر. فقال (موسى):

ـ هكذا قال السيد الرب: لا يحنو أحد منكم على قريب أو بعيد، كل من عبد العجل يقتل فتكون كفارة له ولمن بقي من بني إسرائيل.

وشعر عبدة العجل أنهم هالكون لا محالة، فرفع بعضهم السلاح، بينما فر من كان منهم دون سلاح هاربا في طرقات التزل، ووقعت مقتلة عظيمة في الساحة، لم ينج فيها رجل أو امرأة ممن عبدوا العجل من القتل، فقطعت الرءوس والرقاب، وامتلأت الساحة برائحة الدماء، وقبل أن يحل المساء كانت الجوارح تحلق في سماء التزل، وهي تتطلع بنهم إلى وليمة عظيمة من ثلاثة آلاف قتيل.

ورغم أني لم أر تلك الواقعة، ورغم صغر سني، فإنني شعرت حينها بأن إله بني إسرائيل قد ضاق ذرعا بشعبه المفضل، وبدا أن الشعب الذي أضله التضليل قد حق عليه أن يذوق قسوة العقاب، ويا لها من قسوة!

ولما فرغ (إيليا) من حديثه، بكى أبي بكاء شديدا، وسأله:

وماذا حل بالسامري؟ قال (إيليا):

ـ أصابه داء في جسده، فامتلأ جلده بالبثور، وفقد نور عينيه، وظل يهيم في

الصحراء وهو يقول: لا مساس، لا مساس، حتى فقدنا أثره.

قال أبي متوجعًا:

ـ وكيف حال (باتشيفا)؟

قال (إيليا):

ـ هزلت، وانكسر فؤادها، وقد حلت ضيفة على بيت من بيوت والديها

قال أبي حزينًا:

ـ هي مشكلتي يا أخاه لشيء ما تركتك في الترقب وحدك

ثم نادى أبي على زوجته يطالب

يا أهل الدار اجمعوا المتاع، فقد آن وقت الرحيل

الورقة الثانية عشرة

عدنا إلى وادي حوريب قبل مساء اليوم الثالث استقبلتنا وجوه يكسوها الخزي والألم ونفوس ترزح تحت وطأة الذل والانكسار تكلف الناس الابتسام المترحب بعودتنا، وأصحو الطريق للوحيد الذي لم تقع عيناه على عجل (الشامري)، أناخ أبي الراحلة إلى جوار الكهوف ثم أخذني وانطلق إلى دار ابن عمه (ملاخي) التي حلت عليه العمة (باتشيفا) ضيفة بعدما اختطف زوجها (الشامري) في الصحراء، نادى أبي على أهل الدار، فخرجت إليه زوجة (ملاخي) الغريبة الأطوار وقد عصبت رأسها بعصابة سوداء، وتعفر وجهها وجلبابها بنخالة الدقيق، حياها أبي قائلًا:

- مرحبًا يا أم (إلياس)، أين (ملاخي)؟

لم ترحب بنا وكأننا لم نفارق الحي شهرًا، وقالت بصوتها الحاد:

- هل جئت لتبحث عن (باتشيفا)؟

أجابها متلهفًا:

- نعم.

أشارت بيدها نحو الصحراء، ثم قالت:

- تخرج مع الضحى إلى طرف الصحراء وتعود عند المساء، ما زالت تأمل في عودة زوجها المعتوه، لعنة الرب عليه!

رأيت الألم يعتصر وجه أبي، ثم قال في حزن:

ـ وأين (ملاخي)؟

قالت:

ـ قد ذهب مع الرجال إلى خيمة الكليم، يقولون إن (موسى) سيختار من الأسباط سبعين رجلًا، سيصحبهم إلى جبل الرب للاعتذار عن عبادة العجل.

تعجب من حديثها وأراد أن يستوضحها أكثر، ولكنها أشارت إلى امرأة ترتدي السواد، دخلت فاستقبلتها من باب الحي وقالت:

ـ ها قد عادت (باتشيعا)!

فالتفتنا ورأيناها، امرأة ترفل في رداء أسود، شديد الاتساخ، وقد انحنى ظهرها، ونحف جسدها، وبدت أكبر من عمرها بعشرات الأعوام، لم أرَ حزنًا وشفقة على وجه أبي مثلما رأيتهما في تلك اللحظة، بالكاد منع دموعه فانسابت، حينما رأى أخته الوحيدة، وقد أرهقتها أيام الفقر، فبدل غناها فقرًا، وعزها ذلًا، وتحطم كبرياؤها على صخرة الفاقة والجوع، هرول أبي نحوها وناداها:

ـ هوّني عليكِ يا أختاه، بأبي أنت وأمي يا (باتشيعا)!

انتبهت إليه، تمعنت في وجهه لحظات، وكأنها لا تصدق أنها تراه، ثم ألقت بنفسها على صدره باكية، وانتحبت في شجون وهي تقول من بين دموعها:

ـ آه يا (زخاري)، خسرتْ أختك زوجها وحياتها، وسئمت العيش، حتى صار الموت أقصى أمانيها.

احتضنها باكيًا وقال:

ـ حفظك الرب يا (باتشيعا)، هوّني عليك، فإنما هي الأقدار، ولا يظلم ربنا أحدًا.

قالت مُترجية:

ـ ادْعُ الرب لنا يا (زخاري)، فأنت رجل صالح، ادعه أن يقضي عليّ وعلى

(السامري) بالموت، فإنني أموت في اليوم مائة مرة كلما تذكرته هائمًا على وجهه في الصحراء، يفرّ من الناس كلما اقتربوا منه ويقول: لا مساس.

ربت على كتفها وقال:

- بل أدعوه أن يغفر لنا جميعًا.

ثم سحبها من يدها قائلًا:

- هيا (يا أشفاء)، فلا مقام لك إلا في دار أخيك.

ترددت بعض الشيء، فقال مشجعًا:

- هيا أختاه، ولا تحملي هم (روماتا)، فإن في قلبها رحمة، لو وزعت على بني إسرائيل لكفتهم!

فسعته إلى الدار، واجتمع في كوخنا نساء قلما تطأ، ما كان ليجمعهن على تناقضهن سوى قلب عامر بالصدق، مثل قلب (زخاري)، وامرأة شديدة التسامح مثل (روماتا).

وفي اليوم التالي اجتمع الشعب في ساحة النزل، فقد اختار (موسى) من بني إسرائيل سبعين رجلًا ومعهم (هارون) وولداه (ناداب) و(أبيهو)، حتى يصعدوا إلى الجبل لطلب المغفرة لبني إسرائيل، والاعتذار عن فتنة العجل، أمرهم (موسى) أن يغتسلوا وأن يطهروا ثيابهم، وأن يصوموا عن الطعام والشراب، وألا يكف لسان الواحد منهم عن التوبة والاستغفار، وودع الشعب البعثة المباركة بالدعاء والأمنيات الطيبة.

ورأيت من بين المختارين للميقات (ملاخي) ابن عم أبي، يسير مختالًا فرحًا، وزوجته غريبة الأطوار أم (إلياس) تودعه بالزغاريد وتقول له:

- هنيئًا لك رؤية الرب يا (ملاخي)!! هنيئًا لك يا شيخ رأوبين!!

وتجاوزت بعثة الاستغفار الوادي المقدس ووصلت إلى سفح الجبل، فأوقفهم (موسى) عند سفح الجبل المقدس، وطلب منهم أن يسجدوا للرب، وألا يكفوا عن طلب العفو والمغفرة مهما حدث ومهما سمعوا، في حين سيصعد

هو إلى قمة الجبل لمناجاة ربه، والاستغفار لهم، ونهاهم عن تتبعه، وألا يبرح أحد منهم مكانه حتى يأذن الرب له.

يقول (ملاخي):

- ففعلنا مثلما أمر (موسى)، وظللنا نلهج بالدعاء والاستغفار، ومرت الساعات حتى جاوزت الشمس سفح الجبل، وبدأ الجو يبرد، والسحاب يتثاقل على قمة الجبل، ولم نلبث أن رأينا بروقًا وسمعنا رعودًا في السماء، فخاف الناس وارتعبوا، لما كانت الصواعق على مقربة منا، وصوت الرعد يزلزل الخوف في أعماقنا، فشدد (هارون) علينا قائلًا:

- لا يبرح أحدكم مكانه، ولا تكفوا عن التسبيح والاستغفار.

فهمس إلى (شافاط بن حوري) من سبط (شمعون) وكان بجواري في السجود قائلًا:

- هل أتى الرب إلى الجبل؟

همست إليه قائلًا:

- لا أدري؟

جاء صوت (نحيا) من ورائنا مشاركًا في الحديث الهامس:

- لا بد أنه موكب الرب، ألا تسمعون صوت الرعد الذي يشبه صوت الأبواق.

قال (شافاط) متمنيًا:

- ليته يتجلى لنا جهرة، إذن لأصابنا فضلٌ لم ينله أحدٌ من بني إسرائيل.

فقلت متشككًا:

- قد أتينا للاعتذار وطلب المغفرة، فهل يتجلى الرب على قوم من العصاة؟!

قال (نحيا):

ـ وما الضرر إذا سألناها كما سألها (موسى)؟! ألم يسأل (موسى) ربه أن يتجلى له؟

قال (شافاط):

ـ بلى! ولكنه لم يقو على رؤيته.

قال (شافاط):

ـ نحن سبعون شيخًا كانت قوة (موسى)، فهي لن تبلغ قوة سبعين رجلًا من بني إسرائيل.

جاءنا صوت (ماثير) خفيضًا لنا كالفحيح:

ـ وحينها سنعلم إن كان (موسى) صادقًا أم كاذبًا!

بهت الساحرون من كلام (ماثير)، وتلاقت نظراتهم في توجس، وقلت أنا مستنكرًا:

ـ حذارِ يا رجال، نحن في حضرة الرب ولا بد أنه يسمعنا ويرانا.

قال (ماثير) في لهجة ذات مغزى:

ـ لا تخف، فالرب يستمع فقط لموسى ويراه!

ثم أردف:

ـ ويوحي إليه بقتل ثلاثة آلاف من رجالنا

دارت كلماته رءوس الرجال، وألقت في نفوسهم الساكنة بأحجار من الشك. فسكتت همهمات التسابيح والاستغفار، وشعر (هارون) بقلق فنادى على القوم:

ـ اسألوا الرب أن يرفع مقته وغضبه عنا، ولا تغفلوا عن التسبيح والاستغفار.

ولم تمض دقائق حتى سكنت السماء، وانقشعت السحب، وتوقفت الرعود والبروق، وعادت الشمس للظهور، ثم تلتها ساعة أخرى، قبل أن نرى (موسى) هابطًا من فوق قمة الجبل إلى السفح، وقد تهلل وجهه، وبدا عليه الفرح

والحور، وحينما وصل إلى السفح باشرنا بالبشرى قائلاً:

- أبشروا أبشروا! قد غفر الرب لبني إسرائيل، وتجاوز عن فتنة العجل، فظل بعض المشايخ فرحين، وكبّر (هارون) وولداه، ثم خرّوا للرب ساجدين.

وبعد أن هدأت الجلبة، قال (ماثير) متحايلاً:

- وددنا لو سمعناها بآذاننا كما سمعتها أنت يا نبي الله.

لم يعلق (موسى) فقال (شافاط):

- والله لقد استبشرنا خيرًا حينما رأينا موكب الرب في السماء، وسمعنا أصوات رعده، وأنوار بريقه.

قال (موسى):

- ليس هذا بموكب الرب، إنما الرعد والبرق جنديان من جنوده، ولتعلم يا (شافاط) أنه لا يرى موكب الرب إنسان فيعيش.

قال (نحيا) في سماجة:

- يا نبي الله قد وعدتنا بالمغفرة من قبل، وأمرتنا بأن يقتل بعضنا بعضًا حتى يتوب الله عليهم، فقتل الأخ أخاه، وقتل الأب ابنه، وظننا أن الله قد غفر لنا ذلك، ثم أمرتنا بالصعود إلى الجبل حتى يتوب الرب علينا، فهلّا أسمعتنا عفو الرب بآذاننا؟

غضب (موسى) وقال:

- أتكذبونني فيما أقول؟

قال (شافاط):

- حاشا لله أيها الكليم، ولكن لتطمئن قلوبنا، ولا تغضب! فقد سألت أنت ربك ما هو أكبر من ذلك.

ومضت السماء بنا ببرق خاطف ثم أرعدت لحظات، ثم قال (موسى) في غضب:

- قد سألتها وقلبي عامر بالإيمان، أما أنتم فسألتموها وقلوبكم ملأى بالشك!

قال (مائير) وقد كشف عن وجهه القبيح:

- وكيف يؤمن المرء بما تكذبه عيناه؟!

قال (موسى) محتدًّا:

- وماذا أنكرت عيناك يا (مائير)؟

قال (مائير):

- تركتنا عند السفح، وصعدت وحدك إلى الجبل، ثم عدت لتخبرنا أن الرب قد تحدث إليك وغفر لبني إسرائيل، فكيف نشهد على ذلك، ونحن لم نسمع له صوتًا، ولم نر له أثرًا.

تعالت البروق والرعود وجاء صوت (موسى) هادرًا:

- ويحكم!! إنكم سفهاء بلا عقول، أبعد العفو تكفرون؟

قال (مائير) متحديًا وقد انعكست على وجهه أنوار البرق التي ملأت السماء:

- اسمع يا ابن عمران قد صدقناك فيما مضى، أما الآن فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة و....

لم يكمل (مائير) حديثه، ولم نشهد نحن ما حدث بعدها، فقد انقضت علينا صاعقة البرق من السماء، انتفض جسدي كله كمن لسعته مئات السياط، وسقطت صريعًا ومعي سبعون رجلًا من بني إسرائيل في التو واللحظة. كم مضى علينا من الوقت؟ لم ندر، ولكن (هارون) أخبرنا بما حدث أثناء ذلك، فقد أصابه الذهول، وكاد أن يسقط مغشيًا عليه حينما رأى سبعين رجلاً من شيوخ بني إسرائيل يسقطون صرعى في لمح البصر، أما (موسى) فقد جثى على ركبتيه وانهار باكيًا، لم يصدق أن يحدث هذا بعد أن نال العفو من الرب على بني إسرائيل، وبدلًا من أن يعود إلى شعبه بالبشرى، سيعود إليهم بجثامين شيوخهم صرعى مرة أخرى، رفع يديه إلى السماء، وعلا صوت تضرعه في السماء حتى فاق صوت الرعد وظل يصرخ في رجاء:

- إلهي، رحمتك أن تغفر لهم خطيئتهم وإلا فلتمحني من كتابك الذي كتبت. فغفرت لهم، وقبلتهم كما قبلتهم من قبل.

ألم تنجهم من سنابك الفرعون؟

ألم تنجهم من الغرق في اليم؟

ألم تنجهم من الهلاك في برية سيناء؟

إن شئت أهلكتهم من قبل وإياي

أتهلكنا الآن بما فعل هؤلاء السفهاء منا؟

إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي بها من تشاء!

اغفر لنا أيها السيد وارحمنا، اغفر لنا فأنت خير الغافرين.

وظل (موسى) يبكي ويتضرع حتى ارتجفت أجسادنا من التأثر، وأشفقنا من ضر عتنا، وقد علمنا أن الرب إله إسرائيل، قد صار عندئذ الرب إلهنا من رحمته!

* * *

الورقة الثالثة عشرة

وبدأ العام الثالث من الخروج بحدث مثير في تومختا الصغيرة، فقد أنجبت العمة (سولاف) بنتًا جميلة أسموها أبي (باتيا)، والتي تعني في لغتنا (أمة الله)، كانت (باتيا) فائقة الحسن مثل أمها (سولاف)، بياضها كفلقة الصبح، وعيناها في زرقة السماء، ووجهها لا يكف عن الابتسام، لا تنفر من الغرباء، وتستجيب لكل مداعب بمناغاة وضحكات ترقق القلوب، وتملأ الوجدان فرحًا وبهجة، وأثارت الطفلة الحسناء مشاعر شتى في نفوس نساء الدار، فقد شعرت أمي (روماتا) التي انقطع حملها بعدما أنجبتني بالغيرة والحنين إلى الولد، وازدادت العمة (باتشيفا) حزنًا على حالها وعزلة في الدار، وكانت تبكي على مصيبتها التي أصابتها على الكبر وتركتها بلا زوج ولا ولد، أما (سولاف) فقد أصابتها الفرحة بطفلتها - التي جاءت بعد طول اشتياق - بهوس الخوف على الرضيعة من كل شيء، فكانت تخشى عليها من البرد والحر والإنسان والحيوان، بل صارت تخشى عليها من نفسها، وتسبب ذلك الخوف في مشاحنات شتى بينها وبين العمة (باتشيفا)، وفتور بينها وبين والدتي (روماتا)، واستبد القلق بها حتى أصابها الشك فيمن حولها بالجنون وسوء الظن، عدنا أنا وأبي ذات ظهيرة إلى الكوخ، فاستقبلنا صراخ يمتد إلى طرف الحي، وقد تجمهر بعض النسوة أمام الكوخ، دخل أبي فوجد العمة (باتشيفا) تبكي في الدار، بينما كانت أمي

لتحضنها مواسية، و(سولاف) تصرخ كالنمرة الهائجة، ونساء الحي يمنعنها عن (باتشيفا) في صعوبة، صرخ أبي ناهرًا:

- كفي عن ذلك يا (سولاف).

صرخت في هياج:

- بل مرها أن تكف عن ابنتي الوحيدة.

قال أبي حانقًا، وقد اعتاد شكها في كل ما تفعله (باتشيفا):

- بل تعالي أنت. سوء ظن تجيء حولك.

قالت مصدومة من قوله:

- كذبتني قبل أن تسمعني!

ثم انهارت باكية وقالت:

- ومن يسمع للمرأة الغريبة في هذه الدار؟

أشار أبي للنسوة بالخروج، ثم اقترب من (سولاف) وربت على كتفها قائلًا:

- اعذريني يا (سولاف)، فلن يؤذي (باتيا) إلا خرافات عليها.

قالت محتدة:

- أريد دارًا أقيم فيها وحدي.

نظر أبي إلى أمي، فأشارت إليه أمي محلقة بالتي

فقال أبي:

- ومن يرعاك ويرعى (باتيا) يا (سولاف) إلا ما سكنت وحدك

قالت كمن تيقن من أمر تشعر به ولا تصدقه:

- هل أصابني الجنون يا (زخاري)؟

احتضنها قائلًا:

- كلّا يا أم (باتيا) فقد سألت اليوم الطبيب (يعقوب)، وأخبرني أنه قرأ

في أوراق (الحوت) أن نساءً قد يصيبهن عصابًا بعد الولادة، وأعطاني حنطة وخميرًا، ويوصيك بشربهما في كل صباح.

هدأت ثم استكانت نائمة إلى جوار ابنتها، فقام أبي وأخذ بيد العمة (باتشيفا)، وتبعتهما أمي إلى خارج الكوخ.

قالت (باتشيفا) باكية وهي تدافع عن نفسها:

- كانت الطفلة تبكي من شدة الجوع، فهي لم ترضعها منذ الصباح، فأسقيتها رشفات من لبن الماعز ليهدأ جوعها، فرأتني وظنت أني أضع الشر للطفلة.

ربت أبي على كتفها وقال:

- اعلم يا (باتشيفا) أنك لا تريدين سوى الخير، وحق الرب لولا خشيتي عليها وعلى الطفلة، لأرسلت لها كرختًا في طريقها أمي، ولكني لا آمن عليها البقاء وحدها.

قالت أمي:

- أحقًا ما ذكره الطبيب (يعقوب)؟

قال:

- نعم، كما أخبرني أن أعزلها عن ابنتها حتى لا ينتقل إليها الجنون.

شهقت أمي فزعة، وقالت عمتي (باتشيفا) وقد استعادت شيئًا من طبعها القديم:

- ظننا الجنون في (سحرول) نصيبًا لأبيه، فإذا به زوجًا لأمه!

لم يعلق أبي وأوصاها بألا يعقلا عن الطفلة وأمها حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

واستيقظنا ذات سبت على بكاء الطفلة (باتيا) الذي استمر طويلًا بلا انقطاع، أطلت أمي عليها فوجدتها وحدها ولم تجد (سرلاف) في فراشها الذي كان باردًا وكأنها لم تبت فيه، استيقظنا جميعًا على نداء أمي وهي تقول:

- أمك (سولاف) يا (زخاري) فقد خرجت وحدها وتركت الطفلة

هرولت وراء أبي، ودرنا حول الكوخ لعلنا نعثر عليها فلم نعثر لها على أثر، توجس أبي شرًا، فعاد وأمر أمي بأن تطعم الطفلة، ثم أخذني معه للبحث عن (سولاف) في النزل، طفنا شوارع النزل الخالية في تلك الساعة المبكرة من يوم الراحة، سألنا أقاربها، وجيرانها القدامى، فلم يدلنا أحد منهم على خبر، خرجنا للبحث عنها خارج النزل، مررنا بدغل قريب به لفيف من الأشجار الصغيرة وقد انتصب أمامه شجرة ملتفة الأغصان من أشجار الطلح، اقتربنا من الدغل بعدما شعر أبي بأن شيئًا يتأرجح بين فروع الشجر، وما إن اقتربنا حتى شهق أبي، وكدت أسقط مغشيًا علي، فقد كانت العمة (سولاف) تتدلى من أفرع الشجرة وقد تعلقت رقبتها برداء من الكتان بينما تأرجح جسدها في الهواء كدمية لا حياة فيها.

• • •

الموت...

كلمة قصيرة الحروف سهلة النطق، ولكنها قادرة على هز الوجدان، وقض المضاجع، تعجبت أننا لا نشعر به ولا نتذكره إلا إذا اختطف عزيزًا لدينا، أو قريبًا كانت بيننا وبينه مشاهدات وحياة.

كانت الفجيعة عظيمة، بكى أبي وأمي على وفاة (سولاف) بكاءً صادقًا مرًا، وشاركتهما عمتي (باتشيبا) الحزن رغم ما كان بينها وبين (سولاف) من نكد ومشاحنات، وشعرتُ رغم صغر سني أن الأقدار قد تقسو أحيانًا على بعض البشر، فتسحبهم السعادة في وعاء من الكدر، وذلك لعلم تجهله وحكمة لا تستقيها، وكانت (باتيا) الصغيرة هي تلك السعادة التي مُنحناها من رحم الألم، والمعزي الذي سبق إلينا بالعزاء قبل أن يبدأ الحداد.

ولم تمض سوى بضعة أيام على وفاة (سولاف)، حتى علا صوت البوق في النزل، ولم يكن الوقت وقت ارتحال فعلمنا أن أمرًا جللًا قد وقع، تجمع

الناس في ساحة النزل، ولبثنا ساعة أو بعض ساعة قبل أن يخرج إلينا كليم الله بالبشرى، فقد أوحى الله إليه نسخة من الألواح التي فقدت يوم فتنة (السامري)، فهلل الناس فرحين بنزول الشريعة، وانهالت دموعهم غبطة حينما سمعوا كلمات الرب في وصاياه العشر لشعب إسرائيل، أحس كل امرئ منهم بأن الرب يخاطبه وحده قائلًا: «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمام وجهي»، «أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك»، «لا تقتل»، «لا تزن»، «لا تسرق»، «لا تشهد على قريبك شهادة الزور».

ساحت عرس القوم وحلت عليهم السكينة خشعت قلوبهم، وصمتت آذانهم أمام كلمات الحق التي هبطت عليها من السماء، وشعرنا لأول مرة بأن الرب قد اختصنا وحدنا بخيره من العالمين، ثم أخبرنا كليم الله بأن الرب قد أمره بأن يقام له بيت للعبادة في وسط بني إسرائيل

قال:

- لا تطئوا موطئًا ولا تنزلوا منزلًا، إلا وبيت الرب قائم في وسطكم.

ثم دعا كل واحد من بني إسرائيل للجود بما يستطيع من ذهب وفضة ونحاس أو حتى مسحة من دهن أو قنينة من عطر حتى يتسنى بناء بيت الرب الذي أسماه خيمة الاجتماع، فاشتعلت قلوب الناس حماسة، وتسابق الناس في الجود بما يملكون من ذهب وفضة وأحجار كريمة.

وعهد (موسى) إلى رجل صحيح الإيمان شديد الحنكة والمهارة اسمه (بصلئيل بن حور) بمهمة بناء خيمة الاجتماع، وكلفه بأن يختار من بني إسرائيل أمهر النجارين والناسجين وصناع الذهب والنقش، ليقوموا ببناء بيت الرب.

كان الوقت وقت ظهيرة حينما جاء (بصلئيل بن حور) إلى كوخنا في حي رأوبين، كانت أمي تقلب الدقيق في الماء المغلي، وقد ارتدت السواد الذي لم يفارقها منذ أن ماتت العمة (سولافة). بينما كانت العمة (باتشيفا) تسقي

(باتيا) الصغيرة رشفات من لبن الناقة، أما أبي فكان يبني جدارًا من الحجر لحجز وراءه الناقة التي شردت قبل ذلك بيومين في المنزل وكادت أن تقتل طفلًا من أبناء الحي، ناولتُ أبي حجرًا انتفخت تحت وطأة ثقله عضلات ساعدي الصغير، فالتقفه أبي في يسر، ثم لطخه بالطين اللازب، ووضعه فوق البنيان الذي علا حتى حاذى ارتفاع رأسي، ثم قبض قبضة من الطين وسد بها الفرجات من حول الحجر، ومسحها بيديه حتى صار سطح الجدار مستويًا، جاءنا صوت (بصلئيل) من الخلف قائلًا:

- هل تركت التجارة يا (زخاري)، وصرت تعمل في البناء؟

تهلل وجه أبي، ونفض يديه من الطين، ثم هرول مرحبًا بالرجل الجليل، ربت (بصلئيل) على كتفه بينما قال أبي ممازحًا:

- أصاب البوار صنعة التجار في صحراء سيناء، ولولا صنع المثاني والأقفاص لنسي (زخاري) حرفته.

جلسا على صخرة ثم قال (بصلئيل) في بشاشة:

- حسنًا، لقد آن الأوان كي يتذكر (زخاري) حرفته!

قال أبي في حبور:

- بارك الرب خطواتك يا حكيم، قد استشرفت خيرًا من زورتك، ولعلك أتيت لتمنحني شرف المشاركة في بناء بيت الرب.

ضحك (بصلئيل) وقال وهو يضرب على كتف أبي في رفق:

- ومن أدراك أنني لم آتِ إليك بما هو أكبر؟!

ازداد اهتمام أبي، وقال في صدق:

- وهل هناك ما هو أكبر شرفًا من ذلك؟

مال (بصلئيل) نحوه وكأنه يُسِرُّ إليه بمفاجأة:

- نعم، سأعهد إليك بصنع تابوت العهد.

تساءل أبي متعجبًا:

- تابوت العهد؟!

قال (بصلئيل) جادًّا:

- نعم، تابوت العهد، ستحل عليه سكينة الرب، وستوضع به ألواح الهداية التي أرسلها لبني إسرائيل، وسيحمله بنو إسرائيل معهم أينما ذهبوا، ويتقدم لحمله بنو (لاوي)، لا أحد سواهم، هكذا أمر الرب!

لمعت عينا أبي فرحًا وترقرقت فيهما الدموع، وهو يقول:

- أحقًّا يا حكيم بني إسرائيل؟! وحق الرب إن له الشرف ما بعده شرف،

وهوى على يد (بصلئيل) يقبلها، فقال الشيخ مبتسمًا:

- قد أمرني نبي الله (موسى) أن أختار من نجاري القرية أصلحهم وأمهرهم لتلك المهمة، ولا يوجد في القرية من يكافئك مهارة وحرفية يا (زخاري)، ويكفيك أنك الرجل الذي لم تقع عينه على عجل (السامري).

ثم قال وهو يستعد للانصراف:

- قد جمعنا من الأخشاب أجودها، ومن الزينة أطيبها، وغدًا نبدأ في العمل!

ثم أشار نحوي وقال:

- وإن شئت أتيت بهذا الغلام ليعاونك، فلعله يشب على طاعة الرب مثل أبيه.

• • •

الورقة الرابعة عشرة

وتحلى البناء، وبما يليق ببيت الرب كأروع ما يكون من البهاء والفخامة، كان طول الخيمة المباركة ثلاثين ذراعًا، وعرضها خمس عشرة ذراعًا، تحملها أربعة أعمدة مطلية بالذهب، وقد صنعت جدرانها من الخوص المزين والمطلي بالأرجوان، أما السقف فقد صنع من خشب السنط المحلى بعروق الذهب والفضة وقد غطاه من الخارج بغطاء من جلود الكباش والماعز ليقيه حر الصيف وزمهرير الشتاء، وأمر نبي الله بأن تُقسم الخيمة من الداخل إلى قسمين، قسم خارجي اسمه المقدس، وضعت به منارة من الفضة، ومذبح البخور، ومائدة يوضع عليها الخبز والفطير في أيام السبت، أما القسم الداخلي فكان معزولًا عن المقدس بحجاب من حصير منسوج، لا يدخله أحد إلا نبي الله أو الكاهن الأعلى (هارون)، وكنا نسميه قدس الأقداس، وبه وضع تابوت العهد الذي صنعه أبي، والحق أن التابوت كان آية في الجمال، وما زلت أتذكر شهقة أمي حينما وقع بصرها على التابوت لأول مرة وهي تقول:

- وحق الرب إنه لأشد روعة من توابيت الفراعين!؟

فتبسم أبي ضاحكًا وقال:

- أما رأيت خيرًا من توابيت الفراعين لتشبهي تابوت العهد!

تحرجت قليلًا وقالت:

- ذكّرني خطاؤه الذهب بما كان يصنعه الفراعنة لأنفسهم

قال أبي ليرفع عنها الحرج:

- أن يزيده الذهب بهاءً، ولكنه سيزدان بألواح الرب وكلماته.

وكان القداس الأول بعد بناء الخيمة قداسًا لا يُنسى، مسح (موسى) أخاه (هارون) وابنيه بالدهن المقدس، ونصّبه الكاهن الأكبر لبني إسرائيل، وأعلن الكهانة في أبناء (هارون) ونسلهم إلى يوم الدين، أضيئت أسراج المنارة بزيت الزيتون وتصاعد عطر البخور الذي صنعه (هارون) من اللبان النقي والدهن المقدس من المايم، وطاف (هارون) وابناه في أرجاء الخيمة بمجمرة يتصاعد منها الدخان المعطر، ثم خرج بها إلى الشعب ليأتوا بالصحائف من الألواح المبارك.

كانت سعادة الشعب لا توصف وسعادتي أنا كذلك، فقد شعرت حينها بالفخر رغم صغر سني، أن عين الرب قد صوبت نحونا مرة أخرى بعد حادثة العجل، وتوالت الأيام وتوافد الناس على خيمة الاجتماع ليتعلموا شريعتهم، وليسمعوا عن (موسى) ما جاء به الناموس من عند الرب، ولم يمض وقت طويل حتى تبدل الحال غير الحال، غابت الفرحة من الوجوه وحل مكانها العبوس والوجوم، تضاءل الإحساس بالفخر تحت وطأة التبعات والتكليف، وتساءل الناس لماذا غابت عن شريعتنا الرحمة حتى صارت إصرًا تئن تحته الظهور، وأغلالًا تتكبل بها الحياة؟

وضاق صبر العمة (يانتيفا) ذات يوم بتلك التكاليف، فقالت لأبي متبرمة دونما خجل:

- كانت الحياة أيسر من قبل يا (وخاري)، إن إله بني إسرائيل جبار!

صُدِمَ أبي من كلمتها فقال في ذهول:

- استغفري الرب يا (يانتيفا)، بل أرسل شريعته رحمة لنا!

والحق أن الناس لم يروا من الشريعة إلا الزواجر والنواهي، والعقاب الصارم عند اقتراف الخطيئة، واتسعت دائرة الخطايا حتى صار اقتراف إحداها أمرًا

حتمًا، عدنا ذات ظهيرة فوجدنا أمي تبكي حزينة، سألها أبي قلقًا:

- خيرًا يا أم (شمعون)؟!

أجابت في حزن وخجل:

- عاودني الحيض ولم أعلم به إلا بعد الظهيرة!

ثم أردفت باكية:

- مست يدي الأواني والجدران فنجستها، والإناء الذي أمسكتُ به مجمرة البخور المقدس!

بانت خيبة الأمل على وجه أبي، فازدادت أمي بكاءً، فقال يريد أن يهون عليها:

- لا بأس يا أم (شمعون)، لن يمس أحد الجدران أو الأواني حتى المساء، وغدًا أذهب إلى الكاهن (هارون) وأقدم له قربان الخطيئة!

قالت العمة (باتشيفا) محتجة:

- يا (زخاري)، أفلا خرج الرجال إلى (موسى) ليخبروه أن الحرام قد صار أكثر من الحلال، وأن حياة الناس لا تستقيم.

قال ناهرًا إياها:

- مهلًا يا (باتشيفا)، فوالله ما ضيّق الرب على بني إسرائيل إلا بظلمهم، ولعله يريد أن يرى منا ما يحب، قبل أن يضع عنا إصرنا.

وشعرت رغم صغري بأن أبي يكاد يكون الوحيد الذي يطبق أحكام الشريعة بحذافيرها على أهل بيته، وأنه يغالي في التضييق علينا مقارنة بأبناء عمومته وأبناء خالاته. كنا في يوم سبت، حينما اصطحبني لزيارة خالته المُسنة (عليزة)، فقد علم بمرضها من ولدها (مزراح) قبل ذلك بيومين في السوق، دخلنا إلى منزل (مزراح) وقد انتصف النهار، فوجدنا المرأة العجوز وقد رقدت في إعياء على حصير، تفوح منها رائحة البول والمرض، وتهذي في غير وعي بهمهمات غير مفهومة، وكأنها تناجي الموت ليعجّل بها، شعر أبي بالأسى لرؤية خالته على

ذلك الحال، فقد كانت خالته (عليزة) الأقرب إلى قلبه، ويرى فيها وجه أمه التي فقدها صغيرًا، جلسنا نضع دقائق شعرنا فيها بعدم الألفة وسوء الضيافة من آل البيت، وتعجبنا من أن الحياة كانت تسير في دار (متواح) على طبيعتها، وكأن امرأة لا تصارع الموت وراء عتبتها!

كانت زوجة (متواح) تجلس على حجر خارج الدار وقد فرجت عن ساقيها وأمسكت بيديها أرنبًا بريًا، تلوى بين يديها وهي تمر على رقبته بالسكين، ثم تركته ينزف الدماء، على أن تنزع عنه فراءه، وتقطع أواصره بالسكين، وكلب (متواح) الضخم يحوم حولها، ويتلقف منها ما تلقيه إليه من أطراف الأرنب وأحشائه، أما (متواح) فقد انشغل بإشعال الموقد بالفتيل وقعد على ركبتيه ينفخ في النار وقد تعفرت لحيته ورأسه وصار وجهه مسودًا بالسخام.

ضاق أبي ذرعًا بسوء ضيافة (متواح)، وهو شكل ما رآه في بيته من انتهاك للشرائع فقال في تعجب واستنكار:

- أتشعل نار الموقد في يوم السبت يا (متواح)؟!

لم يرفع (متواح) رأسه بل ظل ينفخ في النار، ثم قال مغمغمًا بعد أن اشتدت جذوتها:

- إنها باقية من يوم أمس، فقط أنفخها لتزداد سعيرًا.

كان واضحًا أن الرجل يستتر بالكذب، فلم يجادله أبي في أمر النار وأشار إلى الأرنب المسلوخ وقال:

- وهل تطلق كلبك للصيد في يوم السبت أيضا؟

التفت إليه (متواح) هذه المرة ثم قال متبرمًا:

- خرج الكلب وحده إلى الصحراء وعاد بهذا الأرنب البري.

هز أبي رأسه آسفًا من رياء ابن خالته وقال:

- أوما علمت يا (متواح) أن الرب قد حرم أكل الأرانب على بني إسرائيل؟!

توقفت زوجة (متواح) عن تقطيع الأرنب ونقلت ناظريها بين أبي وزوجها،

ثم قال (صرواح) بعد هنيهة من الصمت وقد كشف عما بنفسه:

- أكلنا الأرانب من قبل يا (زخاري)، وأكلها (موسى) نفسه في أرض مصر، فما الذي جدّ حتى يحرّمها (موسى) الآن على بني إسرائيل؟

قال أبي مستنكرًا:

- لم يحرمها (موسى) يا (صرواح)، بل حرمها الرب على بني إسرائيل.

قال (صرواح):

- لو كانت حرامًا لحرمها (إبراهام) وإسحاق وإسرائيل!

ثم أشاح بيده في غير اكتراث قائلًا:

- لو اتبعنا (موسى) في كل ما يقول، فلن نأكل إلا المن والسلوى!

هب أبي واقفًا وقال وهو يهم بالانصراف غاضبًا:

- اتق الرب يا (صرواح)، ولا تحل ما حرمه الرب فيحل عليك عقابه.

ثم نظر إلى خالته التي تحتضر وقال:

- مسكينة يا أم (صرواح)، أسأل الله أن يهون عليك سكرات الموت، وألا يأخذك بجريرة ولدك.

وانصرف دون وداع، ورأيت على وجه أبي نظرة الحيرة والتوجس التي رأيتها عليه قبيل فتنة (السامري)، واستقبلته أمي عند الدار، فأقلقتها ملامحه وسألته:

- خيرًا يا أبا (شمعون)، هل ماتت أم (صرواح)؟

قال باقتضاب:

- ستموت وتستريح، أما العذاب فسيبقى لبني إسرائيل!

ضربت صدرها وقالت جزعة:

- أي عذاب يا (زخاري)؟

قال (زخاري) حانقًا:

- والله لإن لم يتبع بنو إسرائيل شريعة الرب طواعية، ليتبعنها قسرًا.

ثم قال قانطًا مخنوقًا بالبكاء:

ـ هل كتب على بني إسرائيل ألا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؟

ربتت أمي على صدره وقالت:

ـ هون عليك يا أبا (شمعون)، فكل شيء عنه بقدر، والناس تتفاوت في الإيمان.

وصادق حدسي أبي فقد تمادى القوم في خرق الناموس، وتجاوزوا في التكفير عن الخطايا، ولم يتجلب النواهي إلا القلة من بني إسرائيل. فجمع (موسى) القوم عند خيمة الاجتماع، وحذرهم من غيهم، وأمرهم بالصبر على الشريعة وأن يأخذوها بقوة، فتلك تربية الرب لهم، وحذرهم من أن يأخذوا ببعضها ويتركوا البعض حتى لا ينالهم عذاب الرب، ولكن الشعب الذي جبل على التمرد لم يكف عن الجدال، هتف بعضهم:

ـ كيف تستقيم الحياة والحرام فيها أكثر من الحلال؟!

ـ من أين نأتي بكل هذه القرابين لنكفر عن الخطايا؟

ـ لماذا حرمت علينا ما لم يحرم إسرائيل على نفسه؟

وغضب (موسى) من جدال القوم، فهتف بصوته الجهوري الذي ملأ جنبات الوادي قائلاً:

ـ يا بني إسرائيل! هكذا قال السيد الرب: خذوا ما آتيتكم بقوة، فاسمعوا وأطيعوا، وقولوا سمعنا وأطعنا!

عم السكون على الوادي للحظات، وكف الناس عن الضجة، ونظر بعضهم إلى بعض وقد شعروا بأن (موسى) يفرض عليهم الأمر فرضًا، دون أن يدفع الحجة بالحجة، فقطع الصمت صوت رجل من بني يساكر قائلاً:

ـ ما كان هذا ظننا بالألواح يا (موسى)؟! ظنناها رحمة لبني إسرائيل فإذا بها شقاء وتبعة!!

هز الناس رءوسهم مؤيدين، وعلا اللغط بينهم، فاشتعل الغضب بـ(موسى)

وصرخ في بني إسرائيل مرة أخرى:

- قولوا سمعنا وأطعنا.

زمجر الناس معترضين، وهتف رجل من سط نخالي من بين الصفوف قائلاً:

- أنكرهنا على السمع والطاعة يا (موسى)؟

هتف (موسى) وهو يرفع عصاه إلى السماء:

- قولوا سمعنا وأطعنا

رد عليه الرجل متافقاً بتاه، وقصتا بغضب قائلاً:

- ما هكذا تكون الطاعة يا (موسى)، قولك لا سمعنا ولا أطعنا، بل سمعنا وعصينا!

وكأنما تلقفت السماء كلمات الرجل ثم ردتها على الشعب الذي اشعل الجبل بروقاً ورعوداً! فاضحت السماء بالبرق، واهتزت جنبات الوادي بأصوات الرعد، وارتجف الجبل ارتجافاً شديداً انخلعت معه قلوب القوم، واشتد اهتزاز الجبل وكأنما يتجه مارد من موضعه، وتحركت من فوقه صخرة عظيمة انحدرت نحو السفح، واخذ ظلها حتى ملأ السفح والنزل، وظن الناس أنها واقعة بهم لا محالة، وأنهم هالكون بغير شك، فخروا ساجدين، وهتف أبي من قلب باكٍ في رجاء:

- سمعنا وأطعنا، سمعنا وأطعنا.

فردد الناس من بعده في بكاء وخوف، حتى امتلأت جنبات الوادي بصوت واحد

- سمعنا وأطعنا، سمعنا وأطعنا.

وتوقفت الصخرة على مقربة من السفح، فرفع الناس رؤوسهم من سجودهم يتطلعون إليها في رعب، وقد غشيهم ظلها حتى أحال النهار إلى ظلمة، فلما تيقنوا من أن الصخرة لن تقع بهم، قاموا من سجودهم مرتعدين، وانسل الواحد منهم تلو الآخر إلى داره وهو يقول مرتجفاً: سمعنا وأطعنا.

وبينما كان أبي يتوكأ على كتفي في طريق عودتنا، استعاد عقلي سؤاله الذي ألقاه على أمي: «لماذا لا يؤمن بنو إسرائيل إلا بعد أن يروا العذاب الأليم؟» كما ثار في نفسي سؤال آخر خشيت أن أسأله لأبي وهو: لماذا يُكرِهنا الربُّ على عبادته ما دام غنيًّا عنا؟

* * *



الورقة الخامسة عشرة

وحان وقت الارتحال من الوادي المقدس، وشعرتُ هذه المرة بالوخز لفراق المحلّة التي مكثنا فيها قرابة العامين، وشهدنا فيها أحداثًا جسامًا، دُفنت ذكراها في ثنايا القلب، وتعلّقت في حضنها الأرواح.

طوى أبي جدران الكوخ وحزمها بالحبال من الليف ووضعها على ظهر الأتان، ثم جمع السلال والقدور وعلّقها على أطراف الهودج الضخم، الذي استقرت فيه أمي وعمتي (باتشبا) ومعها الطفلة الصغيرة (بابا)، سحب أبي الناقة وسار في المقدمة، بينما امتطيت أنا الأتان التي تحمل متاعنا، وخلفي سارت عنزتان، ونعجةٌ حبلى فقدت كبشها كفّارة خطيئة أمي!

سار ركبنا الصغير في الصحراء المتاخمة للتل ليلحق بركب سبط رأوبين، رأيتُ في عيني أبي الدموع وهو يلقي نظرته الأخيرة على الوادي المقدس، فانتابت دموعه أشجاني وتمثلت الذكريات حية أمامي وأنا أتتبع مواقع نظراته، فيها أقام (السامري) عجله، وفي تلك الصحراء فقدناه، وهناك يرقد جسد العمة (سولاف) تحت التراب، لا يشهد على قبرها سوى حجرٌ صغير، ونبتة عوسج غرسها أبي إلى جواره، وعلى بُعد فراسخ منا قبعت الجبانة الكبرى التي وارت أجساد ثلاثة آلاف من بني إسرائيل ممن عبدوا العجل، وقد طُمست شواهد قبورهم تحت كثبان الرمال الزاحفة، ولم يبق من ذكراهم إلا ألمٌ في الصدر ووخزةٌ في الضمير.

وصلنا إلى نقطة الالتقاء، وانضم ركبنا إلى ركب سبط رأوبين كان تنظيم الأسباط هذه المرة سماويًّا، فقد أمر الربُّ (موسى) بهذا التنظيم وجعله شريعة لبني إسرائيل في كل ارتحال، ففي مقدمة الركب كان تابوت العهد يحمله بنو (هارون)، وخلفهم سار (موسى) وأخوه (هارون)، ثم سبط يساكر ويهوذا وزبولون يحملون المسكن والخيمة والغطاء، أما سبط رأوبين وشمعون وجاد فقد ساروا في المنتصف يحملون على رحالهم المذبح والمنارة والمائدة، وخلفهم سار باقي الأسباط يحملون أمتعتهم ويسحبون الدواب والأنعام.

سرنا أيامًا وليالي آمنين، نستريح من السفر ليوم أو بعض يوم، ثم نعاود المسير مرة أخرى إلى وجهة لا يعلمها إلا الرب ونبيه (موسى)، ظللتنا غمامة الرب فلم نشعر بقيظ الشمس في ذلك الوقت من أواخر شهر «أيار»، ولم ينقطع عنا المن والسلوى طوال وقت الترحال.

وبعد قرابة الشهر وصل بنا الركب إلى موضع يقال له «حضيروت»، فانقشعت سحابة الغمام وعلا صوت البوق، وعلمنا أن الرب قد أمر بأن يكون منزلنا في ذلك الموضع، دب النشاط في الناس الذين شعروا بالملل من السفر قرابة الشهر لكثرة الوقوف وبطء المسير، وجمع (موسى) مشايخ الأسباط وأمرهم بأن يخططوا النزل حول خيمة الاجتماع بحسب ما جاء به أمر الرب، فقد كانت «حضيروت» منطقة سهلة فسيحة، ذات هواء رطب، ولا تبعد عن الماء سوى بضع فراسخ، فجاء تخطيط النزل على مساحة شاسعة، قلما رأيناها في المنازل التي نزلناها في برية سيناء، فأقام (موسى) خيمة الاجتماع في المنتصف، وأحاطها بخيمته وخيمة (هارون) وخيام بني جلدته من اللاويين، ثم أقام أربعة أحياء حول الخيمة، وجعل لكل حيٍّ من الأحياء راية، فكانت راية حيِّنا إلى الجنوب من خيمة الاجتماع واجتمع تحت لوائها سبط رأوبين وسبط جاد وسبط (شمعون).

وبعد أن اكتمل بناء النزل، صارت «حضيروت» أشبه بالمدينة أو القرية، وجاءت الشوارع داخل الحي فسيحة واسعة، واتسعت ميادينها لألعاب الصبية،

فصارت بيني وبين فتية من سبط جاد وسبط (شمعون) صداقات وألفة، وكان من بين هؤلاء الصبية فتى من سبط جاد اسمه (عامير)، يكبرني بأربع سنوات، متين البنيان، أسمر البشرة، جعد الشعر، استمد سمات بسحنته من أمه الكُوشيّة (النوبية) التي تزوجها أبوه في أرض مصر قبل سنوات من الخروج.

كان أبو (عامير) يدعى (پنحاس)، وهو اسم يعني في لغتنا «الداكن البشرة» ولا أدري إن كان هذا اسمه حقيقةً، أم إنها كُنْية أطلقت عليه لمعايرته بزوجته الكوشية، فقد كان بنو إسرائيل ينظرون باستعلاء إلى الكوشيين، ولا يحبونهم، ولعل السبب في ذلك أن الجارية المصرية التي تزوجها أبونا (أبرام) على أمنا (سارة) كانت امرأة من كوش.

كان (پنحاس) يعمل منذ صغره بالصيد في أرض الجوشن على ضفاف النهر البيلوزي، يغزل الشباك ويصنع القوارب، ثم يمضي إلى فرع النيل الصغير، فيسوق الرب إليه رزقه في الشباك، ليأكل منه هو وأسرته، ويقايض ما تبقى منه بالشعير والقمح، وأقام لنفسه بيتًا من الطين على ضفاف النهر، عاش فيه مع زوجته الكوشية، وبارك الرب في ذريته، فأنجب عشرة أولاد من الذكور، كان أصغرهم (عامير) الذي رأيته لأول مرة في «حضيروت»، فلما كبر الأبناء عملوا مثل أبيهم في الصيد، فتضاعفت مراكبهم، وازداد ثراؤهم، وصارت مراكبهم تجوب النيل شمالًا وجنوبًا، وعمل بعضهم في مراكب الفرعون، فجمعوا بين المال والمكانة، وعلا قدرهم بين بني إسرائيل بعدما كانوا يُعيّرون من قبل بأمهم السوداء.

فلما خرج بنو إسرائيل من مصر، تركت العائلة مراكبها، ولم يجدوا في الصحراء بديلًا لمهنتهم، فضاق بهم الحال، وأذل كبرياءهم الفقر والفاقة، فعمل بعضهم بالرعي، وعاش بعضهم على الصدقات ولحوم القرابين، أما (پنحاس) نفسه فقد أصابه الكبر والوهن، وصار يُحمل من نزل إلى نزل كما يُحمل المتاع.

وكانت حضيروت على مقربة من قرية حاضرة البحر اسمها «عصيون جابر» تقع على خليج لحيان، أقام فيها بعض سكان السواحل مرفأ، ترسو به

السفن القادمة إدوم ومصر وكنعان، وجذبت رائحة البحر من كانوا يعملون بالصيد من بني إسرائيل، ومنهم أبناء (بنحاس)، فخرجوا يلبون النداء!

ورأيت السمك في سوق «حضيروت» لأول مرة في حياتي، كان الناس يتهافتون على شرائه، ويتقاتلون عليه حتى صار زنبيل السمك الذي يحوي عشر سمكات يقايض بقدحين من القمح، فقد سئم الناس لحوم السلوى، ووجدوا في لحم البحر الطري فرجًا لهم من الصبر على طعام واحد، لا سيما وأنهم لا يدرون إن كانوا سيصادفون في ترحالهم بحرًا مرة أخرى أم لا. وكان أبي يتعجب من تهافت بني إسرائيل على شراء السمك، ويتأفف من رائحته التي ملأت هواء النزل وعلقت بكل شيء حتى الملابس، وكان يقول:

- عجبت لأمر بني إسرائيل يستبدلون الذي هو أدنى - يقصد السمك - بالذي هو خير - يقصد السلوى.

ولكنه رغم ذلك لم يستطع أن يقف أمام إلحاح أمي في طلب السمك، ولم يجد بدًا من الاستجابة لطلبها عندما انضمت إليها العمة (باتشيفا)، فأحضر لها زنبيلًا من السمك، طهت بعضه وخزنت بعضه بطريقة المصريين؛ فملّحته وخزّنته في أبراش في الشمس، حتى أنتن وتفسخ لحمه ثم أخرجته بعد أسابيع لتأكله. وكانت لحظة لا تنسى، كدت أفقد وعيي فيها من الرائحة المنتنة، وعافت نفس أبي من أن ينظر إليه أو أن يتناوله. أما العمة (باتشيفا) فقد انهالت عليه أكلًا في تلذذ، وهي تقول:

- ما أطيب طعامكم أيها المصريون! إن لكم في طهي كل صنف من الطعام ألف طريقة!

فقالت لها أمي وهي تنظر بعتاب نحوي ونحو أبي:

- هكذا كان يأكله النبلاء يا (باتشيفا) في صيد بمصر!

ابتسم أبي وقال:

- ليتنا قلدناهم في أكل أوزة مشوية.

قالت أمي مغتاظة:

- آتِني بالأوز وأنا أطهوه لك.

أنصفتها عمتي (يانشيفا) على غير عادتها وقالت:

- دعكِ من (زخاري) يا (روماتا)، لا يزال يشتهي الطير منذ صغره حتى ظننت أن جسده سيكسوه الريش.

ثم التفتت إليَّ قائلة وهي تقضم قطعة من السمك في استمتاع:

- عشنا أمدًا على المن والسلوى، ودعنا نتذكر أيامًا كنا فيها نتقلب بين أصناف النعيم في مصر.

قال أبي في يقين:

- حين تصلون إلى الأرض المقدسة سترون أصنافًا من النعيم لم تروها من قبل.

وقدر الرب لأبي (إلخاص) وغيرهم من الصالحين أن يعودوا إلى سابق عهدهم في تلك البقعة من الأرض التي طال بقاؤنا فيها، ففتحت لهم أبواب الرزق مرة أخرى، وعادوا لصنع الشصوص والشباك والمراكب، ولم يبخل عليهم البحر برزقه، فكانت تأتيهم أسماك البحر العظيمة وحيتانها التي لم يروا مثلها في نهر النيل، فيقومون بصيدها وبيعها في الميناء وفي النزل، حتى اجتذبت مهنة الصيد الشباب الطامح في الثراء من بني إسرائيل، فأقام بعضهم في عصيون جابر، وعمل آخرون في مراكب الأدوميين وارتحلوا معهم إلى موانئ بعيدة دون إذن من نبي الله (موسى)، فأرسل إليهم نبي الله يذكرهم بتقصيرهم في حق العبادة والشريعة، وتهاونهم في تقديم القرابين، ويخوفهم من عذاب الله.

ودعاني (عامير) ذات يوم لمرافقته في الصيد في عصيون جابر، وأعطاني شصًا من البرص، فاعتذرت له بلطف، فلم يكن أبي ليسمح لي بذلك وهو يراني طفلًا صغيرًا، رغم أنني حينئذ كنت قد جاوزت البلوغ بعامين، وتكررت دعوات (عامير) لي، وشعرت بالخجل أمام أقراني ومن يصغرونني من أبناء

الحي، الذين كانوا يتباهون بالصيد والسباحة في البحر.

وذات يوم قررت أن أكسر الطوق الذي يحوطني به أبي رغم أني قد نهيت عنه، خرجت من منزلنا في الصباح الباكر، وأخبرت أمي بأني سأمكث النهار مع أصدقاء لي في حي زويلون، ثم قابلت (عامر) خارج المنزل، وقلبي يقرع في جنبات صدري من شدة الإثارة والرهبة.

سرنا في الصحراء وحدنا في تلك الساعة المبكرة تستقبلنا نسائم الهواء الباردة، التي ازدادت رطوبة ولطفًا كلما اقتربنا من شاطئ صبراتة جابر، وهناك وقع بصري لأول مرة على الماء الفسيح، حتى قلبي رهبة مرأى البحر الذي اختلطت زرقته بزرقة السماء، وبدا في اتساعه على مرمى البصر وكأنه يلامس أطراف السحاب، وهدير موجاته الصاخبة يطن في أذني كلحن تعزفه السماء، وتترنم به طيور البحر التي حلقت عن بعيد من شاطئه الذي اكتسى بالأصداف وشقائق النعمان!

مر الوقت سريعًا جميلًا محملًا بالمتعة والإبهار، بين رؤية السفن وضجيج البحارة في الميناء، وبهجة الصيد واللهو مع الأقران، وبعد أن انتصف النهار جمعنا الشصوص وما صدناه من أسماك، وعدنا إلى المنزل وقد تلونت السماء بالشفق الأحمر، كنت أحمل في يدي اليمنى شصًا، وفي يدي اليسرى زنبيلًا به ثلاث سمكات، وقلبي يرقص طربًا، وأنا أتخيل فرحة أمي برؤيتهن، دخلت إلى الطريق الذي يؤدي إلى بيتنا، فوجدت أبي واقفًا في منتصفه، وقد جلست أمي على باب البيت وقد بدا عليها القلق والغضب، هتفت أمي حين رأتني قائلة:

ـ ها قد عاد (شمعون)!!

ثم قامت مسرعة نحوي وبادرت بلومي وهي تعرص أذني حتى تقيني غضبة أبي وقالت:

ـ ألم آمرك ألا تتأخر في حي زويلون يا (شمعون)؟!

وبنظرة واحدة على ما أحمله، أدرك أبي سبب غيابي، قال في غضب:

- حي زوبلون!

وقبل أن أتفوه بكلمة استقبلتني من يده القوية صفعة أسقطتني أرضًا، وأطاحت بزنبيل الأسماك بعيدًا، وزلزل صوته الغاضب أرجائي وهو يقول:

- هذا جزاء الكذب يابن (روماثا)!

ثم التفت إلى أمي وقال ناهرًا:

- لا يخرج من الحي إلا بأمري.

احتضنتني أمي على الأرض تحضنني، وكتم الذهول المسرع إلى صدري، ولكن أبي استمر في ثورته قائلًا:

- وأقسم بالرب إيل، لئن عدت إلى الكذب يابن (روماثا) لأخرجنك لجمع الحطب من الجبال في كل صباح.

ثم غادرنا وهو ينفث غضبًا، ويومها رأيته من أبي قسوة جعلتني أتساءل: لماذا لا يرى أبي من الدنيا إلا أسلمها؟ ولماذا يحب على نفسه وعلينا ذلك الخوف من البهجة والفرح؟

• • •

وحدثت في الأيام التالية أحداث غريبة، أنذرت بغضب الرب على من سكنوا عصيون جابر، فقد امتنعت الأسماك عن دخول الخليج لثلاثة أيام متتالية، كان الصيادون يجوبون فيها الخليج بالمراكب، فلا يجدون أثرًا لسمكة تهتز لها شباكهم أو شصوصهم، وكأنما اتفقت الأسماك فيما بينها على الرحيل أو الاختباء، وفي صبيحة يوم سبت، امتلأ الخليج بالجلبة، ورأى بنو إسرائيل سكان القرية من الأدوميين يهرولون في الماء بملابسهم، ويمسكون بأيديهم أسماكًا تقافزت على سطحه، وحيتانًا صغيرة تطفو على السطح، وتدخل طواعية بأنفسها في الشباك، فهلل الأدوميون فرحين بذلك الصيد الذي ناله أيديهم في سهولة ويسر، وود نفرٌ من بني إسرائيل لو شرعوا شباكهم لينالوا من هذا الصيد اليسير، ولكن رجالًا بهم بقية من إيمان، ذكروهم بأن اليوم يوم سبت،

وأن الرب قد حرم عليهم الصيد في ذلك اليوم، وقالوا ليعزوا أنفسهم:

ـ ها قد انكشفت الغمة، وغدًا تعود الحيتان والأسماك، فنصطاد منها كما صادها الإدوميون.

وجاء الغد بما لم يتصوره، فقد سكنت مياه الخليج مرة أخرى، وبدت كبركة من الماء الآسن لا حياة فيها ولا روح، واختفت الحيتان والأسماك التي كانت تتراقص قبل ذلك بيوم، وعاد الناس أدراجهم في المساء محملين بالخيبة والخسران، وتكرر الأمر طيلة الأسبوع حتى جاء يوم السبت التالي فإذا بالحيتان والأسماك تعود أدراجها إلى القرية تتقافز على سطح الماء لتملأ قلوب الإدوميين فرحة وبهجة، وتملأ قلوب بني إسرائيل غيظًا وحسرة.

وتذمر شباب القرية من بني إسرائيل وأعلنوا التمرد على شيوخهم حتى وإن انتهكوا حرمة السبت وحرموا من ذلك التحريم، وقال لهم (فنحاس) في وهن وضعف:

ـ لا تسخطوا الرب عليكم فإنما هي فتنة لينظر ربكم ماذا تفعلون.

فلم يستمع إليه الرجال، وقال شاب في تذمر ساخر:

ـ أتعبث بنا السماء؟!

وقال آخر:

ـ لو كان في الأمر حرمة لما جاءت الحيتان شرعًا في يوم السبت، تتلقفها أيادي الأطفال والنساء.

فقال لهم (فنحاس) يحذرهم:

ـ إني أعظكم أن يحل عليكم العذاب الشديد أو الهلاك!

فتحدث (راحوم) ابن (فنحاس) الأكبر وكان ذو مكانة عند الصيادين قائلًا:

ـ يا معشر الصيادين، والله إني لأجد الرأي بين ما ذكرتموه، فليس من الدين أن ننتهك حرمة السبت، وليس من العقل أن نترك صيدًا تناله أيدينا ورماحنا، وإن شئتم ذكرت لكم الرأي الصواب.

فاستحثه القوم قائلين:

- هات ما عندك يا (راحوم).

فقال:

- تنصبون حبائلكم وشصوصكم قبل يوم السبت، فإذا جاءت الحيتان والأسماك في يوم السبت تلقفتها الشباك واحتجزتها وراءها، فإذا انقضى السبت، بكرتم فجمعتم ما احتجزته الشباك من صيد حلال لا شبهة فيه!

- همهم الناس مستحسنين الرأي، وقال أحدهم (صلام) مؤيدًا:

- نعم الرأي يا (راحوم)، هذا عين الصواب يا شيخ الصيادين!

فانتفضت اللحية على وجه (بنحاس) وقال نادمًا:

- بئس الرأي رأيك يا (راحوم) أتحادعون الله؟! هلكتم يا بني (بنحاس) وأهلكتم معكم بني إسرائيل!

ثم أمر ولده الأصغر (عامير) بأن يحمله على أتان ليعود به إلى حضرموت وقال:

- يا (عامير) أخرجني من هذه القرية الظالم أهلها فقد حق عليها العذاب.

ففعل (عامير) ما أمره به أبوه وعادا إلى النزل في حضرموت، يستجيران بيت الرب، ويدعوان لكيلا يأخذ إخوانهم وأبناءهم بالعذاب.

استيقظنا ذات صباح على جلبة وصراخ في الحي فقد هاجمت بعض القردة المنازل وأرادت أن تدخلها عنوة، وطافت بعض الخنازير في شوارع النزل في مشهد تقشعر له الأبدان، صرخ الأطفال والنساء وظل الرجال يقذفون القردة بالحجارة ويضربون الخنازير بالعصي، ويدفعونهم دفعًا إلى خارج النزل، فكانت القردة تفر ثم تعود من جديد والخنازير تستميت لدخول البيوت وكأنها تلوذ سكان الحي من خطر أحدق بها في الصحراء.

وهناك عند بيت (عامير) تسورت قرود تسعة جدران البيت تريد أن تدخله وسمعنا صراخ (عامير)، فهرولنا إليه أنا وأبي، وظللنا نزود عن بيته ونذيق

القرود ضربات موجعة بالحجارة والعصي، حتى أدموا بعضها وكادوا يقتل البعض.

ولم نسمع في غمرة حماسنا صوت أبيه (بنحاس) يأتي من الداخل في وهن وحزن وهو يقول:

- كف عن ضربهم يا (عامير)، فوالله إني لأجد في أحدهم وجه أخيك (راحوم)!

وعرفت الحقيقة إلى الصحراء الملاصقة للمنزل وفي الصباح خرج بعض الرجال لاستطلاع أمرهم، فوجدوهم وقد نفقوا عن بكرة أبيهم.

وأرسل (بنحاس) ولده (عامير) إلى عصير بن جهير وقال له:

- يا بني اذهب فتحسس من أمر إخوتك، فلعل الله قد أنجى بعضهم من العذاب.

فعاد (عامير) والحيرة بادية القرية خاوية على عروشها!

ولم تطل الحياة بالصياد (بنحاس) بعد ذلك، لتمكنت الحسرة جسده المريض، فمات وهو يدعو الرب أن يكون عذاب أبنائه في الدنيا كفارة لهم في الآخرة.

وفي تلك الليلة جلست إلى أبي وقد شعرت بالشفقة على (بنحاس) وأولاده، سألته:

- هل حقًا مسخ الرب إخوة (عامير) قرودًا كما يقول الناس؟!

قال آسفًا:

- لا أدري يا (شمعون)! ولكن الرب عاقبهم على أية حال!

قلت مرتجفًا:

- لماذا يقسو الرب علينا هكذا؟!

نظر إلي مذهولًا وقد أزعجته كلماتي وقال:

- هو يقسو على العصاة فقط يا (شمعون)!

قلت:

- ألا يستحق العصاة توبة؟!

قال:

- التوبة لمن يجهل!

نظرت إليه وقلت:

- أنا أهل لحب الوصال؟!

قال حزيناً:

- نعم!

قلت مرتجفاً:

- ولكني أحبها!

قال وهو يضم رأسي إلى صدره:

- إذا خفت الرب صرف حبك، وإذا أحبك صرف همه!

ومهما يكن من شيء، فإن قصة (بنحاس) ظلت عالقة بعقلي لسنوات، خاصة بعلمها الضخم (عامير) الذي فقد أسرته بأكملها في فاريا، وصار الصبي الذي صفعني أبي من أجله أخاً لم تلده أمي.

* * *

الورقة السادسة عشرة

ومرت الأيام والشهور، وانقضت أشهر الصيف بقيظها وشدة شمسها، وبدأت نسائم «تشرين»[1] في الهبوب مؤذنة ببدء الخريف، ذلك الوقت من العام الذي تجف فيه الأشجار ويشح فيه الكلأ، ويطوف الرعاة بأغنامهم في الصحراء بحثًا عن العشب والماء.

وكنت أنا و(عامير) وبعض الصبية نخرج بأغنام الحي إلى الصحراء لترعى فيما تبقى من الكلأ، الذي جفت أوراقه واحتدت سيقانه حتى صارت كالشوك، فكانت الأغنام تتحسس بأطراف ألسنتها العشب، تنتقي منه وريقات تسد بها جوعها، وتمتص من خلالها ما بقي من رطوبة.

وكنت أسعد بتلك «النزهات الرعوية»، فقد كانت لي بمثابة «رَوْحة»، أستريح بها من التضييق الذي فرضه عليَّ أبي بالبقاء داخل الحي، والمواظبة على زيارة خيمة الاجتماع معه والاستماع إلى تعاليم الدين من نبي الله (موسى) أو الكاهن (هارون)، كما كنت أجد فيها متنفسًا للعب مع الأقران دون لوم من أمي أو تقريع من أبي، وفي تلك الأيام تعلمت من الصبية الذين كانوا يكبرونني سنًا فنونًا من الألعاب، برعت فيها كثيرًا مثل المبارزة بالعصي والقتال بالأيدي، وكان يعينني على ذلك قوة بنياني التي كانت تكافئهم رغم صغر سني، ومرونة جسدي في الحركة والاحتيال، وكان وجودي إلى جوار (عامير) في أي فريق من المتعاركين، كفيلًا بأن يُرجح كفة ذلك الفريق، فقد كان لـ(عامير) جسدٌ

صلدٌ، وهبه الرب إياه منذ الرضاع، وصقله الجهدُ والشقاء حتى صار بنيانه المتناسق كتمثال من الحجر الأسود نحته أيدي فنان من أهل «فيتوم».

ووجد أبي فينا مُعينًا له في أعماله فكنا نجمع له الأخشاب والحطب ونرعى له الأغنام، وأوحت له أمي ببناء بيت لنا من الطين والقش على غرار ما كان يصنعه المصريون حتى يقينا البرد في الشتاء، فمدينة حصيروت كانت تقع إلى الشمال من جبل حوريب وموقعها بالقرب من الخليج، جعلها أشد بردًا في الليل من أي مكان نزلنا به من قبل، ورغم أننا كنا في بدايات الخريف فإن الرياح كانت تشتد في الليل حتى كادت أن تعصف بالخيام في ليلة من الليالي الباردة. فاستجاب أبي لطلبها وصنع قوالب عديدة متماثلة من الخشب كان يضع في كل واحدة منها خلطة من التراب الناعم بالماء والقش الذي جمعناه من سيقان الكلأ الجافة ثم هرسناه بالحجر حتى صار كالعصف، ثم نتركها لتجف في الشمس ليومين أو ثلاثة، قبل أن ينزع منها قالبها الخشبي لتصير لبنات من القرميد خفيفة الوزن ولكنها قوية متماسكة كالحجر.

وقام أبي بتخطيط البيت على مساحة واسعة إلى الجنوب من حي رأوبين، وجعل فيه حجرة له ولأمي وأخرى لي و(عامير)، وثالثة للعمة (باتشيفا)، ثم رفع له سقفًا من فروع الأثل والشجر، وصنع له بابًا متينًا من البوص المبروم وجعل له نوافذ صغيرة تدخل الهواء والنور إلى داخل الدار، فصار بذلك بيتنا أول بيوت النزل وأجملها.

ورأى سكان النزل الدار فأعجبتهم، وجاء جيران لنا في الحي يسألونا قوالب الخشب حتى يبنوا لأنفسهم دارًا مثل دارنا فأعارها لهم أبي، ثم لم يلبث باقي الجيران أن طلبوا منه أن يصنع لهم قوالب أخرى من الخشب مقابل أجر، فصنعها لهم، وصنع كذلك أبوابًا ونوافذ حتى راجت صنعته، وامتلأ فناء بيتنا الخلفي بجذوع الأشجار، وتراصت في أركانه عشرات الأبواب والصناديق الخشبية.

وزاد حجم العمل عن طاقة أبي ولم نستطع أنا و(عامير) أن نفي بحاجته

وحدنا، فاكترى نجارًا من سبط بنيامين ليعاونه، كان النجار الجديد شابًا صغيرًا اسمه (رام)، نحيف الجسد، قصير القامة، ورغم فقره، بدا متأنقًا وسيمًا وقد حف شاربه ولحيته، وهذب شعره الطويل ومسحه بالزيت والطيب لكي يبدو متلألئًا في ضوء الشمس، وحينما رأته أمي تنحت بأبي جانبًا ثم قالت له مستنكرة:

- ألا تكتري رجلًا جلدًا ليعينك في أعمالك بدلًا من ذلك المعجب بحُسنه كالنساء؟!

فقال لها أبي مؤنبًا:

- لا تسيئي الظن بـ (الأرملة)، فهو فتى يتيم، وقد أوصاني به (الصقيل بن حور) حيًا!

ويبدو أن في الفتى صبيانية يخرج بها عن طوق الرجال قبل أن تروضه الأيام، فقد كان (رام) شديد الهدوء والإخلاص في العمل طالما كان أبي موجودًا في فناء الدار، فإذا انصرف أبي لبعض شأنه في الحي، تبدل الحال بالشاب، فيصير أكثر كسلًا في العمل، وتختفي من عينيه نظرة الانكسار وتحل فيهما نظرة جرأة هي أقرب إلى الوقاحة.

كنت أنا و(عامي) نقوم برص قوالب الخشب فوق سقف البيت، أقف أنا فوق الجدار بينما يقف هو على الأرض يقذف لي قوالب الخشب فألتقفها، ثم أضعها فوق الصفوف التي ارتفعت حتى حاذت منكبي، وبينما نحن كذلك أتت إلى الفناء فتاة شابة من عشيرة «[illegible]»، وهي عشيرة تتميز نساؤها بالملاحة والخلاعة، وكان لأختها عندنا أثاث نصنعه، خطرت الفتاة في مشيتها في الفناء ثم نادتني في شيء من الدلال الكثير تردده علينا قائلة:

- هل انتهى أبوك من صنع صندوق الملابس يا (شمعون)؟ لقد أوشكت أختي أن تُزَفّ دونه!

كنت أقول لها أن أبي خرج إلى الحي لبعض شأنه، ولكن الشاب (رام)

قطع الحديث قائلًا وهو ينظر إلى عينيها:

- الصندوق يحتاج فقط إلى بعض الصقل والتهذيب، اصحبي دقائق وسيكون مُعدًّا.

خضعت الفتاة ببصرها لنظرته الجريئة وقالت:

- حسنًا، سأنتظرك هنا.

ثم جلست فوق مقعد في ركن القاعة، تدير وجهها عن موضع (رام)، ولكن عينيها كانت تختلس النظر نحوه بعد أن شمّر عن ساعديه ثم أمسك بالصندوق ووضعه فوق المائدة، وأخذ يهذب ما زاد من حروفه بالإزميل، مقطبًا ما بين حاجبيه حتى ظن من رآه أنه يأتي بصنيع عجيب، يستحق عليه الحاذقين صنعه! ثم لم يلبث أن أتى بحبات من الزمرد وصعد فوق الصندوق ورصّعها بورق البردي ليصقل بها سطح الغطاء، وبينما كانت أوراق البردي تحتك بحبات الرمل لتزيلها تمامًا، كان الفتى يدندن بصوت يدق المعازف، تعمّد أن تصل أبياتها إلى مسامع الفتاة الغيداء، فأخذ يقول:

إن لم تدركي أيتها الحيية

أنك الأروع من بين النساء

فاخرجي على آثار الغنم

وارقصي وحدك بين الرعاة

كفرسة جامحة

ستسبين كل مركبات الفراعنة

ما أجمل خديك بالجواهر!

وعنقك بالقلائد!

شفتاك تتلألأ بالقرمز،

وفمك حلوٌ كالشهد

وخدك حرامٌ أن تطالعه الأرذال

أتعرفين من أنت؟

أنت كالسوسنة في الحسن

حين تنثر عبيرها بَيْنَ الأشواك

تحدثك أنت يا صغيرتي أنثى النساء..

رأيت على وجه الفتاة حُمرة الخجل، وإن فضحت حدّة عينيها حياءها المزعوم! انتهز (رام) من حمل الصندوق فحمله وذهب إليها، فحجم ما بينها وبينه من مسافة حتى صار لا يفصلهما شيء إلا الصندوق، ثم قال في حنان مصطنع:

- إنه ثقيل، أتسمحين بأن أحمله عنك؟

اضطربت وقد فاجأها اقتحامه لحريتها وقالت:

- لا.

فقال في حرقة:

- إذن فأنا خادمك، أحمله لك حتى دارك، وإن شئت طفت به لك في صحراء النزال!

تمنّعت في دلال وقالت:

- وما المقابل؟

قال في حنانه الكاذب:

- يكفي النعيم لمسة حانية من سيدته!

أطلقت ضحكة خليعة ثم انصرفت.

وتبعها الفتى الذي غمز بطرف عينه إليّ وقال:

- إذا رجع أبوك قبل أن أعود، فقل له خرج (رام) لأجل العروس!

ولم يعد (رام) في ذلك اليوم إلا بعد أن أوشكت الشمس على الزوال.

ولحسن حظه مكث أبي اليوم بطوله في حي زويلون، فلم يشعر بغيابه طيلة النهار، ومنعني جُبني من أن أشي به لأبي.

وقضيت ليلتي تلك أتقلّب في فراشي كالمحموم، تطالعني خلجات الفتاة، وهي تبتسم في دلال، ونظرات عينيها وهي تغضّ الطرف في خضوع، تطاردني صفحة وجهها البيضاء في ظلام أحلامي، وتثير في نفسي صخبًا، فاق أشعار (رام) الماجنة التي يردد صداها في أذني، حتى قمت من نومي منتفضًا، أشكو من جفاف حلقي وأشعر بلهيب في جسدي، رغم شدة الريح في تلك الليلة الباردة من ليالي الخريف.

وفي الصباح، بكّر الفتى في المجيء إلى فناء الدار، وكان أبي لا يزال نائمًا، بينما كنت أجلس أنا فوق المائدة في الفناء أعبث بالأزميل، في قطعة من الخشب، وأكتب عليها أحرفًا من اللغة المصرية، وقف رام إلى جواري، وقال متعجبًا:

- أتعرف الكتابة باللغة المصرية؟

أومأت قائلًا:

- نعم فأمي مصرية!

رفع حاجبيه متعجبًا، ثم قال:

- عظيم!

هتف مازحًا:

- لأني أعرف الكتابة، أم لأن أمي مصرية؟!

قال في جدية ممزوجة ببعض الأسى:

- بل لأن لك أبوين يعلمانك.

تذكرت أنه يتيم الأبوين فشعرت بالأسف من أجله وسألته:

- هل فقدت أبويك صغيرًا؟

قال:

ـ لم أر أبي وماتت أمي وأنا أصغر منك بقليل.

أسِفت بحق من أجله وسألته:

ـ ألك إخوة؟

ضحك ساخرًا وقال:

ـ لي عشرة إخوة من الأب، لو استطاعوا أن يرموني في الجبّ مثل يوسف لفعلوا!

ثم أردف حانقًا:

ـ ولو علموا أن أباك قد اختارني [illegible]!

سألته:

ـ وفي أي حي تسكن؟

قال:

ـ أتسكع بين الأحياء، فلا أهل لي ولا زوجة.

سألته في سذاجة:

ـ ولماذا لم تتزوج؟

قهقه عاليًا وقال:

ـ ومَن يُزوِّج نجارًا يتيمًا معدمًا ملعونًا حتى من إخوته؟!

ثم قال في شيء من الفخر:

ـ ولكن يكفيني أني أصبت من النساء ما لم يصب المتزوجون!

وحدث في نفسي رغبة في الاسترسال في ذلك الحديث رغم احمرار وجهي خجلًا، فقلت:

ـ أتقصد فتاة الأمس؟!

قال ضاحكًا:

- ليست وحدها فلي في كل حي عشيقة.

ثم قال في خفوت كمن يسر إلي سرًّا:

- ومنهن متزوجات، سئمن من أزواجهن!

تبدل شعوري بالإثارة اشمئزازًا، فقلت:

- وماذا يجدن فيك ولا يجدنه في أزواجهن؟!

قهقه مرة أخرى وقال:

- ما زلتَ صغيرًا على هذا الحديث، ولكني أسر لك بشيء قد غطته عني

انتبهت حواسي، فقال:

- لا شيء، بعض النساء تفتقد حنان الأب، فتجد ما تفتقده، وقد تجد ضحكة، ولكنها لا تحتمل شهوتك!

قلت ساخرًا:

- وما دمت تعرف هذا لماذا لم تتزوج؟

قال ضاحكًا:

- قلبي لا يسعه امرأة واحدة، وجسدي لا يطيق قيد الزواج!

قلت متعجبًا:

- أما تخشى أن يفتضح أمرك؟!

قال في اعتداد:

- لن تفضحني إلا معشوقة عليمة بخباياي هنا، وأنا أحوط من أن أقع في هذا الخطأ.

سألته في غير تردد:

- أما تخشى الرب؟

قطب جبينه ثم قال في نبرة شعرت فيها بالسخط:

ـ الرب؟

ثم أردف:

ـ لو كان يعلم بحالي لرأف بي من قبل!

قلت مصدومًا:

ـ ألا تؤمن به؟

نظر إليّ في حنق وقد أثاره كلامي ثم قال:

ـ أؤمن به ولكنه لا يلتفت إلى حالي

قلت مشفقًا:

ـ تشعر بالظلم؟

قال موجوعًا:

ـ أشعر بالقهر

ثم أردف في مرارة:

ـ الحياة ليست عادلة يا غلام، مثلي يولد يتيمًا، فقيرًا، مكروهًا من إخوته، ومثلك ينعم بين أبوين يحبانه ويحنوان عليه.

ثم قال وهو ينصرف إلى عمله:

ـ لا تشغل بالك بأمري يا فتى، فهناك أناس في هذه الحياة قد أغفلتهم عين القدر!

ولم يستوعب عقلي معنى عبارته، ولكن انتابتني منها القشعريرة.

والحق أنني كنت أتذكر دائمًا قصة (رام) على الرغم من كثرة ما مر بنا من أحداث، ليس حنينًا إلى زهو الصبا ولا شوقًا إلى نزق الشباب، وإنما لأن قصته جعلتني أتساءل دائمًا عن محبة الرب! فهل يكفي أن تخشى الرب فقط حتى تجتنب نواهيه، أم ينبغي علينا أيضًا أن تحبه؟ والحق أنني شعرت منذ الصغر أن كثيرًا من بني إسرائيل يخشون الرب خشية العبد المكره على طاعة سيده، تلك

الخشبية التي تمتزج بخشب العود الأثير، الذي يحيي «الأدب إذا ما أمن العقاب»!

وفي يوم من الأيام، أمر أبي (رام) بأن يحمل باباً إلى دار في حي يساكر وأن يقوم بتركيبه، وكان ذلك الحي يقع إلى الشمال من التل بينما كان منزلنا في الجنوب، وأمرني أبي بأن أذهب معه لأعاونه في تركيب الباب، وفرح (رام) بتلك المهمة، على غير عادته التي تميل إلى الراحة، وضعنا الباب على ظهر الأتان وسرنا راجلين، أخذ الفتى يدندن بصوت شجي:

سبعةُ أيامٍ وأنا أبحث عن الحبيبة
الهيفاء الساحرة
وصلتُ نفسي لها
نسيتُ ذاتي
وعيناها طاهرة الأعماق
وصغيرة في عمرها
فلم أرضَ بديلها
وقلتُ لهم طاردوا كل الأمراض اللعينة
فلن أجدها وسيلةً لعلاجي
فقط اسمها هو ما يُجيرني
ويحفظُ قلبي من الضياع
من الخيبة
أفضلُ من أني تداعى
عندما أراها أشفى
متى فتحتْ عينَيها
يعودُ جسدي قلبًا
متى تكلمتْ أصبحُ قويًا

متى أضمُّها تطردُ عنّي السوءَ

ولكنها هجرتني منذ سبعةِ أيامٍ

فدعوني أموت فداء لها

كانت تلك أنشودة حب مصرية يرددها الشباب من بني إسرائيل، وكانت أمي أيضًا تحب أن تترنم بها على أنغام الناي في أوقات فراغها التي تصادف حينًا إلى الطرب، ولكن إحقاقًا للحق، لم أسمع أحدًا يغنيها بمثل ذلك الصوت الشجي الذي كان يتميز به (رام).

وصلنا إلى الشرق عند أطراف حي (زويلون) فتوقف (رام) وقال لي:

- استبقني يا (أشمون) إلى حي يساكر، وسألحق بك بعد قليل، فإن لي خالة من زويلون أعطف عليها، وأريد أن أعرج على دارها قبل أن أذهب.

قلت له:

- هل ستتأخر؟

قال في ضحكة لم أصدقها:

- كلا سألحق بك سريعًا فقط ضع الباب عند الدار ودقّ الأوتاد في الحلق حتى أوافيك.

ثم اتخذ سبيله متسللًا بين ظهور الخيام وكأنه لا يرغب في أن يراه أحد، وحالما اختفى عن ناظري، ترجلت وحدي إلى جوار الأتان في الصحراء حتى جاوزت حي زويلون، وأنا أردد في صوت خافت «سبعة أيام لم أر فيهن الحبيبة»، محاولًا تقليد صوت (رام) ولكن هيهات، فقد كان صوتي يخرج متحشرجًا خشنًا في تلك المرحلة من الصبا وكأنني ضفدع ضل طريقه في الحقل بعدما خرج من النهر.

وبعد أن قطعت شوطًا في الصحراء، تذكرت أنني لا أعلم عن أي البيوت أسأل في حي يساكر؟ ترددت بين خيارين أن أكمل طريقي إلى حي يساكر، أو أن أعود إلى نقطة الافتراق بيني وبين (رام) عند حي زويلون حتى يسهل علينا

اللقاء مرة أخرى، ففضلت الخيار الثاني، وعدت أدراجي إلى موضع الافتراق، ثم ربطت الأتان إلى جذع نخلة وجلست أستظل بظلها حتى يعود (رام).

مر وقت طويل وارتفعت الشمس في السماء، ولم يعد (رام)، انتابني هاجس أن يكون قد خرج من الحي من موضع آخر، أو أن يكون قد سبقني إلى حي يساكر، وأخذ يبحث عني هناك! أصبح القلق يحلني، وقد عصفت بي الظنون، فحسمت أمري ودخلت إلى حي زوبلون أسأل عن دار خالته، كان الوقت وقت ظهيرة، ولم يكن الرجال قد عادوا من أعمالهم بعد، رأيت بعض النسوة يجلسن أمام خيمة من الخيام، فسألتهن عن دار خالة (رام) النجار، فلم يعرفنه، ولم يعرفنها، شعرت بحياء تصرّني، فقد كنت كمن يبحث عن المحياط وسط الرمال، وقررت العودة، فسرت في زقاق ضيق بين خيمتين من الخيام لأصل إلى موضع الأتان، وإذا بي أجد رجلاً من زوبلون قادماً في مواجهتي، وقد ضاق الزقاق الضيق بجسده الضخم، لا أدري ما الذي دفعني إلى أن أسأله:

ـ هل تعلم أين دار خالة (رام) النجار؟

وقف الرجل مفكرًا للحظات ثم سألني:

ـ هل هو من سبط زوبلون؟

قلت له:

ـ كلا إنه من بنيامين ولكن خالته من زوبلون!

نظر إليّ الرجل متعجبًا وشعرت دون أن ينطق بسخافة ما أقول فكدت أشكره وأنصرف، لولا أن حدث ما لم أكن أتوقعه ظهر (رام) فجأة وهو يخرج متسللاً من ظهر خيمة من الخيام، ومن فرجة الخيمة وقفت امرأة تودعه بالصلاة فهتفت دون إرادة مني:

ـ هاهو رام!

صعق (رام) لرؤيتي وقال:

ـ (شمعون)!

ثم وقع بصره على الرجل الضخم، وتجمد بينهما اللحظ لثوانٍ، بعدها تعثرت أقدامه في ذيلٍ قط. وقفا يحدقان ببصريهما في بعضهما البعض، وقد أذهلت المصادفة كليهما، وأدرك (رام) حقيقة الموقف، فأراد أن يطلق لساقيه الريح، ولكن ضيق الزقاق لم يسعفه، فكانت يد الرجل الضخم أقرب إلى عنقه، فأحاطه بساعدٍ كالطود، تدلى منه (رام) كالدمية وهو يرفس بقدميه في الهواء، وقد احتقن وجهه وكاد أن يلفظ أنفاسه، بينما صرخ الرجل في جنون:

- يا أهل روبلويت، أمسكت رجلًا في داري، أمسكت عشيقًا لامرأتي.

* * *



الورقة السابعة عشرة

كنت أتمنى ألا أستعيد ذكرى ذلك اليوم، ولكن ما الحيلة وقد نقشت أحداثه في عقلي، ولم تفلح السنون في طمسها، فها أنا أرويها لك كما حدثت دون زيادة مني أو نقصان.

فنجح الرجال الذين تجمعوا على صراخ الزوجة في تحرير عنق (رام) من قبضته قبل أن يلفظ أنفاسه، وكبلوا يدي (رام) وقدميه وألقوه أرضًا على جانبه كالبعير، وانهالوا عليه بصقًا وصفعًا بالنعال، أما المرأة فقد أمسكوا بها ومنعوا عنها زوجها حتى لا يفتك بها.

علم كل من في النزل بالأمر فأتى الناس من كل حدب وصوب، ووصل الخبر إلى أبي فأتى مهرولًا، وقد أزعجه النبأ المريع وخشي أن يصيبني أذى في غمرة الزحام والعراك، فلما رآني احتضنني، ثم ذهب لكي يلقي نظرة على (رام)، فاستشاط الزوج المخدوع غضبًا وقال:

- أليس هذا فتاك يا تاجر النزل؟

لم يستطع أبي أن يتكلم، فجاء صوت (بصلئيل بن حور) الحكيم قائلًا:

- وما شأن تاجر النزل بما فعله فتاه؟!

قال الرجل في جنون:

- إذن فلا يدافع عنه إذا ما ذبحناه في الحي ذبح البعير!

فقال (بصلئيل) في حسم:

- ومن يسمح لك؟!

صمت الناس لحظات احترامًا للشيخ الجليل، فقال (بصلئيل):

- تنحوا عن أذى الفتى ولا تمسوا المرأة بسوء، فقد اقترفا خطيئة لا يعلم عقوبتها إلا نبي الله، وأتوا بهما إلى خيمة الاجتماع لتسمعوا حكم الرب فيهما.

استحسن الناس كلام (بصلئيل)، وحملوا (رام) الفتى المتورم وجهه، وسالت دماؤه من جراء الضرب والتنكيل، ودفعوه أمامهم مع المرأة التي غطت وجهها بالحمار خزيًا وخجلًا، بينما كان زوجها يرغي ويزبد ويقول في غضب مجنون:

- وحق الرب لا يهدأ لي بال حتى تزهق روحاهما، ولولا عفا (موسى) عنهما لقتلتهما بيدي!

وتضاعفت أعداد موكب العار في الطريق إلى خيمة الاجتماع، ورأيت الشماتة في أعين أناس لا يعرفون (رام) ولا المرأة، ولكن جمعهم الفضول والرغبة في معرفة العقاب المرتقب بهذين الخاطئين في أن يخرجوا وراءهما، وأن يصبوا عليهما اللعنات، ويرمونهما بأحط الشتائم، بقلوب قاسية كالحجارة أو هي أشد قسوة.

توقف الجمع أمام خيمة الاجتماع، ودخل (بصلئيل) ومعه كبراء القوم من سبط زوبلون وسبط بنيامين إلى الخيمة، بينما مكثت إخوة (رام) أمام الخيمة يحقرونه ويلعنونه، ولم يسعوا أن يجاهدوا براءتهم منه أمام القوم، أما (رام) فقد نكس رأسه أرضًا، وظلت عيناه تدور في محجريها رعبًا، وبين الفينة والفينة كانت تلتقي نظراتنا فيخفق قلبي هلعًا، وأشعر بالذنب أني قد ساهمت في فضح أمره، ولم يمض وقت طويل حتى خرج علينا (بصلئيل بن حور) بكلام الرب الذي نزل على (موسى)، وتجلى به الوحي على تابوت العهد، قال (بصلئيل):

- اخرجوا بكليهما إلى باب المنزل وارجموهما بالحجارة حتى يموتا، تلك

التي زنت في فراش زوجها وهذا الذي وَطِئَ شرف صاحبه، حتى تنزعوا الشرَّ عن بني إسرائيل.

وانهار (رام) باكيًا، وغشي على المرأة بينما هلل بنو إسرائيل فرحًا، وقال الزوج متشفيًا:

ـ صدق (موسى) فيما جاء به عن ربه.

وحُمِل الآثمان إلى الصحراء، وأُلقي بهما مُكبَّلين في حفرة وتناقص الناس في جمع الحجارة في حماس [illegible]، وأحاطوا بالحفرة، وأخذوا يتدافعون لرجم المذنبين حتى ينزعوا الشر من بني إسرائيل، وألقى الرجل الموتور بأول حجر فأصاب رأس (رام) مباشرة وجعله يصرخ متألمًا، ثم توالت الحجارة عليه وعلى المرأة حتى سقطا وقد خمدت أنفاسهما الأخيرة. لم أحتمل رؤية ما يجري، فقد انهرت باكيًا، وكدت أسقط مغشيًا علي، فاحتضنني أبي بذراعيه، ثم انطلق بعيدًا عن المشهد الدامي ثم أجلسني وأخذ يبكي بحرقة على الفتى المسكين، ورفع يديه إلى السماء وهو يقول:

ـ اللهم اجعل عقابه في الدنيا كفارة له في الآخرة.

• • •

مكثتُ أسابيع وشهورًا، ولم يتعافَ جسدي من الهزال الذي ألمّ به بعدما شاهدت مقتل (رام)، تحيّنت ذكراه الفرصة بعد الأخرى كي تتحرر من مخبئها في قعر نفسي ثم تطل إلى رأسي في صورة حلم [illegible] مصحوب، أو شاردة تنزعني من يقظتي أرى فيها (رام) وهو يتحرك معي في حديث لوم وعتاب، ينتهي ببكائي بكاءً صامتًا تنساب فيه دموعي بغير إجهاش ولا نحيب، ونشأ في قلبي خوف من الألم، ونفور من رؤية الدماء حتى وإن كانت لطائر مذبوح، فكنت إذا رأيت طائرًا يتلوى من الألم وقد انسابت الدماء من عنقه، أتقيأ ما في جوفي، وتخور أوصالي، ويمتقع لوني كمن أشرف على الموت.

ورآني أبي على تلك الحال فوقف ينظر إليّ مشفقًا، بينما كانت أمي ترقبني

في متى، أشارت إليه كي يدخل إلى حجرتها وسمعها تقول:

ـ سأفقد ولدي يا (زخاري).

قال يائسًا:

ـ وماذا عساي أن أفعل يا (رومانا)؟ أتيت له بالصبية، وأمرت (عامير) ألا يفارقه، ولكنه يعرف عن اللهو أو الجلوس معهم

قالت:

ـ اذهب به إلى خيمة الاجتماع وقرّب من أجله قربانًا، واسأل الكاهن (هارون) أن يدعو له.

فاصطحبني أبي معه في الصباح إلى خيمة الاجتماع وحمل معه قدرًا من الزيت، وصاعًا من البُرّ، وسحب خلفه شاةً وماديةَ الصوف، تتقافز في سيرها مرحًا وهي لا تعلم ما ينتظرها عند المذبح.

استقبلنا كاهن شاب من أبناء (هارون) خارج الفناء، ثم اصطحبنا معه إلى الداخل، قبل أن يتوقف عند مرحضة من النحاس أقيمت إلى جوار المذبح، وقد امتلأ حوضها بالماء المقدس الذي تتلى عليه الصلوات، خلع الكاهن نعليه، ثم غسل يديه ورجليه، ومسح على رأسه بالماء، ثم أخذ الزيت والبُرّ من أبي وحملهما إلى داخل المسكن وتركنا للحظات قبل أن يعود وفي يده السكين الذي سيذبح به الشاة، ارتجف جسدي لمرأى السكين الذي تلألأ نصله مع ضوء الشمس.

قال الكاهن لأبي:

ـ أهي قُربان للشكر أم للخطيئة؟

قال أبي:

ـ هي رجاء للرب أن يشفي (شمعون) مما أصابه.

قال الكاهن:

ـ ما حلت مصيبة وما ابتُلي إنسانٌ بالمرض إلا بذنب.

ثم دعاني قائلًا:

- اقترب يا غلام وضع يدك على رأس الذبيحة واستغفر الرب عما اقترفت يداك.

نظرت إلى أبي، فهز رأسه مشجعًا، فوضعت يدي المرتجفة فوق رأس الشاة التي استلقت على جانبها في هدوء، ثم مجّد الكاهن اسم الرب وابتهل إليه بالغفران، وأنا أردد خلفه ما يقول دون أن أفهم عن أي شيء أطلب الغفران! فالخطيئة، والذنب، وطلب الغفران، كانت كلمات أرددها ولا أفهم معناها، لم أفهم كيف يكون قتل (رام) كفارة له؟ وكيف يكون قتل الشاة فداءً من أجلي؟

سار الكاهن بالنصل الحاد على عنق الذبيحة، فانبجست الدماء من عروقها، وطال رذاذها وجهي، فلم أشعر إلا والأرض تميد من تحت قدمي، وضوء الصباح يستحيل في عيني ظلامًا.

وأفقت من إغمائي لأجدني في حجرتي بالدار وحولي أبي وأمي والعمة (باتشيبا) وصديقي (عاموس)، وكانت (باتيا) الصغيرة أول من استقبلت عيناي، فقد كانت تعتلي صدري، وتعبث في أنفي وأذني حتى أفقت، وتعجبت حينما رأيت جدران الحجرة وقد تلطخت بكفوف حمراء من الدماء، وانتثرت في كل ركن من أركانها قطرات من الدماء، وعلمت أن الكاهن قد أمر بذلك حتى يرتفع سخط الرب عن الدار، ففعل أبي ما أمر به.

ومكثتُ أيامًا في الحجرة حتى تعافيت، وخرجت من الدار ذات صباح وقد دب في جسدي نشاط، تناولت صحيفة من صحائف البردي التي كانت تصنعها أمي، وقد اشتاقت نفسي للكتابة، جمعت بعضًا من سخام الحطب وأذبته في الماء، ووضعت عليه قطرات من الزيت ومزجته في قارورة لأصنع منه حبرًا أسود كما علمتني أمي، ثم شذبت قلمًا من البوص، غمست طرفه في قارورة الحبر، وكتبت باللغة المصرية على ورقة البردي، وبخط شديد الأناقة «أوراق شمعون المصري»، وكانت تلك هي اللفافة الأولى من صفحات السفر الذي تقرءونه بين أيديكم الآن.

• • •

الورقة الثامنة عشرة

وجاء الأمر بالرحيل، فتحرك الركب من حضيروت وسرنا في البرية عشر ليالٍ دون توقف، تحدنا من الشرق سلسلة من الجبال والهضاب الشاهقة، حمراء الجلد، ملساء الصخر، علمنا أن اسمها جبال «سعير»، وهي حقًا أشبه بالسعير، فرغم أن الوقت كان وقت ربيع، ولم يدخل الصيف بعد، فإن قيظ الشمس كان مهولاً، يدنو قرصها من الوادي، ويتلألأ ضوءها على قمم الجبال كلهيب مستعر، ولولا سحابة الغمام التي أظلتنا في ترحالنا، لهلك الناس والأنعام في البرية.

وفي صبيحة اليوم الحادي عشر، أشرقت الشمس على واحة خضراء فسيحة، رأيناها على مرمى البصر كجنة أقيمت فوق ربوة عالية، فطافت أنفسنا لأن تكون تلك الواحة هي منزلنا التالي في أرض سيناء، ولم يكد الركب يصل إلى أطراف الواحة حتى انقشعت سحابة الغمام التي كانت تظللنا، فعلمنا أن الرب قد اختار لنا تلك الأرض منزلاً.

اسمُها «قادش برنيع» أي «البرنيع المقدسة»، وكيف لا توصف بذلك الاسم وقد قدّسها الرب ببركاته، فتفجر فيها أربع عيون جارية، يتهادى منهن الماء عذبًا رقراقًا من بين صخور الجبال، ليسير في جداول صغيرة، تخترق جنات من النخيل والأشجار، سمعنا فيها زقزقات العصافير لأول مرة منذ خرجنا إلى سيناء، سار الركب على أرض الواحة التي اكتست عشبًا، تظللنا أفنان الأشجار المتشابكة، ويحف بنا هدوء الجنة العذراء التي لم تطؤها قدم فيما يبدو.

قدم بشرٍ من قبل، فصار الجمع في خشوع، لا يُسمع فيه إلا أصوات حوافر الخيل وخِفاف النوق.

أناخ أبي الناقة، فهبطت أمي والعمة (باتشيفا)، ومعهما بانيا الصغيرة، وسِرنا إلى جوار أبي في رهبة وانبهار.

قالت أمي مشدوهة وقد أخذها مشهد عصفور ملوّن يضرب بجناحيه في الهواء ويطوف بين أفرع الأشجار:

ـ حقًّا يا (زخاريا)! إنه لجمال لرهبة!

همس معتبطًا:

ـ بل هي بشائر الأرض المقدسة تلوح في الأفق (يا مريم)!

قالت عمتي (باتشيفا) وقد أخذت بجلال المشهد:

ـ هل اقتربنا من الأرض المقدسة يا (زخاريا)؟

قال أبي:

ـ ليس بعد يا (باتشيفا)، ولكنّا تركنا الصحراء إلى الأبد، وعما قريب نطأ أقدامنا الأرض التي مشى عليها آباؤنا (إبراهيم) و(إسحق) و(يعقوب).

رأيتها تبكي، فربتت أمي على كتفها في إشفاق، فلم تلبث أن مسحت دموعها، والتفتت نحو الصحراء قائلة:

ـ لعنة الله على تلك الصحراء، لم نر فيها خيرًا قط، أخذت منا ولم تعط!

ثم أجهشت في البكاء مرة أخرى، فاحتضنها أبي وقال:

ـ هوّني عليك يا أختاه! فعندما يذكرنا الناس في صلواتهم، ويتعدسنا أحفادنا ويقولون هؤلاء من خرجوا مع نبيهم، ووعدهم ربهم فأوفى بوعده لهم.

سألت أبي:

ـ كيف ترك الناس تلك الواحة بلا سكنى؟!

قال:

- لعل الرب أرشد نبيه إلى هذا المنزل كي تشتاق نفوس الناس إلى الأرض المقدسة!

ثم حطت الرحال، وكان أول بيت أقيم في المنزل الجديد هو بيت الرب، انهمك الرجال في نصب خيمة الاجتماع والمسكن وإقامة المذبح، وبعد أن صلى بنا نبي الله (موسى) صلاة الشكر، جلس إلى رؤساء العشائر يُقسِّم بينهم أرض الواحة، فجاء نصيب سبط رأوبين إلى جوار عين ماء صافية اسمها «عين جُديرات» وحاز نصيب أبي من الأرض مساحة صغيرة لا يزيد طولها وعرضها عن عشر أذرع، تتوسطها شجرة سنط عالية، فقام أبي بمعاونتي ومعاونة (عامير) بقطع شجرة السنط، ثم شرعنا في بناء دار من طابقين يفصلهما سقفٌ من ألواح الخشب، أعددناه من شجرة السنط، ويتصل بطابقها العلوي سلم خشبي أقامه أبي خارج الجدار، واخترت أن تكون حجرتي مع (عامير) في الطابق العلوي، وكنت كثيرا ما أجلس في حجرتي وحدي، أتطلع من خلال نافذتها إلى ساحة الحي وأرى فيها خيمة الرب، فيصفو عقلي لمرآها، وأمكث ساعات أكتب فيها أوراقي، وأدون ذكرياتي عن الخروج.

وأثارت الطبيعة الخصبة حنين أمي إلى الباقات التي كانت تزرعها في مصر، فأخذت بعض حبات من الفول أحضرتها معها من مصر وكانت تنوي زراعتها في الأرض المقدسة، فلما رأت خصوبة الأرض حولها، بذرت بعضًا منها في حوض من الطين حرثته أمام الدار ثم سوّرته بقطع من الحجارة حتى لا تطأه أقدامنا، وكانت تحضر له الماء من البئر لترويه، ولم تمض بضعة أسابيع حتى ارتفعت شجيرات الفول من الأرض، ثم لم تلبث أن أثمرت قرونا خضراء ذات بهجة بها بذور منتفخة ذات طعم عجيب، أكلت منها العمة (باتشيفا)، فهزت رأسها طربا وهي تستطيب مذاقها وتقول:

- لم أفتقد من مصر سوى عدسها وفومها.

أكملت أمي وهي تنزع بأصابعها القشرة عن حبات الفول وتلقمها في فمها في تلذذ:

- بل فولها وثومها وبصلها وقثاؤها، وهل تخرج الأرض في مصر إلا أطيب الطعام؟

ضحك أبي وقال:

- أفلا زرعت لنا يا (رومانا) حوضًا من البصل حتى يتقاتل عليه بنو إسرائيل؟

قالت متحسرة:

- ليتني أملك له بذورًا!

ضحكنا وقال أبي متخيرًا حلته الأثيرة دون أن يمل:

- حينما تتذوقون بصل الأرض المقدسة ستنسون بصل مصر وثومها

ومرت الشهور، وانحسر نهار الصيف مؤذنًا بقرب الخريف، واستيقظنا ذات صباح على صوت البوق، فارتج الحي الصغير، وسرعان ما ارتفع صوت الجلبة ودب النشاط في المنزل. كنت أنام إلى جوار (عامير) حينما طرق مسامعي صوت النفير، فقمت من سريري مسرعًا ونظرت عبر النافذة فرأيت الرجال يتوافدون إلى ساحة الحي، ورأيت أبي يخرج مسرعًا وهو يكمل ارتداء ثوبه في الطريق. ناديته فقال دون أن ينظر نحوي:

- أيقظ (عامير)، وانتظراني في ساحة المنزل، فنبي الله يجمع الرجال والشباب لأمر جلل.

أيقظتُ (عامير) بدفعة من قدمي كما اعتدت على ذلك دائمًا، فقد كان نومه ثقيلًا، فاستيقظ فزعًا غاضبًا، وقبل أن يسبني قلت له:

- أسرع فقد دق النفير ونبي الله يجمع الناس لأمر جلل!

فرك عينيه ثم أدخل قدميه في نعل، وهرول خلفي قافزًا درجات السلم الخشبي في خطوتين، ولم تمض لحظات حتى كان بنو إسرائيل يملئون ساحة النزل، وعرق الليل لا يزال يختلط بأجسادهم، واحمرار النوم لم يذهب بعد من عيونهم، تساءل الجميع عن سبب الدعوة، ولكن يبدو أن أحدًا منهم لم تكن عنده الإجابة، فتوجهت العيون تلقاء الخيمة في انتظار خروج الكليم.

ومضى وقت قصير قبل أن يخرج الكليم من الخيمة وخلفه سار الشاب (يوشع)، والكاهن الأكبر (هارون)، وبعض الرجال من رؤساء العشائر، صعد (موسى) إلى صخرة عالية حتى يراه الناس، ثم مجّد الرب وقدّس أسماءه، ثم نادى في الناس قائلا:

- أيها الناس! قد وعدكم الرب الأرض المقدسة، وها قد صرتم على أبوابها، لا يفصلكم عنها إلا قليل، أيها الناس قد أمر الرب بأن تصنعوا له جيشًا، تقاتلون لأجله، وتتقدس له باسمه، فيضرب بأيديكم على رقاب أعدائكم، ويكن معكم أينما صعدتم في البرية؛ حتى يعلم الناس أن الرب إله إسرائيل، قد تمجد في السماء والأرض، وأنه قد صار له جيش عظيم يرهب به ملوك الأرض في كل الممالك.

صمت لحظات وقلوب الناس تفرغ في فزع وأعينهم تغور من الخوف ثم قال:

- هكذا قال السيد الرب: كل من جاوز العشرين من عمره من الرجال يكون جنديًا في جيش الرب، ويحمل سيفًا أو ترسًا أو رمحًا، ويقاتل باسم الرب حتى يتمجد اسمه أو يهلك دون ذلك!

عم الصمت بعدما فرغ من حديثه، ورأيت شبح الخوف يطوف على الناس ويمس بأنامله قلوب الرجال، فبهتت الوجوه، وانعقدت الألسنة، ولم يفق الناس من الصدمة إلا على صوت رجل من سبط يساكر يقول:

- وهل نعلم قتالًا يا (موسى)؟!

قال (موسى)، وقد بدا أنه أعد العدة لهذا السؤال:

- غدًا يخرج الذين كُتب عليهم القتال إلى أطراف الواحة، وليأت كل رجل منهم بفرس أو رمح أو سيف، ومن كانت له فأس أو ترس فليأت بهما، ثم أشار إلى الرجال من خلفه قائلًا:

- هؤلاء هم قادة جيش الرب، منهم تتعلمون الرمي والطعن، ويد الرب فوق أيديكم.

وانفض الجمع، وعدنا في اتجاه الدار، وفي الطريق رأيت أبي يخطو في سرعة وقد لمعت عيناه فرحًا، أسرعنا خلفه أنا و(عامر) حتى حاذيناه، ثم قال (عامر) وهو يلهث:

- أما يجوز لي يا عماه أن أكون في جيش الرب؟

ابتسم أبي قائلًا:

- كم عمرك الآن يا فتى؟

مط شفتيه وقال:

- لا أدري لعلي قد اقتربت من العشرين أو أكثر قليلًا؟

نظرت إليه متشككًا وقلت محتجًا:

- وهل تكبرني بخمس سنوات؟؟

وقد كنت حينها في الخامسة عشرة، [illegible] حتى أضحكت، فضحك أبي وقال:

- لا تتعجل يا بني، إنما هو أمر الرب، وسيأتي يوم قريب تكونان فيه في جيش الرب.

وعند الظهيرة جمعنا وقت الغداء، كانت أمي تضع أطباق الطعام على الأرض ويبدو على عقلها الشرود، بينما كانت العمة (باتشيفا)، تصفف شعر ([illegible]) بشيء من العنف جعل الفتاة تتذمر، وتحاول النهوض المرة بعد الأخرى، ولكنها لم تستطع أن تفلت من يد العمة التي أمسكت بشعرها الطويل في قوة، لاحظ أبي شرود أمي، ويبدو أن العمة (باتشيفا) قد لاحظته أيضًا ولكنها فهمت السر وراءه، فقالت لأبي:

- ألم يعدنا (موسى) الأرض دون حرب؟ إذن فلِمَ يدعُو الآن إلى جيش الرب؟

قال أبي:

- وهل تُمنح الجنة بغير ابتلاء يا (باتشيفا)؟!

ألقت بالمشط ثم عقصت شعر (باتيا) وهي تقول:

- وهل بنو إسرائيل رجال حرب يا (زخاري)؟!

تنهد قائلًا:

- ما دام الرب معنا فلا خوف علينا يا (باتشيفا)، ألم يحارب بنو إسرائيل العماليق في رفيديم وهزموهم بإذن الله؟!

أفلتت (باتيا) من بين يديها بعد أن فرغت من تصفيفه ثم قالت في حدة:

- لا تتعامى يا (زخاري)! وهل قتال قطاع الطرق كقتال جيش الكنعانيين؟!

ثم أردفت في مزيد من الحدة:

- وهل نسيت ما حدث لـ(أشكول) في رفيديم؟!

لم تستطع أمي أن تتحمل المزيد من الكلمات التي تضخم ما يجيش في صدرها من خوف، فألقت بالطبق الأخير وجاشت عيونها بالدمع وهي تهرول خارجة إلى الفناء الخلفي للدار.

وغضب أبي من كلمات عمتي فقال ناهرًا:

- ألن تكفي عن ذلك يا (باتشيفا)؟ ماذا عساي أن أفعل؟! هل أهرب إلى الجبل من الواحة كما هربت أنت من قبل مع (الشامري) من رفيديم؟

صدمتها كلماته، وكانت تلك المرة الوحيدة التي أرى فيها أبي يذكر (الشامري) بسوء منذ فقدناه في حرب رفيديم، ولم تجد العمة ردًا سوى تلك الصيحة وهي تقول باكية:

- قطيعة بيني وبينك يا (زخاري)! لا أخاطبك بلساني حتى أموت!

رأيت الغضب والبؤس على وجه أبي، فترك الطعام هو الآخر، ودلف إلى غرفته، وعند المساء كنت أجلس إلى جوار النافذة أخط بقلمي في صفحات السفر الذي تزايدت أوراقه، وقد انعكس ضوء القمر الذي اكتمل بدرًا عليها،

وبينما كنت كذلك سمعت صوت نحيب خافت يأتي من جهة الباب الأمامي للبيت، أطللت برأسي فوجدت أمي تجلس وحدها على عتبة الدار، ثم لم يلبث أبي أن خرج من الباب وجلس إلى جوارها، ربت على كتفها ثم ضمها إلى صدره وهو يقول:

- ما ظننتك تفرقين لأمر الحرب هكذا يا أم (شمعون)؟! هوّني عليك يا (روماننا)، فلقد وعدنا الرب بالنصر كما وعدنا بالأرض؟

هزت رأسها باكية:

- ما خرجت لأجل الأرض يا (زخاري)! إني خرجت لأجلك أنت، فماذا عساي أن أفعل بأرض لست فيها؟!

ضمها إلى صدره أكثر وقال:

- تحفظين رقائق العشق يا (روماننا)!

بكت أكثر وقالت:

- حفظك الله لنا ولكني عاتبة على ربي!

نظر إليها معاتبًا، فقالت:

- لم كتب علينا القتال؟! أما آن لنا أن نرتاح مما لاقيناه من شقاء، وننعم قليلًا بعد الجهد.

قال في يقين:

- تلك تربية الرب لنا يا (روماننا) حتى ننال جائزته!

ثم ربت على كتفها قائلًا:

- استغفري الله يا (روماننا)، وتفاءلي خيرًا بوعده.

نكست رأسها، وهي تمسح دموعها، ثم تمتمت:

- أستغفر الله.

فأمسك أبي بيدها ثم دخلا إلى الدار، وسرحت بخيالي في أمر بني إسرائيل،

وتعجبت من كثرة ما يتعرض له ذلك الشعب من بلاء واختبار، وألح في عقلي سؤال، هل كثرة البلاء ستُدخل الناس إلى حظيرة الإيمان، أم ستخرجهم منها إلى التمرد والعصيان؟

• • •

وأقيم معسكر جيش الرب في الصحراء المتاخمة للواحة، نصبت خيام المعسكر على الجانبين، وتركت الساحة خالية للكر والفر والتدريب على القتال، ارتدى الرجال صدرات الحرب وأغطية الرأس، وتمنطقوا بالسيوف التي صنعت في مجيم تهير أقيم في طرف المعسكر، صنعت فيه الدروع والسيوف، وسائر مراجل الحرب.

كنت أخرج في كل صباح مع (عامير)، فنصعد إلى ربوة عالية تشرف على أرض المعسكر، ثم نركن إلى صخرة ستظل بظلها، لنشهد مهارات الرجال في المبارزة وركوب الخيل، وكان (عامير) مفتونًا بقوة نبي الله (موسى)، الذي كان يقف في ساحة المعسكر بلا ترس ولا غطاء رأس، يقاتل بيديه العاريتين العصبة من الرجال فيصرعهم دون مشقة أو عناء، وكان (عامير) يتمتم مذهولًا ويقول:

- ليتني حظيت بعُشر قوة (موسى)!

فكنت أسخر منه قائلًا:

- لن تحظى بذرّةٍ منها، فهو نبيٌّ مؤيّدٌ بقوة السماء.

أما أنا فقد كنت مفتونًا بمهارة (يوشع بن نون)، ذلك الفتى الذي قاد جيش بني إسرائيل من قبل في حرب العماليق، وها هو يعد جيش الرب للدخول إلى الأرض المقدسة، وكأنه وُلد ليكون قائدًا، كان (يوشع) فارع الطول ممشوق القوام تبدو عضلات عضديه وساقيه في ردائه القصير كجدائل قدّت من الصخر، ينساب جسده بمنة ويسرة عند القتال في رشاقة الفهد، ثم ينقض في قوة الليث على غريمه فيصرعه في لحظات، وكنت أتعجب حين أراه على صهوة جواده، كيف يطاوعه فرسه فيصنع له ما يشاء؟ حتى ظننت أنه سيحلق

به ذات يوم إلى السماء، إن أمره (يوشع) بذلك!

ومثلما رأيت في (يوشع) البطل الخيالي الذي تهفو إليه قلوب الفتيان في مرحلة الصبا، رأيت في أبي قدوة تحمل في طياتها كل معاني الرجولة مجتمعة دون خلل أو نقصان، ولعل في حياة كل منا مرحلة تتبدل فيها المشاعر نحو الآباء من النفور والضجر إلى الفخر والإعجاب، وأكاد أجزم أنني قد بدأت تلك المرحلة مبكرًا في تلك الأيام، فقد رأيت النجار (زخاري) وقد تبدل به الحال، وأصبح جنديًا مطيعًا في جيش الرب يتدرب يوميًا على القتال، دون كلل أو ملل، يحمل سوابق في الرمي والتسديد في غير أوقات التدريب، حتى صار أبرع بني إسرائيل في رمي السهام، ورأى (يوشع) بعينيه الخبيرتين تلك المهارة في التسديد التي حظي بها أبي، فعهد إليه بتدريب فريق من بني إسرائيل على رمي السهام، ثم جعله قائدًا لفرقة الرماة في جيش الرب، وعاد أبي في ذلك اليوم الذي اختاره فيه (يوشع) قائدًا لفرقة الرماة إلى منزلنا وهو يرقص فرحًا، يزف إلى أمي البشرى، فما كان منها إلا أن بكت وهي تقول:

- ما وددت أن أراك جنديًا، فصرت إلي قائدًا لفرقة!

ومرت الأيام والشهور وجيش الرب يزداد يومًا بعد يوم قوة في التسليح، وثقة في النصر، والفضل في ذلك كله كان يرجع إلى الشباب من بني إسرائيل الذين أشعلوا قلوب الناس حماسة، وفتحوا لهم أبواب الأمل على مصراعيها، فكانوا يمشون بين الناس وقد علت وجوههم نضرة الطمأنينة، يتحدثون في يقين عن قرب النصر، والوصول إلى أرض الميعاد.

وفي صبيحة اليوم الثاني من الشهر الثاني للسنة العاشرة من الخروج، جمع (موسى) من كل سبط من الأسباط رجلًا، اختاره بعناية، ثم أمر الرجال بأن يتنكروا في زي تجار من الأعراب، وأن يصعدوا إلى الأرض المقدسة، فيتحسسوا فيها عن كل شيء، صغيره وكبيره، وقال لهم:

- انظروا إلى أرض كنعان وإلى الشعب الساكن فيها، خذوا من كل مدينة ثمرة، ومن كل أرض حفنة من التراب، حتى يعلم بنو إسرائيل أن الرب قد

وعدهم الجنة في أرضه، لا تغفلوا عن حصن ولا سور، وكل ما ترونه من أهلها فاحفظوه، واعلموا أنكم نقباء الرب ورؤساء بني إسرائيل، فقد اختصكم بذلك الفضل وحدكم، أربعون يومًا وليلة، تعودون بعدها إلى الشعب الرابض في قادش، فتنفخون الأبواق، وتدقون الطبول، ثم تسيرون على بركة الله حتى تطأوا أرض آبائكم (إبرام) و(إسحق) و(يعقوب).

وتحرك النقباء الاثنا عشر وقد تنكروا في ملابس بدو من الصحراء، وساروا في قافلة صغيرة بها بعض العير، تحمل بضاعة مزجاة من الموضع والتين وأثواب من قماش الكتان السميك الذي تصنع منه الخيام، وكان في مقدمة القافلة الشاب (يوشع بن نون)، وصديقه (كالب بن يفنة) من سبط يهوذا، وكان من بين الرجال رجل من سبط راوبين يدعى (شموع بن ذكور) كان ممن علموا أبي القراءة والكتابة، وكان حينها في الخمسين من عمره، كث الحاجبين، تتدلى شعيرات حاجبيه حتى يوشكن أن يلامسن رموشه، ولكنه رغم ذلك كان صحيح البدن مشدود الجلد. اختاره (موسى) لأنه كثير التأمل والتفكير، لا يكثر الكلام ويقوم بتدوين ما يجول في خاطره أو يراه في رقاع من البردي، ولقد استبشر أبي خيرًا بخروج (شموع) وقال وهو يودعه معانقًا:

- استبشرت خيرًا بخروجك يا معلمي، فسترى بعينيك ما لا يراه الآخرون!

فارتسمت ابتسامة رائقة على شفتيه، وربت على كتف أبي قائلًا:

- وإن منحني الرب عمرًا بعد أن أعود سأكتب ما رأيته حتى يقرأه ولدك النابغة (شمعون)!

فنظر أبي نحوي مفتخرًا ومسح على رأسي قائلًا:

- حقٌ لك أن تفتخر يا ابن (روماثا)! هذه شهادة لك ممن علم أباك القراءة والكتابة.

والحق أن ما سأرويه في السطور القادمة، إنما هي أوراق (شموع بن ذكور) التي كتبها في تلك الرحلة، وقد قدر لي أن أطلع عليها في أيام لاحقة، حين تركها لي ومعها رسالة مكتوب فيها:

«تلك هي شهادتي على الرحلة المشئومة، اتركها لـ«اشمعون بن زخاري»، كي يرويها على الأجيال القادمة حتى تعلم كيف ضيَّع السفهاء من مشايخ بني إسرائيل حلم جيل بأكمله، ظنوا بأنفسهم الحكمة وحسن التدبير، فأورثوا أبناءهم الخزي والعار ومرارة التيه».

وإليك ما كتبه «شمّوع بن ذكّور»

• • •



الورقة التاسعة عشرة

«مسح الرب إيل، الحجر باسمه إبراهيم، وأعطى الحياة باسمه يهوه»

وبعد فهذا ما كتبه (يشوع بن ذكور) عن رحلة الفتيان الاثني عشر إلى الأرض المقدسة، التي وقعت في اليوم التاسع من السنة الثانية من الخروج:

* اليوم الثالث من البعثة:

«ركبنا قادش برنيع ثم اجتزنا جزءًا من البرية في يومين، حتى وصلنا إلى «تل عراد»، التل يشرف على الصحراء من كل جانب، وأقام فوقه الكنعانيون حصنًا هزيلًا لا تغلق أبوابه إلا ليلًا، هنا تلتقي القوافل المتجهة إلى الشرق أو الجنوب، قابلتنا قافلة ضخمة يفوق عدد نوقها الألف ناقة وتسير جنوبًا في اتجاه أرض العرب، علمنا أنها قافلة لقبيلة جرهم العربية، تحدث (يوشع) إلى قائد القافلة، وسأله عن الطريق إلى مدينة «بيت إيل» فعلم أنها تقع على بعد ثلاثة أيام»

* اليوم السادس من البعثة:

«وصلنا إلى نهاية الطريق الصاعد قبل الغروب، ورأينا مدينة «بيت إيل» في الأفق، تتدرج تلالها كالسلالم ويقام على كل تل سور ضخم من الحجارة، جعل المدينة كلها تبدو كقلعة حصينة، وصلنا إلى البوابة الأولى، فخرج إلينا الحراس، وفحصوا متاعنا بدقة، ويبدو من دقة التفتيش أن الكنعانيين لا يتهون

كثيرًا في الأعراب القادمين من الصحراء»

● اليوم التاسع من البعثة:

«تفرقنا بالأمس إلى أربعة مجموعات، أمرنا (يوشع) بأن نتحدث إلى السكان دون أن نكشف عن هويتنا، وأن نشتري ثمارًا من الأسواق نحتفظ بها لحين عودتنا إلى سين. المدينة تبدو غنية، ونظيفة، وتكتظ بالغرباء من اليبوسيين والحيثيين والأدوميين. سألت بائعة فطائر وأنا ابتاع منها شطيرة محلاة بالعسل عن مكان المعابد، فوصفت لي مكانًا على بعد عدة شوارع، قالت لي إن اسمه «مذبح إبرام». خفق قلبي للاسم، فقد كنت أعلم أن أبانا (إبرام) أقام مذبحًا للرب في بيت إيل وهو المكان الذي وعده فيه الرب بذرية عظيمة تمتلك الأرض كلها من بعده.

وصلنا إلى المذبح فوجدنا زحامًا شديدًا والناس يصطفون في صف طويل، وفي مقدمة الصف كان يقف أحد الكهنة بالموسى، وحين يصل الواقف في أول الصف إلى موضع الكاهن ينحني ويطأطئ رأسه في خضوع أمام الكاهن، فيمر الكاهن على رأسه بالشفرة الحادة ليزيل عنه الشعر من الجذور، تاركًا جلد رأسه أبيض داميًا تتقاطع فيها الجروح والندبات من أثر الموسى.

علمنا أن ذلك الصف هو صف الخطيئة، وأن هؤلاء الناس يكفرون عن خطاياهم بحلق رءوسهم تمامًا، أمرنا أحد الكهنة بأن ننضم إلى الصف، ولكننا شكرناه وانصرفنا، وبينما كنت أستدير مغادرًا رأيت تمثالًا ينتصب فوق سور المذبح ويشرف على الساحة التي أمامه، كان تمثالًا ضخمًا قبيحًا على هيئة إنسان مصنوع من العقيق الأحمر، حاملًا وجهه بضوء المشاعل من حوله وكأنه شيطان فيثير الرهبة في القلوب، سمعنا بعض الأحباش يهتفون له قائلين:

ـ هو ـ بل! هو ـ بل!

سألني (شافاط):

ـ ماذا يقولون؟

قلت:

- يقولون يا بعل، يا بعل.

ثم انصرفنا وأنا أرغب في البكاء، بعد أن رأيت مذبح أبينا (إبرام)، وقد دنسه الكنعانيون بالأوثان، وبتمثال الإله بعل».

* اليوم الحادي عشر من البعثة:

«كاد أمرنا أن ينكشف، حالف (فلطي) من سبط بنيامين لواءه (يوشع)، وأفصح عن هويته رغمًا عنه، كان (فلطي) يتصاحب أطراف الحديث مع أحد الرجال مدعيًا أنه تاجر من مصر، وكان الرجل يجيب عن أسئلة (فلطي) بأريحية وسعة صدر، ولكنه كان يدس بين عباراته أسئلة يريد أن يستنبط بها حقيقة (فلطي)، وبينما كان (فلطي) يسير إلى حيث دعاه الرجل إلى مشاركته الاستحمام في مغطس القيم في منتصف المدينة لراحة الأبدان، فوافق (فلطي) ونزل إلى المغطس الحار عاريًا إلا من إزار يستر عورته، وظل الرجل الثري يتحدث عن كنعان وبيت إيل إلى أن فاجأ (فلطي) بقوله:

- هل يختتن الرجال في مصر؟

فأسقط في يد (فلطي) وقد ظن أن الرجل قد كشف عورته فقال مسرعًا:

- نعم! نعم! بعضهم يختتنون!

علت وجه الرجل ابتسامة صفراء ماكرة وقال:

- عجبًا إن لي جارية مصرية أخبرتني غير ذلك!

فظن (فلطي) أن الرجل قد كشف أمره، وقفز مسرعًا من المغطس، ولكن حراسًا أحالوا بينه وبين الخروج، وتبين له حينئذ أن الرجل الثري الذي شاركه المغطس هو صاحب الشرطة في بيت إيل!

وكان صاحب الشرطة يظن أن (فلطي) جاسوس من المؤابيين لولا أن أفصح (فلطي) له بعض الحقيقة وأخبره أنه صعلوك من العبرانيين تنكر في زي تاجر حتى يحظى ببعض القربى والمال من الأثرياء، فصدق صاحب

الشرطة روايته، خصوصًا بعدما أكد له رجاله أن الرجل لبس موآبيًا، فأمر بمصادرة أموال (فلطي)، وطرده من بيت أيل!

* اليوم الخامس عشر من البعثة:

وصلنا إلى شكيم، والتي تعني في لغة أهل كنعان المنكب، أقيمت على أرض مرتفعة تفصل بين واديين وكأنها تحمل المدينة وقلعتها على منكبيها، كان سورها الضخم يلقي الرهبة في القلوب، تحدثنا لأول مرة في رحلتنا عن حصون أرض كنعان، وتساءلنا عن كيفية اختراقها إذا ما قامت حرب، فقال (يوشع):

- بكثير من الإيمان وقليل من المكر، تسقط أعتى الحصون!

وأمرنا (يوشع) هذه المرة أن ندخل شكيم فرادى حتى لا نثير الريبة في النفوس، على أن نلتقي عند صباح اليوم التالي خارج أسوار المدينة، وشدد علينا أن نحفظ مداخل المدينة ومخارجها، ومواضع الأبراج والحراس فيها، وقال في حماسة:

- إذا سقطت شكيم، سقطت أرض كنعان.

سرت منفردًا في الطرقات، أتطلع بطرف عيني إلى كل ناحية، وأكتب عدد الحراس فيها وأرسم مداخلها ومخارجها في ورقة دسستها بين طيات ملابسي حتى لا يراها أحد، فلقد رأيت في شكيم جنودًا أكثر مما رأيت من أهالي البلدة، وظللت على ذلك الحال حتى حل الليل، واكتشفت أنني لم أدبر مكانًا للمبيت، وأن العثور على نزل في المساء سيكون ضربًا من المستحيل، فخرجت إلى حانة في زقاق ضيق، سطعت أنفي رائحة خمرها قبل أن أرى أنوارها، كانت الحانة شبه فارغة إلا من اثنين من السكارى، لعبت الخمر برأس أحدهما فظل يهذي بصوت مرتفع، بينما قضت على عقل الآخر فألقته في ركن الحانة جثة هامدة إلا من صدر يعلو ويهبط وشخير ترتج له الحانة الخشبية، نظر إليّ صاحب الحانة وكأنه يسألني مطلبي من الخمر، فأشرت إليه شاكرًا، واستأذنته فقط في المبيت مقابل مال، وقبل أن يعترض أخرجت قطعة من الذهب، أدارت

عقله أكثر من رائحة الخمر، فأشار إلى صوان في ركن الحانة وضع عليه فرش متربة، وقال:

- يمكنك المبيت هنا حتى الصباح، ثم التقف مني قطعة الذهب في لهفة.

كان جسدي متعبًا، وتمنيت أن أهنأ بنوم هادئ، ولكن الرجل السكران ظل يهذي بصوت مرتفع وقال موجهًا كلامه نحوي:

- احتمِ أيها الغريب، وتدثر بالغطاء جيدًا ولا تمعن النظر في الظلام، حتى لا تخطفك أشباح «بني عناق»!!

ثم ضحك ضحكة مجلجلة كأنها تحاكي ضحكات الأشباح، ونصب أصابعه في الهواء كالمخالب.

ورغم علمي أن الرجل ذاهب العقل، وأنه يهذي كالمجنون، فإن رعدة خفيفة سرت في أوصالي، ووددت لو سألته عن «بني عناق»، ولكني آثرت النوم فأدرت وجهي نحو الجدار وظللت حتى الصباح!

● اليوم السادس عشر من البعثة:

«التقينا عند الصباح خارج أسوار «حبرون»، كان أول من وصل (يوشع بن نون) ثم (كالب بن يفنه) ثم أنا، سألاني بلهفة عما رأيت فأخبرتهم عن كل شيء، أعطيت ليوشع الورقة التي رسمت فيها مداخل ومخارج الحاميات، فهز رأسي قائلاً:

- حمدًا للرب أن خرج معنا رجل مثلك يا فخر رأوبين.

ولم تمض لحظات حتى أتى باقي القساة معًا، وكأنما التقوا في مكان آخر قبل أن يفدوا إلينا، لم تبد على وجوههم علامات الخير، سألهم (يوشع) عما رأوه، فقال معظمهم:

- إن المدينة حصينة لا يمكننا أن نخترق أسوارها، الجنود في الشوارع أكثر من الناس في البيوت، تلك الأرض تأكل أهلها، فكيف تصنع بالغرباء والمعتدين؟

كان كلامهم يبعث على الإحباط، وأراد (يوشع) ألا تسود روح التشاؤم فيما بينهم فقال:

- قد حصرنا الأبواب وعدد الجنود، ورسم لنا (شموع) مداخل ومخارج الحاميات، وسنعبر مع نبي الله كيفية اقتحام الأسوار.

ولكن محاولته تلك باءت بالفشل أمام كلمات (شافاط بن حوري) التي جاءت كلطمة على وجه الجميع وهو يقول:

- وماذا ستفعل مع بني عناق؟!!

تفكرت كلمات الرجل السكران في الحانة، وانتاشني نفس الرعدة، فسأله (يوشع):

- من هؤلاء؟!

قال الرجل في رجفة خفية:

- هؤلاء هم الجبابرة الذين رأيتهم قبل الغروب عند السور الجنوبي للمدينة، يدلفون من الأبواب الخلفية، رجال طوال ضخام، يبدو الرجل منا إلى جوار الواحد منهم كالجرادة، يرتدون السواد كالأشباح، ويحمل الواحد منهم درعًا كباب الحصن!

ارتجفت قلوب الرجال، واستنكر (يوشع) كلام (شافاط)، فقال معترضًا:

- لقد فحصت المدينة شبرًا شبرًا فما رأيت ما تصفه! هل رأيت مثل هذا يا (كالب)؟

فهز (كالب بن يفنه) رأسه نفيًا وقال:

- ما رأيت إلا جنودًا من الكنعانيين.

قال (شافاط) ساخطًا:

- هل تكذبني؟!

فقال (يوشع) موجهًا كلامه إلينا جميعًا:

- هل رأي أحدكم أو سمع بمثل هذا؟!

صمت الرجال وقد بلغ الرعب منهم مبلغه، ووجدتني مترددًا بين أن أذكر ما قاله السكران وبين أن أصمت حتى لا أزيد من رعب القوم، وندت عني تهمهة دون قصد مني، جمعت الأبصار نحوي، فازددت اضطرابًا وترددًا، ونظر (يوشع) إليّ متشككًا وقال:

- هل سمعت بشيء مثل هذا يا سيد (شموع)؟!

ارتجفت لمثل السؤال من الدهشة وليس من الخوف، وقلت بعد أن حسمت أمري:

- قد صدق رجل سكران في الحانة من أشباح في عناق!!

ولم أدر أن جملة نطقت بها ستضعف عزيمة الرجال، وتصيبهم بدوار لازمهم طوال الرحلة!.

● اليوم العشرون من الرحلة:

«كان الصمت هو رفيقنا طوال الطريق، وصلنا إلى «حاصور» عاصمة الكنعانيين في منتصف النهار، كانت المدينة أقل تحصينًا من شكيم، ولكنها كانت أكثر ثراء وبهجة، تمتد على أطرافها المروج والبساتين التي أنبتت أنواعًا من الفاكهة لم نر مثلها في أي مكان، نسي الرجال رحلتهم وخوفهم وانشغلوا في جمع ما يقدرون على حمله من الثمار التي جادت بها الأراضي الخصبة، ويبدو أن الأرض هنا كانت شديدة الكرم على الماشية أيضًا، فقد ترهلت أجساد الماشية باللحم، وفاضت ضروعها بالألبان، ويباع الجبن والسمن بأثمان زهيدة في الأسواق، فأكلنا وشربنا حتى شبعنا وودنا لو حملنا الألبان معنا إلى سيناء دون أن تتسنه أو يتغير طعمها.

أما الشيء الأكثر وضوحًا في عاصمة الكنعانيين فهو ذلك الفسق والمجون الذي كان عليه أهلها والذي شابه في ظني فسوق سدوم وعمورة اللتين أهلكهما الله في الأزمنة الغابرة.

علمنا أن اليوم هو عيد عشتاروت، إلهة الحب والخصب عند الكنعانيين، رأينا بعض الرجال يلبسون ملابس النساء ويسيرون في الشوارع عراة الأكتاف والصدور، وقد صبغوا وجوههم بالحمرة، وزججوا حواجبهم بالكحل والأصباغ، يحملون الصنوج والدفوف ويتغنون لإلهة الشبق التي يعبدونها، وخلفهم كان يسير فوج هائل من الفتيان والفتيات، يتحلون بأبهى زينة ويسيرون في أزواج تختلط في مجون وتتلامس في خلاعة، ويفصحون عن عواطفهم علانية دون رادع من حياء أو أخلاق، دفعنا طوفان البشر، وتفرقنا وسط الزحام، ووجدتني مدفوعًا رغمًا عني إلى اتجاه الهيكل الذي أقيم لتلك الربة الماجنة، فجأة وجدتني أقف وجهًا لوجه أمام تمثالها الضخم الذي يفوق العشرين ذراعًا، والذي تقف فيه عارية حاملة قرن الظبية في يمناها، ويقبع تحت قدميها أسدان يقولون إنهما يرمزان إلى الرجل، غضضت بصري عن تمثالها الخليع، ولكني لم أستطع أن أدفع بصري بعيدًا عن كاهنات عشتاروت اللاتي خرجن من حجرة في جانب الهيكل، يرقصن في غلائل شفافة، تخضع عبدات عشتاروت إليهن، فأثرن الدماء في عروقي وأنا الشيخ الذي أشرف على الستين! ثم صدحت كبيرة الكاهنات تتغنى على لسان ربتها قائلة:

أنا الأولى، وأنا الآخرة

أنا البغي، وأنا القديسة

أنا الزوجة، وأنا العذراء

أنا الأم وأنا الابنة

أنا العاقر، وكُثر هم أبنائي

أنا في عرس كبير ولم أتخذ بعلا

أنا القابلة ولم أنجب أحدًا

أنا أم أبي، وأخت زوجي

وكل هذا هو نسلي

وما إن انتهى الطقس حتى فررت من الهيكل، فقد علمت أن تتمة الصلاة تكون باستحمام الرجال مع النساء في ماء اللوز الدافئ المعبق بعصارة الورد والعنبر!»

● اليوم الثاني والعشرون من البعثة:

«اجتزنا اليوم النهر إلى الضفة الشرقية ووصلنا إلى مدينة «رحوب» في أقصى الشمال من أرض كنعان، المدينة رحبة وواسعة وكأنها سميت بذلك الاسم لرحابتها، لم نر فيها سوى حصن وحيد أقيم على حدودها الشمالية حتى يصد عنها غارات جيرانها، أما باقي المدينة فكانت بمثل حاضور مروجًا وبساتين، مكثنا فيها لليلة واحدة ثم عدنا أدراجنا جنوبًا».

● اليوم الثلاثون من البعثة:

«وصلنا إلى بيت لحم، المدينة عصية طبيعيًا، تقع فوق سلسلة من الجبال، ويحيط بها الكثير من المنحدرات، ولكن المدينة نفسها تمتلئ بأشجار الزيتون، ويقام فيها معبد كبير للإله «لحمو» إله القوت والطعام لدى الكنعانيين وإليه ينسب اسم المدينة، أمرنا (هوشع) أن نحمل بعض أغصان الزيتون معنا إلى أرض سين».

● اليوم الثالث والثلاثون من البعثة:

«عاد شبح الخوف من بني عناق مرة أخرى، كما قد وصلنا إلى وادي «حبرون»، فرأى الرجال سرية من الجند تسير في الوادي، على مسافة غير بعيدة، وقد بدا من الظلال الممتدة على الأرض أن هؤلاء الجند يتمتعون بطول فارع وبسطة في الجسم، تفوق أحجام الرجال المتعارف عليها، فارتعد الرجال خوفًا، وقال (شافاط) مدافعًا عن نفسه:

- أرأيت يا (يوشع)؟! هؤلاء من الكرت رؤيتي لهم!

أراد (يوشع) أن يهون من ضخامة الجند، وأن يوضح لهم أن تلك هي أجساد الجند في الجيوش النظامية، ولكنه لم يستطع أن يستأنف حديثه معهم

بعد أن سمع منهم ما هدد وقاره كقائد عليهم، فآثر الصمت وعدم الجدال!

وفي المساء اختلطنا بالسكان، ولم تكن الأخبار سارة بالمرة! علمنا أن هؤلاء الجبابرة هم من الجنود المرتزقة وأنهم آخر من بقي من شعب عناق المتحدر من الشمال، يدفع لهم الكنعانيون أموالاً طائلة مقابل حمايتهم، وكان السكان في حبرون يضربون بهم المثل في البطش والقوة ويقولون: من يستطيع أن يقف في وجه بني عناق؟!

واستاء (يوشع) مما وصله من أخبار، وأسند إليَّ مهمة خطيرة، خيرني بين أن أقوم بها أو أن أعتذر عنها، فوافقت على القيام بها! فقد طلب مني أن نتنكر أنا وهو في زي عمال من حمالي الطحين، وأن ندخل إلى الحصن الذي يقيم فيه العناقيون، على أن أرسم بقلمي كل المداخل والمخارج، وربما سيحصي هو أعداد بني عناق المقيمين في الحصن.

وفي الصباح اندسسنا في زمرة العمال الواقفين أمام أسوار الحصن في انتظار عربات الخيول المحملة بالطحين، أتت العربات، فأسرعت نحوها وحملت جوالاً صغيرًا من الطحين وقد أخفيت وجهي ورأسي بلثام حتى لا يرى أحد لحيتي! وتقدمت صفوف العمال دون أن أنظر إلى (يوشع) حتى لا يظن أحد أننا رفيقان، فُتحت أبواب الحصن، فأصدرت تروسها وسلاسلها صريرًا عاليًا ألقى بالرهبة في نفسي، فتلفت إلى الساحة وعيني ترصد كل ركن فيها، ثم وقعت عيني في وجه الحارس العملاق الذي أمرني بالسير في اتجاه المقصف، ولكن هدير صوته، وضآلة قامتي أمام جواره ألقيا بالرعب في قلبي، سرت في الاتجاه الذي أشار إليه، وأنا أحصي عدد الأبواب الفارعة التي تقابلني، وفجأة صاح أحدهم بي قائلاً:

- من هنا.

توجهت نحو المقصف، وما إن ألقيت بالجوال في المخزن الملحق به حتى اختبأت في سرعة، وانسللت إلى الفناء الخلفي للمقصف دون أن يلحظني أحد، توقفت لحظات لاهثًا، وأنا أرقب الطريق، وتلمست درج جرار وأنا أهرول

مسرعًا بين الأعمدة الشاهقة للحصن، متسترًا خلف أحجارها الضخمة عن أعين الحراس فوق الأبراج، وبين الفينة والفينة كنت أخرج أوراقي من بين طيات ملابسي فأدون رقمًا أو أخط رسمًا، وبينما أنا كذلك رأيت قبوًا على مقربة من الفناء، فشجعني بابه المفتوح والطريق الخالي نحوه على أن أدلف بداخله، رأيت على مدخل القبو رسمًا ضخمًا لطائر عجيب مفرود الجناحين وله رأس ضخم وأنياب، هبطت الدرج في سرعة فأسلمني إلى بهو فسيح ومعتم، إلا من ركن مضيء في نهايته رأيت فيه تمثالًا للطائر ذاته وقد تلألأ جناحاه الذهبيين ومخالبه في ضوء المشاعل التي أنارت حرمه المقدس، فأدركت أن هؤلاء القوم يقدسون ذلك الطائر، تقدمت نحو التمثال في حرص، ورأيت نقشًا قد كتب تحته يقول:

«مجدي أيتها العنقاء، وامحي بقايا جسدك على مذبح الشمس، حتى يخرج منك مولود جديد»

كنت أعود أدراجي إلى الفناء قبل أن يلحظني أحد، لولا أنني لمحت بابًا صغيرًا يُفتح على الحرم المقدس للتمثال ويبدو خفيًا في الظلام، تعجبت من حجم الباب الصغير الذي لا يكفي لمرور رجل من بني عناق، وساقني الفضول إلى أن أفتح الباب وأن أدلف منه مطمئنًا إلى أن أحدًا من بني عناق لن يلحقني خلفه، أخذت في يدي شعلة من النار، ثم سرت في سرداب طويل ومظلم تفوح منه رائحة العطن، ولم يمض وقت طويل حتى فقدت الإحساس بالمكان والاتجاه من كثرة ما تلوى من السرداب الطويل كالمتاهة، ثم شعرت ببعض الخوف حينما طال الوقت، ولهثت أنفاسي من الجهد وقلة الهواء وخفت نار الشعلة ولم يتبق منها سوى ذؤابة أوشكت على الذبول، فكرت في العودة أدراجي حتى لا أسقط من الإعياء، ولكنني تنازلت عن تلك الفكرة حينما رأيت شعاعًا من نور يتسلل إلى داخل السرداب المظلم، سرت خلف الشعاع الذي اشتد نوره تدريجيًا، ومعه كانت تشرق نفسي بالأمل إلى أن سطعني ضوء النهار، ووجدتني خارج أسوار الحصن في قلب وادي حبرون، صرخت من الفرح

وحر حسدي راكعًا للرب، وحمدته حمدًا كثيرًا على الخروج ناجيًا، ثم جلست بعد أن هدأت ثورة نفسي وأمسكت بالورقة والقلم أدون كل ما قابلني داخل الحصن، وأرسم موقع باب السرداب السري الذي يفضي إلى الحرم المقدس.

وفي المساء كنا نجلس أنا و(يوشع) في المنتصف، وحولنا النقباء العشرة، أخبرناهم بكل شيء عن بني عناق، وصفهم وعددهم، والنقاط الحصينة، والنقاط الضعيفة، ومدخل السرداب ومخرجه، وانتهينا من كلامنا فوجدنا وجوهًا قد علاها الرعب، وقلوبًا ترجف من الخوف، أمسك (يوشع) بالرسم، وخط بالقلم دائرة حول باب السرداب السري وقال بصوت عال:

- هذا بابٌ فيه رحمة، وسلاحنا إلى النصر بإذن الله!

نظر إليه الرجال في عجب واستغراب، وقال (شافاط بن حوري) من سبط يساكر مستنكرًا:

- أي باب! وأي مدخل؟! إننا لن ندخلها ما دام أهلها فيها!

نظر (يوشع) إلى (كالب بن يفنه) يستمد منه النصرة، فقال (كالب):

- تتسلل جيوشنا من ذلك الباب، فإذا دخلنا منه نكون في قلب حصنهم، ويكون النصر حليفنا.

لم يبد عليهم التأثر بما قال، فنظر إليّ (يوشع) وقال:

- قل لهم يا شيخ (شموع) إننا إن نصعد إلى تلك الأرض فإننا نملكها لأننا قادرون عليها!

حاولت أن أتفوه بما قال، ولكن انعقد لساني ولم أستطع أن أنطق به!

رأيت خيبة الأمل تعلو وجهه ووجه (كالب) فانصرفا آسيين، ولم أدر لماذا انعقد لساني في تلك الليلة؟ هل لأنني في تلك اللحظة كنت أخشى من بني عناق، أم لأن قلبي لم يكن عامرًا باليقين مثل (يوشع) وصديقه (كالب)؟ وجلست وحيدًا بعد أن انصرف الجميع أقلب في الرسم الذي رسمته، وأنا أقول لنفسي: ليتني لم أسمع ولم أرَ!

● اليوم السابع والثلاثون من البعثة:

• وصلنا إلى وادي أشكول، ولأول مرة نرى الجنة على الأرض، ما هذه الأفنان الباسقة، والورود المتفتحة؟ إن عناقيد الكرم لتتدلى حتى تدنو حباتها من أيدي الآكلين دون مشقة أو عناء، حملنا معنا عنقودًا من العنب يصل طوله إلى طول صبي يافع، وجمع الرجال من ثمار التين والرمان ما تكفي الثمرة الواحدة منها العصبة من الناس! وحينما رأى (يوشع) حماس الرجال وانهماكهم في جمع الثمار مال على أذن رفيقه (كالب) قائلًا:

- حدسي يقول إنهم يجمعون الثمار للمرة الأخيرة!

فهز رأسه أسفًا وقال:

- أرجو أن يمن الرب بصحوتهم وأن ينزع الرعب من قلوبهم؟

● اليوم التاسع والثلاثون من البعثة:

• وصلنا إلى بئر سبع، وكانت تلك هي المحطة الأخيرة قبل العودة إلى قادش برنيع مرة، الأرض كلها مرعى، تنتشر بها آبار عدة يتوسطها بئر أبينا (إبرام)، علمنا أن أمير تلك الأرض قد حفر تلك البئر إكرامًا لأبينا (إبرام) فأعطاه أبونا (إبرام) نعاجًا سبع جزاءً لذلك، فأطلق الناس عليها اسم بئر «سبع». أراد (يوشع) أن يلقي بسهمه الأخير فجمع النقباء وخطب فيهم واستحث فيهم النخوة والغيرة على مجد الآباء، وأوضح لهم أن الرب قد ساقهم السعي نحو النصر بينما تكفل هو بتحقيقه لهم، وحين نظرت إلى وقع الكلمات على وجوه القوم، أدركت أن أمرًا قد حُسم، وأن (كالب) وصديقه (يوشع) قد صارا في واد بينما صار باقي النقباء في واد آخر، أما أنا فقد كانت الحيرة تقتلني، فقلبي كان يقف إلى جوار (يوشع)، ولكن عقلي كان يردد دائمًا المقولة التي سمعناها في حبرون «من يقف في وجه بني عناق؟»

● اليوم الأربعون من البعثة:

أكتب الآن ونحن على مرمى البصر من قادش برنيع أن هدأ عقلي إلى

قرار يرتاح إليه ضميري، وهي أن أكون محايدًا! لن أدعو سبط يأوبين إلى صعود الأرض ومحاربة بني عناق، ولن أنهاهم عن ذلك، فما أرسلني نبي الله إلا لأشهد على الأرض، وقد أديت المهمة على خير وجه! فمن شاء فليخرج ومن شاء فليبق، وحسبي أن أتبع نبيّ أينما ذهب!

انتهى كلام «شمّوع بن زكّور» في التاسع عشر من حزيران للسنة الثامنة من الخروج

• • •



الورقة العشرون

كان الوصول إلى الساحة التي استقبلت النقباء الاثني عشر أشبه بالمستحيل، ضاقت الأرض بالجمع الغفير، وأصبح المرور بين لحمات الأجساد المتلاصقة خطرًا قد يؤدي إلى الموت سحقًا تحت الأقدام الهائلة، أو اختناقًا برائحة العرق التي أججتها حرارة الجو في حزيران، أمسك (عامر) بكتفي وشق طريقه من وسط الأجساد المتراكبة، وأشار إلى أكمة تشرف على الساحة وصاح قائلًا:

- (شمعون) إلى هناك.

انفصلنا عن الزحام وهرولنا إلى الأشجار التي ألقت بظلالها على الساحة، تسلقنا شجرة سنط عالية كقردين مُقَرَّبَيْن واستوينا على أفرعها المُنبسطة، فجاء مجلسنا فوق الساحة مباشرة، لا يعوق سمعنا ولا بصرنا شيء.

كان نبي الله (موسى) يجلس بين جذعي نخلة يسرءان بحملها من عراجين التمر، انحنى الجذعان حتى لامست شعوفهما الأرض، فبدوا كذراعي كاهن انبسطا إلى السماء، كان يقف إلى يمينه أخوه (هارون)، وإلى يساره زوج أخته (مريم) (حور)، أما النقباء الاثنا عشر فقد وقفوا في منتصف الساحة، وقد فُرشت أمامهم حمولة القافلة التي عادت من الأرض المقدسة، باتت البهجة الممزوجة بالدهشة على وجوه الناس الذين لم يتخيلوا أن وفدًا منهم قد رأى الأرض التي سمعوا عنها ولم يروها منذ قرون، أذهلهم عنقود العنب الذي عاد به النقباء من وادي أشكول، وسال لعابهم لمرأى جرار السمن والعسل، أما

ثمار الرمان العملاقة التي تنشق لحاؤها ليكشف عن حباتها اللامعة كاللؤلؤ، فقد جعلت قلوبهم تتحرق شوقًا إلى رؤية تلك الأرض التي فاق كل شيء فيه الخيال.

أشار نبي الله (موسى) إلى الرجال لكي يتحدثوا عما رأوه.

نظر النقباء إلى (كالب بن يوسف) لكي يتحدث، وكان أكبرهم سنًا، ويبدو أنهم قد اتفقوا على ذلك، فقال (كالب) بصوت متردد:

- إن الأرض خصبة جدًا جدًا، الأغنام سمينة اللحم، والأبقار عظيمة الضرع، والأسواق تمتلئ بالثمار والخيرات، وهي حقًا الأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا.

صمت لحظات، ونظر خلفه إلى باقي الصحابة وكأنما يستمد منهم التأييد على ما يقول ثم أردف:

- ولكن الأهالي هناك فسقة مردة، يعبدون الأوثان والأصنام، ولقد رأينا مذبح أبينا (إبرام) وقد تحول إلى معبد لإلههم «بعل»، ولا تخلو مدينة من مدنهم من معبد لربة الفسق والفجور «عشتاروت»!

زمجرت أصوات الجموع غاضبة، وسمعت صوت أبي آتيًا من الصفوف الأمامية وهو يقول:

- غدًا نحطم أصنامهم في بيت إيل كما حطم أبونا (إبرام) أصنام أور!

اشتدت حماسة الجماعة لكلمات أبي، فهتف بعض الرجال مؤيدين:

- نعم، نعم، غدًا نحطم تماثيل بعل وعشتاروت، ونمجد اسم الرب إيل على كل الأرض!

ولكن سرعان ما خبى ذلك الحماس حينما قال (كالب):

- ولكن المدن هناك حصينة جدًا، تحيط بها الأسوار العالية والحاميات المسلحة، وجنود الكنعانيين يجوبون الطرقات ليل نهار، مدججين بالأسلحة والعتاد، يتحسسون عن أخبار الغرباء من اليبوسيين والحيثيين والعرابين!

بانت خيبة الأمل على الوجوه، فتدخل (يوشع) في الحديث مقاطعًا وقال:

- ولكننا قادرون على اختراق حصونها فقد حصرنا عدد الأبواب والمنافذ، وعلمنا كذلك أعداد الجند في كل حامية، وصنع لنا (شموع بن ذكور) رسمًا لحصني شكيم وحبرون.

سألهم رجل من المجتمعين:

- وهل جنودهم أكثر منا عددًا؟

انبرى (كالب بن يفنه) للحديث فأكد قائلًا:

- إن جنودنا ليسوا قلة، ولو أرسلنا الجواسيس فتحوا لجيوشنا الأبواب لسقطت مدنهم في أيدينا جميعًا، ثم قال في حماس:

- أقسم بالرب إيل إن هؤلاء القوم هم خبزنا، ولن يحولوا بيننا وبين الأرض التي كتبها الله لنا!

عاد التفاؤل مرة أخرى إلى الحضور مع كلمات (يوشع) و(كالب)، ولكن (شافاط بن حوري) الذي لم يعجبه تدخلهما في الحديث -على غير ما اتفقوا عليه من قبل- صرخ قائلًا:

- كذب!

دوت كلمته في سماء الراحة ورددت الجبال صداها، فصمت الناس وكأن على رءوسهم الطير، واحتبست الأنفس في انتظار ما سيقول، فتقدم (شافاط) وأمسك بكتفي (كالب بن يفنه) وأخذ يهزه في عنف وصرخ قائلًا:

- لا تخدعا بني إسرائيل، ولا تهونا عليهم أعداءهم! قولا لهم ماذا رأيتما هناك؟! وأخبراهم عن «بني عناق»!

سرت رعدة في جسدي من الاسم رغم أني لم أسمع عنهم من قبل، ورأيت الخوف في عيون الناس التي تعلقت بـ(يجال بن يوسف) تستحثه على البيان. فقال له (موسى):

- تحدث يا (يجال).

فقال (يجال):

- يا (موسى)، إن فيها قومًا جبارين. هؤلاء هم العمالقة بني عناق، رأينا بعضهم في شكيم، وبعضهم أكثرهم في حبرون رجالٌ ضخامٌ عظامٌ، يبدو الواحد منا إلى جوار الواحد منهم كالجرادة، يتغنى الناس ببأسهم في الشوارع ويقولون من ذا الذي يقف في وجه بني عناق؟

تصاعدت آهات اللوعة والجزع، وولولت بعض النسوة في فزع، فاكتسى وجه (يوشع) بالغضب وقد أيقن أن عزيمة الشعب قد خارت أمام كلمات (يجال)، فقال رافعًا سهمه الأحمر في بأس:

- ولكنا قادرون عليهم بإذن الله! صدقوني فالحق أقول: ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون!

طاش سهمه الأحمر أمام كلمات (شافاط) الثائرة حينما قال:

- أي باب؟! وأي غلبة؟ أما اكتفيت من الخداع؟!

ثم التفت إلى القوم وقال بصوت جهوري سمعه كل من في النزل:

- أيها الناس! تلك الأرض تأكل أهلها! ولا سبيل لحرب فيها! فلا تكونوا كسرب من النمل أراد أن يقتل فيلًا، فأهلكه بنفخة من خرطومه!

اشتد الصراخ حينها وشارك الرجال النساء في العويل، وقال رجل في حرج:

- قد كان خيرًا لنا أن نهلك في مصر من أن نهلك بأيدي بني عناق!

بدا الانزعاج على وجه نبي الله (موسى)، فقام من مجلسه وقال:

- أيها الناس ما لي أراكم تجزعون وقد علمتم من ربكم أن الأرض لكم؟

ثم قال يريد أن يثير حماستهم:

- هل ظننتم أن حصونهم وجنودهم يمنعونهم من أمر الله؟

قام (قورح) من مجلسه وقال في غضب لم يراعِ مقام النبوة:

- يا (موسى) ما خرجنا معك لنسقط قتلى بسيف بني عناق! ولا لتُسبى نساؤنا وأطفالنا بأيدي الكنعانيين!

قال (موسى):

ـ ألم يَسْبِ الفرعون نساءكم وأبناءكم من قبل، ثم تكفل الرب بحفظكم وأنجاكم منه!

فقال (قورح) في غضبة أشد من سابقتها:

ـ عاهدناك على الخروج وما عاهدناك على حرب!

قال (موسى) وقد ازداد غضبه:

ـ وماذا لو فرض الرب عليكم الحرب؟!

قال (قورح) في تحدٍّ سافر:

ـ إذن فلتذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون!!

ثم التفت إلى الناس الذين استحسنوا قوله، وصاح بهم حنقًا:

ـ أيها الناس قد أخطأنا يا ابن عمران، وما طاعتنا إلا طوعًا، يا بني إسرائيل ما عاد ابن عمران يحمل عصاه، وآن لكم أن تقيموا ربًا لكم يرجع بكم إلى أرض مصر.

رأيت الغضب يرعد في وجه (موسى)، واستل (يوشع) سيفه، وكاد أن يقتل (قورح) الذي دعا إلى الفتنة، لولا أن نبي الله أشار إليه أن يرجع، فأعاد (يوشع) السيف إلى غمده، وسار (موسى) نحو صخرة عالية ثم وقف فوقها، تعلقت الأبصار نحوه حينما رفع عصاه إلى السماء، وكأنما ليذكر الناس بما جرى عليها من معجزات، ثم أشار بالعصا نحو الشرق وقال في صوت هادئ:

ـ أيها الناس هذه هي الأرض المقدسة التي كتبها الله لكم، تقفون اليوم على أبوابها بعد أن أنجاكم الله من فرعون ومن الهلاك في برية سيناء، فاجمعوا أمركم وأتوني به عند الصباح، فإما أن تدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لكم، أو ترتدوا على أدباركم خاسرين!

صمت الجمع، وعم السكون، وهدأت الريح، وشعرت كأن كل ما في الكون قد توقف ليشهد تلك اللحظة التي تتجلى فيها الحقيقة الأبدية التي لا مراء فيها، حقيقة أن أصعب ما في حياة البشر هي حرية الاختيار، فتبت لو

ضرب (موسى) بعصاه فخسف بالمعارضين والمخالفين الأرض، تمنيت لو ساق الناس بعصاه متوقًا نحو الشرق، ولكن الرب لم يشأ له أن يأمر بذلك، أراد الرب أن يتخذ الشعب قراره بنفسه، فترك لهم سواد الليل حتى يختلي كل إلى نفسه، ثم يأتي بما أفضى إليه ضميره عند الصباح، وكانت حقًا ليلة باكية،

يبكي النادمون على الخروج، كيف أضعنا عمرنا؟!

ويبكي المشتاقون إلى الدخول، كيف تضيع حلمنا؟!

ويبكي المترددون في شرط، كيف سيكون مصيرنا؟!

ولم ينم أبي في تلك الليلة، ظل يتقلب في فراشه المحموم، فلما يئس من أن يزور النوم جفنيه قام من فراشه وخرج متحسسًا طريقه إلى الفناء، ثم جلس على عتبة الباب، وراح يتأمل شبح القلق في ملامحه بعد أن طاف برأس أبي فانقضى في جوف الليل منقبض القلب، ضيق الصدر، ففتحت النافذة أملأ صدري بالهواء، في لهفة حتى هدأت أنفاسي وشعر بي أبي فناداني في صوت خافت:

- (شمعون)؟!!

أجهدت بصري في الظلام حتى رأيته، فوجدته متكئًا إلى عتبة الباب، وقد انعكس شعاع القمر الذي صار محاقًا على وجهه، فكشف عن عينين مغرورقتين بالدموع قلت:

- نعم يا أبي!

ثم نزلت الدرج الخشبي، وجلست إلى جواره.

قبلني برفق على وجنتي وقال في صوت خافت حتى لا يوقظ من في الدار:

- ما الذي أيقظك؟

أجبت:

- لا أدري، فقد استيقظت بلا سبب!

لم أجد أثرًا للنوم على وجهه فسألته:

- يبدو أنك لم تنم يا أبي!

قال معللًا:

ـ نعم، فالجو حار الليلة، وقد خرجت لأتنسم بعض الهواء.

لم تقنعني لهجته ومع ذلك قلت:

ـ نعم نعم، إن الجو حار جدًا.

ثم وجدتني أسأله:

ـ أبي، هل تخشى شيئًا هناك؟

لحظني في يقين ممزوج بحزن:

ـ كلا، بل بني إسرائيل أخشى!

رأى الدهشة على وجهي، فقال كمن يحادث نفسه:

ـ أتدري يا (شمعون)، لولا أن نبي الله بينهم لهاجرت بعيدًا عن تلك الجماعة!

لم أقاطعه، فقد كانت تلك المرة الأولى التي يفضي فيها إليّ أبي بما يهمه، فتابع متحدثًا إليّ حديث الصديق لصديقه، لا حديث الأب لابنه:

ـ مات أبي وأنا في مثل عمرك، ولم أجد منهم عطفًا ولا عونًا، حتى عمتك (ماشيفا) وزوجها (الشامري) كانت قسوتهما عليّ أقرب إلي من غيرهما، ومع ذلك لم أشعر نحوهما بالكراهية، ولم أحمل في قلبي ضغينة لأحد منهما.

صمت لحظات ثم قال:

ـ كنت دائمًا أشعر بأني أختلف عن بني إسرائيل، وحينما أحببت، لم تستهوني فتاة منهم، بل أحببت فتاة مصرية، مما زاد الجفوة والفجوة بيني وبين أهلنا من سبط رأوبين.

ابتسم ساخرًا وقال:

قالوا: سيتزوج (زخاري) بامرأة وثنية، فلما أسلمت برب (موسى) و(هارون)، قالوا يكفيها عارًا أنها جارية مصرية! ونسوا أن أبانا (إبرام) تزوج من جارية مصرية، وتناسوا أنهم كانوا خدمًا مسخرين في قصور الفرعون!

ثم تابع مقطبًا جبينه:

- لم أشعر يومًا بأني بحاجة إليهم بل أكرمني الرب وجعلهم هم بحاجة إليّ، وكان ما يقلقني بينهم هو ذلك الحلم الذي كنت أحيا من أجله، وهو أن أعيش في أرضٍ أشعر فيها بسلام، أرض لنا فيها جذور، نكون فيها أسيادًا لا عبيدًا.

ازدرد لعابه بصعوبة كمن يشعر في حلقه بغصة، ثم قال في مرارة:

- والآن وقد اقتربت من تحقيق حلمي، أجد شيوخًا من بني إسرائيل قد أُشربوا في قلوبهم العجل، وتمرّسوا القتل في مصر، يريدون أن يعبثوا بأحلامي وأحلام جيلي، يستمسكون بماضٍ قريب، ويفرّون من مجد ينتظرنا إلى إرث غابر من العار!

لم أر أبي يتحدث بتلك المرارة من قبل، وأشفقت عليه حينما أفلتت من عينيه دمعتان، أخفاهما بطرف قميصه في سرعة حتى لا أراهما. فقلت:

- هوّن عليك يا أبي، سينجز الله وعده لك وللصالحين من بني إسرائيل!

ابتسم لي بمرارة وقال:

- بل أخشى أن يعاقبنا الرب جميعًا بأفعال تلك الجماعة الشريرة!

قلت كي أعطيه بعض الأمل:

- الحق في أن الرب لن يخذلك!

احتضنني، ثم قال:

- كل قضاء الله خير يا (شمعون).

ثم تنهد قائلًا:

- قم يا (شمعون) ودعنا نستريح فغدًا سنبكر إلى خيمة الاجتماع.

فقمت وقد طار النوم من عيني، وبينما كنت أتمدد في فراشي، محدقًا في الظلام الفارغ من حولي، ألح على عقلي سؤال:

هل يمكن أن يعاقب الرب الصالحين بأفعال العصاة وهو العادل في حكمه؟

* * *

الورقة الحادية والعشرون

توارى القمر في خجل خلف جبال بريتيم، وفي الأفق الطاوي تشقق ظلام الفجر بأشعة الشمس التي تسللت في بطء من جهة الشرق، ولم تمض لحظات حتى اجتمع قرص الشمس مع هلال القمر في سماء الساحة وكأنما شاء الرب أن يشهدا معًا ميلاد ذلك اليوم الفارق في حياة بني إسرائيل، وفي حياتي أنا أيضًا!

كنت أنا وأبي و(عامير) وثلة من بني إسرائيل أوائل الحضور إلى الساحة المعدة أمام خيمة الاجتماع، عمها الصمت والسكون، وخروج زفرات محملة بالبخار، تكثفه برودة الجو اللطيفة في تلك الساعة المبكرة من الصباح، لم تمض الساعة الأولى من النهار حتى كانت الساحة تموج بالناس الذين توافدوا من الأحياء يتقدمهم رؤساء العشائر العشرة اللذين تجمعوا في حلقة في منتصف الساحة، وجلسوا في مواجهة خيمة الاجتماع في انتظار خروج (موسى) و(هارون)، طالت فترة الانتظار قبل أن يظهر (يوشع بن نون) و(كالب بن يفنه) فأثار ظهورهما جلبة بين الناس، واشتدت الجلبة حينما تجاهل الرجلان اللذان أنعم الله عليهما بنعمة اليقين المجلس الذي ضم رؤساء العشائر، وسارا بين الناس يستحثانهم على عدم التمرد والنزول على أمر الرب، تواضع (يوشع) و(كالب) البسطاء من الناس، وذكراهم بأن الرب ينظر إليهم هم، وليس إلى رؤساء بني إسرائيل، وأنهم هم أحباء الله، ولو رضوا بأمر الرب لرضي الرب عنهم، ولأدخلهم الأرض ولأهلك عدوهم، كما كان معهم منذ أن خرجوا

من أرض مصر، وقال (يوشع) راجيًا:

- يا بني إسرائيل اسمعوا لي! اسمعوا إلى (كالب بن يفنه)! قد رأينا الأرض بأعيننا، هي جنة الرب في أرضه، ألم تروا ثمرها؟! ألم تتذوقوا عسلها؟ فلماذا ترتابون؟! صدقوني يا بني إسرائيل صدقوا رجلين من رجالكم، لا تخشوا الشعب الساكن في تلك الأرض ولا تخشوا بني عناق، لقد زال عنهم ظلهم بأمر الرب، ولإن صعدتم إليهم لأكلتموهم كما تأكلون الخبز في الصباح، فعلى الله توكلوا ولا تتمردوا

واستدرت كلماته الدموع في عيني أبي، سقط على وجهه باكيًا، بينما أثارت نفس الكلمات الغضب في قلوب الثائرين، فدفع أحدهم صدره بقوة، وكأنه يريد أن يسكته وقال:

- أنصدقكما ونكذب عشرة من رؤساء عشائرنا؟!

لم يشأ (يوشع) أن يشتبك معه في قتال، فأزاحه بيده وفصل (كالب بن يفنه) بينهما، بينما استمر (يوشع) يقول:

- لا تسمعوا الذين أشاعوا مذمة الأرض فيما بينكم، فإنما أعماهم الخوف عن قول الحقيقة.

صرخ (شافاط):

- كف عن هذا يا (يوشع)، بل تعمى أنت عن رؤية الحقيقة.

استمر (يوشع) في سيره وكلامه، هو يقول:

- صموا آذانكم عن كلام أولئك الذين أنكروا العجل بألسنتهم وقدسته قلوبهم! فهؤلاء يكذبون كما يتنفسون!

أثارت كلماته مزيدًا من الغضب، مما أوصل أحد الرجال الغاضبين إلى درجة الجنون، فأمسك بحجر ورشق به (يوشع) وقال:

- بل كذبتم أنتم، وصدق رؤساء عشائرنا، أتريدان أن نصبح خبزًا يلوكه بنو عناق في أفواههم؟!

وانضم إليه آخرون، فرشقوا (يوشع) وصديقه (كالب) بالحجارة، فسقط الشابان أرضًا، دون أن يدافعا عن نفسيهما، وكأنما أزال حزنهما ويأسهما الشعور بالألم، واشتد الهرج والمرج، واشتبك أبي وبعض المدافعين عن (يوشع) وصديقه مع المعتدين عليهما، وانقلبت الساحة المقدسة إلى ساحة قتال، فشجت الرءوس، وسالت الدماء، واختلط صراخ النساء مع صيحات الرجال المعاركة، حينها ارتجفت؛ وشعرت برائحة كريهة تملأ هواء النزل، غامت السماء في عيني، وسمعت وقع خطوات تقرع مئات الطبول، اخترق الصوت رأسي وكاد أن يفتك به، سددت أذني بكفي، ونظرت حولي لأتحقق إن كان أحد غيري يسمعه، ولكن الرجال المتعاركين كانوا في شغل عن أي شيء.. حتى (عامير) لم يكن يشعر بالشيء، توقف القرع ثم سمعت أشلاء من القلوب وخيل إلي أنني أرى وجهًا قبيحًا بين الغمام يتطلع إلى الأرجاء في حقد، كهمسات مرتعدة، تصب في أذني وحدها:

- أطفئوا النور بظلام القلوب
احرقوا الأرض بحقد النفوس
العنوا محبيكم
ومجدوا لاعنيكم
انشروا بذور الكره
حتى أراها تثمر
انشروا عبير الدم
حتى أرى القتل
أروني دموع النَّدم
بلا تَوْبة
أروني صراخ اليَأسِ
بلا رَجاء

وخرج (موسى) و(هارون) على أصوات الصراخ، فلم يحتمل قلبه ملف

المشهد العصيب، وسقط جاثيًا على ركبتيه مذهولًا، وصرخ بصوت زلزل الأرض، وأزال غمام السماء:

- كفى!!!

ثم رفع يده إلى السماء، وصرخ في صوت يخنقه البكاء، ويدميه الرجاء:

- رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، ربنا فافرق بيننا وبين القوم الظالمين!!

فإذا بالأرض ترجف، وسماء النزل تبرق، وإذا بعمود من الدخان يصعد من فوق المسكن في خيمة الاجتماع، فعلم الناس أن مجد الرب قائم، وأن أمرًا قد أتى من السماء! فقام (موسى) من ركوعه وسار إلى خيمة الاجتماع، وسكتت الساحة إلا من أنفاس الرجال اللاهثة، وأنات المرضى المكتومة، وتعلقت الأبصار بالخيمة المقدسة، في انتظار خروج الكليم بأمر السماء.

ومضت دقائق خرج بعدها (موسى) متكئًا على عصاه، عابس الوجه، مقهور القلب، ينظر بأسى إلى الشعب الذي خذله في كل اختبار وقال:

- هكذا قال السيد الرب: أربعون سنة تتيهون في الأرض حتى يهلك ذلك الجيل الذي رأى الآيات كلها ولم يؤمن! كل من جاوز العشرين سنة فإنه لن يدخل الأرض ويموت في تلك الصحراء شريدًا تائهًا، إلا (يوشع) و(كالب بن يفنه)، فإنهما يدخلان إلى الأرض.

عقدت المفاجأة ألسنة القوم، ولم يقطع الصمت سوى صوت (هارون) الذي قال مرتعشًا:

- حتى أنت يا (موسى)؟!

قال (موسى) باكيًا:

- حتى أنا يا (هارون)!

ثم مسح دموعه وقال موجهًا كلامه للنقباء العشرة:

- أما أنتم يا من أشعتم مذمة الأرض بين الناس، فكعدد الأيام التي تجسستم فيها الأرض، تحملون ذنوبكم؛ أربعون يومًا بأربعين سنة. لليوم سنة! بالمرض تحيون، وبالوباء تهلكون!

فإذا بالنحيب يعلو حتى صار صراخًا، وإذا بالناس يحثون على رءوسهم التراب، يشقون جيوبهم في هلع! ويلطمون خدودهم في بأس! وارتجف جسدي من المشهد العظيم، ففاضت عيني بالدمع، وانهرت جالسًا دافنًا وجهي بين راحتي، وألقى (عامير) الذي لم يكن أحسن مني حالًا برأسه على كتفي، فامتزجت دموعنا وأخذتنا معًا رجفة البكاء. قمت من جلوسي أبحث بعيني عن أبي، وقبل أن أتحرك، شقت سماء النزل صرخة، انقبض لها صدري، ثم تبعها ضجيج وجلبة تميزت فيها اسمي يتردد على ألسنة الناس، ووجدت جماعة من الناس يتزاحمون على مقربة منا، وقد اشتد بينهم البكاء والعويل، ولم أنتبه إلا ويد (بصلئيل بن حور) فوق كتفي وهو يقول:

- أدرك أباك يا (شمعون)!! فقد سقط صريعًا!!

حملتني ساقاي حائرتان، وسرت من تخللين حلقات الناس التي انفرجت مفسحة الطريق أمامي، وقد غامت في عيني الرؤية إلا من أشباح الرءوس التي تمايلت نحوي، وأصواتها التي تأتي من أعماق سحيقة، بكلمات مبهمة ملأت قلبي خوفًا ورهبة، إلى أن انفرجت الحلقة الأخيرة من الناس، لأجد الجسد القوي ممددًا أمامي فوق الأرض، وقد اعتصر الألم وجهه، وأمسك بصدره في قوة وكأنما يطبق على قلبه وحش، وقفت أمامه مرتجفًا، أكاد أبول في ثوبي من الخوف، فلما رآني ارتسمت على وجهه ابتسامة شاحبة، ورفع يده عن صدره وكأنما استسلم لذلك الوحش الذي ينهش في صدره، ثم قال في جهد مضنٍ:

- الحمد لله الذي تركك بصحة حتى ترى الأرض المقدسة

ثم هدأت ملامحه، وسكنت حركته، واستقرت عيناه على وجهي في اطمئنان، فظننت أن الألم قد زال عنه، ولكني سمعت (بصلئيل بن حور) خلفي يجهش باكيًا وهو يقول في ذهول:

- رحماك يا رب العالمين، مات صاحب القلب النقي (زخاري) النجار.

• • •

الورقة الثانية والعشرون

كان حالي في ذلك اليوم كمن يحس حسًّا بالمطر الذي سيسقط منه حتى تنتهي معاناته لكنه لا يستطيع، كنت أقف بين الناس مذهول العقل خالي الفؤاد كصنم أصم، ولولا دموع تنساب على وجنتيّ في صمت، لظن الناس بي الصبر والجلد. رفع الرجال الجسد الخامد على الأكتاف، وحملوه إلى خيمة تجهيز الموتى. مددت يدًا مرتعشة كي أشاركهم في رفع الجثمان ولكن (بصلئيل بن حور) منعني عن ذلك بأن أمسك كتفي في رفق، ثم مال على أذني قائلًا في عطف:

- دع عنك هذا يا (شمعون)

تكلمت للمرة الوحيدة في ذلك اليوم، فقلت ودموعي تنساب في مرارة:

- ألن نعود به إلى الدار!

ربت على كتفي في رفق ثم قال باكيًا:

- إن في جسد الميت نجاسة ولا يجوز تجهيزه في الدار.

آلمتني كلمته! «نجاسة»؟! يا الله! كيف يوصف هذا الجسد الطيب والقلب النقي بالنجاسة؟! أم تُرى أن طهارته كانت في روحه التي انفصلت عنه إلى مكان مجهول؟!

وكأنما تذكر (بصلئيل) أن في الدار زوجة لا تعلم بوفاة زوجها، فأشار إلى

(عامير) الذي كان أكثر تماسكًا مني وقال:

- يا (عامير) اذهب إلى دار أم (شمعون) وأخبرها بمصابها برفق، وقل لها يوصيكي (ابن حور) بعدم الصراخ!

وتوافد الأقارب حول خيمة التجهيز فأبي (ملاخي) ابن عم أبي، و(منواح) ابن خاله، ورجال من سبط رأوبين، وآخرون من سبط شمعون، كنت أتلقى منهم العزاء وقلبي يتألم من المفارقة، أن يكون (زخاري) النجار أول من يذوق الموت في التيه، وكأنما انقطعت حياته بانقضاء حلمه!

ودعاني (صلتئيل) إلى الدخول بعدما أتم الكاهن تجهيز الجثمان حتى أتلو صلاة القادش على أبي، دلفت إلى الخيمة الرطبة بخطى مرتعشة، وسطعت أنفي رائحة الكافور والصندل، فظننتها رائحة الموت، وظلت تلك الرائحة تذكرني دائمًا بالموت كلما شممتها، وتحوم حول أنفي كلما رأيت جنازة أو سمعت بوفاة شخص ما!

وتطلعت بطرف عيني إلى الجسد المسجى فوق المائدة والملفوف بشال من الكتان إلا من الوجه، ثم تأملت صفحة الوجه الذي غابت عنه النضارة، وانطفأ فيه بريق الحياة، ورددت الصلاة خلف الكاهن بصوت خافت مكلوم، وخرجت الدعوات صادقة من عميق قلبي، وكأنما أعديها لأبي الذي لم أهده شيئًا قط في حياته!

وبعد أن انتهت الصلاة تناول الكاهن قدحًا من الماء المقدس مذابًا به الشمع المعطر، ونضح منه بضع قطرات على الوجه والجسد وهو يدعو له بالراحة الأبدية، ودعا الكاهن الرجال لكي يحملوا الجثمان إلى مثواه الأخير.

- أبهذه السرعة؟! كيف يكون الإنسان ملء السمع والبصر في الصباح، ثم يغدو محمولًا على الأعناق عند الظهيرة؟!

وخرجنا من الخيمة فإذا بصراخ النسوة من سبط رأوبين يملأ جنبات الواحة، وصراخ العمة (باتشيفا) يخرقهن لوعة ونحيبًا، وبحثت عنها بين النسوة بعينين

متلهفتين، فلم أجدها! وددت لو أندس بحضنها الذي كنت أشتاق إليه في تلك اللحظة ولكنني لم أجده! أين أنت يا (روماتا)؟! لماذا تتركيني وحدي في تلك اللحظات التي يعجز فيها المرء أن يكون وحيدًا؟!

وسار الرجال بالجثمان وأنا خلفهم مع المشيعين، وفي الصحراء المجاورة للواحة كان كل شيء معدًّا، حفر بعض الرجال اللحد، واستعدوا لاستقبال الجسد الخامد بقلوب جامدة، فرست على تلك الأعمال وصارت بينها وبين الموت ألفة. ولمس الجثمان وأرقدوه وقبل أن يهيلوا عليه التراب سمعنا الكاهن ينادي في الناس قائلاً:

- أيها الناس يأمركم نبي الله أن ترقدوا ميتكم في اتجاه الأرض المقدسة.

فخفقت قلوب الناس لهذه البشارة وقال (إسماعيل) باكيًا:

- كان قلبه يهفو إليها حيًّا فصوب الرب جسده نحوها ميتًا.

فأصلح الرجال من وضعه وجعلوا رأسه نحو الأرض المقدسة، ثم أهالوا عليه التراب حتى غاب في بطن الأرض ولم يعد يدل عليه إلا حجر أصم يسمونه شاهد القبر، ولو كان هذا الحجر يشهد على شيء فإنما يشهد على أن أمواج الأماني مهما علت ستتحطم يومًا على صخرة الموت.

وانتهت مراسم الدفن والعزاء، وشعرت برغبة في الهروب من ذلك الحلم القاتم! وقررت أن أترك ذلك المكان الموحش وهؤلاء الغرباء إلى مكان آلفه، فاستدرت أعدو نحو الدار وسط ذهول الرجال وشفقتهم! ودلفت إلى الدار في سرعة، فوجدتها ساكنة إلا من صرير بابها الخشبي الذي تركته مفتوحًا، كانت عيني تبحث عنها في كل ركن، دلفت إلى حجرتها فلم أجد سوى (باتيا) نائمة وحدها في الفراش، خرجت إلى الفناء وصعدت السلم الخشبي إلى الطابق العلوي فلم أجدها أيضًا في حجرتي، فهبطت الدرج وقلبي ينازعه القلق والخوف أن تكون قد ألحقت بنفسها مكروهًا، وكدت أعود إلى الساحة لولا أن سمعت نحيبًا خافتًا يأتي من الفناء الخلفي للدار، فسرت

وراءه لأجدها جالسة وحدها منكمشة على نفسها كعادتها حينما تحزن، تضم صدرها إلى فخذيها وتدفن رأسها بين ركبتيها، وقد أطبقت يديها على الناي الخشبي الذي صنعه لها أبي منذ سنوات، اطمأن قلبي لمرآها وسرت إليها خافق القلب دامع العين، ثم رفعت جسدها المتصلب، فطاوعتني بصعوبة ولم أتمالك نفسي حينما رأيت الوجه الشاحب والعيون الذابلة التي تفيض منها الدموع، فاحتضنتها ببكاء حار ثم جمعنا عناق أشعرني بأني ما زلت أملك شيئًا في الحياة.

• • •

ومرت أيام على وفاة أبي، ولم يألف فؤادي غيابه، وكان بداخلي قلب يترقب دخوله إلينا في أي لحظة، وكنت أدلف إلى حجرته فجرًا متوهمًا أنه نائم ساعة القيلولة، فإذا بالفراش المرتب الذي لم تنم عليه أصابعه، وفاته خاليًا، تنتهي خطواتي إلى الفراغ الذي حل بحياتنا، وتذكرني بروحه اللطيف، الذي رحل عنا.

وكان بعض النسوة من الحي يترددن على البيت لمواساة الأسرة، منهن (آيلا) زوجة (بصلئيل بن حور)، وأم (إياس) زوجة (ملاخي)، و(أدارا) زوجة (صواح)، وكانت جلسات النسوة تطول يومًا بعد يوم، وشجعهن على ذلك استقبال عمتي (باتشيفا) الذي كان لا يخلو من حفاوة مبالغ فيها، فقد وجدت عمتي في تلك اللقاءات متنفسًا لها يشغلها عن الأحزان، وشاركتها (يائيل) الصغيرة ذلك الشعور فقد كانت تفرح لزيارات هؤلاء الأقارب والجيران لا سيما إذا كان في صحبتهم بعض الأطفال يشاركونها اللهو والمرح اللذين غابا عن دارنا الحزينة.

أما أمي فقد اعتزلت تلك الجلسات، إلا إذا كانت (آيلا) زوجة (بصلئيل) ضمن الحضور، وكانت تعتكف أغلب الأوقات في حجرتي في الطابق العلوي، أو في الفناء الخلفي للدار، تحتضن ذكرياتها وحنينها، أو تعيش أوهامًا من نسج خيالها تحادث فيها أبي بصوت خافت ولكنه مسموع، حديث يمتد بهما إلى جوف الليل، ثم تستيقظ قبل الشروق وقد تورمت عيناها وانكسر بصرها من طول الحزن والبكاء.

ولم أستطع أن أمد يد العون لأمي، ولم أجد يدًا تمتد بالعون نحوي، فحتى (عامير) الذي عاش بيننا أعوامًا شعر بغربته في المنزل بعد وفاة أبي، ووجد حرجًا في أن يبيت في حجرتنا التي صارت أمي تقضي أغلب الوقت فيها، فصنع لنفسه عريشًا صغيرًا بالقرب من جدول الماء أقام فيه وحده.

وبت أنظر إلى حياتنا التي تداعت أركانها فجأة لموت أبي وانفرطت حباتها كما تنفرط حبات العقد، فيتفطر قلبي حزنًا وتزداد نقمتي على كل شيء.. على شعب إسرائيل الذي أضاع حلم أبي، وعلى أبي الذي أضاعنا في سبيل حلمه، وعلى الأقدار التي تغرينا بالأمنيات ثم تضع في طريقنا مئات العثرات لتحول بيننا وبين تحقيقها، وأصبحت أتساءل ذاتيًا: ما جدوى بأن يحيا الإنسان مؤمنًا، إذا كان سيموت كمدًا مثله مثل أشد الجاحدين ظلمًا؟

ووجدتني ثانيًا قصيرًا تعصف بي الأحزان، وتتلاعب بي اليأس والقنوط، تنبع من حولي فراغ الحياة وتتسلل إلى قلبي رويدًا رويدًا حتى ملأ حياتي، وصرت كذرة من هباء تسبح في فراغ مظلم، تنتثر مع كل حركة في جدول دون أن يشعر بها أحد، وأقصى أمانيها أن يمتد إليها شعاع من نور تتعلق به ولو إلى حين!

والتقى ذلك البحر المتلاطم من الأفكار الثائرة مع ثورة قام بها بعض الرجال من بني إسرائيل رجال أحزنهم ضياع الحلم من بين أيديهم، وأغضبهم أن يشملهم العقاب الإلهي دون ذنب منهم، فقد كان أغلب هؤلاء ممن بذلوا أنفسهم للخدمة في جيش الرب، وكانوا مثلهم مثل أبي ينتظرون اليوم الذي تطأ فيه أقدامهم الأرض المقدسة، فلما جاء الأمر بالحرمان، وكتب عليهم التيه، ثاروا على ذلك العقاب القاسي، وساروا بين الناس يدعونهم للصعود إلى الأرض المقدسة، ويحثونهم على اختيار الحرب، بعد أن أصبح الخيار بين أمرين لا ثالث لهما، فإما الهلاك المؤكد في الصحراء، وإما المجازفة بدخول الأرض، فلاقت تلك الدعوة استجابة من عدد ليس بالقليل، واجتمع حول قائدهم (عفرة بن إيتام) عدة آلاف من بني إسرائيل، وغضب نبي الله (موسى) من تلك الدعوة

التي تخالف أمر الرب، وأرسل بفتاه (يوشع) إلى قائد الثورة (عفرة بن إيتام)، يحذرهم مما أقدموا عليه، ودار بينهما حديث علمته من جنود عفرة لاحقًا.

قال (يوشع):

ـ لماذا تتجاوزون أمر الرب؟

قال (عفرة):

ـ ألم يكن هذا أمر الرب؟

قال (يوشع):

ـ بلى، ولكن الرب قد نظر إلى قلوب هؤلاء فلم ير فيهم خيرًا، ولو كان فيهم خير لاستجابوا له قبل أن ينزل عليهم غضبه!

قال (عفرة):

ـ لم يكن في قلبي شر!

قال (يوشع):

ـ أعلم يابن إيتام بأن في قلبك الخير ولهذا أتيتك!

ثم أردف:

ـ ارض بما قسمه الرب لك، ولا تتجاوز أمره، فلو كتب الرب لأحد أمر الأرض، لكان نبي الله (موسى) وأخوه (هارون) أولى الناس بذلك.

قال (عفرة):

ـ خير لنا أن نعجل بالقضاء بدلًا من انتظاره.

قال (يوشع):

ـ بل خير لك الصبر لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، ويكفيك أن نبي الله (موسى) قد قال: لا تصعدوا لأن الرب لن يكون في وسطكم.

قال (عفرة):

ـ لا حاجة لنا به!

قال (يوشع) مذهولًا:

- قد ارتددتم إذن عن ربكم!

قال (عفرة):

- بل هو من طردنا من حظيرته!

قال (يوشع):

- ستتعرضون لسخط [illegible].

قال (عفرة):

- في الحرب إما قاتل أو مقتول، أما في التيه فنحن هالكون لا محالة

قال (يوشع):

- أن تهلك في الطاعة، خير لك من أن تظفر على معصية!

قال (عفرة) [illegible]:

- لن يطولك أذى في كل الأحوال يابن (نون)، فقد استثناك الرب من بيننا.

ثم أردف:

- سنصعد إلى الأرض المقدسة على أي حال، شاء نبيك أم لم يشأ.

علمت بأمر الجيش فوجدت في نفسي توقًا لأن أتقصى أخبارهم وصرت أتلصص على اجتماعاتهم وأسترق السمع إليهم دون أن أفصح عن نفسي، وكنت كلما استمعت إلى قائدهم (عفرة) وهو يتحدث ازددت إعجابًا به، فقد كان فيه مزيجٌ من شجاعة (يوشع)، وعطف أبي وحنانه، وراودتني فكرة ظلت تنمو بداخلي حتى ملكت وجداني، فلماذا لا أتبع جيش (عفرة) إلى الأرض المقدسة، فأنا لست من المحرومين من دخولها، ولو نزل العقاب بهم فلن يشملني بكل تأكيد، فهم يتحدون أمر الرب، أما أنا فلا، وكنت أستمع إلى صوت يتردد بداخلي ولا أدري ما مصدره يقول لي: لم يحرم الرب عليك دخول الأرض المقدسة فعلام الانتظار أربعين عامًا حتى تحقق حلم أبيك؟!

وتحدثت إلى (عامير) أتحسس منه رأيه في جيش (عفرة)، فقال دون تردد:

ـ هم عصاة!

فوجدتني أغضب منه وأقول:

ـ بل هم أكثر الناس إخلاصًا في بني إسرائيل؛ ألم يتبعوا (يوشع) من قبل؟ ألم يكن (عفرة) من قادة جيش الرب؟!

قال (عامير):

ـ بلى، ولكنهم يخالفون الآن أمر الرب.

قلت غاضبًا:

ـ إن (عفرة) وقومه مدفوعون عن حبهم [illegible] بني إسرائيل، ويرفضون الموت في التيه كما مات غيرهم!

وضحك (عامير) ليداري ما في النفس من صراع، فقال في إخلاص:

ـ لا تستسلم إلى غضبك يا (شمعون)!

ثم قال في عطف:

ـ الحمد لله أننا ممن لم يشملهم الرب بالحرمان، وسيأتي اليوم الذي ندخل فيها الأرض المقدسة معًا.

قلت متهكمًا:

ـ بعد أربعين عامًا؟!

قال مهونًا:

ـ ما أسرع الأيام!

قلت في مرارة:

ـ وما جدوى أن أدخل الأرض وحدي، إذا ما ابتلعت تلك الصحراء أمي كما ابتلعت من قبل أبي!

تنهد ثم ربت على كتفي ثم قال:

- هون عليك يا (سمعون)، فأنا سأدخل الأرض بلا أب ولا أم، ولا أخوة ولا عشيرة!

* * *

وقضيت الأيام التالية مشتت الفكر، حيران الفؤاد، أتفكر في أمور الناس من حولي وأتعجب! كيف عاد هؤلاء إلى سالف عهدهم بتلك السرعة، يتهافتون على المن في الصباح، ويتخطفون السلوى في المساء، فيأكلون ويشربون وهم يعلمون أنهم هالكون في تلك الصحراء ولو بعد حين؟! كيف يحيا الإنسان هكذا وقد انقطع به الأمل؟ وما الفرق حينئذ بينه وبين الدواب؟ وكلما أمعنت النظر فيمن حولي، ازددت يقينًا بأن (عزرة) وصحبه على صواب، وأن أبي لو كان حيًا لتبعهم! ورحلت متوجهًا إلى (يصلئيل بن حور)، ألتمس منه الرأي مثلما كان يفعل أبي، سألته مباشرة:

- كيف نحيا وقد انقطع بنا الأمل؟

قال في هدوء:

- ومن أخبرك بهذا؟!

قلت متعجبًا:

- وهل بقي عندك منه من شيء؟!

قال بلهجة مطمئنة:

- نعم فالأمل لا يزال موجودًا فيك وفي أمثالك!

قلت مستنكرًا:

- وما جدوى أن يجني غيرك الثمار؟

قال ضاحكًا:

- وهل الحياة إلا زرعًا نغرسه فيجني ثماره أبناؤنا وأحفادنا؟!

قلت محاولًا إثارته بسؤال صادم:

- أما يحزنك أن يعاقبك الرب بما لم تقترفه يداك؟!

قال:

- لا يظلم الرب أحدًا.

قلت:

- ولكنه حرمك من دخول الأرض.

قال:

- بل رفع عني التكليف، وأعفاني من الحرب، وتركها لمن يطيقها!

قلت:

- ولكنك مؤمن به، وتستحق أن تنال الخلاص، فما الفرق بينك وبين من امتنع عن الحرب!

قال:

- الرب يطلع على القلوب!

قلت:

- لا أفهم.

قال:

- نظر الرب إلى قلوبنا، فوجدنا لا نستحق الخلاص!

قلت:

- هذا خضوع للظلم؟!

قال معاتبًا:

- بل رضى بحكم الرب.

ويوم بعد يوم صارت فكرة الرحيل شبحًا يرافقني في يقظتي ونومي، ولم يكن يحول بيني وبين تنفيذها سوى أمي وأختي الصغيرة (ماتيا)، فمن سيقوم على رعايتهما إذا ما رحلت ولحق بي أذى؟ والعجيب أن إحساسي بالذنب نحو

أمي وأختي، كان يفوق إحساسي بالذنب لمرافقة العصاة كما كان يحلو لبني إسرائيل أن يسموهم، وكنت أردد بيني وبين نفسي في لا مبالاة، ماذا جنى الطائعون غير الموت كمدًا أو التيه في الصحراء؟!

وفي صبيحة يوم مشهود تجمع الجيش الذي أعده (عفرة بن إيثام) خارج الواحة، ووقف بنو إسرائيل لوداعهم بمشاعر شتى، منهم من كان يمقتهم لمخالفتهم أمر الرب، ومنهم من كان يشعر بالإشفاق عليهم مما سيلاقونه من ويلات ومنهم من كان يرمقهم وفي قلبه أمل واهن في أن يكتب لهم النجاح، فيعفو الرب عنهم، وينظر في أمر العقوبة من جديد!

أما أنا فقد كنت أكثر اضطرابًا، شعرت أن الرفاق قد امتشقوا سيفه ووضعه على رقبتي، وأصبح مصيري معلقًا بسرعة قراري، فإما أن أكون مع هذا الجيش، أو أن أمكث في هذا المصير أربعين عامًا!

ومكثت النهار في حجرتي أقلب أمورًا جمة، وذهابا كزنبور محبوس بين جدران أربعة، وعيني تترقب قرص الشمس الذي خلع رداءه المتوهج، واكتسى بحلة برتقالية استعدادًا للمغيب، وطرق مسامعي صوت فرخين من السلوى يهدلان في الفناء الخلفي، نظرت من النافذة فرأيت أمي تخرج إلى الفناء وتتلقف الفرخين استعدادًا لذبحهما وطهيهما للعشاء، فشعرت أن الفرخين قد حملا لي رسالة اطمأن بها قلبي على مصير أمي وأختي إن أنا رحلت عن الدار وتركتهما، فهما في رعاية الرب ونبيه.

وانتظرت حتى حل المساء وأرخى الليل سدوله، ثم تسللت من حجرتي حاملًا فوق ظهري متاعًا خفيفًا وقربة من الماء، وصرة من قماش بها أوراقي والدواة والقلم، وأخفيت بين طيات ملابسي خنجرًا كان يمتلكه أبي، آثرت أن أحتفظ به رغم يقيني بأني لن أجرؤ على استخدامه! وأرخيت عقال الأتان فاستسلمت لي ظهرها في هدوء، وكأنها أحست بتلصصي فآثرت ألا تصدر صوتًا يفتضح به أمري، وما هي إلا لحظات حتى ابتلعني ظلام الحي، وركبت مبتعدًا عن منزلنا الحبيب، ويممت وجهي شطر عريش (عامير) الذي أقامه عند جدول

الماء، وبعد أن وصلت إلى العريش، أخرجت رسالة مطوية من ورق البردي، كتبتها في وقت سابق في ذلك النهار، ووضعتها برفق أمام عتبة الكوخ، حتى يراها (عامير) حينما يصحو.

كانت الرسالة من جملة واحدة:

«لن أنتظر أربعين عامًا حتى أحقق حلم أبي، أوصيك بأمي وأختي»

وقضيت أول الليل محطمًا أناني في الصحراء، تخفر قلبي رهبة من ظلام الليل ووحشة البيداء، أشعر بالخوف من مستقبل غريب مجهول، وأتشبث في الذكريات لتعيدني إلى ماضٍ حزين، فذكريات الأمان في حضنها حتى تسرع الخطى، وكأنني أهرب بها من نفسي قبل أن تتكاسل عن [illegible] وأنا أهرول مبتعدًا عن الأرض التي كنت فيها التي على [illegible] الليل أنني قد بدأت رحلة من التيه عشتها وحدي بعيدًا عن أمي وعن [illegible] [illegible].



الكتاب الثاني

أيتها الحاضرة الغائبة ..

أيتها الفرحة الساكنة ..

كيف تشتكين وأنت تضحكين؟

كيف تشتاقين وأنت تحقدين؟

ما معنى أن تحبي وأنت تقتلين

ما معنى أن تأتي وأنت تغضبين

أتشاءم أم أتفاءل؟

لماذا بالكلمات أشتاق إليكم؟

الورقة الثالثة والعشرون

غشي الليل السماء بحلته السوداء القاتمة، التي انتشرت في طياتها ومضات النجوم، واحتجب قرص القمر خلف موجات كثيفة الحجم من السحاب المتراكب، فاكتست أرض البيداء بظلام قاتم مرادس بقتامة تلك الليلة ورهبتها، كنت قد ابتعدت عن الواحة بضع فراسخ، وقطعت شوطًا في عمق الصحراء ومع ذلك لم تطالعني نيران جيش (عفرة)، وانقضى شطر الليل وأنا على تلك الحال، وكأني أدور في فلك واهم حول جرم مجهول، حتى دب في قلبي اليأس، وشعرت بالتعب من كثرة التجوال دون هدف، وكدت أدور بالأتان في اتجاه العودة إلى الواحة، لولا أن شق الهواء صوت صهيل فرس طرق أذني هذه المرة بغير لبس ولا أوهام، فقد كانت أصوات الرياح العاتية تتلاعب بي طوال الليل، وتوهمني بأصوات شتى، ولكن الصوت هذه المرة جاء جليًا واضحًا بصورة لا تخطئها الأذن، فأضاء نفسي بالأمل، وحل إلى البشرى، فركزت الأتان في جنبيها ودرت دورة حول كثيب الرمال، فإذا بي أجد عينًا تتناثر في أرجائه بعض المشاعل التي خفتت نيرانها وسكنت فيه أصوات النائمين من الناس والخيل إلا من ذلك الفرس الذي أصابه الأرق فوقف على مدخل المخيم يصهل صهيله المحمود. اطمأن قلبي لمرأى المخيم، وهداني ضوء مشاعله إلى الطريق، وحينما وصلت، أوقفني حارس المعسكر، واقترب نحوي حاملًا مشعلًا ثم سألني:

- من أنت؟

قلت:

- (شمعون بن زخاري) النجار

وكأنما عرفني الرجل، فقال:

- ما الذي أتى بك إلى هنا يا غلام؟

فقلت في رجاء:

- أريد أن أتبعكم إلى الأرض المقدسة.

قال الرجل:

- عد يا غلام من حيث أتيت، فالأمر خطير

قلت مستعطفاً:

- أعلم أنه خطير ولكنه يستحق، فقد مات من أجله أبي!

تنهد ثم قال في حزن:

- تعلمت منه الرمي بالسهم، وكان قلبه معلقاً بالأرض المقدسة.

قلت راجياً:

- فلأجله دعني أرافقكم!

تردد لحظات ثم قال:

- حسناً لا سبيل لرجوعك الآن فلتبت بالمعسكر وسأخبر (عفرة بن إيثام) بأمرك في الصباح.

وفي الصباح علم (عفرة بن إيثام) بالأمر، وشفع لي الحارس عنده، وأوحى إليه بأنني قد أعين الجند في بعض أعمال الخدمة. فوافق (عفرة) قائلاً:

- حسناً فليبق في مؤخرة الجيش، وليعمل على سُقيا الخيل حتى نصل إلى الأرض.

وواصل الجيش مسيرته لثلاثة أيام متتالية، أوغلنا فيها في الصحراء إلى أن

وصلنا إلى مكان يسمى «حُرمة» في برية فاران بعد مسيرة يوم واحد من تل العراد. فأمر (عقرة) بأن تضرب الخيام في هذا الموضع، استعدادًا للدخول إلى تل العراد.

وكنت أسقي الخيل في الصباح، وآوي إلى جوارهم في المساء، حتى صارت بيني وبينهم ألفة، عززتها رائحتي التي صارت مزيجًا من العرق ورائحة الروث، فقد كان الماء قليلًا، ولم يسمح لنا بإنفاقه في الاستحمام إلا فيما ندر. ولم أكن أختلط بالجنود إلا في أوقات الطعام، والعجيب أن الجنود كانوا سألوني عن اسمي وعن الحي الذي أسكن فيه ومن أي الطرق أتيت، ولكن لم يسألني أحدهم لماذا تركت أهلي وتبعت الجيش في الصحراء، ولم يخطر ببال أحدهم أن في قلب هذا الصبي إصرارًا على بلوغ الأرض التي تسبق أحلامهم وآمالهم. وشغلتني تلك الأعمال في أثناء النهار، لكنها لم تهون عليَّ وطأة الوحدة في الليل، فكنت إذا جن الليل أتقلب في فراشي من السهد، وأمسي مؤرق النفس، أفكر في أمر أمي، وأتساءل هل سيتاح لي عندها تحقيق حلم أبي؟ أم تراها ستظل غاصبة مني لفراقها؟

وفي الليلة الخامسة علمت من الرجال أن الجيش سيقتحم حصن «تل العراد» في صبيحة اليوم التالي. وكان الجنود يتحدثون بثقة مفرطة في النصر، فقد تداولوا ما ذكره النقباء الاثنا عشر من قبل عن ضعف الحصن، وقلة جنوده من الكنعانيين، كما أكد الجواسيس الذين أرسلهم (عقرة) إلى الحصن تلك الأيام، ورغم ذلك انتابني القلق طوال الليل، وتسرب الخوف إلى نفسي، وأنا أعلم أني سأشهد قتالًا حقيقيًا في الصباح، حتى وإن كان النصر أقرب إلينا كما يدعي الجنود.

وفي الصباح لجأ (عقرة) إلى الحيلة التي فعلها (موسى) من قبل، فأمر فرقة من الجند أن تتنكر في زي تجار من العبرانيين، وجعل في مقدمتها بضع نوق محملة بهوادج يختبئ في كل واحدة منها عدد من الفرسان، ووصلت الفرقة إلى الحصن، ففتح لها الحراس الأبواب، دون أن ينتبهوا إلى حقيقتها، وفي لمح

البصر قفز الفرسان المدججون بالسلاح من الهوادج، واستل التجار المزيفون سيوفهم، وأعملوا في الحراس الكنعانيين السيوف، وفتحوا أبواب الحصن عنوة، ثم حل (عفرة) بجيشه حلة عظيمة، لم يقو على ردها جنود الحامية، ولم تمض ساعة من النهار حتى انهزم جند الكنعانيين، وفر من نجا منهم إلى بيت إيل في الشمال، واستولى (عفرة) على الحصن وعلى أسلحة الجند المنهزمة، وجعل منه مركزًا لقيادة الجيش، ونشر جنده على مداخل المدينة ومخارجها، ومكثنا في تل العراد بضعة أسابيع، تجهز فيها (عفرة) برجاله للمعركة الفاصلة القادمة في بيت إيل.

وطار نبأ استيلاء جيش العبرانيين على حصن العراد إلى حبرون وبئر سبع وبيت إيل، وعلمنا أن فرقة من جيش الكنعانيين تستعد للخروج لاستعادة حصن العراد، ولم يفُتّ ذلك في عضد (عفرة) الذي خطب في الجند في حماس، وحثهم على الصبر حتى يتمكنوا من هزيمة الكنعانيين ثم الاستيلاء على بيت إيل.

وقضيت أيامي في تل العراد في جهد لا يعرف الكلل، فقد كنت أخرج إلى البئر في كل صباح، أملأ جرار الماء، ثم أنقلها إلى المعسكر كي تشرب منه الفرسان والخيل، ثم أقضي النهار مع الرجال في بناء المتاريس، وترميم أسوار الحصن المتهالكة كي تصد عنا هجمات الكنعانيين المتوقعة.

ورغم الجهد والتعب، فإنني كنت سعيدًا باعتماد الرجال عليّ في تلك الأعمال الشاقة، وأكسبتني تلك المشقة سمرة في الوجه، وصدرًا قويًا انطلقت عضلاته ثم انبسطت فوق المنكبين العريضين، لتقضي على ميوعة الصبا ولتمحي هيئة الشباب.

ورآني (عفرة بن إيتام) وأنا أعمل دون كلل في ترميم باب خشبي من أبواب الحصن، تكسّر مزلاجه، وتآكلت زواياه، ونخر النمل أوتاده، فكنت أنزع الأوتاد المتهالكة وأستبدلها بأخرى جديدة صنعتها بنفسي، ثم صنعت له مزلاجين من الصلب ودعمتها بعدة ألواح من السنط، جعلت من اقتحام

الباب أمرًا عسيرًا، وكنت أفعل ذلك بمهارة، فلما رآني (عفرة) وأنا على ذلك الحال ابتسم وقال:

- بوركت يا ابن (زخاري)، لو قدر لنا دخول بيت إيل، لسيت حصنًا يعوق حصن تل العراد.

وأطلعنا الجواسيس الذين أرسلهم (عفرة) إلى بيت إيل، على أن الكنعانيين قد بدءوا في التحرك، واستشر الجند خيرًا حينما علموا أن الفرقة لا تزيد عن بضعة مئات من الجند وأنهم من الجنود النظامية، ولا تربيتهم لبني عناق، فباتوا ليلتهم وقد وقع في ظنهم أن مدينة (بيت إيل) أول منازل الأرض المقدسة ستكون من نصيبهم بعد الصباح، وأنها حتمًا ستسقط في أيديهم كما سقطت من قبل تل العراد.

وفي تلك الليلة لم تفارق أمي مخيلتي وشعرت بشوق لرؤيتها، وأشفقت عليها مما فعلته بها ولحظة، وقلبي معلق بدارنا القابعة خلف الصحراء في فادش برنيع، وحين غلبني النعاس رأيتني أسير في طريق يشبه طريق الواحة، تحف به أشجار ذهبية الأوراق، ينعكس عليها ضوء الشمس، فبدت سماء الواحة متلألئة بالأنوار وكأنها قبة مرصعة، ورأيت دارًا تشبه دارنا، ولكنها بيضاء كالثلج، أسرعت نحوها وفي قلبي شوقٌ لأن أرى أمي (رومانا)، لكنني قبل أن أصل إليها رأيت رجلًا يخرج من باب الدار ويقف حاجزًا بيني وبين الباب، وأشار نحوي بالابتعاد، كان الرجل يشبه أبي، ولكنه كان أكثر طولًا، وأكثر بياضًا، يرتدي ثوبًا فضفاضًا، يتموج في الهواء، وكأنه جناحا كَرُوبِيمَ، حاولت الدخول مرة أخرى ولكنه دفعني في صدري حتى أبتعد، فوقفت أنظر إليه مترجيًا حزينًا، وانسابت دمعة شعرت بحرارتها على وجنتي، فلما رآني أبكي، أشار إليّ أن أتبعه ثم سار أمامي، فتبعته واجتزنا الطريق عبر الأشجار الذهبية قبل أن يتوقف، لأجد سفحًا ينحدر أمامي، يشبه السفح الذي يطل عليه الحصن في تل العراد، أشار بيده نحو نهاية السفح، فإذا بي أرى مئات الجثث من بني إسرائيل وقد انتشرت فوق الأرض، كانت عيني تطوف على وجوه القتلى التي ملأها الرعب

والضلوع، وكأنني طائر يرنو إليها من السماء، ورأيت رءوسًا قد اجتُثّت من فوق الأعناق، وأُلقيت في الصحراء، ثم استقرت عيني على رأس مقطوع، علقت على حربة غرزت في الرمال، فاقتربت منها في سرعة وكأنني أسقط عليها من علٍ، فلما أشرفت على الاصطدام بها استدارت الرأس في مواجهتي لأجدها رأس (عفرة بن إيثام)، فاستيقظت من نومي فزعًا وقد انقبض صدري في قوة، وأخذت ألهث في عنف، وكأنني كنت أعدو لعدة ساعات.

وأيقنت أن ما رأيته لم يكن حلمًا بل طائفًا من الرب حمله إليّ روح أبي، وألقى في روعي أن أبي ليس عدمًا كما ظننت، بل أن جزءًا منه لا يزال حيًا، يرنو إليّ من مكان غير بعيد، مكان تتكشف فيه الحجب وينجلي فيه الغيب.

تناولت قربة الماء فجرعت منها رشفات رطبت حلقي الملتهب، ثم قمت من فوري إلى خيمة (عفرة بن إيثام)، واستأذنت للدخول، فأذن لي، وجدته مستيقظًا، وقد ارتدى لباس الحرب، وقد بدا عليه العجب من طلبي لمقابلته في تلك الساعة المبكرة قبل الشروق، قال:

- هلم يا ساقي الخيل! ما الذي أيقظك في تلك الساعة المبكرة؟!

قلت له مفصحًا عما يقلقني وقد تهدج صوتي من التوتر:

- قد رأيت مصارع الجند على أبواب «بيت إيل».

ارتعدت أساريره، ثم قال محاولًا طمأنتي:

- لعلك رأيت حلمًا قد أزعجك!

قلت مؤكدًا:

- بل هو طيف من الرب، حمله إليّ روح أبي الطاهرة!

ابتسم في هدوء، ثم قال لي مهدئًا:

- بل هو خوف قد اعتراك أيها الصبي، وباحت به نفسك في نومها، فلا تخش شيئًا، فلن ينقضي النهار إلا وبنو إسرائيل في بيت إيل.

قلت متوسلًا:

- صدقني أيها القائد إن أبي لم يكذب قط!

ثم أردفت مبرهنًا على كلامي:

- أولم يحذركم (يوشع) من قبل؟

قطب جبينه وبدا أنه قد أساءه ما أقول، ثم قال بعد فترة صمت في حسم:

- أرى أن الخوف قد بلغ بك مبلغه أيها الفتى، فلتبق في الحصن ولا تغادره، وحذار أن تحدث أحدًا في الجيش بما رأيت في نومك.

ثم نادى على حارس، قائلاً:

- ضعه في البرج حتى ينقضي اليوم، فقد أصبح كالثمرة الفاسدة التي قد تفسد من يجاورها، ولعلّ فراقنا يدعوه إلى المراجعة.

ثم أشار إليّ بالانصراف.

تبعت الحارس حاملاً معي أغراضي القليلة، وصعدت إلى برج الحصن المرتفع، ثم ألقيت الأغراض على الأرض، ووقفت أتطلع من نافذة الحصن، فانصرف الحارس وهو يحذرني قائلاً:

- لا تغادر الحصن يا بني (زخاوي)، فإنك لا تعلم غضبة (عفرة بن إيتام).

فأومأت له برأسي دون أن أنظر نحوه، وشعرت بالدوار وأنا أتطلع إلى السطح الممتد أسفل تل العراف والذي ينتهي عند أسوار بيت إيل، وقفزت إلى مخيلتي الرؤيا التي رأيتها أمس من ذلك الارتفاع وأنا أنظر إليه، وتمثلت أمام عيني نهايتها، فخفق قلبي في اضطراب، وتكثفت على جبهتي حبات من العرق البارد لم أدر ما مصدرها، ثم طفحت ذاكرتي بمشاهد طالما حبستها قهرًا في خبايا نفسي، فرأيت جسد (سولاف) المتدلي من العنق على فرع الشجرة، ورأيت وجه (الشامري) وقد تقيحت فيه البثور، ووجه (رام) وقد أخفت ملامحه الدماء، ووجه أبي المغطى بالكتان، فشعرت بالخدر يسري في أوصالي واستحار عقلي بإغماءة تحميه من مخاوف اللحظة وقلق الانتظار.

إن كل ما أتذكره بعدما أفقت من إغمائي، هي تلك الصرخات التي ملأت

الوادي والتي أطلقها جنود (عفرة) وهم يحصدون بسيوف الكنعانيين ورماحهم.
ظللت أعدو بكل ما أوتيت من قوة كفرس يقدح رمال الصحراء هربًا من قسورة ينهشها الجوع، لم ألتفت خلفي ولو لوهلة، كان يكفيني أصوات الجند التي تحملها الرياح إلى أذني كي تلهب ظهري كسياط تستحثني على الركض أكثر. ابتعدت عن الحصن كثيرًا، وتوغلت في الصحراء على غير هدى، حتى اختفت الأصوات من أذني وإن ظل وقعها على قلبي قويًا صاخبًا. لم أدر كم من الوقت قد مر علي وأنا أعدو ولكنني أحسست كالعمر قد مر، وكأن لهيب الشمس قد ترك كثبان الصحراء واستقر فوق رأسي، احمرَّ حلقي، وزاغ بصري وأثقلت الرمال خطواتي حتى صارت الخطوة منها لا يحتمله قلبي، فسقطت جاثيًا على ركبتي، أستعين بها وبيدي في الزحف لمسافة أطول أخرى، لعلها تأخذني بعيدًا عن ذلك الرعب القابع في قلب الوادي، ولكنها لم تكن سوى أذرع قليلة قبل أن أسقط مغشيًا علي.

* * *

لم أدر مقدار ما مر من الوقت وأنا فاقد الوعي. أيقظتني هزة أمالت جسدي جانبًا حتى أوشك على السقوط ثم أعادته إلى وضعه مرة أخرى، اعتدلت في جلستي بصعوبة بفعل الألم وشدة الاهتزاز، وتلفت حولي فأدركت أني محمول على هودج أرخيت سدوله، أصدرت الناقة حنينًا خافتًا وكأنها قد شعرت بعودة دبيب الحياة في راكبها، تحسست جسدي وكأنني أتيقن من أنني ما زلت حيًا سليمًا، ثم تلفت حولي كي أتأكد من موضعي، أسعدني أن وجدت صرة أغراضي إلى جانبي، وإن بدا أن أحدهم قد عبث بها وأخذ منها خنجري، ولحسن الحظ ترك العابث دواتي وقلمي وأوراقي.

أزحت ستار الهودج جهة اليسار مقدار فرجة يسيرة وتلصصت منها ببصري فوجدت إلى يسار الناقة فارسًا يمتطي فرسًا أبيض اللون ويتمنطق بسلاح هو وسط في حجمه بين الخنجر والسيف، أسدلت الستار في بطء حتى لا ألفت إلي نظره، ثم أزحته جهة اليمين فإذا بي أجد ناقة أخرى تحمل هودجًا تجلس فيه فتاة سمراء البشرة، دقيقة الأنف والفم، طوت أستار هودجها وجلست

تتطلع إلى البيداء في تمعن وكأنها تتحدث إلى الفراغ من حولها في حديث صامت!

أرخيت الستار واستلقيت على ظهري في بطء، وقد آثرت أن أخفي استعادتي لوعيي وحدقت في سقف الهودج وفي رأسي تدور عشرات الأسئلة عن هؤلاء الناس الذين حملوني معهم.

مرت سويعات قليلة قبل أن أشعر بالقافلة تتوقف، اعتدلت في جلستي وتشبثت بالرحل بينما كانت الناقة تنوء بجذعها كي تبرك، هدأت همهمات الرجال ومرت بضع دقائق قبل أن يأتي أحدهم إلى الهودج ويرفع أستار الهودج عنها، اطمأن قلبي لنظرة الشاب غير العدائية، أشار إلي كي أهبط فحملت صرة أغراضي وتقدمت من الهودج، فاقتادني الشاب إلى مقدمة الرحل حيث كان الرجال يقومون بتثبيت خيمتين كبيرتين وكأنهم قرروا المبيت في ذلك المكان.

تحدث الشاب إلى شيخ كبير كان يوليني ظهره، فهمت من كلام الشاب أنه كان يخبره باستعادتي لوعيي، التفت الشيخ نحوي وتلاقت أعيننا، فمست نظرة عينيه موضعًا في ذاكرتي لم تطمسه الأيام رغم مرور السنين، وعرفت فيها نظرة شيخ الأعراب (عابر) الذي استضاف أبي في خيمته منذ سنين.

وتعجبت من أحوال القدر معي، أردت أن أحقق حلم أبي في دخول الأرض المقدسة فإذا به يأتيني في المنام كي يصرفني عنها، وأردت أن أفر بنفسي من الهلاك، فإذا بالشيخ الذي أجار أبي في زمن الفتنة يجيرني أنا أيضًا من الهلاك في البرية.

وبعد أن ذكّرت الشيخ بنفسي، دعاني إلى الخيمة التي انتهى الرجال من نصبها، وجلست إليه كي أقص عليه ما فعلته بي السنون.

وبينما كنت أقص عليه القصص، طاف بعقلي الوجه الأسمر الجميل، منبع الألف والضم، الذي جاورني في الهودج، فخفق قلبي حين ذكرني بفتاة سمراء، كانت بيني وبينها مغامرة في يوم من أيام الصبا، اسمها (أروى).

• • •

الورقة الرابعة والعشرون

أعادت تلك الليلة إلى جسمي شعورًا بالدفء، فقبل خروجي من المنزل، تحممت بماء ساخن وارتديت جلبابًا عربيًا أعطانيه أحد أبناء الشيخ، ولففت رأسي بعمامة محكمة، وما إن وصلنا سوق صحري بسويعات جلس مجموعة من الرجال، هم مشايخ القبيلة وكبارها، ملتفين في حلقة، وقد وُضع أمام كل واحد منهم صحن به رغيف من الخبز، وفي المنتصف، تدلت شاةٌ مذبوحة معلّقة من ساقيها على عارضة من الخشب فوق جمر مستعر، تطايرت قطرات الدهن المتساقط من جسد الشاة بعد أن مست الجمر الساخن، فملأت الجو بعبق الشواء الذي داعب أنفي لأول مرة منذ سنوات، سال لعابي وتمنيت لو بادر الطامي بتوزيع شاته على هذه الحال كي يكفنا عذاب الجوع!

فرغنا من الطعام والشراب، فامتلأت العروق بالدماء، والأوصال بالدفء، وقام الرجال الواحد تلو الآخر مستأذنين في الانصراف، كان الواحد منهم ينحني على يد الشيخ (عامر) فيقبلها ثم ينصرف غير مستأنس لحديث، فكنت أتعجب من هذا الإكبار والاحترام الذي يظهره هؤلاء القوم لشيخهم، وأقارنه بسلوك بني إسرائيل مع نبي الله (موسى)!

لم يبق من حلقة الرجال سواي وولدَيْ الشيخ (عامر): (ثابت) و(دومة) -علمت فيما بعد أن أباهما قد أسماهما على اسم ولدَي (إسماعيل) تيمنًا به، وكانت (أروى) هي ابنة الشيخ (ثابت) الصغرى وأصغر أحفاد الشيخ (عامر).

هممت بالانصراف وقمت من مجلسي وأردت أن أنحني كي أقبل يده، ولكنه منعني بأن أمسك كفي ومسحها كي أجلس إلى جواره، فهم (لامت) و(دومة) بأن الشيخ يريد الحديث إليّ فانصرفا بعد أن قبّلا يده.

بادرني الشيخ بقوله:

ـ ما الذي تنوي فعله يا (شمعون)؟

قلت:

ـ أستأذنك سيدي الشيخ في أن أعود أدراجي إلى قادش برنيع.

مسح الشيخ لحيته البيضاء الطويلة براحته عدة مرات، وكانت تلك عادته تلازمه عند التفكير، ثم قال:

ـ هل تظن أن قومك لا يزالون في قادش برنيع؟

أحس أن كلماته قد جاءتني أفضل، وقد ساورني القلق بعض الشيء:

ـ قد كانت قادش آخر منازلنا بعد أن حكم الرب على بني إسرائيل بالتيه، وما أظن نبي الله (موسى) يخالف أمر الرب أو يسير بهم قدمًا إلى الأرض المقدسة.

صمت الرجل لحظات وأغمض عينيه برهة ثم قال منتخبًا من الكلمات أيسرها:

ـ قد مررنا بقادش برنيع منذ عدة أيام ولم نر آثارًا لبني إسرائيل هناك.

خفق قلبي وجلًا، وانتابني شعور بالخوف على أمي وأختي، فقلت ملتمسًا الأمان لدى الشيخ:

ـ ألعل نبي الله قد ارتد بهم إلى عصيون جابر؟!

لم يجب، فتابعت مترجيًا:

ـ اجعل لي فرسًا وسوف أقتفي أثرهم إلى هناك!

صمت الشيخ أكثر وطالت فترة صمته، ثم قال:

ـ اسمع يا (شمعون)، قد أتينا من رثمة ثم إلى عصيون جابر ومنها إلى

قادش برنيع، وما رأينا (موسى) وقومه في طريق عودتهم.

قلت في تعجب أقرب إلى الاستنكار:

ـ أيعقل أن يختفي شعب بأكمله في الصحراء؟

قال غير مكترث من تعجبي:

ـ ظني أنهم قد سلكوا طريقًا لا نعرفه!

ثم قال في صوت خافت وكأنه يريد أن يتهرب:

ـ إن البرية دروبًا يتوه بها الأدلة يا (شمعون)!

قلت متعجبًا:

ـ أيضلون الطريق في الصحراء ونبي الله بينهم؟!

مسح لحيته مرة أخرى ثم قال في سكون:

ـ أليس هذا ما يطلق عليه العرب كما تقول؟ التيه في البرية!

التيه! لم أشعر بمعنى الكلمة من قبل مثلما شعرت به في تلك اللحظة، حين تركت قادش برنيع كنت أشعر بالخوف والترقب، ولكني كنت على يقين بأني سأعود إليها لأجد أمي وأختي في انتظاري ولو بعد حين، أما وقد علمت بأنهم قد تركوا المحلة إلى مكان في البرية قد لا أصل إليه، فهذا هو التيه بحق، فليس التيه فقدان الأرض بل فقدان الأمل في لقاء الأهل والأحبة.

رأى الشيخ الكآبة والحزن على وجهي، فقال:

ـ اسمع يا (شمعون)، يعلم الله أني قد أحببت أباك ورأيت فيه نقاء القلب وصدق النية، وأنه كان عندي بمنزلة الولد وأنت عندي بمنزلة الحفيد، فإن شئت يا بني أن ترافقنا في رحلتنا فمرحبًا بك، فقد عزمنا السير إلى أرض إدوم ثم إلى وادي بكة.

فغرت فاهي دهشة وأنا أقول:

ـ وادي بكة؟!!

قال الرجل في هدوء:

- نعم قد خرجنا لزيارة بيت أبينا (إبرام) في مكة.

قلت:

- ومتى العودة؟

قال غير مؤكد:

- قد ينقضي العام قبل أن نعود فلنا تجارة نقايضها مع أهل الجنوب ثم نعود بعدها إلى منزلنا في (زغة) في برية سين.

طافت على شفتي ابتسامة يائسة عبّرت عما يعتمل في نفسي من يؤس! يا لعبث الأقدار معي!! أقتدلي بالموت كمدًا، ثم أهلك أمي وأضحى في التيه، كل هذا من أجل الوصول إلى الأرض المقدسة، ثم ينتهي بي المطاف في وادي بكة!

قلت للشيخ الجليل وأنا أتنهد في عمق:

- أشكرك سيدي الشيخ، قد تركت قومي أملًا في الوصول إلى الأرض المقدسة، فأما وقد فقدتهم في الصحراء إلى الأبد، فلا سبيل لدي إلا تحقيق حلمي وحلم أبي!

توقعت أن ينصحني بعدم الذهاب خوفًا عليَّ من بطش الكنعانيين، ولكنه صمت مرة أخرى وطالت فترة صمته وهو مغمض العينين قبل أن يقول:

- لماذا تريد الذهاب إلى الأرض المقدسة يا بني؟

قلت:

- هي أرض الآباء والأجداد، التي وعدنا الله بحكمها!

قال في هدوء:

- أي آباء وأي أجداد يا بني؟ ما كان آباؤنا حكامًا ولا ملوكًا، فقد جاء أبونا (إبرام) إلى تلك الأرض لاجئًا من (أور) فارًا بدينه من ظلم حاكمها وبطشه. فدعا الناس إلى عبادة الرب الواحد الأحد وترك الشرك والمعاصي.

صمت هنيهة ثم تابع:

ـ سلام ربي عليه في كل زمان ومكان! قام وحده بما لم تقم به الأُمَّةُ من الناس، كان يبشر بنور دعوته في كل أرض جرداء تطؤها قدمه لعلها تثمر في يوم من الأيام! ظل مهاجرًا بدعوته من بابل إلى كنعان ثم إلى مصر ثم إلى صحراء فاران، فما ترك أرضًا من الفرات إلى النيل إلا ودعا الناس فيها إلى عبادة الرب.

تذكرت بعضًا مما قاله أبي لي عن وعد الرب لنا بالأرض المقدسة فقلت:

ـ ألم يقل الرب لأبينا (إبرام) "لنسلك أعطي هذه الأرض"؟

ابتسم فرأيت أسنانه كاملة في ضوء النار رغم عمره الذي جاوز الستين، ثم قال:

ـ نعم يا بني كي يكونوا دعاة للرب.. لا ليحكموا! أرأيت صدق الله وعده فانتشر نسل أبينا (إبرام) من الفرات إلى النيل! انظر إلى بني (إسماعيل) وقد نموا وكثروا وتشعبت بطونهم في صحراء فاران وتهامة، يدعون الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، انظر إلى أبناء عيسو بن إسحق في مؤاب وأدوم يدعون الناس بدعوة أبيهم (إبرام) حتى وصلوا بها إلى ضفاف الفرات! انظر إلى يوسف بن يعقوب وقد صار عزيزًا لمصر يدعو الناس إلى عبادة الله ويصل بها إلى ضفاف النيل! أليس هذا كله تحقيقًا للوعد؟

تعجبت من سعة علمه، وسلامة منطقه، فتابع وقد بان على وجهه الأسف:

ـ لولا قومك يا (شمعون) لتحقق وعد الرب كاملًا لأبينا (إبرام)! أرادوا اللبن والعسل وغرتهم أضغاث الدنيا والرغبة في الملك فنسوا العهد! ووالله لو وجد الرب في قلوبهم خيرًا لفتحها لهم كي يسكنوها، ولكن حق عليهم التيه حتى تتطهر قلوبهم!

شعرت بألم من كلماته بدا أثره على وجهي، فربت على كتفي في عطف كي يزيل ذلك الأثر وقال:

ـ ما كان لـ(موسى) أن ينقض شريعة أبيه (إبرام) يا (شمعون)! وما أظن

أن دعوة (موسى) دعوة إلى مُلْك أو حُكم وإنما دعوة لإقامة الدين الحنيف!

تعجبت من كلمته فرددتها مرة أخرى:

- الدين الحنيف؟

قال:

- نعم، ثم لمعت عيناه في عتمة الليل وهو يقول في وجد:

- أن نعبد الله الواحد الخالق السرمدي الذي لا تناله الحواس، ولا يفضي إليه مخلوق، الحي في كل شيء، والقيوم عليه، الذي تملأ نوره السماوات والأرض وجميع المخلوقات، والتسبيح له في الليل والنهار، وأن ندعو الناس إلى عبادته.

شعرت برعدة من كلماته، وقلت متعجبًا:

- أهذه شريعتكم؟

- بل شريعة أبينا (إبراهيم)، وهذا ما أتى به أيضًا أبونا آدم وشيث وإدريس من قبله!

قلت وما زلت على عجبي وإعجابي بما يقول:

- وأين التكليفات والتبعات، وأين الزواجر والنواهي؟

قال في يسر:

- تكلفنا بأن نفعل الخير أينما كان وكيفما كان، وأن نترك الشر أينما كان وكيفما كان.

كانت كلماته كماء بارد صُبَّ على رأسي في ليلة باردة، فأفقت على حقيقة أذهلتني، وهي أنني قد لبثت عمري كله بين بني إسرائيل وبين أظهرنا نبي مرسل ومع ذلك لم يتسن لي فهم حقيقة عبادتنا، لم تكن الشريعة في نظري سوى تكليفات لا تطاق وزواجر لا تنتهي، لم أر من صفات الله التي عددها هذا الرجل سوى صفة القوة والجبروت، حتى أسماء الله التي كنا ندعوه بها في صلاتنا كانت كلها أسماء توحي بقدرته وقوته فهو «يهوه» العلي، وهو «إيل» القادر، وهو إلوهيم «المتجبر»، وما علمت له من صفات أخرى! كنت أشعر

دائمًا بأنني أخشى من الرب إلهنا إله بني إسرائيل، ولكنني لم أحبه! فما بال هذا الرجل يتحدث بهذا الوجد والحب عن إلهه، وهو القادر على سحقه وعذابه.

قلت له وقد ارتعش صوتي بعض الشيء:

- أما تخشى من إلهك؟

ابتسم فرأيت أسنانه ثانية، ثم قال:

- أخشاه خشية العبد أن يعصي سيده، وأخشاه خشية المحب أن يغضب حبيبه.

لم أطق صبرًا، فقلت:

- إن كان هذا هو إله بني إسرائيل أيضًا، فلماذا يتجلى علينا بجبروته ولا يتجلى علينا برحمته؟

صمت برهة، ثم قال:

- هو يتجلى علينا كيفما نراه! قد عميت أعينكم عن رؤية رحمته حين أنجاكم من فرعون، وحين أنجاكم من الهلاك في البرية، وتكبرتم على أوامره فحق عليكم أن تروا كبرياءه وجبروته كي تذكروا نعمه عليكم.

انقطعت الأسئلة في رأسي وشعرت بأني أريد أن أستعيد كل كلمة قالها الشيخ (عابر) وحدي، وأحس هو بذلك فقال:

- حسنًا يا (شمعون)، قم يا بني كي تنام، سنمكث هنا بضعة أيام للتزود بالماء والراحة، وسنرحل بعدها إلى موآب، فإن شئت رافقتنا، وإن شئت أعطيناك ومتاعًا وزادًا كي تبحث عن قومك، ولتختر وجهتك التي كتبها الله عليك!

قمت من مجلسي فقبلت يده قبلة إجلال واحترام، ثم انصرفت إلى خيمتي، وما إن خلوت وحدي حتى أخرجت الدواة والقلم وسطرت على صفحة فارغة ثلاث كلمات:

«الله ..... الحي ..... القيوم»

• • •

الورقة الخامسة والعشرون

نهضتُ في نور الصباح بعدما ارتفعت الشمس إلى منتصف السماء، لم يسبق لي أن نمت إلى تلك الساعة في يوم من الأيام منذ تركت قاسم بن ربيع، ولعل السبب في ذلك هو أنني مكثت إلى ساعة متأخرة في الليل أسترجع حديثي مع الشيخ (عامر) كلمة كلمة حتى امتلأت رأسي بأسئلة لا حصر لها. لم أجد لها جوابًا سوى النوم! وساعدني امتلاء بطني بعد ذلك العشاء الدسم على نوم لا أعكر صفوه قرصات الجوع أو زحمة الأفكار.

خرجت من الخيمة فلم أجد سوى بضعة حراس من رجال القافلة وكلبين يمرحان في كثيب من الرمل في سعادة، وكأنما علما أن الوقت وقت لهو قبل أن يبدأ الشقاء، طارت فراشة ملونة الأجنحة أمام وجهي فأفزعتني، ثم حطت على الأرض أمامي في سكون وطمأنينة، جثوت على ركبتي أتطلع إلى ألوانها المبهرة وتعجبت كيف جاءت هذه الفراشة إلى الصحراء، حركت جناحيها في الهواء وكأنها تستعد للانطلاق ثم طارت متأرجحة في الهواء واختفت بين الخيام.

تجولت في النزل الساكن إلا من أصوات البعير ونباح الكلبين، وقد شرد خيالي في ذكريات نزلنا المفقود! جلبت الذكريات إلى قلبي وجدًا وحنينًا إلى أمي، ووخزتني بشوكة الندم في صدري، فتنهدت تنهيدة زفرت معها همومي الجاثمة على صدري، لفتت زفرتي انتباه أحد الحراس فنظر إليّ، توجهت نحوه ثم سألته:

ـ أين ذهب الجميع؟

أشار إلى كثيب الرمل وقال:

ـ ذهبوا خلف التل! فقد عثر الأدلة على بئر، غار ماؤها، فخرج الرجال لإعادة حفرها وبنائها.

تعجبت مما قال! فما الذي يدفع قوم رحالة إلى حفر بئر في موضع لن تطول إقامتهم به سوى بضعة أيام، ترددت ما بين العودة إلى الخيمة أو السير إلى ما وراء التل لألحق بالرجال، كدت أحسم أمري وأسير إلى جهة التل لولا أن سمعت صوتًا أنثويًا يأتي من داخل إحدى الخيام يصيح على طفلة خرجت مهرولة من باب الخيمة ويقول:

ـ عودي يا (نسا)!

كانت الطفلة حديثة عهد بالجري، تعدو بخطى مهرولة تحوي في سعادة كخرقة تتدحرج على الأرض، كادت أن تصطدم بي فالتقفتها بيدي قبل أن تعثر وحملتها إلى صدري، خرجت صاحبة الصوت فوجدتها هي (أروى)!

لم تتوقع أن ترى ضيف النزل في تلك اللحظة فارتبكت، كانت في رداء نومها مكشوفة الجيد والرأس، يتدلى شعرها الفاحم على كتفيها وتتراص خصلات شعرها فوق جبهتها في نعومة وكأنها غُرّة مهرة بديعة، خشع بصرُها خجلًا حينما اصطدم بنظراتي وتخضبت وجنتاها بحمرة زادتها ملاحة.

مدّت يدها كي تلتقط الطفلة فناولتها إياها، تلامست الأنامل فقدحت شرارة لهب شعرتُ حرارتها في يدي، وهمَسَتْ بكلمة «شكرًا» فأخمد صوتها ذلك اللهيب.

دخلت خيمتها، فوقفتُ وحدي بائسًا بائتنا اللحظات!

لماذا لم أتكلم؟!

لماذا لم أسألها «كيف حالك»؟ أو «هل أنت (أروى)»؟

كيف أمهلني حضورُها حتى عن الرد على شكرها بكلمة «عفوًا»؟!

انتزعت أقدامي من موضعها وسرتُ في اتجاه التل، درتُ حول كثيب الرمال فرأيت ظلال الرجال تمتد على رمال الصحراء وهم مُلتفين حول البئر وتتعالى صيحاتهم في همة، على مقربة منهم جلس الشيخ (عابر) على صخرة مسطحة وتحت قدميه جلس ولده الأكبر (ثابت).

لم تمض لحظات حتى هلّل الرجال وكبّروا حينما اندفع الماء من البئر، وأخذ بعضهم في دعم جدران البئر بالحجارة حتى لا يغور الماء في الرمال.

ابتسم الشيخ (عابر الجرامي) وقال:

- طهور الماء يا عطعط.

فلّت يده وجلست على الأرض إلى جوار الشيخ (ثابت)، ملأ الرجال العديد من الجرار والقرب. وكشف بعضهم عن صدورهم وأخذوا يصبون الماء فوق رؤوس بعضهم البعض، سألته:

- لِمَ البئر إذا كنتم راحلين؟!

قال باسمًا:

- للماء والطهارة شأن عظيم في ديننا يا بني، جعل الله به كل شيء حي، نتطهر به في يوم مولدنا وفي يوم اختتاننا، كما نتطهر به عند كل صلاة.

ثم تركني وقام فاغتسل هو الآخر ثم وقفوا جميعًا للصلاة.

والحقيقة أنني لم أشعر برغبة في أن أشاركهم ما يفعلون ولم يطلب مني الشيخ ذلك، فاكتفيت بالجلوس على الصخرة، أرقبهم وهم يتلون التسابيح والصلوات، وكان أكثر ما يبتهلون ويستفتحون به صلاتهم هو اسم الله «الحي»، عجبتُ هذا الاسم الذي ينادون به الرب! والذي لم أسمعه في شريعتنا من قبل! لماذا يصفونه بما هو معلوم عنه ولا حاجة لإثباته؟

فرغوا من الصلاة، فحمل الرجال الجرار والقرب وشاركتهم حملها ثم عدنا إلى النزل، استقبلتنا النساء والجواري لتناول الجرار ووضعها في الخيام، فرأيتها مرة أخرى، لكنها لم تكن مفاجأة لي كسابقتها، فقد كانت عيني تبحث

عنها من بين النساء، وحين التقى ناظرانا، أحسست أنها كانت تبحث عني أنا أيضًا! في هذه المرة أمعنت النظر إليها أكثر! حملت عن أبيها الشيخ (نابت) قربة الماء، ثم استدارت بها إلى خيمتها، عادت مرة أخرى واتجهت نحوي، ودون أن تنظر إليّ مدّت يدها كي تحمل عني القربة، ناولتها إياها فعادت بها إلى الخيمة وقلبي يخفق اضطرابًا، لا شك أن الفتاة التي رأيتها في تلك اللحظة لم تعد هي الطفلة (أروى) التي عرفتها منذ سنوات، لقد تفتحت براعمها، وأزهر بنفسجها، وفاح منها رحيق بكر، كنت أتنفس كلما اقتربت مني فيشتعل قلبي اضطرابًا.

وحين رأيت الطفلة التي كانت تهرول خلفها في الصباح تتقدم نحو إحدى النساء، شعرت بالراحة وكأنما لسعتني فكرة أنها ليست ابنته. استقر الرجال داخل الخيام فخلت ساحة النزل إلا من الخاطر مرة الأخرى. علمت فيما بعد أنها ساعة القيلولة التي يأوون فيها إلى فراشهم وهي عادة قد ألفوها حتى تساعدهم على السهر مساء في جلسات السمر. دخلت خيمتي فوجدت صحنًا به رغيف خبز وقطعة من الجبن، هكذا كان غداؤهم، أما العشاء فكان دائمًا ما يكون لحمًا أو ثريدًا، قضيت تلك الساعة في تدوين ما مر بي خلال الأيام السابقة، وقلبي معلق بين أمرين هل أغادر هؤلاء القوم عند رحيلهم وأبدأ رحلتي وحدي حتى أجد قومي، أم أظل معهم حتى يقضي الرب أمرًا كان مفعولًا.

عند الزوال استيقظ الناس من قيلولتهم وخرجوا من خيامهم، يتقطر الماء من مرافقهم وجباههم! وقفوا فرادى على مسافات متباعدة مستقبلين الشمال، يتلون بعض التسابيح مثلما فعلوا في الصباح، لا يتقدمهم كاهن ولا يشعلون بخورًا ولا زيتًا، فقط يقفون في خشوع مطأطئي الرءوس حفاة الأقدام يرفع الواحد منهم كفّيه أمام وجهه ويمجّد خالقه في خفوت.

استوقفتني المفارقة بين صلاتهم البسيطة المتكررة، الأشبه بالدعاء، وصلاتنا التي تقام في قداس بحضور جميع من في النزل تفوح منه رائحة البخور وينتهي بقربان يُقدّم على مذبح الرب، تردد في عقلي سؤال، إذا كان ربُّنا وربهم إلهًا

واحدًا، فلماذا أمر كل فريق منا بالاتصال به من طريق مختلف؟

فرغوا من صلاتهم أو دعائهم، ثم بدأ شباب القبيلة بتجهيز ساحة إلى جوار النزل، استغرق إعدادها عدة ساعات حتى أوشكت الشمس على المغيب، مكثت أرقبهم وهم يقومون بعملهم في مهارة وكأنهم قد مارسوه من قبل عشرات المرات، مهدوا أرض الساحة بالفئوس ورسموا لها حدودًا بقطع من الحجارة، ثم أقاموا عريشًا في مواجهتها صنعوا له سقفًا من جريد النخل والكتان، قال لي الشيخ «ثامر» حين رآني أنظر إليهم وهم يعملون في جد:

ـ إنهم يعدون الساحة للسمر.

ثم ضحك قائلًا:

ـ تلك حياة البدو؛ ترحُّل وحطٌّ في الصباح وسمر في المساء.

وحدثني أطول في جد لا يلائم نبرة حديثه الطازج:

ـ عشت حياتي كلها في الصحراء ولم أعرف من حياة البدو سوى قسوة الصحراء!

قال:

ـ وما لكم وحياة البدو يا فتى! لقد عاش نحو يقترب من مئات السنين في كنف أهل مصر يرتوون بنيلها ويستظلون بأشجارها حتى سكنت قلوبهم!

استوقفني تعبيره فرددته مستوضحًا:

ـ سكنت قلوبهم؟!

أومأ برأسه وقال:

ـ نعم! اطمأنوا إلى النعيم والهدوء!

ثم استطرد موضحًا:

ـ أتدري يا بني! إن الحياة في الصحراء هي الفطرة، فالأصل في الحياة هو الحركة والتنقل من مكان إلى مكان، وحينما يكثر المرء من الترحال لا يتعلق

قلبه بشيء، ويدرك أن الحياة في ذاتها رحلة تنتهي، لتبدأ رحلة أخرى في مكان آخر، أما السكون فهو أصل الموت، ولا ينبغي للمرء أن يسكن إلا للراحة بين رحلتين!

أدركت المغزى من كلامه فقلت:

- إذن فقد ماتت قلوب بني إسرائيل بسكونها في بر مصر، وحق عليها أنها تعود لفطرتها في الصحراء.

وافق على كلامي بنظرة عينيه، فسألت في مرارة:

- وهذا كتب الرب عليهم التيه؟!

لم يجب، ولعله خشي أن يحزنني، فقلت معارضًا:

- الأمر بعيد يا سيدي! فشتان بين العيش في الصحراء والتيه في الصحراء! أتدري ما التيه يا شيخ (نابت)؟! إنه الحياة على أمل كاذب، أن تشعر بأنك كلما اقتربت ابتعدت، وكلما دنوت نأيت، أن يحدوك الأمل ثم تتجرع خيبته مرات ومرات، ذاك هو التيه وتلك هي مرارته يا شيخ (نابت).

ربت على كتفي وقال:

- أشعر بحزنك يا غلام ولكن لا تحزن فإن قدر الله كله خير، ولعل الله يكتب لك لقاء الأهل في يوم من الأيام ثم قال مشجعًا

- هيا يا (شمعون)، اذهب وتهيأ للمساء، فهذا أوان وقت السمر، ولعل الليلة تنسيك بعض ما مر بك من أحزان.

والحق أن حديث الشيخ (نابت) رغم مرارته، قد جعلني أشعر نحوه بمشاعر وقد ذكرتني بمشاعري نحو أبي.

• • •

الورقة السادسة والعشرون

كانت ليلة لا تنسى، أدركت فيها جانبًا آخر من حياة هؤلاء القوم لم يتضح لي حين عشنا معهم قرابة الشهرين في زيارة قبل ذلك بسنوات، فعلى الرغم من طول مكثنا بينهم، فإن أبي كان حريصًا على ألا نختلط بهم في صلاة أو طعام أو سمر، ولعله كان يحتفظ في فساد عقيدتهم ومذهبهم، ففضل أن نقضي أوقاتنا كلها في خيمتنا التي اختارها بعيدة عن ساحة النزل تحقيقًا لغرضه.

كان أهل القبيلة كلهم قد خرجوا للساحة من أجل السمر، جلس الشيخ (عايد) في الصف الأول تحت المظلة التي صنعها الشباب من جريد النخل والكتان، بجانبه ولداه الشيخان (ثابت) و(دومة)، ثم شيوخ القبيلة ورجالها، أما النساء فقد جلسن في الصفوف الخلفية ومعهن فتيات القبيلة.

وفي الجهة المقابلة جلس الشُّبان يرتدي الواحد منهم زيًّا كاملًا كأزياء الفرسان، يتكون من إزار أبيض وسروال واسع، يحيطه نطاق عريض يصل إلى أسفل الصدر ويتدلى من النطاق سيفٌ لامع يصل نصله إلى طرف الركبة، وعن يمين الساحة جلس حاملو الدفوف من الرجال والعبيد، أما جهة اليسار فقد جلست الجاريات المثقفات ويضم فتيات أخريات يحملن النايات والمزامير والطنابير، ولقد ذكرني مرأى الناي بأمي (رومانا) كما أثارت نغماته ذاكرتي وشجوني وأحزاني، أما خارج الساحة فقد كان الطهاة يعكفون على شواء عدد لا بأس من الخراف والشياة حتى امتلأت سماء النزل بسحابة حُبلى برائحة

اللحم، أمطرت في جوفنا لعابًا سال شوقًا إلى تذوق ما يطهون!

بدأت الليلة بمبارزة بين شابين، أظهر فيها كل شاب مهارته في التلويح بالسيف ورشاقته في تفادي الطعن والضرب، ووددت في تلك اللحظة لو قمت فشاركتهما المبارزة، علمت فيما بعد أن أحد الشابين هو (عمرو بن ذرمة) ابن عم (أروى)، أما الآخر فهو (ليث بن ثابت) شقيقها الأصغر، ثم قامت مبارزة أخرى بين شابين آخرين في الشعر والقوافي، لم أفهم منها سوى القليل، فقد كانت بلهجة البدو التي لم أكن أتقنها، ثم قام الشباب بالرقص بالسيوف على دقات الطبول وأنغام المزمار، الطنبور، والتي أضفت على رقصهم حماسًا جعل الجميع يتمايل مع ألحانها.

وقامت بالغناء إحدى الجواري حتى أطربت الجالسين بصوتها العذب، وتركتني في حالة من الشجن رغم تعثر فهمي لبعض الكلمات في غنائها، وبعد أن فرغت من الغناء عمّ الصمت لحظات، وبدأت حركة الطهاة في التزايد وبدا أن مأدبة الطعام ستمتد، وأن الشيخ سيدعو الناس للطعام، ولكن الشيخ قال وهو ينظر إلى صفوف النساء التي تجلس خلفنا:

- أين أنت يا (أروى)؟ ألن تسمعينا عزفًا على الناي الليلة؟!

هدأت حركة الطهاة بعد كلمات الشيخ، أوصلت إحدى الجواري نايًا إلى صف النساء الخلفية، وصمت الجميع في انتظار عزف حفيدة الشيخ المدللة.

يا الله! أي همس همست به تلك الفتاة في طرف الناي، حتى يخرج من طرفه الآخر تلك النغمات الساحرة التي حملتنا إلى عوالم النشوة ثم هبطت بنا في بحور الشجن، لم أكن جاهلًا بالمعازف والألحان فقد ألفتها أذني منذ أن كنت رضيعًا، ولكن هذه الألحان ليست كالألحان! وشتان بين نغمات (أروى) المفعمة بالحياة ونغمات أمي الجنائزية التي تعلمتها في معابد مصر!

انتهى السمر وقام الطهاة بتوزيع اللحم والثريد، فأكل أهل القبيلة حتى شبعوا! ثم انسل كل رجل مع أسرته إلى خيمته، وقمت متجهًا إلى خيمتي بعد

أن شكرت الشيخ (عابر) ووالديه (ثابت) و(دومة).

في تلك الليلة لم أهنأ بنوم، ظل عقلي متقداً بالفكر طيلة الليل، تتلاعب به أراجيح الأسئلة التي لا تنتهي ولا تستقر على إجابة واحدة.

شمعون!

ويحك يا (شمعون)!

ما الذي فعلته بنفسك وبأمك أيها التعس؟!

لماذا لم ترض بما قسمه الرب لك؟

ها قد فررت من البيت وأنت في جوار نبي مرسل، وغضب الرب عليك الذي وحملك بعيداً عن نبيك وقومك وأمك؟

أمي؟!

كيف حالك يا أمي؟!

ظني أني قد كسرت ظهرك بعد أن كسر أبي قلبك بموته!

أشتاق إلى ضمة من صدرك ودمعة أذرفها بين يديك وأن تسامحيني!

قد خذلتك وخذلت أبي.

أبي؟!

أشعر بالخزي أمامك!

أعلم أنك مطّلعٌ عليّ!

وددت أن أحقق حلمك ولكني أضعت كل شيء!

اغفر لي واذكرني عند ربك واشفع لي عنده!

ربي؟!

هل طردتني من رحمتك؟

أنا أؤمنُ بك وأعلم أنك عظيم وقادر ولكني أخشاك!

أخشى عذابك وغضبك وأعجز عن فهم حكمتك!

أخشى أن تهلكني كما أهلكت أبي بذنوب بني إسرائيل.

لماذا لم تتجل على أبي برحمتك كما تجليت على الشيخ (عابر) وقومه؟!

الشيخ (عابر)؟!

عجبًا لأقداري معك أيها الشيخ!

هل أرسلك الله نجاة لي، أم فتنةً لي وإمعانًا في الذنب؟

إن كان الرب راضيًا عن قومك، فلماذا أرسل نبيه إلى بني يعقوب ولم يرسله إلى بني (إسماعيل)؟

ألكون الحقيقة كما تحاول أن توحي إلي؟

أن الرب يرسل الأنبياء إلى العصاة من عبيده وليس الصالحين!

أصدقك القول أيها الشيخ، إنما أمقت تلك الحيرة التي قذفتني إليها، أمقتها رغم امتناني لك وسعادتي برؤية (أروى)!

أروى؟!

وحين وطأت بطيفها عقلي، هدأت أرجوحة الفكر في رأسي، وطغى صوت نايها على جلبة نفسي فسكنت للتو واللحظة، وتنسمت أنفي رحيقها فسرى حنينًا في أطرافي وغفوت حالمًا حتى الصباح.

* * *

مر اليومان التاليان وأنا ما زلت على حيرتي بين ترك القبيلة والسفر وحدي في طريق مجهول، أو البقاء معهم والبعد عن برية سين لسنوات، وفي اليوم الثالث دعاني الشيخ (عابر) إلى خيمته في وقت القيلولة وكان الناس قد سكنوا في رحالهم.

دخلت إلى الخيمة المعطرة برائحة الصندل، فاستقبلتني فراشة كالتي رأيتها من قبل، دارت الفراشةُ دورة في الهواء ثم وقفت على عمود الخيمة. تضم

جناحيها وتبسطهما في هدوء، ووجدت الشيخ جالسًا على الأرض يمدد ساقيه وقد وضع على فخذيه صندوقًا من الخشب ينظر إليه مبتسمًا وفي يده وريقات صغيرة من الشجر، يحركها بين أصابعه ثم يلقيها داخل الصندوق.

ألقيت عليه التحية، فرد عليها مبتسمًا ثم قال:

- تعال يا (شمعون)! اجلس.

جلست إلى جواره فقال لي وهو يشير إلى الصندوق:

- انظر!

نظرت فرأيت فراشات مختلفةً ألوانها، تقف على جدار الصندوق من الداخل، وفي قاعه بضعةُ أعواد من الشجر تتسلقها يرقات صغيرة كالديدان، يقضم بعضها وريقات الشجر التي يلقيها إليهم الشيخ (عامر). شعرت بالغثيان لمرأى اليرقات، فصرفت نظري عنهن وأشرت إلى الفراشات وقلت للشيخ (عامر):

- رأيت إحداهن منذ أيام وتعجبت لوجودها في الصحراء، لم أكن أعلم أنك تطعمهن على تلك الديدان!

ضحك وقال:

- أنا لا أطعم الفراشات بل أطعم الديدان!

بان العجب على وجهي، فقال:

- إن هذه الدودة المقززة التي تنفر منها يا فتى هي نفسها تلك الفراشة الساحرة التي يعجبك حُسنها!

فغرت فاهي دهشةً، فتابع:

- أهداني تاجر حرير من الشام تلك اليرقات منذ أشهر، ومن يومها وأنا أتأمل حياتها وأرى فيها آيةً لحياة الإنسان وموته وبعثه!

سحرني حديثه، كعادته حينما يتكلم، فتابع قائلًا:

- انظر إلى هذه الدودة، التي تقضم وريقات الشجر كمخلوق أرضي فانٍ في أحقر صورة من صور الحياة، إن هذه اليرقة سوف تتوقف عن الطعام بعد أسابيع وستشرع في بناء بيت حولها من خيوط الحرير، كهذه اليرقة التي تراها هناك! وحين يكتمل البناء تموت اليرقة ويختفي جسدها داخل شرنقة صلدة كتلك الشرنقة (وأشار إلى أحداهن) وستظل اليرقة بداخلها روحٌ بلا جسد، ثم تبعث الروح فيها مرة أخرى كي تصير فراشة تحلق في الفضاء في أبهى صورة من صور الحياة، أرأيت؟ ألا يشبه ذلك حياة الإنسان، حياة فانية أرضية ثم حياة برزخية فيها روحٌ بلا جسد ثم حياة أخرى بالروح والجسد في أبهى صورة وأسماها بجوار الرحمن!

شعرت برعشة في جسدي وغمرتني كلمات الشيخ بسكينة لم أشعر بمثلها من قبل، وشعرت أنه قد أجاب بكلمات بسيطة عن عشرات الأسئلة التي راودتني منذ وفاة أبي.

رددْت كلماته في شرود:

- حياة برزخية يعيش الإنسان فيها روحًا بلا جسد! أهذه هي الحياة التي يحياها أبي؟

أومأ برأسه وقال:

- ويحياها كل من مات منذ أبينا آدم.

ظللت في شرودي، فاحترم الرجل صمتي، ووضع الصندوق جانبًا في هدوء ثم ثنى ركبتيه وجلس متربعًا وهو ينظر إليّ في عطف، قلت بعد فترة من الصمت:

- أتدري يا شيخ (عابر)، في كل مرة أتحدث فيها إليك، أجد عندك إجابات لأسئلة تدور في رأسي تؤرق حياتي وأخشى البوح بها أمام أحد، لم يتكلمْ بُرهة قبل أن أقول:

- أرجو منك المعذرة يا سيدي!

تقاطع حاجباه الأبيضان في دهشة وقال:

- المعذرة على ماذا يا بني؟

قلت في كلمات يعقلها التردد:

- قد خطر لعقلي في يوم من الأيام أن عقيدتكم فاسدة، وأن الله قد فضلكم عليكم بأن جعل في بني إسرائيل أنبياء ورسلًا، فجعل فيهم (يعقوب) و(يوسف) وأرسل إليهم (موسى) و(هارون)، ولكنني الآن أنظر إلى الأمور بعين أخرى، فما كثرة الأنبياء إلا دليل على سوء الطبع

ابتسم ثم قال:

- الأنبياء رحمة الشعوب بهم إذا ما نحو صمهم، ورحمة عليهم إذا ما عصوهم، فهم مبشرون ومنذرون.

ثم صمت قليلًا قبل أن يقول:

- قل لي يا (شمعون)، علام استقر عزمك؟

قلت في حيرة:

- لا أدري.

قال ليزيد من حيرتي:

- غدًا سنرحل إلى إدوم! فهل سترافقنا؟

التزمت الصمت لبرهة قبل أن أقول في صدق:

- حقيقة لا أدري يا شيخ (عابر)! أشعر بالألفة بينكم، وأتمنى لو رافقتكم، ولكني أخشى الابتعاد عن برية سين أكثر من ذلك

صمت قليلًا ثم قال:

- وهل تضمن العثور على قومك إذا عدت وحدك؟

تنهدت ثم قلت:

ـ هذا ما أخشاه، كما أني ...

صمتُّ ولم أكمل، فسألني:

ـ كما أنك ماذا؟

قلت:

ـ كما أني أشعر بأني مطرود من رحمة ربي لمعصيتي، وأخشى العودة إلى نزلك فينالني العقاب.

قال في إشفاق ويقين:

ـ لا تقل هذا يا (شمعون)، لا يطرد الرب عبيده من رحمته حتى وإن عصوه!

ابتسمت في بؤس وأنا أقول:

ـ من رأى خيرَ مَن صنع يا سيدي الشيخ!

سكت قليلًا، ثم أطرق مفكرًا قبل أن يقول:

ـ اسمع يا (شمعون)، هناك قافلة تخرج من بكة إلى كنعان في كل عام، لماذا لا ترافقنا إلى بكة حتى يحين موعدها؟ ولننتظر حينها. هل ترغب في العودة معنا إلى رحلة في برية سين، أم الصعود إلى كنعان.

قلت له في فرح:

ـ حقًّا! ومتى هذا؟

قال:

ـ بعد أن ينتهي الحج.

شعرت بطول المدة، وعاودني التردد، وكدت أقول له سأفكر في الأمر، لولا أن دخلت (أروى) في تلك اللحظة ومعها جارية عجوز وهما يحملان طعامًا وقسطًا من الماء، ارتبكت (أروى) حين رأتني، وأطرقت بصرها أرضًا

بينما خفق قلبي في سعادة لرؤيتها الفاتنة، قطع تفكيري صوت الشيخ (عابر) وهو يقول:

- ماذا قلت يا بني؟

فأجبته بغير تردد:

- أوافقكم يا سيدي الشيخ.

ثم قبلت يده وانصرفت.

• • •

الورقة السابعة والعشرون

وصلنا إلى إدوم بعد ثلاث ليال من السير الهادئ الذي لا يعكر صفوه ريحٌ ولا عطش، ولا أظن أن المرء قد يحتاج إلى دليل في الصحراء كي يعرف أنه قد وصل إلى أرض إدوم، فحينما تتحول الحمرة الصفراء في برية سيناء إلى جبال أرجوانية وطبقات تحوطها بحورٌ من الرمال الوردية البديعة المنظر فأنت في أرض إدوم. لم أر في حياتي مثل هذه التشكيلات الجبلية الرائعة التي لوّنها الخالق فأبدع في تصويرها، رغم أني قد مكثت عمري كله في الصحراء. كانت الرمال ناعمة فسارت القافلة في بطء حتى لا تُجهد الدواب في سيرها وكان سيري إلى جوار الشيخ (ثابت) وابن أخيه (عمرو بن دومة)، وساعدنا صفاء الجو وبطء المسير على أن نبدأ هذا الحديث.

قلت:

- ما أبدع هذا الجمال! كيف تتلون الجبال بهذا اللون الأرجواني البديع!

قال ثابت:

- هذا خلق الرحمن يا غلام! رأيت في حياتي جبالاً سوداء، وأخرى حمراء وثالثة بيضاء كالثلج، وكلها من خلق الله.

ثم قال:

- أتدري ما معنى «إدوم»؟ إنها تعني الأرض الحمراء! ويقولون إن آبانا

«عيسو بن إسحق» هو أول من وطئها يقدمه من أبناء (إبراهيم)!

تعجبت مما قال وقلت:

ـ أبونا عيسو؟!

فتابع:

ـ نعم كان عيسو أخًا ليعقوب ثم هاجر إلى تلك الأرض وعاش بين العربان مع زوجته، فلما استقر به المقام هاهنا، تزوج من أمنا (عدة) ابنة أبينا (إسماعيل) وعلى أثر ذلك، هاجر الكثير من ولد (إسماعيل) وعاشوا في تلك الأرض قرونًا!

قلت:

ـ وهل يحكمها بنو (إسماعيل) الآن؟

قال ناثان:

ـ كلا، بل يحكمها ملك من الآدوميين، ولكننا ندخلها مطمئنين مكرّمين فهي أرض أمنا (محلة)!

تحدث (عمرو بن دومة)، وكانت المرة الأولى التي نتحدث فيها معًا، فقال، وكان صوته رخيمًا عميقًا:

ـ كم أتمنى أن أعيش هنا! زرتها منذ ثلاثة أعوام ومازال قلبي متعلقًا بها!

ضحك (ناثان) وقال:

ـ إن (عمرو) يهوى المدن والممالك ويكره الصحراء!

فقال (عمرو):

ـ شتّان يا عماه بين حياة الصحراء وحياة المدن والممالك!

ثم شعرت في صوته نبرة تمرُّد وهو يقول:

ـ هنا يستقر المرء فلا يكون همه شربة ماء أو كسرة خبز.

ثم أشار بيده نحو الأفق وقال لي في حماس:

ـ عما قريب سترى قصورًا وطرقات نُحتت في الجبال! فحين يكف الإنسان

عن الترحال بنحت الصخر وبذلل الأرض فتصير طوعًا لأمره!

تذكرت حديث عمه معي عن حياة الفطرة في الصحراء، فأدركت أن أفكار الفتى وأفكار عمّه لا يلتقيان.

توقفنا عن الحديث عندما لاحت لنا منازل حاضرة الإدوميين التي تسمى «بصرى»، كانت المدينة تقع على ربوة عالية تحيط بها الوديان من كل جانب فبدت كقلعة حصينة تربض في الصحراء، سرنا في الوادي المؤدي إلى مدخل المدينة والذي تتخلله رمال تفتحه وتشكله. كان اسمه سيل هادر في زمن غابر، وقد انعكست عليها أشعة الشمس فبدت في الوادي الأرجوانية كقطع من الشفق تركت مكانها في السماء لتسقط على الأرض، وسحرت ملامحه أعين من كانوا في القافلة فتركت النساء الهوادج وترجل الفرسان عن ظهور الخيل وصار الجميع بعيون شاخصة إلى ذلك الجمال المهيب، ولكن الشيخ (ثابت) قائلًا:

ـ هذا خلق الرحمن! تبارك اسمك يا قدوس!

وقال لي (عمرو بن دومة) حينما رآني أحول بصري مشدوهًا:

ـ أتدري ماذا يطلق أهل أدوم على هذا الوادي؟ لم ينتظر مني الرد، فأنا بالطبع لا أعرف الإجابة! فأردف قائلًا:

ـ يطلقون عليه وادي (قرقور)!

تعجبت من الاسم فقال:

ـ قرقور هو صدى الصوت! اسمع

ثم هتف بصوت عال:

ـ (شمعووووووون)!

رددت جنبات الوادي الاسم عدة مرات فشعرت بالحرج بينما تعالت ضحكات الجميع، وقبل أن يذهب صدى الصوت هتف (ليث بن ثابت) شقيق (أروى) الأصغر وقال:

ـ (ليث) (ليث) (ليث)!

فاقترحت الأحرف الأخيرة من اسمي بأحرف اسمه الأول وضحك الجميع واتخذها الشباب لعبة فظل كل واحد منهم ينادي على اسم صاحبه حتى ضجّ الوادي بأصوات مختلطة لم نميز الأسماء فيها من الضحكات

وأراد الشيخ (ثابت) أن يكفّهم عن الضوضاء، فهتف بصوت عالٍ:

- الله.

فخشعت الأصوات للفظ المهيب، وصمت الجميع وسار الركب في هدوء إلا من همس الأنفاس المسبحة بديع صنع الله.

حطت القافلة خارج أسوار المدينة، فقد كان هناك منزل مُعَدٌّ للقوافل تحط فيه الشرق، ولا يسمح بدخول العير إلى شوارع المدينة التي رصفت بالحجارة، عقلنا الجمال والعير، وذهب الشيخ (عابر) ومعه ولداه (ثابت) و(دومة) وتحدثوا إلى الحرّاس، لم يمض وقت طويل حتى سمعنا صوتًا يهلل لمقدم الشيخ (عابر)، كان صاحب الصوت رجلًا طويلًا أحمر الوجه، يرتدي جلبابًا مزركشًا، فوقه عباءة حمراء، تُزيّن أصابعه الطويلة خواتم عدة ويزيّن صدره قلادة ضخمة من الفضة، علمت فيما بعد أن اسمه (شهبور) وأنه أحد كبار التجار بدومة، وعلمت أيضًا أن الرجل تربطه علاقة وطيدة بالشيخ (عابر) لم أدر ما نوعها، فُتحت لنا الأبواب، وجاء بعض الغلمان التابعين للتاجر (شهبور) يجرّون عربات خشبية، فوضعوا أمتعتنا وبضاعتنا وجرّوها إلى داخل الأسوار، أدهشني جمال المدينة! فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تطأ فيها قدمي حاضرة إحدى الممالك، الشوارع متسعة ومرصوفة بحجارة تساوت أطرافها بدقة فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا! وعلى جانبي الطريق تعاظمت أشجار الزيتون والعرعر حتى أحالت الطريق إلى حديقة غنّاء.

وصلنا إلى حيّ في الجنوب يقال له حي «الزُّغَر»، وعلمت فيما بعد أن «الزُّغر» هذه هي ابنة أبينا (لوط) عليه السلام كما يدّعي أهل الحي ويفتخرون بذلك! فهم يقولون إنها قد سكنت هذا الحي بعد أن تركت «سدوم» مع أبيها قبل أن يهلك الله قوم لوط، كان الحي قديمًا إذا قورن بالأحياء الجديدة التي تقع إلى

الشمال من المدينة والتي تجاور قصر الحاكم، ورغم ذلك كان هذا الحي هو أكثر الأحياء ازدحامًا وحركة وتجارة، ففي منتصفه يقع سوق «بصرى» وهي كبرى أسواق إدوم وأعظمها؛ إليها يفد التجار من كل حدب وصوب، يبيعون فيها تجارتهم أو يقايضونها بغيرها، تتراص الحوانيت فيها الواحد تلو الآخر وأمام كل حانوت وُضعت بضائع من أصناف شتى، هنا يباع الحرير، والأواني النحاسية، والبهارات، وهناك تباع الحبوب والعطور، والفخار الإدومي المميز، أما أشد ما جذب نظري فكان ساحة العبيد والجواري التي شهدت زحامًا فاق كل صراصت السوق، ورأيت لأول مرة كيف يباع الإنسان ويشترى، وشعرت بالغثيان حين رأيت رجلاً يتحسس جسد جارية يروم شراءها، فظل يقلبها بين يديه وكأنها شاة يوشك على ذبحها، والعجيب أن الفتاة استسلمت له في خنوع الشاة التي لا حول لها ولا قوة.

تجاوزنا السوق بضجيجها وصخبها، ووصلنا إلى منازل أقيمت على طرف الحي، بُنيت كلها من طابق واحد من الحجر علمنا أن اسمها «نزل التجار»، وهي بمثابة بيوت يقيم بها المغتربون من التجار، كل بيت منها يتوسطه فناء واسع تفتح عليه غرف صغيرة مربعة الشكل لها باب قصير من الخشب ينحني الداخل منه حتى لا يرتطم رأسه بعتبته، ويعلو جدار الغرفة المقابل للباب كوة صغيرة يدخل منها النور والهواء، كانت الغرفة لا تسع إلا لشخص واحد، وقد فُرشت أرضها بحصير لين، وعُلق على يمين الداخل من بابها قنديل من الزيت، التصق دخانه الأسود بالحائط.

تركنا التاجر «شهبور» للراحة بعد أن قام غلمانه بتخزين بضاعتنا في مخازن النزل، ووعدنا بأن يعود في الصباح لعرض البضائع في الحوانيت، ووزّع الناس على الغرف، فدخلت غرفتي وأغلقت الباب ثم وضعت أمتعتي القليلة على الأرض وألقيت بظهري على الحصير اللين متوسدًا يديّ اللتين اشتبكتا أسفل رأسي.

ظللت أحدق في شعاع النور الذي نفذ من كوة الحائط بينما تعلقت الأفكار في

سرعة إلى رأسي وكأنما انفرجت بها كوة أخرى. كان عقلي لا يزال غير مصدق أني تركت أهلي وبيتي في برية سير وجئت مع قوم آخرين إلى تلكم الأرض. وكلما أمعنت في التفكير اضطربت أنفاسي. وألح عليّ وجه أمي (رومانا) أكثر. أدرت وجهي نحو الحائط فرأيت وجهها مرسوم عليه. مددت يدي نحو صفحته وأنا أقول لها سامحيني لأني فطرت قلبك وتركتك وحيدة فاختفت صورتها من أمامي. شعرت بضيق في صدري، فقمت من رقدتي وجلست أتلقف الهواء. تمنيت أن أبكي ولكني أمسكت عن ذلك وبدلاً من ذلك وجدتني ألهج في رجاء وبصوت متقطع قدوس رحيم، قدوس رحيم، لا أذكر كم مرة قلتها ولكني قلتها عشرات المرات إلى أن استكانت نفسي وهدأ اضطرابي، فألقيت بجسدي المتعب من السهر والانفعال على الأرض، ورحت في سبات عميق.

لم أدر كم مر من الوقت وأنا نائم ولكني استيقظت على جلبة شديدة أمام المنزل وسمعت صرخة وانهمرت فيها صوت (أروى).

* * *

الورقة الثامنة والعشرون

وصلت إلى الساحة المقابلة للمنزل بصعوبة فقد كان الممر مكتظًا برجال القافلة ونسائها وآخرين من قوافل أخرى جاءوا ليشاهدوا سبب الجلبة والعراك، وحين وصلت إليها وجدت جنودًا من الفرس يقفون حاجزًا بين الناس وبين مجموعة أخرى من الفرسان يمتطي أحدهم فرسًا يدور به في توتر ويتكلم في غضب إلى الشيخ (ثابت) بلغة ميزت فيها كلمات من السريانية، والتي تشبه لغتنا كثيرًا، هالني أن أرى (عمرو بن دومة) ملقى على الأرض، يمسك ركبتيه في ألم ويحيط به ثلة من الجند استلوا سيوفهم ووجهوا نصالها إلى صدره وكأنما ينتظرون أمرًا من أميرهم الغاضب كي يفتكوا به، كان الأمير يتحدث بغضب شديد إلى الشيخ (ثابت) وكلما حاول الشيخ أن يتحدث إليه أو يتقدم نحوه كي يفهمه أنهم قوم مسالمون، يدفعه الحراس في صدره كي يحافظوا على المسافة بينه وبين فارسهم، أدركت أن الأمير الغاضب لا يفهم كلام الشيخ (ثابت)، فهتفت بلغته وبصوت عالٍ:

- إنهم قوم مسالمون.

صمت الجميع واستدار الفارس نحوي، سار بضع خطوات بفرسه، ثم قال بلهجته الغاضبة:

- لماذا يتجمعون أمام الساحة؟ ولماذا لم يستجيبوا لنداء الجند بالامتناع عن التجمع بعد انتهاء السوق.

سألت الشيخ (نابت) عن سؤاله فأجاب:

- كنا نتلو صلاتنا ونتعبد، وهتف علينا الحراس قبل أن نفرغ منها، وحين اقترب مني بفرسه، دفعه (عمرو) خشية أن يطألني فظن أنه يريد الاعتداء عليه فهجم عليه الحراس وطرحوه أرضًا.

أدركت خطورة الموقف الذي فيه (عمرو)، فتحسست كلماتي وأنا أقول:

- إنهم قوم مسالمون، كانوا يتعبدون ولم يسمعوا النداء، وحين اقترب الفرس منهم فزعوا ودفعوه بعيدًا حتى لا يؤذيهم.

لمعت عين الفارس بشدة، وكأنما وقع على صيد ثمين، وقال:

- يتعبدون؟! من الإله الذي يعبدون؟

قلت وأنا أزدرد ريقي في خوف:

- إنهم من برية سيناء وهم يعبدون الله!

اتسعت حدقتاه ثم ابتسم ابتسامة لم يطمئن لها قلبي وقال وهو يستدير بفرسه في حلقة وكأنه يريد أن يُسمع الجميع ما سيقوله:

- لقد خالف هؤلاء الناس قانون مملكة إدوم، فقد أقاموا تجمعًا دون إذن بعد انتهاء السوق، ومارسوا علنًا عبادة غير عبادة آلهة الأدوميين، وحاولوا الاعتداء على حراس المملكة، فعلى هذا وباسم مولانا الملك العظيم (هدد بن بدد) نأمر بالقبض عليهم وعرضهم على صاحب الشرطة.

ثم هتف في جلبة:

- يا حراس! احضروا هذا وهذا! وأشار إلى الشيخ (نابت) وإلى (عمرو بن دومة).

وقبل أن يتحرك التفت نحوي وأشار قائلًا:

- وأحضروا هذا أيضًا!

* * *

ارتج باب المحبس بقوة بعد أن صفقه الحارس خلفنا، ثم أحكم إقفاله جيدًا قبل أن يتركنا ويصعد الدرج المؤدي إلى السجن. كان المحبس أشبه بقبو صغير يغرق في ظلام دامس إلا من شعاع ضوء يتسلل إليه من المشعل المعلق على الحائط المواجه لبابه. كانت الرائحة النتنة تكاد تزهق أنفاسنا وزاد من تأثيرها رطوبة الجو الخانق بها. أسندت ذراع عمرو على كتفي بينما تحسست طريقي بملامسة الجدران ثم عاونته في الجلوس وهو يتأوه من الحركة التي بدا بها جرح غائر أعجزه عن الوقوف عليها. جلس الشيخ (ثابت) في ركن الحجرة، فجلست القرفصاء إلى جواره وقد خيم علينا السكون إلا من تمتمات خافتة يقولها الشيخ، ميزت فيها كلمة يا لطيف. كنت لا أزال مذهولًا من تطور الأحداث، فكيف انقلبت الأمور لتنتهي رحلتنا الأولى في هذه المملكة، تلك النهاية البائسة؟

قطع ذهولي تألم عمرو من جرح ركبته، فقطعت خرقة من طرف ثوبي وضمدت له جرحه، كما علمتني أمي في صغري. تأوه بشدة أثناء تحريكي له وكان مع كل صرخة يعلو صوت الشيخ وهو يقول:

- يا قدوس... يا لطيف... يا رحيم

هدأت آلامه قليلًا، فسكت عن الصراخ وأسند رأسه على الحائط وهو يتصبب عرقًا، مسح عرقه ثم قال ساخرًا:

- في الصباح تمنيت لو أقضي حياتي كلها هنا! ولكني لم أتمنَّ أن أقضيها سجينًا!

ابتسمت رغمًا عني وقلت:

- ألم يقل لنا عمك (ثابت) إن حياة المهالك تميت القلب! يبدو أنها تميت الأنفس أيضًا.

قال وأنفاسه تلهج:

- لوهلة ظننت أن الحراس سوف تغرز نصالها في صدري!

ثم ابتسم في صعوبة وقال:

- لولاك لكنت قتيلًا!

قلت:

- لم أفعل شيئًا، ثم أردفت متعجبًا:

- يبدو لي أنهم ليسوا من أهل البلد!

هز رأسه مؤيدًا وكأنما لاحظ هو أيضًا تلك الملاحظة، وجاءنا صوت الشيخ (ثابت) من خلفنا:

- هؤلاء مرتزقة ليسوا من أهل (دوم)، ولو كانوا من أهلها لعلموا جيدًا مقامًا رفيعًا مثل (إسماعيل)!

ثم أيد (عمرو) كلامه بصوت متقطع من الإعياء:

- نعم، لم نر مثل هؤلاء الجند من قبل!

قال (ثابت) في حسرة:

- يبدو أن (دوم) قد تبدل بها الحال بعد أن تولاها هذا الملك الجديد.

تذكرت الاسم الذي نطقه الحارس فقلت في شرود:

- (هدد بن بدد)! يا له من اسم مثير للرعب وموحي بالدمار!

وانقطع بيننا الكلام، فعاد الشيخ (ثابت) إلى تسبيحه الخافت حتى ظننت أنه سبح في نومه بينما غط (عمرو) في نوم عميق من شدة الإعياء. لم يقطعه سوى حشرجة أنفاسه أو صوت تأوهه بين الفينة والفينة. استلقيت على جانبي لسويعات أفكر في مصير العم الذي ينتظرنا، إلى أن جذبتني غفوة أسلمتني إلى بدايات اليوم التالي.

استيقظنا على جلبة مزلاج الباب والحارس يفتحه، فقمت من نومي مسرعًا ووقفت في منتصف الحجرة، قال الحارس في فظاظة آمرة:

- هيا، إن صاحب الشرطة يستدعيكم إلى حجرته.

قام الشيخ (ثابت) بصعوبة، وعاونت أنا (عمرو) على الوقوف وهو يتأوه.

بشدة، وقد بدا أن جسده قد أصابته حمى جعلته يتصبب عرقًا.

سرنا خلف الحارس ببطء، صعدنا الدرج الصخري العتيق المؤدي إلى حجرة القارس الذي أوقفنا أمس، نظر القارس إلينا نظرة كارهة لا أدري سببًا لها، ثم أشار إلينا بالوقوف في أماكننا، دلف الفارس إلى حجرة أخرى أوسع وأرقى ثم عاد بعد لحظات ليدعونا إلى الدخول، وما أن دخلنا حتى انفرجت أساريرنا جميعًا، فقد وجدنا الشيخ (علي) ومعه التاجر (شهبور) بالحجرة يقفان إلى جوار صاحب الشرطة، فسرع الشيخ (ثابت) فقبل يد، الشيخ (علي) دون أن يحيي صاحب الشرطة احترامًا، مما أثار غيظ الفارس الذي كاد أن يمنعه، لولا أن أشار إليه صاحب الشرطة كي يكف عنه.

قال صاحب الشرطة في لهجة أراد أن يجعلها صارمة، ولكني شعرت في طياتها ببعض العطف:

- لقد دفع لكم التاجر (شهبور) غرامة المخالفات التي قمتم بها، ولكني أرفق بكم أن تعودوا لمثلها!

شكره الشيخ (ثابت)، ثم انصرفنا في فرح يشوبه الكثير من الحيرة والقلق وبعض من الحذر، بعد نصف الساعة، كنا جميعًا في المنزل، استقبلنا أهل المنزل بالفرح والسعادة، ألقت (أروى) بنفسها في حضن أبيها وجثى أخوها الصغير (لبيد) على يده يقبلها، ثم التفت نحوي قائلًا:

- شكرًا يا (شمعون) أنت نعم الأخ والصديق.

احمرّ وجهي خجلًا، وازدادت حمرته حين نظرت إلى (أروى) بامتنان، فتمتمتُ بكلمات غير مفهومة من الاضطراب، وكأني أقول له (عفوًا).

بعد قليل أتى الطبيب الذي دعاه التاجر (شهبور)، فطهر جرح عمرو بمنقوع الحنظل والقرنفل أولًا ثم وضع عليه الثوم المطحون وطلب مني ألا تُفك الضمادة ثلاثة أيام.

وحينما خرج الطبيب أسرَّ إليَّ وإلى الشيخين (ثابت) و(دومة) بحديثه،

ولعله ظن أنني أخو (عمرو) من كثرة ما رأى من اهتمامي. فقال:

- إن الجرح غائر وقد بدأ في التقيّح، وقد تزداد الحمى بعض الشيء، يجب أن يكثر من الراحة وشرب الماء الفاتر، وأكل فصوص الثوم والبصل يومياً، وسأعود إليه بعد ثلاثة أيام لتضميد الجرح.

سأله الشيخ (دومة) في قلق:

- كم من الوقت يحتاج للراحة؟

التقى حاجبا الطبيب في جدية، ثم قال بعد تمهل:

- إن هدأت الحمى فقد يستغرق الجرح الحة أسابيع أو يزيد.

تنهد الشيخ (ثابت) وقال وهو يربت على كتف أخيه:

- لله الأمر. ثم شكر الطبيب، وانصرفنا من الحجرة، ثم نزلنا إلى حجرة الشيخ (عابر) فوجدناه يجلس إلى التاجر (شهبور) الذي توقف عن الحديث فجأة حينما رآنا، سألنا الشيخ (عابر) عن حال (عمرو)، فأخبره الشيخ (دومة) بما قاله الطبيب، تنهد الشيخ (عابر) ثم قال:

- كل قدر الله خير.

أراد التاجر (شهبور) أن ينصرف، ولكن الشيخ (عابر) قال:

- اجلس يا (شهبور) وأكمل ما كنت تقوله عن ملك إدوم.

تردد (شهبور) لحظة ووجدته يمدّ الطرف نحوي، فقال الشيخ (عابر):

- لا تقلق، إن (سمعون) هو ابن من أبنائي.

فاطمأن الرجل وانفرجت أساريره، ثم انطلق يقص علينا ما كان من خبر ملكٍ بدّل أحوال مملكة إدوم وقلبها رأساً على عقب، ملكٌ اسمُه (هدَدْ بن بدد).

* * *

الورقة التاسعة والعشرون

قال (الشهيون):

- كانت أرضنا تنعم بالسلام منذ أن خلقها الله، وكنا نستمع إلى حكايات الأجداد عن القوافل التي كانت تمر عليها من كل حدب وصوب فيتوقفون بها للراحة قبل أن يستأنفوا رحلاتهم إلى مصر غربًا، أو إلى سبأ جنوبًا، أو إلى عيلام شرقًا، لم يدرك أحد أهمية هذه الأرض سوى أبينا (عيسو) الذي فتنته جبال إدوم بجمالها بعد أن غادر كنعان، فاتخذها محلًا للإقامة هو وأبناؤه، واشتغلوا بتوفير سبل الراحة للقوافل المارة بها، وتزوج عيسو من (محلة) ابنة أبينا (إسماعيل) فكثر أبناؤه، وامتزجوا بالقوافل الوافدة إلى أرض إدوم، وتزوجوا من نسائها حتى صارت في إدوم عشرات البطون، يحكمها رجل من أبناء (عيسو)، وكان آخرهم الملك المعظم (هوشام).

كان (هوشام) حين تولى الحكم شابًا طموحًا، وتاجرًا ماهرًا أيضًا، وحين تولى الحكم أراد أن يجعل من إدوم مملكة عظمى، فأقام حاضرتها "بصرى" على غرار حواضر الممالك العظمى فمهّد سبل التجارة بها، وأمّن طرقها ضد العربان وقطاع الطرق، حتى ازدهرت حاضرتنا وصارت أجمل المدائن، وأراد (هوشام) بعد أن ازدهرت البلاد في عهده أن يؤسس لها جيشًا نظاميًا يحفظ لها هيبتها على غرار جيوش كنعان ومصر وآشور، فعهد بذلك إلى رجل من جبابرة كنعان اسمه (هدد بن بدد).

صمت قليلًا، ثم تلفت حوله وقال بصوت أخفض مما سبق:

كان (هدد) رجلًا شديد البأس، يجيد البطش بأعدائه والتنكيل بهم، استطاع أن يصنع جيشًا نظاميًا يرهب به جيران إدوم من الممالك الطامعة بها. ولكنه استطاع أيضًا أن يصنع جيشًا من الشرطة كي يرهب به أهل إدوم وأبناءها! فنشر البصاصين في الأسواق واستجلب مرتزقة من كنعان كي يعملوا معه.

وجدتني رغمًا عني أقاطعه، وأقول مستنكرًا:

- وأين كان الملك (حوشام) من كل هذا؟!

قال في يأس وحزن:

- كان الملك (حوشام) قد تقدمت به السن الفانية وهب به الضعف، فضلًا عن أن (هدد بن بدد) قد أحاطه بثلة من المرتزقة عزلته عن الرعية، فلم تصل إليه شكوى ولا مظلمة ولم ترد إليه سوى أنباء جيش (هدد) العظيم!

سهم وكأنما أثارت الذكريات وجيعته ثم قال:

- وفي يوم حزين، مات آخر ملوك الواحة الملك (حوشام)، حينئذ أعلن (هدد بن بدد) أنه قد تقدم للبيعة كي يكون ملكًا على إدوم!

سأله الشيخ (دومة):

- وهل بايعه أبناء عيسو؟!

ابتسم ساخرًا وقال:

- لم يجرؤ أحد من بني عيسو على طلب البيعة لنفسه! ولم يجرؤ أحد من الرعية عن التخلف عن البيعة!

ثم أردف في سخرية كالبكاء:

- حتى أنا بايعته وأرسلت له ثلاثين ثوبًا من الحرير هدية إلى قصره!

أطرق صامتًا للحظات، وكأنما يجدد الأسى على ما فعله، ثم أردف:

- وأراد (هدد) أن يسيطر على البحر كما سيطر على البر. فأنشأ أسطولًا

مهيبًا على شواطئ إدوم، وصار هذا الأسطول يجوب مياه البحر من إدوم وحتى عصيون جابر، يحرص سيطرته على كل مرفأ ويسطو على السفن حتى وإن كانت سفينة صغيرة لمساكين يعملون في البحر!!

سأله الشيخ نابت آسفًا:

- ومنذ متى وأنتم تعبدون الله سرًا في إدوم؟

تنهد (شهبور) ورأيت دمعة في عينيه وهو يقول:

- منذ عامين، حينما أعلن (هدد بن هدد) أن الإلهين (عشتار وقوس) هما إلها مملكة إدوم، وأنه لا يجوز الجهر بعبادة أخرى غيرهما، وهذا الضابط الشرطي (كروتوس) القبض عليكم للجهر بالصلاة، ولولا [illegible] بمقدار ألف دينار ذهبيّ لصاحب الشرطة لأرسلكم للمحاكمة!

علمت أن الضابط المقبض اسمه (كروتوس)، وصمت الجميع، ورحت أقول بصوت وحي مني وأنا أتأهب للقيام:

- نحمد الرب (إيل) أن نجونا بفضلك يا شيخ (شهبور)! سألقي نظرة على (عمرو)!

وكأنما نطق لساني بشيء أذهله، فقال رافعًا حاجبيه من الدهشة:

- الرب (إيل)؟! هل أنت من بني إسرائيل يا فتى؟ بان الانزعاج على وجهي وشعرت بالاتهام في طيات كلامه، فقلت مضطربًا:

- نعم!

وكأنما ألقيت في وجهه بحجر صلد، فقال:

- أرجو ألا يعلم أحد بذلك!! فهو يكره بني إسرائيل الآن، أكثر مما يكره بني (إسماعيل) وعيسو!

سأله الشيخ (عابر) متعجبًا:

- لماذا؟

قال:

ـ قد تزوج (هدد بن بدد) بابنة الفرعون الذي هلك وراء (موسى)، وأظنه لن يجد أثمن من رأس عبرانية يهديها إلى صهره في أرض مصر.

وكأنما ارتفعت بي يدٌ إلى السماء حينما سمعت قوله، ثم ألقت بي في مكان سحيق!

* * *

في اليوم التالي انضممنا إلى مجموعتين، مجموعة أخذت في عرض البضائع التي أتت بها القافلة من يثرب بعد أن خصص لنا التاجر (شهيور) حانوتين لهذا الغرض، ومجموعة أخرى خرجت للأكياس طافت في الأسواق لتشتري بضاعة جديدة كي تحملها القافلة معها عند الرحيل إلى وادي بكة.

خيَّرني الشيخ (ثامت) بين البقاء في الحانوت مع ولده الصغير (ليث) أو أن أرافقه إلى السوق للشراء مع مجموعة السقاة في الحانوت، فقد كنت أرغب في بعض الراحة لقلة نومي في الليلة السابقة، فضلاً عن علمي بأن (أروى) سترافق أخاها في ذلك اليوم.

كان الجو صحوًا والسوق لم تكتظ بعد بالناس، وضعنا في الحانوت الأول عشرات الجوالق من التمر الجاف والتمر الرطب وجرار العجوة المطبوخة بالسمن والعسل، علمت من الفتى (ليث) أن قبيلتهم تأتي بها من شمال سيناء، وحكى لي عن أرض هناك تسمى «العريش» من كثافة ما ينبت فيها من النخيل حتى إن الرُّطب تتساقط منها جنيّة لمن يرغب في جمعها، وكان الأعراب يفدون إليها من كل مكان كي يجمعوا التمور، فيجففون بعضها، ويبقون بعضها على حاله أو يخزنونها في جرار على شكل عجوة مطبوخة.

سألته:

ـ ولماذا لا تبيعون التمور في بكة؟

قال:

ـ في بكة تكثر التمور ويفد إليها أنواع أجود من فاران وحضرموت، فضلاً

عن أن طول المسافة قد يفسد العجوة فنضطر إلى بيعها رخيصة، ولهذا نبيع ما تملكه هنا في إدوم، ثم نشتري منها الأقمشة والفخار وأنواعًا أخرى من الحبوب والطحين لنبيعها في بكة.

أما الحانوت الثاني فكان يقابل حانوت التمر، وقفت فيه (أروى) وكان يُباع فيه بعض المشغولات المصنوعة من جريد النخل وسعفه من أقفاص وسلال وحبال، وكانت هذه المشغولات من صنع نساء القبيلة يقمن بإعدادها على مدى شهور لبيعها في سوق بصرى، والعجيب أن هذه المصنوعات كانت تلقى رواجًا أكثر من التمور، ولعل السبب في ذلك أن أغلب زبائنها من النساء.

وعند الظهيرة تكاثرت الزبائن في السوق، وصار لزامًا (لبيت) لا بد منها من الكيل والبيع، كان يقوم بمراجعة الأكيال وأقوم أنا بمحاسبة المشترين، وبين الفينة والفينة كنا ننظر إلى الحانوت المقابل (أروى) كانت تلازم بيعها في سرعة ومهارة رغم أنها وحيدة، وكانت تنظر إلينا مبتسمة كلما أضافت قطعة نقدية إلى كيس نقودها الذي علقته في رقبتها ثم ترفعه إلينا وهي تغمز بعينها كي تثير غيظنا، وكأنها تتحدانا في أن نحقق ما تحققه هي من أرباح!

وبينما نحن مشغولون بالبيع، إذ حدثت جلبة عند بداية السوق من جهة الشمال ورأينا الزحام يفترق على الجانبين وكأنما يفسح الناس الطريق لموكب قادم، وبالفعل ثار الغبار في السوق ورأينا أربعة فرسان من رجال الشرطة يتقدمهم (كرونوس) يمرون بالطريق المزدحم وقد كادت سنابك خيلهم أن تطأ بعض المارة، علمنا بعد ذلك أن الشرطة كانت تمرُّ مرتين يوميًّا، مرة عند الظهيرة، ومرة بعد انتهاء السوق، وكانت دعواهم الظاهرة حفظ النظام والأمن، ومنع المخالفات ولكنا علمنا بعد ذلك أن فرقة الشرطة هذه تقوم بحصر الحوانيت المفتوحة بالنهار، ثم تمر مرة أخرى قبل المغيب وتتجمع عند الباب الجنوبي للسوق مع أصحاب الحوانيت من تجار إدوم لتجمع منهم مكوسًا وضرائب على البيع والشراء!

مرَّ (كرونوس) من أمامنا فتوترت عضلات وجهي، وتذكرت ما فعله

بالأمس بـ(عمرو بن نومة) فانقبضت عضلات يدي، لمح (ليث) تعبيرات وجهي، فوكزني وقال في صوت خافت:

ـ لا تنظر إليهم.

وكأنما اشتم (كروتوس) رائحة البغض تخرج مع أنفاسي فالتفت نحوي، التقى ناظرانا، وابتلعتني زُرقة عينيه التي بدت تمتصني تمامًا، ثبّت نظراته نحوي بينما مالت رأسه فوق جسده وفرسه لا يزال يتقدم إلى الأمام، شعرت لوهلة أنه سيسلط سوطه نحوي، فخفق قلبي وتسارعت ضرباته، ولكنه ابتسم في سرور، قائلاً: هل أعجبك؟

لكزني (الليث) في كتفي برفق، وقال في مرح بعدما انصرف الحنطور:

ـ طفلتك ستقضي عليه!

قلت صادقًا:

ـ لا أدري، ولكني أشعر بالبغض نحو هذا الرجل.

جاءني صوت (أروى) وهي تقول:

ـ (شمعون)!

نظرت إليها، فأشارت إليّ قائلة:

ـ تعال.

خفق قلبي وتسارعت ضرباته مرة أخرى، ولكنه كان تسارعًا محببًا إلى نفسي. تركت (ليث) وذهبتُ إليها، فأمسكت بيدي ودخلت بي إلى داخل الحانوت، خلعت كيس النقود من حول جيدها وقالت:

ـ قف مكاني هنا، سأذهب إلى المنزل لأعد الغداء لأبي ولـ(عمرو) ابن عمي.

حركت كيس النقود بيدي لأعلى وأسفل وكأنني أزنه، ثم قلت باسمًا:

ـ تلك ثروة طائلة، أراكِ تثقين بي!

زمّت شفتيها وقالت في مرح:

- ليس تمامًا، ولكني لا أثق في (ليث) أكثر!

قلت مازحًا:

- حقًا! أعتقد أنك ستكونين مدينة له بالاعتذار في نهاية اليوم؟

قطبت حاجبيها وقالت في تهديد مصطنع وهي تستعد للانصراف:

- لن تجرؤ على المساس بنقودي!

ثم استدارت عائدة بعد أن خطت خطوات خارج الحانوت وقالت:

- كما أني أثق بك على أي حال!

قلت ضاحكًا:

- وما مصدر تلك الثقة؟

قالت:

- منذ أنقذتني في حادثة النيل!

فغرت فاهي دهشة وقلت:

- أما زلت تذكرين؟

قالت وقد تورد خداها خجلًا:

- بالطبع، هل نسيت أنت؟!

قلت مضطربًا:

- كلا، ولكني أقصد أنك كنت صغيرة.

ابتسمت وقالت:

- وأنت أيضًا كنت صغيرًا، ولكن هناك من الحوادث ما لا ينسى!

لم أجد ما أقوله، وتعثرت الكلمات على شفتي، فاستدارت وهي تقول:

- سأعود بعد ساعة بالغداء لك ولأخي (ليث).

وتركتني في حالة من الاضطراب والنشوة لم أشعر بهما من قبل في حياتي.

* * *

الورقة الثلاثون

في المساء كان الاجتماع في فناء المنزل الخلفي، الشيخ (عابر) وولداه وأبناؤه، بينما جلس التاجر (شهيور) في المتصدر إلى جوار الشيخ (عابر). كانت الدهشة بادية على وجه الشيخ (ثالث) وهو يحدثهم عن أحداث يومه، وعما رآه في جولته في السوق. أخبرهم أن التجارة كما يرى أن البلدة قد عمها الازدهار ولم يتخيل أنه في فترة وجيزة قد أصبح هناك هذا الكم من البضائع القادمة من الشرق والغرب والجنوب، ولكنه شكا من الغلاء الفاحش في الأسعار، والتي تضاعفت مرات عديدة مقارنة بأسعار البلدة قبل ذلك بسنوات ثلاث!

سأله الشيخ (دومة):

- هل رأيت سوق السلاح؟

قال الشيخ (ثالث) باسمًا:

- نعم! ووددت أن أشتري سيفًا ودرعًا لكل فرد في القبيلة، ولكني حين علمت أسعارها اكتفيت بشراء بضعة سيوف لحراس القافلة.

قال (شهيور) معقبًا في جدية:

- هذه السوق مما أتى به المرتزقة الكنعانيون إلى بلادنا!

ثم أردف ساخرًا:

- أدخلوا على أسواقنا سوقًا للسلاح وسوقًا للجواري وسوقًا للخمر!

قال الشيخ (دومة):

ـ نعم رأيت سوقًا للخمر في أطراف البلدة يبيعون فيه أصنافًا شتّى من النبيذ المعتق، المصنوع من الكروم والتمر.

قال الشيخ (عابر) وكان يستمع إلى الحديث قبل ذلك ولا يعلق:

ـ وهل تلقى الخمور رواجًا في هذا البلد؟!

قال (شهبور) في أسف:

ـ أصبحت شرابًا للعامة يا شيخ (عابر)، وتقام الحانات في أطراف المدينة لشربها.

ثم قال في أسى:

ـ قد أصبحنا كالغرباء في هذا البلد يا شيخ (عابر)، نعيش بين ملامح مصرنا القديمة الكثيرة، ويضيّقون على التجار الشرفاء الحال يومًا بعد يوم بالضرائب والمكوس حتى ينشغل كل واحد منا بقوت يومه، فلا يلتفت إلى شيء آخر! أتدري ما فعله (كرونوس) اللعين اليوم؟!

نظرنا إليه باهتمام، فتابع:

ـ قد فرض عشر فِضّيات زيادة على كل تاجر، لأنه مرّ بالسوق ووجد رواجًا في البيع والشراء!

بان الأسف على وجوه السامعين، ووجدتني أسأله متعجبًا:

ـ ولماذا يقبل أهل البلدة بالظلم والغلاء؟

نظر إليّ وطالت نظرته، ثم تنهد قائلًا:

ـ في دولة العدل يصير الكل عادلًا، وفي دولة الظلم يصير الكل ظالمًا، فالناس على دين ملوكهم يا غلام!

ثم قال في تهكم:

ـ لم يردّ الناس الظلم على الظالم بل تناقلوه بينهم؟ حتى أصحاب المروءة

والكرم، تكبلت أيديهم بالوشاية والغش حتى أمسك كل ذي فضل عن فضله. أتعرفون من الذي أخبر (كرونوس) بأمركم ليلة أمس؟!

نظرنا إليه مندهشين، فقال وهو يرفو في قوة:

- تاجرٌ صغير، كان يعمل يومًا ما أجيرًا عندي!

شعرنا بالأسف، وشعر الشيخ (عابر) بأن الهم قد ثقل على قلب (شهبور) فقال وهو يربت على كتفه بالكلمات ليهون عليه بؤسه:

- صبرًا يا (شهبور) قد يبدل الله الأمر من حال إلى حال.

قال (شهبور) وقد احتقن وجهه:

- نفد الصبر يا شيخ (عابر)، ولم يبق سوى الرحيل!

رفع الشيخ (عابر) حاجبيه دهشة، وقال:

- الرحيل!

صمت (شهبور) قليلًا، ثم قال في صوت خافت تحسبًا لأي أذن تسترق السمع:

- نعم، هذا آخر مواسم التجارة لي في إدوم وسوف أرتحل مع جماعة كبيرة من التجار إلى «كوش»!

يكن الاسم غريبًا على أذني، فأنا أعرف أن «كوش» مملكة بعيدة تقع إلى الجنوب من أرض مصر، ولكنني تعجبت كيف يصل إليها مع بُعد المسافة بين المملكتين، وربما هذا ما دار في خلد الشيخ (ثابت) فسأله:

- وكيف تصل إليها؟

قال بصوت أشد خفوتًا:

- عن طريق البحر.

سأله الشيخ (دومة):

- ولماذا كوش؟

قال:

- هناك يقايض التجار الطحين بأجولة الذهب! كما أن التجارة لا تنقطع بينها وبين بكة.

ضحك (نابت) وقال ممازحًا:

- الآن عدت (شهبور) التاجر الذي أعرفه! لوهلة ظننتك مهاجرًا لتغير بلدتك، ولكني أراك طامعًا في ذهب الأحباش!

تذكرت ما قاله عن أسطول (هدد بن بدد) فسألته:

- ألم تقل إن أسطول (هدد) يطارد السفن، أما تخشى أن يسطو على مالك؟

نظر إليّ نظرة طريفة، وكأنما استحسن تفكيري، وشعرت بذلك في كلماته حين قال:

- أعددت العدة لذلك يا فتى بني إسرائيل، ولن نتحرك من إدوم على أي حال وإنما من «مجمع البحرين».

قلت مستفسرًا:

- مجمع البحرين؟!

أومأ برأسه وقال:

- نعم، إنه مرفأ يقع جنوبي برية سين حيث يلتقي خليج (الحبال) بخليج (القلزم)، ومن هناك سنأخذ سفينة إلى كوش.

كان من الواضح أنه قد أعد العدة لكل شيء، وأنه لا رادَّ لما عزم عليه. فقال الشيخ (عابر) في صدق:

- ستُظلم (بصرى) دونك يا (شهبور) وسنفتقد أخًا عزيزًا بها، ولكنَّا نسأل الله لك السلامة على أي حال.

قال (شهبور):

- لا تقلق يا شيخ (عابر)، فسوف تراني في بكة في موسم الحج القادم!

قال الشيخ (عابر):

- إذن نسأل الله أن يجمعنا بك على خير.

وبينما نحن كذلك، إذا بالفتى (ليث بن ثابت) يدخل علينا مكفهر الوجه ويبدو عليه الانزعاج، تطلعنا إليه جميعًا، فقال قبل أن نتوجه إليه بالسؤال:

- لقد اشتدت الحمّى على عمرو ويبدو أنه ليس بخير.

• • •

أسرعنا إلى حجرة عمرو، كان جسده يتعرّق ويرتعش من الحمّى، شعرنا بحرارة جسده دون أن نمسه، وسدّت أنفي رائحة كريهة فأدركت أن القيح قد زاد بجُرحه.

قال (شهير) وهو يخرج بسرعة:

- سأبحث عن الطبيب.

شعرت أن وقتًا ثمينًا قد نهدره حتى يعود (شهير) بالطبيب، فتذكرت ما فعله الطبيب من قبل، وطلبت من الفتى (ليث) أن يحضر لي إناءين، أحدهما به ماء بارد والآخر به ماء فاتر، بللت خرقة بالماء البارد ثم وضعتها على رأسه وبللت الأخرى بماء فاتر وطلبت من (ليث) أن يعصرها على شفتيه، تذكرت أن الطبيب طلب مني أن أغيّر الضمادة بعد ثلاثة أيام، ولكنّ امتلاءها بالقيح ورائحتها النتنة، أشعراني بضرورة نزعها.

أدنيتُ المصباح مني وقمت بنزع الضمادة، شعرت بالغثيان من الرائحة الخبيثة ومن رؤية جرحه، أسرعت بتجهيز ماء الحرمل ومنقوع الثوم والقرنفل، وشرعت أغسل جُرحه كما فعل الطبيب، فما أن ضغطت بإصبعي على الجرح، حتى انفجر جيبًا من القيح لوث أرض الحجرة وملابسي، وجعله يصرخ ألمًا، ظللت أضغط مرات متتالية على الجرح، رغم صراخه، حتى توقف نزيف القيح، فغسلت جرحه مرة أخرى ووضعت عليه فصوص الثوم وضمدته ثانية.

العجيب أن جسده قد هدأ بعد ما فعلت، فلم يعد إلى سابق انتفاضته،

وشعرنا أن الحمى قد هدأت قليلًا.

قال الشيخ (دومة) وقد بان الألم على وجهه وانسالت دموعه على خديه:

- بارك الله فيك يا (شمعون).

أومأت برأسي إليه شاكرًا، فربت الشيخ (ثابت) على كتفه وقال:

- هيا يا (دومة)، لندعه يستريح حتى يأتي (شهبور) بالطبيب، وإن كنت أظن أن (شمعون) قد فعل كل شيء.

فقلت له:

- استرح يا عماه، وسأبيت أنا معه الليلة، وليذهب (ليث) إلى مرقده فغدًا يوم عمل طويل.

استحسن الشيخ (ثابت) كلامي، فأخذ ولده وأخاه وتركوني مع (عمرو) في حجرته، أعدت المصباح إلى موضعه على الحائط وجلست إلى جوار رأس (عمرو)، أعصر عليها الماء البارد بين الفينة والفينة، وأتمثل أمامي ما كانت تفعله أمي (رومانا) معي في صغري حين تصيبني الحمى.

عجبًا للأقدار!

من كان يتخيل أن تحملني أجنحة القدر إلى بلدة غريبة في أرض غريبة مع قوم غرباء، لأجلس هنا كي أداوي شابًا في مثل عمري لم أعرفه من قبل، ولكني أشعر نحوه بمشاعر الأخ لأخيه؟!

ظلت أحداث اليوم تلاطمني فرحت أستعيدها حدثًا حدثًا ولحظة بلحظة، ابتداء بأحداث السوق وانتهاء بحديث (شهبور)، مرت ساعات وأنا على هذه الحال حتى كاد الليل أن ينتصف، أدركت أن (شهبور) لن يعود في تلك الليلة بالطبيب، وكان جسد (عمرو) قد هدأ تمامًا من الحمى، فحمدت الرب أن جعلني سببًا في إنقاذه، فقمت من مجلسي برفق حتى لا أوقظه، فخلعت ثوبي الملوث وألقيته خارج الحجرة ثم ألقيت بجسدي العاري على الحصير إلى جوار عمرو، كان التعب قد استبد بي ومع ذلك ظل عقلي متيقظًا، كنت أشعر بأن

جعبتي قد امتلأت بالحكايات والأحداث وأني بحاجة إلى أن أفرغها كتابة في أقرب وقت، وعاهدت نفسي أن أمكث الليلة القادمة في حجرتي كي أدون أوراقي، وحكاياتي.

وقبل أن أغمض عيني لأبدأ في النوم، سمعت صوت (عمرو) يتمتم بكلمات لم أفهمها، ظننته قد استيقظ فأدنيت أذني منه كي أسمعه، ولكني أدركت أنه يهذي في نومه بكلمات أخرجتها الحمى من خبيئة نفسه. وكان من بينها كلمتان وعتا أذني في وضوح لا لبس فيه، سمعته يقول: «الصك... الأوراق».

• • •

في اليوم التالي جاء التاجر (شهور) ومعه الطبيب والشيخ (فومة)، وكان (عمرو) في حال أفضل من ليلة أمس، أثنى الطبيب على عملي ونصح بأن أكرر تنظيف الجرح كل يوم، ثم وصف له شرابًا من الموز المجفف والمضروب مع بياض البيض لمنع القيء، فذكرتني رؤية الموز بزينة سيول وعوسجها الذي لم أذق مثله في حلاوته.

قال (عمرو) في ضجر مرح:

ـ اللهم صبرًا على آلام المرض، وعذاب السحر!

ابتسم الطبيب، فقال الشيخ (فومة):

ـ إنه يكره البيض!

قال الطبيب باسمًا:

ـ لا بأس يمكنك ضربه مع لبن الشاة المخفف بالماء.

قال (عمرو) ممتنًا:

ـ هذا أفضل بكثير!

انصرف الجميع وتركوني مع (عمرو)، الذي اعتدل حالنا في صحبته، ثم تنهد وهو يقول:

- شكرًا لك يا (شمعون)، لقد صرت مدينًا لك بالكثير!

قلت صادقًا:

- أنا مدين لكم بحياتي، فلولاكم هلكت في الصحراء!

سألني:

- كيف حال السوق؟ أشتاق للخروج إليها!

قلت:

- بالأمس كان البيع ممتازًا، يقبل الناس على التمر والعجوة، ولكنهم يقبلون على المشالح والأقماص أكثر.

ضحك وقال:

- تلك براعة (أروى) في البيع! كانت تجلدنا أنا و(ليث) في البيع وتتفوق علينا في كل مرة!

أصابني الوجوم برهة، بعدما أدركت أن لحظات الإثارة التي عشتها بالأمس، كانت لحظات مكررة بالنسبة لها، مع اختلاف الأشخاص!

أفقت من وجومي على قوله:

- أتدري حين جاءت (أروى) بالغداء أمس، رجوتها أن تعينني في الذهاب معها إلى السوق لكنها ضربتني في صدري واتهمتني بالجنون.

ثم ضحك وقال:

- أحمد الله أنها لم توافقني وإلا كنت صريعًا الآن

أطبقت كلماته على صدري فلم أقو حتى على الابتسام، شعر بوجومي فقال مغيرًا مجرى الحديث:

- هل ستذهب إلى الحانوت اليوم؟

هززت رأسي نفيًا وقلت:

- كلا، فأنا متعب منذ ليلة أمس، وأريد أن أستريح

أيد كلامي قائلًا:

ـ نعم، تبدو متعبًا، معذرة لإرهاقي لك.

غمغمت بكلمة «لا بأس» ثم انصرفت وفي قلبي غضب من ذلك الشعور الذي ألم بي.

لم يكن غضبًا من (عمرو) الذي تفضحه كلماته وهنات أحلامه بعشق (أروى)، ولم يكن غضبًا من (أروى) التي أرخت لجام سحرها حتى وطأ من حولها من الرجال، ولكنه غضب من نفسي التائهة الحائرة، التي تهيم في بحر العشق وهي تغرق في أوحال الواقع! صفقت باب حجرتي خلفي في قوة وانهلت على وجهي صفعًا ولكمًا وأنا أقول بصوت خفيض يشبه صوت أبي حين صفعني من قبل:

ـ ويحك يابن (روماني)! ويحك يابن (رومان)! أما آن لك أن تصير رجلًا، أما آن لك أن تصير رجلًا.

ولم أتوقف عن الصفع والتلكم إلا بعد أن انفجرت الدموع من عيني وسال خيط من الدماء من شفتي، ووجدتني أسقط أرضًا وأنا أجهش بالبكاء.

قمت بعدما هدأت نفسي، شعرت بأن بحاجة ملحة لوجود ربي معي في تلك اللحظة. تمنيت أن أقف أمام المذبح ويد الكاهن تمسح رأسي بالماء المقدس ورائحة البخور تطهر أنفاسي الملوثة، وتمنيت لو امتلك ثمنًا لقربان أقدمه للرب «إيل» لعله يمن علي بالسكينة، لكن أين أنا من خيمة الاجتماع الآن؟

هداني عقلي إلى أن أغتسل بالماء وأن أتطهر كما يفعل الشيخ (عابر) وقومه، ثم وقفت في حجرتي وحدي، تتساقط من رأسي ومرافقي قطرات الماء، وأخذت أتحدث إلى هذا الرب الذي ملأ حضوره الملكوت! كنت على يقين بأنه سيسمعني، ألا يستمع إلى صلوات الكاهن في خيمة الاجتماع فلماذا لا يستمع إلى عبد من عبيده يئن قلبه وجعًا ويرجو السكينة منه؟ تحدثت إليه بكل ما جال على خاطري من كلمات وبكل ما أثقل قلبي من هموم، كلامًا عفويًا لا سجع فيه

ولا تزعيم! العجيب أني شعرت أنه مني قريب، وأن شيئًا من السكينة قد لامس قلبي فهدأت أحزاني وسكنت جوارحي واستلقيت على فراشي اللدن ثم رحت في سبات عميق.

استيقظت بعد الزوال، فوجدت صحنًا به طعام الغداء.. خبزًا وقطعتين من اللحم وجرة ماء، أدركت أن أحدهم قد فتح الباب وأنا نائم ووضع لي غدائي، كنت أشعر بالجوع، فطويت رغيف الخبز على قطعتي اللحم والتهمتهما في نهم، وبينما كنت ألتهم طعامي، لاحظت أن صرة أغراضي مفتوحة، وقد بعثرت محتوياتها وكأنما عبث بها شخص ما، أعدت الطعام في الصحن، وقمت مترنحًا كي أتحقق مما أراه، وجدت محبرتي وملابسي كما هما، ولكني لم أجد أوراقي التي كتبت بها كل ما مر بي خلال السنوات السابقة، وقد بدا أن أحدهم قد سرق الأوراق وترك لي المحبرة والقلم؟؟

• • •

الورقة الحادية والثلاثون

في المساء، ذكرت الخبر لسيدة الرقف، فكان الجميع يتحدثون في وجوم وأسف عمن أقدم على تلك السرقة، وكان السؤال الذي يشغل أذهاننا جميعًا هو: لماذا اكتفى اللص بأخذ تلك الأوراق دون غيرها من الأمتعة؟

سأل الشيخ (ماميت) الخادم الذي قام بوضع الطعام إذا كان رآها أو لمح شيئًا مستغربًا حين دخل الحجرة، فأكد الرجل على أنه لم يلبث في الحجرة سوى لحظات وضع فيها الطعام ثم انصرف، وكانت لهجة الرجل الصادقة وتاريخه مع أسرة الشيخ (عامر) ينفيان عنه أي شبهة بالسرقة. كاد الحزن يقتلني على فقدان تلك الأوراق وشعر (شهيور) بذلك، وكان يلتزم الصمت طوال الجلسة فسألني في حذر:

- (شمعون)! هل أخبرت أحدًا بأمر تلك الأوراق هنا أو قبل ذلك؟

هززت رأسي نفيًا وقلت له:

- لا.

قال:

- وما مقدار تلك الأوراق؟

قلت:

- عشرات اللفائف مرتبة ومفهرسة بالتاريخ منذ خرجنا مع نبي الله (موسى) وحتى وصولنا إلى إدوم.

قال:

- وتقول إن اللص قد ترك المتاع وقطع النقود واكتفى بالأوراق، أليس كذلك؟

قلت:

- بلى.

هز رأسه في بطء وتحركت ركبتاه قد وصل إلى حل الأحجية! ثم قال في يقين أثار عجبي:

- لا بد أن السارق من أحد الصابئين!

هتف الشيخ (عابر) في استنكار وغضب:

- ماذا؟ يقتحمون البيوت وينتهكون حرمتها كاللصوص!

قال (شهبور) في لطف:

- تلك طريقتهم يا شيخ (عابر)، يتلصصون على الناس في مخادعهم، لعلهم يجدون صيدًا يقدمونه لسيدهم القابع في «أثينا».

شعرت بالتوتر وانزعج الشيخ (ثابت) بشدة ثم قال:

- ولماذا يصنع الصابئون (شمعون)؟

مط (شهبور) شفتيه وقال:

- لعل (كرونوس) قد اشتبه في أمره!

ثم قال في صوت خافت:

- وقد أخبرتك بأن الملك (هدد بن بدد) لا يرحب بالعبرانيين!

تذكرت نظرة (كرونوس) المريبة لي في السوق، وبدا لي أن كلام (شهبور) أقرب إلى المنطق السليم، فشعرت حينها بقلق بالغ، بان جليًا أمام الجلوس، فقال الشيخ (عابر) في محاولة لطمأنتي:

- ألا يحتمل أن يكون الأمر مجرد سرقة؟

قال (شهبور) وهو يترفق بكلماته على الشيخ (عامر):

ـ في جميع الأحوال يجب أن يأخذ (شمعون) حذره يا شيخ (عامر) وأنصحه بألا يوجد الأيام المقبلة في السوق، ومن الأفضل ألا يظهر مطلقًا هناك حتى تنتهي إقامتكم في بصرى.

غمغم الشيخ (ثابت) في أذن الشيخ (عامر) بكلمات وكأنه يتفق معه على ما سيتم فعله، فلذت بالصمت وفي قلبي بؤس لو وزع على رجال القبيلة لكفاهم، يلح من آخر لم يبلغه، وقد شعرت بالأسف لأني قد صرت سببًا ومصدرًا للمتاعب لهذه القبيلة التي استضافتني.

رأيت الشيخ (عامر) يهز رأسه موافقًا بعدما انتهى الشيخ (ثابت) من همسه الخفيض، فقال الشيخ (ثابت):

ـ اسمع يا (شهبور)، نريدك أن تخفي (المصري) بعيدًا عن هذا النزل من الليلة، فنحن لا ندري ما الذي قد يفعله (كرونوس) إذا أصبح الصباح وقرأ ما في الأوراق، فصر له بيته وطعامه وسنتكفل نحن بكل شيء إلى أن نغادر بصرى.

اشتد حزني لهذا الكلام، وشعرت بضعف قوتي وقلة حيلتي، وأني لا أملك من أمري شيئًا فظللت على صمتي وهم يقررون مصيري، رحب (شهبور) باقتراحه وقال:

ـ لا بأس من ذلك وإذا شئت تركته حتى الصباح، فظني أن (كرونوس) مستغرق وقتًا طويلًا حتى يترجم ما في الأوراق من العبرانية فهو يجهل من طالة!

ثم ضحك ضحكة قصيرة كي يخفف من وطأة الكآبة التي نشعر بها، ووجدتني أقول له بعفوية:

ـ هي ليست مكتوبة بالعبرانية، بل باللغة المصرية!

اتسعت حدقتا (شهبور) ولمع ضوءهما في العتمة، وكأن أضاءت في رأسه

فكر قليلًا ثم قال وكأنما يتحقق مما فهمه:

- هل كتبتها باللغة المصرية؟

قلت مؤكدًا:

- نعم.

قال في أمل:

- وهل تتحدث بها؟

قلت:

- نعم، فأمي مصرية!

تهللت أسارير وجهه حتى بدت حمرة حلوة تكسوه تقريبًا، ثم قال:

- يا لسعادتي بك يا غلام! غدًا سوف آتيك بعد شروق الشمس، فلتكن بانتظاري.

وكانت فرحته كفيلة بأن تزيل الهم عن قلبي، وقد شعرت أن سحابة من كرم الرب قد مرت فوق سماء النزل، فأمطرت سكينة في قلبي.

* * *

عند الشروق كان (مشهور) يطرق باب الحجرة، فتحت له متأهبًا للخروج فهنأني بيده، ثم أعطاني رداءً ونعلين وقال لي:

- ارتدِ هذا وهذين!

دخلت الحجرة فخلعت ثيابي وارتديت الرداء الذي أعطانيه، كان رداءً مصريًا من الكتان ذا أكمام قصيرة ويصل طوله إلى ما بعد الركبة بقليل، يتزين جيبه عند الصدر بجلد مزخرف، وفي المنتصف حزام من القماش المنقوش، أما النعلان فكانا من جلد التمساح، وتعجبت من أين أتى بهما (مشهور).

أضفى عليّ الزي شكل النبلاء المصريين، والحقيقة أنني كنت شديد السعادة بتلك الهيئة، فتحت الباب، فضحك (مشهور) وقال:

- مرحبًا صديقي التاجر المصري النبيل!

تبسمت ضاحكًا، وسألته:

- من أين حصلت على هذا الزي؟

قال ضاحكًا:

- طلبته ليلة أمس من تاجر مصري صديقي.

قلت له ساخرًا:

- حسنًا وإلى أين ستذهب به؟ هل ستعيش إلى مصر؟!

قال في جدية:

- كلا، سنذهب إلى صاحب الشرطة!

توقفت مندهشًا، فقال:

- هيا بنا! ولا تتحدث إلا إذا طلب منك ذلك.

بعد ما يقرب من ساعة، كنا نقف في حجرة صاحب الشرطة، ورأيت (شهبور) يتحدث في انفعال، كدت أصدقه، وقد احمرّ وجهه وتعرّق جبينه وهو يقول:

- سيدي صاحب الشرطة، لقد بلغت مضايقات (كريتوس) مبلغها ضد صديقي وضيفي التاجر المصري (شمعون)، قل لي بحق ملكنا العظيم (هدد)، كيف يُعامل نبيل مصريّ مثل هذه المعاملة في إدوم، يلقى في السجن دون ذنب، ثم يطلق عليه اللصوص كي يسرقوا أوراقه وخرائطه وخبايا أسرار تجارته، اعلم يا صاحب الشرطة أن صديقي قد طفح به الكيل، والله أقسم أن يرسل برسالة إلى مولانا المعظم (هدد بن بدد) في «أفيث» يستنجد به ليرفع عنه الظلم الواقع عليه في «بصرى».

انزعج صاحب الشرطة مما سمعه من (شهبور)، وبان عليه الاضطراب في صوته وهو يقول:

- نحن لا نرضى أن تقع مظلمة على السيد (شمعون المصري)، ولا نظن

أن الفارس (كرونوس) قد يفعل هذا مع رجل شريف من مصر!

قال (شهير) مهاجمًا أكثر، وقد شعر بأن صاحب الشرطة قد اتخذ موقف الدفاع:

- فلتأذن لصديقي النبيل باسترداد أوراقه، ولتأمر الفارس (كرونوس) بألا يتعرض له!

اكتفى صاحب الشرطة بإيماءة من رأسه كي يؤكد قبول مواقفه، صاح على الحارس القابع أمام الحجرة، وأشار إليه كي يدنو إليه برأسه ثم همس في أذنه ببضع كلمات، انصرف بعدها الحارس من الحجرة، قام من مجلسه واتجه نحو خزانة ضخمة في حجرته وهو يقول:

- نحن نحب أهل مصر، ولا نستقيم التجارة في مصر من دون مساهمة أمثالكم من النبلاء.

فتح الخزانة وأخرج منها شيئًا لم أتبينه وهو يتابع:

- ويسعدنا أن نقدم لكم الهدايا كي تتذكرونا بكل خير عند فرعون العظيم وعند مولانا الملك المعظم (همذ بن بدد).

ثم مد يده تحوي بهديته وهو يقول:

- أرجو أن تقبل هذه الهدية من صاحب الشرطة في بصرى، وستدهش أن هذا هو معبودي المفضل في كل مكان أذهب إليه حتى هنا في إدوم.

مددت إليه يدي فإذا بي أجد تمثالًا ذهبيًا صغيرًا للعجل أبيس. اضطربت يدي وكأنما مست جمرة من النار، وتفجر في رأسي بركان من الذكريات المقيتة شعرت بحممه تنهال على جسدي، حتى تعرق جبيني وكدت أن أسقط التمثال من يدي.

شعر (شهير) باضطرابي، فرمقني بنظرة غاضبة، وأمرني بخائنة عينه أن أقبل الهدية! تناولت التمثال بيد واهنة، وأنا ألعن في سري ذلك الرجل الذي لم يجد طريقة أخرى يبرهن بها على تسامحه سوى إهداء هذا التمثال الذي لم أبغض

في حياتي مثله، ثم قلت في خفوت باللغة المصرية كي أقنعه بكلام (شمعون):

ـ شكرًا لك يا صاحب الشرطة.

دخل الحارس وفي يده لفائف من الأوراق التي علمت فيها أوراقي، وضعها على المنضدة، وهمس في أذن صاحب الشرطة بكلمات، رأيت وجهه ينقبض على أثرها من الغيظ، ولكن صوته خرج هادئًا رغم ذلك وهو يقول:

ـ يبدو أن أحد اللصوص قد سرقها بالأمس، وهو يظن أنها نقود ثم ألقاها وفر هاربًا حين أحس به الحراس.

فلعلها كانت كنزًا، فالتفت حول المنضدة ثم تقدم لفتح بعض اللفائف ليتأكد من أنها مكتوبة باللغة المصرية، وقال متظاهرًا بالاهتمام:

ـ يبدو أن اللص قد تركها كاملة ولم يأخذ منها شيئًا!

تفحص المصطفاة والتسم (شمعون) في ظفر وقال وهو يعيد جمع اللفائف في صرة من القماش:

ـ نشكرك أيها السيد على ما قدمته لنا من معروف. ولا أعتقد أن السيد (شمعون) سينسى هذا الكرم.

وقبل أن ننصرف، إذا بنا نجد الفارس (كرونوس) لدى الباب، فشعرت بالتوتر ذاته الذي ينتابني كلما رأيته، بينما بانت على وجهه الدهشة من رؤيتنا، وربما أثار مظهري ريبته أكثر.

أنهت كلمات صاحب الشرطة حالة الترقب والتساؤل حينما قال:

ـ حسنًا يا (كرونوس)، لقد أبليت بلاءً حسنًا حينما ألقى رجالك القبض على اللص الذي سرق أوراق السيد النبيل (شمعون).

هم أن ينطق ولكن صاحب الشرطة أنهى اللقاء ليقطع عليه الحديث قائلًا:

ـ لقد سعدنا بوجودك يا سيد (شمعون).

فحياه التاجر (شمعون) وأمسك بيدي ثم انصرفنا مسرعين.

* * *

الورقة الثانية والثلاثون

مرت الأيام التالية بهدوء، دون أن يعكر صفوها شيء، اندمل جرح (عمرو) وأصبح قادرًا على السير والحركة، مستندًا على عصا أعطاها له التاجر (شهبور)، كما راجت تجارة الشيخ (عابر)، وأوشكت بضاعته من الحبوب والعجوة والشال على النفاد.

كنت خلال هذه الأيام أتجنب التواجد في السوق، أظهرت أنني أفعل هذا بناءً على نصيحة التاجر (شهبور)، ولكني في الحقيقة كنت أهرب من لقائها! لا سيما بعدما ألح (عمرو) في رغبته في الذهاب إلى السوق بعدما شعر ببعض التعافي.

في تلك الأيام شعرت بغربتي ووحدتي في المنزل رغم كل المحبة التي أحاطني بها الجميع، ورغم أني قد حاولت شغل وقتي بالحديث إلى الشيخ (عابر) أو تدوين أوراقي، فإنني لم أستطع أن أنجو من براثن التفكير بها لا سيما إذا جن الليل واختليت إلى نفسي، كنت في كل ليلة أتمنى لو بكّرت في الصباح فخرجت معها إلى السوق، فأذني تحن لسماع صوتها وعيني تشتاق لرؤية وجهها، ولكني كنت أعود فأتذكر نظرة الوله في عيني (عمرو) وهو يسير إلى جوارها متكئًا على عصاه فأصرف عن نفسي تلك الأماني الكاذبة.

وثقلت على نفسي الهموم، فخرجت ذات ضحى من المنزل، أبغي أن أتجول في المدينة وحدي كي أرى من معالمها ما أسري به عن نفسي، تجاوزت سوق

المدينة واتجهت غربًا، فوصلت إلى منطقة قرية شديدة الجمال تكسو جبالها الأشجار وتتفجر من بين شقوقها الينابيع علمت فيما بعد أن اسمها «صافتا»، فذكرتني تلك الواحة اليانعة بواحة قادش برنيع، أبهرني أن أرى قطيعًا من الغزلان الجبلية فوق إحدى الهضاب يرعى بعضها في هدوء ويتناطح البعض الآخر وقد بدا من كثرتهم أنهم قد استوطنوا تلك الربوة منذ أمد بعيد، جذبني جمالها فسرت إليها هائمة وقدماي بين ظلال الأشجار الوارفة، أتنسم عبيرًا مرطبًا يملأ صدري فيبسم له مذاقًا ويمتعني سمعي بمزيج حلو من صوت خرير المياه بين الصخور وزقزقات مئات العصافير التي تبنّت سماءها وردّدت الجبال رنينها فبدت تسابيح تصل إلى عنان السماء، وكأن الطبيعة تجهر إلى بارئها العظيم! وجدتني أقول بلسان لم أعهد عليه ولكني أحسست به: يا ألله! ما أبدعك! شعرت بأن الله قد تجلى بجلاله على تلك البقعة من الأرض، وتذكرت ما قاله الشيخ (عامر) لي في أول لقاء بيننا: (إن الله يتجلى علينا كيفما نراه)، ولقد رأيت الله جميلًا في تلك اللحظة؛ فمن يصنع ذلك الجمال لا بد وأن يكون جميلًا!

قادتني قدماي إلى أعلى الربوة، لم أقترب كثيرًا من قطيع الغزلان حتى لا أفزعها، رغم أنها لم تكترث كثيرًا لوجودي، نظرت إلى أسفل الربوة فخفق قلبي رهبة في حرم ذلك الجمال! كانت الربوة تنتهي إلى منحدر يحفه وادٍ أخضر، تتخلله كثبان من الرمال الأرجوانية والتي تنتهي إلى شاطئ بحر ساكن، شديد الزرقة، علمت فيما بعد أن اسمه (بحر لوط)، وعلمت أيضًا أن الأسماك لا تحيا فيه لشدة ملوحته، ولعل هذا كان من عقاب الرب على قوم لوط.

جلست فوق صخرة ملساء، وملأت صدري بشهيق عميق، لو كان لي مطلب واحد في تلك اللحظة، لتمنيت أن تكون أمي (روماتا) إلى جواري!

مددت بصري إلى أقصى مداه وكأنما أبحث عنها في الأفق المفتوح، فتاه البصر في الصحراء كتيه أحبابي!

آه من قسوة الأيام!

كم أفتقدك أيتها الغالية!

أتمنى أن تتماسكي حتى أراك! وأعدك ألا أخذلك مرة أخرى.

هبط إلى جواري طائر صغير مزركش، نقر الأرض مرات بمنقاره ثم دار حولي في هدوء، فذكرني هدوءه بطائر السلوى المسخر في ثولكا المفقودة.

فجأة طار الطائر وكأنما رأى شيئًا أخافه، نظرت خلفي بسرعة، فوجدتها هي.. (أروى)!

كنت كمن يحلم. ما الذي يأتي بها إلى هنا، قلت متعجبًا:

ـ (أروى)!

قالت وهي تلهج من صعود الربوة:

ـ أتعبتني يا (المحمون)!

ثم ألقت بجسدها على الصخرة إلى جواري وهي تضع يدها على صدرها الذي تلاحقت أنفاسه، سألتها:

ـ كيف أتيت إلى هنا؟

قالت بعد أن هدأت أنفاسها:

ـ كنت عائدة إلى السوق بعد أن أعددت الغداء لجدي فرأيتك تخرج من المنزل، تعجبت أنك تجاوزت السوق وسرت غربًا، فتبعتك إلى هنا.

ثم تنهدت في زفرة طويلة وقالت:

ـ أحمد الله أني وصلت إليك فقد كدت أفقد أثرك بين الأشجار الوارفة.

قلت مبتسمًا:

ـ ولماذا لم تنادي عليّ؟

أضاقت عينيها وزمّت شفتيها وقالت في مكر لعوب:

ـ أردت أن أعرف سرّك! فلك أسبوع لا تأتي إلى السوق وتبدي حججًا واهية.

ثم نظرت حولها في انبهار وقالت وهي تشير بيدها إلى الحدائق الغنّاء حولنا:

- إذن فهذه خلوتك التي تتركنا لأجلها!

ثم عقدت شفتيها وهي تهز رأسها مستحسنة وقالت في شغب محبب:

- عمومًا هي تستحق! فشتان ما بين غبار السوق وتلك الجنة الغنّاء.

كنت أحتويها ببصري وقلبي يخفق لكل حركة من يدها أو تقطيبة من حاجبيها أو زمّة من شفتيها، وكنت أتساءل كيف طوّعت تلك الفتاة ملامح وجهها الرقيق هكذا كي تزداد فتنة مع كل كلمة تنطقها، أدرت بصري بعيدًا عنها ونظرت إلى الأفق هربًا من سحرها واستدعيت كلمات (عمرو) التي باحت بها نفسه في إقامة كي أتشبث بها قبل الغرق في بحور الوهم.

أخجلها شرودي، وشعرت بالحرج من رقة همسات وجذبة حلت في طياتها بعض الحنان:

- أراك حزينًا يا (شمعون)! ما بك؟

قلت بعد تنهيدة أزاحت عني ثقل لساني:

- أشتاق إلى أمي!

أوجعتها كلماتي، ورأيت الشفقة في عينيها تمتزج بدمعة، تابعت وكانت المرة الأولى التي أبوح فيها لأحد بمثل هذا الحديث:

- أشعر وكأني شجرة غاب اقتلعت من جذورها وأمي هي تلك الجذور، لا أشتاق القومي ولا الديني، فقد علمت الآن أن العشيرة هي من طابت عشرتهم من الناس، وأن الدين هو الإيمان بذلك الرب المعظم الذي يتجلى بعدله على الجميع، أصدقك القول يا (أروى)، ما شعرت أن الرب حليفي إلا في هذه الأيام، كنت بين بني إسرائيل أشعر أن عقاب الرب أقرب إلينا من رحمته، حتى ونبي الله بيننا لم ينل أبي به الشفاعة! صدقيني لقد سئمت الحياة إلى جانبهم ولا أريد العودة إليهم، فقط أريد تلك المرأة التي تركت وطنها وأهلها من أجل حبها، فإذا بها تفقد الأهل والوطن.

ارتعشت شفتاي وأنا أقول:

- إذًا قُلْ لي أن ألقاها سأقبل قدميها كي تسامحني!

ثم انفجرت باكيًا وأنا أقول:

- ولكنني أخشى أن أموت قبل أن ألقاها ثانية!

لم تحتمل بكائي فانفجرت هي الأخرى باكية واحتضنت رأسي إلى صدرها بقوة وهي تربت على ظهري مرات متتابعة، ثم قالت ودموعها تتساقط حارة غزيرة:

- ستعود إليها يا (شمعون)! ستعود إليها لأنك في القلب، وأقسم لك إني سأدعو لك في كل صلاة حتى تراها، ولكن لا تحطم قلبي ببكائك! لا تحطم قلبي يا (شمعون)!

رفعت رأسي عنها فرأيت وجهها تغطيه الدموع وقد ذبلت تمامًا، هالني ما فعلته بوجهها الصبوح المرح الذي كان يفيض بشاشة منذ قليل، مددت يدي إلى وجهها فاحتضنت خدها الأيمن بكفي ثم مسحت دموعها بإبهامي، هدأ بكاؤها ولكن ظلت أنفاسها تتلاحق، مددت يدي الأخرى ثم مسحت الدموع عن خدها الآخر وظللت أحيط خديها بكفي حتى استكانت أنفاسها، تنهدت ثم أرخت أهدابها وأمالت خدها على كفي للحظات وكأنها تتوسده، ثم أمسكت كفي ورفعتها عن خدها وقبلتني في راحة يدي قبل أن تقول:

- هيا يا (شمعون)! سيفتقدنا القوم.

تنهدت أنا الآخر ثم قلت في مرح كي أخفف من وطأة المشاعر:

- نعم، ففي آخر مرة اجتمعنا فيها فوق الجبل داهمنا السيل وكدنا نغرق معًا

ضحكت وقالت:

- الأهم ألا تجد القبيلة كلها في انتظارنا تحت السفح مرة أخرى!

قمنا من جلستنا ثم هبطنا إلى السفح وقد تشابكت أيدينا كطفلين تشابكت أيديهما وجمعت بينهما الأقدار قبل ذلك بعشر سنوات في برية سين.

* * *

كان اليوم الأخير لنا في السوق، بعنا كل بضاعتنا تقريبًا ولم يتبق سوى بضع مناديل في حانوت (أروى) لم نجد من يشتريها لعيوب بها، فأهديتها إلى فتيات السوق. أمرنا الشيخ (ثابت) أنا و(ليث) أن نترك السوق وأن نرافق (شهبور) في الصباح الباكر إلى المخازن كي ننقل بضاعتنا الجديدة التي سنبيعها في مكة، بينما ذهب هو مع (عمرو) الذي تعافى من جرحه، إلا من عرجة بسيطة في مشيه، إلى التجار ليسدد ما عليه من نقود آجلة بعد أن باع بضاعته وربح منها.

كان المخزن معتمًا تصطف فيه أكياس تتراص في أحد جانبيه عشرات الجوالق من بخور حبشي وبهارات شرقية وحبوب القمح المصري الذي تتلألأ حباته في ضوء الشمس كحبيبات الذهب. وعلى الجانب الآخر وُضعت عشرات الأواني من الفخار الإفريقي الملون بالأصفر والأزرق والأحمر والتي لم أر مثلها في حياتي، وعلمت من (شهبور) أن هذا الفخار يباع لسادة مكة بمبالغ طائلة، ولهذا أمر (شهبور) غلمانه بأن يقوموا بنقل الجوالق أولاً على العربات الخشبية، وأن يتركوا الفخار للساعات الأخيرة قبل السفر حتى لا يتعرض للكسر.

كنت كلما حرّكت جوالاً من أجولة البهارات، أعطس بشدة، ثم يتبعني (ليث) في العطس، فيضحك (شهبور) الذي اعتادت أنفه على تلك الرائحة وصارت لا تؤثر فيه، ويقول:

- ماذا ستفعلان حين تفرغان ما بها؟!!

امتلأت العربة الأولى، فعدّ (شهبور) حمولتها ثم سجّل العدد في ورقة في يده وقال:

- عشرة جوالق.

ثم أعطى (ليث) عشر قصبات في يده وقال:

- ادفعهم إلى مُتولّي الحسبة عند البوابة. قصبةٌ لكل جوال.

ثم هتف:

- هيا انطلقوا!

فدفع الحمالون العربة، متجهين بها إلى خارج المخزن يتقدمهم (ليث)، بينما أخذت مجموعة أخرى من العمال في تجهيز العربة الثانية.

لاحظت أن التاجر (شهبور) يحفز عماله للعمل في سرعة وكأنه في عجلة من أمره، وفضح قلقه وتوتره احمرار وجهه وانفعاله الشديد على العمال كلما انفتحت أحد الأجولة خطأً، امتلأت العربة الثانية، في اللحظة التي دخل فيها أحد الأشخاص إلى المخزن، أحسست أن توتر (شهبور) قد ازداد حرجًا رأى ذلك الشخص، أشار إليه كي ينتظر ثم صاح في عماله:

- هيا إلى القافلة بسرعة! ثم قال لي آمرًا:

- تقدمهم يا (سمعان)!

خرجنا من المخزن وقطعنا الشارع الجنوبي من السوق في اتجاه الأسوار، ألقيت النظرات الأخيرة على السوق، وفي قلبي إحساس بالحنين كان يرافقني دائمًا كلما آن وقت الرحيل من مكان إلى مكان، فغدًا مع شروق الشمس، سنغادر تلك المدينة ولا أدري هل سيُقدَّر لي أن أراها ثانية أم لا، والحق أنني قد أحببت تلك المدينة رغم الأحداث السيئة التي وقعت في الأيام الأولى، ربما لأنها أول مدينة أراها في حياتي، أو لأنها قد قربتني من (أروى) بشدة!

اقتربنا من بوابات السور الشاهقة فهالني ارتفاعها وتعجبت كيف استطاع هؤلاء القوم بناءها. رأيت الحمالين يقفون في رتل طويل متصل للعبور من البوابة، وذكرني الزحام بأنني لم أعلم من (شهبور) عدد الأجولة، كما أنه لم يعطني الفضيات التي سأدفعها إلى متولي الحسبة، فقمت بعدّ الأجولة في سرعة فوجدتها اثني عشر جوالًا، قلت للعمال:

- انتظروني لحظات، سأحضر النقود من (شهبور) وأعود.

عدت في خطوات سريعة أقرب إلى العدو حتى لا أتأخر على العمال، وصلت إلى المخزن فوجدت الباب موصدًا، تعجبت وكدت أطرق الباب، ولكنني وجدت فرجة به فنظرت خلالها، وهالني ما رأيت!

كان (شهبور) يقف مع الرجل الذي وصل إلى المخزن قبل خروجي، ومعه اثنان آخران يجلسان القرفصاء ويوليان ظهرهما الباب فلم أر وجهيهما. كدت أشهق حينما رأيت قطعة من القماش إلى جوارهم عليها تل صغير من النقود الذهبية قد يتجاوز ما به عشرات الآلاف من الدنانير الذهبية. كانوا يغرفون بأيديهم حفنات، ثم يضعونها في القدور، وبعد أن تمتلئ القدر إلى منتصفها، يحشون نصفها الباقي بالقش، كي يخفوا ما بها من ذهب. لاحظت أيضًا أنهم يملئون القدور الصفراء فقط بالذهب، أما القدور الزرقاء والحمراء فكانوا يملئونها بحفنات من الحصى ثم يغطونها بالقش أيضًا. كان ما يحدث في سرعة وفي صمت، حتى إن خشخشات الذهب لم يكن مسموعًا بالخارج.

فرغوا من عملهم، فأعادوا القدور إلى وضعها، واستداروا خلال ذلك، فكدت أشهق حينما رأيت وجهيهما، فقد كانا الشيخ (ثابت) و(عمرو)، متنكران في زيّ الدومي وقد غطى وجهيهما وشاح أبيض!

تراجعت عن الباب حينما رأيتهم يتقدمون نحوه وسترت جسدي خلف جدار جانبي إلا من طرف عين ظل يتابعهم. خرج الثلاثة من الباب، وتركوا خلفهم (شهبور). نظروا يمنة ويسرة ثم تلثموا بالوشاح قبل أن ينطلقوا في طريق الشمال. وقد فضحت (عمرو) عرجته في المشي من بينهم!

انتظرت دقائق استجمعت فيها هدوئي، ثم دخلت إلى المخزن في هدوء، فوجئ بي التاجر (شهبور)، فبادرته بالكلام قائلاً:

- أنت لم تعطني النقدية، ومسؤول الحسبة بانتظارنا.

لا أدري لماذا رأيت في عينيه نظرة شك، رغم أنني حاولت أن أبدو طبيعيًا، أردفت وقد ارتعش صوتي قليلاً:

- لقد عددت الأحولة ووجدتها اثني عشر جوالاً.

فحصتني نظراته المتشككة ثم قال في حدة وهو يخرج النقود من نطاقه:

- لماذا لم تطرق الباب حين أتيت؟

نكست عيني إلى الأرض حتى لا تفضح كذبي، ورددت على سؤاله:

- لم يكن الباب مغلقًا.

تأكد لديه أنني أخفي شيئًا، ولم يكن (شهبور) بالرجل الغر ليتلاعب به شاب مثلي تفضحه ملامح وجهه! وضع النقود في يدي ببطء، ثم أطبق على أصابعي بقوة، وقال وهو يدنو بوجهه مني:

- اسمع يا (شمعون)، لا أخفيك سرًا أني لا أشعر بالراحة تجاه العبرانيين، ولقد رأيت منهم في حياتي ما يكفيني من الحماقات، ولكني وثقت بك لأجل هذا الشيخ الذي [illegible] لك.

ثم ازدادت ضغطة يده على كفي حتى آلمتني بشدة، وخرجت حروف كلماته حادة مشبعة بأنفاسه وهو يقول:

- ولكن وحق الرب، لأقتلنك إن باح لسانك بشيء رأيته خلسة أو صدفة في هذا المكان!

ثم أفلت يدي من يده وقال:

- اذهب ولا أريد أن أراك حتى ترحل القافلة من هنا!

* * *

الورقة الثالثة والثلاثون

استيقظت قبل شروق الشمس بساعتين، فارتديت ملابسي، ثم جمعت أغراضي البسيطة في صرة من القماش، وضعت اللفائف أولًا، وتعمدت أن أطويها مرات متعددة كي لا تشغل حيزًا كبيرًا من الصرة، ثم وضعت رداءً ونعلًا اشتريتهما من السوق، وارتديت بينهما الرداء والنعل المصريين الذي أعطانيهما (مهيور) كهدية، عقدت طرفي الصرة في قوة وتركتها إلى جوار الباب، جلست على الأرض في انتظار نداء الرحيل، تذكرت البوق الذي كان ينطلق في سماء رحلنا كلما جاء الإذن بالرحيل لبني إسرائيل من مكان إلى مكان، أما هنا فلا يوجد أبواق، فقط كان هناك منادٍ يسير حاملًا دفًّا صغيرًا ينقر عليه نقرات متتابعة بعصا صغيرة، ثم ينادي على أهل النزل للاستعداد للرحيل، وجدت كسرات من الخبز، وقطعة من الجبن متبقية من ليلة أمس فأكلتها ثم تجرعت بعض الماء من قربتي قبل أن أخرج إلى ساحة النزل.

فوجئت بأن أغلب أهل القافلة قد استيقظوا وأني آخرهم، كان الشباب يعاونون النساء والشيوخ في نقل أغراضهم من الحجرات إلى خارج الأسوار حيث يوجد الركب، رأيت (عمرو بن دومة) وأبيه وعمه الشيخ (ثابت) يقفان في وسط الساحة يتابعون انتقال الناس في اهتمام، ويتأكدون من أن أحدًا لم يُفقد، بينما جلس الشيخ (عامر) على حجر مرتفع متكئًا على عصاه، وقد وقفت إلى جواره (أروى) وشقيقها (ليث).

تقدمت إلى الشيخ (عابر) فقبلت يده، ثم ألقيت التحية على ولديه وأحفاده، تعجبت من هيئة الشيخ (ثابت) و(دومة) وولديها (عمرو) و(ليث)، فقد كانوا يرتدون زيًا أشبه بزي الفرسان وقد تمنطق كل منهم بحزام جلدي يتدلى منه سيف حديد، بدا لي أنه من السيوف التي اشتراها الشيخ (ثابت) من السوق.

لاحظ الشيخ (ثابت) تعجبي، فابتسم وقال:

- هكذا نرتدي في رحلة العودة.

ثم انتبه وكأنه قد تذكر شيئًا مهمًا، فقال لي:

- (شمعون) هذا لك!

وجعله يقدم لي الخنجر الذي كان قد أخذه مني يوم وجدوني في الصحراء، فابتسمت حين رأيته وقد شُحذ نصله ولُمِّع مقبضه، وشكرته على الحفاظ عليه.

خرجنا جميعًا من الأسوار مع بداية أول شعاع للشمس، كان الجميع قد اتخذ مجلسه إما على صهوة جواد أو على سنام ناقة أو مستترًا بهودج، رأيت حراس القافلة وقد اختلفت هيئتهم أيضًا عما سبق، فكانوا يتمنطقون بالسيوف الحديدة، كما أضافوا إلى ردائهم الأبيض قميصًا أسود تكسوه صفيحة من الحديد.

امتطيت صهوة جوادي ثم علقت صرة أغراضي على سرجه، أطلق حادي القافلة صفيرًا طويلًا، فعلمت النوق أنه قد آن وقت الرحيل، قامت النوق من جلستها تنوء بحُمولها، وترد على صفير الحادي بحنين ملأ جنبات وادي قرقور وكأنها تودع الأرض التي مكثنا فيها قرابة ستين يومًا.

تقدم بعض الحراس الركب وسار بعضهم في المؤخرة، بينما سرت أنا في المنتصف إلى جوار الشيخ (عابر) وأبنائه. لاحظت أن النوق التي تحمل الجرار تسير في مؤخرة القافلة، أما النوق التي تحمل القدور فكانت خلفنا مباشرة تليها النوق التي تحمل هوادج النساء، أدركت بسهولة أن (شهبور) قد نقل القدور ليلًا حتى لا ينكشف أمره، ولم تخطئ عيني تلك الناقة الهائلة التي كانت تسير خلفي وتحمل من جانبيها عشرات القدور الصُفر!

كان قرص الشمس قد تسلل إلى الأفق وانعكست أنوار الشفق الأحمر على جبال إدوم الأرجوانية، فتلون كل شيء حولنا باللون البرتقالي، حتى وجوه الناس وظهور الإبل!

امتلأ صدري بنسمات الصباح العليلة ودعوت الرب ألا يقع شيء يعكر صفوها، ثم سألت الشيخ (نابت):

- كم تبلغ المسافة إلى مكة!

قال بوجه جامد:

- مسيرة شهر.

ثم أردف وكأنها يشغل باله أمر ما:

- ولكننا سنرقف بالحجر أولا.

قال عمرو:

- هذا الطريق اسمه طريق البخور يا (شمعون)، وقد أسماه التجار بهذا الاسم لأن تجارة البخور والبهارات تسير عليه ما بين سبأ وكنعان ومصر، وتتوقف القوافل في مدن أقيمت على هذا الطريق للراحة والتزود بالماء، وأولى منازلنا هي الحجر.

سألته:

- ولماذا تسمونها الحجر؟

قال:

- لا أدري، ولكنها أرض لا نهوى البقاء بها على أي حال.

سألته مستفهمًا:

- ولم؟

قال:

- هي أرض (ثمود)، قوم أبينا (صالح)، ويقولون إن الله قد أهلكهم لذنوبهم.

قلت متعجبًا:

- أبونا (صالح)؟!؟! أهو من أبناء أنبياء (إرم)؟!

قال مسرعًا:

- كلا، بل سبقه بمئات السنين!

لم أكن قد سمعت عن نبي اسمه (صالح) من قبل، فسألته متعجبًا:

- وهل يقطن المدائن الحجريون الآن؟

قال:

- القليل ممن نجوا من قوم (صالح)، والكثير من القبائل التي نزحت إليها من الجنوب.

سألته:

- ولماذا تكرهون الحكومات لها؟

هز كتفيه وقال:

- لا أدري!

ثم ابتسم قائلًا وهو ينظر إلى عيني:

- يقولون إنها أرض ملعونة!

قلت متعجبًا:

- ملعونة؟

أجاب الشيخ (ثابت) هذه المرة:

- نعم، فالناس تخشى العيش في أرض وقع عليها العذاب.

سألته في تعجب وقد استهواني الحديث:

- ولماذا عاقب الرب ثمودًا وقضى عليهم بالعذاب؟

تنهد ثم قال:

ـ تلك سنة الله في الأمم يا غلام، طغيان، فتحذير، فعصيان، فعقاب!

ثم حكى لي ما كان من أمر ثمود وطغيانهم حتى وقع عليهم العقاب.

استغرقت في الصمت للحظات وأنا أتدبر قصتهم ثم تمتمت في تعجب وأنا أقول:

ـ ياالله! أتدري يا شيخ (نابت)، ما الذي أشعر به الآن؟

نظر إلي مستفهمًا، فقلت:

ـ إن الرب كان رحيمًا ببني إسرائيل، وبالرغم من المعاصي لم يعاقبهم الله بعد!

هم أن يعلق على كلامي، ولكن قاطعتنا جلبة في مؤخرة القافلة جعلت الحادي يأمر بالتوقف، نظرنا خلفنا فوجدنا حراس القافلة يشيرون إلى سحابة من الغبار، تبدو على مرمى البصر، وتقترب منا بسرعة، رأيت القلق على وجه الشيخ (نابت)، فاستدار بفرسه واتجه إلى مؤخرة القافلة، تبعناه أنا و(عمرو) و(ليث)، ولحق حراس المقدمة بنا، مرت لحظات قليلة، قبل أن تنقشع سحابة الغبار، لنرى فرقة من فرسان الإدوميين يمتطون جيادهم ويتقدمون نحونا في سرعة، ولم تمض سوى لحظات أخرى حتى أصبح المشهد جليًا، كان الضابط (كرونوس) يتقدم تلك الفرقة، مشهرًا سيفه في الهواء وفي عينيه شرٌّ عظيم.

توقفت الفرقة التي زادت عن عشرين فارسًا أمامنا، بعد أن أثارت سحابة عظيمة من الرمال ملأت أنوفنا وصدورنا، دار كرونوس بفرسه أمامنا بطريقة أثارت غيظي وغيظ من في القافلة، ثم جذب لجام فرسه بقوة فرفع الفرس ساقيه لأعلى وهبط بهما أمام الشيخ (نابت) كي يرهبه، ولكن الشيخ (نابت) ظل متماسكًا ولم يتحرك وكأنه لا يأبه لحركات (كرونوس) التي تفيض غلًا.

قال (كرونوس) بلهجة إدومية، خرجت من فمه ركيكة بغيضة، وهو يشير بطرف سيفه إلى الشيخ (نابت):

ـ أنتم لصوص!

رفع الشيخ (نابت) رأسه إليه وقال في كبرياء:

- لسنا لصوصًا، نحن تجار شرفاء!

أحاط الفرسان بالقافلة من كل جانب ليمنعوها من المسير، ثم قفز (كرونوس) من فوق صهوة جواده واتجه إلينا، يصاحبه فارس آخر يبدو من هجته أنه من أهل إدوم، قال الفارس:

- لقد خالفتم قانون إدوم، وأخرجتم ذهبًا من أرضها، وتلك سرقة عظيمة عقوبتها القتل!

خفق قلبي بشدة، وأدركت أن واشيًا قد فضح أمر القدور أو لعل أحد الحاصين قد شاهد نقلها في الليل، تقدم الشيخ (عابر) متكئًا على عصاه، وقال في هدوء وثقة للفارس الإدومي:

- لقد أتينا هنا للتجارة أيها الشاب، لم نحمل ذهبًا، ولا حاجة لنا فيه، وهذه بضاعتنا أمامكم لا يوجد بها ذهب ولا فضة.

مادت بي الأرض، وقد أدركت أن الشيخ (عابر) لا يعلم ما دبره ولده (ثابت) وحفيده (عمرو) مع التاجر (شهيور)، ابتسم (كرونوس) ابتسامة مقيتة، وأزاح بيده الشيخ (عابر) عن طريقه بصفاقة لا تليق بالشيخ الجليل، فأثارت طريقته (عمرو) الذي اشتدت قبضته على مقبض سيفه لولا أن أمسكت بيده حتى لا يرتكب حماقة أخرى، وهذه المرة ستكون العاقبة وخيمة!

سار (كرونوس) في غرور وهو يتفحص مؤخرة القافلة بعينيه بينما سار خلفه الشيخ (ثابت) و(عمرو) في تحفز، يمر بطرف سيفه جوالًا يتدلى من ظهر ناقة فسال منه الطحين على الأرض، فنظر إليه وتجاوزه دون أن يأبه لما تعكسه بان الغيظ على وجه الشيخ (ثابت) و(عمرو) ولكنهما تماسكا، استمر في سيره إلى أن وصل إلى هوادج النساء، أشار بيده إلى الفارس الإدومي، وقال:

- أنزلوا هؤلاء!

تردد الفارس الإدومي لحظة، وربما كان يعلم أن هذا التصرف غير مقبول عند قبائل الأعراب، ولكنه قال:

ـ أخرجوا النساء من الهوادج.

هتف (عمرو) في غضب نحو (كرونوس) وقال:

ـ يا لك من حقير!

حدق (كرونوس) نحو (عمرو) في تحفز وبدا أنه لم يفهم ما قاله (عمرو)، ولم يترجم الفارس الإغريقي ما قاله. فاحتوى الشيخ (عابر) الأمر بسرعة وهتف على الحراس:

ـ أبيحوا الجمال، وأخرجوا النساء من الهوادج.

خرجت النساء مذعورات، ورأيت الخوف في عيني (الزدي) وهي تحتضن أمها وتقف بها بعيدًا عن الفرسان. مزق (كرونوس) أستار الهوادج بسيفه، وأخذ ينظر فيها الواحد تلو الآخر، وكان في كل مرة لا يجد بداخلها شيئًا، يزداد رعونة وانفعالاً.

وقف يلهث بعد أن انتهى من آخر هودج وقد احتقن وجهه غيظًا، ومسح القافلة بعينيه وكأنه يتساءل: أين أخفى هؤلاء الأعراب الذهب؟

وقع بصره على قدور الفخار، فتقدم نحوها وقد خفق قلبي بشدة، ضرب بسيفه قدرة زرقاء فتحطمت بددًا وسقط عنها حصاها وقشها، جثا على ركبتيه وأمسك الحصى والقش بيده وقد تعجب، لماذا يحشو هؤلاء الناس القدور بالحصى والقش؟ لمعت عيناه واشتعلت حماسته وقد شعر بأنه قد أوشك على الوصول إلى ضالته، ضرب قدرًا ثانيًا ثم ثالثًا ثم رابعًا، ظل يحطم في القدور الزرقاء والحمراء وهو يلهث كالمجنون، وفي كل مرة لا يجد شيئًا سوى القش والحصى!

صرخ في غضب، ثم توجه نحو القدور الصفراء، فسارعت ضربات قلبي حتى كادت أن توقفه، رفع سيفه عاليًا في الهواء وهم أن يحطمها كما فعل سابقتها، ولكن نصل سيفه لم يصل إليها فقد تلقاه نصل سيف الشيخ (ثابت) وهو يصرخ فيه غضبًا:

- كفى!

اتسعت حدقتا (كرونوس) واحمر وجهه حتى بدا كشيطان رجيم، لم يستوعب كبرياؤه أن ينهره أعرابي من الصحراء أو أن يرد عليه نصلًا بنصل، فرفع سيفه مرة أخرى ودار به دورة في الهواء وهبط به على ذراع الشيخ (ثابت) الذي انفصل عنه في الحال، وهو يصرخ صرخة ملأت جنبات الوادي ألمًا.

وانفجر الوضع كبركان تساقطت حممه على الوادي حتى كادت أن تحرق كل من فيه، ارتعدت الأرض بصراع الشعوب، وصيحات الغضب من رجال القافلة، اشتبك الحراس في بسالة مع فرسان يزيدون عليهم في العدد مرتين، وانقض (عمرو) على (كرونوس) يتهال عليه ضربًا بالسيف يريد أن يقضي عليه، ولكن الفارس المحنك كان يتفادى طعنه، ويرد نصاله متحينًا الفرصة كي يسدد إليه طعنة في مقتل، وبينما كنت أبعد الشيخ (عابد) عن سنابك الخيل الثائرة إذا بـ(عمرو) يسقط أرضًا ساكنًا بعد أن أصيبت فخذه بطعنة، ورأيت (كرونوس) اللعين يدور بسيفه في الهواء ويتأهب لسداد طعنة قاتلة له، فأسرعت بالقفز نحوه وسددت له طعنة بخنجري المشحوذ، نفذت في كتفه الأيسر، فصرخ من الألم، ثم استدار نحوي وأطاح بسيفه نحو صدري كالمجنون ولولا رحمة ربي لنفذ النصل بين ضلوعي، أخرج خنجرًا من جانبه وهجم علي، يريد أن يفتك بي فشعرت أني هالك لا محالة.

فإذا برحمة ربي تتنزل علي مرة أخرى وإذا برمح يشق الهواء في سرعة ويمر إلى جانب أذني، ليستقر في صدر (كرونوس) اللعين، قبل أن يسقط على وجهه القبيح، التفت في سرعة لأرى صاحب الرمح، فإذا بي أرى رجلًا ملثمًا يمتطي جواده، ومعه عصبة من الرجال الملثمين يحملون حملة عظيمة على رجال (كرونوس) ويتهالون عليهم طعنًا وضربًا، وأسقط في يد الفرسان حينما رأوا المدد قد قلب موازين القتال، لا سيما بعد أن سقط قائدهم (كرونوس) مجندلًا، فنفخ الفارس الأدومي في بوق في يده، وكأنه يدعو جنوده للانضمام

إليه، ثم انسحب بهم في حنكة قبل أن يلقوا مصير قائدهم، تاركين خلفهم سحابة الرمال التي أتوا بها من قبل.

أماط الملثمون اللثام عن وجوههم، فإذا بي أرى الرجل الذي كان مع (شهبور) في اليوم السابق ومعه عصبة من الرجال، بدا عليهم المتانة وقوة البنيان، علمت فيما بعد أن اسمه (دعمي) وأنهم كانوا يراقبون القافلة من بعيد تحسبًا لوقوع خيانة، وقد صدق حدسهم. أسرعنا إلى تطبيب المصابين، وعاونت الملثمين في تضميد جراحهم، كان جرح (عمير) غائرًا ولكنه ليس بقاتل، أما الشيخ (نابت) فقد كانت إصابته بالغة وقد انفصل ساعده أو كاد عن مرفقه، أسرع (دعمي) بكتم النزيف بخرقة من القماش ثم ضمده بطبقات متعددة من الكتان، ثم أسند الساعد المرتخي بجريدة نخل، شدها ولفها بلفائف الكتان. كان الشيخ (عامر) في حال سيئة من الهلع والخوف على ولده وحفيده حتى أشفقت عليه من الحزن، أما (أروى) وباقي النسوة فكن على حال لا ينقطع من العويل والبكاء.

نظرت حولي فوجدت الأمر بائسًا حزينًا، أصيب الرجال، وتحطمت القدور، ومزقت الهوادج وسال الطحين على الأرض، أي ضرر ألحقه بنا ذلك المجنون قبل موته، وبينما كنت أضمد جرحًا لأحد الحراس إذا بسحابة غبار أخرى تعلو في الأفق، هتف الحارس محذرًا وقد ظن أن فرسان الأدوميين قد عادوا مرة أخرى، تأهب الملثمون في مواقعهم، ولكن ما إن تكشفت سحابة الغبار حتى رأينا (شهبور) يمتطي ناقة ومعه بعض الغلمان يمتطون الإبل ويتقدمون نحونا في سرعة.

توقفت الإبل أمامنا وأناخ (شهبور) ناقته ثم قفز منها وألقى بجسده الضخم نحو صديقه المسجى على الأرض وهو يبكي ويقول:

- فداك نفسي يا شيخ (نابت)، فداك نفسي يا صديقي الكريم.

قال الشيخ (نابت) في جهد بالغ:

- سأكون بخير يا (شهبور).

ثم ابتسم في ضعف وقال:

- اطمئن لم يصلوا إلى شيء.

مال (شهبور) رأسه باكيًا، ثم قام مسرعًا وقال للشيخ (عابر):

- لا يوجد متسع من الوقت يا سيدي، سآخذ الشيخ (ثابت) و(عمرو) معي. فلو عدنا إلى مكة لهلكنا في الطريق! قال الشيخ (عابر) مستنكرًا:

- نعود بها إلى بصرى؟!

قال (شهبور):

- كلا، بل ستمكث في قرية صغيرة مع صديقنا (دعمس) في جواره، واطمئن فلن يصلوا إليهما، أما أنتم فلتضربوا أكباد الإبل ليل نهار حتى تصلوا إلى الحجر، وهناك سيكون بانتظاركم رجال ما يريدون من الخيل والإبل ويصلحون ما أفسده اللعين بالقافلة.

قلت:

- وماذا لو عاد الجند مرة أخرى للانتقام لمقتل (كرونوس)؟

هز (شهبور) رأسه نفيًا ونظر إلى (دعمس) ثم قال:

- لن يفعلوا! فالليلة ستكون ليلة حزينة على المرتزقة الكنعانيين في بصرى.

صمت الجميع، في انتظار أمر الشيخ (عابر) الذي نظر في حزن إلى ولده وحفيده، فأومأ الشيخ (ثابت) إليه برأسه وكأنه يستحثه على الموافقة. فقال الشيخ (عابر) في صوت واهن:

- إن كان هذا قدر الله، فلا راد لقضائه!

ثم قال لولده (دومة):

- مُرهم أن يتأهبوا للرحيل!

ارتفع صراخ النسوة وهرولت (أروى) إلى أبيها المسجى فاحتضنته وقبلت

رأسه، طمأنها بصوت خفيض وقال:

- لا تقلقي، سأعود إليك!

ثم حمل الرجال، الشيخ (ثابت) و(عمرو)، ورأيت (عمرو) يبكي وهو ينظر بطرف عينه إلى (أروى).

وبينما كان الجميع يتأهب لركوب الخيل والاستعداد للانصراف دس التاجر (شهبور) في يدي ورقة مطوية، بها كلمات كانت ستغير حياتي بعد ذلك بأعوام.

• • •

الورقة الرابعة والثلاثون

وصلنا إلى وادي (الحجر) بعد خمس ليالٍ من السفر الموصول، لم نتذوق فيها طعم الراحة إلا لشربة ماء أو قضاء حاجة. استقبلتنا صحراء كئيبة الصُّفرة، طغت عليها الشمس بلهيبها، حتى شعرتُ بسخونة الحصى من فوق ظهور الخيل، نظرت حولي دونما أحجب الشمس عن عيني بيدي، لعلي أرى ظلًّا لشجرٍ أو حجر، فلم أجد سوى هضابًا باسقة تعلوها صخور مدببة كأسنام الإبل، لا ظل فيها ولا نبات، أشفقت على الشيخ (عابر) وعلى نساء القافلة من هذا الجهد المضني والألم البالغ، الذي أرهق القلوب والأجساد، حتى بدت القافلة عند دخولها إلى وادي الحجر كقافلة أشباحٍ، فقدت أرواحها على أبواب المدينة الملعونة!

كنت بين لحظة وأخرى ألقي نظرة على (أروى) الجالسة في هودجها المحرق، فأرى في عينيها نظرة ذابلة لم تتجاوز محجريها الغائرين من الإنهاك والتعب، فيعتصر قلبي حزنًا عليها، وأتمنى لو تتاح لي الفرصة كي أضمها إلى صدري، لعلها تستمد من فؤادي ما تربط به على قلبها.

أما أنا فلم أكن أشعر بالحزن والألم فحسب، بل كان شعوري بالهم أكبر، وكان همي هو تلك الأمانة التي وضعها (شهريار) حول عنقي، فأي شيء أثقل على النفس من أمانة تحملها لمن لا يثق بك! فإن ضيّعتها الأيام رغمًا عنك، صدَّق ظنه فيك، ولم يشفع لك عنده عذرٌ!

تحسست بيدي رسالته التي قرأتها أكثر من عشر مرات خلال الأيام الخمسة الماضية، أعاد عقلي كلماتها وكأنها أنطقته مسه أناملي للّفافة المطوية في جيب جلبابي.

- «لكن السّر بينك وبين الشيخ (عابر) حتى أعود، إن هلكت فالمالُ لكما، وإن عُدت فلكَ الرُّبع مما حفظت!»

وحين أخبرت الشيخ (عابر) بأمر رسالة (شمهور) وأطلعته على السر الذي أخفاه عنه ابنه وصديقه، بكى واشتد عليه الهم والحزن وقال:

- ليتنا فقدنا المال ولم نفقدهم!

قلت له مهونًا:

- لم يكن (كروزيوس) ليتركهم أحياء في كل الأحوال يا شيخ (عابر)، وحسبنا أن لديهم الآن فرصة في النجاة.

مسح لحيته التي ابتلت بدموعه وقال:

- بل حسبنا الله، ولا شيء غيره، فهو أرفق بهم منا.

وصلنا إلى نهاية الوادي، فوجدنا في استقبالنا ركبٌ من أصدقاء (شمهور) يقفون في منتصف الطريق ويحملون في أيديهم قرب الماء البارد. ابتهج قلبي لرؤيتهم، نزلنا من فوق ظهور الدواب ثم ترجلنا جميعًا، صافحهم الشيخ (قدامة) والشيخ (عابر) وبدا أنهم يعرفون بعضهم من قبل، تناولت قربة من الماء من أحدهم، ثم شربت حتى ارتوى جفاف حلقي، أمسك بعضهم بزمام النوق والخيل المنهكة وساروا بها مع الخوادم كي يوردوها إلى مشرب الدواب الموجود خلف الهضبة، بينما صحبنا دليل منهم إلى مساكن القرية بأعلى الهضبة، ورغم إرهاق الصعود إلى الجبل، لم أستطع أن أمنع ذهولي مما رأيت حولي، فلم تكن بيوت الثموديين مباني بنيت بالحجر، بل نحتت نحتًا في الجبال، حتى بدت الجبال من حولي كبيوت نحل تساوت أضلاعها بدقة وكأنما نحتتها يد الخالق. وهتفت في نفسي عجبًا حين رأيت صخرة مهولة تحولت إلى قصر مشيد،

نُحِتَت واجهته وتزينت بيد ناحتها وكأنها قطعة خشبية تلقفتها يد نجار ماهر!

أشار الدليل إلى جبل به عشرات البيوت وقال:

ـ هنا إقامة الرجال

ثم أشار إلى جبل أصغر وقال:

ـ وهنا إقامة النساء.

دخلت إلى إحدى الحجرات فتنسمت أنفي لأول مرة نسيمًا رطبًا وهواءً عليلًا لا يفارق قيظ الوادي، وتعجبت كيف تحتفظ تلك الحجرات الأشبه بالكهوف ببرودتها، نظرت حولي فرأيت الجدران الصخرية وقد استوى سطحها وفتحت بها نوافذ للضوء والهواء كما نحتت بها مقاعد وأسرة وقنوات تحمل مياه الأمطار من سقف الحجرة إلى حوض بداخلها، وتذكرت ما قاله الشيخ (ثابت) عن بأس الثموديين، وأيقنت حين رأيت ما صنعوه أنهم كانوا أشد بأسًا مما ظننت.

خرجت فوجدت رجال القافلة وقد وقفوا للصلاة في ساحة منبسطة أمام الحجرات وقد يمموا وجوههم شطر الشمال، تعجبت أن الشيخ (دومة) هو من يقوم بإمامتهم في الصلاة وأن الشيخ (عامر) لم يكن بينهم، جاء في خاطري أنه قد أخلد إلى الراحة بعد مجهود السفر الشديد، فلم أسأل عنه، كما أن ذهني كان مشغولًا بأمر الناقة المحملة بقدور الذهب وكنت قلقًا من كونها بعيدة عن عيني وخشيت من أن تقع مصادفة غير محمودة تزيد الأمر تعقيدًا فنزلت إلى مشرب الدواب كي أتفقدها، وصلت إلى ساحة البئر فوجدت حارسًا من القافلة مع أصدقاء (شهيون) يقفون إلى جوار الناقة، ينتظرون دورهم في السقيا، كان مشرب الدواب متسعًا، يتوسطه بئر ضخم ترفع منه المياه ثم تصب في قنوات على الجانبين تنهل منها صفوف الدواب، وكلما فرغ صف من السقيا، أصدره الرعاء كي يحل محله صف آخر، علمت من الحارس أن هذه البئر كانت تشرب منها ناقة صالح، وأن الناس بعد هلاك ثمود لم يعودوا

يشربون منها وجعلوها لسُقيا الدواب فقط تكريمًا للناقة!

انتظرت معهم قليلًا حتى حان دورنا، أراد أحد العمال أن يضع عن الناقة حمولتها قبل أن تشرب، وهم أن يرفع أحد القدور، ولكني نهرته عن ذلك، وقلت له محذرًا:

- لم تعد لدينا سوى تلك القدور، فحذارِ من أن تتحطم منها واحدة!

ظلت الناقة تنهل من الماء لفترة طويلة، كي تعوض العطش الذي عانت منه خلال الأيام السابقة، وبعد أن فرغت من سقياها سحبتها من لجامها فاستجابت لي وسارت خلفي في خضوع. تعجب الحارس من صنيعي وسألني:

- ألن تتركها في مناخ الدواب؟!

قلت له كاذبًا:

- أمرني الشيخ (عامر) بأن أحملها وحدها بعيدًا عن البعير كي لا تتحطم القدور.

صعدت بالناقة حتى وصلت إلى مدخل حجرتي، فأنختها في الساحة المقابلة للحجرة ثم ربطت حبلها حول حجرٍ كبير. كانت الساحة خالية، وقد بدا أن رجال القافلة قد فرغوا من صلاتهم ثم أخلدوا للراحة. قمت بحمل القدور ووضعها الواحدة تلو الأخرى داخل حجرتي حتى امتلأت الحجرة بالقدور إلا من موضع السرير. نفدت قواي أو كادت بعد هذا الجهد المتصل، فألقيت بجسدي على السرير المنحوت من الحجر والمفروش بصوف الغنم وقد هممت أن أنام يومًا أو بعض يوم!

لا أدري كم من الوقت مرّ، ولكن الوقت كان وقت سحر حينما أيقظتني هزة رقيقة في ظلام الليل، فتحت عيني متحفزًا لأجد الشيخ (عامر) يجلس على طرف السرير وفي يده قنديل من الزيت، أشار إليّ بيده كي أهدأ وألا أصدر صوتًا، ثم أشار إلى عبدين أسودين وقفا أمام باب الحجرة فأمرهما بأن ينقلا القدور إلى محفّة خشبية وضعوها أمام الباب.

قام العبدان بنقل القدور في سرعة، وأنا ما زلت على عجبي وبعد أن فرغا قام الشيخ (عابر) من مجلسه ونادى بصوت خفيض:

- (عدنان)!

دخل إلى الحجرة شاب أعرابي، شديد الطول عريض الكتفين حتى أن رأسه كادت أن تلامس سقف الحجرة. قال الشيخ (عابر):

- (عدنان) حداد من الحبوس وبيننا وبينه صهر، قابلته عند الظهر وطلبت منه أن يصهر لك الذهب في سبائك حتى يتيسر لنا حمله.

استحسنت الفكرة ووجدت فيها حلًا لمعضلة القدور. صاح الشيخ (عابر) موجهًا حديثه للحداد:

- متى تفرغ من ذلك يا (عدنان)؟

قال (عدنان) بصوت رنان يشبه طرقات المعدن:

- لن تزيد عن بضعة أيام يا سيدي الشيخ.

هز الشيخ رأسه وقال:

- أحضرها إلى هنا في حجرة (شمعون)، وقت أن تفرغ منها، وحذار أن يعلم أحد بالأمر سواك.

قال (عدنان) في ثقة:

- سآتي بها إلى هنا، ولن يعلم العمال بما تحويه القدور.

ثم استأذن (عدنان) في الانصراف.

جلس الشيخ (عابر) على حافة السرير، فضممت ساقي وأفسحت له مكانًا للجلوس، كان الإجهاد يعلو وجهه ويبدو أنه لم ينم يومًا كافيًا، قلت مشفقًا:

- ألا تستريح سيدي الشيخ، فقد شق عليك السفر والسهر

تنهد ثم قال:

- يستريح الجسدُ بالنوم ويستريحُ القلبُ بالذكر، وقد كنتُ أُناجي النور في ظلام الليل!

نظرت إليه في إشفاق وقلت له معزّيًا:

- سأدعو لهما بالنجاة!

قال في تسليم أعجزني عن الكلام:

- تعلّمنا الشكر على النعمة والصبر على البلاء، وأن نثبت على الأعمال الصالحة في أيام الانكسار.

تنهد ثم تابع:

- اعلم يا [illegible] أن قضاء الله ليس سهمًا طائشًا، وإنما سهمٌ نافذ تحكمه يد القدر، فيصيبُ به من يشاء، وقد يشاء لعلم تخفيه، لحكمة لا نستوعبها.

كنت لأول مرة أسمع كلمة (القدَر) فقلت له مندهشًا:

- وما القدَر؟

صمت قليلًا ثم قال:

- القدرُ يا بني هو التدبيرُ بميزان الحكمة، واللطفُ بميزان الرحمة، والتقويمُ بميزان العدل، وكل ما يقدّره الله لنا يكون إما حكمةً يدبّرها، أو لطفًا من رحمته، أو تقويمًا لما أعوجّ من أمرنا، ولهذا وجب علينا الثناء على قدره في كل حال.

نزلت كلماته على قلبي كقطرات الندى فقلت:

- ما أصدق كلماتك يا سيدي!

ثم قلت حالمًا وأنا أقيس كلماته على حالي:

- قدّر الله لي أن أفارق أهلي، وأن أمرّ بتلك الأحداث تقويمًا لمعصيتي، ثم كان لطفًا بي إذ جمعني بكم، وأشعر أن هذا لم يكن عبثًا، وإنما لحكمة لا أعلمها، وما زلت في انتظار معرفتها.

وضع يده على كتفي ثم قال:

- اسمع يا (شمعون) قد صارت لك بيننا مكانة، وصرت عندي بمنزلة الحفيد، ولهذا سأبوحُ إليك بأمر لم أخبره لأحد من قبل.

أومأت برأسي موافقًا دون أن أنطق فقال:

- أشعر بأني لن أقوى على معاودة مكة بعد أن نصل إليها، ولا رغبة لي في العودة إلى برية سين مرة أخرى.

فغرت فاهي دهشة، وقد أُسقط في يدي من الحيرة، فتابع قائلاً:

- لقد عزمت على أن أترك التجارة وأمر القافلة إلى (ثابت) إذا رزقه الله سالمًا أو إلى (ميمونة) إذا قضى الله أمرًا كان مفعولًا! أما أنا فسألتقي إلى جوار البيت هذه بقية من العمر، وأكتفي من السفر والترحال، وأريد أن أقضي ما بقي من حياتي إلى جوار بيت الرب.

قلت في حزن حقيقي:

- ولكن صحبتك هي ما تهون علي أمر الغربة!

ربت على كتفي في عطف وقال:

- ولهذا أخبرتك قبل أن أخبر أبنائي.

ثم تابع:

- وأرى يا بني أن تظل في صحبتهم إلى أن يشاء الله لك أن تجد قومك في برية سين، وانزع من رأسك فكرة الأرض المقدسة، فالله موجود في كل مكان.

لو كان هذا الحديث قد دار بيني وبين الشيخ (عامر) قبل ذلك بشهور، ما ترددت في رفض طلبه، ولكنني بعد ما مرَّ بي في الأسابيع الماضية وجدتني أقول له في استسلام وقد اغرورقت عيني بالدموع:

- لم يعد لي أهل سواكم يا شيخ (عامر)، وحتى يجمع الله بيني وبين أهلي فلن أفارقكم ما حييت.

قبل رأسي في عطف ثم قام من مجلسه، فقمت احترامًا له، حمل مصباحه

في يده ثم خرج من الباب وقبل أن ينصرف قال لي:

- لا تترك بابك مفتوحًا أثناء الليل، ففي الحجر تكثر قطط الصحراء والضباع ليلًا.

* * *

كان اليومان التاليان مليئين بالأحداث، شرعنا في اليوم الأول في إصلاح الخوابج التي حطمها (كروبوس)، وخوذه حتى أعدناها كما كانت، كنت سعيدًا بما صنعناه وأعادتني تلك الأعمال إلى ذكريات النجارة في نزلنا السابق. فاستيقظت في صباح اليوم الثاني وقد تلبسني روح أبي (زخاريا) النجار، وقد تمكنت فهمي عن صنع عربة خشبية، تحمل لنا الأجولة وتجرها الأحصنة بدلًا من الرحال، على غرار العربات التي رأيتها في إدوم. قضيت اليوم كله في البحث عن ألواح الخشب الملائمة في سوق (الحجر)، والتي كانت رغم رواجها، صغيرة الحجم ولا تقارن بسوق (بصرى) الهولة في إدوم. استأذنت الشيخ (دومة) في بعض المال كي أشتري منقابًا ودقاقًا وحجرًا للكشط، وما يلزمني من أحبال ودُسر، فأعطاني إياها، تعاونت مع بعض الرجال في نقل الألواح التي جلبناها إلى ساحة ظليلة خلف التل الذي نقطن به، كي أبدأ العمل بالعربة، قضيت وقت الظهيرة كله في تقطيع الألواح وكشطها بالحجر في حماس حتى مالت الشمس للمغيب، اكتشفت أني لم آكل شيئًا في خلال اليوم، وقد شعرت بقرصات الجوع في بطني، ولكنني فضلت أن أستحم قبل أن آكل، علمت أن هنالك حمامًا بالقرب من البئر، يستحم به أهل المدينة، فراقت لي فكرة أن أكافئ نفسي ببعض التدليل بعد هذا اليوم الشاق، نظرت إلى قطعتي النقود اللتين بقيتا معي، فقررت أن أشتري بإحداهما طعامًا، وأن أدفع الأخرى مقابل دخول الحمام.

وصلت إلى الحمام الذي بني بالحجر فوجدته مفتوحًا، وقد جلس على بابه رجل حبشي، مهول الجسد، غليظ الوجه والشفتين، يشقق خداه بعلامات بدت كالأخاديد في جلده السميك، دفعت إليه قطعة النقود، فأشار إلى باب جانبي قائلًا:

- اذهب إلى المسلخ!

علمت أن المسلخ هو حجرة واسعة مقسمة إلى عيون يدخلها الناس كي يخلعوا فيها ملابسهم، وكان على بابها رجل يبدو أنه من أهل الجحر، يعطي للداخل إزارًا كي يستتر به، خلعت ملابسي على استحياء ثم استترت بالإزار، وأنا أمسك عقدته بحرص شديد خشية أن تنفك، رأى الرجل ارتباكي وفهم أنها المرة الأولى لي في الحمام، فأشار إلى حجرة داخلية وقال:

- اذهب إلى المغطس.

دخلت إلى حجرة متسعة يتوسطها حوض كبير يتصاعد منه البخار وقد امتلأت أنفي بالبخار الرطب، رأيت عددًا قليلًا من الأشخاص بالمغطس، ويبدو أنها كانت نهاية اليوم بالنسبة للمكان، احترت ركنًا منزويًا بعيدًا عن الرجال الذين جلسوا في حوض المغطس وقد غمرتهم المياه إلى أعلى صدورهم، هبطت الدرج، فغمرني الماء الدافئ، وشعرت به يتخلل جسدي، فجلست على كرسي من الحجر وأنا في حال بين الطفو والسكون جعلني أشعر بالنشوة والاسترخاء، غمرت رأسي بالماء ومكثت تحت سطحه بقدر ما سمحت به أنفاسي، فامتلأت أذني بسكون محبب، حجب عن رأسي صخب العالم ونفض عنها زخم الأفكار، أعطاني عامل المغطس حجرًا للتدليك، فأخذت أمحو به درن الجسد ومتاعب اليوم في سعادة بالغة.

ثم دخل إلى حجرة المغطس رجلان بدا عليهما الوجاهة والأهمية، وأثارا جلبة عند دخولهما، أسرع عامل المغطس بإفساح الطريق لهما، فنزلا إلى المغطس في موضع لا يبتعد عني كثيرًا، كان الأول بدينًا تتهدل أثداؤه وتستقر على بطن عظيمة، أما الثاني فكان وسطًا في حجمه، يلمع شعره المصفف بالدهن والزيت وتلمع عينه ذكاء حتى وهو صامت.

- كان الرجلان يتحدثان بصوت عالٍ في نقاش بدا أن وجهات النظر تختلف فيه.

قال الرجل البدين وهو يبلل كتفيه وصدره بالماء:

- هلك (الحارث) وترك خلفه غلاماً تائهاً في بحور الشعر ولا يلتفت لأمر البيت، لو كان (الحارث) حياً ما جرؤت قبيلة خزاعة على منازعة (جرهم) في أمر البيت.

التقطت أذني اسم (جرهم) وتذكرت حديث الشيخ (عامر) معي من قبل عن القبيلة التي تقوم على أمر البيت في بكة، ولكنني لم أعرف من هي خزاعة.

قال الرجل ذو الشعر المنمش في حديث محسوب الكلمات:

- لقد ولى عهد (جرهم) وأطل عهد (خزاعة).

احمر وجه الرجل الحضري، وقال في حنق:

- أي سفه هذا؟! ما كان لبني (إسماعيل) وأخوالهم من (جرهم) أن يتركوا أمر البيت لـ(خزاعة)!!

قال الرجل في هدوء وهو يبسط شفتيه:

- لا تضع بني (إسماعيل) و(جرهم) في حلف واحد، فقد سخط بنو (إسماعيل) على (جرهم) بعدما وقع من أمر (إساف) و(نائلة).

بدا على الرجل أنه لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر فقال:

- من هما (إساف) و(نائلة)؟!

نظر الرجل حوله وكأنما يتحرج مما سيقوله، فأبعدت بصري عنه حتى لا يعلم أني ألقي السمع على حديثهما، ثم قال:

- يقال إن رجلاً من (جرهم) اسمه (إساف)، قد عشق فتاة من الجنوب اسمها (نائلة) وأنهما كانا يتواعدان سراً.

استخف الرجل بكلامه وقال:

- وماذا في ذلك، إن قصص العشاق تروى ليل نهار في أشعار المادحين في أسواق بكة.

هز الرجل رأسه وقال:

- الأمر مختلف. فالناس تقول إن (إساف) قد واعد (نائلة) ذات ليلة، واختبأ معها في الكعبة حتى لا يفتضح أمرهما، وبعد أن لعبت الخمر برأسيهما وقع عليها داخل الكعبة وفجَرَ بها، وبعد أن خرجا من الكعبة، انقضت عليهما صاعقة بين الصفا والمروة، فمسختهما حجرين هناك، والناس يخشون من أن تحل اللعنة على مكة بما فعله رجل من (جرهم).

ابتسمت عينا الرجل البدين لحظات، ثم انفجر ضاحكًا وقد اهتزت أثداؤه مع صدى قهقهته وهو يقول:

- المعروف إنها الكذبة ابتدعتها خزاعة كي تؤلب الناس على (جرهم)!

ثم هزَّ رأسه غير مصدق، وقال وهو مستمر في الضحك:

- أي شيطان أوحى إليهم بأن يضعوا حجرين بين الصفا والمروة في الليل ثم يأتي أحدهم في الصباح فيروي لهم تلك القصة المضحكة.

ثم علا ضحكه أكثر وهو يقول:

- أو لعلهم اتفقوا مع الشاب العاشق على تلك الكذبة كي يفرّ بمحبوبته!

تبرم الرجل النحيل من ضحكه وقال:

- أيًا ما يكن، لقد افتتن الناس بالقصة، وسار أتباع (عمرو بن لحي) الخزاعي بين الناس وهم يقولون إن السبب في ذلك هو (عمرو بن الحارث) الجرهمي الذي أذهب عقول الناس بالخمر والشعر، ووجد ابن لحي من بين الناس من يبغي الفتنة وينتظر أن تدور على (جرهم) الدوائر.

صمت الرجل البدين عن ضحكه، ثم عبس وجهه وهو يقول:

- أتوقع تلك الخسة منه، فكم كرهت (عمرو بن لحي) وخبثه!

ثم قال في جدية:

- اسمع يا (زيد) لا بد أن تخرج للحج هذا العام، فظني أن (خزاعة) ستحالف مع باقي العرب لدحر (جرهم) وما ينبغي لنا أن نتيح لهم تلك الفرصة.

قال الرجل الملثم الذي علمت في تلك اللحظة أن اسمه (زيدًا):

- أتنصر (جرهم) على (خزاعة)، وأنت (الغوث) سيد قبيلة (طيء) وبينك وبين (خزاعة) عهد؟

قال الرجل في حسم:

- بل أنصر دين (إبراهيم)! فوالله لو تم الأمر لـ(خزاعة) لبدلوا دين (إبراهيم) حسدًا من عند أنفسهم وحقدًا على بني (إسماعيل)!

مط (زيد) شفتيه وقال:

- الأمر لك يا سيد قبيلة طيء.

ولم أستطع أن أبقى أكثر من ذلك فخرجت من المقهى ثم حثثت جسدي وكلي شوق إلى أن أحضر إلى الشيخ (عابر) لكي أقص عليه هذه القصص.

في المساء كنت أجلس إلى الشيخ (عابر) وولده (دومة) في الساحة المقابلة لحجرة الشيخ (عابر) وقد خيم الوجوم والحزن عليهما، قال الشيخ (عابر):

- ظننا أن (الحارث) سيصلح ما أفسدته (جرهم)، ولكن القدر لم يمهله.

قال الشيخ (دومة) في شفقة وغضب:

- حزني على ولده (عمرو)! لا يزال فتى يافعًا، ولن يصمد أمام مكر (عمرو بن لحي)؟!

ثم أردف في حماس:

- يجب أن تجتمع بنو (إسماعيل) خلف (عمرو بن الحارث) يا أبتاه.

أطرق الشيخ (عابر) صامتًا لحظات ثم قال:

- ما كان لبني (إسماعيل) أن يقاتلوا لأمر من أمور الدنيا يا ولدي!

قال (دومة) في دهشة:

- ولكنه أمر من أمور الدين يا أبتاه، (جرهم) هم ولاة البيت!

قال الشيخ (عابر):

- ولكنهم لم يؤدوا حق البيت!

تنهد (دومة) ثم قال:

- أيًا ما فعلوه يا أبتاه في الماضي، فهو أهون من أن تلي (خزاعة) أمر البيت.

وجدتني أشترك في الحديث فقلت:

- لقد سمعت (الغوث) يقول إنهم سيبدلون دين (إبراهيم) إذا ما تولوا أمر البيت، أحق هذا يا شيخ (عابر)؟

تنهد ثم قال:

- ذلك رجمٌ بالغيب يا بني، ولا تخلو من حسد بين القبائل.

قال (دومة) مدافعًا:

- ولكن العرب تعلم أن (خزاعة) لم تتحول عن دين (إبراهيم) إلا من أجل الزعامة!

قال الشيخ (عابر):

- وهل تبغي (جرهم) غيرها يا بني؟!

لم أفهم حتى تلك اللحظة، لماذا يرفض الشيخ (عابر) نصرة (جرهم)، بينما يتحمس الشيخ (دومة) لذلك، وبدا لي أن هناك من التفاصيل ما أجهله، فوجدتني أسأل الشيخ (عابر):

- هل يمكن أن تقع الحرب في بكة يا سيدي؟!

بدا على وجهه الانزعاج، وصمت قليلاً ثم قال:

- الحرب فتنة يا غلام، والقتال في البيت الحرام أمر كبير، أسأل الله ألا تراق دماء في بكة.

ويبدو أن سؤالي قد أثار قلقًا لديه فقام واقفًا وقال:

- هيا يا (دومة) كي ننام، وغدًا نذهب أنا وأنت إلى بيت (الغوث) ولعلنا نعلم منه ما يخلف سوء ظننا.

* * *

الورقة الخامسة والثلاثون

استيقظت مبكرًا في اليوم التالي، وقد عزمت أن أفرغ من صنع العربة، أخذت قربة الماء وقطعة علاة بالعسل أعطيتها من طعام الأمس ثم هبطت من التل وذهبت إلى الساحة التي وضعت بها الألواح والأدوات بجوار صخرة كبيرة، كان الجو صحوًا جميلًا وقد زاد من صحوه نسمات الصباح اللطيفة التي هبّت من جهة الشمال، وظلال التل التي امتدت على الساحة أمامي، فشمرت ساعدي، وحزمت جلبابي، وبدأت في العمل في همة وحماس، ثقبت الألواح من أطرافها بالمثقاب والدقماق، وكنت مع كل طرقة أتذكر أبي في مشاهد عدة، تارة وهو يصنع أعمدة خيمة الاجتماع، وتارة وهو ينحت تابوت العهد وثالثة وهو يصنع كوخنا الذي كان عامرًا بالمحبة والود في واحة «رفيديم»، وبعد أن فرغت من ثقب الألواح قمت برصها جنبًا إلى جنب، ثم جمعتها بالأحبال قبل أن أحكمها من زواياها وجوانبها بالقش حتى صارت كمحفة كبيرة متينة، أردت بعد ذلك أن أرفعها كي أضع لها القوائم التي سترتكز على العجلات، فجمعت بعض الأحجار ووضعتها فوق بعض، ثم رفعت المحفة من أحد جانبيها على تلك الأحجار ووضعت جانبها الآخر فوق الصخرة.

وقفت ألهث من المجهود الذي بذلته، فقد كانت الألواح بعد تجميعها ثقيلة، وخطر على بالي طيف (رام) الذي كان يساعد أبي في صنع الصناديق، وشعرت بالفخر أني قد قمت بهذا العمل العظيم وحدي دون مساعدة! فتحت قربة

الماء، وضربت دفقتين منها، وما أن وضعتها عن فمي حتى رأيتها تقف أمامي.

كانت شاحبةً واهنة، وقد تضاءل جسدُها عن ذي قبل، تنظر إليَّ بعيونٍ باكية، لا تخلو من اللوم وكأنها تقول لي «كيف انشغلت عني وتركتني في أحزاني؟» ألقيت القربة جانبًا، واندفعت إليها ملهوفًا، احتضنتُها في قوة بلا إحجام ولا تردُّد، أضمُّها بين ذراعيَّ شتات قلبها المبعثر، وأحسُّ بخفقان قلبي دبيب الحياة لقوائمها المكسور، صلحت أنفاسُها كغريقٍ يتلقَّف أنفاسه مصعوقة، قبل أن تشهق باكيةً بأنفاس متحرِّقة، أحسستُ همَّها في صدري، تركتُها تبكي حتى تكتفي بدموعها، ولُذتُ بالصمت، فقد علمتني أوجاع الحياة أن للحزن نصيبًا من البكاء الذي لا تحبسه الكلمات، وأن تلك التمازي لا تقف أمام طوفان الدموع الهادرة في فورة الأحزان، وحين الحاظها أن تهدأ حين تخف المآقي، وتنحسر الأمواج.

أجلستها على صخرة إلى جواري، وأخذت أنظر إليها وهي تجفف دموعها براحتيها، نظرة اختلفت عن ذي قبل، لم تعد نظرة الصبي الذي فارق زهق الصبا إلى ثورة الشباب، تضطرب مشاعره لكل خلجة تأتي بها أنثى، لا سيما إذا كانت تلك الأنثى هي المرأة الوحيدة التي رآها في حياته غير أمه، بل صارت نظرة رجل يرى امرأة يتعلق بها قلبه، أفضت إليه بمكنون قلبها، فخلعت عنه صبغة الصبا، ووهبته قوامةً لا يحملها إلا رجل!

قسمت فطيرة العسل شطرين، فمنحتها شطرًا وقلت لها:

- تأكلين؟! أنا لم آكل منذ الصباح!

تناولتها متثاقلة وقالت:

- وأنا لم آكل منذ أتينا إلى هنا، وما زالت نفسي تعاف الطعام!

قلت لها مشجعًا:

- كُلي! فأنتِ بحاجة إلى القوة كي تتحملي السفر إلى مكة!

سألتني:

- ومتى السفر إلى بكة؟

لم أقص عليها بالطبع أمر (عدنان) الحداد ولم أشأ كذلك أن أزعجها بأخبار بكة المحزنة فأجبت:

- لا أعلم، ولكني أظن أن إقامتنا هنا ستمتد لأسابيع.

تنهدت، ثم قصصت قصة بسيطة من شظية العسل.

قلت لها:

- قد حدثني الشيخ (عابر) عن أمر لم أسمع عنه من قبل اسمه (القمر). أسمعت عنه يا (أروى)؟

ابتسمت في جد وقالت:

- أسمعه وأراه، وأحبه يا (السمعون).

قلت لها وأنا أنظر إلى عينيها مباشرة:

- أتدرين يا (أروى) أنك....

ارتجفت شفتاي فصمت ولم أنطق، فنظرت إلي وقالت:

- أني ماذا؟

خرج صوتي مرتجفًا خفيضًا وأنا أقول:

- أنك قدري.

أغمضت عينيها وكأنما أسكرتها الكلمة، فانحلت عقدة لساني وقلت:

- نعم، حين أنظر إليك أرى صحيفة أقداري وقد سُطر فيها اسمك؟ ألم تجمعنا الأقدار صغارًا ثم جمعتنا كبارًا؟! ألست أنت أول من رأيته حين أفقت بعد أن أشرفت على الهلاك في البرية؟! أشعر أحيانًا أن الرب قد أمر أبي بالهجرة إلى (رشة)، لا لشيء، إلا كي أراك! وتحدثني نفسي بأنّ ما تبعت جيش (عفرة) بإرادتي! وإنما كنت أسير على خطى مسحورة كي ألقاك.

ثم قلت وقد اختنق صوتي:

- صدقيني أيتها الصغيرة لولا وجودك بحياتي الآن، لقضيت عليَّ كمدًا وحزنًا على فراق أمي، ولكنها «ألطاف القدر» كما يقول جدك! تلك التي منحتني أسبابًا أخرى كي أتشبث بالحياة.

كانت عيونها تذرف دمعًا صامتًا فقلت لها وأنا أمسح دموعها:

- لن أنتظر حتى يعود أبوك، سأتحدث إلى الشيخ (عامر) وإن شئت لتحدثت إلى الشيخ (دومة) أو إلى أخيك (ليث)، فأنا أود أن أخطبك لنفسي يا (أروى).

وضعت يدها على فمي، وكأنها تمنعني أن أواصل في الكلام، وقالت حزينة:

- كلا يا (شمعون)!

صعقتني كلماتها ومادت بي الأرض لحظة قبل أن أرد كلمتها مذهولًا:

- كلا؟!!

ثم قمت من مجلسي وأنا أشعر بالخزي، فأمسكت بيدي وقالت في لهفة:

- انتظر يا (شمعون)، أشعر مثلك بكل ما قلت وزيادة، ولكني أستحلفك بالله ألا تتحدث إلى أحد، لا لأخي، ولا لعمي ولا لجدي، لا تخبر أحدًا يا (شمعون)!

كنت أنظر إليها في ذهول رجل حالم قد استحال حلمه إلى كابوس، فاستجمعت قواي، وقلت بصوت متهدج خرج مني بصعوبة:

- لماذا؟ أمِن (عمرو)؟!

انتبهت مذعورة، وقالت مندهشة:

- كيف عرفت؟

لم أجبها عن سؤالها، ولكن سألتها:

- هل أخبرك بحبه؟!

قالت في بكاء صادق:

- لم يخبرني بشيء، ولم أعلم شيئًا، كان (عمرو) أخًا لي منذ الطفولة، وقضيت

عمري وأنا أعتبره أخي الأكبر و(ليث) أخي الأصغر، حتى كان اليوم الأخير لنا في إدوم.

نظرت إليها مستحثًا، فمسحت دموعها ثم قالت:

- في ذلك اليوم تحدث (عمرو) إلى أبي، وأخبره أنه يريد أن يخطبني لنفسه، وكان معهما عمي (دومة)، فأبدى أبي سعادته بذلك، ولكنه طلب منه أن يرجئ الحديث إلى حين الشيخ (عامر) بعد العودة إلى مكة.

صمتت لحظة ثم قالت باكية:

- وفي مساء ذلك اليوم جاءتني أمي لتزف إليّ الخبر، ولكنها وجدتني شاردة حزينة، قلت لها إنه (عمرو) أخي ولا أشعر برغبة في الزواج منه، فتفهمتني وحذرتني من أن أقول شيئًا من هذا الكلام حتى نعود إلى مكة، وبت ليلتها باكية حزينة، أدعو الله أن يصرف عني هذا الأمر بأي وسيلة، حتى وإن كانت فقداني حياتي!

ثم دفنت رأسها في راحتيها وقالت منتحبة:

- ثم كان هذا الصباح المشئوم الذي شعرت بأنني السبب فيما حدث فيه، وكأن الله أراد أن يعذبني بدعائي!

ثم قالت وقد زادت وتيرة بكائها:

- أشعر أني آثمة يا (شمعون)! أشعر أن الله يعاقبني، وأنه يلبغني العذاب صعصر على دعائي فأفقدني أبي وابن عمي.

شعرت بقلبي يتمزق، ولكني وقفت عاجزًا عن الرد، نظرت إليها مشفقًا ولكني كنت شاردًا في حالي أنا أيضًا.

يا رباه! لماذا تسحقني الحياة بضرباتها إلى هذا الحد؟

لماذا أجد نفسي دائمًا في مفترق طرق مخيّرًا بين أمرين أحلاهما مرّ؟

لماذا يتلاعب بي ذلك (التيه) اللعين في كل أمر من أمور حياتي؟

يغزل لي الأمسيات فأهرول إليها مستبشرًا، لأجدها في النهاية حبائل صياد ماكر أوقع فريسته ووقف ينظر إليها في سعادة وهي تتخبط في شراكه!

وشعرت بالغضب على نفسي.

ولعل لحظة الغضب تلك كانت سببًا في أن تتجلى أمام عيني حقيقة حياتي وجوهرها.

فقد أدركت أن الحياة ما هي إلا اختيار!

وأن (الطفل) في الحياة هو ذلك العاجز عن الاختيار!

ومهما تكن تبعات ذلك الاختيار فهي خير له من أن يكون لا شيء.

فأقسمت ألا أستسلم لذلك الإحساس [illegible] المستسلم، وأن أكون فاعلًا متفاعلًا لا [illegible].

فجلست على صخرة وأمسكت يديها وقلت:

- اسمعي يا (أروى)، قد آمنت بأنك قدري، ولن يفرقنا سوى ذلك القبر.

ثم قلت في حسم:

- يوم أن نصل إلى مكة سوف أخطبك لنفسي من الشيخ (عامر)، فإما وصال بعدها وإما فراق.

نظرت إليّ في هلع وقالت:

- أخشى الفراق يا (مسعود)!

فقلت وأنا أذيب بصري بعينيها:

- الفراق خير لي من أن أموت كمدًا وأنا أكتم حبك في قلبي!

* * *

في المساء كان كبراء القبيلة يجلسون في حلقة بالساحة المقابلة للتل، وقد أوقدت نار في المنتصف أضاءت ما حولها ومنحت بعض الدفء في تلك الليلة التي غشيتها بعض البرودة، رغم نهارها القائظ، فقد كنا في ذلك الوقت من

العام تتأرجح بين صيف قائظ في الصباح وشتاء زمهرير في المساء. جلست إلى جوار (البث) بينما جلس الشيخ (عابر) والشيخ (دومة) في الجهة المقابلة وقد أحاط بهما مشايخ القبيلة ورجالها بعد أن عادا من الماء (المعوث) محملين ببعض التفاصيل. قال الشيخ (عابر) في أسى:

- نجوم الفتن في سماء بكة وتوشك أن تحط على أرضها والناس في غيهم يتبارون!

ثم قال:

- لقد جمعت (خزاعة) أمرها واستمالت أبناء عمومتنا من بني (إسماعيل) كي ينتزعوا ولاية البيت من (جرهم)، وقد جمعتكم لأخذ محض الرأي والمشورة.

قال الشيخ (دومة) الذي همّه تحمل بعض الخصومة:

- بل إن (خزاعة) قد تمادت وساروا خلف كاهنتهم (طريفة) العرّافة وحق علينا أن نردها عن غيها قبل أن تتخضب رمال بكة بالدماء.

علمت بعد ذلك أن (طريفة) هذه كانت عرّافة من (خزاعة)، ولها مكانة وكلمة مسموعة عند (عمرو بن لحي) سيد (خزاعة) وأنها هي التي أشارت عليه بدخول بكة.

صمت الرجال قليلاً، إلى أن قال أحدهم:

- يا شيخ (عابر)، ما نرضى بغي (خزاعة)، ولكن بغي (جرهم) أكبر! لقد امتلأت السوق بأقاصيص ظلمهم لأهل بكة وحجيجها.

وكأنما أزالت كلماته الحرج عن باقي الناس، فقال رجل آخر:

- صدقت! لقد قال لي أحدهم اليوم إنهم استحلوا حرمة البيت وإنهم يأكلون من المال الذي يهدى إليه سرًّا وعلانية، ويفرضون العشر على التجار.

شعرت أن الشيخ (دومة) قد ساءه أن تدور دفة الحديث نحو القدح في (جرهم)، فقال مذكرًا أبناء عمومته:

- يا بني يطور، لا تنسوا أن (جرهم) هم أخوالنا، ويجب علينا نصرتهم،

وإن أعوج شيء من أمرهم فنحن أولى بتقويمه.

تساءل أحدهم في مزيج من الرفض والاستنكار:

ـ وكيف نصلح ما أعوج من أمرهم؟!

قال الشيخ (دومة):

ـ بالنصح والإرشاد!

ماتت لمحة الأمل على وجه السائل، وقال:

ـ لو كانوا يستمعون للنصح، لاستمعوا لشيخ القبائل من قبل!

وقال رجل آخر:

ـ عجبًا لك يا أبا (عمرو)، أتريد من بني (إسماعيل) أن يقاتلوا (خزاعة) كي تؤول (جرهم) أمر البيت، أوليس من الأفضل قتالهم من أجل ولاية البيت التي انتزعتها (جرهم) منا من قبل؟!

قال الشيخ (عامر) في حسم:

ـ لن نقاتل لأجل (جرهم) ولن نقاتل لأجل ولاية البيت، ولن نرفع سيف بني (إسماعيل) إلا في الحق.

ثم أردف:

ـ يا بني يطوره، إن الله قد افتدى دماء أبيكم (إسماعيل) ونجاه من الذبح قربانًا له، فكيف تبذلون دماءكم فيما هو أدنى؟ والله لو كان الوصول إلى ولاية البيت بقطرة دم من بني (إسماعيل) ما سفكناها، فقد أمرنا الله بأن نحفظ دماءنا وألا نؤديها إلا بحقها، فخير لنا وللباقي بطون بني (إسماعيل) أن نعتزل تلك الفتنة وعلى (جرهم) أن تبوء بإثمها، وعلى خزاعة أن تحمل أوزارها، ولنحمد الله أن نجانا من الإثم وأن عافانا من الوزر.

صمت الجميع أمام كلمات الشيخ الفاصلة، فتابع:

ـ ولقد اتفقت مع (الغوث) سيد قبيلة طيء أن نعقد مجلسًا من قبائل العرب في أشهر الحج لعلنا ننهي الأمر صلحًا ونحقن الدماء بين القبيلتين.

استجاب الناس لكلام الشيخ فقالوا:

ـ سمعًا وطاعة، بارك الله فيك يا أبا (ثابت).

فأشار إليهم الشيخ بالانصراف، فانصرفوا الواحد تلو الآخر، وبقي الشيخ (عابر) والشيخ (دومة) وأنا.

قال الشيخ (دومة) في لوم وغيظ:

ـ لقد خذلت أخي الليلة أمام القوم يا أبته.

قال الشيخ (عابر) في هدوء:

ـ لا تجعل الغضب تأخذك إلى طريق الحرب يا (دومة)، فكل الدماء حرام في الأرض الحرام.

قال:

ـ حتى وإن طردتنا (خزاعة) من مكة!

قال الشيخ (عابر) متعجبًا:

ـ ملككما؟! لسنا ملوكًا بل خدامًا للبيت يا (دومة).

وجدتني أقول في عفوية:

ـ وماذا لو أفسدت (خزاعة) دين (إبراهيم) يا شيخ (عابر)؟

لا أدري لماذا، أثارت كلمتي الشيخ (دومة)، رغم أنها صادقة كانت تؤيد حجته، فوجدته يصب غضبه عليّ ويقول ناهرًا:

ـ كف عن هذا أيها الغلام، ودع أمر بني (إسماعيل) لبني (إسماعيل)! وما دعاك أحد كي تشاركنا ذلك المجلس؟

شعرت بالخجل وهممت بالانصراف:

ولكن الشيخ (عابر) قال:

ـ اجلس يا (شمعون).

فازداد ضيق الشيخ (دومة) أكثر، وقام من مجلسه قائلًا:

- استأذنك يا أبتاه في الانصراف، فغدًا أبكر إلى السوق، عمت مساء!

ثم قام وانصرف وأنا أشعر بجسدي يذوب خجلًا، انتظر الشيخ (عابر) حتى انصرف، وقال:

- لا تحزن يا (شمعون)، فأنا أدرك خوفك ونبل مشاعرك.

قلت في صدق:

- أصدقك القول يا شيخ (عابر)، إني أخشى على دين أبينا (إبرام) مثلما أخشى على دين (موسى)، وأعلم حقًا أن النور الذي أوتيه (موسى) إنما هو قبس من مشكاة أبينا (إبرام)، ولقد رأيت موسى وقد صدعوا الصحف ونبي الله لا يزال بين أظهرهم، وقد حملهم الشيطان على سمع جبل حول الله على فتنته، ودرب (إبراهيم) و(موسى) أنا لا أحتمل الآن فتنة تأتي بها (خزاعة)، فتعبد الأوثان في بيت يتجلى ربكم عليكم فيه برحمته.

نظر إلي متسمحًا وكأنما أعجبه صدق كلامي، ثم قال:

- يعلم الله يا (شمعون) أني أخشى ما تخشاه، ولكنها سنة الله في أرضه ولا راد لقضائه، وقد علمت بأن الله قد بعث في بني إسرائيل نبيًا، وأنا أشعر بأن شمس مكة ستغرب ولو إلى حين!

نظرت إليه متعجبًا، فقال:

- تولد الأمم ضعيفة، فتتولاها رعاية الله حتى تنشب، ثم تنطلق فتية قوية بالسير على خطى الآباء الأولين، ثم تهرم وتضعف وتموت! ثم يستبدلها الله بقوم آخرين!

أثار كلامه تفكيري ووجدتني أسأله سؤالًا ظل يلح على عقلي من وقت لآخر، وكنت أخشى أن أسأله لأحد فقلت له:

- لماذا لم يخلقنا الله جميعًا مؤمنين يا شيخ (عابر)؟!

صمت لحظات، ثم تنهد، وأشار إلى صفحة القمر التي أطلت علينا بيدرًا وهو يقول:

- انظر إلى القمر يا (شمعون)، ما رأيك به؟ أليس بخلقٍ عظيم؟

قلت له:

- بلى.

قال:

- والشمس والنجوم والسماء والأرض والبحار والجبال، كلها مخلوقات الله العظيمة أليس كذلك؟

قلت:

- بلى.

قال:

- ولكنك أنت خلق الله الأعظم!

انتابتني رعشة ...

- خلق الله الأعظم؟!

قال مؤيدًا بإيماءة من رأسه:

- نعم، بل أنت أعظم من الملائكة والجن، أتدري لماذا؟!

هززت رأسي وأنا لا أزال مأخوذًا بكلماته فقال:

- لأنك من تحمل الأمانة! أتدري ما الأمانة يا (شمعون)؟!

هززت رأسي نفيًا، فقال:

- إنها حرية الاختيار!

ارتطمت كلماته بقاع نفسي فأحدثت صدى لأفكار كانت تعصف بي منذ يوم سبق وأنا أتحدث إلى (أوري) فنظرت إليه مشدوهًا وقلت:

- حرية الاختيار!!

أجاب:

- نعم، فالكل مسخرٌ لأمره، إلا أنت! إن شئت آمنت به وإن شئت الكفر!

لن يمنع تعبه عنك إن جحدته! ولا يضمن لك نعيم المنتهى إن آمنت به! فالجزاء كله مؤجل للآخرة وهذا أصعب ما في الأمر. فلو كان السفر قريبًا لعلمنا مقصده، ولكن بعدت علينا الرحلة وطمست عنا نهايتها!

شعرت برجفة، واغرورقت عيني بالدمع، وقلت:

- ولكنها أثقل أمانة يا شيخ (عابر)؟! أليس ظلمًا على الإنسان الضعيف أن يحمل وحده من بين المخلوقات تبعة اختياره!

ابتسم وقال:

- ضعيف! انظر حولك يا (شعور)، قد سخر ذلك الإنسان «الضعيف» الجبال فنحتها بيوتًا، وسخر البحار وركب الفلك، وسخر الإبل والدواب والأنعام، ونال منها مأكله ومشربه وملبسه. أتحسبه ضعيف يا (شعور)؟! فقد منحه الله بعضًا من صفاته، ونفخة من روحه، ومنحت له أسرار العلم والقدرة على الاختيار.

ثم قال في أسى:

- الإنسان ظالم جاهل حين يظن النشأة بلا منشئ، وأن السفر بلا مقصد، وأن الرحلة بلا نهاية!!

انسالت الدموع على وجنتي في بطء، فربت على كتفي وقال:

- هيا بنا يا بني فقد اشتد البرد.

وحين اختليت بنفسي، فاضت دموعي وبكيت، كما لم أبك من قبل! بكاءً حلوًا نزلت دموعه حارة، صافية، فغسلت قلبي ومنحته صفاءً لم أشعر به من قبل، وحين مسحتها بيدي شعرت بأنها قد أضاءت وجهي بنور في تلك الليلة المقمرة أضاء كل عتمة صادفتها في حياتي من قبل.

وفي تلك الليلة، أدركت أن الشيخ (عابر) قد عبر بي من منازل التيه التي مررت بها في الأشهر السابقة إلى منزلة من اليقين ما كنت لأصل إليها دونه.

* * *

الورقة السادسة والثلاثون

انتهيت أخيرًا من صنع العربة! كانت فرحتي طاغية حينما علقت قائميها الأماميين على سرج أتان بيضاء تشبه الأتان التي جئنا عليها أنا وأمي من أرض مصر، وما إن تحركت الأتان وسحبت خلفها العربة، مصدرة صريرًا من عجلاتها الخشبية، حتى رقص قلبي فرحًا وأنا أهتف من السعادة، فقفزت فوق مقعدها الأمامي وأمسكت لجام الأتان ثم جذبته بقوة فانطلقت العربة في سرعة وقد علا صوت عجلاتها حتى لفتت أنظار الناس العائدة من السوق في نهاية اليوم، درت بالعربة حول التل والناس ترمقني بإعجاب، ورآني (ليث) الواقف في الساحة فوق التل، فصرخ في سعادة مشجعًا:

- رائع يا (شمعون)!

ثم هبط من التل وجرى إلى جوار العربة ثم قفز فوقها في خفة ورشاقة وجلس إلى جواري، وكم كانت سعادتي بالغة حينما رأيت (أروى) تقف فوق تل النساء تنظر إلينا في سعادة، وهي تلوح لنا بيديها كي نلحق بنا.

صعدنا إلى ساحة التل بقدر ما استطاعت الأتان أن تصعد ثم أوقفت العربة، فهبطت إلينا (أروى) المسافة المتبقية، أمسك (ليث) بيدها، وساعدها في الصعود كي تجلس إلى جوارنا، ثم انطلقنا بالعربة على مهبط التل الذي ساعد انحداره على انطلاقها في سرعة كادت أن تطيح بنا من شدة اندفاع الهواء، وأخذ (ليث) و(أروى) يصرخان من شدة الإثارة والفرح، وأثارت

الحلية التي صنعناها انتباه الناس في تزال الرجال، ووجدت بعض أفراد القبيلة ينظرون إلينا من فوق التل المقابل وقد علت وجوههم الابتسامة، درنا حول التل دورة كاملة وعزمت على الدوران مرة أخرى، ولكني توقفت فجأة جاذبًا لجام الأتان بأقصى ما أستطيع من قوة، فقد وجدت الشيخ (دومة) يقف في منتصف الطريق أمامنا ويبدو على وجهه الغضب، هبطنا من فوق العربة احترامًا له، نظر إلى (ليث) نظرة غاضبة ثم قال:

- أعد الحمار إلى البيت!

انصرف (ليث) دون أن ينطق بكلمة، واستدارت (الروى) خلفه مطأطئة رأسها وقد اعتراها بعض الخوف، انتظر حتى ابتعدا مسافة ثم قال لي في حدة لم يحدثني بها أحد من قبل:

- اسمع يا غلام، إن للقبيلة أعرافًا لا ينبغي أن تتجاوزها!

قلت محتدًا:

- أعتذر يا شيخ (دومة) إن تماديت في فرحي!

لم يلتفت إلى اعتذاري وقال:

- أراك لا تدرك أننا في أيام حزن لا وقت فيها لمرح الصبية!

شعرت بمزيج من الخجل والإهانة، فتابع في لهجة أكثر قسوة:

- كما أن فتيات القبيلة لا يختلطن بالغرباء، فلا يغرنك سماحة الشيخ معك!

لم أجد ما أقوله، وعجز لساني عن النطق، وأزاح عني تلك اللحظة مقدم الشيخ (عابر)، الذي رأى العربة فقال:

- بارك الرب فيك يا (شمعون)، ما تخيلت أنك بارع إلى هذا الحد.

زفرت ما في صدري من توتر وأنا أقول:

- شكرًا سيدي الشيخ ثم وجهت كلامي للشيخ (دومة) قائلًا:

- والشكر للشيخ (دومة)، فهو الذي أقرضني المال ولولاه ما صنعتها.

قال (دومة) في جفاء لم يخف عن الشيخ (عابر):

- لم أعطك المال قرضًا يا فتى، بل هو حقك، فنحن لا نبخس الأجير حقه

شعرت بالخزي من كلمة (الأجير)، وأدركت أن الشيخ (دومة) يريد أن يضع حدًا لعلاقتي بهم، ابتلعت لعابي وأظهرت في صوتي الامتنان رغم الألم وأنا أقول:

- حقي أخذت طعامًا ومأوى وزاد عليه الكرم واللطف منكم سيدي الشيخ، واسمح لي أن أرد إليكم المال في مكة، فقد عزمت أن أعمل في التجارة حين نصل.

سمع الشيخ (عابر) بأن حديثًا مهمًا يجري، فقال مغيرًا الحديث:

- أتحب العمل في التجارة يا (مسعود)؟

ثم أردف:

- أتدري أن نبي الله (نوح) كان نجارًا؟!

كنت على علم بأمر هذا النبي، فقد أخبرني أبي أن أطيب من في الأرض هم من أبنائه، ولكنني لم أعلم أنه كان نجارًا، فقلت له مجاريًا حديثه:

- حقًا؟

قال:

- نعم، فهو الذي صنع الفلك التي حملت المؤمنين، ولو أراد الله أن ينزل عليه الفلك لأنزلها كما أخرج ناقة صالح، ولكنه أراد له أن يصنعها بيديه وحمله يقينه إلى أن يصنعها في صحراء لا يم فيها ولا بحر

قلت في عفوية:

- اليقين يمنح القوة يا سيدي، ويقيني أن الرب لا يخذل أنقياء القلب

شعرت بالرغبة في أن أنصرف، فقلت:

- اسمح لي سيدي الشيخ بأن أعيد العربة والأثقال إلى مربط الدواب فقد أوشكت الشمس على المغيب.

تركتهما وفي قلبي وخزة، وشعور بالحزن من تغيُّر الشيخ (دومة) الذي لم أعلم له سببًا، درت حول التل واقتربت من مربط الدواب فوجدت الفتى (ليث) بانتظاري، اقترب مني وقال:

- لا تحزن، قد سمعت كلامه!

قلت وأنا أتنهد:

- لست حزينًا منه، ولكنني حزين من نفسي، فمثله أرقه الربط في القرب!

هزّ رأسه نفيًا وقال:

- الأمر ليس كذلك يا (شمعون)، فهذا هو المعتاد من عمي (دومة)!

ثم تابع في حزن:

- أتمنى ألا تطول غيبة أبي، فإني لن أطيق الحياة في غيابه!

شعرت بأن الفتى يحمل في قلبه الكثير من الحزن فقلت مهونًا:

- سيعود بمشيئة الرب يا (ليث)!

ثم سألته:

- ولكني لا أعلم لماذا تغير خاطر الشيخ (دومة) نحوي؟!

تنهد ثم قال:

- لم يتغير، فتلك مشاعره دائمًا نحو الغرباء!

ضايقتني كلمته، فقال موضحًا:

- إن عمي (دومة) شديد الاعتزاز بقبيلتنا وقبيلة زوجه (هند) الجرهمية! ويشعر بفضلهما عمن سواهما، وربما قد ساءه أنك تحدثت في أمر بني (إسماعيل) و(جرهم) أمام الناس.

سألته:

- وهل أمك من قبيلة الشيخ (عابر)؟!

هز رأسه نفيًا وقال:

- كلا إن أخوالي فرع من قبيلة يقال لها (غُبيل) سكنت في الشمال من بكة في أرض يقال له (يثرب).

ثم أردف في حلم:

- أتدري يا (شمعون) أنني أتمنى دائمًا أن أعيش في (يثرب)، لا يزال قلبي معلقًا ببساتينها ونخيلها وهوائها الطيب، وما زلت أذكر ديار أخوالي المحاطة بأشجار الزيتون وكرمات العنب.

أدركت أن الصبي قد اكتسب رقة القلب من أمه، والتي اكتسبتها بدورها من الأرض التي نبتت فيها، فقد علمتني الحياة أن الإنسان مثل النبات، يُزهر بقدر ما تمنحه أرضه، فمن ذاق شظف الصحراء لا يُزهر إلا شوكًا، ومن ذاق نعيمَ المدن، يُزهر ورودًا وياسمين.

ثم قطع تفكيري قائلًا:

- العجيب أن (عمرو) لم يرث شيئًا من عمي (دومة)، بل إن الناس كانت تظنه أخي من كثرة شبهه لأبي! ثم قال معجبًا:

- (عمرو) هو فارس قبيلتنا، وأميرها المرتقب! فقد أخذ من أبيه غيرته على قبيلتنا وحبه لها، وأخذ من أبي الحكمة وحب الناس، أتعلم يا (شمعون)، أني على يقين بأن (عمرو) سيكون سيد بكة في يوم من الأيام.

ارتجف قلبي غيرةً، وحاك في صدري شعورٌ كرهت أن يطلع عليه (إيث)، الراقد في مهده، وأنا أقول صادقًا:

- نعمَ الشاب (عمرو)، أسأل الله أن يحفظه سالمًا هو ووالدك الشيخ (ثابت).

كانت الشمس قد أشرفت على المغيب، فشكرته وانصرفت عائدًا إلى المنزل، وبينما كنت أصعد التل لاح لي القمر الذي صار أحدب في السماء، يتوارى خلف الغمام في خجل، ويبهت نوره في أولى لحظات الغروب وكأنما ينتظر أن تغيب الشمس كي يحين دوره ويسطع نوره في السماء، فشعرت بأن السماء

تهمس في أذني قائلة: إن في الحياة أقمارًا وشموسًا، وأذن للأقمار أن تخبو في حضرة الشموس!

* * *

في الليلة التالية، استيقظت وقت السحر على طرق طفيف على باب حجرتي، قمت وفتحت الباب فوجدت الشيخ (عابر) يحمل قنديل الزيت وخلفه (عدنان) الذي امتد ظله فوق الشيخ (عابر) حتى طغى على ضوء المصباح، وهو يحمل بين ذراعيه شيئًا أخفاه بغطاء من الكتان.

دخلا إلى الحجرة، فأغلق الشيخ (عابر) الباب خلفه وقال في صوت خفيض:

- ضعه هنا يا (عدنان).

وضع (عدنان) حمله على الأرض ورفع عنه غطاء الكتان، فوجدته صندوقًا بديع الصنع، مصنوعًا من خشب الساج المطعم بالنحاس في جوانبه، ذكّرني بصندوق العروس الذي كان يصنعه أبي في حيّنا للفتيات المقبلات على الزواج، فقلت مبتسمًا:

- أهذا صندوق العروس؟!

أومأ (عدنان) برأسه وهو يقول بصوته الرتيب الذي يشبه طرقات المعدن:

- نعم، ولكننا نسميه هنا (صندوق الميت).

ثم أردف:

- ولكن هذا الصندوق ليس صندوقًا عاديًا.

ثم جلس القرفصاء فتساوت رأسه مع كتفي وأشار إلى موضع أربعة مزاليج دقيقة أخفاها بدقة في حواشي الغطاء، وهو يقول:

- لا ينفتح غطاء الصندوق إلا إذا فتحت مزاليجه الأربعة أولًا!

وبعد أن فتح المزاليج، رفع القفل عن الغطاء، فانفتح غطاء الصندوق وسط دهشتنا بصنيعه.

أشار إلى الشيخ (عابر) كي يدني مصباحه من الصندوق، فأدناه ونظرنا إلى جوف الصندوق فبدا أمام أعيننا فارغًا، ابتسم لدهشتنا، ثم قال بسعادة جعلت صوته أكثر رنينًا:

- لو فتح أحدهم الصندوق سيجده فارغًا، ولكنه إذا جذب تلك الذراع الصغيرة هنا سينفتح قاع الصندوق هكذا.

ثم جذب الذراع التي تدلت في خفاء في زاويته، فإذا بقاع الصندوق يدور منقلبًا لأسفل كاشفًا عن حجيرة سرية في قاعه تراصت بها عشرات السبائك من الذهب التي تلألأ بريقها مع ضوء المصباح حتى كاد أن يذهب بالأبصار.

قال (عدنان):

- عشرون سبيكة وكل سبيكة بألف دينار.

همست في انبهار قائلة:

- يا للروعة! كيف صنعت هذا الصندوق الأعجوبة.

قال:

- لم أصنعه ولكن أعطاني تاجر من (مصر) منذ عشر سنوات كي أصلحه، فلما تأخرت عليه باعه لي مقابل مبلغ زهيد، ثم ضحك قائلًا:

- قضيت ثلاثة أعوام كي أتمكن من إصلاحه وفهم طريقة صنعه العجيبة.

ابتسم الشيخ (عابر) وقال:

- حقًّا إن مثل هذه الأعاجيب لا يأتي بها سوى المصريين.

ثم أردف وهو ينظر إليه شاكرًا:

- ولن نجد أفضل من هذا الصندوق كي نحفظ فيه أمانة (شهبور).

قام (عدنان) من قرفصائه فكادت رأسه أن ترتطم بسقف الحجرة، ثم قال في أدب جم:

- أرجو أن تقبله هدية مني يا شيخ (عابر).

ربت الشيخ (عابر) على يده وهو يقول:

- هدية مقبولة يا بني.

ثم وضع كيسًا كبيرًا من النقود في يده وهو يقول:

- وهذا أجر ما صنعته بالذهب، ونحمد لك أن حفظت أماننا وكتمت سرنا.

شكره (عدنان) ثم أخذ غطاء الكتان فأسدله على كتفه وشد طرفه على وجهه قبل أن يخرج من الباب وكأنه يتخفى، رغم أن ميت لا يخشى على أعنى يقف على التل المقابل في ظلام الليل!

سألت الشيخ (عابر):

- أين ستخفي الصندوق؟!

قال:

- لن نخفيه! هذا هو صندوق (شمعون) السحري البارع، الذي سُرقت أوراقه من قبل فصنع هذا الصندوق كي يحفظ فيه أوراقه وأغراضه.

ابتسمت لما قال، وشكرته على ثقته بي قائلًا:

- أشكرك يا شيخ (عابر).

أجاب:

- الشكر لك يا (شمعون) على حفظ الأمانة، وكتمان السر.

قلت في شيء من الحرص:

- أليس من الأفضل أن يعلم الشيخ (دومة) بأمر الذهب؟!

سار خطوات نحو السرير الحجري فوضع القنديل على الأرض ثم جلس على السرير وقال:

- نعم! ليس من الأفضل أن يعلم (دومة)، ولا أي شخص آخر في المنزل، حتى يعود (ثابت) و(عمرو) أو يعود (شهيون)!

جلست على الأرض أمامه والقنديل بيني وبينه ثم قلت وأنا أتحسس كلماتي:

- أخشى أن يستاء الشيخ (دومة) في يوم من الأيام من أن شابًا عبرانيًا قد علم سرًا أُخفِي عنه!

قال وقد فهم ما أرمي إليه:

- المال ليس مال القبيلة يا بني، وقد عهد إليك صاحبه بحفظه، فأتِمَّ إليه عهده ولا تلتفت لشيء آخر.

صمت لحظات ثم مسح على لحيته كعادته، ثم تابع:

- اسمع يا (شمعون)، لا تبتئس بما قاله (دومة) مطلقًا فمرده إلى الله وكلنا أجير يسأل الله الأجر.

قلت صادقًا:

- لست بالشاري ولا حتى طالبًا لأجر، لكم هلكت في الحرب لو كنت ممن يبيع ويشتري؟!

ثم أردفت وقد أطرق الحاضر:

- أتدري يا شيخ (عامر) أن نبينا (موسى) قد عمل أجيرًا عند الكاهن (يثرون) بعد أن تربى في قصر الفرعون في مصر!

نظر إليَّ باهتمام وكأنه لا يعرف بالأمر، فتابعت قائلًا:

- كان شابًا في مثل عمري حين رأى شابًا عبرانيًا يقاتل رجلًا مصريًا، فاستنجد الشاب العبراني بموسى حين أوشك على الهلاك، فدفع (موسى) الشاب المصري عنه فأرداه قتيلًا في الحال!

بان عليه التعجب فقلت:

- ولما أحس (موسى) بأن قصر الفرعون قد علم بالأمر هرب إلى (مدين) فقابل هناك الكاهن (يثرون) وتزوج من ابنته (صفورة).

تراقصت ذؤابة الضوء مع زفرة منه وهو يقول:

- يا لرحمة الله! ما كان ليبعثه نبيًا وهو ينعم برغد العيش في قصور مصر! ربّاه بالمحن، ثم أخذه من ضيق الكرب إلى سعة الفرج وأعطاه خيرًا مما أخذ منه! وتلك تربية الأنبياء يا بني!

ضممت ساقي وأحطتهما بذراعي وأنا أقول:

- أتدري يا شيخ (عابر) ماذا كان مهر زوجته؟!

هز رأسه نفيا، فأجبت:

- أن يعمل أجيرًا عند الكاهن (يثرون) ثمان سنوات يرعى له فيها أغنامه! ولكنه مكث معهم عشرة أعوام حتى أرسله الله إلى فرعون!!

ابتسم وهو يقول:

- لا عجب في ذلك يا بني فذلك عزم الأنبياء.

استمرت لحظة من الصمت لاحقت فيها أنفاسي حتى كادت أن تطفئ المصباح، ثم قلت وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة:

- ولكني أملك من العزم يا سيدي الشيخ ما يجعلني أعمل أجيرًا لديك ما بقي من عمري كله!

رأيت العجب ينعكس على وجهه في ضوء المصباح، فارتفعت رقة تهدج صوتي حتى كاد أن يخبو:

- وأسألك باسم الله ربي وربك أن تجعل ذلك مهرًا لحفيدتك (أروى)!

صمت، فسكن مع صمته كل شيء، حتى ذبابة الضوء في المصباح وأصوات الرياح خارج الحجرة، لم يقطع الصمت سوى ضربات قلبي المتلاحقة وأنا أتطلع إلى عينيه اللتين أغمضهما، وإلى صفحة وجهه البيضاء التي غشيتها سحابة من الانزعاج.

لم أشأ أن يطول الصمت فقلت مستجمعًا شجاعتي:

- أعلمُ أني غريب فقير ولكني لست معدمًا، فالغريب يملك أمله والفقير يملك حلمه، وأملي أن أعود إلى أهلي حيًا مما خرجت، وحلمي أن تكون (أروى) رفيقتي في ذلك، ليس لي طمع في مال ولا مأوى، ولكني أتوق أن أقضي حياتي زوجًا لتلك الفتاة التي جمعتني بها الأقدار مرتين!

فتح عينيه ثم قال متنهدًا:

- ما يعيبك الفقر ولا الغربة يا (شمعون)، فلولا الغُربة ما اكتشف الإنسان ذاته، وما من نبيٍّ إلا وهاجر عن قومه! ولقد رأيت في فقرك عفافًا أعزَّ من قدرك، وجعلك خيرًا من غنيٍّ أذلَّه الشح! فزينة الفقر العفافُ وآفةُ الغِنى الشح!

شعرت بالامتنان لكلماته، ولكنني لم أسرف في الأمل، فالكلمات الرقيقة أحيانًا تمهد لخطوب لاحقة؛ فانتظرت أن يأتي بالكلمة التي تسحق ما قبلها وأن يقول لي "ولكن"، وبالفعل قال:

- ولكن للزواج أعرافًا وتقاليد.. وقد قلتها! والفتاة وليّ أمرها أبوها، ولا يمكنك خطبتها حتى يعود.

ربما كانت هذه الـ(ولكن) التي أسمعها لأول مرة أخفها وطأة على ما قبلها، فقلت وقد داعبني الأمل:

- وهل تزكيني يا شيخ (عامر)؟!

تبسم وقال:

- الله يزكيك يا بني.

قلت في وجل:

- أخشى أن يخطبها خاطب!

قال وهو يقوم من مقامه:

- الأمر حينئذ لها!

قمت واقفًا فربت على كتفي وهو يقول:

- هيا يا (شمعون).. فغدًا نتأهب للرحيل إلى مكة، ودع الأمر سرًّا حتى يعود أبوها.

ثم انصرف آخذًا معه المصباح، فغابت الحجرة في الظلام، إلا من شعاع أمل ظل يحدوني طيلة الشهور المقبلة.

* * *

الورقة السابعة والثلاثون

«الطريق إلى بكة» ـ هكذا عنونت ذلك الفصل من أوراقي، والذي كتبته أثناء رحلتنا من (الحجر) إلى (بكة).

«اليوم الأول»

تجمّعت القبيلة عند مربط الدواب مع بدايات ذلك اليوم الذي احتفظ ببعض النسمات الباردة من الليلة السابقة، امتلأت ساحة المربط بضجيج الرحال المختلطة برغاء الإبل وزفرات الخيول الصاهلة، جلست النساء في هوادجها واستقر الرجال على رواحلهم، بينما جلست أنا على عربتي الخشبية، التي وضعت عليها حمولة من جوالق الطحين وصندوقًا به أغراضي وأوراقي، وما أملك من التبر مخفية في أعماقه، وتعمدت ألا أظهر الصندوق فوضعت عليه ثوبًا من الكتان كي أحجبه عن الأنظار، ثم أصدر حادي القافلة صفيرًا مُنغّمًا فتحركت الإبل طوعًا لغناء حاديها.

خرجنا من حدود (الحجر)، فانتهى الطريق المُعبَّد، واستقبلنا طريقٌ في البيداء تحفّه الهضاب الصخرية المدببة من الجانبين، كان الطريق ضيقًا ولا يكاد يتسع لعرض راحلتين، تساءلت في نفسي ماذا لو أقبلت قافلة من الجهة المقابلة؟ هل تعود إحداهما أم أن هناك طريقًا آخر للصعود إلى الحجر؟

علمت من (ليث) أن الطريق إلى بكة قد يستغرق عشرين ليلة، ما لم تهب به العواصف والأتربة، وهو الأمر الذي كان متوقعًا في تلك الأشهر من العام

التي تسبق دخول الشتاء، وعلمت كذلك أننا لن نستريح إلا مع دخول الليل في أماكن محددة يقال له «المتعشى» وهي أماكن متعددة على طول الطريق توجد بها آبار للتزود بالماء، وتقوم على خدمة القوافل فيها بعض القبائل الصغيرة التي تقطن حول تلك الآبار مقابل الغلال أو قطع النقود.

كان النهار قد انتصف حينما بدأ الطريق في الاتساع، تحولت الهضاب الصخرية إلى تلال من الرمال الناعمة، شعرت بأن الأثان لا تقوى على جر العربة بسهولة فوق الرمال الناعمة فأشفقت عليها وأرحتها في السير، فتأخرت عن عربة المقدمة وسرت بحذاء هوادج النساء في الخلف.

لمحتني (أروى) فعلوت خمار هودجها، والتفت إلي باسمة مضيئة وأنا أختلس النظر إليها، ظللنا نقايض النظر بالابتسامات حتى ارتفع صوت حادي القافلة، وهو يأمرنا بالتوقف ومحاذاة جانب الطريق.

سألت أحدهم عن السبب فقال:

- يبدو أن قافلة كبرى قادمة في الطريق.

بالفعل لم يمض سوى وقت قصير حتى رأينا القافلة القادمة يملأ غبارها الأفق، ويجلجل صوت نفيرها في الوادي، حتى نفرت من صوته العير.

وفجأة علا الصياح وفتحت النساء هوادجها ورأيت (ليث) يعدو نحوي، ثم قفز فوق عربتي ووقف عليها وهو يقول:

- يا (شمعون)! انظر!

قمت واقفًا إلى جواره فوق العربة فرأيت حيوانًا يتقدم القافلة المقبلة. لم أر مثله من قبل في حياتي، حيوان يصل طوله إلى عشر أذرع ويتدلى من أنفه خرطوم طويل ومن فمه نابان كنصلي السيف، أما الأعجب فكان ذلك الرجل الجالس على عنقه يركل أذنيه المهولتين بقدميه بكل هدوء دون أن يأبه لضخامة ذلك الحيوان الذي قد يفتك به بضربة خفيفة من خرطومه!

علمت من (ليث) أن هذا الحيوان اسمه الفيل، وأن تلك القافلة هي قافلة

(بابلية) تخرج مرة واحدة في العام وتحمل من سبأ الصمغ والبخور وتأتي بذلك الحيوان معها كي تفرض هيبتها على باقي القبائل وعلى قطاع الطرق، ثم قال متعجبًا:

ـ علمت من أبي أن هذا الحيوان يسكن في الأصل إلى جوار الأنهار، وأنه يشرب في اليوم الواحد قدر ما يشربه مائة رجل، وأن قافلة البابليين هذه تنفق الكثير من الأموال كي توفر له الماء في الصحراء.

تعجبت من كلامه، وتعجبت أكثر من قدرة الإنسان على تسخير حيوان بهذا الحجم المهول، وتأكدت من كلمات الشيخ (عابر) عن علم الإنسان وجهله! فيوم أن منحه الله القدرة على تسخير ذلك الحيوان أخرجه من أرضه وأتى به إلى صحراء قاحلة، وسقاه من مياه الآبار بدلًا من مياه الأنهار.

جاوزتنا القافلة ونحن نتطلع على أعلاها فرسانها المدججين بالسيوف والأتراس، وقد غطوا رءوسهم بخوذات صلبة وكأنها خرجوا للحروب وليس للتجارة، ذكرتني خوذاتهم بخوذة الفارس المصري التي عثرت عليها يوم الخروج، والتي أهديتها إلى أبي يوم حرب العمالق، وتساءلت عن مصيرها، وهل ما زالت تحتفظ بها أمي أم لا؟

جاءنا صوت الحادي يأمرنا باستئناف الرحيل بعد أن مرت القافلة البابلية، أسرعت بالأتان التي ازدادت نعراتها وصرت في المقدمة بجوار الشيخ (عابر) والشيخ (دومة).

حين رآني الشيخ (دومة) قال لي آمرًا:

ـ حين تصل إلى «المنعشى» استبدل الأتان بدابة أخرى تكن أكثر جلدًا على حر العربة.

ثم قال في بعض اللوم:

ـ ستهلك الأتان قبل أن تصل إلى «وادي الجيف»!

علمت من الشيخ (عابر) أن وادي الجيف هو مكان فسيح ما بين يثرب

والحجر على طريق البحور، تكثر فيه السباع والضباع، وأن القوافل التي تمر على ذلك المكان تترك فيه الإبل المريضة أو بعض الخراف الصغيرة طعامًا للسباع، حتى لا تهاجم السباع القوافل أثناء مرورها.

شعرت بالشفقة نحو الأتان وقد فهمت أن الشيخ سيهبها لسباع الصحراء، فقلت مستفسرًا:

- أمي مريضة؟!

قال دون أن يلتفت نحوي:

- قد أصابها «الخناق». أما تراها وأنفها يسيل مخاطه؟!

لم أكن على دراية بأمراض الخيل والحمير، وظننت أن هزالها بسبب حمولة العربة، ونعومة الرمال!

نظرت إليها مشفقًا، وتمنيت لو أطلقتها في الخلاء، وشعرت برعدة وأنا أتخيلها فريسة للسباع!

وصلنا إلى «المتعشى» مع أولى لحظات الغروب. كان المكان متسعًا ومعدًا للمبيت، ضربت في أرجائه الخيام الفسيحة التي تكفي أعدادًا كبيرة من الناس، ويتوسطه بئر ومشرب للدواب.

ربطنا العير، ورفعت أنا العربة عن الأتان ثم أرحت قائميها على صخرة ترفع ذراعًا عن الأرض، وتركت عليها جوالق الطحين والصندوق المغطى بثوب الكتان، ثم سحبت الأتان وربطتها إلى جوار الخيل عند مشرب الدواب، تفرق الجمع فذهب بعض الناس لقضاء الحاجة، بينما اغتسل آخرون قبل أن يتجهوا جميعًا إلى الساحة للصلاة.

شعرت بالجوع حين داعبت أنفي رائحة الخبز والثريد المعد للقافلة، ذهبت إلى الطاهي الجالس أمام مستوقد الطعام المستحر من شدة النار الموقدة أسفله، فمنحني صحنًا من الثريد لم أذق أطيب منه، وضع به كسرات من الخبز الطازج ثم أفرغ عليه المرق الساخن وقطعة من لحم الضأن، التي تذوب نعومة في المرق

من حسن طهيها، تلقفت الصحن إلى فمي وشعرت بالمرق الدافئ يرطب حوقي، ثم التهمت الخبز الذي تشرّب بالمرق واختلط بقطعات اللحم في سعادة بالغة. وبعد أن فرغت رددت إليه الصحن شاكرًا وأنا أغبط هؤلاء القوم على حسن طعامهم.

منحني الطعام دفئًا في الدماء، وقوة جعلتني أطوف حول النزل رغم برودة الجو الآخذة في التزايد، تجاوزت مضرب الخيام وجلست على صخرة أتطلع إلى السماء الصافية التي تتلألأ فيها النجوم في غياب ضوء القمر الذي صار هلالًا، رأيت امرأة عجوزًا تتوكأ على عصى أعوج، تتجه نحو الصحراء، ظننتها متجهة نحو الخلاء، ولكنها توقفت أمامي وهي تنظر نحوي، قالت في صوت تحلله الأيام:

- الطائر الغريب قد يطير مع السرب ولكنه حين يحط على الأرض يظل وحيدًا منزويًا.

ثم قالت وهي تدنو بوجه تقاطعت عليه التجاعيد حتى بدا كلحاء شجرة معمرة:

- أنت رفيق رحلتنا ولست من أهل القافلة!

شعرت بالخوف منها لا سيما حين فتحت فمها الذي تعامدت عليه الشقوق وبدا خاليًا من الأسنان، غرست قصن الزيتون في الرمال بقوة لا تتناسب مع هيئتها الضعيفة، ثم افترشت الأرض أمامي وفتحت صرة من القماش وجدت بها قدحًا وبعض الأقلام، وحصوات بيضاء بدت كبيض طير الوزق. قالت:

- اجلس أيها الغريب فالليلة تتهتك لك ستائر الحجب، وتتكشف لك خبيئة الأيام.

أدركت أن المرأة «عرافة»، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها «عرافة»، وإن قابلت بعدها الكثير، لحياة الناس في برية فاران وبكة يديرها

الكهنة والعرافون، حتى إن الرجل كان لا يسمي ولده ولا يخرج للتجارة حتى يسأل كاهنًا أو عرافًا!

وكان هذا الأمر أحد الأمور التي تعجبت لها، ووجدت فيه فرقًا بين بني إسرائيل القابعين في برية سين وهؤلاء الأعراب القاطنين في برية فاران، فلم أرَ في حياتي السابقة مع بني إسرائيل شغفًا بمعرفة أمور الغيب أو ما تخبئه الأيام بقدر ما رأيت حرصًا على قوت اليوم وبكاءً على الماضي. أما هنا فكان الخوف من تقلبات الدهر وصروف الأيام يحصد الخاطر ويدفع الناس إلى التمسك بأي بشارة تجلب فألًا أو تدفع طيرة. وقد أدركت ذلك الفضل الذي منّ الرب به على بني إسرائيل بعد أن عشت سنوات في برية فاران، فليس هناك طمأنينة أكبر من طمأنينة تمنحها «النبوة»، ولا نعمة أكبر من شخص يتصل عن حقٍّ بالسماء!

خطّت المرأة خطوطًا في الرمل بإصبعها، ثم خلقت بينها بعض الحلقات، ألقت بالحصوات البيضاء، فسقط بعضها فوق الخطوط وبعضها فوق الحلقات، عبست وقطّبت حاجبيها ثم تطلعت نحوي بنظرة أرعبتني وقالت:

- منبوذٌ أنت في قومك! مرجوٌّ في غيرهم! حاربك الدرب وتاهت بين السبل والشعاب!

استحوذت كلماتها على عقلي، وزادت رهبتها في قلبي، رغم أن كلامها حمّال أوجه. دنت من الرمل ثم تابعت وكأنها تقرأ في لوحٍ محفوظ:

- عما قريب ينكسر فؤادك، ويفارقه السند!

عقرتني كلماتها، فشعرت بالألم والغضب، وقلت ساخرًا:

- لا أملك نقودًا يا خالة، فلا تسرفي في الرجم بالغيب!

نظرت إليّ ذات النظرة المرعبة وقالت:

- كذبت وما أنت بكذوب.

ثم قالت وهي تشير نحو الجنوب:

- إذا وقع الخطب هناك فالنج بأهلك.

ثم نظرت إليّ قائلة:

- كن ابن أبيك، تكن في أمن مما قد يلحق بك!

ثم جمعت حصواتها وطمست خطوط الرمال بيدها، وقامت مستندة على عصى الزيتون وهي تقول:

- لا حاجة لي بفقودك الآن، ولكن حين تملك الذهب والفضة والمؤن هناك تذكّر «أم إياس» المرأة أنها العجوز.

ثم انصرفت، وقد تركتني في بحر مزيجًا من الرهبة والخوف من أيام حبلى بخطوب لا يعلمها إلا الرب.

«اليوم الرابع»

اقتربنا من «وادي الجثث»، يستطيع المرء أن يلحظ أسراب الحِدأ تحلق فوق سماء الوادي في انتظار لحظة حاسمة تنقض فيها إحداهن على جرذ بري أو وليمة يتشاركن فيها بقايا جيفة تركتها سباع الصحراء، الطريق يمتلئ بعظام إبل رمّت، جرّتها الضباع إلى أطراف الوادي فأتت عليها ولم تبق منها سوى عظام لو استطاعت أنيابها طحنها لطحنتها، رائحة الهواء في المكان وكآبة المنظر أطلتني بسحابة من الحزن، زادتها رؤية الأتان تهرول بعيدًا عن كلاب القافلة، التي نبحت عليها، فهربت إلى قلب الوادي، وهي لا تعلم ما ينتظرها هناك!

الحياة غير عادلة أحيانًا، يولد البعض أتنًا ويولد البعض سباعًا، وصنف ثالث يولد أكلًا للجيف، حقًا لو كان الجميع أتنًا لاستقامت الحياة!

تركنا الوادي وجاوزناه بمسيرة يوم، ثم وصلنا إلى «المتعشى» الذي كان فسيحًا ويبدو كملتقى لقوافل الشرق والشمال والجنوب، في تلك الليلة، وجدنا قافلة أخرى قد أتت من الجنوب وقد استقرت المراحة في المكان الفسيح، رأيت خيمة عظيمة قد رفعت أمامها رايات خضر، ووقف أمامها ثلاثة من الحراس

الأحباش داكني البشرة، ضخام الأجساد، مما ينبئ بأن عطبًا يقيم داخلها.

علمنا من رجال القافلة أن أميرًا من أهل الجنوب اسمه (يثع) يسير في قافلة عظيمة متجهة إلى مصر.

لم أنم في تلك الليلة من شدة الجلبة التي أثارها الحميريون ومعهم الأحباش، وبدا أن صلاة يقيمونها في آخر ليلة من ليالي القمر من كل شهر، مكثت على مقربة من ساحتهم التي أضاءتها عشرات المشاعل ونُصب في منتصفها تمثال على شكل ثور عظيم القرنين، فعرفت أنه إلههم المعبود المسمى «عثتر»، وأقيمت مبخرة عظيمة أمام التمثال فاحت منها رائحة البخور الشهي الذي لم تشتم أنفي رائحة بخور مثله، فعلمت حينها أن سبأ مصدر البخور! فيكفي أن تشتم رائحة البخور حتى تشعر بالخدر في أطرافك وبروحك تسلك في مدارك النشوة حتى يحلق بك في جنبات الفردوس والحس المرهف! وعلى جانبي التمثال وقفت بعض الفتيات عاريات النحور والأبدان إلا من إزار يُمدّ عند الصدر ووراء الخصر عن سيقان مكشوفة، دقت الصنوج في إيقاع منظوم، وارتفع معه صوت الكاهن في نغم شجي تمايلت معه رؤوس المصلين في خشوع، ثم ازدادت وتيرة الحماس مع ضربات الصنوج الرنانة وتمايل الفتيات العاريات. وابتهل الكاهن في هتاف محموم في نشوة، ردده المصلون من خلفه في نفس الحماس:

عثتر شرقن (الشرق) عثتر غربن (الغرب)

عثتر ذو قبضم (القابض)

عثتر سمعم (السميع) عثتر نورن (المنير)

عثتر ذو قهرم (القاهر)

وحينما نطقوا بالاسم الأخير للإله الأعظم خرّوا جميعًا ساجدين أمام التمثال في سقوط كالإغماء من فرط النشوة التي وصلوا إليها..

انقضت صلاتهم في وقت متأخر من الليل فعدت إلى عربتي تتمايل رأسي

من أثر البخور ومن شدة رغبتي في النوم، تلحفت بغطاء من وبر الإبل ونمت أسفل عربتي الخشبية. محتضناً صندوق الذهب. طاف بعقلي تيس أهل الجنوب العظيم وتذكرت عجل بني إسرائيل الذهبي، يبدو أن الصلاة عند بعض الناس طقس لمتعة العابد وليس لإرضاء المعبود! داعبتني السيقان العارية في خيالي فأثارت في دمائي الحنين إلى امرأة، أي امرأة حتى لو كانت حبشية لا يبدو منها في ظلام الليل إلا بياض أسنانها، ضممت ساقي واشتدت ضمتي للصندوق وأسلمت خيالي لألاعيب النفس الطافية بين اليقظة والحلم، طارحتني على سرير مخملي من النشوة، تركته رائحة البخور التي لم تفارق أنفي طيلة الليل.

«اليوم الثامن»

اليوم كان يوماً سيئاً، أصاب الخناق عدداً كبيراً من الخيول والحمير في القافلة، وكأنها لعنة الأتان التي التهت الشباع قد أصابت بني جلدتها، العجيب أن المرض كان أشد وطأة على الخيول من الحمير، فما أن يبدأ المخاط في السيل من أنف الجواد حتى تصيبه الحمى وتنتفخ البثور على وجهه ويكف عن الطعام والشراب حتى يصيبه الهزال، أصيبت فرسة الشيخ (دومة) أولاً، ثم فرس الشيخ (عامر)، ثم توالت إصابات الخيل الواحدة تلو الأخرى، ومما زاد الأمر صعوبة، أن الخيل المصابة كانت تحتاج إلى الراحة، والعزل عن باقي الأحصنة، وهو الأمر الذي يتعذر على طريق السفر.

في صباح ذلك اليوم بلغ الهزال مبلغه بفرسة الشيخ (دومة) التي سقطت على جانبها وأصدرت صهيلاً خافتاً كأنه حشرجة الموت، رأيت الدموع في عين الشيخ (دومة)، بينما بكى (ليث) عليها بكاءً صريحاً، فقد كانت تلك الفرسة الأثيرة لديهم منذ كانت مهرة صغيرة، شعرت بالحزن لهم ولها، ووجدت اتهاماً لي في عيني الشيخ (دومة) تحول إلى كلمات غاضبة وهو يقول:

- ما كان ينبغي لك أن تربط الأتان في مربط الدواب.

تركنا الفرسة التي نفقت أو تكاد لمصيرها في الصحراء، واستأنفت القافلة مسيرها وكلي أذني من كلمات الشيخ اللائمة الغاضبة، استبدل الشيخ (دومة)

فرسته بأخرى، بينما فضل الشيخ (عابر) أن يستبدل فرسه بخلة فتية، بعد أن لاحظنا أن البغال لا تصاب بالمرض، استأذنته في أن أربط الفرس في مؤخرة العربة، فذلك أهون عليه وأدنى ألا يرهقه السير أو أن يصيب باقي الخيل، وحين وصلنا إلى «المنعنى»، راودتني فكرة أن أداوي الفرس كما داويت (عمرو) من قبل، فالحيوان كما الإنسان روح وبدن، وكلاهما يصاب بالعطب والمرض.

ملأت إناء بماء المنقوع، ثم نقعت به بذور الحرمل الجافة، وأضفت في القدر الذي وضعته من البذور، ثم فحمت فصوصًا من الثوم ووضعتها فوق البثور المتقيحة على وجه الفرس المصاب، قدمت الماء إلى الفرس الهزيل، فشرب منها قدرًا يسيرًا في بادئ الأمر قبل أن يأتي على ما في الإناء كله، كأنما راقه طعم منقوع الحرمل، في الصباح كررت ما فعلته بالليل، وداومت عليه بين الهنية والهنية طيلة المسير، وأنا ألقى النظرات المتعجبة من الشيخ (عابر) والنظرات الساخرة من الشيخ (دومة)، العجيب أنه بعد انقضاء اليوم التالي، هدأت الحمى التي أصابت الفرس، وأقبل الفرس على الطعام بعد أن كانت تعافه نفسه، ولاحظ الشيخ (عابر) تحسن حالة الفرس، فقال حين توقفنا للراحة في المحطة التي تلي ذلك المسير:

- ألديك ما يكفي من الحرمل والثوم؟؟

هززت رأسي نافيًا، فصمت قليلًا ثم قال للشيخ (دومة):

- أرى أن علاج (شمعون) للخيل ناجع، من الخير أن نتوقف بضعة أيام لعلاج باقي الخيل المصابة.

قال الشيخ (دومة):

- أين نتوقف؟ لا يتسع المحط للمبيت لأكثر من ليلة أو ليلتين، وأظن أننا لن نجد بذور الحرمل وفصوص الثوم هاهنا!

قال الشيخ (عابر):

- نعرج إلى يثرب غدًا، فهي على بعد مسيرة يوم!

وحدث الضيق على وجه الشيخ (دومة) بينما هتف (ليث) في فرح وقال:

- حقًا! لقد اشتقت إلى أخوالي، أشكرك يا جدي، ستفرح أمي بذلك أيما فرح!

غمغم الشيخ (دومة) قائلًا:

- أخشى أن تتعطل المسيرة ولكن الأمر لك يا أبي.

وبتنا ليلتنا تلك وأنا على شوق أنا أرى يثرب في اليوم التالي، يكفيني أن نمكث فيها بضعة أيام، أرى فيها (أروى) وأرى فيها الأرض التي سكنت بها أمها.

* اليوم العاشر:

خرجنا من طريق الصخور واتجهنا يمينًا جهة الغرب سالكين الطريق إلى يثرب، الطريق به الكثير من المرتفعات والمنخفضات، والبلدة لا يمكن رؤيتها على مرمى الأفق، فالجبال تحيطها من كل جانب وكأنها عش صقر أقيم في جوف الجبل، تسارعت الرياح فثارت الرمال والأتربة وامتلأت أنفي وعيني بالغبار، تكممت بطرف إزار من الكتان بللته بالماء فحجز عني أذى الأتربة، وكففت عن السعال الذي انتابني بسببها، درنا بالقافلة ثم سلكنا طريقًا منحدرًا بين تلين فبدت لنا البلدة كواحة بين الجبال، تحيطها أشجار النخيل كالسياج، تمتد في وسطها البساتين، وتنتشر حول آبارها منازل بنيت بالحجر والقرميد، الرياح بين الجبال أكثر سكونًا وأشجار النخيل تحجب الرمال والأتربة، ونسمات النهار المتأخرة تداعبنا وتنعش صدورنا، حتى تمنيت لو تطول إقامتنا في تلك البلدة طيبة الهواء.

استقبلنا أخوال (أروى) بترحاب كبير، ضربت الخيام على أطراف الواحة، واتخذت لي خيمة وضعت فيها أغراضي والصندوق، بينما استضاف القوم الشيخ (عامر) ووالده (دومة) في منزل من الحجر إكرامًا لهما.

في اليوم التالي أقيمت مأدبة طعام وافرة بأصناف شتى من لحوم الضأن والماعز والإبل، ولكن أكثر ما استطبته كان لحوم الدجاج، كانت المرة الأولى التي أتذوقه فيها وذكرني طعمه بلحم السلوى الذي اشتهيت إليه منذ تركت تراثنا

في قلاش يثرب، علمت أنهم يربون الدواجن في منازلهم، حين رأيت دجاجة على إحدى النوافذ تقف آمنة وهي تنقر في الخشب إلى أن قفز إلى جوارها ديك جعلها تفر من نقرات الغزل التي أراد أن يتقرب بها إليها، فلم تتقبلها.

عرّفني (ليث) على خاله (أواس) فوجدته رجلًا مهيبًا قويًا شديد بياض الوجه، ذا شعر أجعد قصير أحمر اللون، وذقن حمراء نحيلة الشعر تتخللها بعض الشعيرات البيضاء، كانت ملامحه تختلف عن هيئة أصحاب طرائف الذين تميل أبشارهم للسمرة وأجسادهم للنحول، علمت أن قبيلة (عبيل) التي تنحدر منها عائلة الشيخ (أواس) ليست في الأصل من أهل طائف، ولكنهم نزحوا إلى أرض يثرب من بابل، وأن جدهم الأكبر (يثرب بن مهلائيل) هو من أقام تلك البلدة، ثم عاشوا بها قرونًا إلى أن نازعهم في أرضهم العماليق، فخرجت قبيلة (عبيل) من يثرب ولم يبق من نسلها سوى عائلة الشيخ (أواس).

لاحظت أن ودًا خفيًا يربط بين (ليث) وابنة خاله (الأمار)، تفضحه خلجات (ليث) المضطربة كلما وقعت عينه على الفتاة البيضاء ذهبية الشعر، وحينما أتت (أروى) كي تخبرنا أن (الأمار) سوف تصحبنا في نزهة إلى بساتين الكرم، سمعت خفقات قلب (ليث) وهي ترقص فرحًا.

في بساتين الكرم في يثرب رأيت جنة من جنان الأرض، خففت الوطء حتى لا تؤذي أقدامي أعشابًا لم أر مثلها في خضرتها، لها رائحة رطبة ندية، أظلتنا سقيفة ممتدة تكاثفت فوقها أوراق الكرم وتدلت بين محوانها العناقيد، بعضها أحمر كالياقوت، وبعضها أخضر كالزبرجد، فتذكرت عنقود العنب الذي عاد به النقباء الاثنا عشر من الأرض المقدسة بحجمه المهول، وحدثتني نفسي إن كانت هذه العناقيد الصغيرة بمثل هذا الجمال، فكيف هي بساتين الكرم في الأرض المقدسة؟

قطفت بضع حبات بيدي، وتذوقت إحداها فذابت حلاوتها في حلقي، فابتسمت الفتاة حين رأت أثر الطعم على وجهي، فقطفت بيدها عنقودًا كاملًا، وأعطته لـ(ليث) أولًا، ثم قطفًا ثانيًا لـ(أروى) وثالثًا لي

قالت الفتاة وهي تشير إلى صومعة على مقربة من البستان:

- هل تريدون رؤية معصرة الخمر؟

قالت (أروى) في تعجب واستنكار:

- أتبيعون الخمر في يثرب؟

قالت الفتاة بصوت ينساب هادئًا كشعرها الذهبي المسترسل وقد تحمّرت وجنتاها:

- المحصول وفير، ولا نبيع بأكمله، فنعصر بعضه خمرًا، ونجفف بعضه زبيبًا.

قالت (أروى):

- ومن يشتريها؟

قالت (الأمل):

- يشتريها الأعراب من غير الأحناف.

لم أشهد أبي يشرب خمرًا من قبل، ولكني علمت أن بني إسرائيل قد شربوها في الليلة الماجنة التي أقاموا فيها قداسًا للعجل الذهبي، بعدها نهى (موسى) الناس ومنعهم من شربها، وحذّر أن يأتي الرجل إلى الصلاة في خيمة الاجتماع مخمورًا. تعجبت من أن أبناء (إسماعيل) أيضًا لا يشربونها، وتساءلت كيف حفظ بنو (إسماعيل) وصايا أبينا (إبرام)، وتناساها بنو إسرائيل بمرور الزمن؟ ألهذا السبب كان لزامًا أن يرسل الرب نبيًّا إلى بني إسرائيل كي يعيدهم إلى ملة أبينا (إبرام)؟!

عادت الفتاة إلى السؤال في براءة:

- هل تحبون رؤية المعصرة؟

قال (ليث) مسرعًا:

- نعم.

بينما قالت (أروى):

- أرغب في البقاء هنا.

فرددت أنا بلا تفكير:

- وأنا أيضًا سأظل هنا.

انطلق (ليث) مع الفتاة سعيدًا، بينما جلست أنا و(أروى) على أريكة خشبية موسدة بفراء الغنم فبدت وثيرة ناعمة. كانت المرة الأولى التي أقترب منها بهذا القدر منذ كنا في (الحجر). تعلقت عيناي بوجهها وتشتت نظراتي بلحظيها لا تريد أن تغادرهما، اضطربت، فأحنت رأسها خجلة وقالت:

- لا تنظر إليّ هكذا يا (شمعون).

تنهدت وأنا أقول:

- اشتقت إليك!

ازدادت حمرة وجهها وابتسمت بملاحة، لم تكن متصنعة:

- اشتقت إليك أنا أيضًا.

قلت لها فرحًا:

- تحدثتُ إلى الشيخ (عامر)، وخطبتك لنفسي منه.

فغرت فاها مندهشة وهي تقول:

- أحقًّا يا (شمعون)! لماذا فعلت؟

تعجبت من سؤالها ودهشتها، فقلت:

- فلعلك تسأليني لماذا أحببت؟

صمتت، ورأيت الحزن في عينيها، فقلت وقد أصابني بعض الغيظ:

- توقعت أن تفرحي، فلماذا الحزن؟

قالت:

- أخشى أن يعلم عمي (دومة)، وكلما تخيلت ردة فعله ارتجفت، فقلبه مكلومٌ على ولده ولو علم أنك تبغي خطبتي إنه سيجن جنونه.

أعاظني أكثر تبريرها، فقلت في غضب:

- الخطبة لم تعقد، وأمرها مُرْجأ حتى يوافق الشيخ (عابر)، وقد خطبتك أنا من الشيخ (عابر) وأرْجأها هو حتى يعود الشيخ (ثابت).

ثم قمت من مجلسي على الأريكة ومررت بضع خطوات ثم قلت وأنا أوليها ظهري:

- الكفتان متساويتان يا (أروى)! والأمر لك!

طال الصمت لحظات، ثم سمعت صوت بكائها، رق قلبي لها فعدت إليها جالسًا وقلت:

- لماذا تبكين؟

استمرت في البكاء، وقد دفنت وجهها في راحتيها، أزحت كفيها عن وجهها برفق، وأدرت وجهها نحوي، قالت والدموع تغمر وجهها:

- ليت الأمر لي يا (شمعون)، أنت لا تدري أعراف قبيلتنا، الكلمةُ عقد، وقد وعد أبي عمي (ثومة) ولن ينقض وعده.

شعرت باليأس من كلامها، فقلت في شيء من الغضب:

- إذن ما جدوى بقائي؟! حين نصل إلى بكة سوف أعود مع قافلة الشمال.

صدمتها كلماتي وقالت:

- تريد أن تقتلني بذهابك، كيف أطيق الحياة بعدك إذا غادرتنا، ما أسهل الفراق عندك يا (شمعون)!

اضطربت مشاعري وامتزج الغضب باليأس والحيرة، ولم أعرف ماذا أقول، قمت ثانية من مجلسي على الأريكة وأسندت كتفي إلى جذع الكرمة، قامت كسيرة النفس ووضعت يدها على كتفي قائلة:

- لا تقس عليّ يا (شمعون)! فبي ما يكفيني من الأحزان! فقدت أبي وهو سندي، ولا أريد أن أفقدك! لا أحد من ألجأ إليه سواك، فحتى الدعاء إلى الله

كففت عنه بعد أن عاقبني الله بدعائي.

لم أحتمل انكسار نفسها، فضممتها إلى صدري وأحطت رأسها بذراعي، قبّلت شعرها وأنا أقول:

ـ وأنا ليس لي سواك يا (أروى)، لا قبيلة ولا أب ولا أم، أنت فقط من تحيي الأمل للبقاء، يغضبني أن تسقي هذا الأمل بماء اليأس، إن لم تقو على الدعاء فاطلبي الخير لنا. فأنا على ثقة بأن الرب سيجعل لنا الخير.

هدأت نفسها فرفعت رأسها نحوي وهي لا تزال مستندة إلى كتفي وقالت في صوت عاشق:

ـ كيف تملك هذا الحب في قلبك؟

قلت:

ـ لا أملك شيئًا مثله لا يحيا إلا بالأمل، فلو ضاع ضعت هالكًا.

سمعنا صوت ضحكات (ليث) و(الأمارة)، فابتعدنا وجلست هي على الأريكة، اقتربا منا وهما لا يزالان على ضحك، ولاحظت اضطرابًا في مشية (ليث) وكأنه يتحسس خطاه، وكانت الفتاة تبدو خجلى وهي تضحك لضحكاته. تعجبت (أروى) من أخيها فقالت:

ـ ما بك يا (ليث)؟!

صمت فجأة، ثم نظر وهو يكتم ضحكته نحو (الأمارة) وقال:

ـ لا شيء.

ثم انفجر ضاحكًا مرة أخرى.

قامت (أروى) وهي تقول:

ـ حسنًا هيا بنا فقد تأخرنا.

وبينما كنا نستدير عائدين، أمسكت كف (ليث) بيدي حتى تستقيم مشيته، فقال لي:

- لماذا تسندني؟

قلت مبتسمًا:

- لا أسندك، بل أتوكأ على أخي الأصغر.

وأدرت وجهي بعيدًا عن رائحة الخمر التي فاحت من فمه

«اليوم الرابع عشر»

قضيت اليومين السابقين مع الخيل المصابة في مربطها الخاص بعيدًا عن باقي الدواب، ملأت حوضًا كبيرًا بالماء ووضعت به كمية كبيرة من بذور الحرمل وشربت الخيل منها ثلاث أو أربع مرات يوميًا، ساعدني الشيخ (أواس) في تطهير الندوب باستخدام منقوع الثوم والصعتر، ثم طهرها أيضًا ببعض النبيذ قائلًا:

- نغسل جروحها بالخمر فتبرأ سريعًا، الخمر لها فائدة تساعد الخيل على التعافي أيضًا.

وبالفعل كانت الجروح والندوب تسرع في الالتئام كلما مسحناها بالخمر، رغم استيائي من رائحتها التي جعلتني أتعجب كيف يقدم أحدهم على شربها!

في ظهيرة ذلك اليوم كنت أسير حول بساتين الكرم وحدي، أتأمل جمالها وأفكر بحالي، صفت نفسي للسير وحيدًا رغم عدم صفاء الجو في ذلك الصباح، كانت الرياح تتسارع، تنحني لها سعفات النخيل فوق الجذوع وتصفع نخيل سيبها حتى بدوت كضجة تسير على قدمين، دخلت إلى سقيفة الكرم فقد كانت الرياح بها أهدأ فوجدت الشيخ (عابر) والشيخ (أواس) والشيخ (دومة) يجلسون على ذات الأريكة التي جلست عليها مع (أروى) قبل يومين، يستندون إلى الجدار وصفير الريح المصطدم به يطغى على أصواتهم، ألقيت عليهم التحية وكدت أتركهم ولكن الشيخ (عابر) دعاني للجلوس.

جلست على العشب إلى جوار الأريكة فقدم لي الشيخ (أواس) عنقودًا من العنب، تناولته منه شاكرًا.

قال الشيخ (عابر) مستكملًا حديثًا بدءوه:

- حسنًا! نمكث في يثرب حتى جلاء العاصفة.

سألت عن أي عاصفة يتحدثون، فأجابني الشيخ (أواس) بأن رياح السموم قد بدأت من جهة الشمال وأن الرمال الثائرة على الطريق تنذر بقرب وقوع عاصفة على طريق مكة وأنه من الخير الاختباء بين جبال يثرب حتى جلائها.

قال الشيخ (دومة) وهو يكتم حنقه:

- لو لم نعرج إلى يثرب لسبقنا العاصفة إلى مكة!

قال الشيخ (أواس) بكلمات مزجت بين الضجر والتهكم وكأن الود بينهما موصول على شعرة:

- العاصفة؟ إذا أسرعنا يا شيخ (دومة)! أظن أنك لم تجرب رياح السموم من قبل، ولكني رأيتها وأنا طفل في العاشرة، إنها لا تبقي ولا تذر، ولولا لجوء آبائنا إلى الجبال حينذاك لهلك بنو عميل!

قال الشيخ (عابر) وهو يومئ برأسه مؤيدًا:

- كان ذلك منذ زمن طويل ولقد هلكت فيها كثير من أهل القبائل قبل.

- ومتى تنجلي العاصفة؟

قال الشيخ (أواس):

- لا تدري، أحيانًا تنجلي في بضعة أيام، وأحيانًا تظل تثور وتهدأ لعدة أسابيع!

قال الشيخ (دومة) ناقمًا:

- ما كان ينقصنا إلا مرض الجبل، ورياح السموم، حتى تُبطئ بالسير إلى مكة.

قال الشيخ (عابر):

- لماذا العجلة يا بني؟ نحن بأمان الآن ولن يضيرنا الوصول إلى مكة بعد عشرة أيام أو بعد شهر.

قال الشيخ (دومة):

- الأمر يزداد خطورة يا أبتاه في بكة، ففي آخر ليلة لنا في المتعشى، أخبرني رحل من قافلة الجنوب أن (خزاعة) لن تنتظر حتى أشهر الحج كي تغير على (جرهم).

صمت قليلًا ثم تابع في أسف:

- أخبرني الرحل أنهم يجمعون المال والسلاح وأن أمر الحرب قد أصبح وشيكًا.

قال الشيخ (أواس):

- وإلى أي الجانبين تقف يا شيخ (دومة)؟؟

كنت أتذكر حينها ما قاله الشيخ (عامر) من قبل في (الحجر)، من أن بني يطور لن ينصروا أيًا من المتعاركين، ولكنني فوجئت بالشيخ (دومة) يقول في حدة وكأنما استثاره سؤال الشيخ (أواس):

- ماذا تظن يا شيخ (أواس)؟ بيننا وبين (جرهم) صهر وحلف، ولن نقبل أن يضمهم أحد.

قال (أواس) كالمعتذر أو كالمحاور:

- المعذرة يا شيخ (دومة)، ولكنني علمت أن باقي بطون بني (إسماعيل) يقفون في صف (خزاعة).

بدا الانزعاج على وجه الشيخ (عامر) بينما بدا الغضب على وجه (دومة) وقال:

- سيندم هؤلاء على نصرة الخبث على الطيب، وسندافع (جرهم) وقيدار ويطور عن حق (جرهم) في ولاية البيت.

رأيت الشيخ (عامر) صامتًا واجمًا، وولده (دومة) يتحدث في قرار أخرب دون اعتبار لكلامه السابق، ورأيت في عينيه نظرة تحيرت في أمرها، أهي نظرة

حزن على ما آلت إليه الأمور في بكة، أم أنها نظرة حزن من ولده الذي يتعجل في خلع عباءة السيادة عنه؟

ويبدو أن الشيخ (أوس) قد استشرف أن الشيخ (عامر) ليس على اتفاق تام مع ما يقال، فقال مهدئًا من وتيرة الحديث:

- أسأل الله ألا يتقابل بنو (إسماعيل) بسيوفهم، وأن يحفظ البيت من كل مكروه.

ثم أردف موجهًا كلامه إلى الشيخ (عامر):

- معذرة يا شيخ (عامر)، قد طلبت مني (معشر) أم (ليث) أن تمكث هي وأبناؤها في يثرب حتى يعود الشيخ (ثابت) من (الروم).

فأجاس حديثه تسمرت غصة في حلقي، تعلقت عيني بالشيخ (عامر) الذي صمت قليلًا كي يفكر، ولكن الشيخ (دومة) قال مستنكرًا:

- ولماذا تترك بيتها وبيت زوجها في غيابه؟

قال الشيخ (أوس):

- المرأة تشعر بإعياء السفر، وترغب في الراحة في ديار أهلها يا شيخ (دومة).

ثم أردف وكأنه يذكره بما قال:

- ثم إن الحرب على الأبواب في بكة وليس من الحكمة أن تصحب النساء إلى هناك!

قال الشيخ (دومة) في حدة:

- النساء يرافقن أزواجهن أينما كانوا يا شيخ (أوس)، وزوجة أخي تظل في كنفنا حتى يعود، وخطيبة ولدي لا تفارق ديارنا حتى يبني بها!

مادت بي الأرض ووجدت الدهشة على وجه الشيخ (عامر) وقال الشيخ (أوس) في تعجب:

- أخطب (عمرو) (أروى) لنفسه؟!

قال الشيخ (دومة) والحدة لا تفارق صوته:

- نعم خطبها من أبيها في إدوم، ولكنه أرجأ الخطبة حتى نعود إلى بكة!

ارتفع صوت الرياح وصمت الجميع وتوجهت الأنظار إلى الشيخ (عابر)، الذي أسند رأسه إلى يده الممسكة بعصاه وكأن رأسه قد أثقلتها الأفكار، ثم رفع رأسه بعد برهة وهو يقول:

- الأصوب ما قاله الشيخ (أواس) تبقى (أروى) وأمها في يثرب ويرافقها (ليث) إلى بكة.

هم الشيخ (دومة) بأن ينطق، ولكن الشيخ (عابر) وقف قائمًا وقال:

- هيا نعود إلى الخور فقد اشتدت الريح وعصفت الرمال.

«اليوم العشرون»

زلت غضبة الصحراء، وحسبت أن الرمال قد انقضت في غدر البحار، ارتعدت جبال يثرب لصفيق الرياح الهادرة وحملت الرياح معها كثيرًا من الرمال دارت في موجات متتابعة انحنت لها جذوع النخل حتى لامست سعوفها أرض الوادي، واكتسحت جحافل الرمل بساتين الكروم غير عابئة بسياج الخوص الذي ضربناه حولها، فأحالته خرقًا تذروها الرياح، كنا قد رفعنا الخيام من النزل قبل ذلك بيومين حينما رأينا اشتداد الريح، وأمرنا الشيخ (أواس) بأن نلزم المنازل الحجرية، واستضاف كل بيت من أهل يثرب اثنين أو ثلاثة من قبيلة الشيخ (عابر)، وجاء نصيبي أنا و(ليث) أن نمكث في منزل الشيخ (أواس) نفسه خلال تلك الأيام، ربطنا الدواب والإبل في حظائر آمنة مسيجة بسياج مرتفع من الحجر أقيم في سفح الجبل حتى لا تفر الدواب منه خوفًا من العاصفة، شعرت أن كل شيء كان معدًا سلفًا وكأن قبيلة الشيخ (أواس) قد اعتادت على عواصف الصحراء، ومع ذلك كانت ذروة العاصفة أمرًا مهيبًا، ظننا معه أن الهلاك قادم لا محالة، ظل الشيخ (أواس) يطوف في البيت كالزنبور، يتلصص من بين فرجات النوافذ وقلبه ملتاع على أهله، وزرعه

ودوابه. يتمنى أن تهدأ العاصفة كي ينظر إلى ما خلفته من دمار. رفقت بنا الأقدار فتحملت أحجار المنازل وطأة الرياح رغم تسلل الرمال داخلها من بين فرجات النوافذ التي تحطم بعضها. طعم التراب ظل في أفواهنا طيلة هذا اليوم وفي الأيام التالية، التصقت الرمال بكل شيء بالمتاع والملابس والماء والطعام وحتى شعيرات أنوفنا حتى صرنا ننفضها ليل نهار. طمرت الرمال بعض الآبار وأتلفت بعض الزروع وهدمت جزءًا كبيرًا من سقيفة العنب، لكنها لم تُصب أحدًا من الصيادين بأذى. في اليوم التالي للعاصفة، خرج الشيخ (أواس) إلى الزروع، بعد أن هدأت الرياح كي يتفقد المزارع، أحزنه رؤية الدمار الذي حل بسقيفة العنب، وبعض النخل، وحتى عقد الدواب، لم يجد أثرًا لهرته الشهباء. الهرة الأليفة ربما، ولربما فزعت من الرياح ففرت من فوق السياج واختفى أثرها في الصحراء. تمتم الشيخ (أواس) ببعض الكلمات، أعقبها بقوله (الحمد لله)، تعجبت من أن يشكر الرجل الله على مصيبة أحلت به. قد أتفهم أن يجزع الإنسان للمصيبة، أو أن يصبر عليها، أو أن يرضى رضى العاجز الذي لا يملك حيلة لها، ولكن أن يشكر على المصيبة، فذلك مقام لم أره من قبل، فقلت له:

- ظننتك ستشكو إلى الله ما نزل بك!

قال وهو لا يزال يتمتم بالحمد:

- أتشكو إلى صنيع من؟! ذلك صنيعه هو، والحمد لله أن لم يجعلنا ضحايا!

أصابتني كلماته بالسكينة، فقلت له وأنا أشد من أزره:

- أستطيع أن أصلح لك سقيفة العنب.

قال لي متعجبًا:

- أحقًا تستطيع؟!

قال (ليث) متحمسًا:

- (شمعون) هو أفضل نجار رأيته!

قال (أواس):

ـ يكفي فضل منك يا (شمعون)، لدينا أخشاب سنط وسرو، ماذا تريد أيضًا؟

قلت:

ـ فقط أحتاج إلى البراغي، ولدي دقماق وأزاميل.

قال:

ـ سآتيك بها من حداد بقرب.

قضيت هذا اليوم في قص الأخشاب، وتقطيعها، ساعدني في ذلك (أيش)، ووجدها الفتى فرصة كي يعتذر عما وقع منه يوم أن أنهى معصرة الخمر، ناولني بعض البراغي في يدي، وقال في خجل:

ـ أشكرك أنك لم تفضحني أمام (أروى)، لو عرفت أني تذوقتها لفضحتني عند أمي وجدتي!

أخذت البراغي منه ثم قلت له مشاكسًا:

ـ ولكني أشك أنك اكتفيت بتذوقها!

ضحك وقال:

ـ نعم، قد تحديت (لامك) بأنني أستطيع أن أشرب قدحين منها دون أن أتأثر!

ثم ضحك أكثر وقال:

ـ ولكني خسرت التحدي.

قلت غامزًا بعد أن أوقفت طرقات الدقماق:

ـ أظن أن ما أسكرك لم تكن نشوة الخمر فحسب، بل نشوة الحب أيضًا.

بان عليه الخجل أكثر وقال:

ـ يبدو أني مفضوح عندك يا (شمعون)!

قلت مازحًا:

ـ ليس عندي فحسب!

ثم أردفت:

- أتحبها؟!

قال مضطربًا:

- لا أدري! ولكني أتمنى ألا أفارق جوارها في يثرب!

ثم أردف متلعثمًا:

- أشعر أن الأيام لا تمضي في هذه الصحراء. معها مثل يثرب، كلاهما أشياء في صحراء قاحلة نائية، أحيانًا أتساءل كيف ضل ذلك الملاك الأبيض نقي القمر طريقه إلى تلك الأرض القاحلة، كلما أتيت إلى يثرب وأراها، أتذكر حكايات أمي عن أجدادنا في بابل، وأتخيلها أميرة بابلية ولدت أميرة في تلك الأرض فهي ليست مثلنا في أي شيء.

توقف عن الكلام، ثم تنهد وكأنه يزيح عن صدره همه الصغير وقال مستفسرًا:

- أهذا هو الحب؟

ضحكت قائلًا:

- بل هو العشق!

ثم قلت في وجوم وأنا أقارن حالي بحاله:

- وما يمنعك أن تخطبها لنفسك بعد أن يعود أبوك، هي ابنة خالك ولن يحول بينكما حائل!

ردَّ في وجوم أكبر:

- الأمر ليس بتلك السهولة يا (شمعون)، الحياة في القبيلة وفي مكة أصبح يحكمها الفخر والخيلاء والاستعلاء بالنسب والعشائر، أنت لم تر منا سوى جدي الشيخ (عامر) وأبي (ثابت)، وهما خير من بقي من ولد (إسماعيل)، أما الباقون فهم على شاكلة عمي (دومة).

ثم أردف في حزن:

- أتدري أن زوجة عمي (هند) قد عيّرت أمي ذات مرة بنسبها الأعجمي، وأن عمي (دومة) يدعو خالي (أواس) بـ«أواس الأبرص» في جلساته الخاصة؟

شعرت بالغضب والحزن معًا، وفاجأني أن وجدت العصبية تنخر بين بني (إسماعيل) كما نخرت من قبل بين أسباط بني إسرائيل فقلت:

- ولكن جدك (عابر) لا يزال حيًا وكلمته نافذة حتى الآن!

قال (ليث):

- ليس كما تظن! الناس تخضع لصوت القوة، وتستهين بصوت العقل، وعمي (دومة) هو من يحمل لواء القوة الآن.

صمت قليلًا ثم قال في حزن:

- كان أبي كالدرع الذي يصد عنا سهام الخصوم، أما وقد غاب عنا فقد انكشفت صدورنا للرماة.

شعرت بهموم الفتى وأشفقت عليه، ولكني شعرت بأن معاناته لا تزن شيئًا من معاناتي المنتظرة، فسألته متحسسًا أملًا أتشبث به قبل أن أهوي في بحر اليأس:

- قل يا (ليث)، هل يقبل قومك أن تخطب (أروى) لشاب من بني عبيل؟

ضحك وقال:

- أهون على عمي (دومة) أن تترك (جرهم) أمر البيت لـ(خزاعة) من أن يحدث هذا!

فهربت بالدقائق من الغيظ على رأس الدرعي وأنا أتخيل رأس (دومة) بين يدي.

«اليوم الخامس والعشرون»:

كان الوقت مبكرًا حينما علت الجلبة في الحي، سمعنا طرقًا على باب دار الشيخ (أواس)، فاستيقظ كل من في الدار وخرجنا نستطلع الأمر، كان الناس يتجمعون حول فرسة الشيخ (أواس) الشهباء التي حملت على ظهرها رجلًا

يكاد يسقط من الإعياء وهو يستند برأسه على عنقها ولا يمنعه من السقوط سوى تشبث أنامله على لجامها، وكأنه يتشبث بآخر أمل له في الحياة، كان الناس قد رأوا الفرسة تهبط وحدها من فوق الجبل، ثم دخلت إلى الحي وكأنها تعرف الطريق إلى بيت الشيخ (أوس)، فاستوقفوها وهم يتعجبون من حملها.

أسرع الشيخ (أوس) ومجموعة من الرجال إلى حمل الرجل الفاقد الوعي، وبسطوا جسده على الأرض، وكانت ملابسه رثة وممزقة وكأنما طحنتها رحى العاصفة، تحركت أجفان الرجل دون أن يقوى على رفعها، فعلم الناس أنه لا يزال حيًا. وضع الشيخ (أوس) قطرات من الماء على شفتيه اللتين تشققتا وكأنهما لم يذوقا الماء لفترة طويلة، ابتلت الشفتان بالماء فتوردتا ودبّ فيهما لون الحياة وتحركت أصابع الرجل وكأنها تطلب المزيد، رفع الشيخ رأسه ثم أفرغ المزيد من الماء في الجوف المتعطش، فظلت أنفاس الرجل تلهج وهو يعب منها دفقة بدفقة ولم يهدأ أنفاسه إلا بعدما ارتوى.

أراح الشيخ (أوس) رأس الرجل إلى الأرض، ثم غسل وجهه وشعره بالماء كي يزيل عنها الأتربة وكي يساعده على استعادة وعيه.

وما أن فتح الرجل عينيه، حتى تذكرت ذلك الوجه الذي بدا أشد نحولاً عن ذي قبل، ذكرتني بوجهه تلكما العينان اللتان لا يمكن نسيانهما حتى وإن غارتا في محجريهما، فقد كان هذا الرجل هو (دعص)، الذي قتل الضابط (كريتوس) من قبل وحمل معه الشيخ (ثابت) و(عمرو بن دومة)!

بعد وقت ليس بقليل كنا نجلس جميعًا في صحن دار الشيخ (أوس)، أنا والشيخ (عامر) و(دومة) ومعنا (ليث)، نتطلع بعيون مترقبة إلى (دعص) الذي تمدد جسده على أريكة في صحن الدار، كان الرجال قد خلعوا عنه ملابسه وهمومه، ثم ألبسوه جلباب الشيخ (أوس)، استرد بعضًا من وعيه فجلس على الأريكة التي بسطوا عليها جسده، طاف على الوجوه المتطلعة بنظرات زائغة، وكأنه يتساءل عما أتى به إلى ذلك المكان وحينها وقعت أنظاره على الشيخ (عامر)، اجتهد ليفتح عينيه وكأنه يتحقق مما رآه، ثم رفع يده وكأنه غير مصدق

ثم قال في صوت أجهشه البكاء:

ـ أنت الشيخ (عابر)، حمدًا لله، حمدًا لله.

ثم قام بصعوبة فجلس عند قدميه وقبّل يده وهو يجهش بالبكاء، مسح الشيخ (عابر) على رأسه، وقال وهو يهدّئ من روعه:

ـ حمدًا لله على نجاتك، استرح يا بني فيبدو أنك قد قاسيت الكثير.

هدأ روعه قليلًا، فقال:

ـ رأيت الهلاك عشرات المرات، وظننت أنها النهاية.

أجلسه الشيخ (عابر) على الأريكة وقدم إليه قدحًا من المرق الدافئ وقال:

ـ كيف أتيت إلى هنا، وكيف نجوت من العاصفة؟

رشف رشفة من القدح ثم أتبعها برشفات أخرى، وكأنما استطاب طعمه ثم بدأ يتحدث ليحكي لنا عن رحلته التي خاضها حتى وصل إلينا فقال:

ـ كنت قد جاوزت (الحجر) ببضعة أيام حينما اشتدت الريح القادمة من الشمال. أحسست بأن تلك الرياح الساخنة التي تحمل ذرات الرمال اللاسعة ليست مجرد رياح الهبوب التي تحدث كل عام، توقعت أن تشتد مع الأيام التالية، فقررت أن أنطلق بفرسي بأقصى سرعة لعلي أسبقها إلى ملاذ آمن يقيني شرها، أيقنت بعد أيام أن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى! فقد أجهد الفرس وأبطأ في العدو، وأوشك الماء الذي أحمله على النفاد. تحملت العطش وآثرت الفرس على نفسي، حتى لا يهلك فأهلك معه. مررنا على موضع لمتعطّش، فوجدناه خاويًا على عروشه، قد نزح عنه أصحابه خوفًا من العاصفة ولاذوا بالجبال، ترجلت عن الفرس وبحثت عيني عن البئر أو عن مشرب الدواب، وجدت المشرب وقد بقيت به بعض المياه الراكدة فتركت الفرس يلعق ما به، بينما ذهبت أنا كي أحضر الماء من البئر وكي أملأ قربتي، ألقيت بالدلو داخل البئر وفجأة سمعت صوتها الهادر يملأ الأفق من جهة الشمال، التفت خلفي فرأيتها تعدو نحوي بقوة لم أر مثلها في حياتي، كانت كمئات الأفراس تحمل على ظهورها

ملائكة العذاب، وتسحب خلفها سحابة من الرمال حجبت ضوء الشمس عن الأرض، أدركت أني هالك لا محالة، وكنت لا أزال أمسك بحبل الدلو، فقفزت إلى داخل البئر وأنا أتشبث به، غلفتني ظلام البئر ولم أشعر إلا وكثيبًا من الرمل يهوي فوق رأسي ويطمر البئر في طرفة عين، ففقدت وعيي وقد تيبست يدي على حبل النجاة.

صمت لحظات وعيوننا تتعلق به، أمسك بالقدح فرشف منه رشفات أخرى ثم تابع:

- لا أدري كم من الوقت مرّ وأنا على حالي، ولكني شعرت بأنفاسي تزهق تحت الرمال التي طمرتني، انتفض جسدي كله وكأنه يبعث من جديد، ووجدت يدي لا تزال تمسك بالحبل، استجمعت ما بقي لي من قوة وسحبتها كذراعي وقبضت قبضة رفعتني إلى أعلى، وأخرجتني من البئر التي أعمت عيني، أقف مذهولًا بين الحطام الذي خلفته العاصفة، نظرت حولي فلم أجد الفرس! هل طار مع العاصفة أم فر منها لا أدري؟ ولكني في كل الأحوال كنت ممتنًا لأنني ما زلت حيًا.

رشف رشفة أخرى ثم قال:

- انتظرت حتى هدأ صفير الريح وقمت أمشي إلى جهة الجنوب لعلي أرى تلًا أو أجد ملجأ آوي إليه، مر يومان وأنا أسير بصعوبة، أحمل قدمي التي تغوص إلى منتصفها في الرمال بجهد بالغ وأستعين بيدي أحيانًا كمن يسير على أربع، فجأة وجدت شيئًا على مرمى البصر بعث في قلبي الأمل، رأيت وكأن حطام هودج تتلاعب به الرياح ويتدحرج في الطريق، دفعت جسدي المنهك بقوة وكأني أسبح في بحر الرمال، وصلت إلى المكان فهالني ما رأيت، عشرات الجثث من الرجال والنساء قد تناثرت في الصحراء، ميزت منها بعض الأحباش والجنوبيين، شعرت بالغثيان حين رأيت كلاب الصحراء وقد بقرت بطن ناقة نافقة، وأخذت تنهش في لحمها وعلى مقربة منها تقف بعض الحدأ على جثة رجل حبشي تنقر عينيه ورأسه، فرت الحدأ طائرة حين رأتني، وراقبتني

الكلاب وهي تنظر إلى جيفتها بإحدى عينيها وتنظر نحوي في حذر بعينها الأخرى، سرت بين الحطام لعلي أجد بعض الطعام أو الماء، وأخيرًا وجدت ضالتي في هودج محطم به خبز وقربة مملوءة بالماء، فجلست على الأرض بين الجيف، غير عابئ بشيء، سوى أن أسد جوعي وأروي عطشي.

كان صوته قد تهدج حين وصل إلى هذا الجزء من القصة، فربت الشيخ (أواس) على كتفه ليهدأ من روعه وقال:

- وكيف وجدت فرستنا الشهباء؟

قال:

- هي التي وجدتني، حملت ما استطعت حمله من الماء والطعام وظللت أسير سبعة أيام حتى نفد مني الطعام، اتجهت إلى سفح جبل وتخيرت موضعًا تستره الصخور وقررت ألا أتحرك منه حتى يحضر الأجل، فانتظار الأجل خير من السعي إليه أحيانًا، فجأة وجدتها تخرج من بين ثنايا الجبال، أكانت ستأنس بي من خوفها، أم أن الرب قد أرسلها لي؟ لست أدري! ولكني أدركت أن الرب نظر إليّ برحمته للمرة الثالثة، وبعد أن امتطيت ظهرها بصعوبة، عقدت لجامها حول يدي وتركتها تطوي أرض الصحراء كما تشاء حتى أتت بي إلى هنا.

صمت وعيوننا تفيض شفقة عليه، تذكرت الشيخ (أواس) حينما قال «نحمد الله أن لم يجعلنا غايتها»، وانتابني الخوف، حينما تخيلت مصيرًا يشبه مصير قافلة الأحباش لو كنا تبعنا رأي الشيخ (دومة) واستأنفنا السير إلى مكة.

أفقنا من صمتنا على سؤال الشيخ (دومة) الذي قال:

- حمدًا لله على نجاتك يا شيخ (دعس) ولكنك لم تخبرنا لماذا تبعتنا إلى هنا؟

انتبه (دعس) وكأن أحداث العاصفة قد أغفلته عن السبب الذي كان قد خرج من أجله، صمت قليلًا ثم قال وقد ظهرت على وجهه علامات الحزن وهو يقول:

- جئت إليكم برسالة من «إدوم».

خفقت قلوبنا جميعًا، وقال الشيخ (دومة) في انفعال:

- هات بها يا شيخ.

قال (دعس):

- مات الشيخ (ثابت) وهرب (عمرو) مع (شهور) إلى مجمع البحرين.

• • •

أناخ (عمرو) رحاله في يثرب، وانحدر من حي حي ضئيل شريطًا وضع الحمر ادعى على الثمر، وأكلت الحذر الاحمرت الحب، وبكى الجميع حزنًا على الشيخ الجليل الذي ملأ القلوب بهيبته وفضله، كنت أقل الناس صحبة للشيخ (ثابت)، ورغم ذلك انفطر قلبي عليه، وشعرت بذات المرارة التي شعرت بها يوم مات أبي، فللفقد مرارة لا يتعدى طعمها على أي حال، وحين تعلق (دعس) بالحجر المشئوم، أمسكتُ بيد (ليشا) في قوم وأحطت كتفه بيدي، أعلم جيدًا تلك اللحظة التي يشعر فيها المرء بأنه قد انقطع من أرضه اليابسة وصار معلقًا في الهواء، لا يحتاج المرء حينها إلا ليد تمسك به مثلما أمسكت بي يد (بصطنيل بن حور)، أقيمت صلاةٌ للدعاء للشيخ (ثابت)، وجدتني أقف خلف الصفوف أدعو له وأبكي، فقد كان أبي أكثر حظًّا منه، مات وهو ينظر إلى ولده، أما هو فقد مات غريبًا وحيدًا متألمًا من جرحه، ما أقسى أن يغادر الإنسان دون وداع من يحبه! ما أقساها على التارك والمتروك!

حين فرغ الشيخ (عامر) من الصلاة رأيته يسير إلى داره متكئًا على عصاه، أشعر بظهره قد انحنى أكثر، أهو الحزن قد أثقل كاهله؟ أم صلبه الذي فقد السند؟ أم هو ذبول النفس حين تفقد زهرتها وتجف ورقتها، كان أكثر تماسكًا حين كان يحدوه الأمل في نجاة ولده، ولكن انتزاع الأمل يُخير القوى، ويوهن القلب، أشفقت عليه من ابتلاء في أواخر سني عمره، وقد أوشكت الرحلة على النهاية والرسالة على التتمة.

كان المصاب كبيرًا على الجميع، كنت أجول في الحي، فأشعر بالحزن في

العيون، انزوت النساء في منازلهن حدادًا، فلم أستطع رؤية (أروى)، حتى الشيخ (دومة)، اعتكف في بيته، وكأنما كسر فؤاده فقدان أخيه وولده، ولم أجد سوى (ذُعَس)، الذي استعاد عافيته وبدا قويًا كما كان رفيقًا لي في تلك الأيام، كنت أجلس إليه أسأله عن نفسه وعن تفاصيل تلك الأيام التي تلت عودتهم إلى «إدوم»، حفظت كل شيء عن ظهر قلب ورأيت في قصته ما يستحق أن أكتبه في أوراقي، وهذا ما حكاه لي (ذُعَس) في أيامي الأخيرة بيثرب.

«اسمي (ذُعَس)، وهو اسم يعني المكتسح، هكذا أسماني شيخ القبيلة الذي رباني، فأنا لا أعرف لي أناسًا، نشأت في قرية اسمها (عرندل) تقع فوق جبال «إدوم» بالقرب من بصرى وتحيط بها قمم «إدوم» الشاهقة من كل جانب، عرندل ليست قرية عادية، هي أرض الأسود ومملكة الأبطال، لا تخضع لسلطان ولا حاكم، لا يستطيع الغريب الدخول إليها، يعرف لها سكان أهل القرية ألف مدخل ومخرج، الأمر باختصار كما نقول في قريتنا: «عرندل لمن عاش بها»، قديمًا كانت قبيلتنا تقطع الطرق على القوافل، وتثير الرعب على طريق البخور، حتى جاء الملك (هرشام) ملك «إدوم» وطلب الصعود إلى قريتنا فوق الجبل وجلس إلى شيخها، وعقد معه صلحًا، هل تتخيل؟ ملك «إدوم» يطلب الصلح مع رجال عرندل ويجلس مع شيخ قبيلتها رجلًا لرجل! كان من شروط الصلح أن تكفَّ القبيلة عن تهديد التجارة على طريق البخور، مقابل أموال يرسلها إلينا ملك «إدوم»، وأن يُسمح لأهل عرندل بالتجارة في العاصمة بصرى بلا قيد أو شرط، وظل الأمر كذلك إلى أن جاء الملعون (هدد بن بدد)، فأنكر الصلح الذي عقده (هرشام) وضيق على أهل القرية في التجارة، وفي يوم من الأيام غدر (كرونوس) اللعين بشيخ قبيلتنا وقتل عددًا كبيرًا من خيرة رجاله، وحاول الهجوم على عرندل، ولكن استعصت عليه جبالها وطرقها، يومها أقسمنا ألَّا نترك ثأر قريتنا، ووجدنا من أهل «إدوم» من يشاركنا نفس الرغبة، وكان من بين هؤلاء التاجر (شهبون)، الذي جمعتني به صداقة وطيدة، وكان يمدنا بالمال مقابل أعمال تثير الرعب في قلوب الجنود الكنعانيين المرتزقة، أملًا في أن يدفعهم ذلك إلى ترك الخدمة في جيش الإدوميين».

«في يوم من الأيام أخبرني (شهبور) بأنه على يقين بأن (كروتوس) يشتبه به، وأنه قد قرر الرحيل عن (بصرى)، ولكنه يخشى أن يطارده (كروتوس) وجلوده، وجدتها فرصة لا تعوض للانتقام من (كروتوس)، تربصنا به على طريق الحجر خارج أسوار بصرى، وانتظرنا حتى حانت اللحظة وانتقمنا منه وحدث ما حدث للشيخ (ثابت)، و(عمرو بن دومة).

يومها عدنا إلى (غرندل) وأرسلت بعض رجالي لإثارة الفزع في بصرى، حتى لا يفكر جنود الأدوميين في العودة إلى القافلة، حطموا الحوانيت وأشعلوا النيران في بعض المخازن، واعتدوا على بعض التجار حتى تفشى الذعر في السوق وانشغلت الشرطة والجنود المرتزقة بالسيطرة على الفوضى، ليلتها أتينا بالطبيب لعلاج الشيخ (ثابت)، الذي فقد الكثير من دمائه بعد أن بتر (كروتوس) ذراعه، فصل الطبيب الذراع عن آخرها ثم قام بكيّ منبت الذراع بسكين ملتهب كالجمر حتى التصق اللحم بالعظم، ومع ذلك ظلت الدماء تقطر ولم تتوقف قرابة الثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أصابت الشيخ حمى، وكان كلما رأى نورًا ينتفض جسده متشنجًا وينقبض فكاه في قوة حتى تسمع صوت أضراسه وهي تتحطم، ولا نستطيع فعل شيء، ذُعِر (عمرو بن دومة) و(شهبور)، وظنَّا أن شيطانًا قد مسَّ الشيخ (ثابت)، أتينا بالطبيب مرة أخرى فنصحنا بأن نعصب عينيه وأن نضعه في ماء مالح في حجرة مظلمة، فالماء المالح يوقف التشنجات، وعصابة عينيه والظلام سيحجبان عنه ما يراه، هدأت التشنجات قليلًا، ولكن الحمى لم تهدأ، وبلغ به الوهن مبلغه حتى شعرنا بأن الموت يتشممه ويوشك أن يفتك به، فأعد له (عمرو) قبرًا فوق أعلى ربوة في جبال (غرندل) ووضع له شاهدًا، ويوم دفنَّاه وصلى عليه (عمرو) و(شهبور) وبعض الرجال، أمطرت السماء مطرًا خفيفًا وشعرت بأن سماء (غرندل) فرحى بضم رفات هذا الرجل الصالح».

في اليوم التالي كنا نجلس أنا و(دعس) تحت سقيفة العنب، أمسك دعس بقطف من العنب بيده اليسرى، وأخذ يقضم حباته بفمه كالبعير، بينما أمسك

بهذه المعنى قد غدا ممتلئًا بالحمرة، تورّد وجهه بعد أيام من مكوثه في يثرب، وبدا في ثياب الشيخ (أوباس) كتاجر منعم ثري، شعرت أن الرجل قد بدّل ثياب التقشف وخشونة المحاربين بثياب الرفاهية سريعًا، فكان يسرف في الطعام والشراب، ويقبل على الحياة بِشرٍ وحبور، رغم الحزن الذي يحيط به في كل مكان، في ذلك اليوم أخبرني بباقي قصته فقال:

•ظللنا في (عرندل) أيامًا، لا يخرج منها أحد، فقد علمنا أن (هدد بن بدد) قد أغضبه ما حدث في بصرى، فعزل قائد الشرطة، وأرسل فرقة كبيرة من الجند بقيادة ضابط جديد كبير اسمه (جندار)، كان الناس يتحدثون عن (جندار) بأنه حلقة (هدد بن بدد) وتلميذه المحبب إليه، وفي اليوم الأول لوصوله، أغلق (جندار) أبواب مدينة بصرى، ولم يسمح لأحد بالخروج منها، وقال قولته المشهورة:

•هناك من أهل (بصرى) من يطعم كلاب (عرندل) ولو منع عنهم الطعام، لخرجت الكلاب كي تبحث عنه»، وبالفعل، كان لنا رجال من بصرى يأتون إلينا بالطعام والماء عبر دروب (عرندل) الخفية، فلما أغلق (جندار) الأبواب على بصرى، انقطع عنا الزاد والماء، احتملنا انقطاع الطعام أيامًا، ولكننا لم نحتمل انقطاع المياه، أرسلنا بعض الرجال جهة الشمال ناحية الكرك كي يأتونا بالمؤن فكادوا يقعون أسرى في يد جنود (جندار) وهم على أبوابها، واستيقظنا ذات صباح على صوت النفير، والحراس يصرخون لقدوم الأدوميين، فقد وشى أحد أعواننا في بصرى بسبب التعذيب بأحد الدروب الخفية إلى عرندل، كان هناك خطة محكمة متفق عليها من قبل للهروب في حالة وقوع هجوم من (جندار) وجنوده، تفرق الرجال في لمح البصر، وهربت كل مجموعة من طريق مختلف، أخذت معي (شهبور) ورجاله و(عمرو بن دومة)، وانطلقنا في طريق يؤدي إلى خليج (الحيان)، كانت خطورة هذا الطريق أنه يمر بوادٍ منخفض ينحدر بشدة حتى يصل إلى الخليج، والوادي مكشوف من جانبيه ويسهل على الرماة قنصنا إن أدركونا، كانت النجاة في أن ننطلق في أقصى سرعة قبل

أن يتركنا الجنود، وبالفعل لم ننقطع عن العدو حتى وصلنا إلى الخليج عند منتصف الليل، وعند الفجر كانت السفينة التي ستقل (شهبور) ورجاله إلى مجمع البحرين تتأهب للرحيل، وقف (عمرو) على الشاطئ أمام سلم الحبال لا يريد أن يركب، ترجاه (شهبور) أن يركب ولكنه أبى قال في حسم:

ـ لن أترك أهلي!

قال (شهبور):

ـ سيلحقون بهم لا محالة، صدقني يا بني! لا أريد أن أفقدك كما فقدت عمك! يكفيني فقد أحد أمام الشيخ (جابر).

وبدا (عمرو) مترددًا، فقلت له محفزًا كي أدفعه للرحيل:

ـ هيا يا (عمرو)، إذا طلع النهار فلن ينجو أحد على الشاطئ! هيا يا بني فهم في أعقابنا الآن.

نظر إلي كالمستغيث فقلت له مشجعًا:

ـ هيا يا بني وسأصعد وراءك.

أمسك بسلم الحبال وصعد في بطء وهو يلقي بنظرة حزن على الشاطئ، وما أن استقر فوق ظهر السفينة، حتى أخرجت سيفي وضربت به سلم الحبال ضربة قطعته، ثم ضربت ضربة أخرى قطعت بها حبل المرساة فانسابت السفينة في مياه البحر.

قال (عمرو) صارخًا:

ـ قد وعدتني يا دعس.

وقال (شهبور) لائمًا:

ـ لماذا فعلت هذا يا دعس؟! ستقتل إن عدت إليهم!

قلت في صوت عال وقد أخذت السفينة في الابتعاد:

ـ لن أترك رجالي، لا تخش علي سأبدأ من جديد!

وبينما كان قرص الشمس يعلو في الأفق، كانت السفينة تتضاءل وهي تغيب في عرض البحر»!

انتهى كلام (دعس).

وهذا ما كان من خبر التاجر (شهبور)، و(عمرو بن دومة) في «إدوم» وحتى رحيلهما من غرندل.

• • •

«اليوم الأخير»:

رأيتها تحت سقيفة الباب، لم أرد هذه المرة إلا أن أهرول إليها وأن أحتضنها في قوة لدقائق طويلة حتى شعرت بما تعني من دواخلي. قبلت شعرها ووجهها، وتلامس خدانا المبللان بدموعها الممزوجة. قالت وهي تدفن رأسها في صدري:

- هل كتب عليّ أن أفقدكم جميعًا في وقت واحد؟! أبي وأخي وأنت؟!

اعتصرت جسدها بذراعي وأنا أهمس، وقلبي ينفطر حزنًا عليها:

- لن تفقديني. أقسم لك أني سأعود! وأقسم لك أني سأتزوجك.

قالت وهي تتشبث بأصابعها في كتفي:

- أريدك بجواري الآن، لا تفارقني يا (شمعون).

قبلت أصابعها وأنا أقول:

- أعلم، أعلم يا حبيبة القلب! ولكن هذا أفضل لك! لن تتحملي عناء السفر وسط هذه الأهوال، ولا ندري ما ينتظرنا في بكة!

ثم أجلستها على الأريكة وضممت رأسها إلى صدري بيدي اليسرى، وربت على خدها وأنا أقول:

- أفضل لك أن تكوني مع خالك (أوراس) من أن تكوني مع عمك (دومة).

ثم أردفت:

- ستنتهي تجارتنا في بكة ثم أعود إليك، سأخطبك من جدك (عامر) مرة

أخرى لنفسي، وإن لم يسمح عمك (دومة) بزواجنا سأهرب بك ومعي من الأموال ما يكفينا!

قالت متعجبة:

- أي أموال يا (شمعون)؟!

قلت:

- هذا أمر لست في حل من أن أذكره، ولكن ثقي بي يا حبيبتي.

أطالت صمتها، ولكن لم يطمئن قلبها لذا فقالت:

- أخشى عليك يا (شمعون) من الصراع الدائر في مكة!

ضحكت قائلاً:

- تلك معركة لا ناقة لي فيها ولا جمل يا (أروى)، ولولا أمانة أحملها في عنقي ما أكملت المسير إلى مكة وانقلبت إلى [illegible]

قالت متعجبة مرة أخرى:

- لقد عدت إلى الألغاز يا (شمعون)، أمرك عجيب اليوم، عن أي أمانة تتحدث؟

قلت مبتسماً:

- هذا أيضاً أمر لست في حل أن أذكره.

ابتسمت أخيراً ثم قالت وهي تحط وجهي بكفيها الصغيرين:

- عدني يا (شمعون) أنك ستعود.

قلت بلا تردد:

- أعدك.

قالت:

- عدني ألا تتأخر عليّ.

قلت:

ـ أعدك ألا أنام بعد أن أرد الأمانة إلى صاحبها.

قالت غاضبة:

ـ هذا وعد فيه استثناء!

قلت مبتسمًا:

ـ هذا وعد فيه صدق!

ـ أحبك.

ـ أنا أذوب فيك عشقًا.

وبينما كنا نهم بالقيام سمعنا صوتًا خلف الجدار، فهبت الزوجة فأسرعت أنا بالمرور خلف الجدار لأستطلع الأمر، فوجدت الراعي ملقى على الأرض، يستند برأسه إلى الجدار ويحك أنفه مع صوت شخير، ويغط في نوم عميق، وفي يده قدح من الخمر انسكب ما به على صدره.

• • •

للوداع شجنٌ وللفراق ألم، فإذا اتبع الوداع فراق صار الشجن والألم رفيقين للمرء في حلّه وترحاله، ومع ذلك حين ارتفع صفير الحادي ألقيت إليها بنظرة واثقة تحمل رسالة لو كُتبت بمداد لكانت من كلمة واحدة هي (سأعود). لا أدري كيف تماسكتُ، ولا من أين أتيت بتلك الثقة، ولكني كنت أشعر بشعور جديد اسمه (اليقين)، تذكّرتُ يوم خروجي من قادش برنيع متلصصًا، حينها تركت أمي دون أن ألقي إليها بنظرة وداع، تركت الرسالة لـ(عامر) ولم أترك لها كلمة واحدة، كنت أجبن من أن أواجه نظرة عينيها، أو أتخيلها تقرأ كلماتي وتبكي، آثرت ألم الفراق على أحزان الوداع المتجددة التي تظل ملتصقة بروح الإنسان طيلة حياته.

ما بين خروجي من قادش برنيع قديمًا، وخروجي من يثرب اليوم فارقٌ كبير، لا يقاس بالأيام أو السنين، وإنما بما مرّ بي من أحداث، كلتا القريتين واحةٌ تتوق النفسُ للعيش بها، وكلتا الرحلتين كانت إلى أرض يتقدس فيها

الرب ويرفع فيها اسمه، ولكن شتان بين (شمعون) «التائه» في قادش وشمعون «المستيقن» في يثرب، عبر بي الشيخ (عامر) من منازل التيه، إلى منازل اليقين، وأدركت من الإيمان حلاوة، لم أذقها ونبي الله بيننا، أحببت الفطرة من الدين بعيدًا عن الزواجر والنواهي وتقعر بني إسرائيل، ورأيت الله يتجلى على عباده بقبسات من صفاته لا تحتاج سوى التسليم والخضوع له وحده، أحببت الربَّ قبل أن أخشاه، واشتقت هذه المرة إلى رؤية أرضه المقدسة، لا لأحقق حلم أبي، ولكن لأشعر بقربه، طمعًا في أن تتنزل عليّ رحماته.

وحينما أشرفت جبال مكة في الأفق علا صوت الحادي بكلمات ملأت الفضاء من حولنا، ومست نياط أوتار قلبي، وحملتها مسامعي جموع القافلة الذين رددوها بحناجر باكية قائلين:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك».



الكتاب الثالث

[illegible]

[illegible]

الورقة الثامنة والثلاثون

مالت الشمس إلى السماء، ولامس قرصها جبال «الطائف»، حين اقتحمت القافلة حدود «مكة». استقبلنا جمعٌ من الأطفال ونساء من الأحباش على أبواب القرية، هرولوا ناحيتنا وهم يقولون في لهجة متقطعة:

- لم تمطرْ علينا العاصمة سلام، لم تمطرْ علينا العاصمة سلام.

كان رُكّاب القافلة يلقون إليهم ببعض التمرات، فيتصارعون عليها، جرى طفلٌ أسمر اللون، أجعد الشعر إلى جوار عربتي وهو يقول كلمتين بدا لي أنه لا يجيد غيرهما:

- طعام سيدي، طعام سيدي.

ألقيت إليه بثمرة رُمّان أحضرت عددًا منها معي من «يثرب»، فالتقفها في سعادة وهو لا يكاد يصدق، ورآه بعض الأطفال الأكبر سنًّا فجروا تجاهه، فانطلق مهرولًا محاولًا الفرار منهم.

قال (ليث) الجالس إلى جواري حزينًا:

- زاد فقراء البلدة لم نرَ كل هؤلاء الأحباش قديمًا.

قال (دعص) الذي كان يستلقي بظهره على العربة مسندًا رأسه إلى جوال الطحين:

- قلّت القوافل إلى «مكة» بعد أن سرت أنباء الحرب، كما أن الناس لا تأمن «جرهم» على أموالها.

تعجبت من أن يعرف (دعس) القاطن في «إدوم» أخبار «بكة» الواقعة بين جبال فاران، ولكنني تذكرت أنه لابد وقد جمعته أحاديث مع (عمرو بن دومة) والشيخ (نابت) من «بكة» وأحوالها.

نظرت إلى الطفل الأسمر الذي أدركه أقرانه فأسقطوه أرضًا وتقاسموا معه ثمرته رغمًا عنه، شعرت بغُصّة وشفقة عليه، لا يوجد أقسى من رؤية طفل جائع، حقًا إن الحروب لا تأتي أبدًا بخير، فها هي يلفح كل مَنْ حولها، والعجيب أن من يشعلها هم الطامعون ومن يكتوي بنارها هم المساكين!

أدرت بصري إلى جبل تعلوه صخرة تحت عرش الشمس، فذكرتني صخرته بجبل حوريب في برية سين، لمح (البث) نظراتي فقال:

- اسمه (عرفة).

رددت الاسم خلفه:

- (عرفة)؟!

قال (البث):

- نعم! يصعد إليه الحجيج في أشهر الحج، فيناجون الرب ويعترفون بذنوبهم!

عجيب أمر هؤلاء القوم! جعل الرب لهم جبلًا مقدسًا، مثلما جعل لنا جبل حوريب، ثم سمح لهم بأن يناجوه من فوقه دون نبي كليم أو كاهن! ترى كيف يكون البيت الذي أقامه لهم أبونا (إبرام) بين جبال فاران؟! رسمت له صورة في مخيلتي فبدا كأنه خيمة اجتماع عظيمة، لها مذبح فسيح تحيط به المباخر من كل جانب، وفي القلب يقع قدس الأقداس الذي يتجلى فيه الرب على كهنتهم، ثم محوت تلك الصورة، ورسمت صورة أخرى أفخم وأكبر، فرأيته مثل معابد المصريين الضخمة المهيبة التي ملأت أمي رأسي بحكاويها.

قطع تفكيري صوت (دعس) وهو يقول:

- جميل هذا الصندوق يا (شمعون)! يبدو لي مثل صناديق الأعراس التي تصنع في مصر!

أسقط في يدي ونظرت خلفي فوجدته وقد أزاح غطاء القماش من فوق الصندوق، وأخذ يتطلع إلى الصندوق بنظرة متفحصة بها قدر لا بأس به من الوقاحة، قلت حاسمًا:

- أهدته لي أمي، فأمي مصرية!

رفع حاجبيه وهو يقول:

- حقًا!

أعدت غطاء الكتان مرة وأنا أقول بلهجة غير ودودة:

- أخشى عليه من الأتربة، فهو كل ما بقي لي من ذكرى أمي.

ابتسم ابتسامة مستهينة، ثم استلقى على ظهره مرة أخرى.

بعد وقت غير طويل، ارتفع صفير الحادي، توقفت القافلة في حي (بني يطون) أول الأحياء في مكة من جهة الشمال، والحي فسيح كبير، بُنيت منازله من طابق واحد بلبنات من الحجر، وطليت جدرانه بأصباغ حمراء، ميزته عن باقي الأحياء. قفز (ليث) و(دعس) من فوق العربة بينما بقيت أنا، انتظرت طويلاً في مربط الدواب حتى أناخ الرجال الإبل، وحملوا بضاعتهم إلى الصوامع. ربطت العربة في المربط وحملت صندوق أغراضي، وسرت في طرقات الحي لا أدري أين يكون مبيتي، جاءني صوت (ليث) وهو يقف في نافذة محطمة لأحد المنازل وإلى جواره (دعس):

- هيا يا (شمعون)، هنا سيكون مبيتك!

كان المنزل هو منزل الشيخ (ثابت)، الذي خلا من ربه ونسله؛ المنزل متسع، به ثلاث حجرات متتالية، لها سقف من جريد النخل، تفتح أبوابها على فناء فسيح به خزانة تخلو من الطعام، وأريكة موسّدة بجلد وحشوه ليف، وفي منتصف الفناء جذل نخلة مبتورة يحككون بها الخيل المجربة، بدا المنزل متربًا بفعل العاصفة، ورأيت بعض أجزاء السقف والنوافذ محطمة، قلت وأنا أقف في الفناء حاملاً الصندوق:

- يحتاج المنزل إلى تنظيف وإصلاح.

قال (ليث):

- ليس الآن، سنذهب الآن لنغتسل من «زمزم» ثم نطوف بالبيت!

قلت في شيء من الفرح، وأنا على شوق لرؤية البيت:

- حقًّا!

قال (ليث):

- نعم، فهذا أول شيء يفعله القادم إلى «بكة»!

ثم أشار إلى إحدى الحجرات وقال:

- ضع أغراضك هنا!

وحين دخلت الحجرة شعرت بالنعاس [?] على قدمي [?]، ثم رأيت سريرها المفروش بوبر الإبل ومقعدها الذي لا أثر [?] عليه متحجبة [?] بعض تحليها [?]، ومرآة مكسورة انعكس عليها اشتياقي وملامح وجهي المنهكة!

• • •

لم أجده كخيمة الاجتماع؛ فلا بخور، ولا مذابح، ولا قدس للأقداس، ولم أجده كمعابد المصريين؛ فلا أعمدة، ولا نقوش، ولا نُصب، لم أجد سوى بناء من الحجر تساوت أركانه، ووضع في أحدها حجرٌ أسود؛ بناءً فطريًّا بسيطًا ببساطة الصحراء من حوله، بتجرده من كل أبهة وزينة تجرُّد الطائفين من حولي، غمرتني الصفوف المترحلة تجاهه بأمواج من التراتيل والتسابيح لم أميّز منها سوى بعض الكلمات، مثل (العلي أسبّح) و(العظيم أسجد)، وتلبية تعلو كل حين حتى تصل إلى هناك السماء فتضج نفسي بوهج من السلام. حفظتها من أول مرة، وظللت أكررها: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك»، حتى نداؤهم كان بسيطًا مباشرًا يبلغ مقصده دون زخرفة ولا إطناب.

بعد أشواط ثلاثة، كان جسدي يدور في فلك البيت، وروحي تدور في

فلك أعلى وأرقى، شعرت بها تسيح في مراتب من النشوة غير مدركة للأجساد المحيطة بها، نشوة لم أشعر بها من قبل في صلاتي الساكنة، ووصلت ذروتها مع الشوط الأخير. من المؤكد أن الحركة صنعها في تهيئة النفس للخشوع والاستسلام، تذكّرت رقصات الأحباش الماجنة في صلاتهم أمام الإله (عثتر) وسقوطهم مغشيًا عليهم من النشوة والمجون، كلاهما نشوة، ولكن شتان بين نشوة السقوط ونشوة الرقي!

انتهينا من الطواف وأنا أشعر بسكينة، لا أدري سببها، فأنا ما زلت غير موقن بأن ملاك الرب يحل على هذا البيت كما كان يحل على نبي الله (موسى) في خيمة الاجتماع، ولكني على الأقل موقن بأن رحمات الله لـيست بعيدة عن هذا البيت، أدرك الآن أن لهذا المكان قدسية لم تمنحها له حكايات الناس عنه، وإنما منحتها له تلك السكينة التي تحل على كل مخلص، أتى بحبوره على امتداده.

أخذني (ليث) من يدي وقال:

- (شمعون) تعالَ! سأريك شيئًا ستحب.

توجهنا إلى حجر على مقربة من البيت أحاطت به ثلة من الناس، فرغوا لتوهم من الطواف، كان بعضهم يمسحه بيده ثم ينصرف، والبعض الآخر ينحني له ساجدًا على الأرض فيقبّله ثم ينصرف. الحجر صغير أبيض اللون مطمور حتى منتصفه بالرمال، رقمنا قبالته، فأشار (ليث) إلى سطحه وقال:

- انظر! هذا أثر قدمي أبينا (إبراهيم)!

مرّ من أمامي رجلٌ فمسح الحجر بيده ثم انصرف، تطلعت إلى أثر القدمين اللتين بدتا بلا أصابع. وقلت مشدوهًا:

- حقًّا؟

قال متحمسًا:

- نعم، كان يقف هنا على هذا الحجر وهو يبني البيت، فغاصت قدماه في الحجر المبتل وتركت أثرًا لم تمحه السنون.

الحجارة أصدق من الكلمات دائمًا، ونقش مثل هذا يستدعي كل الحكايات التي سمعتها عن بناء البيت ويجعلني أراها بعيني وألمسها بيدي. هوى (ليث) عليه مُقبِّلًا بينما اكتفيت أنا بمسّه بأناملي. تذكرت ما قاله (شموع بن ذكور) عن قبر أبينا (أبرام) في الخليل، وعن بيته الذي دنسته الأوثان، وبالأخص تمثال عشتاروت العارية، تُرى هل أمر الرب أبانا (أبرام) بأن يبني له بيتًا في تلك الصحراء لعلمه بما سيحدث لبيته في الأرض المقدسة؟ أثارت رؤية الحجر في نفسي شجوني وعاودتني ذكريات لهفة أبي على دخول الأرض المقدسة أرض الآباء والأجداد، وازددت حنقًا على بني إسرائيل الذين تركوا أبانا مدنسًا، بينما يقدّس بنو إسماعيل؟ أثر القدم حين تركنا مقام (إبراهيم)، وجدنا الناس تتزاحم بالقرب من بئر زمزم، ظننت أن الزحام لأجل الماء والسقي، وجدت الناس تتجمع في حلقات حول رجل تظهر بالكاد رأسه فوق الجموع المحيطة به، وهو يتحدث بصوت عالٍ، ويشير بإصبعه إلى تمثالين خلفه نحتا من الحجر نحتًا رديئًا، أحدهما على هيئة رجل والآخر على هيئة امرأة، كان الرجل يتحدث بصوتٍ عالٍ أقرب إلى الصراخ مجمع الناس من حوله:

- انظروا يا حجيج بيت الله، انظروا يا عباد الرحمن، انظروا إلى غضب الله وسخطه، هذان من أتيا بالفاحشة في حجر الكعبة، وظنًّا أنهما بمعزل عن عين الرب، قد جعلهما الرب مسخين يطلان عليكم ليذكراكم بقبيح ما فعلت هم!؟

تذكرت ما سمعته من قبل في (الحجر) عن (إساف) و(نائلة). وتذكرت (الغوث) سيد قبيلة «طيء» وهو يضحك وجسده يرتج في المطعم قائلًا: «أي شيطان أوحى إليهم بأن يضعوا حجرين بين «الصفا» و«المروة» في الليل، ثم يأتي أحدهم في الصباح فيروي لهم تلك القصة البذيئة». الأسطورة أصبحت الآن خبرًا يُروى يا سيد (الغوث)؟! وحلفاء «خزاعة» يلصقونها بـ«جرهم» أمام سمع وبصر الجميع!

سمعت بين الصفوف صوت الشيخ (دومة) وهو يقول:

- كذبت وفسقت يا رجل!

تكسر الناس الحلقة ثم أفسحوا طريقها، حتى أصبح الشيخ (دومة) في منتصفها مواجهًا الرجل الذي فوجئت به شابًا في مقتبل العمر شديد العبوس، قال الشيخ (دومة) في غضب عارم: شعرتُ أن عاقبته قد تكون غير محمودة:

- ما كان لسدنة البيت أن يأتوا بقبيح في بيت الله الحرام!

تجمع حول الشاب بعض رفاقه الذين لا يقلون [illegible] عنه ووقفوا إلى جانب وكأنهم يحضرون الدعم لما بدا الشاب ضئيلًا أمام غضبة الشيخ (دومة) قبل أن يقول:

- من أنت أيها الغريب؟! وكيف تحكم بالحرام؟!

قال الشيخ (دومة) وهو لا يزال على غضبته:

- عربي أنا (دومة بن عامر) سيد قبيلة (بطون بني قيدار بن إسماعيل)، فمن أنت يا وليد الأمس؟!

ارتبك الشاب خصوصًا بعد أن علت همهمات ساخرة بين رجال قبيلة الشيخ (عامر)، فقال وهو يزيد من عبوس وجهه كي يخفي ارتباكه:

- أنا (إياد بن المنذر) من بني نبياه.

تذكرت أن قبيلة نبياه من (بني إسماعيل)، وأن الشيخ (أوراس) قد ذكر أن بعض قبائل (بني إسماعيل) قد أصبحت تدعم خزاعة، فقال الشيخ (دومة):

- من «نبياه»! ولا تخجل من أن تقدح في أجدادك؟!

قال الشاب في صلف:

- وأقدح في آبائي وأجدادي، إذا أتوا بما يخالف شرع الرب!

ثم قال متجاوزًا مقام الأدب مع الشيخ (دومة):

- اسمع يا شيخ بني بطون، لن تبرح البيت حتى تُذكِّر القاصي والداني بما

فعلته «جرهم» بشريعة الرب، ولن يمنعنا مانع من أن نزيل عن هذا البيت ما وقع به من دنس!

قال الشيخ (دومة) في عنف مضاد:

- إن كان هناك من دنس فهما هذان النصبان اللذان يصحبان بهتانًا وإفكًا.

قال الشاب (إياد) في ذهول:

- أتسب آية الرب وتصفها بالدنس؟!

انحنى الشيخ (دومة) والتقط حجرًا من الأرض ثم قذفه تجاه التمثالين، ثم قال وقد التهب الغضب عقله!

- بل أرجم آية الشيطان، أيها اللعين!

بهت الناس وتراجعوا مذهولين، وكأنما توقعوا أن تسقط عليهم صاعقة من السماء، وانتفخت عروق الشاب وكأنما راودته نفسه على الانقضاض على الشيخ (دومة) لولا أن أمسك بعضده رفاقه، والتقت نظرات شاب ترى الدنيا من خلال ثقب ضيق في ثوب أسود مع نظرات شيخ يرى الدنيا بعين الغضب.

ثم رفع الشاب سبابته وقال وجسده ينتفض غضبًا:

- ستندم أيها الشيخ! ستندم على نصرة من دنس بيت الله الحرام! وإن غدًا لناظره قريب.

ثم انصرف مع زملائه تاركًا في نفسي سؤالًا: لماذا يكون دائمًا يومنا الأول في أي مدينة هو الأسوأ على الإطلاق؟!

وعدنا أنا و(ليث) إلى المنزل، بينما ذهب الشيخ (دومة) مع بعض الجراهمة لمقابلة (عمرو بن الحارث الجرهمي) في سقيفة.

وحين وصلنا إلى المنزل لم نجد فيه (دعص) ولكني رأيت جرة زرقاء من الجرار الإدومية مكسورة ومحطمة على عتبة الباب، أزاح (ليث) حطام الجرة بقدمه دون أن يعيرها اهتمامًا، ولكنني وقفت أمامها برهة أتأملها، أثار حطام

الجزء في نفسي ظنونًا ورفع بعضها إلى درجة المخاوف، جريت إلى غرفتي في سرعة وفتحت بابها، توجهت إلى الصندوق والحيت أفتحه، كان كل شيء على ما يرام، أغلقت الصندوق وجلست على الفراش وأنا أتنهد، شعرت بلوم على سوء ظني، ولكن هاجسًا ظل يحدثني بأننا لم نعد في أمان في دارنا.

• • •



الورقة التاسعة والثلاثون

الأيام التالية كانت هادئة، افترشنا الأرض، ووضعنا بضاعتنا في مكان لا يبعد كثيرًا عن موضع أحداث اليوم الأول، في مواجهتنا نرى البيت الذي لا ينقطع عنه الطائفون والعاكفون، وقبالة البيت نرى تمثالي (إساف) و(نائلة)، اللذين لا ينقطع عنهما الزوار، ورأيت أيضًا الحمس تنتهي من طوافها ثم تذهب لرؤية آية الرب التي جلبت عقابًا على المخطئين. السوق في «بكة» هي الملتقى التي تجمع الجميع، الغريب عن المكان يدرك مع اللحظة الأولى أنه لولا البيت لما كانت «بكة»! لا شيء يغري في هذا الوادي المقفر. لا بد وأن أبانا (إبراهيم) قد تعجب من اختيار الرب لهذا المكان الموحش المحاط بالجبال كي يبني فيه بيته! أشعر الآن بأن هذا البيت هو خيمة الرب، التي أمر نبيه بإخفائها في عمق الصحراء بعيدًا عن أعين الممالك، حتى إذا تدنست بيوته الأخرى، وجد المؤمنون لهم بيتًا يعبدونه فيه.

السوق هنا تختلف عن سوق بصرى. لا حوانيت من الحجر، ولا صوامع ضخمة، وإنما خيام تنصب وأمامها تعرض البضائع. وتختلف أحجام الخيام بحجم ثراء صاحب البضاعة. خيمة (عمرو بن الحارث الجرهمي) لم تكن بعيدة عنا. الخيمة كبيرة بديعة كمنزل أقيم من القماش، أمامها فرشت بضاعته التي يقوم ببيعها أقاربه وأبناء عمومته، إلى جوار الخيمة ربطت خمس نوق فُقئت عين لكل واحدة منها، علمت أن هذا مقياس لثراء الشخص، كل

عير مقفورة تعني ألف ناقة! أي أن (عمرو بن الحارث) يمتلك وحده خمسة آلاف ناقة! لم أره في السوق ولا حول البيت في أيامي الأولى في «بكة»، كان لا يغادر سقيفته المعروشة التي أقامها في مكان قريب اسمه «أجياد»، علمت أيضًا أن هذا المكان هو المكان الذي وقفت فيه جياد جده (المضاض) خيل أعدائه، فأسماه الناس «أجياد».

في ذلك الصباح كنت أقف إلى جوار (ليث) أمام خيمتنا في السوق نتطلع إلى باعة القافلة وهم يعرضون بضاعتنا إلى الناس، أعداد المشترين ليست كثيرة، الناس تُقلّب في أواني الفخار الأحمر وأعينهم تدور عليها ثم يتركونها ويطرقون الخطة والحبوب تفقد الزينة قيمتها في أوقات الشدة أو ربما تكون هذه هي قيمتها الحقيقية!

قلت لـ(ليث):

- نُخفض سعرها قليلًا كي تباع.

قال:

- لم يرض عمي (دومة) بذلك. قال لي: «لا يهان الذهب إذا لم يجد من يشتريه». أعجبتني مقولته، فهي تُلخّص ما في نفس الرجل من اعتزاز بنفسه وبضاعته!

قلت لـ(ليث):

- أريد أن أبدأ عملي في التجارة من أين لي بالأخشاب؟؟

فكر قليلًا، ثم قال:

- الأخشاب يأتون بها من شعاب مكة ومن أحراش تنمو على مجرى الوادي.

جاءتني فكرة أن أخرج بالعربة في الصباح كل يوم، فأجمع الأخشاب ثم أعود قبل أن يحل المساء، هذا أفضل من الجلوس في السوق بلا عمل حقيقي، فأعداد الباعة تفوق أعداد المشترين!

بعد الظهيرة، خرجت إلى منزل الشيخ (عابر) كي أسأله في أن أبدأ عملي

متفرقة، ولعلي اتخذتها ذريعة كي أراه، فقد كان الشيخ (عابر) يلزم بيته أغلب الأوقات، وكأنما أراد أن يعتزل الجدل الدائر بين الناس في أمر «خزاعة» و«جرهم»، طرقت الباب ففتحت لي خادمته قالت لي:

ـ الشيخ في قيلولته!

قبل أن أنصرف، جاء صوت الشيخ (عابر) من الداخل:

ـ أدخليه يا أم سعد.

دخلت إلى المنزل الرحب النظيف والبسيط أيضًا، بدا لي أنه أصغر من منزل الشيخ (ثابت)، به حصير بالٍ فقط وصحفة صغيرة بها بقايا الطعام، دخلت إلى حجرة الشيخ فوجدته ممددًا على سرير مرتفع قليلاً من الأرض، جلست القرفصاء إلى جواره، وقبّلت يده، رفع يده وربت على ظهري قائلاً:

ـ كيف حالك يا (شمعون)؟!

قلت ممتنًا:

ـ بخير حال طالما إلى جوارك يا شيخي الحبيب.

ارتسمت ابتسامة على وجهه الذي بدا لي أكثر نحولاً من ذي قبل فأعادت إليه ضياءً غاب عنه منذ مات ولده الشيخ (ثابت)، ثم قال لي:

ـ هل تعجبك «مكة» أم لا يزال قلبك معلقًا بالأرض المقدسة؟!

ضحكت وأنا أقول:

ـ قلبي أصبح معلقًا بـ«قادش برنيع»، وبالأرض المقدسة، وبـ«يثرب»، وبـ«مكة» أيضًا، ولا أدري كيف سيتسع لكل هؤلاء؟!

قال وقد زادت ابتسامته:

ـ تلك قلب المؤمن، لا تسعه أرض ويسع الدنيا بحالها.

استأذنته في العمل بالتجارة كما عزمت، وأن أبني لنفسي بيتًا صغيرًا في أطراف «مكة»، فأذن لي بالأولى ولكنه تردد في الثانية قائلاً:

- لكن بيننا في الحي ذلك أفضل في الأيام القادمة.

ترددت قليلًا قبل أن أميل على أذنه وأهمس له بشكوكي حول (دعس)، بدا على وجهه عدم التصديق، ولربما ظن أن احتفاظي بالذهب سيجعلني أشكك فيمن حولي، فقال بصوت خفيض:

- إن شئت أحضرت الصندوق إلى هنا!

قلت متحيرًا:

- فكرت في هذا الأمر أيضًا ولكني أخشى أن أثير شكوكه حول الصندوق.

صمت قليلًا ثم تنهد قائلًا:

- أراك تقلق على نفسك وعلى الرحيل بطفولتك يا (الشمرذل)، ما رأينا منه إلا إخلاصًا وودًّا تجاه ولدنا (ثابت).

وحين ذكر اسم ولده، رأيت الدموع تظهر في مقلتيه فآثرت ألا أثير بكلماتي أحزانه وقلت مغيرًا مجرى الحديث:

- أتدري يا شيخ (عابر)، لحدثتني نفسي بأن أخرج بليلي، فآخذ ذهبي وإبلي وأسحق رأسي (إيساف) و(نائلة)!

ابتسم وقال:

- حتى أنت تصدق ما يقولون!

قلت وأنا أهز رأسي نفيًا:

- كلا، ولكني أكره قبح التماثيل، كانت أمي تحدثني عن هيئة تماثيل المصريين وجمالها، ورأيت براعة زوج عمتي «الشامري» في النحت، ولكن هذا القبح المجاور للبيت يزيل عن النفس كل صفاء بعد الطواف، وكما يزيد من قبحها تلك الروايات التي يتداولها أنصار «خزاعة» تحت أقدام التماثيل.

هز رأسه تأسفًا، فتابعت:

- أتدري يا شيخ (عابر)، أن أعداد الناس حول التماثيل تفوق أعداد

الطائفين أحيانًا؟! وأكاد أقسم أنني أرى في عيونهم رهبةً وخوفًا أمام التمثالين أكبر من تلك التي أراها على وجوههم أثناء الطواف، ينظرون إليهما على أنهما آية من آيات غضب الرب، ويخشونهما ويقفون أمامهما بخشوع يفوق خشوعهم في الصلاة.

قال في أسف:

ـ شجرة الإفك تترعرع حين تُسقى بماء الكذب، ويمد الشيطان في ظلها!

ثم انقبض وجهه حزنًا وهو يتابع:

ـ لن تنتهي تلك الفتنة على خير!

قلت له:

ـ وما العمل؟

قال:

ـ تُصلح وجوههم على شاكلتها، فالناس تميل إلى العدل، فإن لم يجدوه، مالوا إلى القوة أملًا فيه، ولا خير في إذا قدمت القوة على الإصلاح، اسمع يا بني! اجعل نهجك في الحياة الإصلاح ما استطعت، فذلك هو نهج الأنبياء.

قلت مترددًا:

ـ وماذا إذا بغى الشر، أما يحتاج الأمر إلى قوة للقضاء عليه؟!

قال:

ـ اجعل قوتك في تقويم المعوج لا في كسره! لو أراد الله لنا حياة بلا شرور لما أتينا إلى هذه الدنيا.

قلت:

ـ النفس تميل إلى النيل ممن ظلمها، وإلا صارت حجارة بلا أرواح

قال:

- ذلك حديث الشيطان، يغري به صاحبه، كي يبذل عليه عاقبته. من أراد الخير عفا وأصلح عند المقدرة.

قلت دون قصد:

- أراك تميل إلى الصبر على «جرهم»، وتتوجس من أمر «خزاعة»، فلماذا لا تنضم إليهم في (سقيفة عمرو بن الحارث)؟ أرى الشيخ (دومة) يجمع رؤساء القبائل من الحجيج، ويخطب فيهم كي يستميلهم إلى حلف يحاربون به «خزاعة».

شعرت بخطئي حين رأيت على وجهه الغضب لأول مرة منذ رأيته في «رنه» وأنا طفل صغير المدى عنه، ثم قمعها وهو يرفع رأسه إلى عريش السقف وكأنه يبث غضبه في الفضاء، صمت لحظات ثم قال وهو يمسك عصاه المستندة إلى الحائط بجوار سريره:

- خذني إلى سقيفة (عمرو بن الحارث) يا (السموأل).

دخلنا إلى سقيفة «اجياد» التي أقامها عمرو بن الحارث، السقيفة أشبه بقاعة حكم يصعد الداخل إليها عبر درج يقف أمامه عبدان حبشيان منتفخا الصدر مفتولا العضد، سمحا لنا بالدخول فقط حين عرفا مني أن الشيخ (عامر) هو والد الشيخ (دومة)، القاعة من الداخل تتراص على جانبيها الأرائك الخشبية الموشاة بفراء الغنم يجلس عليها بعض الرجال الذين بدوا من هيئتهم وكأنهم من علية القوم. في صدر القاعة كانت هناك أريكة كبيرة يجلس عليها شاب يكبرني بخمس سنوات أو تزيد، بدا لي من فخامة ملبسه أنه (عمرو بن الحارث) الجرهمي، الحجرة مسقوفة بالخشب المعشق، وتتدلى من ألواحها قناديل أربعة، وعلى جدرانها علقت سبعة سيوف لامعة وسبع دروع صقيلة، لم أدر ما السر في هذا العدد تحديدًا ولم أتوقف عنده كثيرًا حينما وقع بصري على غزالتين من الذهب وضعتا إلى جوار أريكة عمرو، يخطف بريقهما الأبصار وتتلألأ جوهرتين في موضع العينين منهما.

سكت الجميع لدخول الشيخ (عامر)، وقام (دومة) من مجلسه فقبل يد

أبيه وأجلسه على الأريكة مكانه، بينما وقفت أنا إلى جوار الباب، فلم يدعني أحد للدخول، هممت بالخروج ولكن الشيخ (عابر) قال لي:

- انتظر يا (شمعون)، فلن يطول مقامي هنا.

انتظرت وأنا أنظر بطرف عيني إلى نظرات الشيخ (دومة) غير المرحبة. قال (عمرو بن الحارث) في لهجة مهذبة وصوت رخيم:

- يسعدنا طول مقامك معنا يا شيخ (عابر).

قال الشيخ (عابر) بحسم ووضوح:

- حقًّا لم تكن في مقامي بسعادة لما دعيت إلى هذا الجمع من قبل أن يبدأ.

همّ (عمرو بن الحارث) بالحديث، ولكن الشيخ (دومة) كان أسرع فقال:

- الأحداث تسارعت يا أباه، ولم يتسع الوقت لإخبارك بالأمر.

طرق الشيخ (عابر) بعصاه على الأرض بقوة، وقال:

- الأحداث أسرع من أن يخطر بها شيخ (بني يطور) أم أن الأمر قد صار بيدك؟!

تراجع (دومة) أمام غضبة أبيه، وأسرع (عمرو بن الحارث) فقال:

- معاذ الله يا شيخنا! أنت كبير بني يطور، وما كنا لنقطع أمرًا دون أن نسمع منك الرأي والمشورة.

صمت الشيخ (عابر) لحظات هدأت فيها أنفاسه ثم قال:

- وإلامَ انتهى العزم؟!

همّ الشيخ (دومة) بالحديث ولكن (عمرو بن الحارث) أشار بيده ليسكته وقال في لهجته الودودة التي أطفأت غضب الشيخ (عابر) قليلًا:

- هؤلاء هم سادة ورسل «بني لخم» و«جذام» و«طيء»، وأنتم سادة (بني إسماعيل) من بني قيدار وبني يطور؛ اتفقنا يا شيخ (عابر) أن نحفظ للبيت حرمته، وألا نرفع السيف إلا إذا بُغي علينا.

قال الشيخ (عابر):

ـ وماذا عن باقي قبائل (بني إسماعيل) العشرة؟!

قال (عمرو) وقد تبين لي أنه مُفوّه، يجيد الحديث:

ـ هم أصهارنا ودماؤهم حرام علينا إلا إذا لم يراعوا حقها!

قال الشيخ (عابر) لائمًا:

ـ أبعد العهد وولاية البيت، تثيرون الفتنة كي تتمسكوا بملك زائل وتدفعون بعضكم (بني إسماعيل) لقتال بعضهم؟

نهر (دومة) بالخروج من كلمات أبيه، وصمت (عمرو بن الحارث) قليلًا ثم احتشم وقال في هدوء:

ـ وهل خُنّا العهد أو قصّرنا في الولاية يا شيخ (عابر)؟! ما كان لحيٍّ غيرنا أن يفخر بمثل ما أوليناه للبيت من حقوق.

قال الشيخ (عابر) متعجّبًا:

ـ هنا مربط الفرس يا (ابن الحارث)! إنه الفخر! أنتم تفاخرتم على الناس بولاية البيت ولم تصونوا عهد (قيدار بن نابت) حين عهد بالولاية إلى جدك (المضاض)، فرضتم على الناس العشور والمكوس، واستحللتم أموال البيت لأنفسكم ومنعتموها عن الحجيج.

صمت (ابن الحارث) مبهوتًا، وتابع الشيخ (عابر):

ـ قل لي يا (ابن الحارث)، من أين أتيت بملكيها الغزالتين الذهبيتين؟!

ارتبك الشاب قليلًا ثم قال:

ـ أهدتها إلينا قبيلة من الجنوب قربانًا للبيت!

ثم عقّب الشيخ (دومة) وقد فهم ما يرمي إليه أبوه:

ـ وضعنا الغزالتين في السقيفة، خشية أن يسرقها أحدهم من البيت.

هزّ الشيخ رأسه أسفًا ويأسًا وقال:

- وما حاجة بيت الرب للذهب والفضة، ومن حوله يطوف الحجيج جوعى ومرضى، أطعموا هؤلاء فهم زينة البيت بحق.

ثم قام الشيخ (عابر) وألقى إليه برداء التصح الأخير ليستر به خجله قائلًا:

- اسمع يا بني، قد كان أبوك رفيقًا لأيامي، واستبشرت به خيرًا حين تولى ولاية البيت لكن القدر لم يمهله طويلًا، فعسى أن تقيم العدل بين الناس كما كان يطمح أبوك، واعلم أن لقمة تضعها في فم جائع خير لك من سيف تضعه في يد فارس.

ثم قال وهو ينظر إلى ولده (قوط):

- أما أنا فاعتزل بيتي حتى توول تلك الفتنة، فمن أراد أن يتبع أخويه من (بني يقطن) فليتبعه، ومن أراد أن يسير في طريق الحق فليسر، فالكل مرهون بما كسب.

ثم أشار إليّ وقال:

- هيا يا (شمعون)، لنعد إلى داري.

بززت إلى جواره وأنا أسند ساعده إلى ساعدي، ورغم وهنه شعرت بمدد من قوته يتسلل إلى جسدي، فرفعت رأسي في عزة، وخرجت في حال غير الذي دخلت به، وبينما كنت أهبط الدرج ألقيت نظرة على (عمرو بن الحارث) الذي أراح خده إلى قبضته، وقد بدا عليه الوجوم، وتذكرت قول الشيخ (عابر): «اجعل قوتك في تقويم المعوج لا في كسره».

• • •

الورقة الأربعون

في خلال أسابيع قليلة، جمعت قدرًا لا بأس به من الأخشاب، كنت أخرج كل صباح بعربتي التي تجرها بغلة عتيقة إلى شعاب مكة. فأمضي النهار في قطع الجذوع والأفرع، ساعدني في ذلك أن الأشجار في الشعاب صغيرة نحيفة لا تحتاج إلا الفأس بيد تجيد الضرب في موضع واحد عدة مرات. أكسبتني تلك الجزلة قوة في ساعدي وصفرة، ولفحتني الشمس في النهار فبانت صفحتي شقرة. جعلت (ليث) يسخر منها قائلًا:

- صرت كالعبيد الأحباش في سمرتك ورقة بيانك، احذر من أن يبيعك عمي (الزومة)؟!

وصنعت لي عريشًا في طرف حي (بني يطون) بعيدًا عن المنازل، وضعت به الأخشاب التي جمعتها على مدار شهر كامل واتخذت مقرًا لحرفتي، بدأت بصنع الصناديق، فهي بسيطة الصنع وزهيدة الثمن، ودائمًا ما تجد من يبتاعها، كنت أمكث اليوم كله في عريشي، أقطع الألواح، وأجمعها، وكلما فرغت من صندوق صقلته بالرمل حتى ينعم، ثم طليته بالصمغ الأصفر، حتى تجمع لديّ عشرة صناديق، حملت الصناديق العشرة على عربتي الخشبية وخرجت لبيعها لأول مرة تجنبت الوقوف في السوق وانتظار المشتري وفضلت أن أطوف بها في الطرقات بين الأحياء، فأغلب النساء يحببن الصناديق، والقليل منهن يذهبن إلى السوق، مررت بجمع من النسوة، في حي قيدار، امرأتين وفتاتين،

كن يتحدثن أمام إحدى الدور حين رأين العربة، وضعن خمرهن فوق رؤوسهن وهن ينظرن إلى الصناديق بتعجب، رفعت صوتي دون أن أنظر إليهن:

- «صندوق العروس» أبيع صندوق العروس!

نادت أكبرهن سنًا:

- بكم تبيعه يا فتى؟

قلت:

- بثلاث فضيات يا خالة!

بدا أن السعر قد أغراها، فأشارت إلى كبراهن، ثم هبطت من عتبتها في صعوبة وهي تتوكأ على كتف إحدى الفتيات، أحطن بالعربة وأخذن ينظرن إلى الصناديق بإعجاب، ورأيت الفرحة في عيني إحدى الفتيات، فخمنت من فرحها أنها على وشك الزواج. قالت المرأة العجوز:

- فضية واحدة تكفي يا ولدي!

قلت مبتسمًا:

- قد غبنتني ولذلك يا خالة! أفلا جعلتيها اثنتين؟!

ضحكت قائلة:

- وجهك بشوش ولسانك رطب يا بني، أعطيك فضية وقدحًا من بُرّ!

لم أستطع أن أجادلها، نزلت من العربة، فحملت الصندوق ووضعته أمام باب الدار، فناولتني الفضة، وقدح البُرّ وهي تدعو لي بالرزق والمحبة بكلمات ما زلت أذكرها:

- فتح الله لك أبواب رزقه، وحبب فيك القريب والغريب وسائر الطريق!

فرحتي بالفضية وقدح البُرّ كانت كبيرة، أولى بركات «بكة» عليّ، أصبحت أطوف كل يوم بين أحياء «بكة» ودروبها، رافقني (ليث) في بعض هذه الجولات وكان يدلني على أيسر الدروب، عرفت أسماء الأحياء والجبال المحيطة بـ«بكة»،

«قعيقعان» و«أجياد» و«الحجون»، و«أبي قبيس»، وعرفت لماذا سمي كل منها بهذا الاسم! حقًا إن هؤلاء القوم يحبون الفخر كما يتنفسون!

غدوت في أحد الأيام وقد انتهيت من بيع الصناديق كلها، أربط حول وسطي كيس نقود به عشرون فضة، وأحمل على عربتي جرتي عسل وعشر بيضات وقدحًا من تمر حصيلة يوم واحد!

دخلت الحي الخالي بعد الظهيرة، واتجهت إلى المنزل، البيت عادةً ما يكون خاليًا في هذا الوقت بمكث (ليث) في السوق حتى نهاية اليوم، أما (دعص) فيعود في وقت متأخر من الليل، وأحيانًا لا يعود، وجد (دعص) نفسه في أجواء الحرب الراقية، فمحارب قوي مثله يصبح له شأنًا بارزًا في أوقات الاضطراب، وتعذر خلفاته بأمر البيت ياقيته.

حين دلفت من الباب وجدته يجلس على الأريكة يرتدي حلبابًا قصيرًا تحته سروال ضيق وتمنطق بحزام من الجلد يتدلى منه حسام قصير وفي يده خنجر صغير يزيل بطرفه ما تراكم من أوساخ تحت أظافره.

ألقيت التحية، وهممت بالدخول إلى حجرتي، فوجدت بابها مفتوحًا، دلفت مسرعًا وألقيت نظرة على الحجرة، فوجدت أغراضي ملقاة على الأرض وصندوقي مفتوح، ويبدو أنه قد عبث به قبل دخولي.

قبل أن أستدير فوجئت به يدفعني إلى الحائط، ثم يجثم بساعده على صدري، عم نصل خنجره إلى عنقي حتى أدماه، ثم اقترب بوجهه مني، وقال بكلمات تخرج منها رائحة الخمر:

- أين الذهب؟!

حاولت أن أدفعه ولكنه ضغط بساعده وكوعه أكثر على صدري حتى شعرت بأن ضلوعي تتحطم وغرز النصل أكثر حتى ظننت سيخترق عنقي، قلت وأنا ألتقف الهواء بصعوبة:

- أي ذهب! أنا لا أملك شيئًا.

قال في جنون:

ـ الذهب الذي وضعته بيدي في الجرار مع (شهبور) من نقله وأين ذهب؟!

قلت وأنا بالكاد أستطيع أن أتنفس:

ـ لا أدري عن أي شيء تتحدث!

قال في ترهيب:

ـ حقًا! لا تدري عن شيء أتحدث؟ وماذا عن هذه الرسالة.

ثم رفع النصل عن عنقي وأخرج من جيبه رسالة (شهبور) وهو يقول متهكمًا:

«ليكن السر بينك وبين الشيخ (عامر)، وإن مت فالمال لكما، وإن عدتُ فلك الربع مما حفظت»، ثم صرخ في جنون:

ـ أنت كاذب أيها العراقي، أنت لص وكاذب.

ثم طوى الورقة ووضعها في فمي، قاومته ولكنه أطبق على عنقي بيده اليسرى في قوة وظل يدفع بالرسالة في فمي حتى شعرت بالاختناق وهو يصرخ في جنونه:

ـ لص وكاذب، وتستحق أن تموت لكذبك.

مادت بي الأرض وشعرت بقرب الهلاك، ومنحتني الرغبة في البقاء قوة جمعتها في ساقي فركلته في بطنه فأطاحت به الركلة خطوات للوراء، وقبل أن يسحب حسامه هويت على رأسه بجرة العسل، فسقط على الأرض تختلط دماؤه بالعسل، وسقطت أنا إلى جواره من الإعياء، تترقرق الدماء من عنقي، وألتقط الهواء بجهد بالغ وضلوعي تكاد أن تتخلع مع السعال.

جلست على الأرض وأسندت ظهري إلى الحائط، وقد استسلمت لما قد يحدث. العجيب أنه بعد أن اعتدل من ترنحه، لم يُجهز عليّ بل أخذ يجس دماء رأسه بيده ثم جلس على الأرض وأسند ظهره إلى الحائط المقابل لي تاركًا الخنجر إلى جواره وحسامه في غمده، وكأنما قرر أن يمنحني هدنة، قال وهو يمسح

الدماء والعسل عن وجهه بطرف ثوبه:

ـ لو كان معك سيف لقتلتك الآن، فأنا لا أجهز على رجل أعزل.

قلت في تهكم: وددت لو أتبعه بضحكة ساخرة ولكن حالة ضلوعي لم تسمح لي:

ـ ولكنك تقتله خنقًا.

قال وهو يقطع جزءًا من ثوبه ضغط به على جرح رأسه النازف:

ـ لم أتهمك، لن أعاملك كصاحب، لأنك كاذب.

قلت في جرأة غير مبالٍ:

ـ وأنت خائن!

رفع حاجبيه ونظر إليَّ شزرًا وكأنه يحترق من الداخل، لكني لم ألتفت إلى تحذيره، وأردفت:

ـ تخون صديقك وتطمع في أمواله، ولا شك عندي في أنك ما تركته إلا لأجل هذه الأموال.

صمت قليلًا ثم قال مستنكرًا:

ـ أخون صديقي!

ثم ضحك ضحكة قصيرة وهو يقول متهكمًا مكررًا عبارتي:

ـ أخون صديقي!! اسمع أيها الفتى! تبدو لي مخلصًا شجاعًا ولكنك تحمل في صدرك قلب طفل لم يرَ بعد غدر الأيام ولم يلقَ قهر الرجال.

سكت قليلًا ثم قال:

ـ أتدري ماذا فعلت كي أحفظ صديقي الذي تتهمني بخيانته؟ قد تركت بلدي «غرناطة» بسببه للأبد! «غرناطة» التي عشت فيها أربعين عامًا من حياتي لا أعرف لي وطنًا سواها! أتدري ماذا فقدت أيضًا بسببه؟ فقدت رجالي وخلعوني من رئاستهم وطردوني من الجيش! قالوا: إنني أضعت «غرناطة» التي استعصت

على الغزاة لعشرات السنين. أتدري ما هي ثالثة الأثافي؟! قد فقدت جاريتي التي أحبها! وقتلتها بيدي حتى لا تقع أسيرة في يد المرتزقة!

صمت قليلًا وكأنما اختنق صوته حين ذكرها ثم قال:

- قل لي أيها الغرُّ أي مال يعوض فقدان الوطن والأصدقاء والحبيبة؟!

شعرت بالشفقة عليه، لم أكن أتخيل أن يحمل في قلبه كل هذه الهموم، بل لم أكن أتخيل أن يحمل في صدره قلبًا يشعر ويتألم. عجبًا! حتى قساة القلب تلين قلوبهم أحيانًا تحت وطأة الألم.

قلت رغم ذلك:

- وهل يشفع لك ذلك أن تستولي على أموال أصدقائك؟

لمعت عيناه وكأنما نسي ما به من حزن حين ذكر ذلك، وقال:

- المال سيجعلني أملك الرجال والسلاح، وأعود إلى الجزيرة مرة أخرى كي أطرد منها المرتزقة المحتلين.

قلت:

- ولكنه ليس ملكك أنت.

قال في غضب حامٍ:

- ولمن يكون ملكه لأحد أيها الغبي؟! أنا أحق الناس به! أتظن أن (شهبور) و[illegible] سيحرزان؟!

نظرت إليه مصدومًا، فقال وهو يحرك سبابته في الهواء:

- هل تظن أن سفن (هدد بن بدد) لن تلحق بها؟ لم تخرج سفينة منه من قبل إلا لحقوا بها! إن لم يكونا غرقى الآن في خليج لحيان تأكلهما الأسماك، فلا بد أن يكونا أسرى في سجون (هدد بن بدد) يلاقيان أشد العذاب.

انقبض قلبي لكلامه، وقلت في غضب وحزن:

- كنت تعلم بذلك ولهذا تركتهم يذهبون وحدهم!

قال:

ـ تركت لهم الفرصة الأكبر في النجاة!

أطرقت حزينًا فقال محاولًا استمالتي:

ـ لو كانا في سجون «إدوم» الآن، فلا سبيل لنجاتهما إلا بأن أعود بالسلاح والرجال، فقط أحتاج المال لذلك.

لم أجبه، فأردف في خسة:

ـ إن لم يكن المال معك فهو مع الشيخ (عابر)، ولا أريد أن ينال الشيخ الجليل أذى!

أصابني تهديده بالحرف، ولكنني تماسكت ولم أظهر له شيئًا وأنا أقول:

ـ لن تجد المال مع الشيخ (عابر)؛ فقد ذهب المال إلى من يقدر على حمل الأمانة!

انتفض جالسًا على ركبتيه وكأنما لدغه عقرب وقال:

ـ من؟! تتكلم؟

قلت في شماتة:

ـ (عمرو بن الحارث الجرهمي)! أعطاه الشيخ (عابر) المال يوم عدنا، قال له: إن عاد (شهبور) رُدَّ إليه ماله، وإن لم يعد فالمال قربان للبيت ينفقه كيف يشاء!

قام من جلسته واثقًا بريق الأمل في عينيه وحلّت مكانه الخيبة، عض على شفته بغيظ حتى أدماها، ثم بصق بصقة اختلطت فيها دماء شفته بوجهي ثم انصرف.

بعد ساعات عاد (ليث) من السوق، رآني وأنا لا أزال على جلستي يبدو على وجهي الألم، وقد تمزقت ملابسي وآثار الدماء لا تزال عليها، انزعج فهرول تجاهي قائلًا:

ـ ما بك يا (شمعون)؟!

قلت في ألم وأنا على يقين بأن أحد ضلوعي قد تحطم:

ـ هاجمني كلب عقور في الحي الخالي عند الظهيرة!

قال (ليث) منزعجًا وهو يساعدني على النهوض:

ـ حقًا! وهل لا يزال الكلب طليقًا في الحي؟!

قلت وأنا أستند إلى كتفه:

ـ قد أصبته في مقتل، وأظنه سيفر إلى الصحراء بلا رجعة.

دخلت إلى الحجرة فخلعت ملابسي الملطخة، ولففت صدري بثوب عدة مرات فخمد ما به من ألم، شكرت (ليث) واستأذنته في أن يتركني لأستريح، أغلقت باب الحجرة، ثم جثوت على ركبتي متألمًا أمام الصندوق المفتوح، جذبت المقبض السري في زواياه فاستدار قاع الصندوق لأعلى، رأيت سبائك الذهب تتلألأ أمامي فحمدت الرب كثيرًا، ثم أعدت المقبض إلى موضعه وأغلقت الصندوق، قمت بصعوبة واتجهت إلى سرير (أروى)، ألقيت بجسدي عليه مستنزف القوى، لوهلة شعرت بها إلى جواري تتحسس موضع دائي، أصابني طيفها بالخدر فلا أدري أأدركني النوم من خدر طيفها أم من شدة إعيائي؟!

في اليوم التالي ذهبت إلى منزل الشيخ (عامر) القريب محتملاً آلام صدري، حين رآني تعجب، وسألني عن جرح رقبتي فأخبرته بما حدث، شعر بالحزن و[illegible]ف على (شهبور) و(عمرو بن كلثوم)، واستحسن صنيعي أو كلمتي فقال لي:

ـ أجرى الرب على لسانك ما كنت أنوي فعله بالمال، فقد عزمت أن أحفظه حتى يعود (شهبور)، ونذرت إن لم يعد (شهبور) أن أنفقه على الحجيج.

سألته:

ـ أتحب أن أحمله إلى (عمرو بن الحارث الجرهمي)؟

هز رأسه نفيًا وقال:

ـ إياك يا (شمعون)؟!! لو استطاع (عمرو) أن يمد الغزالتين ليتفق بهما على حربه لفعل!

نظرت إليه متحيرًا، وشعر هو بثقل الأمانة التي أحملها وأشفق علي منها، فصمت قليلًا مفكرًا ثم قال لي:

ـ اقترب يا (شمعون)!

أدنيت رأسي منه فهمس في أذني بكلمات، لمعت لها عيني، وشعرت فيها بالخلاص من ذلك القلق الذي قلقل حياتي، وكدت أفقدها بسببه، فقبّلت يده ثم خرجت من عنده شاكرًا!

• • •

الورقة الحادية والأربعون

مرَّ أسبوعان تحسنت فيهما الأم سارية، ولكن ليس للدرجة التي تستطيع معها قطع الأشجار. اكتفيت في تلك الأيام بالخروج مع (ليث) إلى السوق، وأحيانًا كنت أذهب وحدي للطواف بالبيت، أو الجلوس في حلقات الشعر التي بدأت تتزايد بين «الصفا» و«المروة». فـ(عمرو بن الحارث الجرهمي) كان شاعرًا مفوهًا، وشجّع ذلك الشعراء للجلوس في حلقات يتبارون فيها بالكلمات المنظمة التي تنتهي أواخرها بحروف لها رنين كضربات الصنج. استهوتني تلك الحلقات، وكنت أنبهر ببراعة بعض الشعراء وأتمنى لو أحاكيهم، رغم عدم فهمي لبعض الكلمات.

لم أرَ (دعس) في تلك الأيام، فهو لم يعد إلى البيت مرة أخرى، ولم تكن له أغراض بالبيت كي يعود إليها. أخبرني (ليث) أنه يراه دائمًا في حي «أجياد» يحوم حول سقيفة (عمرو بن الحارث)، ولم ينسَ أن يذكر تعجبه من تلك الصداقة التي نشأت بين (دعس) وبين الشيخ (دومة)، حتى صار له كظله.

وفي صباح أحد الأيام علت في السوق جلبة، ورأيت رجال «جرهم» يتمنطقون بالسيوف، وتكاثفت الحركة عند سقيفة (عمرو بن الحارث)، فقد سرت أنباء أن قافلة لـ«خزاعة» سوف تصل إلى «بكة» في غضون أيام يتقدمها سيد قبيلة «خزاعة» (عمرو بن لحي)، وعلمنا أن القافلة تستقر الآن في وادٍ خارج «بكة» اسمه «بطن مر». لم ينقطع زيت القناديل عن سقيفة

(عمرو بن الحارث) ثلاثة أيام متتالية، فقد كان رؤساء القبائل يصلون الليل بالنهار للتشاور في أمر القافلة، انقسمت الآراء حول ما يجب عمله؛ رأى سادة «جرهم» بزعيمهم الشيخ (دومة) أن هذا إعلان للحرب، ورأى آخرون ومنهم «بني قيدار» و«كندة» أن القافلة آتية للتجارة، وأن هذا أمر معتاد في الأشهر التي تسبق الحج مباشرة، وأنه لا ينبغي أن يرفع السلاح حول البيت الآمن، وأن الأمر لا يعدو محاولة من «خزاعة» لإثارة غضب الجرهميين. وقال شيخ قبيلة «كندة» لـ(عمرو) محذرًا:

- تعينكم على الحرب ولكن لن ترفع سيوفنا على قوم قصدوا أصنام البيت في الأشهر الحرم

واستقر الرأي على أن يرسل وفد من نقباء القبائل ليلتقوا بالقافلة (عمرو بن لحي) لمعرفة نواياه أولًا، ثم محاولة تجنب أي صدام في الأشهر الحرم ثانيًا. واختاروا رجلًا من كل قبيلة، وكان مما أثار عجبي وحيرتي أن رأيت (دعمي) ضمن النقباء السبعة الذين اختيروا، عجيب أمر هذا الرجل، يتلون كالحرباء في سرعة ويجيد بناء جسور الثقة مع من حوله أسرع من تبديل ملابسه، وخرج النقباء في غرة شهرهم (الأصم) والذي علمت أنهم يسمونه بهذا الاسم؛ لأنه لا تسمع فيه صلصلة السيوف، ومع ذلك لم تتوقف طرقات المطارق على السنادين، تسحق تحتها الحديد المحمي، فتشكله سيوفًا ومتاريس، بأعداد لم أرَ مثلها من قبل وكأن الحرب التي أوشكت نذرها قد صارت أمرًا واقعًا لا محالة.

وأوحيت إلى البيت؛ أنه من الضروري أن نقوم بتأمين البيت، فنحن لا ندري ما الذي قد تحمله الأيام القادمة، ومنحتنا أيام الترقب لعودة النقباء فرصة للعمل، فقد كسدت الأسواق، وكنز الناس أموالهم تحسبًا لما قد يحدث فلا بيع ولا شراء، جمعنا الأحجار والأخشاب، وبدأنا في إصلاح البيت وتحصينه، فقمنا بتعلية جدار البيت أولًا حتى صار من الصعب أن يتسوره أحدهم، ثم أضفنا ألواحًا من الأخشاب وجريد النخل إلى عريش السقف، بعدها قمت

بإصلاح النوافذ وأبواب الحجرات، وأضفت إليها حشوات من الخشب، ثم صنعت لها المزاليج حتى صارت كأبواب الحصون.

وعاد (ليث) ذات مساء فوجدني قد صنعت حوضًا من الحجر في فناء الدار الداخلي حول جذع النخلة المبتورة، ملأته بالتراب وغرست به عيدانًا من الريحان فملأ عبيرها الدار وأضفى عليها بهجة تسر الناظر إليها.

قال (ليث):

- تجيد الزراعة أيضًا يا (شمعون)؟!

قلت ضاحكًا:

- أمي كانت تزرع حبات الفول في دارنا في «قادش برنيع».

ابتسم قائلًا:

- لا تفتأ تذكر ما يحصل لك فيها!

قلت في شجن:

- ارتدت روحها حُلّة جسدي.

قال متأثرًا وكأنما تذكر أباه:

- وأبوك؟! ماذا ورثت عنه؟!

عجزت عن الكلام! وصمتُّ حتى طال صمتي.. سرت خطوات ثم جلست على الأرض وأسندت ظهري إلى الحائط فجلس إلى جواري ونظرتُ إلى العريش وأنا أقول له:

- أتدري يا (ليث)؟ أنا لم أشعر بقدر ما صنعه أبي لي في حياتي حين كنا في برية سين، لكني أشعر به وأعيشه الآن، أرى طيفه يسير أمامي، وتطأ قدمي آثار أقدامه في كل خطوة أخطوها، أصبحت الآن أشبهه في كثير من الأمور، ناهزت طوله أو أكثر بقليل، حين أرى وجهي في مرآة (أروى) المكسورة، أظن أنني أراه، نفس الجبهة والأنف والعينان، ولولا لفحات الشمس في برية «فاران»

لعل وجهي خطيئًا كوجهه.. العجيب أن صوتي أيضًا قد اقترب من صوته، وحديثي صار أشبه بحديثه، وأراني أمثله في غضبي وفرحي ويأسي وبأسي. أظن يا (ليث) أن صفات الأب لا تورَّث؛ لأنها لا تموت، هي تنتقل بحالها في جسد جديد، ما زلت أذكر لحظة موته، أتدري ماذا قال حينها: «الحمد لله الذي ترك بضعة مني ستزرع الأرض المقدسة». كان يعلم أنني بضعته، والبضعة إذا كبرت صارت كالأصل، أنا لا أفتقده الآن؛ لأنه معي أينما كنت، وكل ما أخشاه ألا أحقق حلمه؛ لأنه حتمًا سيتألم، هل تفهمني؟

لم أسمع إجابته، بل سمعت صوته ينتحب، وقد تذكر أباه، ربَّتُّ على كتفه ثم شددت عضده بيدي وأنا أقول:

- صدقني يا (ليث)، أنا أيضًا أرى فيك الشيخ (ساعدة)، يومًا من الأيام ستكون سيدًا لقومك كأبيك، وستحمل بين ضلوعك قلبًا كقلبه يمتلأ رحمة، وحكمة، وعدلًا.

ثم قلت باسمًا:

- ولكنك إياك أن تتحدى (الأمار) مرة أخرى وإلا أغضبت روح أبيك!

ابتسم وقال:

- (الأمار)؟ ليت شعري كيف حال «يثرب» وأهلها الآن؟ اشتاق إلى أمي و(أروى) كثيرًا!

قلت مؤمِّنًا بغير قصد:

- وأنا أيضًا نظر إليَّ مندهشًا

فقلت مسرعًا:

- أقصد أني اشتاق إلى «يثرب» وساكنيها!

* * *

أشرفت رءوس الإبل من فوق كثبان الرمال جهة الشرق، وملأ صوت رغائها الوادي بين جبلي «قيقعان» و«أبي قبيس»، خرج الناس عن بكرة أبيهم إلى سطوح الجبال تتطلع أعينهم إلى القافلة الأكبر في تاريخ «بكة» منذ وطئت وديانها إبل «جرهم».

تقدم الركب عشرون ناقة مفقوءة العين، تنوب كل واحدة منها عن ألف، خطفت العيون المفقوءة أبصار الناس، وظلوا يتهامسون: كيف يمتلك شخص واحد عشرين ألف ناقة؟! لحظات وكانت خفاف الإبل تعلو فوق الكثبان الناعمة متأرجحة على أسنامها زنابيل الغلال التي تحمل الخير إلى «بكة».

أصابت الدهشة رجال «جرهم» وحلفاءهم، فالتف ... انتحى الفرسان جانبًا، وأعادوا السيوف إلى أغمادها، ثم وقفوا إلى جوار العامة والحجيج يتطلعون إلى القافلة التي يتقدمها (عمرو بن لحي) سيد قبيلة «خزاعة» وولده ثعلبة. اكتحلت غرابة المشهد برؤية شباب «جرهم» السبعة يسيرون جنبًا إلى جنب مع (عمرو بن لحي) في مقدمة الركب، توقفت القافلة بالقرب من الصخرة، ظل الجميع في مواضعهم بينما قفز (دعمي) من فوق جواده وسار خطوات، قبل أن يعتلي صخرة عند أول «المروة» وقف عليها وقال بصوت عالٍ:

- أيها الناس، هذا (عمرو بن لحي الخزاعي)، سيد قبيلة خزاعة، قد جاء إلى البيت آمنًا مطمئنًا لا يحمل سلاحًا، ولا ينتهك حُرمة، حاملًا معه قربانه إلى حجيج بيت الله.

ابتسمت ساخرًا حين رأيت (دعمي) يتحدث! ها هو يُبدِّل جلده مرة أخرى! خرج ناثًا عن «جرهم»، فعاد يتحدث بلسان «خزاعة»، دار في عقلي سؤال عما إذا كان باقي الشباب قد حذوا حذوه، وإن تشككت في ذلك حينما رأيت التزامهم الصمت ولمحت الخجل في عيون البعض منهم.

جاءت الإجابة من ناحية «الصفا»، فقد علت جلبة، ثم رأينا أشراف «جرهم» على الطرف الآخر يتقدمهم (عمرو بن الحارث) وإلى جواره الشيخ (تومة) وخلفهم مائتا فارس، يرتدون جميعًا زي الحرب وإن كانت السيوف في أغمادها

والسهام في أكنانها، ثم وقفوا قبالة قافلة «خزاعة» في ثبات لا يفصلهم عنها إلا رمية رمح.

تنقلت الأعين بين «العمرويْن»، (عمرو بن الحارث) الشاب الذي يحمل على ظهره تاريخ أسلافه في سدانة البيت لثلاثمائة عام، ويقف أمامه (عمرو بن لحي) الرجل المحنك الذي يتطلع إلى مستقبل قومه في الولاية ويريد أن يؤسس لها

أناخ الفتية الستة الباقون رواحلهم حين رأوا ركب (عمرو بن الحارث) قادمًا، ترجلوا من ظهورها وساروا تجاهه بينما ظل (أدهم) على وضعه فوق الصخرة. قال رسول ملك «كندة»، وكان أكبرهم سنًا:

- يا سادة «جرهم»، «مضاض»، قد جاء سيد قبيلة «خزاعة» يسألك يحيي البقاء في «بكة» حتى انتهاء الحج، وقد أعطى العهد بألا يرفع سيفًا أو يهز رمحًا.

صمت (عمرو بن الحارث) قليلًا، ثم نظر إلى رجاله عن يمينه ويساره ثم قال وكأنما قد اتفقوا على ذلك مسبقًا:

- و«جرهم» لا ترفع سيفها إلا على الباغي المعتدي، فمن أتى إلى البيت يسأل الأمان فهو في حمانا إلى أن يرحل!

ابتسم (عمرو بن لحي) باستخفاف أطفأ حالة الفخر التي تحدث بها (ابن الحارث)، ثم قال بصوت عميق ظننته يأتي من بطن الوادي:

- لا يسأل أمثالنا الأمان! ومن «خزاعة» هو الحمى يا (ابن الحارث)!

انتفض فرس عمرو بن الحارث، وكأنما أغضبته إهانة سيده، فرفع ساقيه الأماميتين في الهواء، ثم دار دورتين حول نفسه قبل أن يستقر على الأرض نافرًا في غضب، ثم قال (عمرو) وهو يلهث منفعلًا:

- للبيت سدنة يقومون على فرائضه يا (ابن لحي)، وفريضة البيت العُشر مما تحملون!

اتسعت ابتسامة (ابن لحي) أكثر وقال في هدوء رجل ينظر إلى طفل منفعل ولا يأبه بما يقول:

- وفيمَ تنفقون العُشر يا فتى «جرهم»؟! على الحجيج أم على أنفسكم أم على السلاح؟!

رفع (عمرو) رأسه في شمم، ثم أشار بيده إلى جبال «الحجون» التي تقع على أطراف «بكة» من جهة الشرق وقال:

- مثل الناس من «الحجون» إلى «الصفا» عما جادت به أيادي «جرهم» عليهم.

ضحك (عمرو بن لحي) ضحكة أطاحت بهيبة (ابن الحارث)، واتسعت عيناه ثم قال مخاطبًا الجموع من (بني إسماعيل) والحجيج:

- انظروا يا أهل «بكة» أينفقون قرابين البيت على الحجيج ثم يقولون: هذا ما جادت به يد «جرهم» على أهل «بكة».

ثم صرخ في غضب هاتف أرهب القلوب:

- الجود بما تملك يا (ابن الحارث)، وليس بأموال المؤمنين.

صمت الجميع، فالحقيقة سطوع مثل الشمس يؤذي عيون المتعامين عنها، رأيت غضبًا يكسو وجوه بعض الجموع المتجمهرة وتكورت أصابع بعضهم بحوش العصي، عجبًا لأمر هذا الرجل استطاع بغير سيف ولا رمح أن يصيب غريمه في مقتل!

بات جليًا أنّ معركة الكلام خاسرة، ومع ذلك غمغم (عمرو بن الحارث) بكلمات لا معنى لها كي يوقف نزيف كرامته فقال:

- قل ما شئت! فلن ينكر عِزّنا إلا جاحد، ثم أنشد في صوت عالٍ كي يسمعه الجميع:

ملكنَـا فعزَزْنـا فأعظِـمْ بمُلْكِنـا   فليسَ لحيٍّ غيرِنـا ثـمَّ فاخِـرُ

وكأنما أعطى بأبياته الفرصة لـ(عمرو بن لحي) كي يجهز عليه، فألقى

(ابن لحي) بسهمه الأخير قائلاً بصوت فاق صوت عمرو علوًّا:

- أيها الناس، ما جئناكم كي نفاخركم بملك أو نمن عليكم بعز، فلا عز إلا لرب هذا البيت! هذي تجارتنا قد أتينا بها إليكم، لا نقول هذا لنا وهذا لله، بل هي كلها لله، لن يبقى جائع، ولا معتر في «بكة» ولا من حولها، فمن أراد طعامًا أطعمناه، ومن أراد كسوة كسيناه، والفضل لكم ولا منة إلا لله!

ثم هتف في رجاله:

- أنيخوا الدواب! فهنا سيكون حي «خزاعة» بإذن الله!

وانطلقت الحناجر الجائعة تهتف لـ(عمرو بن لحي) بالحمد والشكر، وحين أناخ دابته، انطلق الناس إليه يُقبّلون رأسه ويده، بينما انسحب (عمرو بن الحارث) ورجاله، يظللهم الوجوم وقد أدركوا أن الأيام المقبلة ستكون حُبلى بالغدر بعد أن لفحها (عمرو بن لحي) بالمكر.

• • •



الورقة الثانية والأربعون

مرت الشهور، واقتربت أيام الحج في شهر (تِرُك) الذي تبرك فيه الإبل القاصدة من كل فج عميق، لتحمل معها بركات الحجيج على البلدة التي تهوي إليها الأفئدة، رأيت أصنافًا من البشر لم أرها من قبل، واستمعت إلى لهجات شتى لم أفهم معظمها، وسمعت أن يطوف العرب من ولد (إسماعيل) أكثر من أن تحصى، ومع ذلك كان الجميع يطوفون حول بيت واحد، ويلهجون بنداء واحد، ويستترون برداء واحد، ويصعدون إلى جبل واحد. الوحدانية في تلك البقعة كانت هي الشيء الأقدس والأكثر تميزًا، لم يخرق ناموس الوحدانية في ذلك العام شيء، سوى الرفادة، فمن قام على رفادة الحجيج في هذا العام كانتا قبيلتين بدلًا من قبيلة واحدة، امتدت خيام «خزاعة»، من نهاية «المروة» وحتى جبل «قعيقعان»، وفيها كان الطعام يعد لإطعام الحجيج، وامتدت خيام «جرهم» من «الصفا» وحتى «بئر زمزم»، ومنها كان الماء يخرج لسقاية زوار البيت.

رغم انشغالي بصنع الصناديق أحيانًا وانشغالي بالبيع بدلًا من (ليث) في السوق أحيانًا أخرى، لم أمنع نفسي من قبسات من النور في تلك الأيام. رافقت الشيخ (عابر) و(ليث) في مواضع شتى حول البيت كانوا يطلقون على كل واحد منها اسم «المَشعَر»، يستحضرون فيها مشاعر تضافرت كأغصان شجرة ملتفة، مزجت بين رحمات تجلت في الماضي ورحمات ترتجى في الحاضر. هنا هرولت الجارية (هاجر) أم (إسماعيل) بين «الصفا» و«المروة»، تبحث عن

الماء لوليدها، تسعى رغم انقطاع الأمل، فيتفجر الماء لسعيها، وكأنما ليعلمهم الرب أن السعي معقود على الرجاء، وهناك انتصر أبونا (إبرام) على همسات اليأس ووسوسات الشيطان، رجم الشيطان الذي رآه أو استشعره، لا أدري، ولكنه انتصر عليه ولم يثنِ له عزم، وبين هنا وهناك، كان ذلك الجيل الذي يقفون فرقًا يعترفون بذنوبهم، ويرجون رحمة ربهم، يتحدثون إليه لا يفصل بينهم وبين أبواب السماء حجاب.

أما آخر الأيام فكان أعظمها وأجودها، قدمت القرابين إحياءً لذكرى فداء أبيهم (إسماعيل)، امتلأ حرم البيت والأحياء المحيطة به بلحوم القرابين ودمائها. رأيت الأحابيش وصعلة الأعراب يأتون من الحوش، ومن بطون الجبال يرجون أن ينالوا من تلك اللحوم فلم يردهم أحد، ولم يسأل أحد عن جسده أو قبيلته أو إيمانه، والحق أنني لم أر مثل هذا الإطعام على الفقراء طوال غربة «سبين»، فهنا تتنزل الرحمات بلا شروط ولا انقطاع.

وتنافست «جرهم» و«خزاعة» في الذبائح، فذبح (عمرو بن الحارث) في ذلك اليوم خمسين رأس بعير، فرد عليه (عمرو بن لحي) بذبح مائة رأس، فضلًا عن عشرات الذبائح التي قدمتها باقي القبائل قربانًا للبيت، المنافسة بين الأغنياء تعود بالنفع على الفقراء دائمًا حتى ولو كانت رياء.

كنت أجلس أنا و(ليث) والشيخ (عامر) في خيمة ضمن مخيم أقيم في وادي بين جبل عرفة وبيت الرب، يستريح به الحجيج بعد يوم عرفة، أعد الطهاة لحم جزور قطعنا منه وطعمه الفقراء أيضًا. ابتسم (ليث) وقال:

- أراك أديت مناسكنا كاملة يا (مسعود)، وكذلك على ملة أبينا (إبراهيم).

لم أتردد في الإجابة، فقلت في غير تردد:

- أنا على ملة أبينا (إبرام) يا (ليث)، وظني أنه ما من دعوة تدعو إلى الخير، وتدعو إلى عبادة الرب الواحد إلا وهي دعوة أبينا (إبرام).

رفع (ليث) حاجبيه مندهشًا، بينما انتبه الشيخ (عامر) لكلماتي فقال في حيرة:

- بارك الرب فيك يا (شمعون)، أصبت كبد الحقيقة، فإنما هي مشكاة واحدة يقتبس منها الكل نوره.

قلت وقد أمسكت بطرف الخيط من تشبيه الشيخ (عابر):

- كنت أنظر إلى النور من قبل من خلال ثقب ضيق يا شيخ (عابر)، أما الآن فالنور يملأ قلبي وبصري.

ثم أردفت:

- أتدري يا شيخ (عابر)، لقد رأى أبي ذلك النور وسط الظلام الذي عشناه في برية سيناء، نظر إلى النور من خلال نبي الله (موسى) فملأ الإيمان قلبه، لم يفتح بنو إسرائيل قلوبهم وصدورهم مثله، أو صدورها، فعميت أعينهم عن الرؤية. لو كانوا مثل أبي لكان نور الرب قد ملأ برية سيناء مثلما يملأ برية فاران الآن.

صمت الشيخ (عابر)، وظل مطرقًا لحظات قبل أن يقول:

- من يدري يا (شمعون)، لعل الله يدير مشكاته من «بكة» إلى «سيناء»!

شعرت بتخوفه مما تحمله الأيام المقبلة فقلت وقد فهمت مغزى كلامه:

- أتظن أن «خزاعة» لن ترحل بعد انقضاء الحج؟

أمال رأسه جانبًا والتفت إلى خيامهم التي ملأت «قيقعان» وقال:

- هذه رحال إذا بركت لم تقلع!

لم أفهم معنى المثل الذي ضربه فأردف مبينًا:

- أي (ابن لحي) بكل ما يملك، وهذا شأن المستقر، وليس العابر.

قلت:

- ولكنه لم يأتِ بفرسان ولا بسلاح.

قال:

- ولم يأتِ بولده (ثعلبة).

قلت وقد ساورني القلق:

ـ أتظنه يغير على «بكة» بعد انقضاء الحج؟

باعد بين كفيه قائلاً:

ـ لا أدري، ولكن إن لم يحصل على مراده بالمال، فسيحصل عليه بالسيف.

لذنا بالصمت برهة، لا أدري لماذا قفزت إلى مخيلتي صورة العرافة (أم إياس) في تلك اللحظة، تذكرت ما قالته لي في تلك الليلة المظلمة: قالت: عما قريب تفقد سندك، وقد تركت (أروى) في «يثرب». ثم قالت: إذا وقع الخطب هناك فانجُ بأهلك. فهل كانت تقصد بالخطب، أهي تلك الحرب، أم أمر آخر، أم أن الأمر لا يعدو ترهات صادفها واقع يسهل استشرافه؟

انقضت أيام الحج، وقفلت رواحل الحجيج عائدة إلى أوطانها، أدركت وضعًا لم أره من قبل، ورأيت حالة بين الناس لم أرها في حياتي في يوم من الأيام، حالة من الرضى والشعور بالربح، فقد ربح الحجيج، ربح العاسفة، وربح التاجر، وربح الفقير، وربح السادة والأشراف، ربح الجميع إلا الذي طالت الخسارة كان (عمرو بن الحارث الجرهمي) لا لم يخسر مالاً، فما أوتيه من قرابين وهدايا لأجل البيت يفوق قدرة صوامعه على تخزينها، ولكنه خسر مكانة بعد أن بدا جليًا أن (عمرو بن لحي) قد زلزل بجوده وعطائه مكانة «جرهم» في الوفادة.

فرغت «بكة» من ضجيجها وزحامها، وذهبت سحابة الإيمان التي ظللت البيت مع أنفاس البسطاء الذين جاؤوا شعثًا غبرًا من كل فج عميق، ولم يبق إلا سادة العرب الذين اجتمعوا كي يضعوا حدًا للصراع الدائر على ولاية البيت، جميل أن يكون من بين السادة من يدعو إلى الحكمة، ويهتم لأمر الوحدة، ولكن الخوف من أن تشتري الأنفس بالمال أو أن تمتطي المصلحة جواد الحكمة فتوجهه كيف شاء!

أقيمت في «قيقعان» سقيفة لـ(عمرو بن لحي)، فأقامت سقيفة (عمرو بن الحارث) في «أجياد»، وتردد الوسطاء من ذوي الحكمة بين «قيقعان» و«أجياد» كي يمدوا جسور التواصل بين الزعيمين المتنافرين، وكان من هؤلاء الوسطاء

الشيخ (عابر)، و(الغوث) سيد قبيلة «طيء». حين رأيت الغوث تذكرت صدر العاري المتهدل في حمام (الحجر)، وبحثت عيناي عن رفيقه المتحق (زيد) فوجدته وقد بدا أكثر نحولاً وإن حافظت عيناه على بريق المكر فيهما. أستطيع أن أخمن لماذا وافقت «جرهم» على (الغوث) وسيطاً رغم ما بينه وبين قبيلة «خزاعة» من مصاهرة وعهد. فحديث (الغوث) الذي استمعت إليه في حمام (الحجر) كان يشي ببغضه لـ(عمرو بن لحي) رغم القرابة بينهما.

اقترح (الغوث) أن تعود «خزاعة» إلى ديارها، وأن تأتي تجارتها كل عام على أن تعفى من (العشر) عن دخول «بكة». كان واضحاً أنه يحمل رسالة (عمرو بن الحارث) التي لقنها له. قال (عمرو بن لحي) مؤنباً:

- وكأن غضبة «خزاعة» كانت لمال أو تجارة يا سيد قبيلة «طيء»؟

قال (الغوث) في حدية باطنها التهكم وإن لم يبد على وجهه شيء:

- وفيم الغضبة إذن يا سيد خزاعة؟

قال (ابن لحي) مطلقاً ضحكة الحريرية تحت إبطه

- غضبة للبيت الذي انتهكت حرمته ومجرى به الزوار! وغضبة للفقراء الذين يقتص العشر من أموالهم! وغضبة لأموال البيت وجواهره التي تزين بيوت السادة من «بني جرهم».

قال (الغوث):

- وما السبيل لحقن الغضب يا سيد خزاعة؟!

قال (ابن لحي) وهو يلوح بيده في الهواء:

- ترحل «جرهم» عن «بكة» ويقوم على أمر البيت من يقدر على خدمته بلا جور ولا ظلم!

ظهر الغضب على وجه (الغوث) وقال:

- أمر البيت موكول لـ(بني إسماعيل) منذ أنشأه جدهم يا (ابن لحي)، وقد تركوه لأخوالهم من «جرهم» عن طيب خاطر، وإن أخذ من «جرهم» لعاد

إليهم، ولا شأن لقبائل العرب بذلك!

قال (ابن لحي):

- وماذا لو ترك (بنو إسماعيل) أمر البيت لخزاعة؟!

قال (غوث) في غضب حقيقي هذه المرة:

- تكون ألبت عليك قبائل العرب يا (ابن لحي)؟! لا فضل لـ«خزاعة» على «كندة»، ولا فضل لـ«كندة» على «طيء». دع الفتنة نائمة ولا تغتر بشراء الفقراء من (بني إسماعيل) بالمال، فوالله لحجر واحد من البيت أحب إليهم من الدنيا وما فيها.

تلاقت نظرات الرجلين وتصادم الغضب بينهم، وقد تكشفت السرائر أمام الجميع، وتحدث الشيخ (عابر)، بعد أن أوشكت شعرة الود على الانقطاع بين الرجلين:

- يا سيد «خزاعة»، نحمد لك الغيرة على البيت والاهتمام لأمره، ولكن أمر (بني إسماعيل) موكول إليهم كما قال الشيخ (غوث)، ونأبى أن تكون قميصًا تتجاذبه أيدي المتصارعين، وليس لنا في هذا الصراع شأن إلا أمر البيت والحجيج، وحقن الدماء في البلد الحرام. وقد لاقى الحجيج في عامهم هذا من الكرم وحسن الوفادة ما لم يلقوه في أي عام من الأعوام منذ نشأته، فإن شئتم عرضنا عليكم ما ذهب إليه (بنو يطور بن إسماعيل).

استحوذت كلمات الشيخ (عابر) على عقول الحضور، فللحكمة صوت ينصت إليه الجميع، فقال (عمرو بن لحي):

- هات ما عندك يا شيخ (عابر).

قال الشيخ (عابر):

- ما يرضينا أن يطرد أخوالنا من «مكة» أو أن ينزع عنهم شرف خدمة البيت وهم من قاموا على أمره ثلاثمائة عام، وإن كنا نلوم عليهم الظلم في فرض العشور على الناس، فإني والله أرى أن يقسم أمر البيت إلى ثلاثة أقسام!

فتكون الوفادة وإطعام الحجيج لـ«خزاعة»، والسقاية لـ«جرهم»، أما الهدايا والقرابين فيقوم عليها حلف من سادة قبائل العرب ومعهم (بنو إسماعيل)، فينفقون الأموال في أوجه الحق التي فرضها الرب علينا.

لمعت عين (ابن لحي) وكأنما راقه الرأي، وهدأت غضبة (الغوث) ولكن صوت الحمق جاء هذه المرة من الشيخ (دومة) الذي كان يحضر الحلقة نائبًا عن «جرهم» فقال:

- نترك بيت أبينا (إسماعيل) لقبائل العرب تشاركنا فيه أمانة؟

قال الشيخ (عابر) دون أن يلتفت تجاهه:

- البيت بيت الرب وليس بيت (إسماعيل)، ويشاركنا فيه كل من آمن بالرب.

قال (دومة) حانقًا:

- لا تسع «بكة» لـ«خزاعة» و«جرهم»، فإما «جرهم» أو «خزاعة».

قال (زيد) رفيق (الغوث) الذي كان يرقب الحديث بعيني الصياد طيلة الجلسة دون مشاركة:

- صدقت يا شيخ (دومة)، وإن شئت يا سيد (الغوث) قدمت الرأي.

أشار إليه الغوث موافقًا فقال:

- تقيم «خزاعة» ببطن المرّ خارج «بكة» فلا تجاورها، وإن كانت أيام الحج أتت بقافلة الوفادة إلى هذا الحي بلا سلاح ولا فرسان.

استحسن (الغوث) الرأي، وتوقعت أن يبدأ (عمرو بن لحي)، ولكنه قال:

- لا بأس ولكن بشرط، أن تنزع «جرهم» سلاحها.

قال الشيخ (دومة):

- ومن يذود عن البيت ويدفع عنه المعتدين؟!

قال (ابن لحي) ساخرًا:

- وهل يروم البيت معتدون؟!

ثم قام من جلسته مُنهيًا الحديث وقال:

قد قبلنا بشروطكم يا شيخ «عامر»، ويا شيخ «عوث»، وهذا هو شرطنا الوحيد: تنزع «جرهم» سلاحها، وترتد إلى «بطن مر»، ونحقن الدماء، وإلا فالغلبة لمن غلب.

• • •



الورقة الثالثة والأربعون

مرت الأيام حثيثة المطى تتلاحق أحداثها في سرعة حتى صرنا نصبح على حال ونمسي على حال أخرى، لم يقبل (عمرو بن الحارث) في بادئ الأمر شرط «خزاعة»، ولكنه انصاع في نهايته بالقبول على ألا يتعدى موسم الحج المقبل، ولم يوافق (عمرو بن لحي) إلا على خروجه بعد أن كتب شروط الصلح في صحيفة، شهد عليها زعماء القبائل وشهد عليها (عمرو بن الحارث) بنفسه.

وبعد أن جرى الصلح، استعدت القبائل للرحيل عن «مكة»، وودع (الغوث) سيد قبيلة «طيء» الشيخ (عابر) في منزله، وقال له:

- بارك الله فيك يا (أبا ثابت)، حقنت دماء العرب وحفظت البيت هيبته وشرفه.

ربت الشيخ (عابر) في كتفه وقال:

- الشكر لك يا سيد «طيء»، لولاك لبادت «خزاعة» في غيها.

قال (الغوث) وهو يهز رأسه:

- أرجو أن يصدق (ابن لحي) في عهده.

قال الشيخ (عابر):

- نسأل الله له ولنا السلامة.

وقبل غروب ذلك اليوم خرجت آخر قبائل العرب من «مكة»، ولم يبق سوى

«خزاعة» التي جمعت أغراضها، وشدّت رحالها، وأعلن حاديها أن الرحيل سوف يكون مع شروق شمس اليوم التالي، فودع أنصارها (عمرو بن لحي)، وبدا أن سحابة الفتنة التي قد أظلت البيت سوف تنقشع ولو إلى حين.

في تلك الليلة جلست في الدار على سرير (أروى)، أدوّن أوراقي على ضوء قنديل من الزيت، وخطر لي أن أسأل نفسي: لماذا أدوّنها؟ ومن سيقرؤها؟ ولكني لم أجد حقًا إجابة إلا أن هذه الأوراق هي الشاهد الوحيد على حياتي؛ فكل ما مر في حياتي منفي، إلا هذه الأوراق، فهي الشيء الثابت الوحيد الذي يربط بين حياتي الماضية وحياتي الحالية. ظللت أكتب طويلًا حتى اقترب الليل من منتصفه وأنا ما زلت منهمكًا في الكتابة، شعرت بالإجهاد فتمططت مثائبًا، وبينما كانت ذؤابة القنديل تتراقص رقصًا أمام تثاؤبي، وبعد أن كدت أفكر أن أجمع، سمعت صوتًا كحفيف الأرجل خارج البيت، أطفأت ذؤابة القنديل، وقد خطر لي أنه ربما يكون (دعمي) قد عاد، أنصت قليلًا وألصقت أذني بالجدار، ثم نظرت من فرجة النافذة متسترًا بالخشب خلف الحائط، رأيت بعض الرجال الملثمين، يتهامسون ويحملون في أيديهم المشاعل التي انعكست أنوارها وصنعت ظلالًا داخل حجرتي، انطلقوا جميعًا إلا واحدًا، انتظر حتى اختفى حاملوا المشاعل ثم رأيته عائدًا. رغم الظلام شعرت أني أعرفه، طوله وصوت أنفاسه يوحيان لي بأنه الشيخ (دومة).

جلستُ على الأرض مسندًا بظهري إلى الحائط، فأيًا ما جمع هؤلاء الرجال في تلك الساعة من الليل، فهو بلا شك ليس بالأمر الذي يستبشر به!

عدتُ إلى فراشي وألقيت بظهري على السرير وقد طار من عيني النوم، فظللتُ أتقلب من جنب إلى جنب، وكلما خف صوت بجانبي انتصبت أذناي ككلب يستشعر الخطر. فجأة شقّ سماء «بكة» صراخٌ ملأ جنبات الوادي، وأخرج الناس من صياصيهم، خرجت أهرول من باب الدار، وكدت أصطدم في الظلام بـ(ليث) الذي أيقظته أصوات الصراخ مثلي، خرجنا من باب الدار

فوجدنا سماء «بكة» وقد أضاءتها ألسنة اللهب المتصاعدة من جهة «المروة» حيث توجد أخبية «خزاعة» وخيامها.

انطلقت أنا و(ليث) تجاه الجبل الذي امتلأ سفحه بالبشر، بعضهم هرب من الحريق وبعضهم تجمع كي يتعاونوا في إطفائه وطقطقات النيران تبدو في أذني كاصطكاك فكي ذئب تسحق بينهما عظام شاة رضيعة، تنقلت جرار الماء بين جسر الأيادي الذي امتد بين القمة والسفح، وأسرعت أنا و(ليث) في معاونة الرجال في نقل الماء من زمزم إلى «المروة»، قبل أن تنتقل ألسنة النيران إلى سقيفة (عمرو بن لحي).

كم قضينا من الوقت؟ لا أدري، ولكن عتمة الليل كانت قد انجلت وحلَّ عليها سجاف الفجر حين توقفت النيران، وانطفأت آخر ألسنتها. جلس الرجال المتعبون إلى الأرض، وأطلق بعضهم خلف الإبل التي شردت خوفًا من النيران، كلمات مثل الغدر، ونقض الصلح، والانتقام تردَّدت كثيرًا بين الناس. سمعت اسم (دعس) يتردد بغضب، وقيل إنه شُوهد مع بعض الرجال حول «المروة» قبل اندلاع الحريق مباشرة. مع تباشير الصباح، ظهر (عمرو بن الحارث) ومعه سادة «جرهم» والشيخ (دومة)، زيارته المتأخرة أثبتت شكوكًا حاكت صدور الناس ولم تبرئ ساحته أمام عيون الاتهام رغم براءة عينيه. رفض (عمرو بن لحي) مقابلته، وأرسل له على لسان رسوله عبارة واحدة:

- براءة من العهد بيننا وبينكم.

عاد (عمرو بن الحارث) ورجاله إلى سقيفته في أعالي «أجياد»، وهو لا يعلم، ما الذي حدث ومن فعلها، أرسل فرسانه للبحث عن (دعس) فلم يجدوه، انضم من بقي من أنصاره إليه في السقيفة لا لينصروه، ولكن ليبرئوا ساحتهم من الاعتداء ولينظروا فيما ستؤول إليه الأمور. حذره شيخ قبيلة «كندة» من انتقام «خزاعة» وحلفائها قائلًا:

- لا يزال (ثعلبة بن عمرو بن لحي) رابضًا في (بطن مرّ) ومعه فرسانه وسلاحه وأنصار له من قبائل العرب، ولا يفصل بيننا وبينهم إلا بضعة أيام.

الشيخ (دومة) كان يؤكد أن ما حدث خيانة، وأن (دعس) قد فعلها باتفاق مع «خزاعة» كي تتخذها ذريعة لنقض الصلح بعد أن قفل الحجيج من «مكة» وغادرها حلفاء «جرهم».

لم يهتم الحاضرون بصراخ الشيخ (دومة)، ولا بالأعذار التي يسوقها، اهتموا بأمر واحد: ألا تقع حرب في «مكة» تأتي على الأخضر واليابس، والحل أن تترك «جرهم» ولاية البيت كاملة لـ«خزاعة»، وانساب هذا الرأي كالماء بين الشقوق حتى عم الجميع وجعل «جرهم» تبدو وحدها كجزيرة معزولة لا يقف عليها إلا (عمرو بن الحارث) ومحاوره الشيخ (دومة).

ومثل الرجال ما وصلوا إليه من رأي إلى (عمرو بن لحي)، ووصلوا به إلى مجلسه في القعيقعان. ارتضى الرجل على ذل الرجال الذين جاءوا إليه محملين بالخوف والرجاء، فقال في تيه وصلف:

- الولاية لنا ما دامت «جرهم» أم أنت.

قال بعضهم في خضوع:

- جئنا إليك لنحقن الدماء، ونريد الصلح، وكلنا آباء وعمومة يا سيد «خزاعة»!

ازداد في صلفه أكثر فقال:

- لقد سبق السيف العذل وأهدرت الدماء يا أهل «مكة»! لا مقام لـ«جرهم» في «مكة» أو ما حولها من القرى.

قال أحدهم بين الاستعطاف والاستنكار:

- يغادرون «مكة» وهم سدنة البيت وأخوال أبناء إسماعيل!

قال في غضب أرعبهم:

- ليت بيت العرب وما كانوا أولياءه! وحق هذا البيت، لو بقي منهم أحد في «مكة» لأهدرت دمه ولأبحت ماله ونساءه، ولأجعلن العرب تتحدث عما فعلته «خزاعة» بـ«جرهم».

ثم أردف متوعدًا:

ـ اسمعوا وعوا يا (بني قيدار) و(بني يطور)، ما أتينا لننتزع عنكم شرفكم ولا لنخرجكم من مساكنكم، ولكننا قوتلنا في حرم البيت وأُحرقت ديارنا، فلئن ناصرتم ظالمًا فأنتم على ظلمه، ولتبوؤوا بإثمه، ولئن لزمتم مساكنكم حفظنا لكم فضلكم، وما نال من مكانتكم أحد.

ثم قال في حسم منهيًا النقاش:

ـ وغدًا تعلم «خزاعة» من يجاورها حول البيت، ومن يرحل عنه!

وعاد الوسطاء إلى (عمرو بن الحارث) منكسي الرأس، عاجزي النطق. استشاط (دومة) غضبًا، وبهت (عمرو بن الحارث) حينما رأى التخاذل في عيون أنصاره من (بني إسماعيل)، فلم تفلح كلمات (دومة) الواعدة للعصبية وحقوق الخئولة في رفع الرؤوس المنكسة، وإطفاء بريق أمل في العيون التي ملأها التخاذل، بان، واتضح أن أنصار الأمس قد تراجعوا، وأن «جرهم» قد فقدت داعميها من السادة والبسطاء على الصعيد. ونأيًا حتى على (عمرو بن الحارث)، أن يجني ثمار ما زرعه آباؤه من قبل، وحينما سألوه عما ينتوي فعله قال:

ـ كتب على «جرهم» أن تذود عن البيت كابرةً وفاجرةً، ولئن تخطفتني جوارح الجبال، ونهشتني سباع الصحراء، ما تركت ملكًا ملكنيه الله، وما خنت عهدًا قطعه آبائي وأجدادي. فوالله لتعلمن «خزاعة» أن بالعرب رجالًا صدقوا وعدهم، وأن الشرف أحب إليهم من الدنيا وما فيها.

ثم هتف على حراسه قائلًا:

ـ يا حراس، نادوا في الناس بالحرب، وليتأهب الفرسان بالسلاح، وليلجأ الرعاة إلى الجبال، وليلزم من يخشى الحرب بيته، فإنا والله نحمي البيت بصدورنا ونجير الضعيف فينا.

وعند الظهيرة، رأيت المنادي يتسور جدران البيت ثم يقف على سطحه،

قبل أن يمسك بوقًا ذكرني ببوق (بني إسرائيل) نفخ فيه ثلاثًا، ثم قال كلمة واحدة كررها أيضًا ثلاثًا:

- الحرب! الحرب! الحرب!

وحملت الأيام التالية في رحمها نذر شر، وتأهب الناس لميلاد حرب كبرى قد تغير مجرى تاريخ البيت لقرون قادمة؛ الكثير من الناس لم يكن يعنيهم أمر المحاربين قدر ما كانت تعنيهم حياتهم التي قد تحترق في أتون المعركة، نزع البسطاء أعمدة خيامهم وحملوا أغطيتها من الصوف والوبر، ثم صعدوا بها إلى أعالي الجبال يدفعون أمامهم أغنامًا هي كل ما يملكون من حطام الدنيا، احتمى أكثرهم بجبل الرحمة، فقد وقر في قلوبهم أن أحدًا لن يطاردهم فوق الجبل المقدس، تحصنت بيوت الأشراف بـ«أجياد» و«أبي قبيس» بالحجارة والمتاريس، ولجأ (بنو إسماعيل) إلى منازلهم في البطحاء تحت الوادي إلا من البيت الذي صار مهجورًا لا يشرف عليه إلا تمثالان قبيحان على هيئة بشر.

جاءت الأنباء أن (عمرو بن لحي) قد التقى بوالده (ثعلبة) في «بطن مر»، وأن حلفاءهم من القبائل قد انضموا إليهم، وأنهم في الطريق إلى «مكة». ومما أثار الخوف بين الناس في «مكة»، ما تردد من أن (ابن لحي) كان يحمل العرافة (طريفة) على هودج في مقدمة الصفوف فلا يقطع واديًا ولا ينزل منزلًا إلا بأمرها، و(طريفة) عرافة يخشى الناس سحرها ويصدق نبوءاتها.

بعيدًا عن باقي أحياء (بني إسماعيل)، كان حي «بطورة» في البطحاء يعج بالجدل والانقسام، لم يفلح الشيخ (هومة) في جمع الناس للحرب معه، لم يثق فيه الناس، وعيّره بعضهم بعقوقه لوالده الذي انقطعت الصلة بينهما منذ حادثة سقيفة (عمرو بن الحارث)، شعر (هومة) باليأس والحزن وبالغضب أيضًا، ذهب إلى والده مرتديًا زي الحرب، حين طرق الباب كنا أنا و(ليث) بالداخل، دخل منكس الرأس، ووقف أمام والده وقال:

- خذلني قومي يا أبتاه!

أشاح الشيخ (عابر) بوجهه بعيدًا، فقال (دومة) مكسورًا:

- أريدك أن تنصرني!

قال الشيخ (عابر) في غضب ضعضعته شفقته على انكسار ولده:

- أنصرك على غدرك؟! ظننتك أحمق غضوبًا، ولكني أراك الآن خائنًا للعهد غادرًا.

لم يدفع عن نفسه اتهامًا بل قال وكأنه يلقي بأمنية تمناها ولم تتحقق:

- لو نجح (قصي) لقضينا على شر «خزاعة»!

قال أبوه:

- بل أقضي على الشر بما ملكت أولًا؟! أعماك غضبك عن رؤية الخير من الشر، ووثقت في قاطع طريق؟! أتظن أنك كنت قادرًا على شرائه بالمال؟! من يبيع نفسه بالمال، يبحث دائمًا عمن يدفع أكثر، وما هو بالذي باع نفسه [illegible]؟!

ثم أردف متألمًا:

- أتخون العهد يا ابن (عابر)؟! وتريد أن تسفك الدماء الآمنة في الأشهر الحرم؟!

قال (دومة) مدافعًا:

- كنت أدافع عن البيت! وعن ملك أبينا (إسماعيل)، وعن ملك أخوالي!

صرخ الشيخ (عابر) غاضبًا:

- ما كان (إسماعيل) ملكًا وما كانت سقاية البيت ملكًا!

ثم قال ناصحًا:

- اذهب يا بني فقل لصاحبك أن يترك أمر البيت، وليحقن دماء قومه.

قال (دومة) معاندًا:

- وتعيرنا العرب ما حيينا؟!

قال الشيخ (عابر):

- صدقني يا بني، لئن بقيت «جرهم» شوكة في ظهر «خزاعة»، خير من أن

تكسر شوكتها في حرب تستبد بعدها «خزاعة» بالأمر وحدها!

قال (دومة) متنهدًا:

ـ سبق السيف كما قال (ابن لحي) يا أبتاه.

قال الشيخ (عابر):

ـ بل لا يزال السيف في غمده.

ثم أردف فيما يشبه الرجاء:

ـ ارحل مع أهلك يا صبي، ودع الأيام تريك ما وقع من صدع.

وقبل أن يجيب أباه، علا صوت الدهماء من فوق جبل أبي قبيس وحملت الرياح أصوات طبول تقرع، فنهض الشيخ (دومة) ثم قال:

ـ أسمعوا دعكم الله يا أبي، لقد عاد (عمرو) ولكنه لم يحدث، فقل له: إن أباك قد مات عزيزًا. ثم خرج وصفق الباب خلفه.

• • •

الورقة الرابعة والأربعون

«انتهت الحرب بأسرع مما كنا نظن! انسحقت المتاريس التي أقمتها في صفح «أجياد» تحت سنابك خيل «خزاعة»، لم تحتمل المتاريس وطأة جحافل الجيش الذي فاق عددنا بخمس مرات، ورجال «جرهم» كالأسود، ولكن الأسد إذا تكاثرت عليه الضباع أكلته».

كانت هذه كلمات (عمرو بن الحارث)، كنا أنا وهو فوق جبل «الحجون» بعد أيام من المعركة، نتطلع إلى جبل «أجياد» الذي تصاعدت منها أعمدة الدخان في الجهة المقابلة بعد أن أتت النيران على كل منازل «جرهم»، لم يرض رجال «خزاعة» إلا أن يحرقوا منازل «جرهم» عن آخرها، لا يريدون أن يتركوا لهم أثرًا، فالأثر يثير الحنين والشوق والرغبة في الرجوع! أبادوها وكأنها لم تكن، قبل أن يحرقوا البيوت، أخرجوا النساء والأطفال والشيوخ من المنازل، جمعوهم مع الأسرى في خيم بـ«البطحاء»، وأبقوا على حياتهم في انتظار ما يأمر به سيد «بكة» الجديد (عمرو بن لحي)، أهدروا دماء (عمرو بن الحارث) بعد أن طمر «بئر زمزم» بالحجارة والتراب وسواه بالأرض، ارتكب (ابن الحارث) الإثم الأعظم، وأتى بأحط ما يمكن أن يفعله رجل شريف بالبيت المعظم، لن تنسى له العرب أنه طمر بئر (إسماعيل) حين شعر بدنو الهزيمة، وحين سمع المنادي يقول في الطرقات: من يأتي به قتيلًا فله مائة رأس بعير، ومن يأتي به أسيرًا فله ألف، أدرك أنهم يريدون الإبقاء على حياته، التي لا تساوي شيئًا إلا لمعرفة السر الذي

بحمله، هم يريدون أن يعرفوا أين أخفى غزالتي الذهب وأين وضع سيف «المضاض بن جرهم»؟ وإذا عرفوا السر سيُقضى عليه لا محالة.

بعد أن رأى الهزيمة وشيكة، تسلل هاربًا من فوق جبل «أجياد»، خلع ملابسه وارتدى جلبابًا مرقّعًا، وألقى على رأسه خمارًا، تلثم بطرفه ثم هبط إلى البطحاء وسار بين الجموع التي خرجت من بيوتها تهلل بنصر «خزاعة». رأى جماعة من الناس يهرولون خلف ناقة مفقوءة العين من نوقه الخمسة، التحى جانبًا بعيدًا عن الناقة المذعورة التي لا ترى شيئًا، سقط قلبه ومع ذلك لم يعرفه أحد، أمسك أحد الرجال بذيل الناقة وقطع آخر عراقيبها من خلاف، فسقطت الناقة العمياء كالطود، ارتقى أحدهم فوق ظهرها ثم عقرها وهي تنتفض من الذعر والألم، شعر بالألم يعتصر قلبه، أيبكي على ماله المستباح أم على ناقته التي لو لم تفقأ عيناها لا تيحت لها فرصة للهروب. ألقى خماره أرضًا، فقد أدرك أن بجهله بين الناس، سار مكشوف الوجه، حتى وجد نفسه في أطراف البطحاء، خشي أن يخرج إلى الصحراء فيلمحه الكشافة من فوق الجبل فيشتهون بأمره، قرر أن ينتظر حتى يجن الليل الذي تفصله عنه شويعات قليلة، نظر حوله فوجد عريشًا أقيم وحده في أطراف البطحاء، ويبدو أنه غير مسكون، دخل في حذر فوجد دقاقًا وصناديق غير مكتملة وعربة بلا حصان تستند إلى قائميها، أدرك أنه عريش لنجار، وأن النجار غير موجود، اختبأ في العريش جامعًا ركبتيه إلى صدره، ويده تتحسس جرحًا غير نافذ في جانبه. بعد قليل مدد ساقيه واسترخى بظهره، اطمأن للسكون من حوله، فأغمض عينيه وانتظر مجيء الليل، ولكن الليل حين زاره وجده نائمًا، فأرخى عليه سكونه وتركه، فلم يفق إلا في الصباح حين دخلت أنا عليه العريش.

حين رأيته نائمًا خدعتني هيئته وظننته عابر سبيل، ولكنه حين فتح عينيه عرفته، فأنا لا أنسى العيون أبدًا، فُعِر لرؤيتي، ولكنه تماسك بعد وهلة، تظاهر بأنه عابر سبيل، فأحنى ظهره وأطرق برأسه إلى الأرض وهو يقول:

ـ معذرة يا سيدي، قد داهمني الليل فبت في العريش الخالي خشية الذئاب.

تجاوزني في سرعة واصطدم كتفه بكتفي وهو يخرج من الباب، استدرت إليه بعد أن خرج من باب العريش، وقلت محذرًا:

- الطريق ليس آمنًا! يبحثون عنك في كل مكان.

تجمد في موضعه لحظات، ثم فرد ظهره، واستدار إليّ وهو يقول في عزة الملوك:

- عرفتني إذن! من أي البطون أنت؟!

قلت:

- لست من أهل «بكة»!

قال متعجبًا:

- ولماذا تحذرني؟! كان بإمكانك قتلي وأنا نائم والتماس الملك رأس بعير، أم تريد أن تسلمني إليهم حتى تظفر بالألف ألف؟! هيا أيها الشاب اصرخ، واستدع الكشافة فلو كنت مكانك لفعلت!

أشرت إلى يدي الخاويتين من أي سلاح وقلت وأنا أنظر إلى بقعة الدماء التي كبرت وطفحت على ملابسه:

- لا أريد هذا ولا ذاك! فقط أريد أن أساعدك على النجاة.

قال متشككًا:

- لماذا؟

قلت في بساطة:

- لأن كل إنسان يستحق فرصة للنجاة.

رأيت في عينيه تصديقًا وبريقًا للأمل، فقال:

- وهل تملك أن تساعدني؟

قلت في تأكيد:

- أجل، فقط انتظرني لبعض الوقت وسأعود إليك.

عاد الشك إلى نظرته، فقلت مطمئنًا:

ـ سوف آتي ببغلة تحملنا إلى خارج مكة.

لا أدري لماذا وثق في كلماتي، ربما لأن الكلمات الصادقة تجد طريقها إلى القلب دون المرور على العقل، وربما لأنه لا يملك خيارًا آخر. عدت بعد سويعات قليلة، أركب بغلة، وأحمل معي صرتين من القماش، وجدته مثلهفًا قلقًا، قال:

ـ تأخرت طويلًا!

قلت:

ـ مطاردة، توقفت أكثر من مرة خشية أن يتبعني أحد.

ألقيت إليه بصُرّتي القماش وقلت:

ـ هذا طعامٌ، وذاك ملبس بدلًا جلبابك الملطخ بالدماء بعد أن تفرغ من الطعام.

فتح صُرّة الملابس أولًا وهو يقول:

ـ لا وقت للطعام.

فرد الزي أمامه فوجده جلباب امرأة، ومعه خمار رأس. قال مندهشًا:

ـ ما هذا؟!

قلت:

ـ هذا أفضل شيء للخروج من هنا. ارتده الآن ثم أردفت مبتسمًا:

ـ أرجو أن يتسع ثوب (أم السعد) لك!

علقت العربة على سرج البغلة، ثم وضعت فيها بقايا الأخشاب وبعض الصناديق غير المكتملة. خرج عمرو مرتديًا جلباب (أم السعد) الذي وصل إلى أسفل ركبتيه بقليل، واضعًا على رأسه خمارها. كدت أضحك، ولكني تراجعت! قلت له:

ـ هيا القفز.

قفز فوق العربة ثم استلقى على ظهره وأسند رأسه إلى أحد الصناديق وصفر صاحبه يغطاه من الخيش ووجهه بالخمار الأسود. قال من خلف الخمار:

ـ اتجه إلى «الحجون»!

انطلقت بالعربة من «البطحاء» ودرت حول جبل أبي قبيس دورة كاملة، وحين اقتربت العربة من سفح «أجياد» حدث ما كنت أتوقعه. استوقفني بعض فرسان «خزاعة» حين رأوا العربة، سألني أحدهم:

ـ من أين تأتي ومن أي البطون أنت؟

قلت في هدوء:

ـ أعمل حمالًا في «البطحاء» وأنا مولى الشيخ (عامر) من «بني يقظة».

دار الحارس حول العربة وكأنه يتعجب من صنعها، ثم نظر إلى (عمرو) المستتر بزيه متعجبًا، فقلت قبل أن يسألني:

ـ هذه أمي، وهي مريضة، وسأذهب بها إلى الحرم في «الحجون».

اقترب من أحد الصناديق فحلّها، فسقط قلبي بين أضلعي وتمنيت أن يحفظ (عمرو) هدوءه. قلّب الرجل الصندوق بين يديه وقال:

ـ تبدو ماهرًا أيها الشاب، أفلا تركت لي هذا الصندوق؟

خشيت إن وافقت، أن يحذو الآخرون حذوه فقلت متذمرًا:

ـ ألم يرفع سيد «خزاعة» العشور عنا؟! أجاء إلينا بالعدل أم أن الظلم قد بدّل ثيابه فحسب؟!

شعر الرجل بالحرج، فألقى الصندوق فوق العربة وقال نادمًا:

ـ هيا أيها الشاب، تبدو مشاكسًا ولا تخجل من الجهر بالشكوى.

تنحت الصفحاء حين أفسح الطريق أمامنا، فصفعت مؤخرة البغلة بيدي كي تسرع الخطى، فانطلقت في سرعة تقطع الطريق إلى جبال «الحجون» التي لاحت قممها في الأفق. اعتدل (عمرو) قليلًا من رقدته، بعد أن اطمأن قليلًا

لخلو الصحراء، فتح صرة الطعام، وبدأ يقضم قطعًا من الخبز، سألته عما سيفعله بعد أن يصل إلى «الحجون»، فأجاب:

- تنتظرني فرقة من الحراس مع زوجتي وأبنائي، أرسلتهم إلى هناك قبل الحرب بأيام تحسبًا لما قد يحدث.

قلت:

- إذا كنت تتوقع الهزيمة، فلماذا لم تحقن الدماء وتترك الأمر لخزاعة؟

صمت قليلًا، فشعرت أني قد تجاوزت في سؤالي، ولكنه قال بعد صمته:

- الملك لا يُترك لما الشعب ولكنه يُنتزع انتزاعًا.

ثم عاد إلى صمته مرة أخرى قبل أن يقول:

- يمكنك تركه قبل أن تستوي على عرشه، فإذا استويت على العرش فالأمر ليس لك!

ثم شعرت بصوته يتهدج وهو يقول:

- حين مات أبي (الحارث)، رجوت أعمامي بأن يعهدوا بالأمر لأخي الأصغر (الوليد بن الحارث)، ولكنهم أبوا ذلك، لأنه لا يزال صغيرًا، لم يكن قلبي معلقًا بالحكم بقدر ما تعلق بالشعر، حتى أمور البيت لم أكن على علم بها قبل أن أتولى أمر «جرهم»، البيت الوحيد الذي تعلق به قلبي منذ الصغر كان بيت الشعر، عشت فيه وعاش فيّ وودت ألا أفارقه.

أشفقت عليه وشعرت بصدق حديثه، ولكن هذا لم يمنعني من أن أعود لأسأله مرة أخرى:

- وماذا ستفعل بعد أن تصل إلى «الحجون»؟

قال:

- سأعود بأهلي إلى الجنوب، هناك سأبدأ من جديد، ويومًا ما سأعود لأسترد ملكي وملك آبائي!

قلت متحسسًا كلماتي حتى لا أغضبه:

- وهل سيغفر لك الناس طمر «زمزم» وسرقة غزالتي الكعبة؟!

صمت قليلًا ثم قال:

- يوم نعود سيعلم الناس أن «جرهم» لا تدنس شرفها بالسرقة!

كنا قد اقتربنا من جبال «الحجون»، أشرف إليها بناظريه وكأنه لا يصدق أنه سيلتقي أهله فوق الجبل، ربت على ظهري وهو يقول:

- أشكرك أيها الشاب، لك في عنقي دين لن أنساه ما حييت!

ثم قال متعجبًا:

- أنا لم أعرف اسمك! ما هو اسمك؟

وقبل أن أجيبه، سمعنا صيحة عالية أفزعتنا، رأيت فارسًا يخرج علينا من جانب الطريق وكأنما انشق عنه بطن الجبل، يلوح بسيفه في الهواء وينحدر تجاهنا في سرعة، وحين اقترب منا، تبينت ملامحه، مادت بي الأرض وكأني أراه يبعث من جديد، فقد كان (دعمي) يحمل سيفه، الذي تلألأ نصله في الهواء فبدا كليث تلمع أنيابه قبل أن ينقض على فريسته الثمينة.

ضرب بسيفه سرج البغلة فانقطع، ومالت العربة على جانبها فسقط الجميع، أنا و(عمرو) والبغلة وحمولة الأخشاب والصناديق، قفز من فوق فرسه في رشاقة وفي لحظة كان نصل سيفه يقف على نحر (عمرو بن الحارث)، وقف يلهث وعيناه تنظران في ظفر غير مصدق أنه وقع على الصيد الثمين، فك من نطاقه حبلًا ملفوفًا تدلى من جانبه، ألقى به إليّ وهو يقول لي في أمر نافذ:

- اربط قدميه إلى يديه.

تقاعست في القيام رغم نظرة الشر التي رمقني بها، فركل (عمرو بن الحارث) بقدمه بقوة في جانبه ففتق له جرحه وصرخ (عمرو) عاليًا قبل أن يسقط على جانبه وقد جحظت عيناه من الألم. صرخ في جنون أرعبني:

- هيا وإلا قتلتك!

أمسكت بالحبل وعقدته حول يدي عمرو وقدميه كمن يربط بعيرًا يوشك على نحره، لم تطاوعني نفسي أن أعقد العقدة الأخيرة فترددت وأنا أنظر إلى عيني (عمرو) التي تفيض بالألم، فإذا بركلة أخرى تطيح بي بعيدًا، قبل أن يقوم هو بعقدها في قوة صرخ لها (عمرو) من الألم، ثم وهو يلف باقي الحبل حول رقبة (عمرو) وقال وهو ينظر إليّ في احتقار وشماتة:

- ألم أقل لك إنك غرٌّ تافه، تحمل في صدرك قلب طفل! أضعت من يديك صيدًا ثمينًا يفوق أموال (شهبور) التي أضعتها من قبل!

ثم قال وهو يضع سيفه في غمده:

- منحتك الحياة فرصًا كثيرة لا تستحقها.

ثم انحنى وحمل (عمرو) على كتفه كمن يحمل جوالًا من الطحين، ووضعه مكبلًا فوق ظهر فرس.

وقف يلهث بحنق تضج في صدره ما للحظات، أتبعها بزفرة طويلة كزفرة فرس ثم التفت إليّ وهو يقول مستكملًا حديثه:

- أما أنا فلا أمنح الأغبياء إلا فرصة واحدة، وقد أضعتها أنت.

أخرج سيفه، ورأيت في عينيه عزمًا على قتلي، انتفضت واقفًا وأمسكت بقطعة خشب ووقفت مباعدًا بين ساقي متأهبًا للقتال بسيف من خشب، كنت أعلم أنه لن يؤخر قتلي سوى للحظات، ولكن نفسي أبت أن أذبح بلا مقاومة [illegible]، طوحت الخشبة تجاهه مرات ولكنه تفاداها قبل أن يحيلها أصغر بضربة واحدة من سيفه. صرخ ورفع يده بالسيف عاليًا في الهواء وانتظرت أن تهبط على رأسي ولكنها لم تهبط، تراشقت سهام عدة في صدره وكتفه فجحظت عيناه في ذهول وألم، ترنح قليلًا ونظر إلى مصدرها فرأى ثلاثة من الأحباش من فرسان (عمرو بن الحارث) ينسلون من فوق الجبل. شد أحدهم قوسه عن آخره ثم أفلت السهم الأخير الذي اخترق عنقه قبل أن يسقط على ركبتيه أرضًا، فتح عينيه بصعوبة، ثم نظر إليّ وابتسم ساخرًا غير مصدق أن نهايته قد

حادث بتلك السهولة، وقال بصوت متحشرج:

- فليمت (دعس)، ولتحيا (غرندل).

ثم سقط على وجهه بلا حراك.

• • •

وفي «الحجون» اختلطت دموع الفرح بدموع الشوق، احتضن (عمرو بن الحارث) زوجته وأولاده وشقيقه (الوليد بن الحارث) وانهال عليهم جميعًا بالقبلات، لم يصدق أنه لا يزال حيًا، وأن الحياة قد منحته فرصة أخرى، لا شيء للإنسان يعدل فرصة ثانية بعد أن تغلق أمامه السبل ويضيق به الحال، وبعد أن أفرغ دموع أشواقه تجاه أهله، نظر إلي مشيرًا، تقدم مني خطوات ثم احتضنني بلا كلمات، ربت على ظهري في قوة ثم قال:

- أنا مدين لك بحياتي.

لم أجد ما أقوله ولم أعرف ما يمكن أن يقال في مثل تلك اللحظات، مسح دمعه ثم أشار إلى حارس من حراسه، كان يحمل بين يديه صندوقًا، فتح الصندوق وأخرج منه كيسًا من المال بدا من ثقله أنه يحوي مئات الدنانير، وضع كيس المال في يدي وهو يقول:

- هذا لا يوفيك حقك، ولكننا نكرم من أكرمنا!

لم أطبق يدي على كيس المال، نظرت إليه ثم إلى الصندوق وقد خطر لي أنه قد سلب أموال البيت معه.. أحس بما يدور في رأسي فقال وهو يطبق يدي على كيس المال:

- المال مالي من التجارة، لم يكن لأجرهم أن نسلب أموال بيت الرب.

ثم مال على أذني وقال:

- سيأتي يوم نعود فيه إلى «مكة» ويسترد كل ذي حق حقه.

وضعت يدي التي تحمل الكيس جانبًا وقلت في هدوء:

- وإن لم تعد؟!

قال:

- حينها سيصل المال لمن يستحق، والله كفيل بها!

قلت:

- وددت لو لم تطمر البئر وتختفي الغزالتين!

قال:

- لن يهتم لأمر البئر إلا ولد (إسماعيل)، والغزالتان ستشهدان على من يُعظّم أمر البيت.

قلت مبتسمًا:

- حزين لفراقك ولكني أتوق إلى لقاء آخر يحمله الرب.

تمهل ثم استدار وسار حتى وصل إلى الحافة، سرت خلفه ثم وقفت إلى جواره، تطلعنا إلى أعمدة الدخان التي تتصاعد من فوق جبال «أجياد»، زفر وكأنه يريح همًّا كالجبال ثم قال:

وَقَائِلَةٍ وَالدَّمْعُ سَكْبٌ مُبَادِرٌ ... وَقَدْ شَرِقَتْ بِالدَّمْعِ مِنْهَا المَحَاجِرُ

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحَجُونِ إِلَى الصَّفَا ... أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

لم يستطع أن يكمل.. صمت قليلًا ثم استدار قائلًا:

- يا حراس، احملوا المتاع فقد آن وقت الرحيل.

وقبل أن يتحرك الركب التفت إليّ وأنا جالس على مرتفع أيمّم وجهي شطر البيت الحرام، وقال:

- نسيت أن تخبرني ما اسمك؟

قلت مبتسمًا:

- (شمعون بن زخاري) وإن شئت ناديتني (شمعون المصري).

* * *

الورقة الخامسة والأربعون

استند بساعده الأيسر إلى ساعدي الأيمن وتوكأ على عصاه بيده اليمنى. كان يسير واهنًا مرتعشًا، حتى ظننت أن عشرة أعوام قد أضيفت إلى عمره في ذلك اليوم! دخلنا إلى المخيم الفسيح الذي أقيم في صحراء البطحاء لأسرى «جرهم»، سمح لنا الحراس بالدخول بعدما أن أذن لنا (عمرو بن لحي) بذلك وأرسل معنا خادمه إكرامًا (عمرو بن لحي) مقام الشيخ (عابر) فعفا عن الشيخ (دومه) وأبقى على حياته بلا فدية، ولكنه لم يسمح له بالبقاء في «بكة»، أمر بطرده مع نساء «جرهم» وشيوخهم خارج «بكة»، قال في حسم:

- لو كنت قاتلًا رجلًا من (بني إسماعيل)، لكان ولدك يا شيخ (عابر)، ولكني أعفو عنه إكرامًا لقدرك شريطة ألا يجاورني في «بكة» أبدًا ما حييت.

مررنا في المكان الذي يشبه مربط الدواب في قذارته ورائحته، كانت الخيمة التي بها محبسه في طرف المخيم من جهة الغرب، دخلنا عليه فوجدناه مُكبّلًا من قدميه في سلسلة من حديد، وقد عقدت يداه خلف ظهره، شعره صار أشعث وتنافرت لحيته حتى بدت كطلع نخلة التصق بوجهه المتسخ الذي لم يخلُ من جروح جفت دماؤها وبقيت آثارها عليه.. حين رآه والده ارتعش جسده وانتفض وأخذ يتمتم ببعض الذكر، أجلسته على حجر إلى جوار ولده في رفق، أمر الخادم الحارس بأن يفك قيده، ثم تركنا وانصرف، ما أن انفكت

يداه حتى انحنى على قدم أبيه يُقبّلها وهو يجهش بالبكاء الحار، ربت أبوه على ظهره وهو يقول:

ـ حمدًا لله أنك ما زلت حيًا يا ولدي.

قال وهو لا يزال يبكي:

ـ ليتني مت ولم أرَ ذلك الذُّل الذي حاق بنا يا أبتاه!

قال أبوه مُهوّنًا:

ـ الحرب كرٌّ وفرٌّ يا بني، لا ذُل يبقى ولا عز يدوم، فاحمد الله، واجعل ذلك لله وحده.

قال في غضب:

ـ لم ينصرنا أحد يا أبتاه، كيف هان أمر جرهم على الناس هكذا؟! أغلق الناس بيوتهم في وجوه الفارين من جيشنا، وأسلموهم إلى عدوهم وكأن لم يكن بيننا وبينهم ود في يوم من الأيام!

قال أبوه:

ـ لم تعد جرهم اليوم كعهدها يا بني! جنى (عمرو بن الحارث) ما زرعه آباؤه.

قال في حزن:

ـ لهفي عليك يا (ابن الحارث)! لا أدري إن كنت قتيلًا أم أسيرًا أم شريدًا في الصحراء.

نظرت حولي لأتأكد أن أحدًا لا يستمع إلينا، ثم قلت هامسًا:

ـ هو بخير! ينتظرك في مساه!

اتسعت عيناه من الفرحة، وقال:

ـ حقًا يا (شمعون)، كيف عرفت؟!

قال الشيخ (عابر) في خفوت وهو يرمقني بحنو وتقدير:

- أخرجه (شمعون) من «البطحاء» إلى «الحجون»، وأنقذه من القتل على يد (دعس) الخائن! ولقي الخائن جزاءه.

نظر الشيخ (دومة) إليّ في ذهول وقال:

- أنت يا (شمعون) فعلتها؟!

أطرقت برأسي خجلاً رغم لمعة الزهو في عيني، فاغرورقت عيناه بالدموع، وقال:

- كم أساءت الظنون بك يا بني، وأغلظت إليك في القول!

ربت الشيخ (عامر) على كتفه وقال:

- لا تثريب يا (دومة)! هيا لنعد إلى البيت.

سأله في انكسار:

- هل دفعت طمع (الخزرجي) يا أخاه؟

تنهد الشيخ (عامر) ثم قال:

- أليس قتل الصبية وإخافتنا كل أمر مجروحة مع «حرمهم» من «مكة»؟

تنهد هو في ارتياح وقال:

- خيرًا فعل، والله ما كنت لأجاوره في «مكة»، وهو صيد عليها.

لم يعد إلى داره، فضّل أن يذهب إلى دار أبيه أولاً ليغتسل وليبدل ثيابه حتى لا تراه زوجته وبناته على هذا الحال، وصلنا إلى دار الشيخ (عامر) بعد مرورنا بأحياء (بني إسماعيل)، نظرات الشماتة في أعين الناس من (بني إسماعيل) لها لسع شعرت به وأنا الغريب، فما بال وقعها على الشيخ (عامر) وولده. حتى الناس من (بني يقطون)، لم تخلُ كلماتهم المرحبة ودعوات الحمد بالسلامة له من غبار حقد فضحته العيون والخلجات وخائنة النظرات، البشر هم البشر في كل مكان، لا فرق بين الحقد هنا في برية «فاران» والحقد هناك في برية «سين».

حين دخلنا البيت كان (ليث) في استقبالنا، انحنى ليُقَبِّل يد عمه ولكنه سحبها وأحاط بها رأسه ثم قبّلها، ربما لأول مرة منذ مات الشيخ (ثابت).

تعجب (ليث)، فقال الشيخ (دومة):

- أنت الآن رفيق جدك وسيد (بني يطور) المقبل يا (ليث)!

قال (ليث):

- حفظك الله يا عمي وأعاد إلينا (عمروًا) سالمًا.

وكأنما أثار ذكر (عمرو) الشجن في نفسه، فقال:

- اذهب إلى داري يا (ليث)، وقل لـ(أم عمرو) أن تستعد وبناتها للرحيل فالليلة نرحل عن «بكة».

ثم ذهب فاغتسل، واستبدل ثيابه بأخرى، ووضعت له (أم السعد) طعامًا، أكل منه قليلًا ثم عافه، قال لأبيه:

- متى نعود إلى «رشة» يا أبتاه؟!

صمت الشيخ (عابر) قليلًا ثم قال:

- لن أبرح «بكة» حتى يعود (عمرو) و(شعيب) إلى حجر أبيه، أو يقضي الله برحمته فألحق بـ(ثابت)!

تألم (دومة) لكلمات أبيه فقال:

- اغفر لي يا أبي!

قال الشيخ (عابر):

- يغفر الله لنا يا بني! هذه أقداره ولا حيلة لنا في القدر.

قال الشيخ (دومة):

- وماذا عن (أروى) وأمها؟

اضطرب قلبي عند ذكر (أروى)، لا أدري لماذا شعرت أني قد شهدت تلك اللحظة من قبل، هل لأنني توقعت أن يسأل عنها أم لأنني لم أنقطع عن التفكير فيها منذ انتهت الحرب، كنت أشرع في كل يوم في سؤال الشيخ (عابر) عنها ثم أتراجع عن ذلك، وحين سأله الشيخ (دومة) ظننت أني قد سبقته إلى تلك اللحظة في خيالي.

قال الشيخ (عابر):

- سأرسل إلى الشيخ (أوس) من بعدهما

ثم صمت لحظات قبل أن يقول للشيخ (دومة):

- اسمع يا (دومة)، إن (أروى) في حلٍّ من خطبة (عمرو)؟

رأيت على وجهه مزيجًا من الحزن والألم، وتعكر صوته ببعض الغضب وهو يقول لأبيه:

- هل جزمت بهلاك (عمرو) يا أبتاه؟

أردف صارخًا:

- معاذ الله يا بني! بل ندعو له بالنجاة في حله وترحاله

قال (دومة):

- فلم الحلُّ من العقد ما دام الأمل معقودًا؟

قال الشيخ (عامر):

- ولماذا نقدر الأمر كأنما خطفها وقد يرغب في خطبتها أحد؟!

قال في غضب صريح هذه المرة:

- ومن يجرؤ أن يخطبها على خطبة (عمرو)؟

لا أدري ما الذي دفعني كي أتكلم في تلك اللحظة! شعرت أنه إما أن أتكلم الآن أو لأصمت إلى الأبد، قلت له:

- أنا يا شيخ (دومة)؟

بهت الرجل وتلون وجهه بألوان شتى، وهو يكظم غيظه وغضب قبل أن يقول:

- كيف تخطبها على خطبة (عمرو)؟ تعتدي على حق ولدي وهو من اتخذك صديقًا له!

قلت مسرعًا:

- بل كان ولا يزال أخي وصديقي، ولكني لم أخطبها على خطبته يا شيخ

(دومة)، بل خطبتها قبله! والشيخ (عابر) يشهد أني طلبتها لنفسي، قبل أن يعلم أحد بأمر تلك الخطبة! حتى (أروى) نفسها لم تكن تعلم بخطبة عمرو لها!

هبَّ واقفًا وقال في غضب هادر:

- هل حدّثتها في أمر الخطبة دون إذن وليها؟! والله لقد أتيت كبيرة تسيل لها الدماء! ثم التفت إلى أبيه وقال في كِبره المعهود، كأنما عاد لقبحه مرة أخرى ونسي ما كان فيه:

- هذا هو عابر السبيل الذي عطفنا عليه وآويناه يا أبتاه!

همَّ الشيخ (عابر) أن يتحدث ولكني أسرعت بالحديث عنه وكأني انحلت عقدة لساني فقلت:

- والله ما كنت عينًا ولا أجيرًا ولا عابر سبيل! بل بينكم طوعًا وطمعًا في علم هذا الشيخ الجليل، الذي أدين له بالفضل والنعمة، فقد خرجت من داري مشتت الفكر، حيران الفؤاد، فأنار هذا الشيخ عقلي بحكمته، وهدى قلبي بيقينه، وما كنت لأعتدي على حُرمة بيته عمدًا، وإني والله لأبذل الدماء فداءً لها، وما دفعني للحديث إلى (أروى) إلا خوفي من أن أكون قد أسأت تأويل كرمها وفضلها، فأردت أن أستبين رأيها قبل الحديث إلى جدها

صمت الشيخ (دومة)، وكأنما ألجمه كلامي، وطال الصمت إلا من صوت أنفاسي المتلاحقة، ألقى إلى الشيخ (عابر) بنظرة استحسان ثم قال بكلمات [illegible] لها قلبي:

- (أروى) في حلٍّ من خطبة (عمرو) يا (دومة) ولها أن تختار من يخطبها، فإن شاءت قبلت بـ(شمعون)، وإن شاءت انتظرت عودة (عمرو)

بهت الشيخ (دومة) وقال غير مصدق:

- ترفض ابن عمها، فارس قبيلته وتتزوج غريبًا معدمًا! بأي عقل تتزوجه إلا إذا كان بينهما عشق؟!

غضب الشيخ (عابر) هذه المرة وقال لائمًا:

- كُفَّ عن هدايا (دومة)! فوالله لا تنقص منزلة (شمعون) عندي خردلة عن منزلة (عمرو) و(أروى)! وما عاد (شمعون) غريبًا بعد أن اعتد فضله عليك، وعلى ولدك منذ عرفناه! ولو كان الفقر معرّة، ما تزوج أبونا (إسماعيل) من «جرهم» من قبل، وقد كان غريبًا وحيدًا في هذا البلد.

حين انتهى من كلامه، شعرت بالدموع تكاد تطفر إلى مقلتي، لا أدري هل أثارتها كلمات الشيخ (عابر)، أم أني أشفقت على نفسي من إهانات الشيخ (دومة) المتكررة. أخرجت كيس النقود الذي أعطانيه (عمرو بن الحارث) من نطاقي، ففتحته وألقيت بدنانير الذهب في حجر الشيخ (دومة) وأنا أقول:

- هذا كل ما أملك من مال يا شيخ (دومة). قد وهبه لي (عمرو بن الحارث) حين كنا فوق «الحجر»، لا حاجة لي به، وأعطيه لك مهرًا لـ(أروى)! ووالله لو كنت أملك أكثر منه لقدمته لها عن طيب خاطر.

أطرق الشيخ (دومة) صامتًا وهو ينظر إلى دنانير الذهب في حجره، نكس رأسه وكأنه عاد إلى (دومة) الكسير الأسير المقيد بالسلاسل في خيمة الأسرى، مدّ يده فاتحًا الكيس، وجمع به الدنانير مرة أخرى ثم قام بوضعه في يدي وهو يقول في حزن:

- خُذْ مالك يا بني! فوالله ما قصدت معرّة، ولتعذر أبًا يتشبث بالأمل في عودة ولده الوحيد!

ثم نظر إلى أبيه وقال:

- الأمر متروك لك ولـ(أروى) يا أبتاه! فلم يعد لي من الأمر شيء.

حينئذٍ دخل (ليث) ومعه زوجة عمه (هند) وبناتها، انطلق (دومة) إلى زوجته وأولاده يجمعهم في حضنه كطائر يحيط بجناحيه فراخه. ولما هدأت المشاعر، قبّل يد والده ورأس (ليث) وشدّ على يدي، ثم أخذ أهل بيته وخرج.

* * *

الورقة السادسة والأربعون

وحين أخرجوهم من «بكة»، ووطئت الخزاعة وطلقوا ما الأرض القصية في يومٍ «فاران» انزوى الشيخ (عامر) في داره، فتدهورت صحته، ووهن جسده، وكأنما انسلخت منه قطعة أخرى برحيل (دومة)، بعدما انسلخ معظمه من قبل برحيل (ناشبة)! لم يعد يغادر الدار إلا لقضاء حاجة، وأنفق طيلة الوقت، كنت أطعمه بيدي أحيانًا وأثبت تحت قدميه كي أعينه على صلاة الليل، استمتعت بالقرب منه في تلك الأيام لا سيما وأنني قد شعرت بغربة في «بكة» بعدما تبدلت وجوه الناس التي ألفتها، وأصبح للكلمات لحن مختلف تعذر عليّ فهمه في بعض الأحيان، أحياء (بني إسماعيل) أيضًا تبدلت بها الأحوال، وعمّ الشقاق، وكثرة الشجار فيما بينهم بسبب نقص الماء، لم ينس الناس أن الشيخ (دومة) كان عونًا لـ(عمرو بن الحارث) الذي طمر بئرهم، فزاد ذلك من الغضب على (بني يطور) رغم حب الناس للشيخ (عامر) وتقديرهم له. وفي يوم من الأيام أراد (بنو إسماعيل) الذهاب إلى السيد الجديد، كي يستأذنوه في إعادة حفر البئر المعظم، ولم يرسل الشيخ (عامر) (ليثًا) بدلًا منه فقد ظن بين الناس أن الشيخ قد أصابه الكبر، وأنه يعد حفيده كي يصبح سيدًا للقبيلة.

حين عاد (ليث) كنت أجلس إلى جوار الشيخ (عامر) في داره، بدا وجه (ليث) غائمًا، فسأله الشيخ (عامر):

- بماذا أجبتم؟

قال (ليث):

- رفض (عمرو بن لحي) أن تحفر البئر، وقال: «لن أمحو إثم جرهم».

سألته مندهشًا:

- ومن أين يشرب الناس والدواب؟! الآبار حول «مكة» قليلة ولن تكفي تلك القبائل التي جاءت مع «خزاعة» فما باله إذا وفد الحجيج العام المقبل!

أجاب حانقًا:

- حدثناه في ذلك فقال: «ستحفر «خزاعة» آبارها، وسيترك الحجيج من آبار بني عامر».

قلت ساخرًا:

- أراه يتحدث وكأنما أسرّت إليه (طريفة) بأمر الغد!

قال (ليث) متعجبًا:

- العجيب أن (بني إسماعيل) انصرفوا وقد صدّقوا الحديث، وهمس بعضهم بأن «خزاعة» وأهل الجنوب بارعون في حفر الآبار وحتمًا سيجدون الماء!

ثم نظر إلى جده الذي كان صامتًا يتطلع إلى العريش في وجوم، وقال:

- لم أشعر بخير في حديثه يا جدي!

قال الشيخ (عامر) باقتضاب بعد برهة؛ فقد صارت كلماته قليلة واستجابته للحديث بطيئة:

- يريد أن يطمر شأن (بني إسماعيل) كما طمرت بئرهم، وأن يرفع من شأن (بني عامر) ببئر جديدة!

قال (ليث) مؤكدًا:

- هذا ما شعرت به أيضًا يا جدي.

وفي الأيام التالية تحقق ما قاله (عمرو بن لحي)، وصدق ما تنبأ به الشيخ (عامر)، حفرت «خزاعة» بئرًا ضخمًا جهة الشرق من البيت على سفح جبل

«جمعة»، وتفجر ماؤه عذبًا رقراقًا، فهلل الناس فرحًا بالخير الذي حل على يدي (عمرو بن لحي) ولم تنس أن تلعن (عمرو بن الحارث) الذي طمر بئر زمزم قبل رحيله، وسمّت «خزاعة» الجميع فضربت أخبيتها حول البئر، حتى لا ينازعها فيه أحد. وتردد أن (عمرو بن لحي) سيبني سقيفة لم يشهد العرب مثلها إلى جوار البئر الجديد، حتى إذا جاء موسم الحج أشرف على سقاية الحجيج بنفسه من سقيفته، وتحوّلت أنظار الناس إلى المكان الجديد الذي أطلق عليه «شعب بني عامر»، فأُقيمت حوله الأسواق، وعمر بالمنازل الحجرية، وبدا أن أيام (بني إسماعيل) قد ذالت برحيل «جرهم»، وأن أيام «خزاعة» قد دانت، ولا يعلم أحد ما الذي سيسفر عنه تلك الأيام إلا الله.

ولم أنشغل بملاحقة أحداث «بكة» وأخبارها بقدر ما انشغلت بحال الشيخ (عامر) وحالي، أرسل الشيخ (عامر) (لبنًا) ومعه غلامان إلى «يثرب» كي يعيدوا (أروى) وأمها إلى «بكة»، شعرت بالفراغ لغياب (لبنا)، ولفرض الانتظار صبري شغلت نفسي بتوسعة العريش الذي أحتله في طرف البطحاء، وأحلته إلى منزل بديع من الحجر والخشب، تمثلت ما كانت تحكيه أمي عن بيوت المصريين، وشرعت أحيله إلى واقع تراه العين، أعانتني دنانير (عمرو بن الحارث) في اكتراء بعض الأحباش الذين أعانوني في بناء الجدران، وكسوتها بالطين والرمل المذاب، لونت حوائط البيت بنقوش زرقاء وصفراء، وأحطت فناءه بسور بناهز قامتي طولًا، ثم غرست في أركان الفناء الأربعة فسائل نخل تحتها أحواض الرياحين، جعلت في منتصف الجدار الشرقي للسور بابًا من الخشب له مزلاج، وعلى جانبي الباب نقشت على الحجر أربع كلمات بحروف مصرية قديمة، اثنتان على كل جانب، لم يعلم أحد معناها سواي.

وذات ظهيرة وبينما كنت أجلس فوق السور أنقش حرفه بمطرقتي وإزميلي، رأيت (أم السعد) تقترب وهي تناديني، انتفضت لرؤيتها وظننت أن مكروهًا أصاب الشيخ (عامر)، فقفزت من فوق السور منتصبًا وقلت متلهفًا:

- خيرًا يا خالة!

قالت مُطمئِنة:

ـ خيرًا يا (شمعون)، لقد جاء البشير.

رقص قلبي فرحًا وقلت:

ـ حقًّا!

قالت:

ـ نعم، وأخبرنا أن الشيخ (أواس) وعائلته قد رافقوا القافلة، يريد الشيخ (أواس) أن يعتمر وأن يزور الشيخ (عابر).

قلت في غبطة:

ـ ومتى يصلون؟

قالت:

ـ غدًا، وقد أمرني الشيخ (عابر) بأن نعد منزل الشيخ (دومة) لاستقبال الضيف وعائلته!

تنهدت وتطلعت إلى الأفق الذي سيتزين غدًا بأحب قافلة إلى قلبي، تمنيت لو تأذن الليل بأن يأتي الصباح مكانه، على أن أرد الدين عنه أيامًا من عمري بعد ذلك، فيكفيني عامًا من الانتظار فاق بشجونه وأحزانه عمرًا بأكمله، ما زلت أذكر وجهها وهي ترنو إليّ خائفة يوم خروجنا من «يثرب»، كنت أنظر إليها بثقة في اللقاء مرة أخرى، حينها لم أدرِ ما مصدر تلك الثقة، أما الآن وبعدما رأيت الموت مرات ومرات، أدركت أن مصدرها هو «يقين المُحبّ». فالأقدار لم تضعها في طريقي عبثًا ولم تختبرنا بالفراق مرات ومرات عبثًا، وإنما ليستيقن المحب من حبه، والعاشق من عشقه.

لكزتني (أم السعد) في كتفي، فأخرجتني من شرودي وهي تقول:

ـ هيا يا (شمعون)، فلا طاقة لي بتنظيف بيت الشيخ (ثابت) وبيت الشيخ (دومة) وحدي، سترافقني حتى ننتهي منهما.

سرت وراءها وأنا أقول متنهدًا:

ـ أرافقك يا خالة حتى المنتهى.

وجاء الصباح بشمس أخرى أشرقت جهة الشمال فسطع نورها من خلف جبل الرحمة، رأيت القافلة الصغيرة تهبط من فوق جبل النور، فوددت لو أهرول إليها كي أستقبل رواحلها بالضم والقبلات، أناخ الحادي ناقة الشيخ (أوس)، ثم الهودجين الآخرين اللذين حجبا عن عيني قلبًا سمعت دقاته قبل أن أراه، علت كلمات الترحيب بالشيخ الكريم واستقبله (بنو يطرب) بالعناق والقبلات، وحينما وصل إليّ ضممته إلى صدري وقبلت كتفه وعيني معلقة على الهودج الذي انطرت منه، واستعد لكشف حبيبة التي انتظرتها قرابة العام. هبطت وهي تستقر شعرها وتخفي وجهها بخمارها وخطاها بحنان عني بين الرجال، حين التقى اللحظان خفت أن للأقر فصرخ فرح، واختلجت الشفاه همسًا، وتحدثت العيون حديثًا صاخبًا خشيت أن كل الشهد وصلت إلى كل الواقفين من حولي.

دفعني (ليث) أمامه حين تسمرت قدمي لحظة طويلة في طريق الشيخ (أوس) وقال للشيخ:

ـ جدي في البيت، قد توعكت صحته وأصبح غير قادر على الخروج.

توجهنا إلى البيت، تسير خلفنا الأمّات وبنات الخال، رائحة طعام (أم السعد) كان أول ما استقبلنا في فناء البيت، وحين دخلنا وجدنا الشيخ (عامر) يجلس على أريكة في صحن المنزل متكئًا على عصاه، هرولت (أروى) إليه فقبلت رأسه وخديه وجلست إلى جواره.. راعيها أن تراه ذابلًا واهنًا تتحرك يداه في اهتزاز وصعوبة، أصبحت ملامح وجهه جامدة، حتى حديثه صار بطيئًا جامدًا لا حزن فيه ولا فرح، جلس الشيخ (أوس) على أريكة أخرى إلى جوار الشيخ (عامر) بينما دخلت زوجته وبناته مع أم (ليث) إلى الحجرة الداخلية وبقيت أنا و(ليث) واقفين إلى جوار الباب، هو يتطلع إلى الحجرة التي دلفت منها (لأماء)، وأنا أتطلع إلى (أروى) التي جلست إلى جوار جدها تداعب يده بين كفيها، لم يثقل الشيخ (أوس) على الشيخ (عامر) في الحديث، كان يعلم أن

لا يزال جريحًا حزينًا على فقدان ولديه، فاكتفى بأحاديث المجالس التي لا تعدو عن الترحيب وحكايات السفر والطريق، وحين دخلت (أم السعد) بالطعام، توقف الحديث، وهمت (أروى) بالقيام كي تلحق بالنساء في الحجرة الداخلية، ولكن الشيخ (عابر) رفع يده المهتزة وقال في بطء:

ـ (أروى)..!

عادت إليه مسرعة وجلستْ إلى جواره قائلة:

ـ لبيك جدي!

وضع يده على كتفها ثم قال:

ـ أعمرو بن عمك تومة؟!

نظرت إليه في وجل وانتظرت في قلق حتى يستجمع كلماته القاطعة، فتابع بعد برهة:

ـ أنتِ لي بحلمٍ من حصته

أطرقت إلى الأرض ولكنها لم تستطع أن تخفي ابتهاج ملامحها. رفع يده التي تحمل العصا وأشار إليّ وهو يقول:

ـ و(شمعون) هذا قد طلبك لنفسه فماذا ترين؟!

شعرتُ بالخجل لي ولها، بعد أن تجمعت علينا العيون، ووددت لو انطلقت خارجًا. قالت وقد ذهبت أنفاسها مع ضربات قلبها المتسارعة تخرج صوتها خفيضًا مبحوحًا:

ـ الأمر لك يا جدي، عمرو أخي وشمعون زين الرجال.

هز رأسه واجتهد كي يبتسم، ولكن ابتسامه لم تفرج عن أسنانه التي كنت أغبطه على كمالها ثم قال:

ـ فليحفظ الرب أخاك (عمرًا)، وليبارك لك في زوجك (شمعون).

أفلتت (أروى) منه ثم أسرعت إلى داخل الحجرة خجلى، وسمعنا تهليل

النسوة بالداخل وزغردة خفيضة أطلقتها (أم السعد).. ربت (ليث) على كتفي في قوة وقال:

ـ نِعْمَ الصديق ونِعْمَ الصِّهْر!

خطوت مسرعًا إلى الشيخ (عامر)، ثم جثوت على ركبتي أقبل يده. قلت وقد طفرت الدموع من عيني:

ـ لن أنسى فضلك ما حييت!

ربت على كتفي في حنو وقال:

ـ عوضني الله بك وبـ(ليث) عن فقدان (عمرو) و(ثابت).

صمت لحظات ثم قال في صوت مرتعش كأن نعاسًا يغالبه:

ـ ولو كان (ثابت) حيًّا لتركها تحت زوجها اللعوب!

حينئذ تحدث (ليث) وقال:

ـ وأنا يا جدي!

نظرنا إليه فوجدناه مطرقًا يعلوه شيء من الاضطراب. قال الشيخ (عامر):

ـ أنت ماذا يا ولدي؟

قال وقد تعرق جبينه خجلًا:

ـ أريد أن أخطب (الأمان) ابنة خالي التمسي!

صمت الجميع دهشة، ونظر الشيخ (عامر) إلى الشيخ (أواس) الذي داهمته الحيرة، فصمت قليلًا ثم قال:

ـ نعم الشاب (ليث)، ولكني أسألها وأسأل أمها أولًا...

وقبل أن يكمل عبارته انطلقت زغردة أقوى من سابقتها من داخل الحجرة ملأت البيت بهجة وميزنا فيها صوت (أم الأمان)!

ضحك الشيخ (أواس) وقال:

ـ مبارك يا بني. لو علمنا أن الأفراح تنتظرنا في (مكة) لعجلنا بالزيارة من قبل.

● ● ●

الورقة السابعة والأربعون

وحين عزمت على الكتابة عن الليلة التي بتُّ فيها مع (أروى)، تملكني الخجل دون حد البداية في قلمي حياة، وأحق أن الخجل كان رفيقي في هذا اليوم منذ بدايته وحتى نهايته.. في الصباح طلبني الشيخ (أواس) في مضيفته بدار الشيخ (دوما)، وسألني عن أشياء تحدث في ليلة البناء، لم أجد إجابة عنها سوى الصمت، فأنا لم يكن لي أقران من الصبية أتحدث معهم عما يجيش في صدري من ترف وميل للإناث، وحين كبرت قليلاً، لم تكن لي خبرات مع النساء سوى خيالات جامحة أراها في منامي، كلما استثارتني نظرة خاطفة أو كلمة عابثة من إحداهن، المرة الوحيدة التي تحدثت فيها مع أبي عن النكاح كان عن نعجة وكبشها الذكر، رأيت الكبش يمتطيها ويحكم ساقيه على ظهرها وهي أسفله تئن دون أن تهرول مبتعدة، حين هممت بأن أضربه كي أبعده عنها حتى لا يؤذيها، نهرني أبي وقال: «دعها لعلها تصير عشراء». أدركت حينها أن النكاح يؤدي للإنجاب، ولكني لم أرهق تفكيري في معرفة طريقة إنجابي، ومنعني الحياء من أن أسأل أبي عن ذلك، وحين ضممت (أروى) إلى صدري لأول مرة وتنسمت عبير شعرها اشتعل قلبي بالنبض، وحين تكرر ذلك اشتعل جسدي كله بالنبض، وشعرت بثورة ظلت تلاحقني في صحوي ومنامي لم يخمدها سوى ألاعيب الوهم وبحور الأحلام.

في ذلك الصباح، وجد الشيخ (أواس) الصمت رفيقي عند كل سؤال،

فاستفاض هو في الحديث، فتكشّف ما كنت أستشرف بعضًا مما وراءها بفطرتي، ويغمُّ عليّ بعض منها، فلما رفعتها كلماته، خفقتُ وقد رأيت أمامي الحقيقة عارية. لا أدري لماذا لم يدعني الشيخ (أواس) أكتشف الأمر وحدي؟! الشعور بأن من حولك يعلمون ما أنت مُقْدِم عليه يفقدك بهجة المغامرة، ولذة الاكتشاف، ويجعلك تحمل عبء نظرات العيون من حولك، كيف تستباح أولى لحظاتنا سويًّا بهذا القدر من السفور؟! وخطر في بالي سؤال عما إذا كانت (أروى) على علم بذلك! وأباح لي هو بأن زوجته وأم السعد يمكثان عندها منذ ليلة أمس، تخضبانها بالحناء وتعدّانها للزفاف، لم أتشكك لحظة لي أن حديثًا قد جرى بينهما وبين (أروى) يشبه حديث الشيخ (أواس) لي، وشعرت حينها بأن حال الكبش الذي وطئ بمحته أمامي كان أفضل حظًّا من حالي، وتمنيت لو أرزق قدرًا من بلادته في تلك الليلة!

عدتُ إلى منزل الشيخ (عابر) قبل أن يحين الزفاف، فقد جرى العرف عندهم أن يتجهز الزوج في بيت والعروس في بيت أهلها ثم يزفّا سويًّا إلى دار البناء، تحممت وأزلت أدران جسدي، وتعطرت بالطيب ثم ارتديت قميصًا أبيض ناصع البياض، والتحفت حلتي المصرية التي ادخرته ليوم كهذا، وبعد أن انتصف النهار خرجت في موكب من الفتيان يتقدمهم (ليث)، أمتطي ناقة يتدلى من جانبيها أنماط الحرير وتتزين رأسها بأكاليل من الزهر، ويسير أمامها صبيان يتلاعبان بشعلتي لهب، ويدق آخرون الدفوف من حولها، وصلنا إلى موضع الوليمة التي أقامها الشيخ (عابر) والشيخ (أواس) إلى جوار «الصفا»، فأنيخت الناقة ونزلت عنها ثم اتجهت إلى الشيخ (عابر)، الذي كان جالسًا، قبّلت يده ووقفت إلى جواره، توافد إلينا الرجال من بطون (بني إسماعيل) وأيضًا من «خزاعة»، فقد كان هذا هو أول زفاف في «مكة» بعدما انتهت الحرب ووضعت أوزارها، وجاء (عمرو بن لحي) وزلمه (العلبة) تتقدمها حلقة من جمع من الناس وتسير خلفها ناقة أهداها لوليمة الزفاف، تناول القصابون الناقة، وقادوها بها إلى المذبح المقام خلف «الصفا»، ومن خلف ورائها جمع من الأطفال،

يهللون في بهجة، وكأن اليوم يوم عيد، مدت صحاف الطعام المملوءة باللحم والمرق والثريد، ودارت كئوس الخمر في وكْن حوى كبراء القوم من خزاعة، وبعض المقربين إليهم من (بني إسماعيل)، ولكن لم يشاركهم الشراب أحد من (بني يطور)!

وتعاقبت زُمَرُ الوافدين على المأدبة، وكلما رحل فوجٌ تلاه فوج آخر حتى اقترب النهار من الزوال، ومالت الشمس إلى المغيب، حينئذٍ علت جلبة من جهة البطحاء، ورأينا موكب النساء قادمًا تسبقهن نقرات الدفوف، وتنطلق من ألسنتهن الزغاريد التي تُصدر صوتًا كالسهام يدفع عيون الحاسدين عن أبهى عروس.. جلست (أروى) على «مرفقة» من الخشب، وكأنها هودج مكشوف فوق ناقة مزينة الجوانب بأنماط الحرير، وقد ارتدت ثوبًا زاهيًا، يكشف عن يديها وكعبيها الملطخين بالحناء ويضوع من راحتها عبير عطرها الذي سبقها إلينا، وحين وصل الموكب إلينا أنيخت ناقتها، ثم هبطت من فوق (مرفقتها)، وجلست أمامي على سنام ناقتي المناخة وأنا أحيط خصرها بذراعي، وحين قامت بنا الناقة على قائميها، علت الزغاريد مرة أخرى، وسار بنا الركب إلى داري الجديدة في طرف البطحاء.

وصلنا إلى البيت، وقد غابت الشمس أو تكاد، دخلت أنا وهي و(أم السعد) و(أم لامار) إلى الدار، تعجبت من بقاء بعض النساء والرجال من بينهم أمها و(ليث) والشيخ (أواس) خارج الدار! جلست (أم لامار) على أريكة في صحن الدار بينما وضعت (أم السعد) الطعام الذي تحمله والفاكهة في الخزانة، ثم دخلت إلى حجرتنا، فنفضت السرير بيدها، وأشعلت قنديل الزيت ثم خرجت. احتضنت (أروى) التي احتقع لونها وقالت لها وهي تضع في يدها خرقة بيضاء:

- هيا يا بنت السعد والشرف!

ثم جلست إلى جوار (أم لامار) على الأريكة في انتظار خروجي من الحجرة، استعدت كلمات الشيخ (أواس) التي حكاها لي في هذا الصباح، فشعرت

ببرودة أطرافي ثم نظرت إلى المرأتين متحرجًا. أمسكت بيد (أروى) وهممت بالدخول إلى الحجرة فوجدت يدها أشد برودة مني وكأنما غابت عنها الحياة، وتسمّرت قدماها فلم تستطع أن تدلف من بابها.

سمعت صوت (أم السعد) يأتي من خلفي مؤنبًا لها:

ـ هيا يا (أروى)، الناس في انتظارنا.

فركت بيدي يدها وهممت بالدخول مرة أخرى ولكنها تسمّرت مرة أخرى، وسمعتها تتحسر، لم أستطع أن أتحمل هذا القدر من القهر لي ولها، فالتفت إليهما وقلت حاسمًا:

ـ اخرجي فأخبريهم أن العروس بنت سعد!

شهقت (أم السعد) وقالت:

ـ كيف؟

أدميت أصبعي بقوة في الباب، ولطخت بدمه الخرقة البيضاء، وقلت لها:

ـ هكذا!

أرادت أن تتحدث، ولكن (أم الأمان) التي كانت تشعر بالحرج هي الأخرى، التقطت الخرقة من يدي، وقالت لـ(أم السعد):

ـ أطلقي زغردة يا (أم السعد).

فأطلقت زغردتها، وسمعنا جلبة الناس بالخارج، حينما خرجت إليهم المرأتان بالبشرى، وبعد قليل هدأت الأصوات ورحل الجميع ولم يبق إلا أنا و(أروى) وسكون الليل، رأيت وجهها عن قرب لأول مرة في ضوء القنديل، استردت لونها بعد أن خفتت الأصوات واطمأنت لرحيل الجميع، أمسكت إبهامي المجروح فقبلته وهي خجلى مما حدث، ضممتها إلى صدري وشعرت بحرارة خدها على وجهي لأول مرة، استكانت رأسها مطمئنة وأحاطت كتفي بيديها، وكأنها تستجير بحضني، حرك خضوعها وضعفها شوقي إليها، فضممتها أكثر حتى لامست دقات قلبي قلبها، لا شيء يثير الشوق في قلب الرجل قدر

خضوع امرأة محبّة، ولا شيء يحرك صلابته قدر ذوبانها بين يديه.. وحين تلامست الشفاه عفوًا، مسّ القلب متعة لم أختبرها من قبل حتى في أشد أحلامي مجونًا، جذبتنا تلك المتعة إلى عالم من السحر لا يرضى إلا بالمزيد، وكلما ارتقينا فيه منزلة كلما انفصلنا عن عالمنا أكثر، وكأننا خلعت أرواحنا رداء الجسد، وأبت إلا أن تحلّق في سماء النشوة حتى تصل إلى منتهاها.. أقفلنا عقال الخجل وأغلقنا باب الحجرة دونه، حملتها إلى مخدعنا، وقضينا الليلة ننهل من كئوس الحب، وترمح في بساتين العشق، ونترنح من سكراته مرات ومرات حتى أنهكنا التعب وغبنا في النوم على فرش عشبي يمنحه الروح ويسمو بنا بعيدًا عن عالم الأنعام الذي أراده لنا الشيخ (أواس) و(أم السعد).

واستيقظنا من نوم طويل خلا من الأحلام على طرقات متقطعة على باب البيت، ارتديت ثيابي وخرجت إلى الفناء مستعيدًا صورة الشخص التي ارتفعت في الحلم، فتحت الباب فوجدت (أم السعد) تضع يدها على فمها وعيناها تذرفان الدموع، قالت وهي تكتم صرخة تريد أن تمزق صدرها:

- مات الشيخ (عابر) يا (شمعون)!

* * *

«ويكأنه أسلم الروح بعد أن أتم فضله عليّ! ويكأن الرب قد أرسله رسولًا من أجلي أنا فقط!».. هكذا كنت أبكي وأرثيه وأنا أسير في جنازته التي امتدت صفوفها ما بين «المعلاة» و«الصفا».. صعدنا إلى الربوة التي أقيمت عليها مقابر أهل «بكة»، نحمل المحفّة الخشبية التي رُبط إليها جسده الملتف بأكمله في لفائف بيضاء إلا من وجهه الذي تُركت صفحته البيضاء مكشوفة للرائي يلقي عليه النظرة الأخيرة قبل أن يطويه التراب، ظني أن أحدًا في «بكة» لم يخرج كي يودعه إلى مثواه، لم أتخيل ذلك القدر من المحبة في القلوب لهذا الرجل، كانت الأقدار كريمة معي؛ إذ منحتني تلك الفرصة كي أقترب منه، وبالأخص في أيامه الأخيرة، فأي خير قد فعلته في حياتي حتى يكون هذا الرجل هو معلمي ودليلي في الحياة؟ حين نظرت خلفي ورأيت الصفوف الممتدة إلى

السفح تتراص للدعاء له، شعرت بأن السماء قد تفتحت وتهيأت لاستقباله، وحين تعالى تسبيحهم باسم الرب (القدوس، القدوس، القدوس) شعرت بأن أرواح الأبرار، قد أتت لاستقباله، هكذا أخبرني ذات مرة عن أرواح الملائكة المُسَبِّحين حول العرش، الذين يصنعون مشيئة الرب، ويرفعون المُسَبِّحين معهم إلى أعلى منزلة، عُدنا إلى الدار التي خلت من المعزين وفي حلقي مرارة الفقد مرة أخرى، أشفقت على (أروى) و(ليث) اللذين فقدا أباهما وها هما يفقدان جدهما، حتى عمهما (دومة)، قد ذهب بلا رجعة، قد يكون حالي أسوأ من حالهما، ولكن ألم الانكسار يكون دائمًا أشد على من اعتاد السند!

أخَّر الشيخ (أوياس) عودته إلى «يثرب» عدة أسابيع. أراد أن يطمئن على أخته وأولادها، وأراد أكثر أن يؤمِّن انتقال سيادة القبيلة إلى ابن أخته (ليث)، شعر بأن أبناء أخي الشيخ (فهر) قد يطمحون إلى السلطة بعدما مات (ثابت) ورحل عمهم (دومة)، السيادة في القبيلة تكون للحكمة أو المال أو القوة، و(ليث) حين كان واحدًا لا يملك أيًا من هذا. تحدث الناس في (بني يطور) عن مصير تجارتهم بعد الشيخين (ثابت) و(دومة)، لاسيما وأن سلعهم قد بارت في موسم الحج الماضي بسبب النزاع بين «جرهم» و«خزاعة»، فضلًا عن الشقاق الواقع بينهم وبين بقية (بني إسماعيل) في تلك الأيام، أثار بعضهم الشكوك في القدرة على العودة إلى «رشة» أو التجارة بينها وبين «بكة» وهم لا يملكون مؤن السفر من الأساس، وأثاروا شكوكًا أكثر حول مستقبل القبيلة مع زعيمها الصغير. وحين اجتمع بهم الشيخ (أوياس) اقترح عليهم أن يقوموا برحلات قصيرة للتجارة بين «بكة» و«يثرب»؛ فذلك أقل كلفة وأيسر مئونة، وشجعهم على تجارة الكرم وعصيرها، فالخمر قد أصبحت شراب السادة في «بكة»، وسيلقى بيعها رواجًا، وكان مما قاله لهم مشجعًا:

- قدرٌ من الخمر يعدل ثمن جوالٍ من الطحين!

ثم زين لهم الأمر بأن وعد بأن يهب (بني يطور) قافلة من كرم بساتينه كي تُباع في «بكة». وقال مؤكدًا على مراده من هذا الحديث:

- إذا أهلّ عليكم الصيف خرجتم بقافلتكم إلى «يثرب» فوهبنا لوالدنا (ليث) قافلة من الكروم لم ترَ «بكة» مثلها من قبل!

شعرت باستنكار لما قاله، ووجدت في كلامه خرقًا لما كان يسير عليه الشيخ (عابر)، ولكنني فوجئت باستحسان العيون من حولي للفكرة، بل رأيت في عيني (ليث) فرحًا بها، فقلت مستنكرًا:

- تبيع الخمر في القرية المقدسة؟!

قال الشيخ (أواس):

- سيجيئنا إلى ذلك الكثير، والخمر ليست محرمة في «بكة» يا عمرو!

قلت:

- ولكن الشيخ (عابر) كان يحرمها ويلوم شاربها!

قال الشيخ (أواس):

- أنا أيضًا لا أشربها ولكنني أبيعها لمن يرغب!

قال ابن أخي الشيخ (عابر) الذي سنحت له الفرصة بعد كلامي للهجوم على رأي الشيخ (أواس):

- لو كان الشيخ حيًا لنهركم عن هذا! تبيع الخمر في «بكة» ونعين الفاجر على فجره! أما يكفي ما فعله (إساف) و(نائلة) في حرم الكعبة بسبب الخمر؟!

قال الشيخ (أواس):

- الخطيئة على مَنْ أخطأ، وإن صحّت الرواية فقد تحمّلا وزرهما!

وجدتني أقول منفعلًا:

- والخطيئة أيضًا على من أعان عليها!

نظر إليّ مندهشًا ورأيت استنكارًا في عيني (ليث) وبعض الجلوس. فقلت وقد شعرت بالحرج من العيون المتفحصة:

- يا شيخ (أواس)، أنتم قوم على الفطرة، ولم تروا غضب الرب وعقابه،

قد أتيت من قوم يسخون على مكانتهم إذا أخطئوا، ولو أخطأ فيهم الفاجر لعُوقب الصالح على عدم ردعه له!

قال أحدهم ساخرًا:

- وماذا ترى يا صهر الشيخ (عابر)؟!

قلت متحمسًا:

- نبيع التمر والعجوة كما كنا نفعل، وإن شئتم نبيع الصناديق أيضًا، وأنا كفيل بصنعها!!

علت الضحكة بينهم، ورأيت بعضهم يخرج بالغضب في عيني (ليث) وانبرى أحدهم قائلاً:

- نِعْمَ الرأي ما قاله الشيخ (الواصل)، ولو كان الشيخ (عومة) بيننا لذهب إلى ما ذهب إليه الشيخ (الواصل).

ثم قام من مقامه وصافح (ليثًا) قائلاً:

- بارك الله فيك وفي خالك يا (ليث)، سِرْ على بركة الله ونحن معك.

فإذا بالناس يحذون حذوه، ويقومون الواحد تلو الآخر، يصافحون (ليثًا) وكأنهم يمنحونه البيعة، حتى أولئك الذين أضمروا في نفوسهم بغضًا لـ(ليث) أو استنكارًا لما ذهب إليه قاموا فمنحوه البركة، ووجدتني وحدي في جانب، والآخرون في جانب آخر، فقمْتُ من مجلسي وذهبت إلى (ليث)، ووضعت يدي على كتفه وقلت له:

- فليُرشدك الرب لما فيه الخير لنا والله أعلم بالغيب.

ثم تركته وانصرفت.

• • •

الورقة الثامنة والأربعون

اقتربت أشهر الصيف، واشتد قيظ مكة، مبكرًا رغم أننا كنا لا نزال في نهايات شهر نيسان، استعدت قافلة ابني بطرس المتوجهة إلى يثرب للعودة بقافلة الكرم أو قافلة الخمر، كما أحببت أن أسميها، كنت في العريش الذي أقمته بجوار الدار أحصي بعض الصناديق الفارغة مع أصحابها ومعي غلام حبشي يعاونني في ترتيبها أقوم بتجميعها حينما دخلت علينا (أروى) العريش ببطنها المتفخة بحملها والتي جعلت أنفاسها تتهدج مع كل خطوة تخطوها. أسرعت إليها ووضعت لها صندوقًا كي تجلس عليه، جلست صامتة وفي عينيها حديث تبوح به بالنظرات بعد أن عجزت كلماتها عن الإفصاح به خلال الأيام الماضية.

قلت لها:

- لماذا لم ترسلي (أم السعد) في طلبي بدلًا من أن تخرجي من الدار في هذا القيظ؟

اتجهت ببصرها إلى الغلام، وكأنها لا تريد أن تتحدث أمامه. أمرت الغلام بأن يذهب للطعام والراحة وجلست على صندوق آخر قبالتها ثم قلت لها:

- هاتِ ما عندك؟

قالت:

- ستخرج قافلة (بني يطور) بعد أيام إلى «يثرب»!

قلت:

- وما شأننا؟

قالت ثائرة:

- (ليث) أخي، و(أواس) خالي يا (شمعون). وأنت تثير الناس ضدهما.

قلت صادقًا ولائمًا في ذات الوقت:

- معاذ الله يا (أروى) أن أثير الناس عليهما. فـ(ليث) أخي أيضًا، والشيخ (أواس) بمثابة الخال لي.

أمسكت بيدي وكأنها تعتصر، ثم قالت متوسلة:

- إذن فلماذا امتنعت عن الخروج معهم؟! لماذا جعلته يبدو صغيرًا في أعين الناس، حتى قال عنه الحاقدون: قد اعتزله أخته وزوجها؟!

قلت لها صارمًا:

- خير له أن يقولوا ذلك بدلًا من أن يقولوا حاد أحفاد الشيخ (عامر) عن مسار جدهم!

قالت حزينة:

- أحزن لذلك أيضًا يا (شمعون)، ولكنه ضيق الحال وعوز الحاجة؟! أما ترى أن (بني يطور) قد صاروا أفقر بطون (بني إسماعيل)، وأعوز الأحياء في «مكة»؟! لم ينسَ الناس ما فعله عمي (طرمة)! قد امتد حقد (بني إسماعيل) على (بني يطور) وحقد (بني يطور) على أحفاد الشيخ (عامر)! وإذا لم يسعَ (ليث) إلى جلب المال لانفرط عقد القبيلة من يده!

قلت لها متعجبًا:

- وهل كان الشيخ (عامر) يركن إلى المال حين قاد (بني يطور)؟ وهل لو عاد الشيخ (ثابت) حيًا هل كان سيسلك نفس الطريق؟! صدّقيني يا (أروى)

المال وحده لا يساوي شيئًا إن لم يزينه الشرف! والقوة وحدها لا تساوي شيئًا إن لم تزينها الحكمة!

ثم أردفت:

- أما يتعظ هؤلاء بما وقع لـ(عمرو بن الحارث) الذي ركن إلى ماله؟ أما يتعظون بما وقع للشيخ (دومة) الذي اغترّ بقوته؟!

نظرت إلى عيني وكأنها ترى شخصًا آخر لا تعرفه ثم قالت:

- من أين جاءتك تلك القسوة؟

قلت مبهوتًا:

- قسوة؟!

قالت باكية:

- نعم! خذلت أخي وخذلتني!

قمتُ من جلستي ووضعتُ يدي على كتفها مخففًا عني وأشاحت بكتفها بعيدًا، قلت لها:

- ليست قسوة يا (أروى) ولكنه اليقين! يقين من رأى بعينيه كيف تغزل شراك الفتن فيتعثر بها أكثر الناس ثباتًا! رأيت أبي يا (أروى) وهو يجرُّ من نار الفتنة إلى «رشده»، حين رآها توشك أن تلتهم الجميع وكان زوج أخته هو الذي ينفخ في نارها!! رأيت أيضًا كيف يكون عقاب الرب على أناس تحايلوا على شرعه واعتدوا على حُرْمة السبت فنالوا العذاب مع الذين بخلوا عليهم بالنصيحة، صدِّقيني يا (أروى) قد رأيت أكثر مما رأى قومك، وتعلَّمت من حداد الشيخ (عابر) أكثر مما تعلموا!!

مسحت دموعها وقالت وهي تقوم من مكانها وكأنها لم تسمع ما قلت أو لم تفهمه:

- اعتزل الفتنة، واعتزل أخي، واعتزلني أنا أيضًا يا (شمعون)، وحسبي من الخذلان ما رأيته منك اليوم!

ثم انصرفت عائدةً إلى الدار.

(روماانا) و(أروى) امرأتان عاشتا في حياتي وكلتاهما على طرفي نقيض، كنت أرى أمي كإلهة المصريين (حتحور) التي رأيناها من قبل في برية «سين»، امرأة قائمة لها قرنان، ويبرز من جسدها أغصان ترسل الفيء وتسقي الظمآنين، هي الأم البارة التي تعطي الحنان بلا حدود، وتمنح بلا مقابل. أما (أروى) فكانت ظبية صحراوية جامحة، يقولون هنا: إن الظبي يكره المكوث في مكان واحد، ويضربون به المثل فيقولون عن الشخص الذي يغادر حاله أنه «كالظبي يغادر ظله»، وكذلك كانت هي، كان جموحها يفرعها في كل شيء، إذا أحبت، وإذا كرهت، وإذا غضبت، وإذا رضيت... حتى في الفراش، كانت تجمح جموح فرسة ترمح في البيداء إذا كنا على وفاق، وإذا غضبت انطوت على نفسها كمحار رخو انكمش على نفسه في قوقعته، كنت أقارن بين تقلبها وبين رسوخ (روماانا) الدائم فأتعجب من أن كلتيهما امرأة، وأتعجب أكثر من عشقي لكلتيهما رغم وقوفهما على طرفي نقيض.

اعتزلتني (أروى) أيامًا بعد أن غادرت قافلة (بني يطور) «بكة» من مرتنا، اتخذت لنفسها مخدعًا آخر ونقلت أغراضها في حجرة أخرى، أغضبني ذلك ولكني تفهمت حزنها، اشتريت لها زجاجة عطر وتركتها على دولاب أغراضها فلم تفتحها وتركتها على حالها لأيام، ما أزعجني حقًا أنها كانت تعتزل الطعام أيضًا، وكنت أخشى من الصيام مع وهن الحمل عليها وكنت أوصي (أم السعد) بأن تقوم بإطعامها، فقد كانت (أم السعد) تعيش معنا منذ مات الشيخ (عابر)، وكانت تقوم على شئون البيت وتُعِدّ لنا الطعام وتُعوِّض (أروى) ولو قليلًا عن غياب أمها التي رحلت مع أخيها (ليث) إلى «يثرب»... جاءتني (أم السعد) ذات ظهيرة بطعام الغداء في عريش التجارة، وقالت:

ـ (أروى) لم تأكل الزاد منذ أمس!

تنهدت يائسًا وأنا أقول:

ـ وماذا عساي أن أفعل يا خالة؟! لا تقبل لي كلمة ولا نصحًا.

قالت بلهجة شعرت فيها ببعض العتاب:

- مسكينة تلك الشية! مات جدها وأبوها، ورحل عنها أمها وأخوها، وزادها الحمل وهنًا على وهن!

قلت زافرًا:

- لا يفصلني تقريعك يا (أم السعد)، أم تريدين أن تزيدي من همي؟!

قالت:

- معاذ الله يا (شمعون)، ولكني أشفق عليها وأخشى عليها الهلكة، أفلا وعدتها ولو كذبًا بأن تلحق بقافلة (بني مطرن) بعدما تضع حملها!

لم أجد ما أقوله.. فقالت حانقة:

- عنيد أنت يا (شمعون)؟! حتى الوعد تبخل به عليها!

زفرت في يأس وأنا أقول:

- مالي حيلة أخرى يا (أم السعد)، ما دام في هذا نجاتها فإني فاعله، ولن أعدها كذبًا! بل أفكر بالأمر بعد أن تضع حملها.

ابتهجت فرحًا وقالت:

- حسنًا اذهب لتخبرها بذلك.. قلت لها:

- ليس الآن لدي أعمال وسأعود إليها قبيل الغروب.

انصرفت مبتهجة وقالت:

- حسنًا ولعلها تستجيب لي فتأكل شيئًا ولو يسيرًا.

قبل الغروب، كنت قد فرغت من أعمالي، أحضر لي الغلام الحبشي من المنزل إناء به ماء وثوبًا نظيفًا وزجاجة الطيب والدهن والمشط، فأخذتها وتركته ينصرف على أن يعود مبكرًا في الصباح، ذهبت إلى الخلاء خلف الدار فخلعت ملابسي واستحممت، أجتهد في أن أزيل عرق الصيف اللزج من شعري وجسدي، وبعد أن تخففت بثوبي القديم، لبست ثيابي البيضاء النظيفة، ثم مسحت شعري

بالدهن ومشطته إلى فرقين انسدلا على أذني وطيّبت مفرقه ببعض الطيب.

كنت أمنّي نفسي بأن تُسرّ (أروى) بما سأخبرها به، وأن يصل ذلك ما انقطع بيننا من الشوق طيلة الأسابيع الماضية، حين دخلت إلى صحن الدار وجدتها تجلس على الأريكة إلى جوار امرأة غريبة فأربكتني المفاجأة رغم أن المرأة لم ترتبك، فلا هي سترت رأسها ونحرها بخمارها المنسدل على كتفيها، ولا فردت ساقها التي طوتها أسفل عجيزتها فكشفت عن ركبتها وجزءًا من فخذها!

أطرقت ببصري حياءً وغمغمت قائلًا:

- عِمْتم صباحًا.

ثم دلفت إلى الحجرة الداخلية دون أن أنتبه إن كانت إحداهن قد ردت التحية أم لا! تبعتني (أم السعد) إلى الداخل، فبادرتها سائلًا:

- من الضيفة؟!

قالت وكأنها تزف إليّ خبرًا:

- صديقة قديمة لـ(أروى)، أتت لتزورها وتمكث معنا بضعة أيام.

قلت مستنكرًا:

- تمكث معنا وتترك قومها! ألا يستحي رجال قبيلتها؟!

قالت وهي تشير إليّ كي أخفض صوتي:

- هي فتاة يتيمة من (بني قيدار) كانت في عمر (أروى) حين ربّاها الشيخ (ثابت) في بيته لسنوات وصارت مع الأيام صديقة (أروى) المقرّبة، فلما بلغت سن العاشرة طلبتها خالتها وألحّت في طلبها، فتركها الشيخ (ثابت) لها.

ثم خفضت صوتها وهي تقول وكأنها تفضي إليّ بسرّ:

- كانت خالتها تُزيّن الفتيات، وتُغنّي في ليالي الزفاف، فلما رأت ابنة أختها وقد نضجت وأشرفت على البلوغ آوتها إليها كي تساعدها في عملها وتتكسب من ورائها!

قلت ساخرًا وأنا أحس مثلها:

- وأين خالتها الآن؟

قالت وكأنها تشمت بها:

- ماتت شاحبة النساء بعد سنوات قليلة ولم تهنأ بتدبيرها!

قلت لها في مرارة:

- وكم من الوقت ستمكث معنا ربيبة الشاحبة تلك التي لا تحتجب عن الرجال!

قالت مؤنبة:

- لا أدري! ليتها لا تجاورنا! فقد أكلت (أروى) معي وشربت ولم ينقطع الضحك بينهما حتى عدت أنت!

قلت مبهورًا:

- حقًا! حتى حدث [illegible]

ثم أردفت:

- حسنًا يا (أم السعد)، فلتدعيني أنا مع حزني وهمي فيكفيني شقاء اليوم ولعب! وبعد أن انصرفت خلعت ثيابي وألقيت بجسدي على السرير وقد أدركت أن أسباتي في تلك الليلة قد أفسدتها تلك الفتاة.

* * *



الورقة التاسعة والأربعون

الأيام الحالية كانت شديدة الصخب في «بكة»، فهو موسم الخروج إلى الشمال في رحلة الصيف، أعد كل حي رواحله، وعلت أصوات الحداة في الطرقات تدعو الناس للإسراع في الخروج، الكثير من هذه القوافل تتجه إلى أرض «كنعان» والقليل منها إلى «آشور» و«بابل» و«مصر». أحزنتني مشاهد الرحيل، فالرحيل مطبق في الشجن، وذكرى لا تمحي ليوم خروجي من «قادش برنيع». لو كانت الأمور سارت كما قدرتها لكنت اليوم أرافق إحدى هذه القوافل إلى أرض «كنعان»! ولكن الأمور سارت كما اختارها القدر لي ولم تكن لي حيلة في ذلك، اختيار القدر ألطف بلا شك، ولكنها النفس تتوق للاستئثار بكل شيء، فماذا لو كنت اليوم خارجًا إلى الأرض المقدسة ومعي [illegible] و(أروى) وباقي عائلتي؟!

قافلة «خزاعة»، كانت هي الأكبر والأعظم، تضاربت الأنباء حول مرافقة (عمرو بن لحي) لها من عدمه، وسرى بين الناس أنه قد أصيب بمرض في بطنه قد يمنعه الخروج، ولكنني رأيته في يوم الخروج على رأس القافلة، وإلى جواره (طريفة) العرافة التي أنبأته بأن علاج ما ألم به من مرض موجود في أرض «كنعان»، وسمعت من يهمس بأن الجن قد أخبرها بذلك! وتعجبت من أن الجن قد عجزت عن علاجه في «بكة»، فأرسلته إلى أرض «كنعان» كي

يعالج! ظني أن (عمرو بن لحي) يجيد نشر هذه الأخبار التي تزيد من رهبته بين الناس وتضمن خضوعهم له!

حين رحلت آخر قافلة، هدأ الصخب في «بكة» وخلت القرية إلا من النساء وبعض الشيوخ ورجال لا يملكون تجارة، وصنف ثالث من الشباب لم أشعر بوجودهم في الشهور السابقة، ولكنهم ظهروا في الطرقات وكأنهم خرجوا من الجحور بعد أن خلت القرية من رجالها. كانوا شبابًا في مثل عمري أو أصغر قليلًا من أبناء الأثرياء في «بكة»، يقصصون شعورهم في حداثة، ويصير الواحد منهم وقد تحول من لطافة زي الحضر، يخرجون في الطرقات ويتجمعون لسهرات في موضع يقال له «الدكة» يعاقرون فيه الخمر وتراقصهم القيان والفتيات الماجنات من بني جلدتهم.. العجيب أنهم أطلقوا على أنفسهم اسم «الأندرون»، وكأن الواحد منهم هو الأشعر في قومه!

كنت عائدة إلى الدار قرب المساء أحمل في حجري لفافة ورق ودواة حبر فارغة، فقد كنت قد قررت تدوين بعض أشعاري، وخرجت إلى حفرة ألفتها في تلك الأيام، تحت صخرة في جبل «المروة»، فأخذت أدون كلماتي وأسطر أوراقي حتى فرغ مني الحبر، فجمعت اللفائف وعدت إلى الدار لاسيما وأن الشمس قد مالت إلى المغيب، كنتُ أدلف من باب السور حين خرجت صديقة (أروى) منه. اصطدمت بها فسقطت مني الأوراق والدواة، اعتذرت إليها، ورحت ألملم أشيائي فجثت على ركبتيها أمامي تجمع الأوراق وقد ارتبكت مثلي، انفتحت إحدى اللفائف أمامها فقالت مندهشة:

ـ أتجيد الكتابة؟

قلت لها مرتبكة:

ـ نعم.

تمعنت في الكلمات ثم قالت في تعجب:

ـ أي نقوش هذه؟

قلت وأنا أتناول اللفافة من يدها وأطويها:

ـ هي حروف مصرية.

نظرت إلى عيني في جرأة أربكتني أكثر وقالت:

ـ أأنت مصري؟!

قلت وأنا أحيد ببصري عنها:

ـ أمي مصرية.. تحولت نظرتها الجريئة إلى نظرة إعجاب، زاد من ارتباكي، ثم قالت:

ـ هذا رائع! حين رأيتك تدخل علينا أول مرة أدركت أنك مختلف، كم أنت محظوظ يا (أريف) لأنك لم تتزوجي من هذه القرية البائسة.

قمت واقفاً، تظاهرت بطي الأوراق وأنا أنظر إلى [illegible] ثم قلت:

ـ أشكرك.

وهممت أن أنصرف [illegible]

فبادرت عليّ قائلة:

ـ ألا تحب اللهو يا ...؟! ما اسمك؟

التفتُّ إليها وقلت:

ـ (شمعون)!

حينها وقع بصري عليها بالتفصيل لأول مرة؛ كانت بيضاء ممتلئة الوجه والشفتين، كحيلة العين وطويلة الأهداب، تجدل شعرها في ضفيرتين أرختهما أمام كتفيها فوصلتا لأسفل صدرها، وترتدي ثوباً فضفاضاً طويلاً يكشف عن نحرها وأعلى الفاصل بين نهديها.

قلت وقد ارتبكت وتعرّق جبيني:

ـ ماذا تقصدين؟

قالت:

- يخرج الشباب إلى (الدكة) فيستمتعون بالشراب وغناء الإماء ورقص الجواري.

تعجبت من أن تأتي امرأة حُرّة بعمل كهذا، فقلت لها مستنكرًا:

- ولكنك لست بجارية حتى تفعلي ذلك!

ضحكت ضحكة قصيرة شعرت بمرارتها وقالت:

- اليتامى أحطُّ قدرًا من الجواري في هذه القرية يا (شمعون).

ثم أردفت في مرارة أكبر قائلة:

- الجارية لها سيد يُنفق عليها، وقد يعتقها سيدها فتتزوج من عبد مثلها، أو يُنجب منها فتصير أم ولد وتفتح لها أبواب الخلد، أما اليتيمة فلا هي حرة ولا هي أمة! لا يرغب فيها أحد، ولا سبيل لها إلى العيش سوى أن تتسول الناس، أو أن تعاشر الرجال تحت الرايات الحمر!

ألحّ عليّ سؤال شعرت بوقاحته بعد أن سألتها إياه:

- وأنت بأي طريق تعيشين؟!

قالت في شيء من الفخر وقليل من التحدي ردًا على وقاحتي:

- أغناني الغناء عن ذل السؤال وعار الزنا!

ثم قالت وقد انفتح قلبها وتطايرت منه الذكريات:

أتدري؟ لعلي كرهتُ خالتي حين انتزعتني من دار الشيخ (ثابت)! ولكني الآن أتذكرها بكل خير، وأدين لها بالفضل أن علمتني الغناء. أحيانًا أفكر كيف يمكن أن يكون حالي لو بقيت في دار الشيخ (ثابت) حتى الآن؟ أفضل الظن أني كنت سأكبر وأصير خادمة، مثلي مثل (أم السعد)، لا زوج ولا ابن ولا مال، أعمل يومًا مقابل الطعام مثلي مثل البعير في مربط الدواب! أتعلم يا (شمعون)؟ أنا الآن حُرّة! بل أكثر حرية من حرائر تطوي مخادعهن آثات ذلهن.

قلت وقد لانت كلماتي أمام معطفها وشعرت بمزيج من الشفقة عليها والإعجاب بها:

ـ ألا تكرهين الغناء بين السكارى؟!

قالت في صدق:

ـ أبغضه، ولكني لا أظهر عليهم إلا حين يستبد بهم السُّكْر! حينها أبدأ بالغناء من وراء حجاب! أشعر حينها بأني أغني لنفسي وليس لهم، لا أظن أن أحدًا منهم يعرف شكلي، وأنا أيضًا لا أعرف أيًا منهم فأنا لا أنظر إليهم، كل ما يعنيني حين آن أمرح من عنائي هو تلك الدراهم التي يحاسبني إياها أصحاب الدكة.

صمتت، صمتنا الصمت لحظات ولم أجد ما أقوله، فتنهدت ثم قالت:

ـ لا أدري لماذا تحدثت إليك أيها المصري؟

ثم ضحكت وقالت:

ـ ولكني سعيدة بذلك، ولا زلت أغبط (أروى) على حظها! أليس لك أخرى؟!

ضحكت قائلًا:

ـ لا.

قالت وهي تستدير منصرفة:

ـ أعلم حظي! دعني الآن حتى لا تضيع عليَّ دراهم الليلة!

كدتُ أنصرف ولكن خطرت لي خاطرة فناديتها وقلت:

ـ انتظري!

فالتفتت وعادت تنظر إليَّ مستفسرة. فقلت:

ـ هلا امتنعت عن الذهاب إلى الدكة الليلة، وأعطيتك بعض الدراهم؟!

قطبت حاجبيها وقالت:

ـ لماذا؟

قلت لها:

ـ أريدك أن تغني لـ(أروى) فهي حزينة بعض الشيء.

انفرج فمها عن ابتسامة واسعة وقالت:

ـ حقًّا!

قلت لها:



ـ نعم، وهاك الأغنية التي ستغنيها.. ثم أمليت عليها كلمات الأغنية التي كنت أسمعها من (رام) في «قاقش بونيم»، وأضفت إليها اسم (أروى)، وقلت:

أتعرفين من أنت يا (أروى)؟

أنت كالشرنقة في الحسن

حين تثمر صبرها تحت الأشواك

كذلك أنت يا صغيرتي

تثمرين عبيرك في قلبي

فتغيب عن قلبي الشتاء

وحدقت عيون الفتاة تبرق ثم تطفر بها الدموع، قالت وهي تشهق وتضع كفها على قلبها:

ـ ما أرق هذه الكلمات وما أعذبها أيها الشاب! كم أنت حنون يا (شمعون)!

ثم مسحت دموعها التي تمشت على وجنتيها وأنفها التي سالت، وقالت:

ـ لا حاجة لي بدراهمك، سأكتفي بالمعارف وهاتين من صديقاتي، وتركوا لنا باب الدار مفتوحًا.

ثم استدارت وهمّت بالانصراف فقلت لها:

ـ أشكرك يا... ما اسمك؟ نظرت إليّ وقالت:

ـ اسمي (هوى)!

فابتسمت، وأدركت أنَّ لكل امرئ من اسمه نصيبًا!

* * *

دخلت إلى الدار، فوجدت (أم السعد) تغط في نومها في حجرتها، ورأيت نور القنديل يطفأ في حجرة (أروى)، وكأنها تريد أن تخبرني بأنها ستخلد إلى النوم، لم أفتح باب حجرتها كما كنت أفعل كل يوم، ودخلت إلى حجرتي فأضعفت فتيل القنديل، وتركت بابها مفتوحًا، جلست أتفكر فيما دار بيني وبين (هوى) وأتعجب، في نفس الفتاة التي رأيتها منذ يومين ولم أفهم تواصيها الود حتى بعد ما حكته لي (أم السعد)، الآن أفهم تجاهها بالشفقة وأرى فيها قلبًا ينبض بالتفاصيل. لكل إنسان حكاياته التي لا يستطيع أحد أن يرويها عنه.

بعد قليل دخلت (هوى) من الباب ومعها الفتاتان، تحمل إحداهما عودًا مزهرًا وتحمل الأخرى صنجًا نحاسيًا، جلستا على الأرض متقابلات، وجلست أنا على الأريكة، أمليت عليهما الكلمات مرة أخرى تحفظهما، أشارت إلى إحدى الفتاتين فداعبت أناملها العود، ثم أشارت إلى الثانية فنقرت على الصنج، وكأنهن قد اتفقن على ذلك مسبقًا.. تناغمت الألحان وملأت البيت برنينها وأيقظت البهجة في الدار، خرجت (أروى) من باب حجرتها، ففوجئت بنا، ووقفت مندهشة خجلى أمام الباب، حينئذٍ خرج صوت (هوى) شجيًا قويًا، يطرق القلب ويعصف بالروح شجنًا، وحين قالت:

أَجْمَلَ حَدَّثِيكِ بالجواهر!

وَعُنُقَكِ بالقلائد!

أشارت إلى (أروى) بإصبعها في دلال، ثم قامت من جلستها وأمسكت يدها وأجلستها إلى جانبي وقالت:

«أتعرفين من أنت يا (أروى)؟

أنت كَالسَّوْسَنَةِ في الحُسنِ

حين تنثر عبيرها بَيْنَ الأَشْوَاكِ

كذلك أنت يا صغيرتي

تنثرين عبيرك في قلبي

فتغيب عن قلبي النساء».

بكت (أروى) وهي تحتضن صديقتها، وتوقفت المعازف و(أروى) لا تتمالك نفسها، قالت باكية:

- كم أحبك يا (هوى)!

ضمتها (هوى) وقالت:

- وكم يحبك هذا الشاب.

التفتت إلى (أروى) وهي تنظر إليّ نظرة جمعت كل الحب والاعتذار، وخرجت (أم السعد) في تلك اللحظة تتثاءب، فاندهشت وقالت:

- ما هذه الجلبة؟!

ضحكت (هوى) لـ(أم السعد):

- لا شيء يا (أم السعد)، أكملي نومك، ولكن أفسحي مكانًا للفتاتين في حجرتك وسأبيت أنا مع (أروى) في حجرتها!

وحين اقترب الليل من منتصفه سمعت طرقًا خفيفًا على باب حجرتي، فتحت الباب فدلفت منه (أروى) مسرعةً وألقت نفسها في حضني، أغلقت الباب وضممتها إلى صدري في قوة رغم بطنها المنتفخة، ملأ عبير عطرها الجديد أنفي فأيقظ كل حواسي، قبّلتها في شوق، وحملتها إلى فراشنا وقضينا ليلة ذكّرتني بليالينا الخالية.

• • •

الورقة الخمسون

واستيقظت ذات صباح على (أروى) وهي تئن وكأنما أطبق على بطنها مارد، دفعتني يدها فاستيقظت فزعًا، رأيت وجهها ممتقعًا، وهي تحيط بطنها بيديها وكأنما ترجوه ألا تنشق، قالت في إعياء:

- قد جاءني المخاض يا (شعولة).

هرولت إلى حجرة (أم السعد) فأيقظتها واستيقظت معها (هوى). أخبرتها بحال (أروى) فأمرتني بأن أضع جوالقًا من القش في الفناء الخلفي للدار وأن أحضر لها صندوقًا من صناديقي الخشبية، ثم أمرت (هوى) بأن تذهب إلى دار (ميمونة) قابلة الحي وأكدت عليها أن تأتي بها وألا تتركها دون أن تصحبها إلى الدار.

أجد الكثير من القش، فملأت الجوالق بكناسة الخشب من عريش النجارة، ثم أخذت صندوقًا وضعته في الفناء، رأيتها تأتي مستندة إلى كتف (أم السعد) بيد وتسند بطنها بيدها الأخرى وهي تعض على شفتيها من الألم، فجأة سال منها الماء فصرخت فزعة ومتألمة، طمأنتها (أم السعد) وقالت بفرح:

- قد جاءت البشرى، فتماسكي حتى يأتي البشير!

أجلستها على الصندوق، ثم طلبت مني أن أحضر لها حجرين أملسين، تناولت الحجرين فوضعتها متباعدين أسفل الصندوق ثم فرجت بين ساقي

(أروى) ووضعت قدمًا على كل حجر، ثم أمسكت بحوائق القش فأفرغته بين الحجرين أسفل (أروى) وصوت القش بيديها. كنت لا أفهم ما تفعله، ولكنني وثقت بها وقد شعرت بأنها تعي ما تفعل، وخطر لي أنها لا بد وقد مارست القبالة من قبل مرات ومرات.

حين رأتني أقف مذهولًا، قالت لي:

- اذهب يا (شمعون) فلا ينبغي لك أن تطلع على ما هو آتٍ.

انصرفت من فوري، خاصة بعدما علت صرخات (أروى) الثاقبة، خرجت من الخباء، ثم رأيت القابلة (ميمونة) تهرول خلف (أروى) تكاد تتعثر في جلبابها، وهي تحمل في يدها سكينًا وقماشًا من القباطي، عارفًا فيما ستفعله بها ووقفت غير بعيد أستمع إلى صرخات (أروى) التي تمزق بها الصحارى، تخيلت انفصال الجنين عن جسدها كثمرة تنشق إلى نصفين بسكين القابلة (ميمونة)، أي ألم هذا الذي تتحمله المرأة كي تهب الحياة إلى جسد آخر؟! وأي معاناة تلك التي تبدأ بها حياة الإنسان؟! ربما كانت مشاركة الألم بين الأم ووليدها هي السبب في ارتباط روحيهما بعد ذلك، فلا شيء يُقرِّب النفوس أكثر من مشاركة الألم.

بعد لحظات كفَّت (أروى) عن الصراخ، وبدأت صرخات الطفل، كلاهما صراخ ولكن شتان بين صراخ (أروى) الذي يفطر القلب، وصراخ الطفل الذي يُلملم الروح، ويبهج النفس، ويقرع الأذن كنغمات (هوى) وصديقاتها!

نادت عليّ (أم السعد)، فهرولت إليها، رأيت (أروى) جالسةً على الصندوق، تنظر إليّ في سعادة، رغم إعيائها الشديد، بينما كانت (ميمونة) القابلة تقمط الطفل بلفائف القباطي و(هوى) تبتسم ببصرها في وجه الطفل الذي كفَّ عن البكاء، وقد لمعت عيناها ببهج الأنثى التي تشتاق إلى الأمومة.

قالت (أم السعد) وهي تنظف فخذي (أروى) اللتين تلطختا بالدماء:

- مبارك يا (شمعون)! أنجبت سيدة البنات ذكرًا!

نظرت إلى الطفل الذي بادلني النظر، دون أن ألمسه، فقالت (ميمونة):

- بورك هذا الطفل! لم أرَ طفلاً يُولد من قبل مفتوح العينين!

قالت (أم السعد):

- رزقه الله عيني جده الشيخ (عامر)، إنه يُرزق بصيرته.

قالت (هوى):

- لماذا تسمونه؟ أنا أحب اسم (جندب)؟!

صرخت فيها (أم السعد) وقالت:

- خيبة الله عليك، حفيد الشيخ (عامر) يسمى جندبًا؟!

كنت أعلم أن الجندب اسم حشرة تشبه الجرادة ولكني لم أتمالك، فقلت ضاحكًا:

- اترك الاسم لك كي تطلقيه على ولدك يا (أم جندب)!

ضحكن، فنظرت إلى (أروى) وقلت:

- سنسميه (إبرام) ليجمع جدنا (إبرام) بين بني (إسماعيل) وبني (إسرائيل) من قبل، وها هو ولده يجمع بينهما الآن!

قالت (أم السعد):

- بورك الاسم يا (أبا إبرام)!

وضعته مبتسمة بين يدي (أروى) وقالت:

- دعيه يشتم عرقك ليعرفك، ثم ألقميه ثديك حتى وإن لم يُدِرّ لبنًا كي لا يـ[illegible] في الرضاع.

حملته (أروى) وسعادة وجهها تمحو كل أثر لألم أو إجهاد، قلت:

- وأنا؟ ألن يشتم رائحتي ليعرفني؟!

ضحكت (أم السعد) وقالت:

- لا حاجة له فيك ليعرفك، الولد لأمه ٣٠ شهرًا.

ثم قالت لي آمِرةً:

- هيا يا (شمعون)، ضع الخلاص في الجولق، وادفنه في الصحراء وحذارِ أن تتبعك الكلاب، فلو أكلت الكلاب الخلاص لمات الولد.

لم أفهم ما هو الخلاص، ولا لماذا يسمونه هكذا ولكني حملت جولق القش الذي تعطنت رائحته بالدماء المُخثَّرة على ظهري وأمسكت في يدي فأسًا، وخرجت به إلى الصحراء، حفرت حفرة عميقة تأكدت من أن الكلاب لن تستطيع نبشها، وألقيت الجولق بها، ثم أهلت عليه التراب. أثار المشهد أفكاري وتذكرتُ يوم أهلنا التراب على جسد أبي بعد موته، تبدأ الحياة بدفن وتنتهي بدفن، وكأننا من تلك الأرض أتينا وإليها نعود؟

حين عدت إلى البيت، وجدتُ (أروى) نائمة تحتضن الطفل النائم بينما وقفت (أم السعد) في الفناء أمام الموقد تعد لها لحمًا ومرقًا كي تستعيد قوتها، أما (هوى) فكانت تجلس على صبة حجر بالفناء تحتها حجر مبلل وقد وضعت قدميها في الماء. قالت (أم السعد) حين رأتني أدخل إلى حجرة (أروى):

- لا تدخل عليها واعتزلها حتى تبرأ من نفاسها!

قلت متعجبًا:

- أعتزلها؟! إلى متى؟!

قالت:

- أربعين يومًا وليلة.

فغرت فاهي دهشة وقلت:

- أربعين يومًا وليلة؟! تضيع أيام العمر ما بين حيض ونفاس؟!

ضحكت (هوى) وقالت:

- تزوج عليها أخرى! إن حاضت إحداهما، رزقت الأخرى!

نهرتها (أم السعد) وقالت:

- ومن أدراه ألا يوافق قمر الأولى قمر الثانية!

ضحكت (هوى) مرة أخرى وقالت:

- إذن فليتزوج الثالثة!

قالت (أم السعد) مُحذِّرة:

- لا تطعها! أما سمعت عن الذي قال لصاحبه أتزوج الثانية فأصير خروفًا ينعم بين نعجتين، فلما رآه صاحبه سأله: كيف حالك يا خروف؟! قال صرت نعجة ترعى بين ذئبتين!

انفجرت ضاحكًا وقلت:

- هوِّن عليك يا (أم السعد)! لا أريد أن أقرب خروفًا ولا نعجةً، فقط أريد أن أنام في مخدعي!

قالت وكأنها تستعذب عقابي:

- فلتبت أغراضك في حجرة أخرى، وحين تصفو نفسك تعود إلى مخدعك..

هززت رأسي يائسًا من عنادها، وهممت بأن أذهب إلى الحجرة الأخرى، ولكن الغلام الحبشي طرق الباب وقال لي:

- هناك ضيف بالعريش يريد الحديث إليك يا سيدي!

تنهدت وأنا أنظر إلى (أم السعد) في غيظ ثم قلت:

- لا أمل لي في القيلولة اليوم!

ثم قلت:

- حسنًا يا غلام، سآتيك في العريش!

* * *

دخلت إلى العريش فوجدت رجلًا مهيبًا يقف في وسطها، يُقلِّب الصناديق بين يديه وينظر إلى صنعتها بعينين خبيرتين، يرافقه غلام حبشي، بينما وقف غلام آخر إلى جوار الناقة التي ناخت خارج العريش، ألقيت عليهما التحية ثم أردفت:

- يبدو أن السيد الكريم تعجبه صناديقنا!

استدار الرجل وقال في لكنة غريبة عن أهل «بكة» ولكنني فهمتها:

- لا حاجة لي بالصناديق ولكنني أنظر إلى دقة الصنعة.

قلت مبتسمًا:

- وفيمَ يحتاج السيد الكريم صنعتي؟

قال الرجل في جدية:

- اسمي «خنيس» وقد أتيتك من «الشُعيبة». أتعرف ما «الشعيبة»؟

هززت رأسي نفيًا، فقال بلكنته الغريبة:

- «الشُعيبة» هي مرفأ على شاطئ البحر تبعد مسيرة يومين عن «بكة».

لم أكن أعلم أن «بكة» قريبة من البحر إلى هذا الحد، كنت أظن أن العمر قد ينقضي في السير في وديان «بكة» وجبالها دون أن يصل المرء إلى منتهاها، هززت رأسي متفهمًا ولم أقاطعه كي يدخل في مضمون الحديث، فتابع:

- ترسو عندنا السفن القادمة من الشمال من «صيدون» و«كنعان»، والسفن القادمة من الجنوب من سبأ ومن الحبشة، البعض يرسو للتزود بالمؤن، والبعض يرسو لإصلاح ما لحق به من عطب في البحار، أيام الصيف الأخيرة هي موسم العمل من كل عام، يخشى البحارة ثورة البحر في الشتاء ولا تحتمل سفنهم لطمات الأمواج. نجمع النجارين من كل الأحياء للعمل في المرفأ، ويقولون: إنك أفضل النجارين في هذا الحي! فما رأيك في أن تعمل معنا هذا الصيف وسنجزل لك العطاء؟

قلت له شاكرًا ومعتذرًا:

- أشكرك، ولكن لا خبرة لي بصنع السفن، كما أن زوجتي قد أنجبت اليوم ولدها!

رأيت على وجهه عدم التصديق، نظر إلى الصندوق الذي كان يقلب فيه

صمت قليلاً ولمس عوارض الخشبية التي ارتكنت على جانبها وقال:

- من يجيد هذا العمل الدقيق، لا يعجزه إصلاح مركب تجمعت ألواحها بالدروع والدُّسُر.

شعرت بالامتنان لكلماته، وظننت أنه سينصرف حين قام من جلسته، ولكنه أخرج من نطاقه كيساً من النقود، وضعه في يدي وقال بطريقة تاجر اعتاد أن ينهي أي تفاوض بزيادة السعر:

- هاك «٥» قصبة وثلاث مثلها بعد كل مركب تقوم بإصلاحه؟

الحق أن النقود في اليد تُغري المرء وتعييه نظم كلماته. قلت في صيغة مترددة عن ذي قبل:

- الأمر ليس له علاقة بالمال، فزوجتي قد أنجبت اليوم كبرى أصغراتك ولا أستطيع تركها.

وضع في يدي كيساً آخر مثل سابقه وقال:

- تستطيع أن تكفيها مؤنتها حتى تعود، وإن شئت أتيت بأهلك.

ثم ابتسم لأول مرة وقال:

- هل الأفضل تهرب من قيظ الصحراء في «مكة» إلى نسمات البحر في «الشُّعيبة».

كانت نقود الرجل وكلماته كفيلة بأن أحسم أمري فقلت:

- ومتى السفر؟ قال:

- سأمكث في «مكة» عشرة أيام، أطوف على ما بقي من أحبائها ثم يتحرك الركب من البطحاء إلى «الشعيبة»، صافحته وأنا أقول:

- أعد الرحال وأرافقك مع أهلي إلى «الشعيبة» بإذن الله.

● ● ●

الورقة الحادية والخمسون

انحدرت العربة بين التلال الوعرة التي فصلت بين (مكة) و(الشعيبة)، ارتج جسدا (أروى) و(هوى)، اللتان تثبتتا بجانب صندوق العربة جيدًا وأمسكتا بقفص مغطى بالقماش وُضِع به (إيرام) بيد أخرى، بينما حافظت (أم السعد) بالكاد على اتزانها بأن أسندت ظهرها إلى زاوية العربة وتشبثت في حرف الصندوق بكلتا يديها، اهتزت مظلة القماش التي ظللت العربة بالهواء كخباء أوشك أن تعصف به الرياح، وشعرت لوهلة أن عجلات العربة ستتحطم وهي تنحدر في سرعة فوق الصخر الناتئ.

وصلنا إلى السفح، فأوقفتُ العربة، ودرتُ حولها كي أطمئن على (أروى) وعلى الطفل (إيرام)، فوجدتهما بخير. قامت (هوى) من جلستها على العربة ومدّت لي يدها كي أساعدها على النزول وهي تشعر بالإعياء، وما أن نزلت حتى أفرغت ما في جوفها على الرمال، ثم جلست على الأرض وهي تسند بظهرها إلى عجلات العربة في إعياء.

قالت (أم السعد) تُوبّخني وهي تمسك ظهرها متأوهة:

- ألم يكن من الأفضل أن تكتري لنا ناقتين بدلًا من تلك العربة التي كادت أن تحطم عظامنا؟

اغتظت منها ولم أشأ أن أقول: إنها أصرت أن تركب العربة بدلًا من أن تركب الناقة مع الغلام الحبشي.

فقلت:

- هذا أفضل بكثير! تُخفينا قلقلة النوق وجمعنا ركاب واحد!

كان (جُديس) وقافلة النجاريين لا تزال أعلى المنحدر تهبط على مهل، بكى الطفل (إبرام)، فألقمته (أروى) ثديها، نظرت إليه في حب وهو يمتص حلمتها مغمض العينين، غير عابئ بما يحدث حوله! نظرة الأم التي تشع من عينيها، كانت لا تتناسب مع وجهها الذي يحمل ملامح طفلة، ولكن يبدو أن الفتيات يولدن وفي قلوبهن حنان الأمومة. حينما أخبرتها خبر الانتقال إلى «التسمية»، قالت سعيدة: «ذلك رزق (إبرام) قد ساقه الله إلينا!». تؤمن مثل قومها بأن الذكور يأتون بسعة في الرزق، وأن البنات يحملن ضيق الرزق، رغم كونها أنثى! النساء هنا لا يحققن سعادتهن إلا بإنجابهن الذكور، قد صنعهم ذلك الشعور في المهد، ثم يشكين ظلم الرجال بعد ذلك!

أما (هوى)، فحين علمت بأمر السفر إلى «الخيمة» فغرت فاها وقالت مذهولة:

- حقًّا!!

ثم شعرت بقلبها يخفق، وصوتها يتهدج لا أدري إن كان فرحًا أو قلقًا وقالت:

- سوف أرافقكم إلى هناك وإن شئتم اتركوني هناك وحدي!

تفوت (أم السعد) عليها فرصة التأنيب فقالت:

- تتركك؟ إلى متى ستظلين هائمة على وجهك يا فتاة؟

فردت عليها (هوى) حينها في حدة أخرستها:

- دعيني وشأني يا (أم السعد)!

وزعتُ كسرات الخبز والجبن على النساء الثلاثة، وجلست مستندًا إلى صخرة، أنظر إليهن وأنتظر وصول (جُدَيس) وباقي الرجال. تفكرت في حالي مبتسمًا! فللنساء في حياتي نصيب كبير؛ أمي و(سولاف) و(باتشيفا) في

برية «سيناء»، و(الروى) و(هوى) و(أم السعد) في برية «فاران»، ثلاثة اجتمعن مع أبي، وثلاثة اجتمعن معي، يبدو أن النساء لا يجمعهن إلا قلب يشعرن معه بالعطف والأمان.

مع قدوم الليل، وصل (جليس) وباقي الرجال إلى أسفل السفح، أُنيخت الإبل وضُربت الأخبية، واستعد الناس للمبيت، أخلدت النساء للنوم في الخباء، بينما جلست أنا خارجه وقد أشعلت النار في شجيرة تحطبت أغصانها، فقد كانت نسمات الصيف الأخيرة تزيد من برودة الليل.. طقطقات الحطب في النيران جعلتني لا أشعر بأقدام (هوى) حينما جاءت وجلست بجانبي أو ربما تسللت هي من الخباء في رفق حتى لا توقظ من به.. صمتت وقد ضمت فخذيها إلى صدرها وأحاطت ساقيها بساعديها،

سألتها وأنا أتطلع إلى صفحة وجهها في ضوء النار:

- كيف حالك؟ أما زلت تشعرين بالألم؟

هزت رأسها وقالت:

- أشعر به قليلًا.. لمحت في وجهها مسحة حزن فقلت:

- أرى في وجهك حزنًا يا (هوى)؟

ظلت تتطلع إلى ألسنة النيران المشتعلة ثم قالت بدون أن تنظر إليّ:

- هل تجيد سبر الأغوار؟

قلت:

- لا يحتاج الأمر لذلك، فحزنك قد طفا من أغوارك، وانعكس على صفحة وجهك!

نظرت إليّ وقالت وهي تجاهد الابتسام:

- تجيد الكلام أيها المصري!

ثم أردفت:

- أظن أن جميع الرجال يجيدون الكلام!

ثم طفرت في عينيها دمعة وهي تقول:

- ويجيدون الوعود والكذب والخداع كذلك!

أدركت أن أحدهم قد أصابها بخيبة أمل، وشعرت بأنها تحمل همومًا على كتفيها، فمددت كلماتي كي أعينها على حملها، قلت:

- ما بك يا (هوى)؟

مسحت الدمعة التي فرت، وقالت:

- لا شيء، يا (شمعدان)، هل لي في أن أطلب منك شيئًا؟

قلت لها مشجعًا:

- بالطبع! اطلبي!

قالت في رجاء:

- لا أريد العودة إلى «مكة»! اتركني في «الدكة»!

قلت لها مباشرة:

- أهو شاب من «مكة»؟!

ترددت في الحديث قليلًا، ثم قالت:

- كان في «مكة»!

قلت:

- هل خذلك؟

نظرت بعيدًا عن النيران وكأنها تستر عينيها بالظلام، ثم بدأت في السرد وكأنها تتحدث إلى نفسها قائلة:

- رأيته في «الدكة» الصيف قبل الماضي، الوحيد الذي كان يذهب إلى «الدكة» فيجلس وحده دون صحبه، كنت حين أصدح بالغناء أراه يتطلع إليّ بشغف، لا يصرف عينيه عني ولا ينشغل بشراب ولا طعام، أحسست بأنه يريد أن

يبقى عقله متيقظًا حتى يراني، وأوحت إليّ نفسي بأنه يأتي من أجلي أنا، وليس من أجل السَّمَر.

مرة بعد مرة أصبحت أغني له وحده، أصدح بصوتي لأجله، وإذا غاب، غاب عني صوتي، ووقعت في هواه حتى قبل أن أعرفه، ثم كانت صدمتي حين علمت أني قد وقعت في غرام (الوليد بن الحارث)، أخو (عمرو بن الحارث) الجرهمي.

فغرت فاهي دهشةً ولما أتذكر الفتى الذي كان بانتظارنا فوق الحجون، وأدركت نهاية قصتها التي ذكرت بدايتها للتو، ولكني انتظرت أن تقص عليّ ما بين البداية والنهاية!

قالت وقد عادت إليها المرارة في الحديث:

- لم يكن لهذا الهوى أن يربط بين سيد من سادة «جرهم»، وفتاة يتيمة من (بني قيدار) إلا تحت أستار الكتمان، فخافت وصرت جاريته التي لم يشترِها، أقبل بالصبر من الهوى، وأقبل بالعزل من النشوة، وأقتنص من حياته سُويعات هي الحياة بالنسبة لي.

ثم صمتت قليلًا وقالت:

- وحين أشرفت الحرب مع «خزاعة»، عز لقاؤنا، كان مهمومًا من أمر الحرب ويخشى أن يصل الأمر إلى الناس فيزداد غضبهم على «جرهم»، وحين وقعت الحرب وانهزمت «جرهم»، لم أره بعدها.. بحثت عنه بين الأسرى فلم أجده، وبحثت عنه بين القتلى فلم أجده، دفعت أموالًا للأدلاء كي يأتوني بخبره، فجاءني أحدهم بالخبر وقال إنه هرب من «بكة» مع أخيه آخذًا معه أمواله وجواريه.

لم أنسَ أن أتأكد صدق الدليل، وما كانت هي بحاجة إلى ذلك، فقد بكت وهي تقول:

- لم أتخيل أن يتركني وكأنني أهون ما ملك! ولم أتخيل أن يرحل عني بدون كلمة وداع.

مسحت دموعها، ثم تابعت:

- تمنيت حينها لو أغادر «بكة» كلها، ولكنني كنت أخشى الهلاك.. انتظرت أن تأتي أشهر الصيف بفارغ الصبر فلعل عودتي إلى ليالي السَّمَر تخفف عني الحزن والعناء إلى أن رأيت (أروى) في منامي!

رفعت حاجبي دهشة وقد استحوذت كلماتها على مسامعي فلم أقاطعها، فتابعت:

- كنت قد انقطعت عن (أروى) لأكثر من سبع سنوات، ولم أعرف أخبارها، وفي ليلة حلمت بها تزورني ثم تأخذ بيدي إلى مكان رأيته قريبًا من الحرم، وحين دخلت وجدت رجلًا يشبه (الوليد) يجلس في هذا البيت في انتظاري! أتدري أين كان ذلك المكان؟!

لم أجب، فتابعت:

- كان مكانًا على شاطئ البحر! وأنا التي لم ترَ بحرًا في حياتها من قبل! وهنا حين أخبرتني أنت باسم «الشعيبة» أدركت أنه لم يكن حلمًا بل طائف من الرب، وشعرت بأن الله قد استجاب الدعاء الذي لم ينقطع منذ رحل عني (الوليد)!

تعجبت من كلامها وتفكرت فيه، عجيب أمر هذه الأحلام! أحيانًا تأتينا بالبشرى، وأحيانًا تأتينا بالتحذير، أهي حقًا أطياف من السماء، أم أنها آلام النفس ورغباتها، تفر من تكتمها في الليل فتعبث بنا ونحن نيام ثم تغادرنا وقد ألقت في نفوسنا بعضًا من بذور الأمل.

قلت لها وأنا أتحسس كلماتي كي لا أفسد عليها أملها:

- أيًّا ما ستجده في «الشعيبة» فهو بشرى لك يا (هوى)!

ابتسمت وقد فطنت بذكائها إلى معنى كلامي وقالت:

- رقيق القلب أنت يا (شمعون)!

ثم أردفت:

- على أية حال، أنا لن أعود إلى «بكة» حتى أعود إلى نفسي!

وحينئذٍ علا بكاء الطفل (إبرام)، فقامت هي من جلستها وعادت إلى الخباء. وحين التفت ورائي رأيت ظل (أروى) خلف الخباء وهي تُرضع الطفل الذي قرصه الجوع في جوف الليل، ولم أدرِ هل أيقظها صوت الطفل، أم أنها كانت مستيقظة قبل ذلك؟

* * *

وصلنا إلى شاطئ «الشميسة»، علمت حين رأيت البحر لماذا أطلق الناس على المرفأ ذلك الاسم؛ فعشبات البحر كانت تنمو أسفل الماء، وكأنها غابات من الشجر النضر وريقاتها الصغيرة الملونة، فبدا البحر الضحل وكأنه بيت مموه من الزجاج حوى بداخله بستانًا يانعًا من الزهر. أوقفت العربة ونزلنا نتطلع إلى البحر، شهقت (أروى) من الجمال، وصعصعت بكفيها في حنان، وأنا أرى في عينيها نظرة السعادة، بينما سارت (هوى) حافية، وهي تملأ صدرها من نسمات البحر الرطبة، وأذنيها بأصوات الأمواج التي غمرت سمعنا. سارت حتى وصلت إلى حد الماء الذي كان يزيد وينحسر مع كل اندفاع موجة، أو انحسارها، فخلعت نعليها ووقفت تُبلل قدميها بسعادة طفل يرى الماء لأول مرة.

هتفت بها (أم السعد) التي كانت تشعر بالرهبة وقالت:

- ارجعي يا (هوى)، حتى لا يجذبك الجن إلى قاعه!

أهل «بكة» كانوا يخشون البحر ويعتقدون أن الجن يسكنون في جوفه، وأن نساء الجن يخطفن رجال الإنس، بينما يخطف رجال الجن نساءهم، لم تره (هوى)، وظلت تسير بمحاذاة الماء غير واعية وكأنها جذبها جمال البحر قبل أن يجذبها الجن إليه! أما أنا فلم يكن البحر غريبًا بالنسبة لي، فلا زلت أذكر يوم الخروج بتفاصيله حتى الآن، بل أشعر برذاذ البحر على وجهي، كلما استدعيت مشهد انفلاق البحر بعصا نبينا (موسى) إلى عقلي!

بعد قليل جاءنا (جديس) فأخذنا إلى مساكن الصيادين المجاورة للمرفأ، البيوت هنا من طابق واحد، لا تزيد عن حجرتين، معظمها قد بُني من الخشب، والقليل منها بالحجر. رائحة السمك كانت تملأ البيوت والشوارع، ذكرتني تلك الرائحة بقرية «عصيون جابر»، وعائلة الشيخ (يحاسر) والد (عامير) التي هلكت بعد أن عصى أبناؤه أمر الرب وقاموا بالصيد في يوم السبت!

لحقنا الغلام الحبشي بعد قليل بالناقة، ووضعنا متاعنا في البيت الذي اختاره لنا (جديس) ثم أخذ الغلام الناقة والعربة وذهب بهما إلى مربط الدواب بعد قليل جاءنا غلام الشيخ (جديس) يحمل صحفة بها واحدة من الأسماك مختلفة الأنواع، تفوح منها رائحة شهية جذبت خلفها سربًا من القطط، فقد كانت القطط تملأ شوارع القرية، قذفت بقطعة سمك بعيدًا عن الباب فهرولت نحوها الهررة وتنازعت عليها، ثم أغلقت الباب وجلسنا جميعًا لنأكل طعامنا الأول في «الشمية».

ما أن بدأت في الطعام حتى ارتفع صوت النفير، وبدا أن مركبًا قد وصلت إلى المرفأ، بعدها علا صوت أقدام الصيادين وجلبتهم خارج الباب، شعرت بالإثارة وأردتُ أن أخرج إلى المرفأ كي أرى المركب التي وصلت، فرغت من الطعام في سُرعة، ثم قمت من مجلسي، قالت (هوى) وهي تقوم مُسرعة.

- إلى معك؟!

قالت (أم السعد) مستنكرة:

- تخرجين بين الرجال؟ ألا تستحين؟!

كنت أعرف ما تريده، وما تتوق إليه نفسها قلت لها:

- ألقي الخمار على رأسك واتبعيني.

نظرت (أم السعد) إليّ ثم إلى (أروى)، ورأيت الضيق على وجه (أروى) رغم أنها لم تُفصح عنه ولو بنظرة، ناديت على الغلام الحبشي ثم خرجت إلى الطريق، تبعت خطوات الناس بين الأزقة الضيقة، لم وصلنا إلى المرفأ بسهولة،

كانت أول مرة أرى فيها سفينة كبيرة تحمل ما يزيد عن مائة بحار، تعجبت كيف تطفو تلك السفينة بحمولتها فوق البحر، سحب الرجال الواقفين على الشاطئ حبل المرساة فتبعتهم السفينة في بطء، وكأنها ناقة عصيّة قبل أن تستوي بجانبها بمحاذاة الشاطئ، ربط الرجال حبل المرساة من الأمام والخلف إلى عمودين كبيرين دقّا على الشاطئ كوتدي خيمة، ثم ألقى رجال السطح سُلّمًا من الحبال على جانب السفينة هبط منه البحارة الواحد تلو الآخر.. ما هي إلا دقائق حتى اكتظ المكان بالعمال والحمّالين والبحارة الذين تعالت صيحاتهم بلهجات شتى حتى إنني لم أميّز صوت (جحجوح) وهو يسألني:

- أسمعوتنا!

التفت إليه حينما مد يده كمي وقال في صوته العالي:

- هنا سيبدأ التجار والعمال في تلك السفينة بعد أن يفرغ العمال من نقل حمولتها.

أومأت له برأسي وقلت له وأنا أرفع صوتي لئن يطغى على الجلبة:

- أنا سمعت.

أشار إلى عدد من الصوامع وقال:

- هنا يخزن البحارة بضائعهم.

ثم أشار إلى بيت آخر وقال:

- وهنا تخزن أنواع الأخشاب وجذوع النخل والحبال، إذا شئت أن تحصل على نصيبك من الأخشاب المكشوفة فعليك أن تُبكّر وإلا ستقعد وتضطر إلى الانتظار.

قلت للغلام الحبشي وأنا أشير إلى مخزن الأخشاب:

- غدًا نُبكّر إلى هنا، ونحجز نصيبنا من الأخشاب.

أومأ الغلام متفهمًا، وهزّ (جحجوح) رأسه مستحسنًا، ثم قال للغلام

- وحين تأتي إلى هنا، أخبرهم أنك من رجال (جديس)، فلكل مجموعة من النجارين رئيسهم، وأنا رئيسكم.

ثم قال وهو ينصرف:

- حسنًا أراكم غدًا على خير.

عدتُ أتطلع إلى السفينة التي امتدت من جانبها محفة كبيرة وصلت إلى الشاطئ، وعلى تلك المحفة كان العمال يحملون الجوالق والبضائع فينقلونها إلى الصوامع، مهارة العمال وسرعتهم جعلتني أدرك أن كل شيء في هذا المرفأ كان منظمًا وأن (جديس) كان محقًا في جمع كل هذا العدد من النجارين، فسفينة واحدة قد تحتاج إلى عشرة نجارين على الأقل للعمل بها.

أفقت من تركيزي، والتفت إلى (ميرى) التي تركتها لا تزال واقفة خلفي، تحولت لها لأشاركها سعادة أدراجنا، ولكني لم أجدها! تلفتُ يمينًا ويسارًا، ثم مسحتُ بعيني المزدحم لعلي أجد امرأة ترتدي حلة السواد ولكني لم أجدها، وكأنها ذابت بين الحضور! قلت للغلام في ضيق:

- أين ذهبت السيدة (ميرى)؟

هز كتفيه وقال:

- لا أدري يا سيدي!

زفرت وأنا ألعن غبائي الذي جعلني أصحبها إلى هنا ونحن لا نزال في يومنا الأول! كيف لم أفطن إلى لعنة اليوم الأول التي تطاردني في كل مدينة أذهب إليها؟! قلت للغلام:

- هل تستطيع العودة إلى الدار وحدك؟

قال:

- نعم.

قلت مستحسنًا:

- حسنًا! اذهب إلى هناك، ولو وجدت السيدة (هوى) بالمنزل، فخذ وأخبرني، وإن لم تجدها فلا تخبر أحدًا بغيابها حتى أعود.

هز الغلام رأسه متفهمًا، ثم انسلّ بين الزحام واختفى في لحظات. تلفتُّ حولي وأنا أحدّث نفسي وأتساءل: من أين أبدأ البحث عنها؟!

هداني بصري إلى ربوة عالية وضع عليها سارٍ مرتفع وراية حمراء كي تراها السفن القادمة من البحر، أدركت أن هذه هي النقطة المثلى لرؤية المرفأ كاملًا، هرولت إلى الربوة وصعدت منحنيتها وأنا أتشبث في صخورها بيدي إلى أن وصلت إلى قمتها، وقفت إلى جوار الساري ألهث من التعب، ألتفت بعيني في كل الاتجاهات وأنا أقول لنفسي:

- أين أنتِ يا (هوى)؟!

فجأة رأيت عن البعد خمارًا أسود يسير منفردًا بمحاذاة الشاطئ في الاتجاه الآخر من المرفأ، شعرت أنها قد تكون هي رغم بعدها عن عيني، وأمعنت النظر، أدركت من مشيتها وخمارها الذي طار من فوق رأسها أنها هي، خفق قلبي فناديت بأعلى صوتي:

- (هوى)!...!

ولكن ندائي لم يتجاوز أسفل الربوة من شدة الجلبة في المرفأ، وقفت أنظر إليها كي أعرف إلى أين تتجه.. خفق قلبي وشهقتُ مذهولًا حين رأيت بيتًا للخوص يقف منفردًا على الشاطئ بعيدًا عن المرفأ و(هوى) تسير إليه كالمسحورة لا تأبه لخمارها الذي أطاح به الهواء ولا لنعلها الذي سقط من قدميها في الرمال، سارت حافية وكأنها تسير على خطى حلمها الذي أوشك أن يتحقق، قررت أن ألحق بها وقد علمت وجهتها، شمرت جلبابي ووضعته في سروالي، ثم نزلت الربوة في قفزات متسارعة كغزال جبلي، وما أن وصلت إلى سفحها، حتى هرولتُ مسرعًا إلى بيت الخوص وأنا أدفع الأجساد المتلاحمة في المرفأ بعيدًا عني، وأنا أتلقى الشتائم بلهجات شتى، وصلت إلى الشاطئ

وهي على بُعْد خطوات من بيت الحرص، ظللت أنادي عليها وأنا أهرول:

- (هوى).. (هوى)..

ولكن هيهات، فلم تكن لتلتفت عن وجهتها وهي على بُعْد خطوات من حلمها، وصلت إلى بيت الحرص، فدلفت من بابه واختفت بداخله، ضاعفتُ سرعتي، وصدري يتحرق من خفقات قلبي، وصلت إلى الحوص، فأمسكت بحافة الباب وأطحت بجسدي داخله، وأنا أقول لها في صوت يتهدج من التعب:

- (هوى)... لماذا لا تردي عليَّ؟

رأيتها تقف في منتصف البيت، أمام رجل عريض المنكبين يقف أمامها وقد ولى ظهره للباب وعيناها معلقة به في صمت، أذهلتني المفاجأة وأنا لا أصدق أن يكون كل هذا العبث حقيقي، استدار الرجل في بطء والتفت إليَّ، لم يكن الرجل الواقف أمامها هو (الوليد بن الحارث)، بل كان رجلاً آخر، رجلاً لم تخطئه الأيام بيني وبينه، ولا ملامح وجهه رغم اللحية السمراء التي نبتت عليه وعلامات التعب التي خلفت حقبته، نظر الرجل إليَّ في ذهول وكأنما يتيقن مما تراه عيناه، ثم هتف:

- (شمعون)!؟

وهتفت أنا:

- (عمرو بن قومة)!؟

* * *

الورقة الثانية والخمسون

اندفع كل منا تجاه الآخر يحتضنه في مشاعر جارفة صادقة، ودموع الفرح تبلل أعيننا، بينما وقفت (أروى) ذاهلة مما يحدث أمامها، وبينما نحن كذلك إذا صوت يأتي من خلفنا وهو يسألني عن (عمرو). التفت لأجد التاجر (مهيور) وقد بدا أكثر نحافة وأكبر عمرًا من ذي قبل بعد أن طالت لحيته وأصابها بعض الشيب. فقذف بنفسه نحو الأحضان وضمنا عناق طويل وكأنما حملتنا أجنحة القدر جميعًا، وألقت بنا إلى تلك البقعة من الأرض كي نلتقي فيها بعد الفراق.

لم أدرِ كم من الوقت قد مرّ ونحن جلوس في ذلك البيت الخوص، نتحدث فيما وقع من أحداث خلال الأعوام الثلاثة الماضية، كانت أخبار الحرب قد وصلت إلى المراعي التي توقفوا بها وعلموا أيضًا من أخبار جرهم* وخزاعة*، ولكن لم يصلهم أمر الشيخ (عابر) و(دومة)، فبكيا حين علما بوفاة الشيخ (عابر) ورحيل الشيخ (دومة). وسألني (عمرو) السؤال الذي كنت أراه في عينيه منذ جلسنا:

- وماذا عن (الليث) و(أروى)؟ هل رافقا أبي إلى سبأ؟

قلت:

- كلا، خرج (الليث) و(سويطر) إلى «يثرب» مع الشيخ (أواس) لأجل التجارة.

ثم أردفت بعد لحظة من صمت:

- أما (أروى) فقد مكثت في «بكة» حتى تضع مولودها.

رأيت خيبة الأمل والحزن على وجهه، تنفس في عمق ثم قال في أسى:

- تزوَّجتْ (أروى)؟!

قلت:

- نعم.

قال متألمًا:

- ممن؟

قلت:

- مني أنا.

قال ناهضًا:

- أنت يا (شمعون)؟!

قلت في حسم:

- نعم، وأنجبت لي (إيرام).

قام من مجلسه واستدار ليخفي وجهه عني، سار خطوات ثم وقف إلى نافذة البيت الخوصي التي تطل على البحر وأشرف منها برأسه وكأنه يتلقف من الهواء، ظل صامتًا إلا من صوت أنفاسه التي سمعتها تتلاحق مع صوت أمواج البحر، لاذ (شهير) بالصمت وكأنه في حلم بمعاناة رقيقة، بينما أخذت (مروى) تنقل بصرها بيننا في تعجب وقد ساورها الشك فيما يحدث.

كنت أشعر بالإشفاق تجاهه، فما أقسى أن يعود الإنسان بعد الغربة ليجد الشمل وقد تفرق، والحبيبة وقد غادرت، كنت أتوقع منه الغضب أيضًا، ولكني سمعته يقول في رفق وهو ينظر جهة البحر:

- أتدري يا (شمعون)؟ ما هو أكثر شيء أحزنني طيلة تلك السنوات؟

لم ينتظر مني الجواب، بل أردف قائلًا:

- إني كنت أشعر بأنني قد ظلمت (أروى)؛ فلا أظلم من أن نرهن حياة من نحب على تصاريف الأيام.

ثم تابع:

- كنت اليوم تضني أني خطبتها من أبيها، ثم تركتها وأنا لا أدري هل سأعود إليها أم لا.. يوم ركبنا السفينة أنا و(شهريار) من «غرناطة» بعد وفاة عمي الشيخ (ثابت)، تمنيت أن أعود إلى أبي وأقول له: (أروى) في حل من خطبتي! طيلة تلك الأيام كنت أتمنى ألا يحرمها أبي أو جدي من أن تتزوج بمن يكفيها ما عانت بعد فقدان أبيها.

ثم التفت وهو يحبس دمعة في عينيه ويقول:

- مباركٌ لك يا (شهريار)! لو كان لي أخت لزوجتك إياها!

قمتُ من مجلسي فاحتضنته وربتُّ على ظهره في قوة وأنا أقول:

- نعم الأخ أنت يا (عمرو)، حمدًا للرب أن عدت إلينا سالمًا.

ثم قلت مازحًا كي أخفف من حدة المشاعر:

- شكرًا لكِ يا (هوى) أنكِ قد أتيتِ بنا إلى هنا.

كانت (هوى) تمسح دموعها بعد كل ما سمعت، فقال (عمرو) وكأنه تنبه لوجودها:

- من الفتاة؟ وما قصتها؟

قلت ضاحكًا:

- هذه هي (هوى) ربيبة الشيخ (ثابت)، وصديقة (أروى) في الصغر.

قال (عمرو) وكأنه قد تذكرها:

- أنت (هوى) الطفلة المشاكسة التي كانت تُطارد صبيان الحي بالحجارة في صغرنا؟

مسحت (هوى) دمعتها وقالت وهي تلقي إليه بنظرة حنين لم تخف علينا:

- وأنت (عمرو) أنبل أطفال الحي، الذي كان يدفع عني وعن (أروى) غباء الصبيان!

ضحكنا ثم قلت لهم، وأنا أدعوهم للتحرك:

- هيا بنا نعد إلى البيت، ستفرح (أروى) و(أم السعد) بمجيئكما.

ثم أردفت:

- كما أنني أريد أن أعرف منكما كيف وصل بكما الحال إلى «الخيمة».

وبينما كان (عمرو) يتجاذب أطراف الذكريات مع (أروى)، همست في أذن (شهدي) السائر إلى جواري:

- الأمانة لا تزال معي، سوف أردها إليك حين نعود إلى الخيمة.

فانفرج وجهه بالسعادة وأسرع الخطى حتى فقدته سريعًا متمرجحًا من الفرح.

• • •



الورقة الثالثة والخمسون

كانت هذه هي أفضل ليلة أمرّ بها، منذ خروجي من «قادش برنيع»، فهجمت بذهني الذكريات واستعدت أيام اللقاء الأولى مع قبيلة الشيخ (عامر) في تل العراد.. فرحت (أروى) و(أم ضمعد) بمقدم أخيها (عمرو)، وأرادت (أم السعد) أن تعد له عشاء يليق بمقدمه، لم تجد لحمًا، فاحتلبت حليبًا طازجًا، وأضافت إليه السمن والعسل، فأكلنا وشربنا، ثم أوت النسوة إلى فراشهن وجلسنا أنا و(عمرو) و(شهبور) خارج المنزل، أشعلنا الحطب، وجلست أستمع إلى ما رواه (عمرو) و(شهبور)، فاكتمل في عقلي ما بدأه (دهر) من قبل، وقررت أن أكتب عن تلك الرحلة فصلًا في كتابي يكون فيه خبر ما وقع من أحداث لـ(عمرو بن دومة) والتاجر (شهبور)، منذ خروجهما من «الغرندل» وحتى وصولهما إلى «الشعيبة»، وهذا ما ورد على لسان (شهبور):

«انطلقت بنا السفينة من خليج «لحيان» في فجر تلك الليلة التي هربنا فيها من «غرندل»، كان (جندان) وجنوده قد وصلوا إلى الشاطئ فوجدوا السفينة تشق عباب البحر ولا يبدو منها إلا صواريها، فعادوا أدراجهم وقد يئسوا من الوصول إلينا، ورغم أننا كنا في أمان، لم أدع الحذر يفارقني، وأمرت البحارة بألا يكفوا عن الدفع بالمجاديف ليل نهار، وقسمتهم إلى فرقتين؛ فرقة تجدف بالنهار والأخرى تجدف بالليل، إلى أن لاح لنا في الأفق شاطئ مجمع البحرين.

صمت قليلًا ليزدرد لعابه، ثم قال:

- تركنا السفينة التي أتينا بها من عُمْدان، ومكثنا في «مجمع البحرين» عدة أيام، اشتريت خلالها بضائع بكل ما تبقى معي من النقود وقمنا بنقلها إلى السفينة التي ستقلنا إلى «كوش»، وكانت تلك السفينة ضخمة، يعمل بها قرابة المائة بحار، فضلاً عن العمال والتجار.

وفي صبيحة يوم السفر، علا بوق السفينة، استعداداً للرحيل، وصعد الناس إلى سطحها، وصعدت أنا و(عمرو) ورجالي، وتحركت بنا السفينة فوق الموج الهادئ تحيط بنا سفن أصغر ومراكب صيد خرجت كلها تبغي الرزق من البحر وقد استطرنا جيرانا بسطة لا يعكر صفوها شيء، وما أن استقبلنا الأفق وابتعدنا عن الشاطئ حتى وجدنا البحر وقد انتشرت به عشرات السفن التي تحمل الرايات الأدومية، تتقدم تجاهنا من ناحية الشرق، هرولت إلى رئيس البحارة الكوشي وأنا أطلب منه أن يستغير عائداً، وحذرته من أن السفن الأدومية تقطع الطريق، وتغتصب السفن، ولكن الرجل لم يتخيل أن أحداً قد يقطع طريق البحر على أناس يبتغون الرزق، فاستمر في الإبحار قدماً وكأنما ظن بي الجنون.. حينئذ أبحرت إحدى السفن الأدومية تجاهنا ورأيت (جندار) يقف على متنها وهو يلوح بيده في الهواء تجاه قائد السفينة الكوشية يأمره بالوقوف، لم يأبه قائد السفينة لإشارات (جندار) أو لعله لم يفهمها، فارتفع صوت البوق من فوق سفينة (جندار) ثلاث مرات قبل أن يشتعل البحر فجأة، انطلقت عشرات السهام المشتعلة من فوق سفن الأدوميين نحو السفينة الكوشية، شقت السهام طريقها ورشقت بين الألواح فأمسكت النيران في جانب السفينة، أدرك قائد السفينة الكوشي خطأه، فحاول أن ينقذ حولته فأدار الدفة في قوة وأمر رجاله بالتجديف في سرعة، ولكن جانب السفينة المائل تلقى دفقة أخرى من عشرات السهام المشتعلة. وأمسكت النيران هذه المرة في بعض البحارة، فعلا الصراخ وعم الذعر، وقذف بعض الناس بأنفسهم في المياه هرباً من النيران المحيطة بهم، ولم تحتمل السفينة دورتها فمالت إلى جانبها وأوشكت على الغرق.

صمت مرة أخرى وكأنما أرهقه التذكر أو أثار أحزانه، ثم عاد إلى حكايته فقال:

ـ وما أن رأى (جندار) صيده وقد أوشك على السقوط، حتى أسرع بسفنه نحونا، كي يجمع ما يستطيع من الغنائم، ولم يكن أمامي أنا و(عمرو) سوى القفز في المياه رغم أننا لا نجيد السباحة ولكننا فضلنا الموت غرقًا، على الموت حرقًا أو الموت في سجون الأدوميين، ولم تمر سوى لحظات بعد أن قذفت بنفسي في الماء حتى كلّت يداي من التطويح، وشعرت بجسدي كله يتصلب، وكأنما استسلم للغوص إلى قاع البحر، وشعرت بأنها النهاية، ولكن فجأة أمسكت يداي بحبل لم أدر من أين أتى، تشبثت به في قوة، وقد أدركت أنه حبل النجاة وفرصتي الأخيرة للحياة، وجدت نفسي منجذبًا به وقد غمر الماء وجهي وصدري وأنفي، ظننت أن أمر يغرقني، ولكنني بعد قليل رحلتي مسطولًا بأيام متعددة ووجدت نفسي مستلقيًا على سطح سفينة صيد صغيرة وإلى جواري (عمرو) وحولنا عدد من الصيادين.

سكت قليلًا ثم قال في أسى:

ـ أعادتنا السفينة التي كان يمتلكها شاب في مثل عمرك إلى مرفأ «مجمع البحرين»، فعدنا كما بدأنا، وقد فقدنا أموالنا وتجارتنا والكثير من رجالنا، ومكثنا أيامًا في مجمع البحرين ضيوفًا على هذا الشاب وأهله، نتقاسم طعامهم على قلته، فقد أصبح البحر محظورًا، لا يخوض غماره أحد خشية الرعب القابع في خليج «لحيان».

صمت قليلًا ثم أردف:

ـ كادت الحسرة أن تقتلني، وشعرت بأنني سأظل حبيسًا في ذلك المرفأ، وتمنيت أن نصل إلى «بكة» بأي طريقة كانت، وكنت أخرج في كل نهار إلى صخرة عالية كالهضبة عند ملتقى البحرين، أشرف من فوقها نحو الأفق، وأتمنى لو أجد مركبًا ـ ولو صغيرًا ـ يأخذني إلى أي مرفأ بعيدًا عن خليج «لحيان».

وفي يوم من الأيام بينما كنت آوي إلى الصخرة وكان (عمرو) يعاون الصيادين في بعض أعمالهم، إذا برجلين يأويان إلى الصخرة في موضع قريب مني، أحدهما شيخ كبير ولكنه قوي البنية، جهوري الصوت، والآخر شاب فتي يحمل على كتفه زنبيلًا به طعام، علمت من رائحته أنه سمك، كان الإرهاق يبدو على الرجلين، وكأنهما قد أتيا من سفر بعيد، ترك الرجلان متاعهما واستلقيا إلى الصخرة ثم ذهبا في نوم عميق.

لا أدري كم من الوقت قد مرّ وأنا فوق الصخرة، أتأمل شاطئ البحر وأتفكر في حالي، حتى أحسست بريح لطيفة تهب إلى جواري، شعرت معها بأن أحدًا قد مرّ إلى جواري، وتلفت حولي فلم أجد شيئًا. نظرت إلى النائمين فوق الصخرة، فوجدتهما على حالهما، ولكني رأيت شيئًا جعلني أشعر بالرهبة والخوف.

تابع وقد ارتعش صوته وكأن الرهبة لا تزال ترافقه:

- رأيت زنبيل الطعام يتحرك، وكأنما دبّت به الحياة، وفجأة انفتح الزنبيل من فُرجة صغيرة خرجت منها سمكة، ظلت تتلوى فوق الرمال وكأنها تبحث عن قطرة ماء تعينها على استعادة الحياة، انكمشت في مجلسي، وقد ظننت أن جنيًّا يعبث بي فوق تلك الصخرة، ويمارس بعض الألاعيب أمامي، ولكن الموج ارتفع فجأة وطالت مياهه السمكة، فتلوت بشدة ثم قفزت قفزة طويلة إلى البحر.

أيقظ رذاذ الموج الفتى النائم، فقام متثائبًا، وحين نظر إلى الزنبيل وجده مفتوحًا ولم يجد سمكته، لعله ظن أن طائرًا قد التقطها، فقام إلى حافة الصخرة ونظر إلى البحر فلم يجد أثرًا لطائر. لكنه وجد السمكة تدور في الماء أسفل الصخرة، أردت أن أقول له إن تلك السمكة هي سمكته، ولكني خشيت أن يتهمني بالجنون، أو أن يظن بي السرقة.

عاد الشاب، فأيقظ سيده في رفق، ثم حمل زنبيله وانصرفا.

وشعرت بالخوف من البقاء فوق تلك الصخرة التي تعبث بها الشياطين.

فقمت من مجلسي وقررت العودة إلى المنزل، ولكن الفضول دفعني؛ لأن ألقي نظرة أخرى على السمكة، فوقفت على الحافة ونظرت إلى البحر، فإذا بي أراه.

صمت وقد علت أنفاسه، ثم لمعت عيناه وهو يقول:

- رأيت شيخًا لم تر عيني مثله قط في البهاء والرهبة، يحيط النور بوجهه وكأنما أشرقت الشمس على صفحة وجهه وحده، يتكئ على عصاه ويقف على صفحة الماء دون أن تبتل قدماه، تدور السمكة حوله وتتقافز لتمس راحة يده، وكأنها كلب يقفز ليقبل يد سيده.

ارتجفت حرقًا وعدت إلى الدار، وحين عاد (عمرو) لم أحدثه في الأمر، وكتمت الأمر عن الجميع، واستقر في نفسي بأني كنت متوهمًا، وأنه ربما دفعني الجوع والشمس والوحدة فوق الصخرة، إلى ذلك التصور.

وذات صباح أراد الشاب الذي أعطانا الخروج إلى «عصيون جابر» مع بضعة مراكب أخرى للصيد، فقد كان هذا الجزء من البحر هو الأكثر أمانًا في الخليج، واقترح (عمرو) أن نرافقه لعلنا نجد سفينة أخرى أو وسيلة تحملنا إلى مكان يقربنا من «مكة»، واتفق (عمرو) مع صاحب السفينة أن نعمل بها، وأن نعين البحارة في التجديف حتى نصل إلى هناك، مقابل أن يحملنا معه في رحلته.

وفي يوم السفر، عج المرفأ بمراكب الصيد التي سترحل إلى «عصيون جابر» ووقفت أنا فوق السطح أتطلع إلى الشاطئ، وأرقب الناس وهم يصعدون إلى السفن والمراكب، فجأة رأيتهما مرة أخرى، الشيخ الأبيض وخلفه الرجل القوي، ارتجف قلبي حين رأيتهما، وبقدر دهشتي كانت سعادتي! فقد أيقنت حينئذ أنني لم أكن واهمًا حين رأيتهما عند الصخرة! ولكنني تساءلت: ما الذي جمعهما مرة أخرى؟

نادى الشيخ على الشاب صاحب السفينة بصوت نافذ، يصل إلى القلب وقال:

- انتظروا! نريد أن نرافقكم.

ورغم أن السطح كان مكتظًا بالناس، استجاب الشاب بغير جدال وأفسح لهما الطريق، فصعد الشيخ ورفيقه، دون أن يسأهم أحد عن قبض أو مال، ولأنني كنت أقف إلى جوار السلم، مددت يدي فأمسكت بيد الشيخ كي أعينه على الصعود إلى السطح، والتقت عيني بعينه، إن قلت لكم إني قد شعرت بأن السكينة قد غمرتني، وكأنني مست يد ملك من السماء، فسأكون مقصرًا في الوصف، فيا حلاوة اللمسة، ويا لطف النظرة! وقفت غير بعيد أترقب كل حركة يقوم بها وكل كلمة يهمس بها في أذن الرجل القوي الذي وقف إلى جواره مطأطئ الرأس، خافض الصوت، وكأنه صبي في حضرة معلم.

صمت لحظات، ثم تابع:

- غابت عيني عنهما للحظات، ثم استدرت ثانية ولم أجدهما على السطح، بحثت عنهما بين الوجوه التي ملأت السفينة فلم أجدهما، خطر لي أنهما قد يكونان قد نزلا الدرج إلى أسفل السفينة، فانصرفت في سيري ثم هبطت الدرج، فرأيتهما دون أن ينتبها بي في الخارج.. كان الشيخ يجلس القرفصاء، وقد وقف خلفه الرجل القوي، سمعت طرقًا ولكنني لم أعرف ما الذي يفعلانه إلى أن سمعت صوت الرجل القوي يقول في حدة بصوته الجهوري:

- أخرقتها لتغرق أهلها بسوء فعلتك؟

قام الشيخ من جلسته، وقال في تحذير غاضب:

- ألم أقل لك لا تتبعني؟

صمت الشيخ الآخر وانطفأ وميض غضبه وعاد كالصبي المطيع وهو يقول:

- معذرة على ما قلت.

لم يلتفت إليه الشيخ، وقال:

- هيا بنا.

حينها صعدت أنا الدرج مسرعًا ووقفت على السطح وأنا ألهج من الانفعال، ماذا أفعل؟ هل أخبر صاحب السفينة بما حدث أم أصمت؟ حدثني يقول:

إن هذا الشيخ الجليل لا يمكن أن يأتي بفعل شنيع كهذا إلا لسبب أجهله.

فجأة عاد الشيخ ومعه رفيقه، قال الشيخ لصاحب السفينة الذي كان يأمر رجاله برفع السلم استعدادًا للرحيل:

- المعذرة أيها الفتى! تلك ليست وجهتنا.

أرخى الشاب السلم مرة أخرى، فهبط الشيخ وتبعه رفيقه، وما هي إلا لحظات حتى غابا وسط الجموع الواقفة على الشاطئ، كدت أصرخ وأقول للناس: لا تتركوهما، لقد خرقا السفينة، ولكن لساني خرس، ولازمني الصمت وكأنني حجر أصم، وانطلق النفير الأخير وتحركت السفينة تشق العباب في اتجاه الشمال.

سكت لحظات ثم قال:

- ورآني (عمرو) مرتعشًا ومتقع الوجه، فقال لي:

- ما بك؟ هل أصابك البحر بالدوار؟

لم أجد ما أقوله، فأومأت له برأسي وقلت في صعوبة:

- ربما.

ابتعدنا عن الشاطئ وكنا في منتصف المسافة بين «مجمع البحرين» و«عصيون جابر» حين علا صوت البوق فوق الصاري وأشار الدليل المعلق فوقه تجاه الأفق وهو يقول صارخًا:

- سفن إدومية!

اشتد الهرج والمرج، وتجمع الناس عند مقدمة السفينة ينظرون في وجل إلى سفن الإدوميين التي كانت تبحر تجاهنا في سرعة.. اضطرب الشاب صاحب السفينة وأسقط في يده وهو لا يدري ماذا يفعل؛ إن حاول الدوران تساقط عليه سهام الإدوميين المشتعلة، وإن انتظر سيسطون على سفينته، فجأة علا صراخ آخر ورأيت رجلًا يقف على الدرج وهو يقول:

- الماء يتجمع في قاع السفينة، سنغرق جميعًا!

أسرع قائد السفينة إلى القاع الذي امتلأ إلى منتصفه بالمياه، ونسي أمر السفن الآدومية، فقد كان الوضع داخل السفينة في تلك اللحظة أخطر من خارجها، أمر الجميع بأن يقوموا بنزح المياه من القاع حتى لا تغرق السفينة.. تراص الرجال في صفوف امتدت من القاع إلى السطح؛ وتنقلت الأواني المملوءة بالمياه المنزوحة من القاع من يد إلى يد إلى أن أفرغتها اليد الأخيرة في البحر؛ أما أنا فكنت أعاونهم في نقل الماء، ولكن عيني لم تغب عن سفن الآدوميين التي اقتربت منا بشدة.

وفجأة ارتفع بوق السفن الآدومية تأمرنا بالوقوف، توقف البحارة عن التجديف، اقتربت منا إحدى السفن ووقفت بمحاذاتنا؛ كان عليها ضابط وثلة من الجنود المصريين المدججين بالأسلحة وهم ينظرون تجاهنا في حذر.

لاحظوا ما نقوم به من نزح المياه فتفحص الضابط قليلاً ومال على أذن أحد الجنود وتحدث إليه بكلمات، اعتدل الجندي ثم تقدم نحونا وقال:

- ما الذي يحدث عندكم؟!

لم أنتظر أن يرد صاحب السفينة أو أحد من البحارة، فقلت بصوت عالٍ:

- تحطم قاع السفينة وتوشك السفينة على الغرق!

همس الجندي في أذن الضابط بما قلته، فأومأ برأسه ثم علا صوت الجندي وهو يشير بيده لباقي السفن:

- افسحوا الطريق لتلك السفينة!

فصرخت أنا بصوت عالٍ قائلاً للبحارة:

- استأنفوا التجديف، الطريق مفتوح.

واتسعت فُرجة بين السفن الآدومية، مررنا من خلالها قبل أن تطبق طرفيها مرة أخرى، لتحجز باقي السفن عن المرور، وكأنما كان الخرق الذي صنعه ذلك الشيخ في قاع السفينة هو السبب في فرجة النجاة التي عبرنا منها من بين السفن الآدومية.

وحين هبطنا في ميناء «عصيون جابر»، تلاشت رغبتي، في السفر إلى «كوش» أو إلى مكان. وقررت العودة مرة أخرى إلى «مجمع البحرين»، كي أعرف سر ذلك الرجل حتى وإن مكثت عمري كله هناك.

وتوقف (شهيور) عن الحديث، بعد أن اشتد به التعب، فاستأذن في النوم على أن يستكمل حكايته في اليوم التالي، فأطفأنا نيران الحطب، وقمت وعندي شغف بأن أعرف سر ذلك الرجل الذي غير من حياة (شهيور) وترك فيه ذلك الأثر.



الورقة الرابعة والخمسون

استيقظت مبكرًا في الصباح، وكان الجميع لا يزال نائمًا، خرجت إلى صومعة الحطب، فوجدت غلامي الحبشي قد سبقني إلى هناك، وقد أعدّ الألواح المكشوطة، التي صقلناها، وصعدنا بها إلى السفينة، بدأ (جديس) العمل على التجاليد، وأمرني بأن أنزل إلى القاع مع اثنين آخرين كي نتحقق مما يكون قد لحق بقاع السفينة من أضرار، حين دخلت إلى القاع، تذكرت قصة (شهبور) التي حكاها لي في الليلة السابقة، أدركت أن قاع السفينة هو أخطر جزء فيها، تتحمل أخشابه لطمات الأمواج، وصدمات الصخور، وتبدو علامات الاصطدام بالقاع كندبات الجروح، لكل منها ذكرى ومغامرة في ذلك البحر المخيف المتلاطم الأمواج.

لم يكن حال تلك السفينة سيئًا، فرغنا من العمل بها بعد الظهيرة بقليل، وحين صعدت إلى السطح نقدني (جديس) كيسًا من المال به خمسون قطعة، اشتريت سمكًا مطبوخًا وخبزًا من السوق، وعدت إلى المنزل. فوجدت (أروى) وحدها وقد بدا عليها القلق حين رأتني. سألتها وجلًا:

- ما بكِ؟ وأين (إبرام)؟

قالت في تردد:

- أخذته (أم السعد) إلى عرس (عمرو) ابن عمي.

قلت في لهفة:

- لماذا؟

قالت في تردد:

- كي... يختنه!

قلت لاثمًا فعلهما:

- يختنه؟! ولماذا لم تنتظرا عودتي؟

قالت وهي تشيح بوجهها في خجل إلى (أم السعد):

- إنك ستنقص حنانه لأنك لست من قومنا!

لم أمالك نفسي من الضحك، فقلت:

- ولماذا أرفض ختانه وأنا أيضًا مختون؟!

نظرت نحوي في دهشة وقالت:

- حقًا يا (شمعون)؟!

قلت لها وأنا أخبط على رأسي غير مصدق:

- تزوجنا منذ عام، ولا تدرين إن كان زوجك مختونًا أم لا؟!

قذفتني بثمرة بصل وقالت في خجل:

- وما أدراني أنا بأشياء الرجال يا (شمعون)؟!

ثم كتمت ضحكتها أكثر من مرة وهي تتردد في البوح بشيء ما، فقلت لها:

- قولي ما عندك ولا تكتمي شيئًا.

قالت وهي تكتم ضحكتها:

- أتدري أن (أم السعد) كانت تتندر عليك قبل ليلة زفافنا. قالت لي: كيف تتزوجين رجلًا غير مختون؟! ولكن زوجة خالي قالت لها: وما الضير في ذلك؟ خالها (أواس) لم يختتن، وكل (بني عيل) لا يختتنون، ثم قالت لـ(أم السعد): «الزيادة خير من النقصان في هذه الأشياء يا أم السعد»!

أفلتت منها الضحكة التي كتمتها طويلًا ثم قالت:

- والآن أدركت أن بك نقصًا يا (شمعون).

وضعت السمك جانبًا، ثم قذفتها بثمرة البصل وأنا أندفع نحوها بجسدي، حاولت أن تفر ولكني أمسكتها وقيدت ذراعيها بيدي خلف ظهرها وهي تحاول أن تتملص مني، قبّلتها في شفتيها رغمًا عنها وأنا أقول:

- حسنًا! سأريك نقصي الآن!

ظلت تشيح بوجهها حتى لا أُقبّلها وهي تضحك قائلة:

- كلا يا (شمعون) لم تمر أربعون ليلة!

تذكرت شريعة (أم السعد)، فأفلت يديها وأنا أقول:

- سحقًا! ألن تنتهي تلك الأيام؟! لا أدري من وضع تلك الشريعة!

قالت وهي تقطب حاجبيها:

- شرعها من شرع الختان علينا وعليكم

ثم قالت متفكرة:

- أظن يا (شمعون) أن الرب قد شرعها؛ لأن المرأة لا تشتهي الوصال في تلك الأيام، فقلبها يكون مُعلّقًا بوليدها أكثر من زوجها.

قلت مازحًا:

- كرهت (أم السعد) من قبل، وبكلامك هذا سأكره (إبرام) أيضًا!

قالت معاتبةً وهي تخفض حاجبيها وتشير بإبهامها للخلف، كي تذكرني بما قيل:

- تزوج الثانية كما نصحتك (مريم)!

قلت باسمًا:

- أخبرتك (أم السعد) إذن؟!

ضيقت عينيها وقالت لتثير غيظي:

ـ تخبرني (أم السعد) بكل شيء!

ثم قالت مهددة:

ـ عمورًا اعطها يا ابن (زومانا)، حتى أجعلك نُصبًا إلى جوار (إساف) و(نائلة).

انفجرت ضاحكًا، وقلت:

ـ كيف تجرُئين؟

قالت حانقة:

ـ بدعائي! ما الرب لم يجب دعائي في يوم من الأيام.

ثم قالت في حنان:

ـ دعوته وأنا طفلة كي أراك مرة أخرى، فرأيتك، ودعوته وأنا فتاة كي أتزوجك فتزوجتك، ودعوته وأنا زوجتك كي يرزقني منك بالولد فرزقني.

أثار حنانها مشاعري، فضممتها إلى صدري وتنهدت وأنا أقول:

ـ أفلا دعوتيه أن يجمع شملي بأمي؟!

قالت متضرعة في ضيق:

ـ أدعوه! أدعوه يا (شمعون) كل يوم، ولن يجيب الرب رجائي.

حينئذ سمعنا صوت بكاء الطفل خارج الباب، ثم دخلت (أم السعد) وقد تلطخ قماطه ببعض الدماء، أسرعت (أروى) نحوه تحمله في لهفة، وألقمته ثديها ليكف عن البكاء ثم دخلت به إلى الحجرة كي ينام.

سألت (أم السعد):

ـ أين (شهبور) و(عمرو) و(هوى)؟ قد اشتريت سمكًا مطبوخًا من السوق لنأكله.

قالت في حدة:

ـ ذهب (شهبور) للقيلولة، وتجول (هوى) مع (عمرو) في المرفأ.

ثم أردفت في غيظ:

- اسمع يا (شمعون)! أنت من أحضر (هوى) إلى هنا، والفتاة لا ولي لها ولا رادع، فإما أن تسير بالعُرف بيننا وإما أن تفارقنا بالمعروف.

أدركت أنها لا ترضى بقرب (هوى) من (عمرو)! هي لا تنسى أن (هوى) يتيمة وربيبة خالتها الناصحة، وأن (عمرًا) هو سيد (بني يطون) المرتقب، قلت لها هادئًا:

- كنت سعيدة بها من قبل!

قالت منفعلة:

- سعدتُ بها لأجل (أروى)، ولكني أراها اليوم تحوم حول سيدها، وما يجوز لها أن ترتقي ذلك المرتقى.

ثم قالت باكية:

- عشتُ عمري كله في خدمة الشيخ (عابر) رحمة الله، وأحفاده بعد وفاة زوجه، فما حدثتني نفسي يومًا بأن أطمع فيما ليس لي بحق، أو أن أتعلق بأحبال كرمه كي أرتقي منزلة فوق منزلتي، واكتفيت بخدمة أحفاده حتى بعد مماته!

أدركت أن المرأة تبكي على حالها وتأسى على ماضيها، وما غضبها على (هوى) إلا لأنها قد أتت بما لم تستطع هي فعله، لم تستسلم (هوى) لأقدارها كما استسلمت هي من قبل، اقتربتُ منها وربت على كتفها، وقلت لها مواسيًا:

- كلنا عبيد الرب يا خالة، وقد علمني الشيخ (عابر) أننا جميعًا سواسية، لم ينطق ذلك بلسانه ولكني رأيته في فعله، فلم يبخل عليّ بعلم ولا بصحبة، بل وزوّجني حفيدته، وأنا الغريب الفقير!

قالت وهي تمسح دموعها:

- أنت رجل يا (شمعون)، ولا يضير الرجل يُتم ولا غربة.

قلت لها:

- لو كان الشيخ (عامر) حيًا، لكره كلامك هذا، فما رأيت أحدًا أحب إلى قلبه من (أروى) وهي فتاة.

ثم ربتت على كتفها مرة أخرى وأنا أقول:

- هوّني عليك يا (أم السعد)، ودعي أمر (عمرو) لـ(عمرو)، وما كان لـ(أروى) أن ترتضي منزلة لم يكتبها الله لها!

ثم قلت:

- هيا لكما فقد حان وقت القيلولة.

• • •



الورقة الخامسة والخمسون

في المساء جلسنا أنا و(شهبور) وخلفنا تدفئنا كومة الحطب المشتعلة، فقد شعر (عمرو) بالتعب من التجوال في المرفأ طيلة النهار فآثر النوم على السمر.. استأنف (شهبور) ما بدأه في الليلة السابقة فقال:

ـ لم نمكث في «قصيور حلو» سوى صبيحة اليوم، فقد كان المرفأ صغيرًا والصيد أيضًا كان قليلًا، عثرنا على صاحب السفينة العائدة إلى «مجمع البحرين»، أبحرنا بمحاذاة الشاطئ، وحمدنا الله أن السفن الآدومية لم تكن تجول في خليج لحيان أثناء عودتنا، حين وصلت إلى «مجمع البحرين»، قررت أن أقتفي أثر ذلك الرجل، وخرجت أسأل عنه في كل مكان، كان وصفه سهلًا، فليس من المألوف أن ترى رجلًا يرتدي زيًّا أبيض ناصع البياض لا يطوله دنس الطريق في تلك الصحراء، وصلت إلى أول منازله، أخبرني بعض الناس أنهم رأوه في قرية غير بعيدة تقع بالقرب من الساحل، تركت (عمرو) في «مجمع البحرين»، وحملت معي متاعًا خفيفًا وركوة ماء، وخرجت أتحسس الأخبار في تلك القرية، سألت صيادًا من أهل القرية عنه، فنظر الرجل نحوي متفحصًا ثم قال:

ـ هل أنت من أهل الغلام القتيل؟

اندهشت من كلامه فقلت:

ـ أي غلام قتيل؟

قال الرجل وقد بدا أنني أثرت شكوكه:

ـ الذي قتله ذلك الشيخ!

قلت له وأنا أفغر فاهي دهشة:

ـ قتله الشيخ؟!

قال الرجل:

ـ نعم، والقرية كلها تبحث عنه لتقتص منه، بعد أن قتل (ابن سلاس) و(رحمة).

قلت وقد رأيت الشر في عينيه:

ـ نعم، أنا قريب لـ(سلاس) و(رحمة)! الرحلة الشاقة التي خضتها فقد غبتُ عن القرية لزمن طويل.

لا أدري لماذا أردت أن أرى أهل القتيل؟ هل لأتأكد من صدق الرجل، أم لأمر آخر حالك في صدري؟ وهو أن الرجل لم يفعل فعلته إلا لحكمة لا يعلمها غيره.

وصلت إلى دار (سلاس)، طرقت الباب ففتحت لي امرأة تقدمت في العمر، تلفتت بأذنها يمينًا ويسارًا وهي تقول:

ـ من الطارق؟

أدركت أنها قد كُفَّ بصرها أو كاد، فقلت:

ـ غريب يا خالة! جئت لأرى الشيخ (سلاس)!

أفسحت المرأة الطريق ودعتني للدخول وهي تقول:

ـ يرقد عاجزًا على أريكة في الصحن! ادخل يا بني.

يا الله! أي بؤس يعيش فيه هذان الزوجان حتى يموت غلامهما الذي يعولهما! وأي شيء دفع ذلك الشيخ إلى قتله كما يقولون؟!

جلست إلى الرجل العاجز فقلت:

ـ عوّضك الله خيرًا في مصابك يا شيخ (سلاس)!

قال الرجل بصوت مرتعش وهو يهز يدًا مرتعشة:

ـ أعزك الله أيها الغريب، من أنت؟

قلت:

ـ غريب، جئت من مكان بعيد كي أقتفي أثر قاتل ولدك؟!

صمت الرجل لحظات ثم قال وكأنما ثقلت الكلمات على لسانه:

ـ وهل وجدته؟!

قلت:

ـ لو كنت وجدته ما كنت أبيك!

صمت الرجل مرة أخرى، ثم قال بجهد:

ـ ولن تجده! وهل يجد الإنسان ملك الموت؟!

شعرت برعدة في جسدي وقلت:

ـ ملك الموت؟!!

قالت المرأة التي كانت تستمع إلى حديثنا:

ـ جاء فقبض روحه ثم انصرف! فمن يفعل ذلك سوى ملكٌ أرسله الله إلينا استجابة لدعائي!

قلت مشدوهًا:

ـ دعوتِ على ولدك بالموت واسمك (رحمة)؟!

قالت المرأة في حسرة:

ـ حين تصير النعمة نقمة، يدعو المرء ربه بأن يسترد نعمته، ويتعلم المرء أن ليس كل ما يتمناه الإنسان لنفسه خيرًا.

ثم أردفت بصوت باكٍ:

- كنت عاقرًا وكان زوجي هذا قد بلغ من الكبر ولم ننجب ولدًا يعيننا في شيبتنا، ظللت أدعو الله في كل وقت أنا وزوجي أن يرزقنا بالولد، ولم أدع يومًا إلا وقدمت فيه قربانًا للرب كي يهب لي غلامًا تقر به عيني، وحملت بالولد قبل أن ينقطع حيضي بعام، وزوجي هذا شيخ قد وهن منه العزم والعظم!

صمتت قليلًا ثم تابعت في حسرة أخرى:

- وكبر الفتى، فإذا بالنعمة التي كنا نرجوها تنقلب نقمة، وإذا بالعون الذي رجوناه في شيبتنا يصير عوزًا لنا وذلًا، أضاع الفتى أموال أبيه، لم يحن عليه بالبر والطعام، ولم يرحم عجزه وضعفه، ثم صرنا نعاير به بعد أن هجرنا وسار مع الفجار وقطاع الطريق، يتكسب بالسرقة ويقطع الطريق على عابري السبيل.

ثم بكت وهي تقول:

- أبكاني حتى جف ماء عيني، فدعوت الله أن يرحمني منه وأن يبدلني خيرًا منه.

صمتت دمعتها ثم قالت:

- وذات صباح سمعت طرقًا على الباب والناس تقول: قُتل ابنك يا (رحمة)، قُتل ابنك يا (سلاص)، ظننت في بادئ الأمر أنه قد قُتل في عراك مع الأشقياء، ولكن حين علمت ممن قتله تعجبت! قالوا: إن شيخًا كبيرًا غريبًا قد جاء إلى القرية، فلقمه بحجر فمات، ضربه هو وحده بالحجر من بين الأشقياء ثم انصرف! أيعقل أن تكون تلك الحادثة مصادفة؟! كلا والله! إنما هو قدر الله قد أرسله في هيئة هذا الشيخ كي ينفذ دعوتي!

حينها صمت (شهبور) قليلًا وقد أصابته رعدة، شعرت بها في جسدي أيضًا، ثم استأنف حديثه قائلًا:

- فقلت للمرأة:

- وهل استجاب الرب لدعائك، وأبدلك خيرًا منه؟

أدارت رأسها ونادت قائلة:

- يا (تمار)!

خرج صبي صغير من حجرة في البيت، شديد الرقة والجمال، وقال:

- نعم يا أماه!

ثم قالت:

- أبدلني الله بطفل يتيم من أبناء القرية، وجدته أذكى نفسًا وأرحم علينا من ولد أنجبه رحمي!

تنهدتْ ثم قبّلت الفتى وانصرفت وأنا أستعيد كلماتها، وتردد في نفسي سؤال ارتجف له جسدي، مَنْ هذا الرجل الذي مست يدي يديه فوق المركب؟ أإلى إنسان مسحت يد ملاك من السماء، أم مست يدي يد القدر؟

• • •

بعد يوم لم أستطع أن أنتظر حتى قدوم الليل لكي أستمع إلى (الصبوري)، عدتُ من المرفأ وقت القيلولة، فذهبت إلى مرسه الخوصي على الشاطئ مباشرةً ولم أعد إلى منزلي في قرية الصيادين، وجدته وحده فقد كان (عمري) لا يزال في عمله مع البحارة، أدرك من شغف عيني أني قد أتيت لسماع باقي القصة، جلست على الرمال، فترك أريكته الخشب وجلس إلى جواري، أسندنا ظهرينا إلى حائط الخوص، ونظرنا من فتحة الباب إلى البحر الذي ضاهت زُرقته زُرقة السماء، وقال وهو يصوب بصره في الأفق:

- خرجت من القرية، أتبع كل طريق سار به، وكل شجرة استظل بظلها، وكل حائط جلس إليه، ولكنني لم أجده.. انتهى بي المطاف إلى قرية بعيدة عن الساحل، يسكنها قوم لا هم من أهل الرعي، ولا هم من أهل الصيد، سِمَة وجوههم الجفاء والغلظة، سألت أهل القرية عن الشيخ فلم يعرفه أحد إلى أن رأيت عابر سبيل فسألته، قال:

- رأيت رجلًا منذ أيام عند الحصن القديم يشبه ذلك الوصف

انطلقت إلى مكان الحصن الذي كان يقع على أطراف القرية، لم يكن حصنًا حصينًا، بل كان بقايا بناء قديم مهدَّم، يبدو كحامية أقامها أحد الملوك قديمًا ثم

تهدمت مع مرور الأيام، المكان يبدو مهجورًا رغم أن مساكن القرية تبعد عنه مسافة غير بعيدة، تلفتُ حولي فلم أرَ أحدًا في المكان، ظننت أن عابر السبيل قد غُمّ عليه الأمر، وشعرت باليأس من العثور على الشيخ، وكان التعب قد بلغ بي مبلغه وقد اشتدّ قيظ الشمس في السماء، فسرت نحو جدار الحصن وجلستُ أسفله، أخرجت ركوة الماء ورشفت منها رشفات، فإذا بي أرى طفلًا بديعَ الشكل ينظر إليّ مترقبًا من خلف الجدار.. ابتسمت له، ولكنه اختفى فجأة، هممت بأن أقوم لأرى أهله، ولكنه ظهر لي فجأة من الطرف الآخر وهو يبتسم مرتابًا، ثم ابتسمت له فاختفى مرة أخرى، ثم ظهر من الجهة المقابلة بزيه الأول ضاحكًا، أدركت أن الطفل يلاعبني، فأشرت إليه بقطعة خبز كي يأتي، تردد قليلًا، ثم نظر خلف الجدار، وكأن معه شخصًا آخر، ثم خرج طفلان توءمان كل منهما كقطعة البدر، وكأنما القسم القمر شطرين فمنح كلًا منهما شطرًا! اقتربا مني في حذر فوضعت في يد كل واحد منهما قطعة خبز، فتناولها بفرح ثم أخذا يقضمان منها، حينئذ خرجت امرأة شابة من خلف الجدار، أدركت من جمالها أنها هي التي منحت الحسن لولديها، فنادت عليهما:

- (سارم)، (سريم)! تعالا إلى هنا.

عاد الطفلان إلى أمهما عدوًا واختفيا داخل الحصن، ثم نظرت إليّ وقالت في حذر:

- هل تبحث عن شيء أيها الغريب؟!

قلت في تردد:

- نعم، هل رأيت شيخًا كبيرًا يرافقه رجل في هذا المكان؟!

قالت في لهفة جعلتني أستبشر خيرًا:

- هل أنت معهما؟!

قلت متلهفًا:

- بل أبحث عنهما! هل هما هناك بالداخل؟

قالت وهي تهز رأسها في أسف:

ـ رحلا كما يرحل الحلم الجميل!

شعرت بالحزن، وقد باتت خيبة الأمل على وجهي، فقلت لها:

ـ ألم تعرفي إلى أين كانت وجهتهما؟

قالت:

ـ لا أدري، ولكنهما افترقا!

قلت في حيرة:

ـ افترقا؟!

قالت:

ـ نعم، صار الشيخ من طريق، وسار الرحالة من طريق آخر.

أدركت أن مهمتي قد ازدادت صعوبة، [illegible] أيسر من العثور على واحد، سألتني:

ـ لماذا تبحث عنهما؟

قلت وكأنني أتحدث إلى نفسي:

ـ لأتبعهما!

ثم قلت لها وأنا أنظر إلى الأفق في شرود:

ـ منذ أن رأيت ذلك الشيخ، وهو لا يفارق عقلي وخيالي، وكلما بحثت ازددت عجبًا، أراه يحمل في يده وعاء ممتلئ بالرحمات، ولا يحل في مكان، إلا ووقع أمر، يبدو في ظاهره الشر ولكن في باطنه الرحمة.

صمتت المرأة وكأنها تتفكر فيما أقول ثم قالت:

ـ لم تر منه سوى الرحمة، ومثله لا يأتي إلا بخير!

قلت وقد أدركت أن أمرًا قد وقع لها:

ـ صدقتِ! ولكن كيف عرفتِ؟!

قالت وقد اطمأنت لي:

ـ حين جاءا إلى هنا، كان يبدو عليهما الإرهاق والجوع، لم يستضفهما أحدٌ من أهل القرية، وخرجا منها بلا كسرة خبز ولا شربة ماء، وقد اشتد بهما التعب، ثم وصلا إلى هنا فجلسا إلى جوار ذلك الجدار ليستريحا.

نظرت إلى الجدار الذي لاحظت أنه حديث البناء عن باقي جدران الحصن فتعجبتُ، وشعرت هي بما يدور في عقلي، فتابعت:

ـ لم يكن الجدار على هذا الحال، كان الجدار يوشك على السقوط، وكنت أرتعد خوفًا من ذلك، فلو سقط الجدار الذي يحمل السقف الذي يؤوينا لصرت أنا والناس في العراء، فنحن لا نملك لنا مأوى غيره بعد أن مات زوجي، ولن يرفق بحالك أحد من أهل تلك القرية، فهم لا تأبه لحالهم سبيل، ولا تمسح على رأس يتيم.

صمتت لحظة ثم أردفت:

ـ وحين جاءا إلى هنا خرج (سارم) و(سريم) وقد اعتادا حينما يسمعان أصوات الغرباء على ذلك، فخرجت وراءهما لأرى الشيخ يجلس على ركبتيه ويحتضنهما بين ذراعيه، وكأنه يشتاق إليهما فتعجبت من ذلك وشعرت بالخوف منه، ناديت على الطفلين فعادا في سرعة، فقام وقال:

ـ لا تخشي عليهما شيئًا، ثم نظر إلى الجدار وقال:

ـ إن هذا الجدار الذي يوشك أن ينقض أن يُقام.

ورغم فرحي بذلك، إلا أنني قلت له:

ـ لا أملك نقودًا لذلك.

فابتسم قائلًا وقد أضاء وجهه:

ـ نقدني أبوهما أجره من قبل.

ودون أن ينتظر مني ردًّا شمَّر عن ساعديه، ثم جمع الحجارة وحملها بين ذراعيه كشاب فتيّ، وسط دهشتي ودهشة رفيقه أيضًا، ثم صنع الملاط، وأخذ

يعلو بالجدار، حتى أصبح كما تراه الآن.

صمتت لحظات ثم أردفت في حزن:

ـ وبعد أن أقامه جلس ليتحدث إلى الرجل الذي يرافقه، زال عن وجهه التعب وزال عن ثوبه غبار السنين، فأشرق وجهه بالضياء ونصع ثوبه بالبياض.. تحدث طويلًا وأنصت إليه الرجل بلا همس ثم تركه وانصرف، انصرف وحده من هذا الطريق، وكأنه طيفٌ جميلٌ حلَّ على النفس للحظات ثم رحل كي يترك فيها ذلك الفراغ العامر والسكون الصاخب!

قلت:

ـ وهل كان زوجك يعرف هذا الرجل؟

طرقت نحو الأفق وقالت شاردة:

ـ زوجي!

ثم أردفت وقد أشرقت من مقلتيها دموع كنفتها لم تفلّ منها:

ـ كان زوجي صيادًا فقيرًا ولكنه كان غنيًا بأعماله! كان كريمًا عميقًا، يجود بما يملك على قلته، لا يرد سائلًا، ولا يمنع محرومًا، وحين مات وجدت أعماله تسعى إلينا! فتارة يأتينا صياد بطعام، وتارة يرد لنا رجل قرضًا أقرضه أياه، وتارة يجود علينا عابر سبيل ببعض الحديث مثلك أيها الغريب!

تهدج صوتها وهي تقول:

ـ تزيدني تلك الحوادث شوقًا إليه، وتجعلني أشعر بأن روحه لا تزال حية بيننا تتردد علينا في صور شتى لترعانا.

ثم قالت باكية:

ـ حين رأيت الشوق في عيني الشيخ وهو يجثو على ركبتيه ويحتضن (سارم) و(سريم)، ظننت أنه هو! فلم يكن أحد يحتضنهما سويًّا بتلك الطريقة سواه! تمنيت لو بقي الشيخ إلى جوارنا فترة أكبر، فقد كنت أجد فيه ريح زوجي! ولكنه كما قلت لك، جاء كطيف جميل ثم رحل كأن لم يكن!

وصمتت المرأة فالتزمت الصمت أيضًا. تركت لها ولأولادها بعض الخبز ثم قمت منصرفًا وقد أيقنت أن هذا الرجل ليس ببشر، هو لُطف من القَدَر أرسله الرب برسائل ليرفع الكرب عن بعض المكروبين، وأنه لا سبيل لرُفقة القدر، إلا بأمر صاحب القدر، تركت البحث عنه وصرتُ أبحث عن رفيقه، وألحَّ على نفسي شوق كي أعرف هذا الرجل الذي أكرم برفقته! سرت في الطريق الذي أشارت إليه المرأة أتحسس من أخباره، فقطعت طريق الساحل سيرًا على قدمي، لا أجلس إلا حين يستبد بي التعب، ولا آكل إلا القليل مما يجود به أهل القرى على تاجر، خرج ذات يوم ليزيد من تجارته، فانتهى به الحال إلى عابر سبيل يسير على قدميه بعد أن سُلبت يداه يد القدر!

وصلت إلى مكان بين «مجمع البحرين»، وجبل «حوريب»، جلست كي أستريح فإذا بي أستمع إلى جلبة قريبًا من مجلسي، اخترت خلف كثيب الرمل، فإذا بي أرى ذلك الشاب الذي رأيته عند الصخرة يقف وحوله حلقة من الصبيان يلاعبهم بسيوف من الخشب وكأنما يدربهم على القتال، حين رآني توقف عن المبارزة، جفل الأطفال قليلًا بينما ظل هو متماسكًا مع بعض الحذر وقال:

- هل تريد شيئًا أيها الشيخ؟!

تقدمت نحوه، تحسست كتفه بيدي وأنا أتطلع إلى وجهه وكأنني أتأكد من أنني غير واهم، قلت له:

- أريد الشيخ الأبيض الذي كان يرافق سيفك عند «مجمع البحرين».

تراجع الرجل خطوة إلى الوراء وقد أخذ حذره أكثر وقال:

- من أنت؟

قلت بعيون تبكي بغير دموع وأنا أبتلع ريقًا وجد طريقه إلى حلقي الذي جف:

- أنا عابر سبيل، وضعني الرب على سبيله أيها الشاب، فدلني عليه أرجوك!

صمت قليلًا ثم تنهد وقال بعد أن شعر بصدقي:

- ارحل أيها الشيخ ارحل إلى الأبد وقد تركت فينا ما تركه فيك وعلّمنا الرب به ما لم نكن نعلم!

قلت له متلهفًا:

- من أنتما؟! ومن سيدك؟! ولماذا اختصه الرب برفقته؟

ضم الغلام يده إلى صدره وهو يقول:

- سيدي هو نبي الله (موسى بن عمران)، وأنا فتاه (يوشع بن نون).

• • •



الورقة السادسة والخمسون

يحيث..

وحق على النفس أن تبكي حين تثور عليها الذكريات،

وحق على الذكريات أن تثور إذا حاربتها الأحلام.

فتح (المهيمن) بكلماته الجرح غائرًا، وترك المشاعر تفيض بلا انقطاع، مشاعر الشوق واللهفة، والفرح والشجن.

أدركت من كلامه أن الرب لا يزال يرعى قومي، وأنه قد أرسل إلى نبيه من يعلمه حكمة القدر، وأن يريه قبسًا من الألطاف الخفية التي كنا نراها عقابًا وزواجر.

تعلم (موسى) من الشيخ الأبيض أن كل ما حلّ على (بني إسرائيل) من تيه هو أمر في ظاهره العذاب وفي باطنه الرحمة.

وأدرك المؤمنون من بني إسرائيل أن التيه كان حقًا عليهم كي ينشأ جيل جديد، جيل يرى الله في صورته التي يحبها.

صورة الرب الذي يربي، لا الإله الذي يقهر.

تعلموا أن الرب غني عنا، أما نحن فبحاجة إليه وبدون رعايته يتوه المرء ويحيد عن الطريق.

اشتقت إلى أن أرى ذلك الجيل الجديد الذي يربيه (موسى) و(يوشع بن

نول) بعد أن تعلما الدرس من الشيخ الأبيض.

ولم أشعر بالأسف والحيرة على حالي، فقد كان الرب لطيفًا بي إذ لم يفوت عليّ الدرس! فوضع في طريقي الشيخ (عابر) كي يعلمني بعضًا مما علمه (موسى) لأقراني وأنا عنهم بعيد.

أتى (شهبور) من بلاد بعيدة ليخبرني أن جذوري لا تزال حية باقية، وأنني لست شجرة غاب منقطعة الأصل، غرس في قلبي الأمل بأن أرى أمي مرة أخرى. آه يا (روما)! أنتِ القلب المؤمن الوحيد الذي لا يفقد اليقين مهما انهالت عليه الضربات، (شهبور) أيضًا لم يعد (قيصر) التاجر الذي يؤمن بما تقبض عليه يداه، بل صار يثق في حدسه، وأيقن أن القلب يرى قبل العين أحيانًا.

وعصف الشوق بقلبي، وقررت أن أعود إلى قادش في برية «سين» في أقرب وقت أنهيت أعمالي في «التمنة»، وقطعنا متجهين إلى [illegible]، في الطريق حادثني (أروى) في توقيت العودة رغم حماستها لمعرفة الأخبار عن أمي:

قالت لي زوجتي:

- ننتظر حتى يعود (ليث) وأمي! قد يكون ذلك آخر لقاء لي بهما يا (شمعون)!

وأيد (شهبور) و(عمرو) رأيها، وقال (شهبور):

- ننتظر الحج أيضًا يا (شمعون)، فقد يكون هذا آخر حج لي.

قلت له مندهشًا:

- هل ستخرج معنا إلى برية «سين»؟!

قال مؤكدًا:

- نعم، قد وجدت ضالتي هناك ولن أتركها حتى أموت!

تساءلت متعجبًا:

- تتبع بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة؟!

قال:

- بل أتبع نبي الله (موسى) إلى أي مكان يذهب إليه!

قلت مستغربًا أمره:

- ولماذا عُدتَ إذن؟!

قال:

- عدتُ كي أخبرك بالأمر، ثم ابتسم وقال:

- وكي أسترد أموالي منك أيضًا، فلا ضير أن يكون المرء غنيًا ومؤمنًا!

• • •

حين وصلنا إلى (مكة) كانت الحياة أكثر صخبًا مما تركناها بعد أن بدأت القوافل في العودة من الشمال، تركنا (أروى) و(أم السعد) و(موسى) في منزلي، ثم خرجت مع (عمرو) و(شعيب) إلى منزل الشيخ (ثابت)، فتحنا الباب الذي ظل موصدًا طيلة الأشهر السابقة، ورأيت (عمرو) يجول ببصره في البيت، وسمعت خفقات قلبه وكأنه يتذكر الشيخ (ثابت)، وجده الشيخ (عامر)، أيامًا كان يضج فيها ذلك البيت بالحياة، قال مؤكدًا ظني وقد اختنق صوته:

- ما أوحش الدار بلا سكنى والوطن بلا أهل!

ربتّ على كتفه وأنا أقول:

- ستعمر بك الدار ويحلو الوطن برجوعك يا (عمرو)!

وقفنا في منتصف الدار حول جذيل النخل المبتور، ورأيت عيدان الريحان وقد جفّت من الإهمال، فجثوت على ركبتي ثم قربتها بيدي أسفًا وأنا أقول:

- رغم جفافها لا تزال الرائحة الطيبة تعلق بها.

قال (عمرو):

- لم أرَ ذلك الحرص من قبل، هل زرعته أنت؟!

ابتسمت وقلت:

- نعم

حكيت لها ما وقع من (دعص)، وتعجب (شهبور) من خيانته، ومن طمعه في ماله، ولم يخفِ علي قلقه حين سألني:

ـ وأين أخفيت الذهب؟!

ابتسمت وأنا أقول:

ـ هنا تحت جذيل النخل!

تناولت القدوم، وأخذت أحفر حوض الريحان، حتى وصلت إلى نخرة بين جذور النخلة المنثورة، أخرجت منها لفافة من الخيش، وضعتها على الأرض ثم فتحتها فتلألأت سبائك الذهب التي لا حصر لها، ولم يخفت بريقها طول الزمان.

نظرت إلى (شهبور) وقلت:

ـ تلك أمانتك يا شيخ (شهبور).

ثم ابتسمت قائلًا:

ـ ألا زلت لا تثق في أمانتي؟!

طفرت الدموع إلى عينيه ثم قال:

ـ أثق بك يا (شمعون)، منذ رأيت الشيخ (عامر) يقربك إليه، ولو ساورني الشك فيك لحظة ما عهدت إليك بتلك الأمانة.

ثم ابتسم قائلًا:

ـ حككت أنف كبريائك كي تبذل قصارى جهدك في حفظها!

ثم جثى على ركبتيه، وقام بعدّ السبائك، ثم قسمها إلى ثلاثة أقسام وقال وهو يقرّب قسم إلى (عمرو بن قومة):

ـ هذا حق الشيخ (ثابت)، وحقك يا (عمرو)! ولو كان المال يفتدي من نحب لبذلته كله فداء للشيخ (ثابت)!

ثم قرب قسمًا آخر إليَّ وقال:

ـ وهذا حقك يا (شمعون)!

قلت صادقًا:

- هذا أكثر مما وعدتني به!

قال ممتنًّا:

- ولكنه أقل مما تستحق!

نظرت إلى الذهب فأضاء بريقه في عقلي ذكريات مظلمة، يوم خرجت من «قادش برنيع» فردًا يرافقني الخوف والجوع والفقر، ما كان يجول ببالي أن يأتي يوم أصير فيه أمكًا، مطمئنًا، غنيًا، لي زوجة وابن وعشيرة، ولي صنعة أحبها وأتكسب منها ما يحميني من ذل السؤال.

ولم يمنعني بريق الذهب من أن أدفع به نحو (عمرو) وأنا أقول:

- اسمع يا (عمرو)، لو كان لأحد حق في هذا المال فهو الشيخ (عامر)!

تعجب (عمرو)، وفغر (شمعون) فاه دهشة، فقلت في صدق:

- خذ يا (عمرو) هذا الذهب وعُدْ إلى تجارة آبائك، واحفظ (بني عامر) من الحاجة في الحضر، فما كان أحفاد الشيخ (عامر) أن يأتوا بنقيصة يكرهها جدهم.

وقبل أن يعقب دفع (شمعون) بنصف ماله إليه أيضًا وقال:

- نعم الرأي رأي (شمعون) يا (عمرو)! وأنا شريك لك بنصف مالي في تجارتك، أما النصف الآخر فهو دَيْن لشخص أؤديه إليه عما قريب.

اغرورقت عينا (عمرو) بالدموع وهو يقول:

- نعم الصُّحبة، ونعمَ الشركاء.

• • •

الورقة السابعة والخمسون

وذاع خبر موت (عمرو بن دومة) في «بكة»، لم يكن أحد ليلتفت إلى موته، لولا أن لاحظ الناس أن الشاب الذي اختفى لسنوات وخرج أبوه من قبل مطرودًا من «بكة» قد عاد إليها وقد تزايد ثراؤه، فكان (عمرو) يطوف بالأسواق كل يوم فيشتري عشرات النوق حتى امتلك ما يقرب من الخمسمائة ناقة، وكان يطلقها لترعى في شعاب «بكة» ويشرف على رعيها (شهبور) مع رجال آخرين، وفي يوم من الأيام عاد (شهبور) و(عمرو) ومعهما بقرة صفراء اللون، اشترياها من السوق ولم يخرجا بها إلى المرعى، بل أتيا بها إلى مربط الدواب في منزل الشيخ (دومة)، وحين رأت (أروى) و(هوى) البقرة، فرحتا بها، وقالت (هوى):

- يا الله! ما رأيت بقرة في جمالها، من أين اشتريتها يا (عمرو)؟

قال (عمرو) سعيدًا:

- باعها لنا تاجر حبشي، قال: إن هذه الأبقار ترعى فقط على ضفاف النيل، وإن المصريين يقدسونها، ويرسمونها على جدران المعابد!

قلت له متعجبًا وقد انقبض وجهي قليلًا:

- وماذا نفعل بها في الصحراء يا (عمرو) إن عدنا إلى برية «صين»؟!

قال:

- ترعى مع الإبل، ونحمل أغراضنا، ولعلنا نشتري لها من السوق ثورًا، فنطعم لبنها وولدها!

قلت:

- وإن لم نجد؟!

قال (عمرو) ضاحكًا:

- نذبحها فنأكلها!

لم أشأ أن أعارضه، وحين نظرت إلى البقرة الصفراء التي لا يشوب صفارها شائبة، وتلألأ لونها الفاقع في ضوء النهار وكأنها قد طليت بماء الذهب، شعرت بالرهبة، وطاف بعقلي ذلك العجل الذهبي الذي عبده بنو إسرائيل من قبل! ووجدتني رغمًا عني أشعر بنفور من تلك البقرة التي وقفت في سكون تائه، لم تذق ذل الحرث، ولا عناء الرعي من قبل، وكأنها عاشت عمرها تقتات على قرابين العشب والماء التي قدمها لها المصريون على ضفاف النيل!

وبعد أيام، عادت قافلة (بني يعور) من «يثرب»، وحطت الرواحل التي تحمل قدور الخمر في الحي وخرجنا جميعًا في استقبالهم، كان العناق حارًا باكيًا بين (عمرو) و(ليث)، وبين (أروى) وأمها، فرحت الأم بحفيدها (إرام) فرحة عظيمة، حملته إلى صدرها وظلت تقبله، ورأيت الفتاة (لامار) إلى جوارها، ترنو بسعادة إلى الطفل، وحين جمعتنا دار الشيخ (ثابت) علمنا أن (ليثًا) قد بنى بالفتاة (لامار) في «يثرب»! فأطلقت (أم السعد) زغرودة عالية، وقالت في فرحة أحزنت (هوى):

- نِعْمَ النسب يا (ليث)!

ثم أردفت:

- بارك الله لك ولابنة خالك! والعقبى لك يا (عمرو).

امتقع وجه (هوى) ثم غادرت مجلسنا، وتبعتها عين (عمرو) وهي تمشي منكسرة إلى خارج الدار، وبعد قليل خلا صحن الدار ولم يبق سواي أنا و(عمرو)

و(الليث)، كنت أشعر أن نفس (الليث) لا تزال يعلق بها بعض الكدر مما حدث بيننا قبل خروجه إلى "يثرب"، كانت تفصح عنه عينه التي يزوغ بصرها كلما التقت بها عيني، كان يرتدي ثيابًا تعلوها بردة من وبر الإبل، وعمامة تمنحه هيبة أكبر من عمره، أردت أن أمد إليه يد الود فقلت:

- حمدًا لله على السلامة يا (الليث)، ومبارك لك الزواج من (الأمار).

ردَّ في صوت محايد:

- أشكرك!

قال (عمرو) الذي شعر بذلك، وكان على علم بما وقع بيني وبين (الليث):

- كيف كانت رحلتكم يا (الليث)؟ وكيف حال أخوالك في "يثرب"؟

قال (الليث):

- بخير حال! قضينا شهر الصيف في جمع الكرم وعصره، وتخزينه في القدور.

ثم تنهد قائلًا:

- عمل شاق ولكنه يستحق العناء، ويُدرُّ الربح

ثم أردف في شيء من الفخر لم نعتد عليه في حديثه:

- الحق أن الشيخ (أوس) قد أكرم (بني يعفر)، وأعانهم في محنتهم، ولولاه لأتت أيام الحج علينا بغير تجارة!

تبسم (عمرو) وقال:

- وهل ستبيع الخمر للحجيج يا (الليث)؟

شعر (الليث) بالسخرية في حديث (عمرو)، فقال في قليل من الحنق:

- نبيعها للتجار الأغنياء في الأسواق يا (عمرو)، كفانا بيعًا للتمور والفخار، وتجارة مع الفقراء!

قال (عمرو) متعجبًا:

- تلك تجارة جدك وأبيك!

قال (ليث) في تبرم:

- تجارة لم نرث منها إلا الفقر يا (عمرو)، حتى صرنا أفقر أحياء (بني إسماعيل) وأخط بطونها!

شعرت بأن الفتى الذي خرج من «مكة»، ليس هو الفتى الذي عاد من «يثرب». خلع (ليث) ثوب الصبا وارتدى عمامة السلطة، وأذهبت الخمر التي يحملها عقله دون أن يشربها.

رغم مرارة الكلمة التي رأيت أثرها في عيني (عمرو)، لم يرد (عمرو) عليه بلسانه. قام (عمرو) من مجلسه، وأحضر صرة من القماش كان قد وضعها إلى جوار الباب عند دخوله، ألقاها على الأرض بيننا في قوة، وهو يقول في حسم:

- أتيت إليك بإرث الفقر الذي ورثته عن أبيك!

نظرنا إلى الصرة التي انحنى (عمرو) عليها يفتحها، ثم أخرج سيفاً من الصرة، قدمه إلى (ليث) وهو يقول:

- ذلك سيف أبيك الشيخ (ثابت)، الذي سقط ساعده وهو يمسك به! ما زلت محتفظاً به وأشعر بدفء قبضته عليه كلما لمسته.

ثم انحنى مرة أخرى وأخرج من الصرة عمامة الشيخ (ثابت)، وقال في حسم أكثر:

- وتلك عمامة أبيك، احتفظت بها لأجلك، وأرى أنها تلائمك أكثر من عمامة الأحباش تلك التي ترتديها.

اهتز (ليث) أمام كلمات (عمرو)، ولكنه لم ينطق، ولم يكتف (عمرو) بذلك، بل انحنى ثالثة وأخرج من الصرة نعلين، وقال في صوت أقرب إلى الغضب منه إلى الحسم:

- أما هذان فهما نعلا أبيك! ووالله لو لم ترث غيرهما لكفياك! فما انتعلهما أبوك وسار بهما إلا في الخير!

ثم قال في تأنيب جعل (ليث) يذوب خجلاً:

ـ لم يتاجر الشيخ (عامر) وولداه مع الفقراء يا (ليث)! بل تاجروا مع الله! أتريد أن تعرف ماذا ربحوا من التجارة مع الله؟! ربحوا بركة لم تنقطع في أحفادهم، وربحوا شابًا مثل (شمعون)، حفظ أموالهم وعِرْضهم، جزاءً لكرمهم وفضلهم عليهم.

ثم قام وقال في صوت هادر أخرج النساء من حجراتهن:

ـ اسمع يا (ليث)، لا حاجة لنا بالكرْم ولا بالخمر، ولن يتاجر (بنو يقطن) في شيء حرمه الشيخ (عامر) على نفسه وجعله على أولاده حرامًا.

سقطت كلمات (عمرو) على (ليث) كضربات السياط على ظهر بعير عقل عن الطريق، فأعادته الضربات إلى يقظته؛ ضربات لا تؤلم، ولكنها تثير الحمية والانتباه.

تحولت كلماته إلى دفاع وقال:

ـ ومن أين يعيش (بنو يقطن) وقد بارت تجارتهم؟

قال (عمرو):

ـ لا تخش الفقر على (بني يقطن) يا (ليث)، فقد صار لدينا من الخير والمال ما لا يملكه (بنو إسماعيل) مجتمعين!

ثم أردف:

ـ أتدري من صاحب الفضل في ذلك المال يا (ليث)؟ إنه أبوك! أبوك الذي فقد حياته فداءً للشرف!

قام (ليث) من مجلسه، وتقدم نحو (عمرو)، أمسك كتفي ابن عمه، ونظر في عينيه طويلًا، خلع عمامة (عمرو)، ووضع على رأسه عمامة الشيخ (ثابت) وهو يقول:

ـ أنت أحق بهذه العمامة يا سيد (بني يقطن).

ثم أمسك سيف الشيخ (ثابت) ووضعه في يد (عمرو) وقال:

- وأنت أحق بهذا السيف يا فارس (بني يطور).

ثم انحنى ورفع نعلي أبيه من الأرض، وقبّلها وهو يحتضنها إلى صدره، وقال:

- أما هذان النعلان، فهما لي! لن أخلعهما من قدمي ما حييت حتى لا أضل مرة أخرى عن الطريق.

احتضنه (عمرو) في قوة وربت على كتفه وقال:

- لن يضل أحد من (بني عابر)، ما قمنا سويًّا كما كنا في السابق يا (ليث).

ثم قال مبتسمًا كي ينهي تلك اللحظات العصيبة:

- هيا يا (ليث)! أحضر زوجتك! وأنت يا (شمعون)، أحضر (أروى) والنساء، وهيّا لتنطلق إلى منزلي، فقد أقام لكم الشيخ (شهيور) مأدبة ستحكي العرب بها!

قال (ليث) متعجبًا:

- هل عاد معك الشيخ (شهيور) إلى هنا؟!

ضحك (عمرو) وقال:

- تلك قصة طويلة يا (ليث)، يحكيها لك (شمعون) بعد الطعام!

• • •

وانقضت أشهر الصيف، ولم يعد (عمرو بن لحي) من تجارة الشمال، وشعر [illegible] بالقلق من غياب سيد «خزاعة» الذي كان مريضًا قبل خروجه، وسرت شائعات بين الناس عن موته في بلاد الشام، وتساءل الناس عمن سيقوم بسقاية الحجيج وضيافتهم في هذا العام إن لم يعد (ابن لحي)، واتجهت أنظار الناس نحو فارس (بني يطور) (عمرو بن دومة)، الثري الناشئ الذي عاد فجأة ليملأ فراغًا تركه سادة «بكة» بعد رحيل «جرهم»، وغياب «خزاعة».

تناسوا ما فعلوه بأبيه قبل ذلك بعامين، وذهب إليه وفد من قبائل (بني إسماعيل)، يستحثونه على القيام بذلك الشرف.. كان يجلس على الأرض في

خباء أُقيم خلف البيت، وكنت أنا و(شهبور) أجلس إلى يساره بينما جلس (ليث) إلى يمينه وحولنا مشايخ (بني إسماعيل).

قال أحدهم:

- ما قولك يا (عمرو) في أن تنال هذا الشرف؟ والله لو كان الشيخ (عامر) حيًا لفرح بعودة السقاية والرفادة إلى (بني إسماعيل).

صمت (عمرو) قليلًا ثم قال:

- وهل إذا قمت أنا بالسقاية والرفادة تكون عادت إلى (بني إسماعيل)؟

لم يفهم الرجل مقصده فتابع (عمرو):

- فتكون عادت إلى رجل واحد من (بني إسماعيل)! رجل يتسيد على الناس بما أنفقه. وبعد أن تنفد أمواله، تمتد يده على قرابين البيت وصدقاته. ثم يفرض العشور على التجار والحجيج حتى يعوض ما أنفقه!

ثم أردف في صدق:

- والله يا عمام، إنكم تخلقون في كل مرة ظالمًا جديدًا، يظلم نفسه أولًا ثم يظلم الناس من بعده!

شعرت بالسعادة من كلمات (عمرو) ورأيت الاستحسان في عيني (شهبور)، بينما بهت الرجل من كلامه، فقال:

- هذا ما وجدنا عليه آباءنا يا (عمرو)! فإن كان لك رأي آخر هات به!

قال (عمرو) في صدق:

- لا تجعلوا السقاية والرفادة حكرًا على رجل واحد ولا على قبيلة واحدة، الكل يشارك بما يستطيع أن يجود به! وقرابين البيت يقوم عليها حلف من قبائل العرب!

تعجبت من كلامه، وكأنني أستمع إلى كلمات جده الشيخ (عامر) من قبل! أشاح الرجل بيده وكأنما مل من سماع هذا الكلام وقال:

- أظنّ يا بُنيّ! العرب لا يتفقون! ولو عُهِد بالسيادة إلى حلف منهم لتنازعوها بينهم ولأفنى بعضهم بعضًا.

ثم قال في حسم:

- السيادة هنا في تلك الأرض تكون لرجل واحد يفرض سلطانه إما بالمال، وإما بالسلاح، وإما بالعشيرة، وأنت معك المال والعشيرة.

قال (عمرو):

- ولِمَ قاتلتني (أبي طي)؟!

صمت الرجل ولم ينطق، فأردف (عمرو):

- لتتركوني أقاتله وحدي! فلو انتصرت تكونون شركائي في النصر، وإن انهزمت أطرده من الأرض كما طُرِد أبي من قبل! أليس كذلك؟!

صمت الرجل وتكلّس الآخرون وجوههم. فقال (عمرو) في مرارة:

- أتدري يا عماه ما آفة (بني إسماعيل)؟! إنهم كُثُر ولكنهم كغثاء السيل! فحقٌ عليهم أن يلي أمرهم كل ظالم ومغتصب!

ثم قام من مجلسه مُنهيًا الحديث وهو يقول:

- مني الصدقة وإكرام الحجيج في أيام الحج! أما أمر السيادة فلا حاجة لي بها، والتمسوا لأنفسكم عن ظالم غيري!

وبعد أن خرجنا، ذهب (البث) و(السهور) إلى السوق بينما عدت أنا و(عمرو) إلى بيته، حين جلسنا رأيت على وجهه الكدر، فقلت:

- لا تبتئس!

تنهّد قائلًا:

- يحزنني أمر (بني إسماعيل) ولكن أمر العرب يحزنني أكثر، انظر يا (سمعون) إلى الممالك من حولنا، في «آشور» و«بابل» و«إدوم» و«كنعان» و«مصر»، يسوس

الحواضر، وتصل صروحهم وأسوارهم إلى عنان السماء، ولا يزال العرب قبائل متناحرة تتقاتل على الكلأ والعير!

ثم تنهد في أسف وقال:

- أمر الرب أبانا (إبراهيم) ببناء ذلك البيت في تلك البقعة، كي يجمع العرب حول بيت واحد، على دين واحد، فإذا بالبيت يصير سببًا للفرقة والتنازع من أجل ولايته.

قلت:

- صدقت يا (أصرم)! ولا أدري الرب هو لسان الحق! ولعل غياب (ابن لحي) عن الحج هذا العام يحضهم للتعاون بينهم.

سألني مستفسرًا:

- هل تظن حقًا أنه قد مات؟؟

قلت:

- لا أدري! كان مريضًا قبل خروجه! ولكنهم قالوا إن (طريفة) وجدت له العلاج لدى الجن!

ثم أردفت:

- الحق يا (عمرو) أني لا أشعر بالخير نحو هذا الرجل.

قال (عمرو):

- ولا أنا.

ثم أردف:

- ولكن لا شأن لنا به يا (أبا إبرام)، نقضي حجنا أولاً ثم نرحل!

ضحكت، فقد كانت المرة الأولى التي يناديني فيها (عمرو) بكنية ولدي، قلت:

- لم أعرف لك كُنية تحب أن تنادى بها يا (عمرو)؟

ابتسم وقال:

- كانت أمي تناديني «عُميرة»، ولكنني حين بلغت الصبا نهيتها عن ذلك حتى لا يعيرني أطفال الحي!

وكأنما أهاج الحديث عن أمه أشواقه إلى عائلته فقال:

- ما رأيك يا (شمعون) في أن يلحق بنا أبي بعد أن نخرج من «مكة»؟

قلت صادقًا:

- نعم الرأي، ولكن هل تعلم مكانه؟

تنهد وقال:

- ارتحلت إلى الجنوب حين بحثت عنه، ولم أجده، حتى عدت إلى «مكة».

صمتُ قليلًا ثم قال:

- قضيت أعوامًا في وحدة، وكنت أتمنى أن أعود كي يجتمع الشمل، فإذا بي أعود لأجد نفسي وحيدًا مرة أخرى.

ثم أردف وهو يتنهد:

- آنَ لهذه الوحدة أن تنتهي!

ظننت أنه يقصد أن تنتهي بعودة أبيه وأمه، ولكنه قال:

- لقد عزمت الزواج يا (شمعون)!

ابتهجت وقلت في فرح:

- حقًّا!! يا له من خبر سعيد يا (عمرو)! نِعْمَ العزم يا (أبا عمرو)!

ضحك وقال:

- لو أنجبت ولدًا سأسميه (عامر) وليس (عميرة)!

سألته متخابثًا:

- ومن العروس؟!

تنهد ثم قال:

ـ اقترح عليّ (ليث) أن أتزوج ابنة عمنا (قيدار بن يطور) كي لا يحقد أبناؤه على (بني عابر)!

صعقتني المفاجأة، ووجدتني أقول له:

ـ وهل خطبتها؟

قال:

ـ كلا، لم أحسم أمري بعد!

قلت في تعجب ولوم:

ـ ظننتك ستتزوج (موري)!

ارتبك وقال:

ـ (موري)؟

قلت له:

ـ نعم! لا تخفى نظرات الود بينكما على أحد! فما يمنعك عن الزواج بها؟!

قال وقد ازداد ارتباكه:

ـ (موري) فتاة طيبة، وقد تربت في بيت الشيخ (نابت)، ولكنها...

صمت، فأكملت عبارته:

ـ ولكنها لا تصلح لأن تكون زوجة!

ثم أردفت في شيء من الحدّة:

ـ لأنها يتيمة! واليتيمة تصلح للمخادنة ولا تصلح للزواج! أليس كذلك؟!

آلمته كلماتي المجردة من الزيف أو التزيين، فصمت ونظر إليّ في ألم ولم يُعقّب، فقلت:

ـ اسمع يا (عمرو)! إياك وظلم القلوب! ومثلك لا يسير على عرف ظالم! بل يصنع هو العرف! ولو تزوج سيد (بني يطور) من فتاة يتيمة لأدرك الجميع ألا فرق بين اليتيمة والحرّة، وأننا أمام الرب سواسية.

قال (عمرو) مترددًا وكأنما تنازعه نفسه:

ـ كانت تأتي الغناء!

قلت:

ـ لو وجدت سبيلًا غيره لتُطعم نفسها لأتته؛ ذاك أهون السبل!

ظل صامتًا يتفكر، فقلت وأنا أقوم:

ـ إنها كحيوان الحقل يا (عمرو) ولا تزنها بميزان الغنم! ولعل حدًا لا تصيبه يكن خيرًا من شمعٍ ترجوه!

وبعد عدة أيام انطلقت (عروة) من حجرة (الردى) صرخت فيها صوت (هوى)، بعد أن أرسل (صبيرة بن ضمرة) غصص الجسد! ثم تبعها (عروة) أخرى قصيرة تلونت بطعم الفراق قليلًا؟ صرخت فيها صوت (ألم السحر)!

• • •

الورقة الثامنة والخمسون

وكانت ليلة عرس (عمرو) و(أروى) ليلة فرح، سكنت فيها النفوس المرهقة وربتت على أكتافها يد السعادة بعد أيام من الشقاء، أمل كل منهما عوضًا عن فقده، ويجبر النقص الذي كان يشعر به كل واحد منهما منفردًا، كان الكمال الذي بدا عليهما حين اجتمعا سويًّا، حتى خُيِّل أنهما قد خُلقا زوجين من قبل أن يلتقيا، الفتاة الجاهلة (أروى)! فما حرمها وأتاح فرصة لذكائها والخير الذي يملأ قلبها أن يشرق، ظهر ذلك منذ الأيام الأولى لزواجهما، فكانت تزور نساء الحي، وتجود عليهن بالمودة والعطاء، وكان صدقها كفيلًا بأن يشق لها طريقًا في قلوب النساء اللاتي كن ينظرن إليها نظرة استعلاء في بادئ الأمر، وثبَّت ذلك من مكانة (عمرو) أيضًا بين الرجال في (بني بطون)، فلا شيء يرفع قدر الرجال مثل نميمة النساء في الليل، كان النساء يسهبن في الحديث مع أزواجهن عن كرم (عمرو) وزوجه، ويثنون على برهما بالضعفاء حتى شاع حبهما بين الناس.

واستيقظنا ذات صباح على جلبة شديدة وضربات الطبول تقرع في الطرقات، خرجنا من الدار فرأينا جوقة من الأحباش تسير في الطريق، تتعلق على بطونهم طبول، ربطت بأحبال إلى رقابهم وفي أيديهم مطارق كبيرة من جلد البقر، تقرع الطبول فترتج لها جدران المنازل، وتسير خلفهم ناقة يعلوها رجل يرتدي زيًّا مزركشًا وينادي بصوتٍ عالٍ:

ـ أبشروا يا أهل «بكة».. عاد (عمرو بن لحي).. عاد سيد «خزاعة»

لم تكن لنداء بتلك الطريقة من قبل، وكأنما أراد (عمرو بن لحي) أن يرسل البشارة بعودته ومعها تهديد لمن ظنوا به الهلاك!

عند منتصف النهار كان أهل «بكة» جميعًا يقفون عند سفح جبل «خندمة»، ينتظرون قدوم القافلة التي لاح غبارها في الأفق عند جهة الشمال، خرجنا أنا و(ليث) و(عمرو) و(شهبور) أيضًا لرؤية القافلة بعد أن سرت شائعات بأن (عمرو بن لحي) قد عاد بشيء من «كنعان» سيدهش قبائل العرب، ولأول مرة يتوقف الطائفون عن طوافهم حول الكعبة، تركوا أماكنهم وصعدوا إلى الجبل، بعد أن حملت الرياح أصوات الطبول الآتية من جهة الشمال، وكأنما عاد (عمرو بن لحي) بجيش وليس بقافلة للتجارة!

انقشع غبار الرحال رويدًا رويدًا، واتضحت معالم الصورة التي أزاغتها أشعة الشمس، فبدت جلية واضحة كضربات الطبول التي ملأت جنبات الوادي، كانت القافلة تسير وأمامها تمثال هائل وضع على عجلة من الخشب لها عجلات، ويجرها عشرة ثيران، وعشرات الأحباش، ومع كل خطوة يزحفونها، كان يعلو صياح الأحباش وهم يقولون:

ـ هوبل... هوبل... هوبل.

سألت (عمرو) مستنكرًا:

ـ لماذا يهتفون، وما (هوبل) تلك التي يقولونها؟

قال (عمرو):

ـ لا أدري! أسمعهم يقولون (هُبل)!

رأيت الوجل على وجه (شهبور) وقال:

ـ إنهم يهتفون لـ(بعل)!

نطقنا في صوت واحد:

ـ بعل!!

قال بصوت مرتعش وهو يشير بيده إلى التمثال الذي يجره الأحباش:

ـ نعم لقد عاد (عمرو بن لحي) بتمثال (بعل) إله الكنعانيين!!

أفسحت جموع الناس الطريق أمام التمثال الراقد على ظهره، مرّ من أمامنا، فخفقت قلوبنا رهبة للونه الأحمر الذي جعله يبدو كشيطان نحت من العقيق، رغم أنه كان على هيئة إنسان، وزادت صيحات الأحباش ودقات الطبول من الرهبة في قلوبنا، نظرت بعيني إلى (عمرو بن لحي) الذي كان يعلو هودجه، وهو ينظر بعينيه يمنًا ويسارًا في هودج إلى الجموع الواجفة، رقد بدا أصغر عمرًا وأكثر قوة مما خرج من «بكة»، عن يساره كان هودج (طريفة) العرافة، التي كانت عيناها تقدحان كجمرتي نار، وعن يمينه ولده (نحية). توقف الأحباش أمام الكعبة، فتوقفت صيحاتهم، وقرعت الطبول، ثم توقفت، إيذانًا ببدء (عمرو بن لحي) في الكلام.

لم ينخ (عمرو بن لحي) الناقة، بل ظل فوق هودجه ينظر إلى الناس الذين اشرأبت أعناقهم نحوه، ويجول ببصره في رجوه سادة «بكة» بنظرة جمعت بين الشماتة والبغض، وخيم الصمت والسكون على الجميع وكأنهم قد صاروا أصنامًا كذلك الصنم الراقد على ظهره. شعرت برعدة في جسدي تنفضني عن ذلك العالم، وتلونت أمام عيني السماء بألوان شتى، زادت من رجفتي، أشرت بأصبعي إلى السماء، لعل أحدًا يؤكد ما أراه، ولكن لم يلتفت أحد إلى إشارتي، أردت أن أتكلم، ولكن صوتي كان مخنوقًا، فصرخت فلم يغادر صراخي حلقي، شممت رائحته التي سطعت أنفي يوم «قانص يربيع»، وسمعت وقع خطواته كضربات طبول الأحباش، تلفت حولي ألتمس النجدة من (عمرو) و(شهور) و(ليث) ولكنهم كانوا جميعًا كالأحجار الجامدة.. سمعت نغماته التي تغنى بها من قبل وكأنها تراتيم تستدعي القرابين من دماء البشر، تداخلت تراتيمه مع كلمات (عمرو بن لحي) في أذني.

* أطفئوا النُّورَ بظلامِ القلوب...

ـ أنا (عمرو بن لحي)

• أحرِقوا الأرضَ بحقدِ النفوس..

ـ وهذا هو صنم الرب قد تجلى عليه الرب بقدرته فأشجاني.

• العنوا مُحبِّيكم...

ـ من دعى إلى غيره فقد آذنه بحرب.

• ومجِّدوا لاعنيكم...

ـ ومن تقرب إليه فقد تقرب إلى الله زلفى.

• أثيروا نيران الحرب حتى أراها تُثمر...

ـ من لم تسعه «مكة» و(هُبَل) فليرحل عنها.

• انثروا عبيرَ الدم حتى أرى القتلى...

ـ ومن منع الحجيج فقد أهدر دمه.

• أروني دموعَ الندم بلا توبة...

ـ ومن ظن أنه أعز على العرب من «جرهم» فليحذ حذوها.

• أروني صراخَ البائسِ بلا رجاء...

ـ أما من خضع لأمرنا فقد نال من عزِّ «خزاعة».

وإذا بـ(عمرو بن دومة) يصرخ بصوت عالٍ صرخة أعادت الحياة إلى الأصنام الجامدة من (بني إسماعيل):

ـ كفى..!! لن يدنس بيت الرب بأصنام الكنعانيين!

أشار (عمرو بن لحي) بعصا قصيرة في يده نحو (عمرو بن دومة) وقال في كبرياء:

ـ من أنت؟!

قال (عمرو):

ـ أنا (عمرو بن دومة بن عابر)!

وكأنما تذكر (عمرو بن لحي) اسم أبيه، فقطب حاجبيه وقال:

- ألم يُطرد أبوك من «بكة» ذليلًا؟!

قال (عمرو) وقد احمرّ وجهه من الإهانة:

- بل خرج منها عزيزًا بعد أن دافع عن الحق! واليوم أثبت أنه كان على حق!

ثم أولاه ظهره، والتفت نحو (بني إسماعيل) وسار بينهم وهو يضع يده على صدورهم وكأنه يريد أن يطمئن أن في صدورهم قلوبًا تنبض، وقال في صوت يخنقه الرجاء:

- يا (بني إسماعيل)، يا (بني قيدار) و(يطور) و(نابت)، يا حجيج بيت الله! هذا من أتانا يبدل أمام أعيننا! ها هي الأصنام التي حطمها أبونا (إبراهيم) في «أور» يحملها الشيطان إلينا في «بكة» فماذا أنتم فاعلون؟!

لم يجد (عمرو) إجابة منهم، رغم دموع الحزن التي انسابت على وجوه بعضهم. قال (عمرو) متهكمًا:

- أجيبوني! قولوا إنكم لن تسمحوا بأن تقربوا إلى صنم من دون الله! اسحقوها بأقدامكم واكسروها بأيديكم! قولوا إن أولادنا لن يزدرونا، ولن يقولوا هؤلاء الذين أضاعوا دين آبائهم!

أجهش بعضهم بالبكاء، بكاء العاجز الذي لا يملك من أمره شيئًا، فصرخ (عمرو) وهو يضرب بيديه على صدورهم:

- لماذا تبكون كالنساء؟! ما الذي تخشونه؟ أتخشون الموت أم الجوع أم الفقر؟

ثم التقط حجرًا صلدًا من الأرض وقذف به تجاه التمثال في قوة وهو يصرخ في جنون:

- أم تخشون تمثالًا أصم لا ينطق ولا يسمع؟!

ارتطم الحجر بيد التمثال المصنوع من العقيق فتحطمت يده، وخيم الذهول فوق الجميع بمن فيهم (عمرو) نفسه، وحين أفاق (عمرو بن لحي) من الصدمة، صرخ في صوت فاق صوت الشيطان في الجحيم وقال للأحباش:

ـ اقتلوا ذلك الأبق واجعلوه عبرة لمن يعتبر!

فانقضَّ الأحباش عليه يمزقون جسده بالسياط والعصي.

* * *

لقول الحق مهابة تهتز لها يد الباطش، وهذا ما شعر به (عمرو بن لحي)، حين رأى جمعًا من (بني بطون) من بينهم (ليث) و(شعبون) وأنا يشتبكون مع الحراس للدفاع عن (عمرو)، خشي (ابن لحي) أن تجد كلمة الحق صداها في الرءوس المنكسة، أو أن يثير مقتل (عمرو) الحمية والرغبة في الانتقام، فنادى في الأحباش:

ـ يكفي هذا لن تسفك الدماء في حرم الكعبة!

ثم أرعد في وعيد:

ـ ولكن حرمة هذا العبد من حرمة الكعبة فمن مسه بسوء فقد أهدر دمه!

ثم نادى في الناس وقال:

ـ أيها الناس، ما دعونا لعبادة (هبل) من دون الله وما ينبغي! وما أجرى الله شفائي بشفاعته إلا بأمره، فمقدرة الله في يده يضعها حيث شاء، حتى وإن كانت في حجر أصم!

رأى الاستنكار في العيون الكسيرة، فقال:

ـ لو لم يكرّم الله الحجر لما أمرنا بالطواف بالبيت ولا بتشريف الحجر الأسود!

ثم قال:

ـ أرأيتم إن نزع رجل من بينكم الحجر الأسود وألقى به في البحر، ماذا يكون من أمركم؟!

طال الصمت لحظات ثم قال رجل على استحياء:

ـ ما يكون لنا من منسك بعده!

ثم قال آخر:

- والله نكون كمن نزع الشرف عنه!

لمعت عينا (ابن لحي) وقال:

- وهذا والله ما أبغيه! أن أزيدكم شرفًا إلى شرفكم! ولو لم يكن هذا النصب من ثمان في أرض الله، ما عبده الهوام في مشارق الأرض ومغاربها!

ثم هتف في الأحباش بصوت جهوري:

- ارفعوا النصب بين الركن والمقام وادعوه كي يقربكم إلى الله زلفى!

ثم التفت إلى (عمرو) وقال:

- أما أنت يا ابن الطريد فقسمًا برب هذا البيت، لو رأيتك في مكة أو ما حولها لأحرقتك حيًا ولأطعمتك قربانًا لهذا التمثال!

وبينما كنا نحمل (عمرًا) عائدين به إلى الخزاب ارتفع صوت الأحباش مرة أخرى وهم يقولون:

- (هو بل).. (هو بل).

والتفتُّ خلفي لأجد رأس التمثال الأحمر تعلو من رقدتها حتى جاوزت بيت الرب!

وصوت (ابن لحي) يرتفع في السماء قائلًا:

- لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، ملكه وما ملك!

• • •

الورقة التاسعة والخمسون

استقبلتنا (هوى) بالصراخ حين رأت (عمرًا) مضرجًا في دمه، فنهرها (عمرو) عن ذلك بصوت واهن، وحملناه على أريكة في صحن الدار، وصرف (ليث) الجموع من (بئر طوى) التي تجمعت أمام الدار برفق ثم أغلق الباب. عاونني (شهيور) في إجلاسه ثم نزع قميصه الذي التصق بجروحه في رفق، وحين سحبت القماشة المحترقة مبللة عن جسده انفجرت الدموع من مقلتيه، لا من الألم وإنما من القهر، وقال في حرقة أدمت عيوننا بالبكاء:

- ليتني مت قبل أن أرى بيت الرب مُدنَّسًا بآلهة الكنعانيين!

ربت (شهيور) على كتفه قائلًا:

- هوّن عليك يا (عمرو)، لن يجدي موتك شيئًا ولن يغير من الأمر شيئًا!

قال (ليث) وقد امتزج حرقه بقلقه:

- لن يتركنا (عمرو بن لحي)! ولن ينصرنا (بنو إسماعيل)!

قال (شهيور) مؤكدًا كلامه:

- نعم، أظن أنه لا مقام لنا في «بكة»!

قال (عمرو) وقد أوجعته الكلمة وأفجعته:

- أهرب من «بكة»! أترك الأمانة التي أحملها وأهرب؟!

قال (ليث) مترددًا:

- نبتعد قليلًا يا (عمرو)، لا قِبَل لنا بجيش «خزاعة»! وقد كنت تنوي السفر بعد الحج على أية حال!

جثمت الحقيقة على صدره حتى كادت أن تزهق أنفاسه، فقال بصوت واهن:

- الحج! أي حج والبيت قد جاوره صنم، والنداء قد صار يدعو لشريك!

ثم أجهش في البكاء، وقال:

- أين أنت يا شيخ (عابر)؟ أين أنت يا شيخ (نابت)؟ أين أنت يا أبي؟! لماذا تركتموني أحمل ذلك العبء وحدي!

قلت مهونًا عليه:

- ذلك يوم لا يحمل فيه إنسان عن إنسان يا (عمرو)، بل يحمل كل إنسان تبعة اختياره.

نظر إليّ مستنجدًا، فقلت:

- لن يستطيع (ابن لحي) إسكات الناس بالنداء، ولن يجد في قلوبهم التوسل إلى صنم، صدّقني يا (عمرو) إذا أنكرت قلوبهم ستخرس ألسنتهم!

قال:

- سيتبعه الجائع والمعتر!

قلت:

- لو كان إيمانهم لأجل الطعام والكساء فلا خير فيهم!

قال:

- سيغدق بالأموال على قبائل العرب وسادتها كي يتبعوه!

قلت:

- لو اتبعوه فلا خير فيهم أيضًا، وأولى لك أن تغادرهم فارًّا بدينك!

قال حزينًا:

- أترك «بكة»؟!

قلت:

- خيرًا من أن تحتل قبها.

قال:

- وبيت الرب؟!

قلت:

- الرب لا يسكن البيوت! الرب يسكن القلوب!

قال:

- ودعوة أبينا (إبراهيم)؟!

قلت:

- تحملها في قلبك، وتبلغها لمن لم تصل إليه

قال مشدوهًا:

- أهكذا تتحول شمس «مكة» قد أفلت؟!

قلت:

- تغرب الشمس من مكان وتشرق في مكان آخر، ولكن نورها يسطع على الأرض كلها.

قال:

- وأين أجد شمس الإيمان الآن؟!

أسرع (شهبور) قائلًا:

- هي الآن في برية «سين»!

قال (عمرو) مشدوهًا:

- نتبع نبي العبرانيين (موسى)؟!

قال (شهبور):

- هو من يحمل شعلة الإيمان!

قال (عمرو):

- لم يرسله الرب لـ(بني إسماعيل).

قال (شهبور):

- يهتدي المرء بالنور أينما وجده!

قال:

- وشريعتها؟!

قال (شهبور):

- لا شيء يعدل السير على هدي نبيها

قال (عمرو):

- قلبي يعطش لها!

قلت:

- لعل الرب يرسل إليها من يحمل شعلة الإيمان من جديد!

عاد يقول:

- وبيت الرب، من يعمره؟

قلت مرة أخرى:

- الرب لا يسكن البيوت، والقلوب العامرة خير من البيوت الخاوية.

صمت قليلًا، وقبل أن تثور نفسه بسؤال آخر، سمعنا رعدة اهتزت معها الأريكة التي نجلس عليها، ولم تمض لحظات حتى سمعنا صوت زخات المطر يهطل فوق عريش البيت.. فتح (ليث) الباب وأسرعت أنا و(شهبور) خلفه، رأينا مطرًا غزيرًا، وبعض الأطفال تلهو تحت المطر، خرجت من الباب وأنا أقي وجهي من زخات المطر اللاسعة، نظرت إلى السماء الغائمة فرأيت سحابًا متراكبًا يزحف من جهة الغرب إلى سماء «بكة» حتى حجب الشمس

التي مالت إلى الغروب! قلت متعجبًا:

- كل هذا المطر ولا تزال المزن حُبلى بالماء، كيف تبدلت السماء هكذا؟!

قبل أن يجيبني أحد أومضت السماء ببريق برق خطف أبصارنا، ثم تبع ذلك رعدة أخرى انخلعت لها قلوبنا، واشتد معها المطر أكثر، هرول الأطفال مذعورين لرؤية الصاعقة، واختبأوا في حمى دورهم وقال (شهيور) بصوتٍ مرتعش:

- السماء غاضبة على (مكة)! رحماك يا رب العالمين!

ذكّرني ذلك المطر بسيل كاد يقتلني أنا و(أروى) صغارًا في (وج)، وتذكرت في تلك اللحظة (أروى)، شعرت بالخوف عليها وعلى (إبرام)، فمنزلنا يقع في سفح البطحاء، ولو اجتاحه السيل لأطاح به! أخذت شالًا من صوف كتف (شهيور)، ألقيته فوق رأسي، وخرجت نحو قارعة الطريق، ناداني (ليث):

- إلى أين يا (مسحونة)؟ المطر يزداد!

قلت وأنا أمسح وجهي بطرف الشال:

- أشعر بالخوف على (أروى)، منزلنا أسفل السفح! وقد يغمره السيل!

قال (ليث) وقد شعر بالوجل:

- انتظر سآتي معك!

قلت:

- كلا، اذهب أنت إلى دارك! وخذ معك (عمرو) و(مرى) و(شهيور)! فدار الشيخ (نابت) أبعد ما تكون عن مجرى السيل!

انطلقت في سرعة، فقد شعرت أن هذا الصيب لن يأتي بخير! رأيت الناس يحتمي بدورهم، ومن لم يملك منهم سقفًا يؤويه، صعد إلى أعالي الجبال كي يحتمي بالكهوف والمغارات، نظرت إلى الوادي فرأيت البيت مهجورًا لأول مرة! لا يقف إلى جواره إلا ذلك التمثال الأحمر القبيح، وعلى مقربة منه تمثالي (إيساف) و(نائلة)، دعوت الرب أن يُزيل السيل تلك الأصنام التي أحاطت

بيته، ثم انطلقت مهرولًا نحو السفح المنحدر، سقطت مرات ومرات ولكني كنت أقوم في كل مرة وأستأنف العدو غير عابئ بثيابي المتسخة، وبين لحظة وأخرى كنت أنظر إلى تلك السحب التي تخطو كالجبال نحو سماء «بكة».

وصلت إلى البيت، دفعت بابه بقوة، فوجدت (أروى) تقف مذعورة في الفناء الذي غمره الماء حتى وصل إلى منتصف ساقيها، وهي تحتضن ولدنا (إبرام). صرخت حين رأتني وقالت:

- الماء يغمر البيت يا (شمعون)؟!

قلت لها صارخًا: أين أهلك يا معة؟

- لا تخافي! أجبتها!

ثم سألتها:

- أين (أم السعد)؟!

قالت:

- ذهبت عند أمي في دار (ليث) منذ الصباح.

قلت لها:

- حسنًا فعلت! هم في أمان الآن.

خرجنا إلى مربط الدواب الذي غمره الماء أيضًا، فاستقبلنا قطرات البَرَد التي ارتطمت بوجوهنا كحبات الحصى، صرخت (أروى) وهي تحمي وجه (إبرام) بيدها، خلعتُ الشال عن رأسي وحميت به رأسها ووجه (إبرام)، فككت عقال البغلة التي كانت تدور في قلق وأخذت أربط سرجها إلى العربة. وقد اشتدت حدة المطر وصار الماء يتدفق من جدران المربط.

انتهيت من ربط السرج فوضعت (أروى) والطفل في العربة وقلت لها: تشبثي جيدًا، قفزت فوق العربة وجذبت لجام البغلة وأنا أصفع ظهرها بقوة كي تنطلق، وكأن البغلة كانت تشعر بالخطر هي الأخرى فأطلقت لساقيها العنان وانطلقت بعيدًا عن السفح الذي أخذت حوافه تنجرف بالماء رويدًا رويدًا.

وبدا أن السيل سيهجم في أية لحظة، وصلت إلى جبل «الحجون»، فضربت البغلة كي تصعد، ولكن عجلات العربة تعلقت بالصخور، نزلت من فوقها كي أخفف حمولتها وجذبت العربة مع البغلة ولكن العربة علقت وأبت أن تتحرك، لاح لي أن أتخلص من العربة حتى لا تعيق البغلة، أنزلت (أروى) والطفل، وأخذت أفك السرج في سرعة، فجأة جاءتني صرخة (أروى) في رعب وقالت:

- السيل!

نظرت فوقي لأرى سفح البطحاء ينهار، وقد علا موج كالجبال يدمر في طريقه كل شيء، ويسحق منزلًا، ثم هبط نحو الوادي في سرعة محملًا بالصخور وبقايا دور صارت أثرًا بعد عين، ألقيت سرج البغلة وحملت (أروى) ووضعتها فوق ظهر البغلة مع (إبراهيم) لففت اللجام حول يديها وقلت لها:

- تشبثي جيدًا.

ثم ضربت ظهر البغلة بيدي في قوة فانطلقت تصعد الجبل وكأنها تفر من الموت، صرخت (أروى):

- وأنت يا (شمعون)؟!

قلت لها وأنا أصرخ:

- لن تحملنا البغلة جميعًا! لا تنظري خلفك ولا تتوقفي إلا فوق «الحجون».

ونظرت خلفي فوجدت السيل يقترب وقد علت أمواجه فكيها وأخذت تلتهم في طريقها كل ما يعترضها، دارت في رأسي ذكريات عدة متلاحقة، تذكرت يوم انشق البحر بعصا (موسى)، تذكرت أمي وهي تعصب عيني كي لا أراها تغرق، تذكرت قبعة الفارس المصري وهي تطفو فوق الماء، تذكرت (دعس) وهو يحاول قتلي، تذكرت كل ما مرَّ بحياتي من مخاطر، في ذات اللحظة التي رأيت فيها الماء يرتفع فوق رأسي كطود عظيم يصل إلى عنان السماء.. حينها قفزت فوق العربة الخشبية وأمسكت جانبيها بيدي وأنا أغمض عيني

بقوة، شعرت بالماء يرتطم بظهري ورأسي في قوة، ولكنه لم يفقدني وعيي، غمر الماء أنفي وأذني، فتوقف الزمن وانقطع صخب السماء الغاضبة من حولي، مضت لحظات لا أدري مقدارها وأنا تحت الماء، أغلقت صدري على ما بقي به من هواء حتى لا أفقده، فجأة اهتزت العربة، فتشبثت يداي بجانبيها أكثر، وفي اللحظة التالية تحركت العربة وبدأت تطفو، استسلمت لحركتها وتجمد جسدي فوقها حتى صرت قطعة منها، أفلتت زفرات من الهواء من فمي رغمًا عني، فوجدت صدري يخلو من الهواء رويدًا رويدًا، شعرت بأنفاسي تزهق وددت لو أشهق، ولكني كنت أدرك أن الموت حينها سيكون حليفي، شعرت بقبضتي ترتخي فوق العربة، وفتحت عيني رغمًا عني... فجأة شعرت بالعربة تسرع في طفوها حتى خرجت إلى السطح، سعلت في قوة وأنا أطرد الماء من أنفي وفمي، شعرت ببرودة شديدة، ولكني كنت ممتنًا لأنني ما زلت حيًا، طفت بي العربة مع مجرى السيل إلى أن توقفت في موضع ضحل فيه الماء، فقفزت من فوقها وصعدت بجهد بالغ إلى ربوة آمنة، ثم ألقيت ظهري إلى الأرض وقد بلغ بي الإعياء مبلغه.. نظرت بعين زائغة إلى السماء التي انقشع غمامها رويدًا، وكأن جيوشها تنسحب بعد أن أفنت أعداءها، ثم صرخت بأعلى صوت قبل أن أفقد وعيي:

- أروى!!..



• • •

الورقة الستون

استيقظت على لسان رطب يلعقني، وأنف يتشممني، فشعرت بقشعريرة في جسدي، أعادت إلى عقلي وعيه سريعًا، فانكمشت متنحيًا قفزًا، ودفعته بيدي رغمًا عني وقد ظننته قطًّا من قطاط الصحراء، حين انتفضت وجدته كلبًا، جفل لحركتي المفاجئة، ثم جرى مسرعًا إلى أعلى الربوة قبل أن يقف عليه وينبح وكأنه ينادي شخصًا قادمًا من أسفل التل، ما هي إلا لحظات حتى ظهرت امرأة تمتطي أتانًا هزيلة، ترتدي السواد وتحمل في يدها غصن زيتون، أشارت به إلى الكلب فسار إلى جوارها، تذكرت (الرؤى)، فقمت من مكاني وأنا أرتعش من ملابسي التي ظلت مبتلة، رغم أن النهار قد انبلج وعادت الشمس إلى السطوع، نظرت حولي فوجدت آثار مجرى السيل الذي شق أخدودًا طويلًا من الوحل حول الربوة التي تقف عليها، قلت لها:

- هل رأيت امرأة تحمل طفلًا وتمتطي بغلة؟!

لم تجاوبني بل لكزت الأتان بكعبيها وتقدمت نحوي، هبطت من فوق الأتان واقتربت متكأة على غصن الزيتون، ذكرتني أخاديد وجهها بوجه رأيته من قبل، أخفى الظلام تفاصيله في المرة الأولى فيما أبشع هذه المرة في ضوء النهار، حين اقتربت وفتحت فمها المظلم الخالي من الأسنان تذكرت اسمها، قلت لها:

- أنتِ (أم إياس) العرافة؟!

قالت وهي تتمعن في وجهي:

- تعرفني؟!

لم أجبها، بل قلت:

- كيف أتيت إلى هنا؟!

قالت:

- سمعت النداء!

قلت:

- أي نداء؟!

قالت:

- نداء السد الجديد!

قلت:

- إن صوت السماء قد غضبت عليه وظني أنها هدمته!

قالت:

- السماء غضبت على أهل «بكة»! وأعلنت وديعتها!

قلت:

- أي وديعة؟

قالت:

- البيت!

قلت:

- ماذا تقولين؟!

قالت:

- انهدم البيت في السيل!

قلت:

- بيت الرب؟!

قالت وكأنها سمعتني من قبل:

- الرب لا يسكن البيوت!

قلت:

- كيف تعلمين؟!

قالت:

- أخبرتك من قبل!

قلت لها:

- أين زوجتي؟

قالت ساخرة:

- أنا لا أرجم بالغيب!

قلت:

- أعطيك ذهبًا حين أعود إلى بيتي!

قالت ساخرة:

- صرت تملك الذهب والفضة إذن!

قلت:

- أين زوجتي؟

استدارت وأشارت بغصن الزعرورة إلى صخرة على تل بعيد، تعجبت من أن بصرها يحدوها، وقالت:

- تختبئ أسفل تلك الصخرة مع وليدها وبعلها!

ثم قالت وهي تعود إلى أتانها:

- لا حاجة لي بمالك أيها الطائر الغريب! خذ وليفتك وارحل إلى أرضك،

واستمع إلى (أم إياس)، فلا خير في أرض سكنتها (طريفة) العرافة!

* * *

أفرخ الحزن تعاسة، وأنجبت الخطوب حسرة لم نرَ مثلها في «مكة» طيلة الأعوام السابقة.

لم تعد الأرض مثل الأرض، ولا النفوس كسابقتها! تهدمت البيوت والأسواق، وتضررت أحياء كاملة، ومات خلق كثير، ومع ذلك كان سقوط البيت هو المصيبة الأكبر التي فاقت كل الخطوب مجتمعة. اتفق الناس بعد السيل على تهدم جدران البيت واختفاء الحجر الأسود، بحثوا عنه في كل مكان ولكنهم لم يجدوه! ظنوا أن السيل قد جرفه إلى مكان مجهول، وادعى بعضهم أن صاعقة رفعته إلى السماء، وترددت على الألسنة أحاديث عن اللعنة التي حلت على «مكة» بعصيان (ابن لحي). ولم تفلح وعود (ابن لحي) بإعادة بناء البيت في الحد من تلك الأحاديث! ما قيمة البيت بغير الحجر الأسود!

أيقن (عمرو بن دومة) أن الرحيل قد آن أوانه، قال له (ليث):

- هيا بنا يا (عمرو)، فلن تكون تلك آخر الخطوب!

قال (عمرو) آسفًا:

- لو أخبرني أحدهم ونحن في «إدوم» أن «جرهم» ستطرد، وأن «زمزم» ستطمر، وأن البيت سيهدم، وأن الحجر سيفقد، لحكمت عليه بالجنون!

قال (ليث) حزينًا:

- ولو أخبرني أحدهم حينها أني سأفقد أبي وجدي، ما تركتهما!

قلت يائسًا:

- ولو أخبرني أحدهم أنني سأواجه السيل مرتين في حياتي لتعلمت السباحة صغيرًا!

قال (شهبور) باسمًا:

ـ ولو أخبرني أحدهم أنني سأترك تجارتي وأتبعك يا (شمعون) لأزهقت روحه.

خففت مزحته من وطأة الهم، فتنهد (عمرو) وقال:

ـ أتدرون ما هي أكثر النِّعم التي أحمد الله عليها؟!

وقبل أن نجيب، أردف قائلًا:

ـ أن الله قد جمعنا سويًّا، فما كانت الحياة لتحلو بدونكما!

قلت له مستفسرًا:

ـ ألديك أخبار عن الشيخ (ادرمة)؟!

تنهد في حزن ثم قال:

ـ نعم! لا يريد الرحيل! يقول إنه لا يقوى على السفر في هذا الحال!

شعرت بحزنه، فالتزمت الصمت ولكنه أردف في شيء من التهكم:

ـ ما دام أبي في رفقة أخوالي من (جرهم)، فلا شيء ينقصه!

ثم قال لـ(ليث):

ـ مُر الرجال يا (ليث) بأن يعدُّوا العُدَّة للرحيل.

قبل أن ينصرف (ليث) قلت له:

ـ هل لي في طلب يا (ليث)؟!

قال:

ـ مُرني يا (شمعون).

قلت:

ـ هناك شيء يخصني في منزل الشيخ (عامر)!

قال مستفسرًا:

ـ ما هو؟

قلت:

ـ صندوق العروس؟ فيه أوراقي التي كتبتها طيلة السنوات السابقة.

ضحك (شهبور) وقال:

ـ أما زلت تكتب تلك الأوراق حتى الآن؟

قلت:

ـ لم أكتب الكثير في (مكة)، كما أنني قد فقدتُ بعض اللفائف حين أطاح السيل بداري، ولكني أحمد الرب أن حفظت باقي الأوراق في صندوق العروس في دار الشيخ (غالب)؟

قال (ليث) ضاحكًا:

ـ لن أعطيك الصندوق حتى أقرأ ما كتبته فيه

قال (شهبور):

ـ لن تفهمها؛ فقد كتبها ذلك الماكر بلغته المصرية حتى لا يطلع عليها أحد.

ضحكنا وانصرف (ليث)، وبعد أن خرج قال (شهبور):

ـ أتدري يا (شمعون) أني أتعجب لأمرك، فأمك مصرية وأبوك عبراني وزوجك عربية، أتدري أنه لم يجمع أحد تلك الخصال سوى أبينا (إسماعيل)!

تعجبت من الملاحظة فقلت:

ـ أحمد الرب أن منحني خصلة من خصاله!

قال (شهبور) جادًّا:

ـ ولكن لأي شعب يميل قلبك يا (شمعون)؟

لم يسألني أحد من قبل ذلك السؤال وما تفكرت به، فقلت بعد تفكير:

ـ يميل قلبي إليهم جميعًا! ويسعهم جنبًا إلى جنب!

ثم أردفت بعد قليل من الصمت:

ـ أتدري يا (شهبور) أن أبي قد مات ولم يكن قلبه معلقًا بشيء سوى الأرض

المقدسة؟ أشعر أحياناً أنه قد قسا على نفسه حين علّق كل بهجة في حياته على تحقيق ذلك الحلم فمات ولم يهنأ بشيء. أما أنا فأشعر أنني كنت أسعد حالاً منه رغم ما مرّ بي من محن، منحتني الحياة فرصة كي أقترب وأعرف، فعلمت أن الأرض تتقدس حين تسود فيها عدالة السماء، فإذا عمّ فيها الظلم والجور فهي أرض ملعونة ولن يشفع لها بيت ولا حجر، وعلمت أن الإنسان هو أسمى ما على الأرض وأن الرب يسرّه أن تعمّر القلوب بالإيمان على أن تعمّر بيوته بقلوب خاوية. أدركت أن الوطن هو أرض تشعر فيها بالطمأنينة، وأن الأهل هم صحبة تشعر بينهم بالأمان! صدّقني يا شيخ (شهيور) إن قلت لك: إن قلبي معلق بمصر التي حكت لي أمي عنها، وبرية «سين» التي عشت فيها مع أبي، و«إدوم» التي رأيت فيها الشيخ «نابت»، و«حجر» التي اقتربت فيها أكثر من الشيخ (عابر)، و«يثرب» التي جمعتني بـ«أروى»، و«مكة» التي عرفت فيها الله، تعلق قلبي بكل هذه الأماكن قبل أن يكون معلقاً بالأرض المقدسة.

وكأنما مست كلماته شغاف قلب (شهيور)، فتنهد وهو يقول:

- بارك الله فيك يا (شمعون)، ورزقك الحكمة يا بني.

* * *

بعد عدة أيام كانت عير (بني يطور) تستعد للرحيل، انضمت إليها النوق التي كانت ترعى في الشعب، فامتلأت الساحة بين تل «أجياد» وجبل «أبي قبيس»، بقافلة ضخمة لم يمتلك بـ(نو يطور) مثلها من قبل، أدرك (عمرو) أن شمس «مكة» قد غابت، وأن الرحيل قد أصبح حتمياً، ولكن هذا لم يمنعه من أن يقدم يد العون إلى أهل بلده في أيامه الأخيرة بها، فتصدق على الفقراء الذين أصابهم السيل من أهل «مكة» بعشرات النوق، وأهدى أبناء عمومته من (بني قيدار) مثلها وعاونهم في بناء دورهم التي حطمها السيل، الشيء الوحيد الذي لم يشارك به (عمرو)، ولم ينفق فيه درهماً هو إعادة بناء البيت، كان يؤمن أن هذا البيت ليس بيت أبويه (إبرام) و(إسماعيل) حتى وإن أقيم على نفس القواعد، فرح حين وجد الناس الحجر الأسود في بيت امرأة من «خزاعة»، حمل

السيل الحجر إلى دارها، لكن الحجر لا قيمة له إن زيّن جدرانًا لطخها الشرك، ويكفيها إثمًا أن بناها رجال من «خزاعة» وهم يرددون نداءهم الممقوت.

وقبل رحيلنا بيومين، استيقظ أهل «بكة» على نبأ ارتجت له قلوب «خزاعة» واطمأنت له قلوبنا، فقد ماتت (طريفة) العرافة في فراشها! ماتت دون أن يتربص بها أحد ودون أن يدفع رئيسها من الجن عنها ملك الموت! كانت بساطة موتها عبرة لمن كان يرهبها! ولم يفجع لموتها أحد سوى (عمرو بن لحي)، وحين كانت جيفتها محمولة على بغلة تصعد بها نحو قبور (المعلاة)، رأيت على الطرف الآخر من الوادي امرأة عجوزًا تنظر إلينا وهي تولي خلفها كلبها تيمم شطر الشمال، فأدركت أنها (أم إياس) التي أتت إلى «بكة» بعدما سمعت النداء الجديد، ثم رحلت عنها بعد ما قضت طريفة بطريقتها! ولعل موت (طريفة) كان الغاية التي جاءت من أجلها!

وفي ليلتنا الأخيرة كانت (أروى) إلى جواري في الفراش في حجرتنا بمنزل الشيخ (ثابت)، نظرت إلى السقف ثم قالت:

- لم تجمعنا تلك الحجرة سويًا من قبل.

قلت وأنا أعقد يدي خلف رأسي:

- بتُّ فيها أول ليلة لي في «بكة»، وها أنذا أبيت فيها الليلة الأخيرة قبل رحيلي!

مالت برأسها إليّ ثم قالت:

- سأفتقد «بكة» يا (شمعون)!

قبّلت شعرها وقلت:

- وأنا أيضًا سأفتقدها، رزقني الرب فيها بالمال والزوجة والولد!

ابتسمت قائلة:

- ولولا تعجلك الرحيل لرزقك الرب فيها بولد آخر!

انتفضت جالسًا، وقلت في سعادة:

- حقًّا؟ هل أنت حُبلى؟

قالت في خجل:

- نعم، و(هوى) أيضًا حُبلى!

ضحكت قائلًا:

- وكيف عرفتما؟

قالت:

- انقطع عنا الطمث شهرين متتاليين، ورأت (أم السعد) علامة الحمل علينا!

قلت متعجبًا:

- أي علامة؟!

قرصتني في كتفي قائلة:

- لا شأن لك بأمور النساء، ثم قالت:

- أتدري أن (أم السعد) قد أخبرتني أنني سألد ذكرًا وأن (هوى) ستلد أنثى؟

انفجرت ضاحكًا وقلت:

- لا تكف (أم السعد) عن إفساد فرحة (هوى) بأي طريقة كانت، ثم سألتها:

- وكيف عرفت (أم السعد)؟ هل سألت (طريفة) العرافة قبل موتها؟

قالت في جدية:

- كلا! لقد ميزت بيننا بالحنطة والشعير.

رفعت حاجبي دهشة، ولكنها تابعت في نفس الجدية بدون أن تأبه لدهشتي:

- أمرتنا أن نتبول على كيسين من الحنطة والشعير، فنبتت الحنطة مع بولي، ونبت الشعير مع بول (هوى).

شعرت بالغثيان وقلت:

- يالخسارة الحنطة والشعير! أما كان أطهر لها أن تأتي (طريفة) العرافة؟

قالت لائمة:

- لقد قالت لي إنها طريقة مجربة يا (شمعون) وأن جارية كوشية قد علمتها تلك الطريقة منذ عشرين عامًا!

قلت:

- وماذا لو نبتت الحنطة والشعير سويًا؟!

قالت متفكرة:

- أظن أن المرأة حينها تكون حبلى في طفلين، ذكر وأنثى!

قلت ساخرًا:

- وإن لم ينبت أي منهما تكون حبلى في قرد؛ أليس كذلك؟!

تصنعت الغضب وأولتني ظهرها وهي تقول:

- أنت تسخر مني يا (شمعون).

أحطت خصرها بذراعي وأنا أقول:

- أنا لا أسخر منك، ولكني أرفع عنك عبء التفكير!

استدارت قائلة:

- أريد أن أسعد قلبك بإنجاب ذكر آخر!

قلت وأنا أمسك ذقنها بأناملي:

- لا يهمني إن أنجبت لي فتاة فاتنة مثلك.

قالت في دلال:

- لن أنجب لك فتاة تشاركني تدليلك!

اقتربت بشفتي من أذنها ثم همست في رقة:

- لن تشاركك فتاة قلبي حتى وإن كانت ابنتنا!

هممت أن أقبلها، فابتعدت بوجهها قليلًا، وهي تضع أصبعها على فمي:

سألتها وقد ساورتني الشكوك:

- هل أدلت (أم السعد) إليك بنصائح الحمل؟

أغمضت عينيها حتى لا ترى ردة فعلي وهزت رأسها بالإيجاب!

زفرت في قوة وقلت:

- كنت أدري أن حديثك معها لن ينتهي إلى خير!

ثم قلت في غضب وأنا أوليها ظهري:

- لا أدري لماذا ترك السيل (أم السعد) وراءه!

• • •

وأطلق الحادي صفيره، فنادت الإبل بعضها بعضًا حتى امتلأت السماء بصوت رغائها، وسارت بنا نحو الشمال حاملة قبيلة الشيخ (عابر) إلى مستقرها الأخير، حين وصلنا إلى «الحجون»، تأخرنا أنا و(عمرو) و(ليث) و(شهوان) عن المسير، وقفنا فوق التلة التي وقف عليها (عمرو بن الحارث) من قبل ملقيًا رثاءه الأخير، لنلقي النظرة الأخيرة على «بكة» التي لا نعلم متى سنعود إليها، ودعنا «الصفا» و«المروة» و«عرفة»، وبيتًا كان عامرًا بالإيمان في يوم من الأيام، ثم صار أثرًا مهدمًا، يقف أمامه تمثال أحمر مبتور الساعد كي يشهد أن الشيطان الذي هزمه أبونا (إبرام) في «أور» و«كنعان» و«مصر» و«فاران» قد ظل يقتفي أثره في كل مكان حتى أفسد الوصية التي أوصى بها أبناءه. لم يوص (إبرام) أبناءه بأوض ولا بمسلك، فقط أوصاهم بأن يسلموا قلوبهم لرب واحد، فطمس الشيطان الوصية المقدسة، وجعلها وعدًا بالملك والعسل تارة، ووعدًا بالسقاية والوفادة تارة أخرى.

نظر (عمرو) نحو المعلاة، ودعا لجده الشيخ (عابر)، ثم نظر نحو سماء «بكة» ونادى بصوت عالٍ، ورددناه خلفه:

- «لبيك اللهمَّ لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك».

• • •



الكتاب الرابع

أدركت أن السعادة في تحقيق الغايات وليس تحقيق الأحلام
فالحلم ما هو إلا وسيلة للوصول إلى الغاية



الورقة الحادية والستون

كثيرة هي المنازل التي يمر بها الإنسان في حياته، ولكن تبقى في الوجدان الأماكن ذوات الذكريات، مررنا في طريق عودتنا على طريق الخور بكل الأماكن التي رأيناها في رحلة ذهابنا، ولكن شتان بين المرة الأولى والثانية، ففي المرة الثانية، اختفت الدهشة وغاب الترقب وحل محلهما التأمل واستدعاء الذكريات، تداعت الصور والمشاهد إلى رأسي بحلوها ومرها، وكأن الأرض تهمس في أذني بالذكريات، مررنا في طريق العودة بـ«يثرب»، مكثنا هناك أيامًا، ودَّعنا فيها عائلة الشيخ (أوس).

استعدتُ مع (أروى) ذكريات «سقيفة العشب»، وتحينت فرصة اختليت بها فوق الأريكة التي جلسنا عليها من قبل، وهممت بأن أقبلها، ولكنها دفعتني في صدري وقالت:

- احذر يا (شمعون) فقد يرانا أحد.

قلت ضاحكًا:

- أصبحت أكثر خوفًا بعد أن تزوجنا؟

قالت في خجل:

- لنا بيت نستتر به.

جذبتها وأنا أقترب منها بوجهي قائلًا في حنان:

- كم راودتني نفسي من قبل أن أقبّلك فوق تلك الأريكة، وأريد أن أحقق رغبتها الآن، فلعلنا لا نجلس عليها مرة أخرى.

لانت ملامحها وقالت:

- هل ما زلت تحبني نفس القدر؟

أحطت خديها بيدي ثم ضممتها إلى صدري قائلًا:

- بل أكثر من ذي قبل.

قالت:

- وهل ستظل تحبني حتى بعد أن نعود إلى قومك؟!

قلت:

- ولماذا يقل حبي لك بعد أن نعود؟

قالت:

- لا أدري ولكني أعرف كيف سيتقبلني قومك، وأخشى أن أكون سببًا للشقاق بينك وبينهم!

ضممتها أكثر بذراعي وقلت:

- لا شأن لنا بهم، فأنا وأنت لا نحتاج إليهم، ويكفيني من الدنيا أنني كنت وحيدًا فصارت لي عائلة!

ثم قلت في فخر:

- عائلة (شمعون بن زخاري)! يا لها من عائلة!

ثم أمسكت أصابعها وأخذت أعدد:

- أنا وأنت وأمي و(باتيا) و(إبرام).

ثم مسحت على بطنها بيدي وقلت:

- وهذا الذي يختبئ في جوفك الآن!

ضحكت وقالت:

ـ ونسيت (أم السعد) وعمتك (باتشيفا)!

قلت وأنا أشيح بوجهي عنها:

ـ أفسدتِ اللحظة كعادتك.

ضحكت، وقالت معتذرة:

ـ حسنًا لا تبتئس!

ثم أمسكت ذقني وأعادت وجهي إليها، أطالت النظر إلى عيني وقد انفرجت شفتاها، فأعادت إليّ الرغبة التي قاطعت وسط الكلام، فأمسكت وجهها وهممت بأن أقبلها مرة أخرى.. ولكننا سمعنا صوتي (الأمان) و(الليث) يقتربان، فأبعدت رأسها عني في سرعة، وانزوت في طرف الأريكة وهي تكتم ضحكتها، ولم تمر اللحظة حتى رأينا (الليث) و(الأمان) وهما عائدان يترنحان من الضحك من جهة معصرة الخمر، ويبدو أنهما قررا أن يستعيدا سويًا بعض الذكريات معًا!

وقبل أن نرحل أعاد (عمرو) و(الليث) إلى الشيخ (أوراس) قدور الخمر التي أهداها لأبي (يطور)، شكراه على نجدته لهم في أوقات الضيق، وأهداه (عمرو) عشر نوق إكرامًا له.. قبّلت يد الشيخ (أوراس) أثناء رحيلنا لأمحو أي أثر قد يكون علق في قلبه تجاهي، كنت أحمل محبة كبيرة في قلبي للشيخ (أوراس) رغم الخلاف الذي وقع معه، فيكفي كرمه ولين طبعه ولسانه العف الذي كان يغمر به كل من حوله.

وحين جاوزنا وادي الجيف، واقتربنا من الحجر، طلب منا (شهبور) أن نتوقف في الحجر لبضعة أيام، تعجّبنا من طلبه، ولكنه قال لي:

ـ لي دين أريد أن أسدده.

واختفى (شهبور) لأيام ثم عاد ومعه جماعة من الفرسان، تربو على المائة فارس، سأله (عمرو):

ـ من هؤلاء يا (شهبور)؟

قال (شهبور):

- هؤلاء من بقوا من فرسان «غرندل».

لم نعرف كيف عثر عليهم، ولا الغرض من جمعهم، ولكنه أفصح عن ذلك حينما التفت إليهم وقال بصوت عالٍ:

- يا فرسان «غرندل»، قد كان لـ(دعمي) دَيْنٌ عندي، ولكن أهلكه طمعه قبل أن أسدده إليه، وإني قد جمعتكم لأسدِّدَ ديني، وليشهد (سويطون) ورجال «غرندل» أن (شهبور) قد قضى دَيْنَه وأبرأ ذمته.

ثم اتجه إلى راحلته، حلّ حزامًا تدلّى من جانبي الراحلة والتفّ حول صُرّة من القماش، حلّ الصُّرّة وفتحها، فإذا بسبائك الذهب التي تحسب من أنوارها تتلألأ أمام أعيننا، حمل الذهب إلى قائد الفرسان، وسلّمه إياه وهو يقول:

- هذا حق ما سفكتموه من دماء العبيد في صحراء «إدوم»، وليغفر الرب لأخيكم (دعمي).

ثم أردف:

- عودوا إلى سابق كفاحكم ضد (هدد بن بدد)، وحرروا «غرندل» من قبضته، فأنتم أتقى من أنجبت أرض «إدوم».

ترجّل قائد الفرسان ثم وقف أمامه وقال باحترام:

- ستظل «غرندل» ورجالها شوكة في ظهر الإدوميين، ولن يهدأ حتى يرحل (هدد) برجاله عن «إدوم»، ويسعدنا أن تكون قائدنا يا شيخ (شهبور).

تنهد (شهبور) ثم قال:

- فات أوان ذلك أيها الفارس، ولكنني أعلم أن لي أسوتًا في «غرندل»، وسأحتمي بهم كلما دارت عليّ الأيام.

ودّعنا الفرسان وقطعنا طريق الحجر، وطافت بعقلي ذكرى (دعمي)، لم أرَ رجلًا في جسارته وقوته، وما زلت أرتجف كلما تذكرت لحظاته الأخيرة،

تحمل (دعس) أقداره، فسحقته عجلة القدر، لو صبر حتى يعود (شهور) لتحققت كل أمانيه.

قلت لـ(شهور) حين جاورني بفرسه في الطريق ورأيت على وجهه الطمأنينة:

ـ تخففت من كل أحمالك!

ابتسم ابتسامة الرضا وقال:

ـ ما أجمل السفر بلا أحمال!

قلت وقد انتبهت لأمر لم أسأله عنه من قبل:

ـ قل لي يا (شهور) لماذا لم تتزوج حتى الآن وقد وخط الشيب رأسك؟!

ضحك ضحكة قصيرة وقال:

ـ شغلني جمع المال في شبابي، وشغلتني أحوال اليمن بعد ذلك.

ثم تنهد قائلاً:

ـ كنت أشعر بأنني لن أعيش طويلاً! ولم أرغب في ترك أبناء يُعذَّبون من بعدي في بلد ظالم!

قلت ضاحكًا:

ـ وكيف تطيق الصبر على اعتزال النساء؟

قال مبتسمًا:

ـ كانت لي جوارٍ في «إدوم»، وحين بلغت الأربعين بعتهن كلهن! فلم تعد نفسي تطيق أحاديث النساء ولا ميوعتهن!

ثم قال جادًا:

ـ إن كنت أرغب في شيء الآن فهو أن أنجب ولدًا مثلك أو مثل (عمرو)، فلا شيء أفضل من أن ترى بضعة منك تكبر أمام عينيك! أليس كذلك يا (أبا إبرام)؟

قلت:

- صدقت.

ثم قال لي:

- لماذا أسميت ولدك (إبرام)، ولم تسمه (إبراهيم) بلسان العرب؟!

قلت آسفًا:

- لي قوم لا تزال في قلوب البعض منهم بغضًا نحو (بني إسماعيل)، تزوج أبي مصرية فظل منبوذًا بينهم، ثم تزوجت أنا عربية من (بني إسماعيل)، ولا أدري كيف سيكون حالي معهم حين يعرفون!

قال:

- ظني أن الأيام قد بدلتهم

قلت:

- أرجو ذلك؟

وحين اقتربنا من «إدوم» لم ندخل أرضها، انعطفنا غربًا في الطريق إلى «عصيون جابر»، ورغم وحشة هذا الطريق، وقلة القوافل به إلا أننا آثرنا ذلك تحسبًا لِلقاء غير محمود مع (جندار) وجنوده، ولعلنا أشفقنا على أنفسنا من أن نستعيد ذكريات حزينة عشناها هناك، فيكفي أن نتذكر ما حدث للشيخ (ثابت) على أبواب بصرى كي نكره المرور بتلك الأبواب مرة أخرى. سارت القافلة ببُطء لوعورة الطريق، ومرت أيام لا أدري عددها، قبل أن تلوح لنا مياه البحر في الأفق، انتبهت حواسي، وخفق قلبي، وتداعت الذكريات إلى رأسي تترى ونحن نجتاز أول موضع أشتم فيه رائحة أهلي منذ خرجت من «قادش برنيع». هنا كانت قرية الصيادين، التي عاش فيها (بنحاس) وأولاده، وتعرفت فيها على (عامير) صديق الصبا، وهناك على ذلك الشاطئ كنت أصطاد الأسماك مع صبية «عصيون»، ويومها صفعني أبي على وجهي حين عُدت إلى المنزل بسبب كذبي، وخلف ذلك التل كانت القرية تفر خائفة من هجمات بني إسرائيل عليها، بعد حادثة السبت التي أوجعت قلبي مكثنا في «عصيون

جابر، بضعة أيام، تزودنا فيها بالماء، وطعمنا من أسماك البحر، ثم استعدت القافلة للرحيل إلى «وشّة»، أرض (بني يطور) في برية «صين».

* * *

وصلنا إلى القرية التي صارت أطلالًا بعد أن غادرها (بنو يطور) لسنوات. لا شيء يثير الأحزان في النفس أكثر من منازل كانت عامرة ثم استحالت خرابًا. قضينا أيامًا أخرى من الشقاء في إعادة إعمار المنازل، أعيد تسقيف المنازل بالجريد والخشب، واستكملت الجدران التي تهدمت بفعل السيول والأمطار، ونظفت الحجرات من الزواحف والقوارض التي سكنتها بعد أن اطمأنت لغياب ساكنيها، ثم هدأ كل شيء، وكأنما أخلد الجميع للراحة بعد طول السعي والاجتهاد، ومرت أيام قبل أن تعود الحياة إلى القرية الساكنة، فاستعاد الناس نشاطهم، وأقاموا أسواقهم، وخرج الرعاة إلى المراعي.

ورأتني (أروى) بعد أن جعلنا دارنا في «وشة» في حال من الوجوم، سألتني:

- ما بك يا (شمعون)؟

قلت:

- أنتظر عودة الدليل الذي أرسله (عمرو) إلى مجمع البحرين.

ربتت على كتفي قائلة:

- لا تقلق! قريبًا سيعود إليك بالبشرى.

تنهدت وأنا أقول:

- ليتني رافقته، فأنا لا أطيق صبرًا.

قالت معاتبة:

- ترافقه وتتركنا؟

قلت وأنا أزفر في ضيق:

- أشق ما في الرحلة آخرها، ويكاد الجزع يقتلني وقد اقتربت الرحلة من نهايتها.

أحاطت رأسي بيدها ثم ضمتني إلى صدرها وقالت في حنو:

- لا تجزع، واشغل نفسك بالتفكير في حلاوة اللقاء.

ثم قالت مغيرة دفة الحديث:

- قل لي يا (شمعون)، كيف تبدو (رومانا)؟ هل هي جميلة؟

رفعت رأسي وقلت:

- لا أوجد أم غير جميلة، ولكن التي هي أجمل النساء!

قالت باسمة:

- حقًا يا (شمعون) لساخطر منها هكذا!

لم ألتفت إلى مقاطعتها، وقلت متابعًا:

- يصف المرء الشيء بالجمال إذا رأى منه جميلًا، فكيف لا تكون (رومانا) هي أجمل النساء وكل شيء بها جميل!

ثم أردفت في حزن:

- حين تريها يا (أروى) ستدركين ما أقول.

قالت في تأثر:

- أتمنى أن يحبني (إبرام) كما تحبها أنت!

قلت وأنا أجاهد حزني:

- وأتمنى أن يكون هو أرفق بك مني، فما جدوى الحب إذا فطر الإنسان قلب من يحب!

ثم أفلتت الدموع رغمًا عني وقلت:

- أرجو أن تسامحني أمي.

قالت وهي تضمني أكثر:

- مشتاقك، وستفرح بعودتك وبأسرتنا يا (شمعون)!

وقضيت الأسابيع التالية، أحاول أن أتغلب على قلق الانتظار، بالخروج مع الرعاة إلى المراعي لرعي الأغنام والإبل، أحمل معي دواتي وأقلامي وأوراقي، وأقضي النهار في المرعى، أكتب في أوراقي أخبار الأيام الأخيرة من سنين الغربة التي قضيتها وحدتي بعيدًا عن أمي وعن بني إسرائيل، وبينما كنت كذلك، رأيت (عمرًا) و(شهبور)، يقتربان تجاهي، أدركت من ملامح وجهيهما أنهما يحملان أنباء غير سارة، طويت الأوراق وسألتهما في لهفة:

- هل عاد الخليل؟

قال (عمرو) وهو يتنهد:

- نعم، ولا أثر لهم في «عصيم الحرمين» ولا في «حوريب»!

قذفتني خيبة الأمل إلى قاع اليأس، فقلت منتشيًا بالاستنكار:

- كيف لا يعثر الخليل على قوم من عشرات الآلاف في الصحراء؟

قال (عمرو):

- للبرية وديان ودروب لا تحصى يا (شمعون)، وقد اقتفى الخليل الأثر حتى انقطع.

قلت في غضب:

- بل انقطع عزمه، قبل أن ينقطع الأثر، لو كنت رافقته، لما عدت بدونهم!

قال (عمرو) مهدئًا:

- لا تستهين بجهده يا (شمعون)، فهو خبير الأدلاء في تلك الصحراء، ولو كانوا في تلك الناحية لوجدهم لا محالة!

قال (شهبور):

- أليس من الممكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى الشمال مرة أخرى؟!

قلت متحيرًا ورأسي تتخبط من الحزن:

- قد كانت «قادش» آخر منازلنا!

قال (شهبور):

- أرى يا (عمرو) أن ترسل دليلًا آخر إلى الشمال، فلعلهم توجهوا إلى «قادش»!

قال (عمرو):

- لا بأس!

قلت في حسم:

- أريد أن أرافق الدليل!

قال (عمرو):

- الرجل لا تقلق! قد يضلك العدو وراء الأمل في الصحراء.

قلت منهيًا أي جدال:

- لن أطيق البقاء هنا! سأذهب معه إلى «قادش»!

قال (عمرو) في استسلام:

- حسنًا سأرافقك.

قال (شهبور):

- كلا، بل انتظر أنت يا (عمرو)، وسأرافقه أنا!

نظرت إليهما بامتنان، ثم قمت واقفًا وقلت:

- هيّا أرحل إلى «قادش».

• • •

الورقة الثانية والستون

وأمسكتني (أروى) باكية وقالت:

- أخشى عليك الذهاب يا (شمعون)، دع الملك يلحق بالعسكر وانتظر هنا حتى يعودوا!

- سيقتلني الانتظار إن بقيت!

- وماذا لو لم تجدهم هناك؟

- حينها ستقتلني خيبة الأمل!

- لا تفعل بي هذا يا (شمعون)!

- الأيام هي من تفعل!

- عدني أن تعود سريعًا مهما حدث!

تنهدت.

قالت مرة أخرى:

- عدني!

- أعدك أن ألقى ملكي سالمًا وأن أعود!

وقبل أن أتحرك سألتها:

- أين (إبرام)؟!

- أخذته (تيماء) لتلهو معه!

- قبّليه لأجلي! فلا وقت لديّ، الدليل بانتظاري وسيتحرك الركب!

- ألن تُقبّلني أنا أيضًا؟

قبّلتها، وأنا أهرب من عينيها، ثم انصرفت.

وخرجنا من (رشة) نقصد الشمال، كان الطريق إلى «قادش» مطروقًا من البدو والرحالة، تمر به القوافل ويقطعه الرعاة في نهايات الشتاء من أجل الوصول إلى الواحة الخضراء قبل قدوم الربيع، فالربيع هو أفضل مواسم الرعي بتلك الأرض. ما زلت أذكر أشجار الواحة وعيون الماء المتدفقة بها، كما ما زلت أذكر كوخنا الذي أقامه أبي بجوار «عين جديرات». المسافة بين «رشة» و«قادش» تستغرق عشرة أيام، ولكننا داومنا على السفر بدون راحة لعلنا نصل إليها قبل ذلك. كنا نتحرك مع أول شعاع للشمس، ونتوقف مع آخر ضوء للشفق، وفي الليل، نريح النوق، وننام إلى جوارها بعد أن نشعل نارًا لترد عنا برودة الليل.

في صبيحة اليوم السابع، خفق قلبي لمرأى سحابة من الغمام تظلل واديًا على مقربة منا. ذكرتني تلك السحابة بسحابة الغمام التي كانت تظلل نزلنا، صحت على الدليل و(شهبور) وأنا أشير جهة الوادي:

- (شهبور) هناك!

نظرا طويلًا نحو الوادي فلم يجدا شيئًا، قال الدليل:

- لا أرى شيئًا!

قلت:

- انظرا إلى سحابة الغمام.

قال الدليل:

- هذا وادي «زِمّة»! السحاب يتكاثف فوقه أواخر الشتاء!

قلت:

ـ كانت سحابة الغمام تظللنا كلما نزلنا منزلًا في برية «سين»!

لم يبدُ عليهما التصديق، فأردفت:

ـ لن تخطئ عيني سحابة ظللتني لعشر سنوات أو يزيد، أشعر أنهم هناك، وظني أن الدليل لم يرهم في وادي «حوريب»؛ لأن السحابة كانت تحجبهم!

ولعل (شهيون) لم يشأ أن يطفئ في قلبي بريق الأمل فأدار راحلته وقال للدليل:

ـ هيا بنا.

خرجنا من طريق القوافل وتحدرنا إلى الطريق الوعر جهة الوادي، وكنا كلما اقتربنا من الوادي، باتت الرؤية من أسفل الغمام الذي يكتب أكثر فأكثر، حتى ظهر المشهد جليًا واضحًا، شهقت حين رأيت عشرات المئات من الخيام وقد انتشرت بطول الوادي، وصرخ (شهيون) في فرح، وانهارت دموعنا في غبطة. قلت:

ـ ذلك هو نزلنا وهؤلاء هم قومي.

اقتربنا حتى أصبحت قادرًا على تمييز رايات كل سبط، ورأيت من فوق السفح خيمة الاجتماع وهي تتوسط الوادي وأمامها المبخرة العظيمة التي يتصاعد منها البخور المقدس ليملأ سماء النزل. جال بصري في سماء النزل تبحث عن راية (سبط رأوبين) في شوق، رأيت الراية كما هي وكأن السنين لم تمر عليها، أنخت الراحلة ونزلت من فوقها، ففعل (شهيون) مثلي، قلت للدليل وأنا أرتجف:

ـ أعقل الناقة هنا! فلن أدخل النزل راكبًا.

هبطت أواخر السفح بأقدام مرتعشة، ويد (شهيون) تمسك بمرفقي لتشد من أزري، تعلق بصري براية (سبط رأوبين)، فسرت نحو خيام الحي كأنني مسحور، أسير بين الدروب وكأني أحفظها عن ظهر قلب، ويقودني فؤادي نحو بيت رأيته في أحلامي مئات المرات، بيت من الحصير والخوص، ينزوي في ركن الحي كما كان ينزوي طيلة عمره.

اقتربت من باب البيت وقلبي يرتجف ارتجافة شاة مذبوحة، لم أشعر بوطأة أقدامي على الأرض فتشبثت بذراع (شهبور) كي لا أسقط كحفنة من الرمال على أعتاب بابها.

ورأيتها..

رأيتها تجلس في صحن البيت على أريكة الأرائك.

تدنو برأسها من طبق البُرّ، وتبحث بعين مجهدة عن الحصى بين حباته.

شعرها الأسود الفاحم كما هو، وأصابعها الطويلة التي طالما عزفت الناي تعبث في طبق البُرّ ببراعة.

رائعة أنت يا سيدة المقام، ويا ربة القصر رغم الحزن وأنت تتقصين الحصى بعين أجهدها البكاء!

قلت بحروف تساقطت فراداى من الحزن والحنين، فخرجت هامسة لا تتجاوز حلقي:

- (رومانا)!!

ورغم ذلك وصلتها حروفي، وكأنما شعر بها قلبها قبل أذنيها، رفعت رأسها ثم نظرت نحوي، فالتقت الأعين في عناق يفترش الشوق ويمحو الزمن، وكأنما كنت أنام في حجرها أمس، ألقيت بنفسي على قدميها أقبلها وصرخة فرحها تعلو على صوتها وهي تقول:

- (شمعون) ولدي!

ألقيت برأسي في صدرها وأنا أجهش بالبكاء، وصوتي يخرج من الأعماق كغريق عاد إلى الحياة:

- سامحيني يا أغلى ما ملكت.

اعتصرت رأسي في صدرها وتخللت أصابعها شعري وهي تقبض عليه في قوة وكأنها تريد أن تتيقن أن ما تراه ليس طيفًا من الوهم سيرحل عنها، تتشممني ثم تمسحت وجهي وكأنها تملأ حواسها كلها بوجودي ولسانها يردد:

- (شمعون).. أنت (شمعون)!

قلت وعيني تذرف بلا انقطاع:

- نعم، أنا (شمعون)، (شمعون) التائه منذ فارق حضنك، (شمعون) الذي أتى بخطيئة لا غفران لها يوم تركك وحيدة، (شمعون)...

وضعت يدها على فمي، ثم قالت في حنان بالغ أذاب اضطرابي:

- بل (شمعون) ولدي الذي لم أيأس يومًا من عودته، (شمعون) الذي حدثني عنه (بخاري) في أحلامي وقال إنه مخمور بـ (السحر) الذي يشرب الرب قرب عودته على لسان كاهن خبيث!

(شمعون) الذي خرج وأنا على يقين بأنه سيعود.

احتضنتها بذراعي، واحتضنتني وأنا لا أدري على خجلي أم أصحح بحضنها! وصحبني حضنها الطويل ووجدت فيه عالمًا مليئًا من الطمأنينة، أذهب قلق العمر، ومنحني السلام الذي ظللت أنشده طيلة سنوات الارتحال.

انتبهنا لوجود (شهبور) حين علا صوتُ بكائه، ووضعت أمي خمارها فوق رأسها، مسحت دمعي وأنا أقول لها:

- هذا رفيقي التاجر (شهبور)، لم أقوَ على دخول الحي بدونه!

قال (شهبور) وهو يمسح دمعه:

- معذرة يا سيدة الدار على اقتحامي لداركم

قالت:

- مرحبًا بك أيها الشيخ! تفضل!

ثم قالت لي:

- أكرم ضيفك يا (شمعون).

قال (شهبور):

- أشكرك يا سيدة الدار، سأترككم وألحق بالدليل، ولكن لي طلب وددت

أن أعرفه! أين أجد نبي الله (موسى)؟

قالت:

ـ ستجده في خيمته بجوار خيمة الاجتماع.

قلت له:

ـ آتي معك؟!

قال: كلا اذهب إلى جوار أمك، فلكلٍ منا شوق يناديه

ثم استأذن وانصرف.

• • •

جلست قبالتها أملأ عيني بها، ومدت هي أناملها تتحسس وجهي وجبيني الصغيرة الناعمة، ضممت يدها في راحتي ثم قبلتهما ممتنًا وقلت لها:

ـ تزوجت وأنجبت ولدًا أسميته (إبرام) تيمنًا بأخي

قالت في فرح، رغم ألم عينيها:

ـ كنت دائمًا أتمنى أن أراك زوجًا وأبًا، سعيدة لأنك لم تضيع سنين الغياب هباءً.

قلت معتذرًا:

ـ ما جئتكم هروبًا، أفجعني ضياع حلم أبي، وأردت أن أبحث عن الرب بعيدًا عن بني إسرائيل.

مسحت على رأسي ثم ضمتني إلى صدرها وقالت:

ـ كان الرب بيننا طيلة الوقت، ولكنك لم تبحث عنه بداخلك.

قلت:

ـ في القرب يتوه المرء في التفاصيل، أردت الابتعاد كي أرى الصورة كاملة.

قالت وهي تربت على ظهري:

ـ لا بأس، المهم أنك رأيتها!

قلت:

- تزوجت حفيدة الشيخ (عابر) الذي استضافنا في «رشفة»، أتذكرينه؟!

قالت وقد قطبت حاجبيها وكأنها تتذكر الاسم:

- (أروى)؟؟!

قلت مندهشًا:

- كيف تذكرين اسمها؟!

قالت:

- أصحبة أيام أبيك يومًا بيوم أكانت ذكراه من تيسير وحدها!

قلت وقد انتبهت إلى أنها وحيدة في المنزل:

- أين (بانيا) ومعتي (ناشيما)؟

أجابت عن الأولى وأغفلت الثانية، فقالت:

- قد تزوجت (بانيا)!

قلت مندهشًا:

- (بانيا) الصغيرة تزوجت!

ضحكت ثم قالت:

- لم تعد صغيرة يا (شمعون)! جاوزت الحيض بأعوام!

قلت:

- ما زالت في نظري (بانيا) الصغيرة التي تجلس على صدري، من زوجها؟

ابتسمت وقالت في هدوء:

- تزوجها أخوك.

نظرت إليها متعجبًا، فأردفت:

- (عامير)!

أفرغ نطق اسمه في قلبي بهجة لا توصف، قلت وأنا أردد اسمه:

ـ (عامير)!!

قالت:

ـ نعم، عهدت إليه برعايتنا فأتم عهده إليك بزواج أختك!

تذكرت رسالتي التي تركتها له، وكأنها قرأت ما في رأسي فقالت:

ـ ما زلت أحتفظ برسالتك!

قلت مبتسمًا:

ـ ما أخبار صديقنا له بالفصل، أين هو؟

قالت:

ـ يرعى أغنام القرابين، ويخرج (ماميا) لتعليم أطفال بني إسرائيل القراءة والكتابة!

زادت الدهشة في عيني فأردفت:

ـ يربيّ (موسى) و(يوشع) جيلًا جديدًا من أبناء بني إسرائيل.

شعرت بالسعادة لتلك الأنباء، وتذكرت كم عانى جلي أبي بسبب شيوخ بني إسرائيل، قلت لها:

ـ وابن عمتي (يالشيفا)؟

لم تجب.. وعلا وجهها الأسف، فقلت حزينًا:

ـ ماتت؟

قالت في أسف:

ـ نعم، ادعُ لها بالرحمة.

ثم تنهّدت قائلة:

ـ فجعتنا نهايتها وهلكت أثناء الثورة.

شعرت بالألم، فقلت:

- ماذا حدث لها؟ وأي ثورة؟!

تنهَّدت ثم قالت:

- كان ذلك بعد رحيلك بعام، حين قام (قورح) بثورة عارمة على (موسى) و(هارون).

تذكرت اسم (قورح) قلت، لها:

- (قورح من اليصهار)؟!

أومأت برأسها وقالت:

- نعم.

قلت:

- ما زلت أذكر نقمته على (موسى) ومريم الشعبات (تابلا) و(إبراهيم)؟

قالت:

- نعم، وكانا أعوانه في الثورة!

قلت:

- وكيف وقع الأمر؟

قالت:

- عهد إليهم بتعليم الناس أمور الشريعة، فامتنعوا إلا إذا صارت لهم الكهانة بدلًا من الكاهن (هارون).

قلت متعجبًا من كبرهم:

- يا لصلفهم! وماذا حدث؟

قالت:

- رفض (موسى) طلبهم، فدعوا سبط رأوبين إلى الانفصال عن (موسى) وأقاموا لهم خيمة كبيرة كخيمة الاجتماع.

قلت مذهولًا:

- وهل استجاب لهم سبط رأوبين؟!

تنهدت، ثم أومأت آسفة وقالت:

- استجاب له الكثير، ومنهم عمتك (بانشيفا)!

ثم قالت وهي تشعر بآلام الذكرى:

- ما زلت أتذكر يوم خروجها، قلت لها: لا تتبعيهم يا (بانشيفا)، لو كان (زخاري) حيًّا لقاتلهم على ذلك! فقالت غاضبة:

«هؤلاء قومنا ولن أخذلهم! أضاع (زخاري) عمره ولم يغنم بمعنى الأمل ولا العشيرة».

صمتت قليلًا ثم قالت:

- يومها اجتمع مائتان وخمسون من كبراء سبط رأوبين إلى خيمة (قورح)، أعلنوا العصيان على (موسى) ونصبوا (قورح بن يصهار) كاهنًا أكبر لهم وأقاموا مبخرة عظيمة فاق دخانها دخان مبخرة خيمة الاجتماع! وفجأة انهارت بهم أرض الخيمة، وسقطوا جميعًا في حفرة واحدة، أمسكت نيران المبخرة في الخيمة وملأ صراخهم سماء النزل، ولكن لم يستطع أحد من بني إسرائيل أن يمد لهم يد العون، ماتوا محترقين!

أغمضت عيني وأنا أشعر بالألم!

شعرت بالأسف على العمة (بانشيفا) التي لم تغيرها كل المحن التي مرت بها، فاختارت أن تختم حياتها تلك الخاتمة المؤلمة، أدركت أن السنوات التي غبتها، كانت سنوات فرز وتمحيص، كان (موسى) فيما سبق يدعو جمهور الشعب العاصي للدخول في حظيرة الإيمان، أما الآن فهو ينتقي العصاة من بين جمهور الشعب ثم يلقي بهم بعيدًا عن الجيل الذي يُعِدّه لدخول الأرض المقدسة، تمامًا مثلما كانت أمي تنتقي الحصى من طبق الأرز.

أمسكت أمي بيدي حينما رأتني واجمًا وقالت:

- دعْ عنك تلك الأخبار الحزينة، واحكِ لي عن أخبارك طيلة تلك السنوات!

ضحكت وقلت:

ـ بعضها أكثر حزنًا! ولكني تعلمت أن الحزن لا يدوم.

ضحكت هي الأخرى وقالت:

ـ يكفيك من غربتك أن تتعلم ذلك الدرس!

ثم قامت وهي تجذب يدي وقالت:

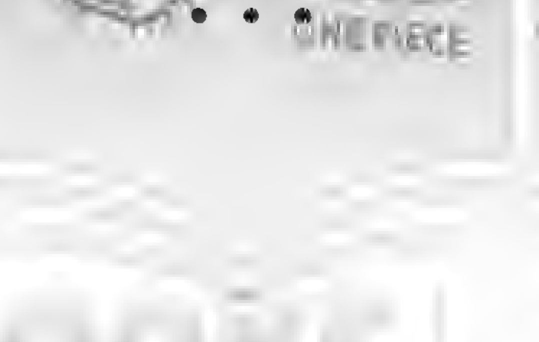
ـ هيا قُم إلى الفضي، ولا تتوقف عن الحديث وأنا أعد لك الطعام! فلعلك تشتاق إلى السلمون!

قلت وأنا أرفع يدها لأقبلها.

ـ اشتاق إلى أي طعام تطهوه يداك!

ثم انطلقت في حديث لا يتوقف عن الذكريات

• • •



الورقة الثالثة والستون

حين جلسنا جميعًا للطعام في المساء شعرت بأن السعادة تغمرني، (بانيا) الصغيرة أصبحت شابة فاتنة، وجهها المشرق شديد البياض وعيناها الزرقاوان، يذكرانني بجمال العمة (سولاف)، وأما (عامير) فقد صار عملاقًا أسمر بدينًا، تضاعف وزنه مرات ومرات، ربما لقلة الحركة في المراعي أو لكثرة الأكل من لحوم القرابين، الفارق بين ضخامته وضآلة (بانيا) كانت تزداد حينما تأمره (بانيا) بشيء ما فيسرع إلى إجابة طلبها، الأمر الذي جعلني أشعر أن (عامير) الأسمر الطيب يذوب عشقًا في الفتاة الصغيرة الفاتنة. انضم إلينا (أشهور) في الطعام، ولكنه انصرف بعده مباشرة، شكر أمي على طهيها ثم غادرنا حتى يترك لنا فسحة السمر وحدنا، وحين جمعنا البيت الدافئ شعرت بأن روح أبينا، تضحك لضحكتنا وتتطلع إلى الأسرة التي اجتمع شملها في حنان، سألتهم عن أصدقاء أبي القدامى، فقالت أمي في أسف:

ـ مات (بصلئيل بن حور)!

قلت في حزن:

ـ رحمة الله عليه، كنت أشتاق إلى الحديث إليه.

سألت (عامير):

ـ وماذا عن النقباء الاثني عشر؟!

قال:

- هلكوا جميعًا وكان آخرهم (شموع بن ذكور)، ثم قام واقفًا وقال:

- قد ترك لك (شموع بن ذكور) شيئًا.

ذهب إلى صندوق كبير اتكئ على الحائط ففتحه، وغابت رأسه بداخله لحظات قبل أن يخرج حاملًا بعض لفائف البردي المرتبة، وقدمها إليّ، أمسكتها بيدي فقرأت صفحتها الأولى لأجد مكتوبًا بها:

«شهادة شموع بن ذكور عن رحلة النقباء الاثنى عشر إلى الأرض المقدسة».

تنهدت وأنا أكتم بكائي بعدما تذكرت تلك الرحلة المشئومة، واحتفظت بتلك الأوراق لإضافة ما بها إلى أوراقي، لاحظت سألت أمي وأنا أشير إلى الصندوق:

- هل ما زلت تحتفظين بقبعة الفارس؟

ضحكت وقالت:

- بالطبع!

قلت في فرح:

- حقًا؟

قالت:

- نعم، هذا الصندوق يحوي كل ذكرياتنا، ملابسك وملابس أبيك، والذي أيضًا أدوات النجارة التي كان يعمل بها، يتنسف الإنسان بمقتنيات من يحب حتى يشعر بوجوده حوله!

سألت (عامير):

- لماذا لم تعمل في النجارة يا (عامير) كما كنا نعمل؟

ضحك وقال:

- لم أكن أجيد الصنعة مثلك! كما أن الشيخ (عالي) دعاني كي ألتحق بالخدمة في بيت الرب بعدما رحلت أنت.

سألته:

- إلى متى ستمكثون في وادي «رتمة»؟

قال:

- أصبح المقام في الترحال يطول، وظني أننا سنمكث هنا شهورًا!

قلت:

- ظننتكم ستصعدون قريبًا إلى «قادش».

صمت قليلًا ثم قال:

- أتدري يا (شمعون) أن شعب إسرائيل لم يطأ «قادش» منذ أن مات أبونا (رخاوي)، اقتربنا منها مرات ومرات، ولكننا لم ندخلها.

قلت:

- إذن ما دام البقاء سيطول في «رتمة»، لماذا لا تأتون معي إلى «رمة» كي أحضر (أروى) و(إبرام)؟!

قالت (بانيا) في فرح:

- حقًا، أشتاق إلى رؤية بيتك وزوجتك يا (شمعون)!

رأيت الرفض على وجه (عامير) ولكنه لم يعارضها، فقلت مشجعًا:

- ستفرحين هناك يا (بانيا)، لي بيت من الحجر، وماشية ترعى، وجارة و...

قاطعتني أمي قائلة:

- كلا يا (شمعون)! لن نغادر نزلًا فيه بيت الرب رتبه.

قلت مستعطفًا:

- أشفق عليكم يا أمي من كثرة الترحال، والعيش في الخوص والخيام طيلة هذه السنوات، ولا بأس من أن تنعموا ببعض الراحة قبل أن نعود إلى هنا.

قالت (باتيا) مستحثة إياها:

ـ أما تشعرين بالسأم يا أمي من حي «رأوبين»؟

ثم أردفت في ضيق:

ـ يكفي ما نراه من أبناء (عزرا) كي نهجره إلى الأبد.

قلت:

ـ من أبناء (عزرا)؟

قال (عاصي):

ـ هم جيران لنا في حي «رأوبين» يقضون حفلًا على كل ذي فضل، مالنا شذرات من بعضهم بعدما أكرمنا الرب وأنقذنا من قبضة جنودهم.

قلت باسمًا:

ـ هذا أدعى بأن تتركوا هم الحي لبعض الوقت يا أمي.

قالت أمي في حسم:

ـ لن أفارق المنزل يا ولدي، إن شئت ذهبت فأحضرت أهلك، وإن شئت أتى بهم الدليل، أما أنا فلن أفارق صحبة نبي الله (موسى) حتى يتوفاني الرب.

استسلمت لرأيها ولم أشأ أن أعصيها، فقلت وأنا أقبل يدها:

ـ سأرسل إليهم الدليل، فأنا لا أستطيع فراقك مرة أخرى.

وقام (عاصي) و(باتيا) ليبيتوا في دارهم، بينما قضيتُ أنا الليلة في فراش أمي، بعد سنوات وسنوات من الشوق إلى ليلة كهذه.

* * *

ذهبت أنا و(شهبور) إلى خيمة الاجتماع في ساعة مبكرة من الصباح، أخذ (شهبور) ناقته وقد عزم أن يقدمها قربانًا للرب، نظرت إلى وجهه الذي اكتسى بالسكينة وسألته:

ـ وكأنك قد عزمت ألا تعود ثانية إلى «فرشة».

عقل (شهبور) الناقة في عمود الخيمة الخارجي بجوار المذبح، ثم نظر إليّ وقال في صفاء:

- لن أفارق هذا النبي ما حييت يا (شمعون)! رأيته أمس يجمع أطفال بني إسرائيل ويحكي لهم عن أبينا (إبراهيم) و(إسماعيل)، فانهارت الدموع من عيني. ما أحلى كلامه وما أصدقه!

مررنا من باب الخيمة فغمرنا البخور المقدس برائحة أعادت إلى قلبي ذكريات مضت، ووقفنا أمام كاهن صغير السن يدل على أنه من أحفاد (هارون)، كان الكاهن الصغير يرش الماء المقدس الذي تليت عليه الصلوات في أركان الخيمة، حين رآنا سألنا:

- فيم تقدمان الذبيحة؟ هل هي للخطيئة؟

قلت:

- بل هي ذبيحة السلامة، نقدمها شكرًا للرب.

كان (شهبور) يتلفت حوله وهو يتطلع إلى سقف الخيمة، والمذبح ومرحضة الماء المقدس، ثم نظر إلى قدس الأقداس نظرة طويلة، وهمس في أمل:

- ما هذا؟

شعر الكاهن الصغير بما يدور في ذهنه، فقال:

- هذا قدس الأقداس!

قال (شهبور):

- أهذا المكان الذي يحل فيه وحي الرب؟!

قال الكاهن مبتسمًا:

- نعم.

شعرت برعشة جسد (شهبور) حينما أمسك بيدي، وأراد أن يتحرك نحو قدس الأقداس، ولكن الكاهن استوقفه وقال:

- لا يدخله إلا نبي أو كاهن!

ثم وضع إصبعه على صدر (شهبور):

- يتجلى الرب على كل شيء ويسكن في قلوب عبيده، ادعه وسيسمعك، وإن شئت دعوت لك.

جلس (شهبور) على ركبته وقال:

- ادعُ لي!

وضع الكاهن يده على رأسه، ومسح رأسه بالماء المقدس ثم طاف بمجمرة يفوح منها رائحة البخور والعنبر فوق رأسه وهو يتلو عليه بعض الصلوات، وبعد أن فرغ سألني الكاهن:

- أترغب في أن أصلي لأجلك أيها الشاب؟

قلت شاكرًا:

- سأصلي أنا بنفسي!

غسلت يدي من الماء المقدس ووقفت معتدلًا وقد أدرت وجهي جهة المقدس، كانت أول صلاة لي في خيمة الاجتماع منذ سنوات، لم أحفظ الكثير من التراتيم في حياتي، ولكني أدركت أن خير الصلاة ما ينبع من القلب، وكان قلبي حينها مفعمًا بالشكر، شكرته أن حفظ لي أمي حتى أراها، وشكرته أن أعادني إلى قومي، وشكرته على كل ما حدث لي في حياتي، شكرته لأنه الحافظ والمدبر والمجزي، وأن أقداره كانت ألطف بي مما تمنيته لنفسي.

فرغنا من الصلاة ثم سرنا إلى التل نلتقط قطعًا من المن، وضع (شهبور) إحداها في فمه فتذوق حلاوتها في فيه وامتلأت نفسه بالبهجة فقال:

- أتدري يا (شمعون) ما أكثر ما فضلكم به الرب!

قلت مبتسمًا:

- لعله ذلك المنّ الذي يذوب في فمك حلاوة؟

ابتسم قائلًا:

- كلا، ولكنه ذلك الوحي الذي لا ينقطع عنكم، ما أجمل أن يحيا الإنسان في مكان تتجلى فيه كلمات الرب!

قلت:

- صدقت.

تنهد ثم قال في حزن:

- أتظن أنه سيأتي يوم يرسل فيه الرب إلى (بني إسماعيل) من يجمعهم ويعيدهم إلى ملة أبينا (إبراهيم) كما فعل (موسى)؟!

قلت في يقين:

- أجل، وقلبك ليس يحمله غالبًا من (بني إسماعيل) رجال مثلك ومثل (عمرو).

ودعنا الدليل الذي رافقنا في رحلتنا من (قرية)، بعد أن أمددته بالمال والطعام، وطويت له رسالة أرسلتها إلى (عمرو بن دومة)، طلبت من (عمرو) في الرسالة أن يحيه (أروى) و(إيرام)، وأن يصحبني بضع نوق أجعلها لأخي (عامر)، حتى يكف عن الرعي في أموال الصدقة، وقضيت الأيام التالية كمن يروي عطشه بعد طول الظمأ، كنت أمكث ساعات طويلة في المساء إلى أمي وأختي و(عامر) أروي لهم ما مرّ بي من أحداث في بقعة أخرى من تلك الأرض لا يعلم عنها بنو إسرائيل أي شيء، ورأيت الشغف في أعينهم ورأيت الفخر في عيني أمي، وكانت نظرة الفخر تلك كفيلة بأن تمحو من نفسي إحساس الندم الذي رافقني طيلة السنوات الماضية، فلا شيء أكثر برًّا من أن تجعل أهلك يفتخرون بك!

وفي كل صباح، كنت أنا و(شهبور) نلازم مجلس نبي الله (موسى)، نستمع إلى أحاديثه وتعاليمه التي يلقيها على الرجال في خيمة الاجتماع، فتمتلئ نفوسنا ثقة بأن الرب يرعانا ما دام نبي الله بيننا، ورأيت حماس بعض الشبان في تدوين

وصايا النبي (موسى) في رقاع من الجلد، يتداولونها فيما بينهم بعد انتهاء الدرس، ففعلت مثلهم، وكنت أمكث ساعات بعد انتهاء الدرس، أكتب ما أستطيع كتابته في أوراق البردي وأطلع على ما يكتبه الشبان الآخرون، فراودتني رغبة في أن أجمع كل هذه التعاليم في سفر كبير يحفظها من الضياع، حتى جاء يوم اختلف فيه بعض الشبان على مسألة ذكرها (موسى) في درس سبق، فكتبها أحدهم بطريقة، وكتبها الآخر بطريقة أخرى، فوقع خلاف بين التلميذين، ووجد كل واحد منهما فريقًا ينصره، فخرج إليهم الكاهن (هارون) وقال لهم: إن الرب قد أمر نبيه (موسى) بأن يخبر الشعب بالا يختصموا، وأنهم يوم يعبرون نهر الأردن سوف يقومون بنقش وصاياه الأخيرة على حجر كبير يشيدونه وينقشون عليه كلمات الناموس نقشًا جيدًا، ورغم أن بعض التلاميذ قد استمروا في تدوين الوصايا، إلا أنني توقفت عن كتابتها، ووجدت أنه من الخير ألا أكتب شيئًا يضعه الناس من بعدي في وصايا الرب وهي مما فهمته أنا.

وفي صبيحة يوم انسلخت فيه الشمس لنفسها طريقًا بين الغيام، فأشرقت على نزلنا وأثارت فيه الدفء، وصلت قافلة (أروى) إلى "رنمة"، وكانت مفاجأة عظيمة بالنسبة لي أن جاء الدليل، ومعه بضعة فرسان من (بني يطون) ترافقهم عشرات النوق المحملة بالبر والتمور والبخور، أثارت القافلة التي اخترقت خيام النزل وأناخت رواحلها في حي "رأوبين" فضول الناس، وتساءلوا عن صاحب تلك القافلة القاطن في حي "رأوبين"، هرولت إلى (أروى) و(إبرام) احتضنتهما، وخرجت (روماتا) وعيناها تفيض بالبكاء والفرحة، وهي لا تصدق أن ولدها اليتيم قد صار له هذا الشأن العظيم، احتضنتها (أروى) وقالت وهي تبكي:

- اشتقت لرؤيتك كثيرًا يا أماه، أنتِ أجمل مما حكاه (شمعون) عنك بكثير!

احتضنتها أمي وهي تقول:

- وأنتِ أجمل من رأت عيني يا (أروى)، بارك الرب فيك يا قرة العين.

ثم هبطت على ركبتيها فحملت (إبرام) الذي كان يمسك جلباب أمه

خائفًا، ولكنه استكان حين ضمته أمي إلى صدرها، وفاضت عين أمي بالبكاء وهي تقول:

- بني ولدي الحبيب (إيرام).. حمدًا للرب، حمدًا للرب، ليتك حي يا (زخاري) لتقر عينك كما قرت عيني.

وجمعني الرب بأهلي أجمعين بعد سنوات من التيه والشقاء، ما كنت أظن في أحلامي أن أنال ذلك الفضل، وما ظننت أن تتلطف بي الأقدار إلى هذا القدر حتى تجمعني بكل من أحب في مكان واحد.. أمي ووالدي وأختي وأصدقائي، وفوق كل ذلك صحبة نبيي ومعلمي.

ولم أدرِ وأنا أتمتع في نشوة الفأل أن الأقدار لا تزال تحمل لنا في جعبتها البلاء، زلزل سكينتنا وكاد أن يعصف بحياتنا للأبد.

• • •



الورقة الرابعة والستون

أثارت العاصفة في حي (الراوبين) أقاويل الناس، وأعادت إلى الأذهان ذكرى (زخاري) النجار الذي مات في «قادش برنيع» وتداولوا حكاية الصبي الذي غادر بني إسرائيل صغيرًا ثم غاب لسنوات ليعود بزوجة غريبة وثروة طائلة. لم تشعر أمي بالراحة من تودد الناس في حي (الراوبين) إليها، طرق الباب للمرة العاشرة في ذلك النهار ففتحته لتجد إحداهن تسألها أن تقرضها صاعًا من البُر، أعطتها أمي الصاع وهي تعلم أنها لن ترده، ثم أغلقت الباب وقالت متبرمة:

- تركونا لسنوات بعد وفاة (زخاري) دون سؤال، وهاهم يتوددون إلينا الآن!

قلت باسمًا:

- الحمد لله الذي جعلهم بحاجة إلينا ولم يجعلنا بحاجة إليهم.

قالت باسمة:

- تتحدث مثل أبيك!

كانت (أروى) تجلس على الأريكة، وقد انتفخت بطنها وبان حملها فقالت ضاحكة:

- لو ظل الباب يطرق على هذا المنوال لقلعت أحولة الدرج قبل الصباح.

قلت غير مكترث:

- ومن يبقيها للصباح! سأنتظر حتى يعود (عامي) و(شهور) في المساء وسنهديها قربانًا لبيت الرب!

رفعت (أروى) حاجبيها دهشة، وقالت:

- ألن تترك لنا منه شيئًا؟!

قلت:

- وما حاجتنا به يا (أروى)؟! وهل هناك طعام أحلى من المن والسلوى؟!

ضحكت أمي، وهي تقول:

- ألم أقل إنك تتحدث مثل أبيك؟!

ثم التفتت إلى (أروى) وقالت:

- لا تبتئسي يا (أروى)، كتب علينا أنا وأنتِ أن نذوق شظف العيش بسبب قلوبنا!

قالت (أروى) ضاحكة:

- لعلي أرحم حالاً منك يا (روماني)، فأهلي لا يزالون في «رسة»، أما أنتِ فقد غادرت جنات مصر بلا رجعة!

قلت لـ(أروى) مؤنبًا:

- أراك تنسجين خيوط الحديث معها، وقد وجدت من يعوضك عن غياب (أم السعد)!

قالت أمي ضاحكة:

- انتظر حتى يجن الليل وسأعلمها كل أسرارك.

انطلقت الضحكات صافية من القلب، وشعرت بالسعادة لأن جسرًا من الود قد امتد بين (روماني) و(أروى) حتى وإن اتفقا عليّ، وقبل أن أتكلم، طرق الباب طرقًا عنيفًا، ظننا أن إحداهن ستطلب قدحًا من اللبن، فذهبت أمي لتفتح الباب فإذا بـ(باتيا) تدخل صارخة وهي تقول:

ـ أدرك (عامير) يا (شمعون)، فقد تشاجر في المرعى، وتكاثر عليه الرجال هناك.

• • •

هرولت خارج المنزل ورآني (شهبور) الذي كان يقف بناصية الحي مع بعض فرسان (بني يطور) أهرول، فناداني قائلًا:

ـ ماذا حدث يا (شمعون)؟

قلت دون أن ألتفت إليه:

ـ اتبعني إلى المرعى مع الرجال!

وصلت إلى المرعى فوجدت صياحًا شديدًا، وفهمت أن عراكًا قد حدث وبلغ ذروته، نظرت فرأيت جسد (عامير) الضخم قد تمدد أرضًا وبضعة رجال ينهالون على جسده ورأسه بالعصي. صرخت فيهم:

ـ كفى!

ثم ألقيت بنفسي بينهم، أحول بين عصيهم وبين جسد (عامير) الذي تخضب بالدماء، فنال جسدي ضربة من إحدى العصي، وحينما همّ أحدهم بأن يهوي بعصاه على رأسي تلقفت عصاه يد أحد الفرسان من (بني يطور)، دفع الفارس الرجل المعتدي بقدمه في بطنه فأسقطه أرضًا، ثم انضم إليه (شهبور) وباقي الفرسان وصنعوا حلقة حولي وحول (عامير)، همّ الرجال بالاشتباك معهم، فنزع الفرسان سيوفهم من غمدها، فتلألأت النصال في أعين الخصوم فأدركوا أن الأمر جاد، تراجعوا وقد أسقط في أيديهم، فمن يجرؤ على رفع السيوف في مدينة الرب! وقفوا مذهولين للحظات ثم قال كبيرهم في صوت أجش:

ـ أترفع رجالك السيوف علينا يا بن النجار؟! وحق الرب (إيل) لنقتص منك عند (موسى).

ثم نظر إلى (عامير) الممدد في إعياء وقال:

ـ أما أنت يا بن الكوشية، يا شقيق القردة والخنازير، فبحق الرب إيل لتدفعن

ثمن ما فعلته ولتخرجن من حينا الذي أصابه الفقر منذ أتيته!

لم ألتفت إلى حديثه، فقد شغلني أمر (عامير) الذي كان يلهث وقد تخضب وجهه بالدماء، قال بصوت واهن:

- «تكاثروا عليّ يا (شمعون)، ولو قاتلوني رجل لرجل لصرعتهم الواحد تلو الآخر»!

مسحت الدماء عن وجهه بيدي وقلت في لهفة:

- لا تتحدث يا (عامير)، لا تتحدث يا صاحبي

همّ أن يتحدث ولكنه لم يستطع، تهدلت جفونه، ثم غاب عن الوعي، ناديت الرجال كي يتعاونوا على حمله، حملناه بجهد بالغ ثم عدنا به إلى الدار.

صرخت النساء حين رأينه، وبكى (إيرام) خوفا من الصراخ، فحملته (أروى) وانزوت به في ركن البيت، هدأت النساء عن الصراخ ومددت جسد (عامير) على الأرض، ثم قمت بمسح الدماء عن وجهه بخرقة مبللة، كانت جروحه غير غائرة ولكن وجهه وجسده كانا قد تورما من كثرة اللكمات والضربات، تأوّه من الألم حين كسوت جروحه بالخرقة، فاطمأن قلبي أنه لا يزال حيًّا، فتح عينيه بصعوبة ثم نظر حوله، وحين رأى النساء اعتدل جالسًا وكأنما شق عليه أن تراه زوجته ونساء الدار وهو على هذا الحال من الضعف.

خرج (شهبور) والفرسان من البيت الذي ضاق بهم بعد أن اطمأنوا على سلامة (عامير)، قدمت قدحًا من الماء إليه كي يشرب، تناوله وقرّبه إلى فمه، ثم لم يلبث أن وضعه جانبًا دون أن يشرب، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، ربتّ على كتفه وسألته:

- ماذا حدث يا (عامير)؟!

قال:

- هؤلاء أبناء (عزرا)!

قلت:

- وما الذي جعلهم يتعاركون معك؟!

قال:

- خرجت بنوق القافلة وأغنام الضرايين إلى المرعى، فوجدتهم يرعون ماشية خالي هم من سبط «يساكر»، رغم أن اليوم هو يوم «رأوبين» في الرعي والسقيا!

قالت (باتيا) مقاطعة:

- ليتك تركتهم يرعون!

ابتلع ريقه وقال:

- هذا ما فعلته، فقد وجدت المرعى قد ازدحم، وشعرت أن الكلأ لن يكفي كل هذه الأنعام، فتركت أنعام الضرايين ترعى، وانصرفت بالنوق، لا بأس أن ترعى الأغنام اليوم ثم ترعى الإبل غدًا، واتجهت بالإبل إلى مستقى الدواب، حتى تصدر بعد سفرها الطويل، وما أن وصلت إلى مستقى الدواب، حتى تبعني اثنان منهم ومعهم بعض الماشية.

قال لي أحدهما:

- ما ينبغي لك أن تسقي تلك الإبل من مستقى دوابنا؟!

سألته:

- لماذا؟

قال الآخر:

- لأن هذا المستقى لحي «رأوبين»!

قلت:

- هي إبل (شمعون بن زخاري بن رأوبين)!

قال الأول في سخرية:

- وما لابن المصرية وحي رأوبين! أما تكفيه أمه المصرية حتى يأتينا بإبل امرأته العربية؟!

صوته قائلًا:

- احذر يا هذا، حتى لا يثور غضبي عليك.

اقترب مني وقال:

- غضبك! ومن أنت حتى يثور غضبك علي يا ابن الكوشية؟!

فلم أشعر إلا بجسدي ينحني إلى الأرض، ثم التقطت يداي حجرًا كبيرًا، هت في الهواء ثم قذفته نحوهما، لم يصبهما الحجر، ولكن الرعب أصابهما من صوت الذي زلزل الأرض من تحت أقدامهما، فهربا كالجبناء تاركين ماشيتهما.

سكت قليلًا ليلتقط أنفاسه اللاهثة، ثم قال:

- وبقيت مكاني حتى ارتوت الإبل، ثم عدت إلى المرعى كي أعود بأغنام القرابين، فوجدتهما وقفا في انتظاري يحملان العصي في أيديهما، رأيت الشر في أعينهما، فشمرت عن ساعدي وتجهزت لقتالهما، صرعت الأول ثم الثاني ولكن فجأة رأيت (باتيا) قادمة، خفت عليها، وصرخت فيها كي تعود، فغفلت عيني عن أحدهم، سقطت عصاه على عاتقي وأسقطني أرضًا.

سكت وقد اختنق صوته بالانكسار، ثم قال:

- والله لولا هذا لجعلتهم خبزًا تلوكه أفواه نساء الحي الليلة!

هرولت (باتيا) نحوه تحتضنه وتُقبِّل رأسه وقالت باكية:

- فداك نفسي يا (عامر)!

أما (روماتا) فقد جلست تنتحب في خفوت وقد عضت فمها وألمها يكلمها.

التفتت (باتيا) إليَّ وقالت متحدية رغمي لا تأبه لـ(روماتا) الباكية:

- لم يعد لنا حياة هنا يا (شمعون)! أريد أن أرحل! أريد أن أغادر هؤلاء الناس الذين يكرهوننا.

نظرت بطرف عيني إلى (أروى) التي انكمشت في رعب، بينما كان جسد

(رومانا) يهتز مع لحن نحيبها الخافت، قلت: وأنا أشعر بهموم الدنيا تطبق على صدري:

- لن يرضى نبي الله (موسى) بما حدث!

قالت (باتيا) في حدة:

- كم من مرة شكونا لـ(إيصلفيل بن حور) فكان يأمرنا بالصبر.

ثم قالت في حزن:

- إلى متى نتذوق المذلة ونُعيّر بأمهاتنا، فهذه مصرية، وهذا ابن حبشية، واليوم يقولون عن زوجتك إنها مصرية، هل كتبت علينا المذلة إلى الأبد؟!

كانت كلماتها حادة كتصريحات البرق في ليلة مطيرة عصفت رياحها فيها عصفًا.

- اصمتي يا (باتيا)! وكفي عن هذا!

بهتت حين صرخت فيها، شهقت، ثم انهالت دموعها وقالت في حزن فطر قلبي:

- سأكف يا (شمعون)! سأكف كما كففت من قبل! ولكني قديمًا كنت أتوعدهم وأقول لهم: سيأتي أخي في يوم من الأيام ليردع عنا أذاكم، أما الآن، فلن أقولها، فقد عاد أخي ولا زلنا لا نملك إلا الصبر على أذاهم.

ثم وضعت يد (عامير) على كتفها وقالت:

- هيا بنا يا (عامير)! فلنأت بيت لنرتاح فيه!

وقبل أن يتحرك، سمعنا طرقًا شديدًا على الباب، قمت ففتحت الباب، فإذا بحارس من سبط «لاوي» يقول لي:

- هل أنت (شمعون بن زخاري)؟!

قلت له:

- نعم.

قال:

- يدعوك القائد (يوشع بن نون) إلى خيمته.

* * *

رافقني (شهبون) إلى الخيمة، أراد رجال «بني يطور» أن يصحبونا ولكني منعتهم حتى لا يثير وجودهم المشكلات، وصلنا إلى خيمة القائد، فوجدت أبناء (عزرا) الستة بانتظارنا أمام الخيمة، وقد بدا على وجوههم الغضب، وقد جلس من بينهم اثنان على الأرض أمسك أحدهما بعينه وهو يصرخ من الألم، بينما تورمت عين الآخر وشحب رأسه، فأدركت أنه مما فعله (عامير) بهما! أمرنا الحارس بأن نقف خارج الخيمة، بينما دلف هو إلى داخلها ليُعلم (يوشع) بوصولنا، سمعت زمجرة أبناء (عزرا)، والتقطت أذني بعض كلمات مثل: القردة، الخنازير، ولم يخرج أحدهم عن شعوره بشكل قوي حتى يثير غيظنا!

سألني (شهبون) هامسًا في أذني:

- ما قصة القردة والخنازير؟

قلت وأنا أنحي رأسي بعيدًا عنهم:

- عقوبةٌ عاقب بها الرب بعض العصاة، فكانت كفارة لهم عن خطيئتهم!

قال:

- ولماذا يعيرونكم بها؟

قلت:

- كان إخوة (عامير) ممن شملهم العقاب!

خرج الحارس ودعاني أنا و(شهبون) للدخول.

دخلت لأجد الفارس الذي فتن عقلي طيلة أيام الصبا، يجلس غاضبًا على أريكة من الخشب موسدة بفراء الغنم، ذكرتني بصنعة أبي أيام كنا في «حضيروت».

قلت:

- سلام عليك أيها القائد.

قال في صرامة:

- سلام، أيها الشاب.

ثم قال:

- هل أنت الحضرمي من (حاري) من سبط دراوين؟

قلت:

- نعم.

قال:

- أتدري أنك قد أتيت بكبيرة حين وضعت السيف على أخي الملك؟ أتدري أنكم قد فقأتم عين أحدهم وأن الناموس يعرف الجميع؟ وحق له أن يفقأ عين من فعل به ذلك.

قلت في ثبات:

- أدري أيها القائد.

قال في غضب:

- إذن فأنت تعلم بالناموس، ومع ذلك خرقته!

قلت وأنا لا أزال على ثباتي:

- أعلم بالناموس يا سيدي القائد ولكنني لم أخرقه.

قال:

- ومن فعل هذا بالرجل الذي يصرخ خارج الخيمة؟

قلت:

- فعله رجل لا يقوى على الصراخ؛ لأن روحه كادت أن تزهق، ولكن الناموس لا ينظر إلا لعين مفقوءة أو سن مكسورة.

نظر إليَّ في دهشة، فأردفت غير هياب:

ـ ليت الناموس يا سيدي ينظر إلى آلام الجسد حين انهال هؤلاء بالعصي على جسد رجل أعزل، ليته ينظر إلى آلام النفس حينما عيّر هؤلاء القوم بأمه الكوشية، ووصفوه بشقيق القردة والخنازير، رغم أن الرب قد غفر لأخوته خطاياهم! ليته ينظر إلى الام زوجته التي تُعيّر بأهلها رغم إيمانهم بالرب (إيل)، ليت الناموس يا سيدي ينظر إلى القلوب قبل أن ينظر إلى الأجساد.

صمت قليلاً وأخذ يفكر في حديثي، ثم قام من مجلسه واقترب مني فتحركت بطونه الفارغة، ووضع يده على كتفي ثم قال في ابتسام:

ـ تعجبني جرأتك في الحق أيها الشاب! أنت ابن زخاري النجار، أليس كذلك؟

قلت:

ـ نعم.

قال:

ـ لا تزال لأبيك محبة في قلبي.

ثم أشار إلى الأريكة وقال:

ـ هذه الأريكة صنعها لي!

ثم أشار إلى جراب للأسهم معلق في عمود الخيمة وقال:

ـ وتلك السهام هو من شذبها!

ثم اكتسى وجهه بالحسم مرة أخرى وقال:

ـ ولكني لن أسمح بأن يرفع أحد السيوف على شعبي، أو أن يهدد أحد في نزلٍ أنا قائده!

ثم نظر إليّ وإلى (شهبور) وقال:

ـ مُرا الفرسان بأن يرحلوا، ومن شاء منهم أن يمكث معنا فليمكث بلا سلاح.

ثم نادى على الحراس قائلًا:

- أدخِلوا أبناء (عزرا).

دخل الأخوان الكبيران وفي عينيهما شماتة، جلس (يوشع) على الأريكة، ثم قال في صرامة:

- قد استمعنا إليكم يا أبناء، ووجدنا أنكم من بدأتم بالعداء.

بهت الاثنان، فتابع (يوشع):

- ولكننا سنحكم لذلك الفتى الذي فقد عينه بدية مقدارها رأسين من الغنم.

قال الأخ الكبير مستنكرًا:

- رأسان من الغنم! أليس هذا بحكم الرب يا قاضي بني إسرائيل؟! أليست العين بالعين والسن بالسن!

قال (يوشع):

- بلى، والجروح أيضًا قصاص! فإن شئت جمعت عصبة من الرجال فانهالوا على رأس كل واحد منكم وجسده بالعصي حتى توشك روحه أن تزهق!

صمت الرجل، وهو يكظم غيظه. فقال (يوشع) في حسم:

- تلك الدية كفارة لمن فقد عينه، وحذارِ أن تعودوا لمثلها!

ثم أشار إلينا جميعًا وهو يقول:

- هيا انصرفوا جميعًا!

وبعد أن خرجنا من الخيمة صرخ الرجل الذي فقد عينه قائلًا:

- واعيناه!

فقال أخوه الأكبر بصوت تعمّد أن يصل إلى مسامعي:

- لا تصرخ! فقسمًا بالرب إلهي لتقرن بعينك الثانية القصاص من هذا الأبله!

* * *

الورقة الخامسة والستون

في المساء كنت أنام إلى جوار (أروى)! أوليتها ظهري، وأغمضت عيني لكن عقلي لم ينم، شعرت هي بأفكاري المؤرقة في منتصف الليل، فاحتضنت جسدي بيديها في الظلام وقالت بصوت خافت حتى لا توقظ (إيرام):

ـ (شمعون)؟! هل ما زلت مستيقظًا؟

قلت:

ـ نعم.

قالت وهي تربت على صدري:

ـ لا تحزن، فقد انتهى الأمر!

قلت:

ـ لم ينتهِ بعد!

اعتدلت قليلًا، ثم قالت في وجل:

ـ هل تخشَ شيئًا؟

ـ قلبي يحدثني أن أبناء (عزرا) لن يكفوا عن الأذى.

قالت هي في وجل:

ـ (عامير) أيضًا يريد الثأر لكرامته.

استدرت لها وأضأت مصباح الزيت، سألتها في قلق:

ـ ماذا سمعت؟

قالت:

ـ أقسم أن يرد لهم الصاع صاعين! فقد شق عليه انكساره أمام (باتيا) وأمامنا!

تنهدت وقلت في وجوم:

ـ (باتيا) كانت محقة، يجب أن نغادر هذا الحي!

قالت متعجبة:

ـ تعود إلى مصر؟!

قلت:

ـ كلا، ولكننا سنغادر حي (اللاويين)، سأستأذن القائد (يوشع) في أن أبني لي دارًا خارج المنزل على غير الترتيب الذي فرضه علينا (موسى).

قالت لي:

ـ افعل ما يرتاح له قلبك.

وفي الصباح ذهبت مع (شهبور) إلى خيمة القائد، قدمت له جوالق البر والتمور كي يقسمها على بني إسرائيل، وأهديت إلى خيمة الاجتماع حمولة البعير كاملة، شكرني القائد ودعا لي الكاهن بالخير والبركة، ثم استأذنت (يوشع) في بناء بيت خارج المنزل، على أن أترحل أعمام القرابين والمنافع سبط «لاوي»، تفهم (يوشع) غرضي وأدرك أني أريد أن أبتعد عن المشكلات، ولكنه لم يمنحني الإذن مباشرة، قال:

ـ أستأذن لك نبي الله (موسى) أولًا، ثم أجيبك في المساء.

عرجت إلى دار (عامير) و(باتيا) كي أجبر كسريهما، وأخبرهما بما عزمت عليه، وجدت (عامير) أفضل حالًا من أمس، ولكن نظرة عينيه كانت لا تزال منكسرة، قلت له مازحًا كي أخفف عنه:

- رأيت رموشًا محطمة بين أولاد (عزرا) أمس، حمدًا لله أن حمل (باثيا) ثأر إليك قبل أن تقضي عليهم جميعًا.

نجحت حيلتي في أن تجعله يبتسم قليلًا، فأردفت ضاحكًا:

- كلفتنا عينٌ واحدة وأسنانٌ من الغنم، فما بالك لو استمر العراك لأكثر من ذلك.

ربت على كتفي شاكرًا وقال:

- شكرًا لك يا (شمعون)، لولاك لقضوا حتى اليوم!

كانت (باثيا) تجلس في ركن الدار تغزل كرة من صوف الغنم بين يديها ولا تلتفت إلينا. قلت لها في عطف:

- كنت محقة يا (باثيا)، ينبغي أن نغادر تلك الأرض.

توقفت عن غزل الصوف، ثم نظرت إلي مستبشرة وقالت:

- حقًّا! هل سنرافقك إلى أرضك؟

قلت لها:

- كلا، ولكني استأذنت القائد (يوشع) في أن نبني دارًا خارج النزل بعيدًا عن حي «رأوبين».

شعرت بخيبة أمل وقالت:

- وما الفائدة يا (شمعون)؟ سنقابلهم في الأسواق، وسيقابلهم (عامير) في المرعى.

قلت لها:

- لا بأس أن نتحمل بغض بعض الناس لنا ما دام هناك الكثيرون ممن يحبوننا في هذا النزل، كما أني استأذنت نبي الله في أن يرعى (عامير) مع سبط «لاوي» بعيدًا عنهم.

ثم قلت لها في حنان:

- صدقيني يا (باتيا)، هناك الكثير من الخير في هذا النزل، ربما لا تشعرين بقدره الآن لأنك ما زلت صغيرة، ولكنك إذا غادرتيه ستندمين عليها طيلة حياتك!

قال (عامير) موافقًا رأيي:

- هذا ما أقوله لها دائمًا.

قالت حزينة مستسلمة:

- اكتملت سعادتي بحديثك يا (أشحور)، وسأمضي في أي مكان تكون أنت فيه.

قمت فقبلتها ثم قلت لـ(عامير):

- استرح لبضعة أيام، وسأتولى أنا ورجال (بني يطور) أمر الرعي حتى تستعيد قواك.

• • •

في المساء جاءني الإذن من (يوشع) بأن أبني لي بناءً خارج النزل، نقيم فيه حتى يحين موعد الرحيل، عاونني رجال (بني يطور) في بناء بيتنا فسيح أقمناه فوق السفح، واستغرق بناؤه قرابة الشهر، كان المنزل يشرف من ارتفاع على النزل، ويرى الجالس أمامه عمود الدخان الذي يصعد من محرقة خيمة الاجتماع بلا انقطاع، بنينا البيت بالحجر، وجعلت به ثلاث حجرات فسيحة وقناة ومربطًا للدواب، كما ألحقنا به بيتًا من الخوص والخشب حتى يقيم به (شهيور). والحق أن (شهيور) في تلك الأيام كان لا يقيم بيننا إلا نادرًا، فقد كان يقضي يومه كاملًا في خيمة الاجتماع أو في خيمة نبي الله (موسى)، يستمع إلى أحاديث النبي ووصاياه فيحفظها عن ظهر قلب، ثم يجلس إلى الكهان في المساء فيناقشهم فيها ويبدي فهمًا يفوق فهم البعض منهم أحيانًا، حتى ظننت أنه لو امتد به العمر بيننا ستصير له مكانة تفوق مكانة (بصلئيل بن حور).

وفرحت (باتيا) بالبيت الجديد؛ لأنها ابتعدت عن أبناء (عزرا)، وفرحت

أمي به؛ لأنها أصبحت قادرة على رؤية خيمة الاجتماع ودخانها من نافذة حجرتها، أما (أروى) فقد فرحت به لأنه ذكرها ببيوت «بكة» في اتساع فنائه وحجراته ومربط الدواب الملحق به، وودعنا رجال (بني يطور) بعد أن سكنا البيت الجديد، وأرسلت معهم رسالة شكر لـ(عمرو بن دومة)، وأصبحنا نقضي نهار اليوم في النزل ثم نعود مساء إلى مسكننا بأعلى السفح لننعم بدفء الاجتماع وأحاديث السمر.

واقترب الشهر (نيسان) من منتصفه، واستعد الناس في النُّزل للاحتفال بعيد الخروج، فامتلأت رائحة النزل بالخبز، خاصة عندما وزع (يوشع) حبوب البر على بيوت النزل جميعًا، كانت أمي و(باتيا) يعدان فطيرًا غير مختمر لنأكله في الأيام السبعة التي تسبق يوم العيد، بينما جلست (أروى) ممدة وقد فرحت ساقيها اللتين أحاطتنا بـ(إبرام) الصغير، ووضعت طبقًا من العوسج فوق بطنها التي انتفخت أمامها حتى صارت كالطبق، التقطت ثمرة عوسج من طبقها، أكلتها ثم سألت أمي:

- لماذا تخبزين العجين بغير خمير؟!

لتت أمي العجين بالماء ثم قالت:

- هكذا أمرنا الرب قبل الخروج من مصر!

حينئذ ترنمت (باتيا) بأنشودة الخروج التي غنتها (مريم) أخت (موسى) من قبل:

- رنموا للرب فإنه قد تعظم... الفرس وراكبه قد طرحهما، الرب قوتي وتسبحتي، وقد صار غايتي وخلاصي.

قلت لها وأنا سعيد:

- ما زلت أذكر (مريم) وهي تتغنى بها! كيف تحفظينها؟!

قالت (باتيا):

- أمرنا الكاهن (هارون) أن نحفظها، وأن نرددها على الأطفال في خيمة

الاجتماع، حتى يتذكروا معجزة الخروج!

شعرت بغبطة شديدة؛ لأنني كنت ممن شهدوا تلك المعجزة! فقلت:

- مهما رددتم من تراتيم فلن تشعروا بها كمن شاهدها بعينه!

ضحكت (أروى) وقالت:

- تتحدث وكأنك كنت تعقل ما حدث؟

قلت:

- بالطبع، ويمكن أن تقرئيها في أوراقي!

قالت (باتيا):

- أريد أن أقرأ تلك الأوراق يا (شمعون)؟

ثم صمتت قليلًا وقالت في صوت به مسحة حزن:

- كم أريد أن أعرف ماذا كتبت عن أمي (صوفيا)!

قالت أمي وكأنها توحي إليّ بالإجابة:

- كتب ما حكيته لك! كانت أمك أجمل بنات بني إسرائيل، وماتت بعد أن أصابتها حمى في «حوريب»!

قالت (باتيا) حزينة:

- كنت أتمنى أن أتذكرها أو أعي ملامح وجهها!

قلت لها:

- انظري في المرآة وستجدين صورة منها!

ابتسمت وقالت:

- حقًا!

قلت مؤكدًا:

- نعم، لم يكن (زخاري) النجار ليفتتن إلا بجمال مثل هذا الجمال!

لتت أمي العجين في قوة وكأنما أغاظها حديثي وقالت:

- أفلا كففت عن الثرثرة وخرجت لتحضر لنا حطبًا!

قلت باسمًا:

- الحطب خلف الفناء!

قالت:

- إذن فلتشعله حتى تحمى النار في الموقد.

غمزت لي (أروى) بعينها كي أقوم، فقمت مبتسمًا وأنا أتعجب من أمي، ماتت (سولاف) ومات (زخاري) وماتت الغيرة في قلبها معهما!

درت حول المنزل وذهبت إلى الفناء الخلفي، جمعت كومة من الحطب ووضعتها أسفل الموقد، أشعلت النار في كرة صوف مغمسة بالزيت، وألقيتها في كومة الحطب، وأخذت أنفخ فيها حتى اشتعلت الكومة، وقفت قليلًا أقلبها بعصا طويلة حتى علا صوت طقطقاتها. فجأة طرق أذني من بين طقطقات الحطب صوت وكأنه ارتطام شيء، يصدر من مربط الدواب، ظننت أن (عامير) قد عاد، فناديت عليه ولكني لم أجد إجابة، ذهبت إلى مربط الدواب الخالي من الأنعام فلم أجد أحدًا، ولكني وجدت طاولة القش وقد سقطت أرضًا، ظننت أن الهواء قد أسقطها وكدت أعود أدراجي، لولا أن سمعت صوتًا أسفل السفح كحفيف الأقدام، وقفت على الحافة، فرأيت رجلًا يهرول أسفل السفح، وحين أجهدت بصري، خُيّل إليّ أن الرجل كان يرتدي عصابة على إحدى عينيه!

* * *

اليوم هو يوم السبت الذي يسبق العيد، خيم السكون على المنزل وامتد حتى بلغ الفضاء، سكنت الريح فتوقفت أوراق الشجر عن الحفيف، وخرست العصافير وكأنها خلدت إلى الراحة في ذلك اليوم المقدس، ألقى ذلك السكون في قلبي بالسكينة، فتمتمت قائلًا: يا قدوس، يا مالك الكون، يا من قدستنا بوصاياك، قدس أعمالنا وطهرها من كل شر... الشيء الوحيد الذي عارض

ذلك السكون هو رائحة الخبز الندي، الذي فرغت أمي من طهيه أمس، ورصته في صفوف فوق مائدة العيد، أثارت الرائحة شهيتي، فتناولت رغيفًا منه، وأكلته وأنا أقف على حافة السطح، أترقب عمود الدخان الصاعد من خيمة الاجتماع، وأشاهد خدام بيت الرب وهم يزينون الخيمة بسعف النخيل استعدادًا لاستقبال المصلين، ورغم بُعْد المسافة، استطعت أن أميز جسد (شهيون) من بين خدام الخيمة، فجأة اخترق السكون صوت صراخ ملأ الفضاء، صراخ امرأة لم يحجب صوتها شيء حتى وصل إلى كل ركن من أركان المنزل وفاق صوت النفير، استيقظ النائمون، وانزعج المستيقظون، ورأيت (عامير) يخرج من المنزل والنوم لا يزال يداعب أجفانه!

لحظات وكنت أقف أنا و(عامير) وسط حشد غفير من الناس عند مصدر الصوت في حي «يساكر»، الأحاديث المتناثرة أثارت الرعب بين الناس، في البداية قيل: إن رجلًا من سبط «يساكر» قد وجد مقتولًا في داره، ثم قيل: إن رأس الرجل قد وجدت مفصولة عن جسده، وأن الرأس غير موجودة، ثم تردد أن الرجل قد قتل منذ أيام، وأن امرأة قد استدلت على جثته حينما فاحت رائحتها من داره التي تجاورها، والحق أن الواقعة كانت بشعة بكل تفاصيلها التي كانت تتكشف لحظة بلحظة، ولكن الأبشع منها أن قد وقعت في أيام هي الأقدس عند الرب، مما جعل الناس تتساءل عمن أقدم على قتل هذا الرجل، وهل هو من بني إسرائيل أم أنه لص قد جاء إلى المنزل من خارجه؟!

وجاء (يوشع) ومعه حراس من سبط «لاوي»، أمر الناس بالابتعاد عن المكان الذي تدنس بجثة القتيل، وحذر الناس من أن تمس أيديهم أي شيء حتى لا تنالهم نجاسة! ثم دعا المرأة التي اكتشفت الأمر وسألها عن الرجل:

- من يعيش معه؟!

قالت:

- لا أحد، هو عجوز وحيد، ماتت زوجته ولم ينجب!

قال (يوشع):

ـ ومن يقوم على أمره؟!

قالت:

ـ لا أحد؟

قال متعجبًا:

ـ ومن أين يأكل؟

قالت:

ـ كانت له ماشية يرعاها له رجال [illegible] من سبط [illegible]، ثم طردهم وترك الماشية لأبناء أخيه.

سألها:

ـ وأين هم؟!

قالت:

ـ لا أدري، فأنا لم أرهم من قبل! ولكنني أظن أنهم من سبط (رأوبين)!

سألها:

ـ هل تعرفين من أي البيوت هم؟

صمتت قليلًا ثم نطقت باسم عصف بآخر ما تبقى من سكوني وهي تقول:

ـ أظنهم أبناء (عزرا بن رأوبين)!

فنادى (يوشع) في الحراس قائلًا:

ـ احضروا لي أولياء الدم، فأنا لا أدري كيف لم يعرفوا بمقتل وليهم حتى الآن!

* * *

الورقة السادسة والستون

وجاء أبناء (عزرا) يصرخون

بكاؤهم الذي كان يشبه نباح كلبة تكل على جروها، جعل الناس يُشفقون على صيحتهم، رأيت كبيرهم يحثو على رأسه التراب، واغرورقت العين المفقوءة لأصغرهم دموعًا إلى أمّ ما مصيبتها، حتى (يوشع) نفسه، أشفق عليهم وترفّق بهم وهو يقول:

- يا أولياء الدم! هذا خالكم قد غدر به أحدهم! ولكم الحق في القصاص من قتله، فإن كان عندكم بينة على قاتله فأتوا بها!

قال كبيرهم:

- ومن أين نأتي بالبينة ونحن لم نعلم بمقتله إلا الآن؟!

قال (يوشع):

- إذن، فقد أرجأتم القصاص للآخرة!

قال أحدهم بعد أن جفت دموعه فجأة:

- نرجئه إلى الآخرة؟! ثم أردف في غضب:

- هل كتب علينا ظلمك في كل مرة أيها القائد؟

قال (يوشع) في صرامة:

- ماذا تقصد أيها الرجل؟ أفصح عما تريد!

قال الرجل في صوت مسموم:

- الأمر لا يحتاج إلى بينة أيها القائد فالقرينة وحدها تكفي! فمن قتله قد أحمى رأسه حتى يحرق قلوبنا عليه!

فغر الناس أفواههم، واقشعر جسدي، في حين قال (يوشع):

- ومن يفعل ذلك؟!

قال كبيرهم وهو ينظر نحو (عامير) نظرة حقد قاطعة:

- يفعلها رجل يكره أبناء (إسرائيل) ويتمنى لهم الفجيعة!

قال (يوشع) وقد نفد صبره:

- مثل من؟

اقترب كبيرهم منا فأشار بإصبعه إليّ وقال:

- مثل هذا!

ثم اقترب أكثر من (عامير) وضغط بإصبعه في كل وخزة على صدره وهو يقول:

- أو هذا!

لم يحتمل (عامير) بهتانه فدفعه بيده وهو يقول:

- كذبت!

سقط الرجل أرضا، فصرخ أخوه وهو يقول:

- أرأيت أيها القائد؟! أرأيت كم يكرهنا هؤلاء الناس؟!

ثم استدار نحو الجمع الواقف من بني إسرائيل وهو يقول:

- اشهدوا يا بني إسرائيل! اشهدوا أن هؤلاء الناس قد اعتدوا علينا ثانية!

ثم قال الصغير أعور العين:

ـ بحق الرب إن لم يكن هؤلاء هم قتلته، فمن يكون قاتله؟!

اشتعل الغضب في العيون، ورأيت نظرة مقيتة في عيون الناس، لم أفهم سببها، وقال أحد الواقفين:

ـ ماذا تنتظر أيها القائد؟ الأمر جليّ ولا نحتاج إلى بينة!

وقال آخر ساخرًا من بين الصفوف:

ـ أم أن السحر والخمر يشفعان لهما عندك!

ورد عليه آخر بسخرية أشد:

ـ المثل أن من يتزوج عربية يكون خارج الناموس!

شعرت بالمقت في حلقي ووددت أن أصيح: يا أبتاه! لماذا ظلمتني في قومي؟ لماذا تجعلني أسير ظل الغريب الذي سار على أرض حتى أورثت أن أملك كمثا من أفعالهم!

ثم (يوشع) من جلسته وصرخ في الناس:

ـ كفى! إياكم وقذف الأبرياء! فوالله لا نأخذ الناس بغير بينة!

وإذا بأعور العين يقول:

ـ أرسلوا من يبحث في دارهم عن البينة! فلعلهم أخفوا شيئًا هناك.

أيد الناس كلامه فصمت القائد (يوشع) قليلًا، ثم تنهد قائلًا:

ـ حسنًا! يا حراس! اذهبوا إلى دارهم أعلى السفح وفتشوا بها عن أي شيء غريب.

ثم التفت إلى إخوة (عزرا) وقال:

ـ ولكن أقسم بالرب إيل لتكفرنّ عن قذفكم لهما إذا لم يجد الحراس عندهما ما يريب.

وبينما كنا نصعد نحو السفح، ألقيت نظرة على أعور العين، فرأيت عينه

الوحيدة ترقص في شماتة، وتذكرت ليلة توهمت فيها أني رأيته يحوم حول البيت، فانخلع قلبي حينئذٍ أو كاد!

* * *

حتى وصلنا إلى الدار أصيبت النسوة بالفزع، وخرجت أمي بغير خمار وسط الرجال ثم صرخت قائلة:

- ماذا حدث يا (شمعون)؟

قلت لها مطمئنًا:

- لا شيء يا أمي، اطمئني!

صرخت (باتيا) في (أبي عزرا) حين رأتهم وقالت:

- ماذا تريدون منا؟ ألم نترك لكم المنزل وصعدنا إلى الجبل، فلماذا تتبعوننا؟!

قال (أبو نعيم):

- اصمتي يا امرأة!

ثم نظر إليَّ وقال:

- مُر النساء أن يخرجن من الدار.

قلت:

- هؤلاء هن كل نساء الدار.

أشار إلى الحراس وقال:

- فتشوا الدار!

قال أخوهم الأكبر في غلظة:

- وأنا سأذهب معهم.

همت أمي بأن تتحدث ولكني أشرت إليها بأن تصمت.

مكث الحراس و(بنو عزرا) في الدار لبعض الوقت، يبحثوا في الفناء وفي

صناديق الملابس، وقلبوا مائدة الخبز، فلم يجدوا شيئًا، خرجوا وقالوا لـ(يوشع):

- لم نجد شيئًا.

أشار أحدهم إلى بيت الخوص الذي أقمت لـ(شهبور) ثم إلى مربط الدواب وقال:

- ابحثوا هنا، وهناك!

لم يتحرك الحراس لأمره، ولكن (يوشع) أشار إليهم أن افعلوا، فصاروا إلى حجرة (شهبور) أولًا ففتشوها ولم يجدوا بها شيئًا، ثم توجهوا إلى مربط الدواب الذي امتلأ بالبعير، فاليوم يوم سبت ولم تخرج البعير للمرعى، قال (يوشع):

- أخرجوا الخيل والبعير.

ساعدتهم أنا و(عاميا) و(شهبور) في إخراج الدواب، ثم دخل (يوشع) و(بنو عزرا)، وتبعهم حشد من الناس حتى اكتظ المربط بالجميع، نظر الناس في المربط الخالي إلا من روث الخيل والإبل وبعض القش والكلأ الجاف، فلم يجدوا شيئًا، كاد (يوشع) أن يأمر الجميع بالانصراف لولا أن صرخ أحد الناس وقال:

- انظروا!

نظرنا إلى حيث أشار فإذا بنا نرى مقبضًا لسكين يبرز من داخل كومة الروث، توجه (يوشع) نحو مقبض السكين، فأمسكه بحرص حتى لا يتنجس بيده، جذب السكين برفق فلم تخرج، وكأنها قد غرزت في شيء صلب، جذبها بقوة أكبر فإذا بالسكين تخرج وقد غرز نصلها بين عيني رأس مقطوعة جحظت عيناها في رعب.

جفل (يوشع)، وجفل الحراس معه وصرخ الناس في رعب:

- يا قدوس، ارحمنا.. يا قدوس، ارحمنا!

وصرخ أحد أبناء (عزرا) وقال:

- واخالاه! لقد قتله السفلة ودسوا رأسه في روث البهائم.

ثم استل سيفاً من جانب أحد الحراس واندفع به إليّ أنا و(عامي) قائلاً في جنون:

- والله لأقتصن لدمه منكما!

أمسك (يوشع) يده، وأحاطه أحد الحراس من وسطه بينما سقطت أنا على الأرض خائر القوى، أتقيأ خبز العيد الذي أكلته في الصباح.

صرخ أبناء (إسرائيل) ومعهم العشرات من بني إسرائيل:

- القصاص! القصاص من القتلة! القتل لمن قتلوا العجوز المسكين.

وانطلق حجر لم أدر مصدره، فأصاب كتفي، ثم تبعه آخر، وكأنه قد انخلع من موضعه. دفع الحراس الناس بعيداً عني وعن (عامي) الأصرخ (يوشع) في حراسه.

- قيدوا القاتلين وادفعوهما إلى خيمة الاجتماع، فوالله لا يحكم في أمرهما إلا نبي الله (موسى).

لم أشعر بما يدور حولي، لم تشعر يداي بحبال الحراس التي قيدتها خلف ظهري، ولم تشعر عنقي بالجرح الذي دمي بعد أن جذب الحارس الحبل الخشن الملتف حوله، غامت عيني عن الرؤية حتى استحال من حولي أشباحًا تتراقص ه‍ـا بين غمام كثيف، خُيّل إليّ أنني أرى (أروى) تسقط على الأرض و(إبرام) ابني يمسك صدرها ويبكي في هلع، أمي تجلس على ركبتيها وتدفن وجهها بين يديها، و(شهير) يحجز (ماتيا) بذراعه حتى لا تلقي بنفسها بين الرجال، رائحة الروث تملأ أنفي وأحسست بطعمه في فمي بعد أن سقطت على وجهي عشرات المرات، ضربات الحجارة المصحوبة باللعنات والتي أصابت وجهي وجسدي، لم تؤلمني رغم الدماء التي سالت، وكأنما أصاب جسدي الخدر، أو انفصلت روحي عنه. فجأة امتلأت أذني بقرع الطبول مرة أخرى، وددت لو فككت يدي كي أصم أذنيّ عنها، تلوّى عنقي ودارت رأسي التي كادت

أن تنسحق تحت وطأة الصوت الرهيب، سمعت وقع خطواته مرة أخرى، وشممت رائحته التي فاقت رائحة الروث قذارة، صفيره الحاد المنغم، شعرت به كشفرة سكين حادة تمر فوق عنقي، ولكنه حين بدأ في ترنيمته الأثيرة رددتها معه بعد أن حفظتها عن ظهر قلب.

أطفئوا النُّورَ بظلام القلوب

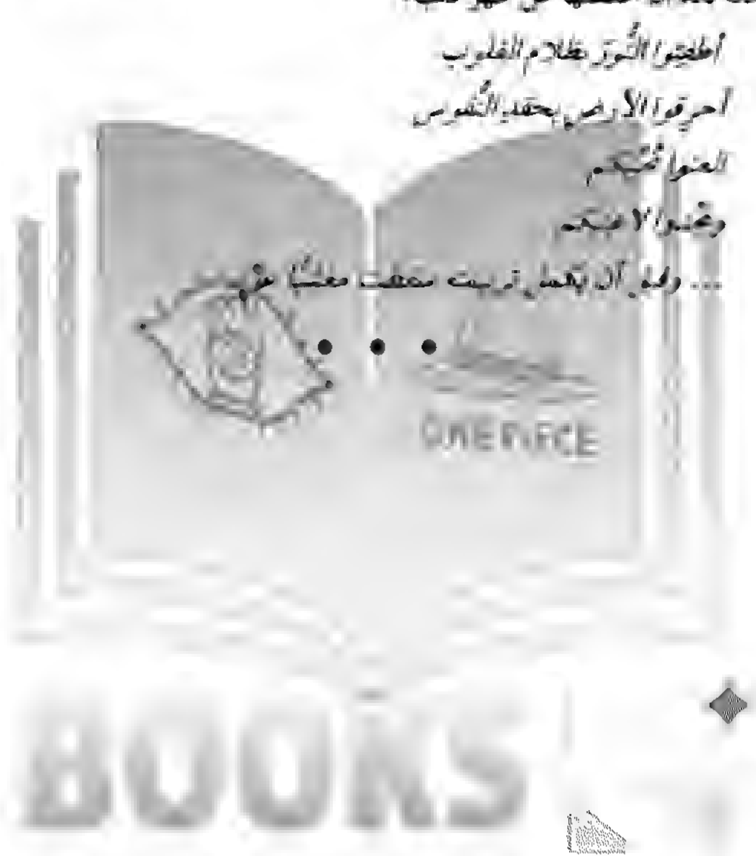
احرقوا الأرض بحقد النُّفوس

العنوا نفسكم

وتخلوا لا عنكم

... وقبل أن يكمل ترنيمته سقطت مغشيًا عليَّ

• • •



الورقة السابعة والستون

انصب الأحد نفسي في جب صغيرة، فضمها وأغلقت علي، وحصى على الأرض، وإلى جواري يجلس (عامير) منكس الرأس وقد تلطخ وجهه بالدماء، تأوهت وأنا أعتدل، ثم سألته بجهد بالغ:

- (عامير)، هل أنت بخير؟

رفع رأسه المنكسة وقال في جهد:

- لست بحال أفضل منك!

ثم بكى قهرًا وقال:

- لم أقتله يا (السمعون)!

قلت:

- أعلم يا (عامير).

ثم قلت في جهد بالغ:

- لن يضيعنا الرب!

سمعنا جلبة شديدة خارج الباب، نظرت إلى فرجة الخيمة، فوجدت الحراس وقد وقفوا أمامها يمنعون الناس الذين تعالت صيحاتهم من الدخول إليها، قلت وأنا أجاهد حتى لا ينفطر قلبي من الحزن:

ـ لماذا يكرهنا هؤلاء؟!

حينئذٍ سمعنا صوت القائد (يوشع) يهتف في الحراس:

ـ أحضروا القاتلين وأولياء الدم إلى خيمة الاجتماع، فقد نزل الوحي بحكم الرب فيهما.

سمعت هتاف الناس وهم يقولون:

ـ تبارك عبد الرب، تبارك عبد الرب!

دخل الحراس فأعانونا على النهوض، ثم خرجوا بنا تستقبلنا الصفعات والشتائم، رأيت أقدام (عامير) ترتجف ونظراته في خوف، قلت له بشفتاي وأنا أحاول أن أربط على قلبي وقلبه:

ـ لن يضيعنا الرب!

وصلنا إلى خيمة الاجتماع، وجدت (شيمير) بعمامتها على جوار خدام البيت ينظر إلينا في إشفاق وعينه تعتصر بالبكاء، أغلق الحراس مدخل الخيمة وجعلونا في صفين متقابلين، أنا و(عامير) في جهة، وأبناء (عزرا) في الجهة المقابلة، كان (يوشع) يقف إلى جوار الكاهن (هارون) أمام قدس الأقداس بينما كان نبي الله (موسى) بداخله، قال الكاهن (هارون) لأبناء (عزرا):

ـ يا أولياء الدم! أتدرون أن ملاك الرب في وسطكم الآن؟

شعرت بالطمأنينة حين قال (هارون) ذلك، بينما ارتعش صوت أخيهم الأكبر وهو يقول:

ـ نعم، وننتظر حكم الرب.

قال (هارون):

ـ أتدرون أيضا أن الرب لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟!

ازدادت رعشة صوت الرجل، رغم تظاهره بالثبات وهو يقول:

ـ نعم، ولهذا أتيناه!

هزّ (هارون) رأسه ثم التفت إليّ أنا و(عامير) وقال:

ـ هل ارتكبتم تلك الخطيئة؟!

قلنا في صِدْقٍ وفي صوت واحد:

ـ كلا.

هتف أحد أبناء (عزرا) في غضب وقال:

ـ وهل يُسأل القاتل عن فعلته بعد أن وجدنا رأس القتيل عنده؟! أيها الكاهن؟!

أشار (يوشع) نحو الرجل في صرامة وقال:

ـ يا هذا! حذار أن تعلو صوتك هنا!

ابتلع الرجل لسانه، ولم يجبه (هارون)، بل نحو (هارون) [illegible] من الأقداس للحظات ثم عاد ونظر إلى أبناء (عزرا) قائلاً:

ـ إن السيد الرب يأمركم أن تذبحوا بقرة!

قالوا في صوت واحد:

ـ بقرة؟!

ثم ارتفع صوت كبيرهم مرة أخرى وهو يقول:

ـ بقرة! أيسخر منا (موسى)؟! نطالب بالقصاص فيأمرنا بقربان!

رفع (يوشع) إصبعه نحو الرجل وكأنه يحذره من ارتفاع صوته مرة أخرى، فقال الرجل في صوت حانق ولكنه أخفض:

ـ بقرة؟! أي بقرة؟!

قال (هارون):

ـ بقرة تحبونها أكثر مما تحبون أنفسكم! بقرة سجد لها أبوكم ولا تزال تسكن في قلوبكم.

صمت الجميع، وطافت بعقلي ذكرى أبيهم (عزرا) الذي كان يجادل (هارون)

في أمر العجل أيام فتنة (السامري)، فأدركت أن هذه السنة الفاسدة لا يمكن أن تأتي إلا من أصل فاسد، وتعجبت من أن أبناء (عزرا) كانوا يعيرون (عامير) بمعصية إخوته، بينما كان أبوهم أحد الذين سجدوا للعجل!

قال أحدهم في تبرم:

- لا نفهم ما تقول أيها الكاهن، قل لنا أي بقرة تريد؟! صفها لنا فإن البقر كثير!

نظر (هارون) في عيني الرجل وقال:

- بقرة صفراء لامعة، تثير البهجة في النفس والنشوة في القلب!

شعر الرجل باضطراب ولم يعجبه كلام الكاهن (هارون) الذي يحمل أكثر من معنى، فقال في ضيق:

- أهذا ما أمر به السيد الرب؟

قال الكاهن (هارون):

- نعم، هذا ما أمر به السيد الرب! تذبحون بقرة صفراء لامعة، بقرة يُعظّمها أهلها، فلا تسقي الحرث، ولا تثير الأرض، وحينئذٍ يخبركم الرب بمن قتل خالكم!

فاض الكيل بالرجل فقال في غضب غير مبالٍ بتحذيرات (يوشع) السابقة:

- ما هذا أتينا أيها الكاهن! نحن نعلم القتلة! وما أتينا إلا لطلب القصاص! فإما أن يقتص لنا تيك منهما أو نقتلهما بأيدينا؟

استل (يوشع) سيفه وأمسك به، بينما قال (هارون) ناهرًا:

- أتعصي أمر الرب يا (ابن عزرا)؟!

أسرع أوسطهم في تهدئة الأمر، فقال مدافعًا عن أخيه:

- معاذ الله أن نعصي أمر الرب أيها الكاهن، وما جئت به هو الحق!

ثم أردف:

- ولكننا لا ندري من أين نأتي ببقرة كهذه في برية «سين» حتى نحقق أمر الرب!

حينئذٍ قال (شهبور) الذي يقف بين خدام الخيمة بصوت عالٍ:

- أنا آتيكم بها أيها الكاهن!

بهت أبناء (عزرا) ونظر الجميع نحو (شهبور) الذي تلألأت الفرحة في عينيه، قال الكاهن (هارون):

- أين هي أيها الخادم؟

قال (شهبور):

- آتيكم بها من «رسم»!

تذكرت البقرة الصفراء التي كانت ترعى في «رسم» والتي اشتراها (عمرو) و(شهبور) من أسواق «بكة»، تعجبت حينها من شراء (عمرو) لها، ولكن يبدو أن نجاتي اليوم متعلقة بها، وتمنيت من قلبي ألا يكون (عمرو) قد ذبحها!

قال أبناء (عزرا):

- إنهم يبالغون في القصاص أيها الكاهن! لا توجد بقرة كهذه في برية «سين» كلها!

قال الكاهن لـ(شهبور):

- هل أنت قادر على ذلك أيها الخادم؟

قال (شهبور):

- نعم يا سيدي.

قال (هارون):

- حسنًا! اذهب أيها الخادم فأتِ بها قبل أن ينقضي الأربعون يومًا على وفاة القتيل!

قال (شهبور):

ـ بل آتيكم بها قبلها ذلك أيها الكاهن.

أشار الكاهن (هارون) إلى أبناء (عزرا) وقال:

ـ انصرفوا.

ثم أشار إليَّ أنا و(عامير) وقال للحراس:

ـ ضعوا هذين في محبسهما واعزلوا بينهما

فتمتمت وأنا أسير بجوار (عامير) بالحمد وقلت:

ـ ألم أقل لك إن الرب لن يضيعنا؟!

• • •

مكثت في محبسي في الخيمة أيامًا، أنتظر عودة (أشهير)، فصل (يوشع) بيني وبين (عامير) ووضع كلًا منا في محبس، ورغم ذلك لم أشعر بالجزع، فقد كان أكثر شيء آلمني في تلك الأيام هو العزلة، وضعت (أروى) طفلنا الثاني بعد أيام من تلك الحادثة، مكثت أمي إلى جوارها بينما أحضرت (باتيا) الطفل في قماط من القماش، وأتت به إلى محبسي، أذن لها الحارس بالدخول، بعد أن تذكرها، فقد كانت هي من علّمت ابنه القراءة والكتابة، بكيت في فرح حين رأيت الطفل وقلت لـ(باتيا):

ـ صدقت (أم السعد) في نبوءتها وأنجبت (أروى) ذكرًا.

قالت (باتيا):

ـ تريد (أروى) أن تسميه (إبرام)!

قلت لها:

ـ بل أسميه (إسماعيل)!

نظرت إليَّ متشككة وقالت:

ـ (إبرام) و(إسماعيل)؟ أتريد أن تثير بني إسرائيل أكثر؟!

قلت:

- لا يوجد أكثر مما حدث! كيف حال (أروى)؟

قالت:

- بخير

قلت لها باسمًا:

- قولي لها أن تبرأ سريعًا، فأنا أريد أن أنجب اثني عشر طفلًا!

قالت في عجل:

- أصابك المس بالحمى!

قلت ضاحكًا:

- بل أصابني بالعقل! هل رأيت (عاصم)؟

قالت في حزن:

- نعم! لا يزال يشعر بالانكسار أمامي!

قلت:

- إذا نجونا من تلك المحنة فسنعود إلى «رسة».

قالت سعيدة:

- حقًا! ليتك طاوعتني من قبل!

قلت:

- أخطأت التقدير وكنت أنت المحقة!

قالت:

- وأمي (روسانا)؟!

قلت:

- لن أتركها، وأظنها لن تتمسك بالبقاء بعد الآن!

قالت:

- وبيت الرب؟

قلت:

- الرب يحيا في قلبي.

قالت:

- ونبي الله (موسى)؟ والشريعة؟

قلت:

- سأروي وصاياه وأعلمها لأولادي.

قالت:

- والأرض المقدسة.. وحلم أبي!

قلت:

- كل أرض تخلو من الشرور هي أرض الرب!

قالت وهي تربت على كتفي:

- هل تلك المحنة تكفي؟!

قلت:

- لم أعد تائها، أصبحت أختار طريقي!

قبل أن تنصرف ناديتها قائلاً:

- أحضري لي دواتي وقلمي وأوراقي، فأنا أشتاق للكتابة!

* * *

انطلقت الأبواق في النزل في وقت غير وقت الارتحال، فعلم الناس أن أمراً جللاً سيقع، دخل الحارس الذي رافقني طيلة الأيام الماضية ونشأت بيني وبينه صداقة ومودة ثم قال لي فرحاً:

- لقد عاد (شهبور) يا (شمعون)، عاد ومعه البقرة الصفراء!

أسرعت إلى باب الخيمة ونظرت منها نحو الجبل الذي يطل على الوادي، رأيت القافلة الصغيرة القادمة من «وسقة» تهبط من فوق الجبل وتقترب من ساحة النزل وفي وسطها تسير بقرة صفراء يتلألأ جسدها في ضوء الشمس، شهقت حين رأيت القافلة يتقدمها ثلاث نوق عليها (شهبور)

و(عمرو بن ضوحة) و(ليث بن ثابت)، بكيت وأنا أرى أصدقاء العصر قد هبّوا لنجدتي حين علموا بالمحنة التي لحقت بي، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أهرول نحوهم بعدما أناخوا رحالهم في ساحة النزل، نادى على الحارس، فلم ألتفت إليه. التقينا أنا و(عمرو) و(ليث) و(شهبور) في عناق باكٍ وسط دهشة الجموع التي ملأت الساحة من بني إسرائيل، نفخ حارس خيمة الاجتماع في البوق مرة أخرى، فخرج النبي (موسى) والكاهن (هارون) و(يوشع بن نون) من الخيمة، وصمت الجميع احترامًا لهم، حمل بعض الرجال صندوقًا من الخشب به رأس القتيل وجثته التي فاحت منها رائحة نتنة لم تستطع أن تخفيها رائحة الصندل والبخور ثم وضعوا الصندوق في منتصف الساحة، نادى (يوشع) على أولياء الدم فوقفوا من يمين الساحة، ثم نادى علي وعلى (عامير) فوقفنا عن يسارها.

أشار الكاهن (هارون) إلى (شهبور) وخدام المعبد كي يصعدوا بالبقرة إلى المذبح، طاوعت البقرة صاحبها وكأنها تعلم أنها قد جاءت لأجل تلك المهمة فحسب، وعلا بعض الهمس من حولي، فطرقت أذني عبارات منه. قال أحد الحراس لزميل له:

- أليست هذه هي بقرة المصريين المقدسة؟!

قال الرجل:

- بلى، لا أدري كيف أتوا بها إلى هنا وكيف يجرؤون على ذبحها؟!

وقفت البقرة شامخة فوق المذبح تتطلع في هدوء إلى بني إسرائيل الذين خفقت قلوبهم في رعب، بينما وقف إلى جوارها (شهبور) وهو يحمل في يده سكينًا عظيمة.

قال (موسى):

- يا بني إسرائيل، ما قولكم في هذه البقرة؟

جاء صوت مرتجف من بين الجموع يقول:

ـ تلك هي بقرة المصريين المقدسة!

قال (موسى):

ـ بل هي البقرة التي سجد آباؤكم لمثالها في يوم من الأيام، أليس كذلك؟

لم ينطق أحد.. فأردف متهكمًا:

ـ ما لي أرى قلوبكم لا تزال تخفق هلعًا! أتظنون أنها تضر أو تنفع؟

لم يجرؤ أحد على الرد، وإن أفصحت العيون بخوفهم منها.

صمت ثم قال في أسف وهو ينظر إلى الرؤوس المنكسة:

ـ أتدرون لماذا لم يرفع الرب التيه عنكم؟

تعلقت العيون به.. فتابع:

ـ لأن العجل لم يرحل من قلوبكم!

ثم أردف:

ـ ولكنه اليوم قد آن له أن يرحل!

ثم صاح في الخدام:

ـ اذبحوا البقرة، وقدموها قربانًا للرب حتى يعلم بنو إسرائيل أن الرب إله بني إسرائيل هو من يأتي بالمعجزات.

ولم يضيع (شهيون) لحظة.. قال بصوت عالٍ:

ـ تقدس اسمك يا ربنا في الأرض والسماء.

ثم مرّ بسكينه على رقبة البقرة فانبجس منها الدم فوق المذبح، وسقطت البقرة على جانبها في استسلام وهي تصدر خوارًا ذكّرهم بخوار عجل (السامري).

أشار (موسى) إلى (شهيون) كي يفصل ذيل البقرة، ففصله، ثم التفت إلى بني (عزرا) وقال:

ـ أما أنتم يا أولياء الدم، يا من تطلبون القصاص، فلتعلموا أن الرب لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه قادر على أن يحيي الموتى.

ثم قال للابن الأكبر:

- اضربه بذيلها.

أمسك الرجل بالقتيل وهو يرتجف.. تقدم نحو جثة خاله ثم ضربها بذيل البقرة، فإذا بالجسد ينتفض، وإذا به يجلس في صندوقه الخشبي وكأنما بُعث بعد موته.

صرخ الناس في رعب، وأغشي على أعور العين من الخوف.

تقدم الكاهن (هارون) من القتيل وسأله:

- من قتلك أيها الرجل؟

خفقت القلوب الآثمة، وارتعدت الفرائص الآثمة، فقد كانت على يقين بأن الرب ما أجرى تلك المعجزة إلا ليفضحها.. أشار الرجل القتيل إلى أبناء (عزرا) وقال:

- طعنني هذا، ثم أجهز عليَّ هذا، ثم قطع رأسي هذا!

ثم سقط الرجل ميتًا مرة أخرى.

جثا الناس على الأرض ونكسوا رءوسهم أمام معجزة الرب، بينما صرخ أبناء (عزرا) في رعب، وقالوا:

- الرحمة أيها النبي، الرحمة أيها الكاهن، ادعوا الرب أن يغفر لنا!

ولكن (موسى) أشار إلى (يوشع) وقال:

- اقتلوا هؤلاء قصاصًا لفعلتهم، وليعلم بنو إسرائيل منذ اليوم أنه من قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا.

• • •

الورقة الثامنة والستون

اليوم سأترك بني إسرائيل، ولكني أعرف وحتى هذه المرة لن أخرج بحلمي ولن أخرج وحيدًا هاربًا كما خرجت في أول مرة، بل سأخرج آمنًا مطمئنًا في وضح النهار ومعي أهلي وكل أحمالي. فككت أسري من كل الأغلال التي كبلتني بها بنو إسرائيل، ووضعت عن كاهلي حلمًا حملته أبي من قبل وكاد أن يسحقني وراءه، أدركت أن السعادة في تحقيق الغايات وليس تحقيق الأحلام، فالحلم ما هو إلا وسيلة للوصول إلى الغاية! حلم أبي من أجل الوصول إلى الأرض المقدسة، ولكنه لم يسأل نفسه وماذا بعد؟ ماذا لو بلغ الأرض التي حلم بها، ولم يجد السلام الذي ينشده؟! الحب والسلام لا ينبتان من الأرض وحدها! ولكن يزرعهما الإنسان ويرعاهما حتى يثمرا، وتلك القلوب التي أراها بين بني إسرائيل لا تملك بذور الخير حتى تزرعه.. قلت لأمي: لن أنتظر أربعين عامًا لأحقق غايتي، فغايتي أعرفها وسأحققها وحدي، سأنشر السلام والخير في كل أرض أحط بها، وسأدعو الناس إلى عبادة الرب الواحد وسأعلم أبنائي وصايا النبي الأعظم، الذي تحمّل في حياته ما لم يتحمله بشر!

صليت آخر صلاة لي في خيمة الاجتماع، إلى جوار (شهيور)، وبعد أن فرغنا من الصلاة احتضنني طويلًا، ثم بكى قائلًا:

- أهذه نهاية الرفقة؟

قلت له:

- الغاية واحدة ولكن الطريق المختلف!

قال:

- ألا تخشى من أن تسير في الطريق وحدك؟

قلت:

- لم أعد وحدي؛ معي كل ما أحتاج إليه في الدنيا!

قال:

- سأشتاق إليك!

قلت:

- وأنا أيضًا.. لن أكف عن تتبع أخباركم.

ثم أشرت إلى صندوق يجثم إلى جواري وقلت:

- أريد أن أعطيك شيئًا.

قال:

- ما هذا؟

قلت له:

- هذه أوراقي، اجعلها معك، فتلك شهادتي على بني إسرائيل.

نظر إليّ في دهشة، ثم قال في جزع:

- أذلك فراق بلا رجعة يا (شمعون)؟!

قلت له:

- كلا، ولكن احفظها معك حتى تدخلوا الأرض المقدسة!

قال:

- وبعد ذلك؟!

قلت وأنا أمسح دمعة فرَّت من عيني:

- ادفنها في ثراها؟ فيكفيني أن تكون ذكرى (بني زحلزي) حاضرة في الأرض المقدسة، حتى وإن لم يدخلوها!

* * *



تتمة أوراق (شمعون المصري)

كتبها (زخاري بن شمعون بن راوين)

في الشهر الثامن لسنة ستين بعد الخروج.

وصلت القافلة الصغيرة القادمة من (مرشة) إلى جبل (أبوه)، أناخ أخي (إسماعيل) الناقة ثم جذب يد أبي حتى يعاونه على النزول، استند أبي إلى عصاه ووقف يتطلع إلى الجبل الأحمر الذي انتشرت فوقه خيام بني إسرائيل، ثم نادى عليّ قائلاً:

- (زخاري)؟!

قلت له:

- نعم يا أبتاه!

قال:

- تعالَ لأستند إليك!

استند إلى كتفي بيد واتكأ بالأخرى على عصاه كعادته التي يداوم عليها أثناء سيره حتى يشعر بقوتي منه. أسرع أخي (إسماعيل) ليخبر باقي إخوتي بوصولنا، حين اقتربنا من خيمة الاجتماع رأينا أخي الأكبر (إبرام) يهرول تجاهنا فرحًا ومعه باقي إخوتي، انحنى (إبرام) ليقبّل يد أبي، وهو يقول:

- حمدًا للرب على الوصول سالمًا يا أبتاه!

ثم تبعه إخوتي الواحد يتبع الآخر:

نظر أبي إليهم معاتبًا، ثم قال لأخي الأكبر:

- ألم أقل لكم لا تجتمعوا في مكان واحد يا (إبرام)؟!

قال (إبرام) معتذرًا:

- جمعنا نبي الله (موسى) ليلقي وصيته على شعب إسرائيل!

جاء صوت من خلفنا يقول:

- أتخشى الحسد على أبنائك منا يا (شمعون)؟!

التفت لأحد شيخًا طاعنًا في السن يقف متكئًا على عصاه وقد امتدت لحيته البيضاء حتى دنت من ركبته، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة.

العجيب أن أبي قد ميز الصوت قبل أن يستدير إليه، ابتسم وهو يستدير في بطء، ثم قال:

- يا الله! (شهيرو) العجوز لا يزال حيًا.

ضحك خادم الخيمة وقال:

- عجوز! انظر إلى نفسك أيها الشيخ الهرم.

ثم خطا في سرعة لا تتناسب مع عمره واحتضن أبي في قوة وهو يقول:

- مرحبًا بك يا (أبا إبرام).

تشابك مرفقاهما وساروا جنبًا إلى جنب، قال الشيخ:

- يئست من أن أراك ثانيًا! كم من مرة أرسلت إليك رسولًا كي تعود وكنت تأبى!

قال أبي في حزن:

- لم أستطع فراق أرض بها رفات (أروى)!

قال الشيخ:

- رحمة الله عليها! كانت زوجة صالحة وأحسنت تربية أبنائها!

ثم أشار إلى إخوتي الذين ساروا خلفنا وقال:

- حفظ الله أبناءك يا (شمعون)، قد أكثر الله في نسلك وبارك لك فيه! ورزقك اثني عشر ابنًا مثل (إسماعيل) و(يعقوب).

قال أبي:

- وهذا هو (زخاري)، أصغر أبنائي وأحبهم إلى قلبي.. ثم همس في حزن:

- ماتت (أروى) وهي تنجبه.

مسح الشيخ (شهيور) على رأسي في رفق، وقال:

- أهذا السبب لا تفارقه؟!

قال أبي:

- ربما

لمح الشيخ (شهيور) لفافة رق تتدلى من نطاقي، أمسك بها وفحصها وقال في دهشة:

- إنه يهوى الكتابة مثلك!

قال أبي:

- نعم

ابتسم الشيخ (شهيور) ثم ربت على كتفي وقال:

- ما زلت أحتفظ بأسئلة أعطاها لي أبوك منذ أكثر من ثلاثين عامًا

قلت مشدوهًا:

- حقًا!

قال:

- نعم، وفي المساء سنجلس سويًا وأخبرك بالكثير من الحكايات عنها.

سأله أبي في شوق:

- كيف حال نبي الله؟

قال في أسف:

- ليس بخير، اشتد به الحزن بعد وفاة (مريم) و(هارون). وجاءه ملاك الرب أمس!

ثم تقدم نحوه وهمس قائلًا:

- أراه الرب الأرض المقدسة من فوق الجبل الأحمر أمس، وبعدها أخبره ملاك الرب بأنه لن يدخلها!

رأيت الألم على وجه أبي الذي صمت طويلًا ثم قال:

- أريد أن أراه! هل هو في خيمة الاجتماع؟

قال الشيخ (شمعون):

- كلا! ألقى وصيته الأخيرة على الشعب ثم صعد إلى الجبل مع (يوشع) بن نون، وسيمكث هناك في الغار في انتظار ما يأمر به السيد الرب.

تنهد أبي في حزن وقال:

- يبدو أن نهاية الرحلة قد أوشكت!

هزّ (شمعون) رأسه ثم قال في أسف:

ثم قال مغيرًا الحديث:

- هيا يا (شمعون)! فلعلك تشتاق إلى المثوى.

قال (شمعون):

- بل أشتاق إلى صلاة معك في خيمة الاجتماع!

* * *

ارتفع صوت البوق ورأيت حركة دائبة عند خيمة الاجتماع، توافد الناس أمام الساحة الواسعة، ثم وقف رجل فارع الطول، أشيب الشعر يرتدي زي الفرسان، وتبدو عليه علامات القوة رغم سنوات عمره التي تفوق عمر أبي بكثير، وعلمت من أبي أن اسمه (يوشع بن نون)، كان (يوشع) يقف أمام خيمة الاجتماع، وخلفه يقف عدد كبير من الكهنة وخدام المعبد يبكون وكان من بينهم الشيخ العجوز (شهبور)، تحدث (يوشع) في حزن وقال:

ـ لقد مات نبي الله!

ارتفع صراخ الناس، حتى شعرت بالأرض ترتجف تحتي ورأيت أبي يترنح وقد خارت ساقاه، فاستند إلى كتفي وقال:

ـ أجلسني على الأرض يا (زخاري).

أجلسته وأنا أبعد عنه دهسات الناس الغافلة التي كانت تتساقط باكية، وهي لا تصدق أنها ستفارق معلمها ومربيها إلى الأبد.

قال أحد الشبان:

ـ نريد أن نلقي النظرة الأخيرة على معلمنا أيها القائد.

قال (يوشع):

ـ لقد أمرنا بألا يعرف مكان قبره أحد، وألا يوضع على قبره شاهد!

قال شاب آخر وهو يبكي في حرقة:

ـ لماذا تركنا وحدنا بعد أن اقتربت الرحلة من نهايتها؟

قال (يوشع):

ـ هكذا أراد السيد الرب! أن تقوموا أنتم يا تلاميذ (موسى) بما لم يقم به آباؤكم! أن تدخلوا الأرض المقدسة، فتعملوا بها بوصية آبائكم (إبراهيم) و(إسماعيل) و(إسحاق) و(يعقوب)، أن تحفظوا الناموس كما أتاكم به (موسى)، وأن تنشروا السلام وعبادة الرب الواحد الأحد في كل الممالك، تلك هي الغاية،

وتلك هي الوصية يا بني إسرائيل.

ثم قال:

ـ غدًا يتحرك الركب فتعبرون نهر الأردن، وتنقشون وصاياه على حجر نقشًا جميلًا، ثم تصعدون إلى الأرض المقدسة.

وبعد أن انصرف الناس قال أبي:

ـ خُذْنِي إلى الجبل الأحمر يا (زخاري).

قلت له:

ـ لماذا يا أبي؟ لا يوجد أحد هناك!

قال:

ـ سأمكث في الغار الذي مكث فيه (موسى) حتى يحين موعد الرحيل!

* * *

رددت جنبات الوادي أصوات الأبواق التي انطلقت من خيمة الاجتماع فوق جبل «نبو»، تدعو الناس لاستئناف الرحيل، تحركت جموع الشعب لتقطع الشوط الأخير في الرحلة إلى الأرض المقدسة، الرحلة التي استغرقت ما يقرب من خمسين عامًا ولم يتبقَّ منها سوى بضعة أيام يعبرون بعدها النهر إلى أرض الميعاد، حمل زعيم كل سبط من الأسباط رايته وساروا في ترتيبهم المعهود، تقدم بنو «هارون» الركب يحملون تابوت العهد على الأكتاف وينفخون الأبواق بين الفينة والفينة، وقد انسل من ورائهم مئات الألوف من شعب بني إسرائيل، يثيرون خلفهم سحابة من الرمال هي كل ما تبقى من ذكريات عاشوها فوق جبل الأحزان، اختلط حنين النوق وخوار الأبقار ببكاء الرجال والنساء، فلأول مرة يتحرك الركب بدون المعلم والمخلص، بعد أن مات نبي الله (موسى).

ذابت سحابة الرمال تحت طيات الغمام المتراكبة أسفل السفح، وتبددت أصوات الجموع أمام صفير الرياح المتسارعة فوق الجبل الموحش، ولم تمضِ

دقائق حتى مالت الشمس إلى الغروب، توكأ على عصاه ثم قام من جلسته واتجه إلى باب الغار الذي آوى إليه طوال الأيام الماضية، سار في وهن بظهرٍ أحنته السنون إلى خارج الغار، حاملًا بيديه المعرقتين كومة من الحطب، أردت أن أساعده في حملها ولكنه أبي، أشعل كومة الحطب بصعوبة، ثم جلس يستضيء بنورها ويستدفئ بنارها، امتدت يده إلى صُرَّة من القماش، فتحها ليخرج منها أنيسيه في عمره الذي مضى: الدواة والقلم.. تناول لفائفه المصنوعة من أوراق البردي بجهد يشي بحجمها الضخم، تحسستْ يداه السجل الذي أفنى عقودًا من عمره في كتابته في حنان، ثم فتحه برفق على صفحته الأخيرة، غمس قلمه في الدواة وشرع يكتب بيد أرعشتها سنوات العمر وبرودة الجو:

ـ «وبعد، فهذا ختام ما كتبه (شمعون بن زخاري)، والملقب بـ(شمعون المصري)، عن أخبار بني إسرائيل في أرض «سين»، وما كان من أمرهم منذ عبور البحر وحتى وفاة نبي الله (موسى بن عمران)، وأعلم أني ما كتبت في هذا الرقاع إلا أحد أمرين؛ أمرٍ شهدته بعيني أو أمرٍ سمعته من رجل من الرجال الثقات، وأشهد الرب (إيل) أني ما بغيت بهذا الكتاب مجدًا ولا شرفًا، وإنما إظهار شهادتي على جيل من شعب بني إسرائيل، اصطفاه الله وأنجاه بمعجزة من عدوه، ثم غضب عليه وأهلكه في تلك البرية القفراء بعد أن أذاقه شقاء الارتحال ومرارة التيه.. هذا كتاب لا أدري من سيكون قارئه، فأيًا من تكون أرجو أن تتذكر كاتب هذه الأبواب بالرحمة وأن تدعو له بالغفران».

ثم ذيلها باسمه: (شمعون بن زخاري بن رأوبين) الملقب بـ(شمعون المصري)، طوى السجل وهو يلهث، وكأنما أرهقته الكتابة، ثم أعطاه لي وقال:

ـ احفظ هذا يا (زخاري)، وانقله لأبنائك واجعلهم يورثونه لأبنائهم جيلًا بعد جيل!

قلت له:

ـ أمرك يا أبي! ثم قلت وقد شعرت ببرودة الجو تزداد.

ـ ألن نلحق ببني إسرائيل أسفل الجبل.. لقد أطبق الليل؟

قال:

ـ نلحق بهم في الصباح، فلن يسيروا بليل!

ثم تنهد قائلًا:

ـ أريد أن أقضي ليلة أخيرة في غار به ريح (موسى).

ثم تمدد فوق الحصير على الأرض، فدثرته بغطاء من وبر الإبل. جذبني إليه ثم قبّلني في رأسي وهو يقول باسمًا:

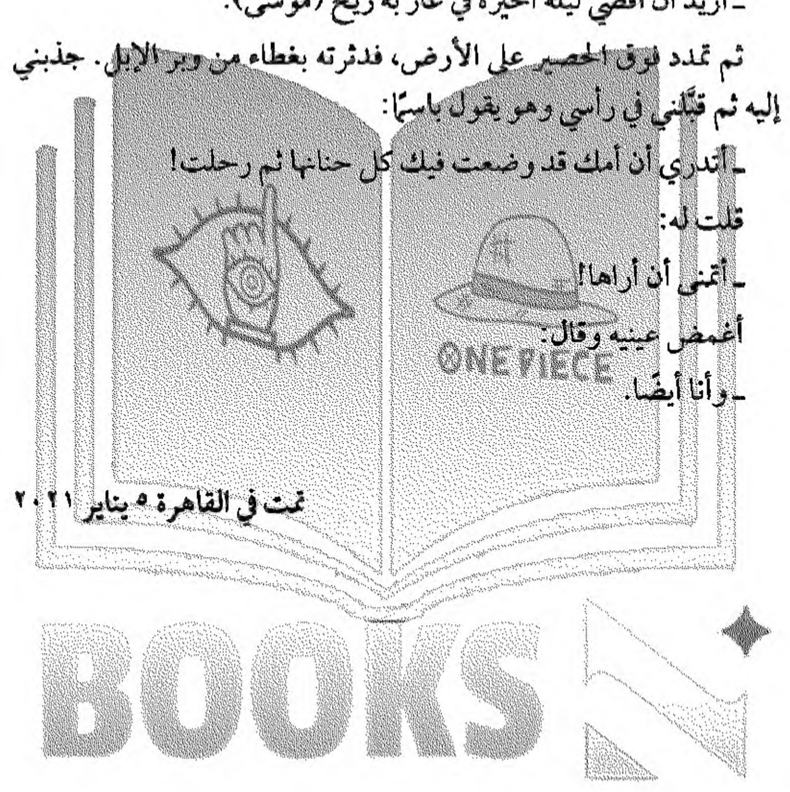
ـ أتدري أن أمك قد وضعت فيك كل حنانها ثم رحلت!

قلت له:

ـ أتمنى أن أراها!

أغمض عينيه وقال:

ـ وأنا أيضًا.



تمت في القاهرة ٥ يناير ٢٠٢١